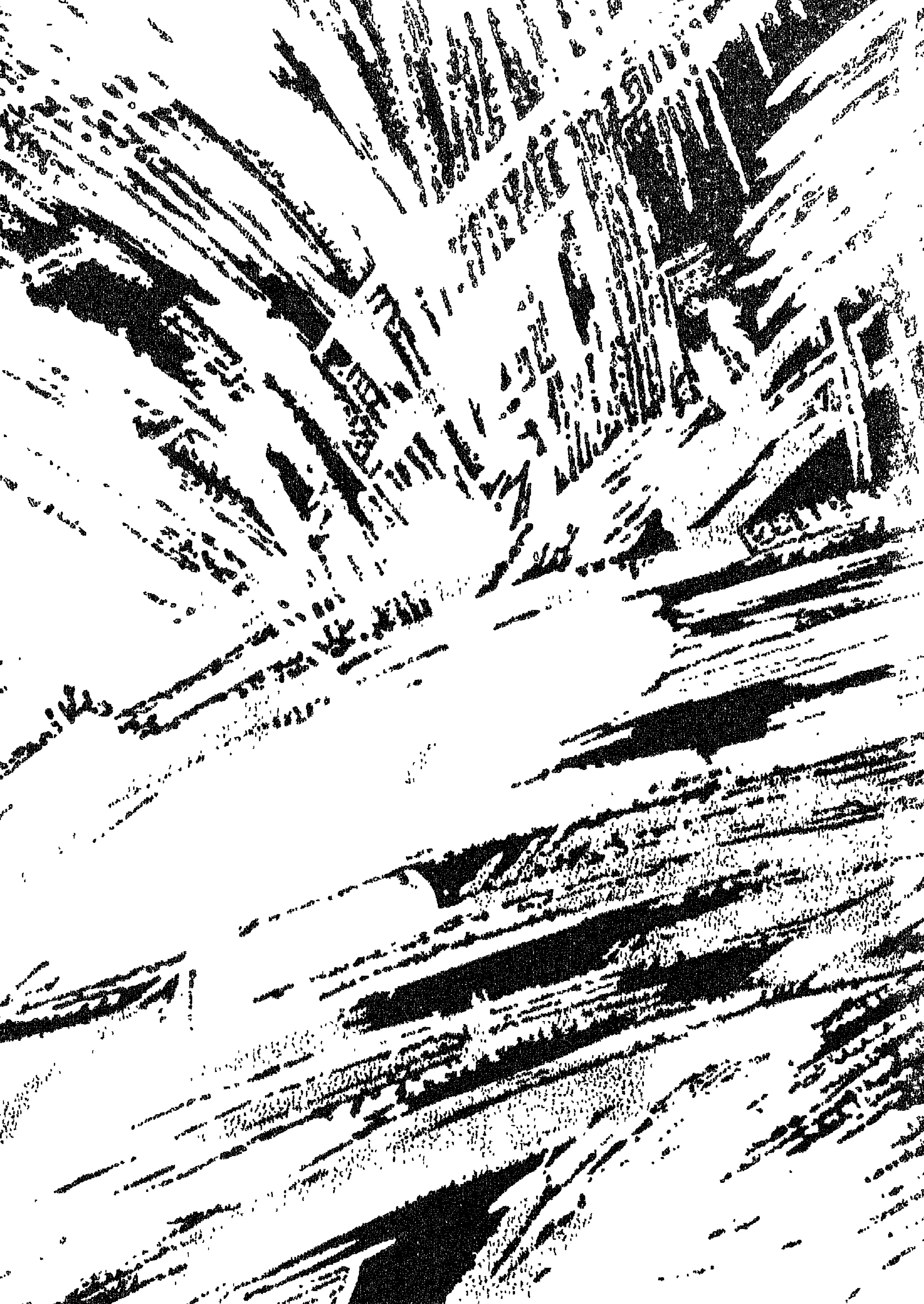
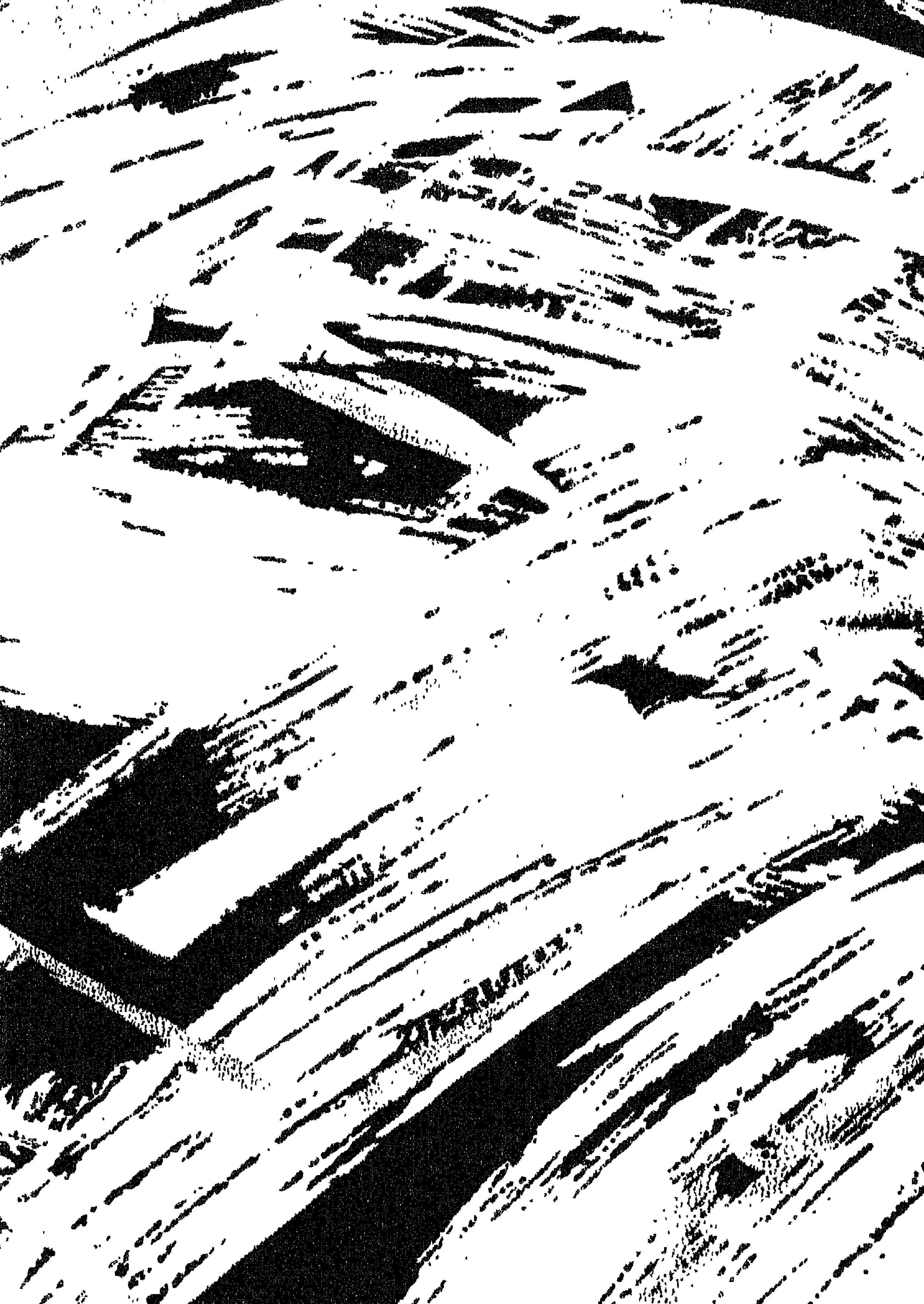




ذخائر العرب

٥٦

إيقاظ الهمم في شرح الحكم

تأليف

العارف بالله أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني

تقديم ومراجعة

محمد أحمد حسب الله



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

إهداء

كتابي حبيب العمر ما كان ودّه
لغيري ولا أصغي لقولة عائب
لروحك أهديه فقدماً تعاهدت
على الودّ روحانا وأسمى المطالب

محمد أحمد حسب الله

مقدمة

الحمد لله الذى لاتدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ، تفرد بالجلال والكمال ، وعز بعلو وحدانيته ، وتنزه عن النظير ، وهو السميع البصير . والصلاة والسلام على البشير النذير ، سيدنا محمد بن عبد الله الذى أرسله الله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وتركنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، وعلى آله وصحبه مصابيح الدجى وكواكب الأبراج ، ورضى الله عنهم أجمعين ، وجعلنا فى زمرتهم يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وبعد - ففى هذا العصر الذى أخذت فيه الأرض زخرفها ، وازينت بالعناصر المادية ، وقامت فيها الحضارة الأوربية على المنهج الحسى المادى ، لاتكاد تعترف بغيره ، مازال فى البيئات الإسلامية - ولله الحمد - طوائف من أصحاب الفطر السليمة ، الذين يحبون من صميم قلوبهم أن تسلك الإنسانية طريقًا رحبًا إلى الخير ، ويضربون بأسهم متعددة فى عالم الروح ، عالم الإيثار والإخاء ، عالم المعرفة الحقة ، القائمة على أساس من صفاء الروح وطهارة القلب ونقاء السريرة ، والإخلاص لله الواحد القهار .

وهذا العالم المثالى تنبع أصوله من وحى السماء ، ويسير أفرادًا وجماعات إلى تحقيق المنهج الإلـٰهى والمبادئ الإلـٰهية .

وقد سلك هذا المسلك كثير من أعلام الصوفية ، فكانوا مصابيح يقتدى بهم ، ويُسار على مارسموا ، وقد مثلوا ذلك واقعًا فى حياتهم ، فكانت حياتهم منهجًا وموضوعًا تتمثل فيه التربية الإلـٰهية وهدى الرسول الكريم ، ﷺ ،فيما عظم من الأمور ، وفيما هو سهل ميسور ، وهم يحاولون جهدهم أن يكونوا ورثة الأنبياء علمًا وسلوكًا ومقامات .

ومن هؤلاء الأفراد الأعلام ، القطب العظيم ، العارف بالله ، القدوة المحقق ، تاج العارفين ، ولسان المتكلمين ، حجة السلف وإمام الخلف ،

تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندرى ، رضى الله عنه وأرضاه ، ونفعنا به ، ونفع به المسلمين كافة آمين ، إنه سميع مجيب الدعاء .

هذا الإمام الكبير نشأ فى الإسكندرية ، وبها تلقى ثقافته الأولى ، وكان مالكى المذهب . ويذكر بعض من عاشروه أنه كان يحسن النظر فى مذهبى الإمامين مالك والشافعى .

وتاريخ ابن عطاء الله يتصل اتصالاً وثيقًا بتاريخ الحركة الفكرية وتاريخ التصوف فى مصر فى القرنين السادس والسابع الهجريين ، فقد ولد فى سنة (٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م) وتوفى فى جمادى الآخرة سنة (٧٠٩ هـ - ١٣٠٩ م) وابن عطاء نموذج وحده بين المتصوفة ، فقد جمع علوم الظاهر وعلم الحقيقة ، وبرز فيها جميعًا .

ولما استكمل علوم الظاهر كان ينكر على المتصوفين طريقتهم وعلومهم ، وما إن أتيحت له الفرصة وتعرف على القطب الربانى أبى العباس المرسى ، حتى اهتدى بهديهم وآمن بطريقتهم ، واعترف بعلومهم ، بل صار التلميذ المفضل لأبى العباس المرسى . ثم ساعدته العناية فصار واحدًا من كبار المتصوفين ، ومن المشار إليهم بالبنان .

ويذكر ابن عطاء قصة تعرفه بأبى العباس ، فيقول كما جاء فى كتابه « لطائف المنن » :

كنت لأمره - أى أبى العباس - من المنكرين ، وعليه من المعترضين ، لا لشىء سمعته منه ، ولا لشىء صح نقله عنه ، حتى جرت بينى وبين بعض أصحابه مقاولة ، وذلك قبل صحبتى إياه ، وقلت لرجل منهم ، ليس إلا أهل العلم بالظاهر ، وهؤلاء القوم يدعون أمورًا عظيمة ، ظاهر الشرع يأباها ، ثم قلت فى نفسى ، دعنى أذهب إلى هذا الرجل وأنظر فى شأنه فصاحب الحق له أمارات لاتخفى ، فأتيت مجلسه فوجدته يتكلم فى الأنفاس التى أمر الشارع بها فقال :

« الأول إسلام ، والثانى إيمان ، والثالث إحسان .

وإن شئت قلت الأول عبادة ، والثانى عبوذية ، والثالث عبودة .

وإن شئت قلت : الأول شريعة ، والثانى حقيقة ، والثالث تحقق .

فمازال يقول : وإن شئت قلت ، وإن شئت قلت ، إلى أن بهر عقلى ، وعلمت أن الرجل إنما يغترف من فيض بحر إلهى ومدد ربانى ، فأذهب الله ماكان عندى » .

ويستطرد ابن عطاء الله فى قصته مع الشيخ أبى العباس فيقول :

« ثم أتيت إلى المنزل فوجدت معنى غريبًا لا أدرى ماهو ، فانفردت فى مكان أنظر إلى السماء وإلى كواكبها وماخلق الله فيها من عجائب قدرته ، فحملنى ذلك على العودة إليه مرة أخرى .

فأتيته فاستؤذن لى عليه ، فلما دخلت عليه قام قائمًا . وتلقانى ببشاشة وإقبال ، حتى دهشت خجلًا ، واستصغرت نفسى أن أكون أهلًا لذلك ، فكان أول ماقلت له : ياسيدى أنا والله أحبك ، فقال أحبك الله كما أحببتنى .

ثم شكوت إليه ماأجده من هموم وأحزان فقال :

« أحوال العبد أربع لا خامس لها : النعمة ، والبلية ، والطاعة ، والمعصية .

فإن كنت بالنعمة فمقتضى الحق منك الشكر ، وإن كنت بالبلية فمقتضى الحق منك الصبر ، وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك الاستغفار ، وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود مننه عليك فيها » .

فقمت من عنده وكأنما كانت الهموم والأحزان ثوبًا نزعته . ثم سألنى بعد ذلك بمدة ، كيف حالك ؟ فقلت : أفتش عن الهم فما أجده ، فقال : الزم ، فوالله إن لزمت لتكونن فقيها فى المذهبين ، يريد مذهب أهل الشريعة من أصحاب العلوم الظاهرة ومذهب أهل الحقيقة من أصحاب علوم الباطن » .

وهذا الحديث هو الذى رفع عن عينى ابن عطاء الله الغشاوة ، وعلمه أن طريق القوم طويل وذو مراحل يسميها المتصوفون « درجات السلوك » ، وأول هذه الدرجات – كما كان يشرح أبو العباس – الإسلام ، وهو الطاعة والانقياد والقيام بفروض الشريعة ، ثانيها الإيمان ، وهو مقام معرفة حقيقة الشرع بمعرفة لوازم العبودية ومقتضيات الربوبية ، ثالثها الإحسان ، وهو مقام شهود الحق تعالى بالقلب .

أدرك ابن عطاء الله أن لكل سالك درجة ، وبقدر مايرقى السالك فى هذا

الطريق بقدر مايحصل له من السعادة التى تنشأ عن معرفة الله سبحانه وتعالى والفناء فى حبه .

وكان لهذا أثره فى حياة ابن عطاء الله وفكره وإنتاجه .

وبعد وفاة أبى العباس انتقلت إليه زعامة الطريقة الشاذلية ، وجلس مجلس أستاذه يلقى المواعظ ، ويفسر القرآن تفسيرًا صوفيًا ، وانتقل إلى القاهرة ، واتخذ مجلسًا فى الأزهر يلقى فيه الدروس ، ويشرح آداب التصوف وتعاليمه .

وابن عطاء الله إلى جانب هذا أديب حلو الحديث ، مشرق العبارة . ولهذا كان لدروسه أثر كبير فى النفوس ، وقد أجمع المؤرخون له على وصف أسلوبه بالحلاوة وسحر التأثير والجلالة ، ويبدو ذلك واضحًا فى كتابه المشهور الذى بين أيدينا « الحكم العطائية » .

ولما سمع به السلطان حسام الدين لاجين شاقه أن يراه ويستمع إليه ، فاستدعاه إليه .

ويروى ابن عطاء خبر هذه المقابلة ، وطرفًا من المواعظ التى ألقاها فى حضرة السلطان قال :

« لما اجتمعت بالسلطان ، الملك لاجين رحمه الله - قلت له :

يجب عليكم الشكر لله ، فإن الله قرن دولتكم بالرخاء وانشرحت قلوب الرعايا بكم ، والرخاء أمر لايستطيع الملوك تكسبه ولا استجلابه كما يتكسبون العدل والجود والعطاء .

قال السلطان : وما الشكر ؟ قلت الشكر على ثلاثة أقسام : شكر باللسان ، وشكر بالأركان ، وشكر بالجنان .

فشكر اللسان التحدث بالنعم ، قال تعالى : (وأما بنعمة ربك فحدث)

وشكر الأركان العمل بطاعة الله تعالى ، قال تعالى : (اعملوا آل داود شكرًا) .

وشكر الجنان الاعتراف بأن الله وحده هو المنعم ، قال تعالى : (ومابكم من نعمة فمن الله) .

فقال السلطان : ومالذى يصير به الشاكر شاكرًا قلت : « إذا كان ذا علم فبالتبيين والإرشاد ، وإذا كان ذا غنى فبالبذل والإيثار للعباد ، وإن كان ذا جاه

فبإظهار العدل فيهم ودفع الإنكار » .

بهذا الأسلوب المشرق الواضح المعبر ، المعتمد على الحكم والمنطق تحدث ابن عطاء الله عن الشكر للسلطان فاستطاع أن ينفذ إلى قلبه ، وأن يستحوذ على إعجابه .

وأسلوب ابن عطاء الله فى الحِكم بلغ الذروة القصوى من الإبداع والتركيز والتحليل ، وشرح آداب الطريقة ، وإن له فيها منهجًا خاصًا ، فهو لايعنى بالمعنى وحده ، ولابالأسلوب وحده ، بل يرى أن للبيان سحرًا خاصًا ، فكان يتخير الألفاظ ذات الجرس الخاص ، والنغم الموسيقى المؤثر ، لذا كان لحكمه سحر مؤثر فى نفوس قارئى الحِكم وسامعيها كما سيتجلى للقارئ فيما سيقرؤه من حكمه فى هذا الكتاب .

استمع إليه وهو يقول فى بعض حكمه :

« كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته ؟
أم كيف يرحل إلى الله وهو قليل بشهواته ؟
أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يُطهر من جنبات غفلاته ؟
أم كيف يرجو أن يفهم الأسرار وهو لم يتب من هفواته ؟ » .

ثم هو كذلك يراعى التدرج فى تفصيل أجزاء الحكمة والحقيقة التى يشرحها .

وإليك هذه الحكمة الأخرى من حكمه :

« كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الذى أظهر كل شىء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الذى ظهر بكل شىء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الذى ظهر فى كل شىء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو أظهر من كل شىء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الواحد ليس معه شىء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو أقرب إليك من كل شىء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شىء ولولاه ماكان وجود شىء ؟ » .

ومما يتميز به ابن عطاء الله من غيره من المتصوفة أنه كان يعتز بهذه المعرفة ، ويخشى أن يحجب عن سلوك طريق القوم والمضى معهم والقربى من شيخه

أبى العباس ، وظل مضطربًا إلى أن أخذ الشيخ بيده ، وطمأنه بأنه يستطيع أن يجمع بين العلمين ، علم الظاهر وعلم التصوف ، ثم قال له الشيخ : والله ليكونن لك شأن عظيم .

قال ابن عطاء الله : فكان من فضل الله سبحانه مالا أنكره ، وهكذا تحققت نبوءة الشيخ ، وأصبح لابن عطاء الصدارة فى العلمين ، وآلت إليه رئاسة الطريقة بعد موت شيخه أبى العباس ، وأصبح له فى الأزهر درس خاص بالتلاميذ والمريدين ، يملى فيه دروسه فى الفقه والتفسير والتصوف وآدابه ، وكان لأسلوبه فى الشرح حلاوة وتأثير على السامعين كما قلت سابقًا .

وتوفى ابن عطاء الله فى القاهرة فى جمادى الآخرة سنة (٧٠٩ هـ - ١٣٠٩ م) ودفن فى القرافة الصغرى ، وقبره معروف حتى اليوم ، تحت جبل المقطم من الجهة الشرقية لجبانة الإمام الليث .

ولابن عطاء الله مؤلفات كثيرة منها :

« التنوير فى إسقاط التدبير »

« مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح »

« تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس »

« الحكم العطائية »

ويقوم كتاب الحكم على دعائم أربع :

- الأولى : علم التذكير والوعظ .
- الثانية : تصفية الأعمال وتصحيح الأحوال .
- الثالثة : تحقيق الأحوال والمقامات .
- الرابعة المعارف والعلوم الإلهية .

ثم ختمه بطائفة من المناجاة للكريم الوهاب و « الحكم العطائية » التى نقدمها اليوم للقراء ، قام بشرحها شرحًا وافيًا العارف بالله : أحمد بن محمد بن عجيبة الحسنى .

وآثرنا نشر هذا الشرح لما فيه من الزاد لكل مسلم ، يجب أن تصفو روحه ، وتسمو إلى الآفاق الروحانية ، فيتخلص من كدر الجسم وظلمته ، ويحظى بنور المعرفة الحقة ، فيصل إلى ماوصل إليه القوم من كمال روحى ، ويحلق معهم فى

الآفاق القدسية إذا تأدب بأدبهم وسلك طريقهم التى رسمها ابن عطاء الله فى حكمه ، وجلاها ابن عجيبة بشرحه وتبيانه ، وأضفى عليها من سمو روحه وجعلها بغزارة علمه ومعرفته بطرائق القوم وإشاراتهم نبراسًا لذوى الألباب .

ولاغرابة فى ذلك ، فابن عجيبة من الواصلين الذين عاشوا حياة الصوفية ، وأدركوا مراميهم عن كثب ، وأفادوا من علمهم الغزير ، وفيوضاتهم الربانية ، فهو ابن بجدتها ، والسابق السابح فى بحار المحبين الغائص على دررهم والمستخرج لكنوزهم ، وقد أودع كل ذلك هذا السفر الجليل الذى سماه « إيقاظ الهمم فى شرح الحكم » .

وإنه بحق درة من درر التصوف ، يهديها ابن عجيبة ونهديها معه ، إلى شباب هذا الجيل المحبين للخير ، والراغبين فى المعرفة النافعة .

عملنا فى هذا الكتاب :

وقد راجعنا هذه النسخة مراجعة دقيقة ، وقوبلت على أكثر من نسخة وأصلحنا مابها من أخطاء وحققنا الآيات القرآنية ، وأشرنا إلى مواضعها فى سورها وأرقامها فى تلك السور .

ثم راجعنا الأحاديث على أصولها ، وقد جهدنا أن يخرج الكتاب فى صورة تروق القارئ ، وتعينه على قراءته فى سهولة ويسر .

ونسأل الله العلى القدير أن ينفع بهذا الشرح الجليل المحبين الصادقين . ويجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم إنه سميع مجيب .

ربيع الأول ١٤٠٤ هـ - ديسمبر ١٩٨٣ م

محمد حسب الله

بسم الله الرحمن الرحيم

(يُؤتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاء ، وَمَنْ يُؤتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(قرآن كريم)

يقول العبد الفقير إلى مولاه الغنى به عما سواه ، أحمد بن محمد بن عجيبة الحسنى ، لطف الله به وحباه :

إن أولى ماعقِد عليه الجَنان ، ونطقَت به ألسنة الفصاحة والبيان ، وخطَّت به أقلام البنان ، حمد الفتّاح العليم الكريم المنّان .

الحمد لله الذى ملأ قلوب أوليائه بمحبته ، واختص أرواحهم بشهود عظمته ، وهيأ أسرارهم لحمل أعباء معرفته ، فقلوبهم فى روضات جناتِ معرفته يحبرون ، وأرواحُهم فى رياض ملكوته يتنزّهون ، وأسرارُهم فى بحار جبروته يسبحون ؛ فاستخرجت أفكارهم يواقيت العلوم ، ونطقت ألسنتهم بجواهر الحِكم ونتائج الفهوم ، فسبحان من اصطفاهم لحضرته ، واختصهم بمحبته ، فهم بين سالك ومجذوب ، ومحب ومحبوب ، أفناهم فى محبة ذاته ، وأبقاهم بشهود آثار صفاته .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد منبع العلوم والأنوار ، ومعدن المعارف والأسرار ، ورضى الله تعالى عن أصحابه الأبرار ، وأهل بيته الأطهار .

أما بعد – كل شىء وقبله ومعه : فعلم التصوف من أجل العلوم قدراً وأعظمها محلاًّ وفخراً ، وأسناها شمسًا وبدرًا ، وكيف لاوهو لُباب الشريعة ، ومنهاج الطريقة ، ومنه تشرق أنوار الحقيقة ، وكان أعظم ماصنّف فيه [الحكم العطائية] التى هى مواهب لدنية وأسرار ربانية ، نطقت بها أفكار قدّوسية ، وأسرار جبروتية ، ولقد سمعت شيخ شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه يقول : سمعت الفقيه البنّانى يقول : كادت حكم ابن عطاء الله أن تكون وحيًا ؛ ولو

كانت الصلاة تجوز بغير القرآن لجازت بكلام الحكم أو كما قال .

ولقد طلب منى شيخنا العارف الواصل المحقق الكامل سيدى محمد البوزيدى الحسنى أن أضع عليها شرحًا متوسطًا يبين المعنى ، ويحقق المبنى ، معتمدًا فى ذلك على حول الله وقوته ، ومايفتح الله به من خزائن علمه وحكمته ، أو ماكان مناسبًا لتلك الحكمة من كلام القوم . فأجبت طَلِبَته ، وأسعفت رغبته ؛ رجاء أن يقع به الإمتاع ، ويعم به الانتفاع .

(وَمَا تَوْفِيقِى إلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإلَيْهِ أُنِيبُ)[1]

وسميته [إيقاظ الهمم فى شرح الحكم] جعله الله خالصًا لوجهه العظيم ، بجاه نبينا المصطفى الكريم ، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

ولنقدم بين يدى الكتاب مقدمتين : إحداهما فى حد التصوف ، وموضوعه ، وواضعه ، واسمه ، واستمداده ، وحكم الشارع فيه ، وتصور مسائله ، وفضيلته ، ونسبته ، وثمرته . والمقدمة الثانية فى ترجمة الشيخ وذكر محاسنه .

تعريفات التصوف :

أما حده : فقال الجنيد :

هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به . وقال أيضًا : أن تكون مع الله بلا علاقة .

وقيل : الدخول فى كل خُلُق سَنِىّ ، والخروج من كل خلق دنىّ .

وقيل : هو أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم مع قوم كرام .

وقيل : ألا تملك شيئًا ولايملكك شىء .

وقيل استرسال النفس مع الله على مايريد .

وقيل التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التدبير والاختيار .

وقيل الأخذ بالحقائق ، والإياس مما فى أيدى الخلائق . وقيل ذِكْرٌ مع

---

(١) هود : ٨٨ .

اجتماع ، ووجد مع استماع ، وعمل مع اتباع .

وقيل الإناخة على باب الحبيب وإن طُرد . وقيل صفوة القرب بعد كدرة البعد . وقيل الجلوس مع الله بلا هَمّ ، وقيل هو العصمة عن رؤية الكون .

والصوفى الصادق : علامته أن يفتقر بعد الغنى ، ويذل بعد العز ، ويَخْفى بعد الشهرة .

وعلامة الصوفى الكاذب : أن يستغنى بعد الفقر ، ويعز بعد الذّل ، ويشتهر بعد الخفاء . قاله أبو حمزة البغدادى :

وقال الحسن بن منصور : الصوفى واحد فى الذات لايقبله أحد ، ولايقبل أحدًا .

وقيل الصوفى كالأرض يطرح عليه كل قبيح ، ولايخرج منه إلا كل مليح ، ويطؤه البر والفاجر .

وقالوا : من أقبح كلِّ قبيح صوفى شحيح . وقال الشّبلى : الصوفى منقطع عن الخلق ، متصل بالحق ، لقوله تعالى : (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى)[1]

ثم قال أيضًا : الصوفية أطفال فى حِجْر الحق .

وقيل الصوفى لاتقله الأرض ولاتظله السماء ، يعنى لايحصره الكون .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : قد حدّ التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين ، ترجع كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى ، وإنما هى وجوه فيه ، والله أعلم . ثم قال : والاختلاف فى الحقيقة الواحدة إن كثر دلّ على بُعد إدراك جملتها ، ثم هو إن رجع لأصل واحد يتضمن جملة ماقيل فيها كانت العبارة عنه بحسب مافهم منه ، وجملة الأقوال واقعة على تفاصيله ، واعتبار كل واحد على حسب مثاله علمًا وعملاً وحالاً وذوقًا وغير ذلك ، والاختلاف فى التصوف من ذلك ، فمن أجل ذلك ألحق الحافظ أبو نعيم ، رحمه الله ، بغالب أهل حليته عند تحلية كل شخص قولا من أقوالهم يناسب حاله قائلا : وقيل إن التصوف كذا ، فاقتضى أن كل من له نصيب من صدق التوجه له نصيبٌ من

---

(١) سورة طه : ٤١ .

التصوف ، وأن تصوف كل أحد صدق توجهه فافهم اهـ .
وقال أيضًا : قاعدة . صدق التوجه مشروط بكونه من حيث يرضاه الحق تعالى وبما يرضاه ، ولايصح مشروط بدون شرطه :
(وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) فلزم تحقيق الإيمان (وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)[1] .

فلزم العمل بالإسلام ، فلا تصوف إلابفقه ، إذ لاتعرف أحكام الله تعالى الظاهرة إلا منه ، ولافِقْه إلا بتصوف ، إذ لا عمل إلا بصدق توجه ، ولا هُمَّا إلا بإيمان ، إذ لايصح واحد منهما بدونه فلزم الجمع ، لتلازمهما فى الحكم كتلازم الأرواح للأجساد ، إذ لا وجود لها إلا فيها كما لا كمال لها : أى للأشباح ، إلا بها .
ومنه قول مالك رحمه الله : « من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسّق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق » .
قلت : تزندق ، الأول ، لأنه قائل بالجبر الموجب لنفى الحكمة والأحكام ، وتفسّق الثانى ، لخلو علمه عن صدق التوجه الحاجز عن معصية الله عن الإخلاص المشروط فى الأعمال ، وتحقق الثالث لقيامه بالحقيقة فى عين تمسكه بالحق، فاعرف ذلك، إذ لاوجود لها إلا فيها، كما لاكمال له إلا به فافهم اهـ.

موضوع التصوف :

هو الذات العلية ، لأنه يبحث عنها باعتبار معرفتها إما بالبرهان ، أو بالشهود والعيان ، فالأول للطالبين ، والثانى للواصلين .
وقيل : موضوعه النفوس والقلوب والأرواح ، لأنه يبحث عن تصفيتها وتهذيبها ، وهو قريب من الأول ، لأن من عرف نفسه عرف ربه .

واضع هذا العلم :

هو النبى ﷺ ، علمه الله له بالوحى والإلهام ، فنزل جبريل عليه السلام

(١) الزمر : ٧ .

أولا بالشريعة ، فلما تقررت نزل ثانيًا بالحقيقة ، فخص بها بعضا دون بعض .

وأول من تكلم فيه وأظهره سيدنا على كرم الله وجهه ، وأخذه عنه الحسن البصرى ؛ وأمه اسمها خيرة مولاة لأم سلمة زوج النبى ﷺ ، وأبوه مولى زيد ابن ثابت . توفى الحسن سنة عشر ومائة . وأخذه عن الحسن حبيب العجمى . وأخذه عن حبيب أبو سليمان داود الطائى . توفى سنة ستين ومائة . وأخذه عن داود أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخى رضى الله عنه . وأخذه عن معروف الكرخى أبو الحسن سرىّ بن مغلس السقطى . توفى سنة إحدى وخمسين ومائة . وأخذه عن السرىّ إمام هذه الطريقة ، ومظهر أعلام الحقيقة أبو القاسم محمد بن الجنيد الخزّاز ، أصله من نهاوند ، ومنشؤه العراق . تفقه على أبى ثور ، وصحب الشافعى ، فكان يفتى على مذهب أبى ثور . ثم صحب خاله السرىّ وأبا الحارث المحاسبى وغيرهما ، وكلامه وحقائقه مدونان فى الكتب . توفى رضى الله عنه سنة سبع وتسعين ومائتين ، وقبره ببغداد مشهور يزار ، ثم انتشر التصوف فى أصحابه وهلم جرّا ، ولاينقطع حتى ينقطع الدين .

ومن رواية أخرى أخذه عن سيدنا على رضى الله عنه . أول الأقطاب سيدنا الحسن ولده ، ثم عنه أبو محمد جابر ، ثم القطب سعيد الغزوانى ، ثم القطب فتح السعود ، ثم القطب سعد ، ثم القطب سعيد ثم القطب سيدى أحمد المروانى ، ثم إبراهيم البصرى ثم زين الدين القزوينى . ثم القطب شمس الدين ، ثم القطب تاج الدين ، ثم القطب نور الدين أبو الحسن ، ثم القطب فخر الدين ، ثم القطب تقى الدين الفُقَيْر بالتصغير فيهما ، ثم القطب سيدى عبد الرحمن المدنى ، ثم القطب الكبير مولاى عبد السلام بن مشيش ، ثم القطب الشهير أبو الحسن الشاذلى ، ثم خليفته أبو العباس المرسى ، ثم العارف الكبير سيدى أحمد بن عطاء الله ، ثم العارف الكبير سيدى داود الباخلى ، ثم العارف سيدى محمد بحر الصفا ، ثم العارف ولده سيدى على بن وفا ، ثم الولى الشهير سيدى يحيى القادرى ، ثم الولى الشهير سيدى أحمد بن عقبة الحضرمى ، ثم الولى الكبير سيدى أحمد زروق ، ثم سيدى إبراهيم أفحام ، ثم سيدى على الصنهاجى المشهور بالدوار ، ثم العارف الكبير سيدى ابن عبد الرحمن المجذوب ، ثم الولى الشهير سيدى يوسف الفاسى ، ثم

العارف سيدى عبد الرحمن الفاسى ، ثم العارف سيدى محمد بن عبد الله ، ثم العارف سيدى قاسم الخصاصى ، ثم العارف سيدى أحمد بن عبد الله ، ثم العارف سيدى العربى ابن عبد الله ، ثم العارف الكبير سيدى على بن عبد الرحمن العمرانى الحسنى ، ثم العارف الشهير شيخ المشايخ سيدى ومولاى العربى الدرقاوى الحسنى ، ثم العارف الكامل المحقق الواصل شيخنا سيدى محمد بن أحمد البوزيدى الحسنى ، ثم عبد ربه وأقلّ عبيده أحمد بن محمد بن عجيبة الحسنى ، ثم عنه خلق كثير والمنة لله العلى الكبير .

اسمه : علم التصوف :

واختُلف فى اشتقاقه على أقوال كثيرة ، ومرجعها إلى خمس :

أولها : أنه من الصوفة ، لأنه مع الله كالصوفة المطروحة لاتدبير له .

الثانى : من صوفة القفا للينها ، فالصوفى هين لين كهى .

الثالث : أنه من الصفة إذ جملته اتصاف بالمحامد وترك الأوصاف المذمومة .

الرابع : أنه من الصفاء ، وصحح هذا القول حتى قال أبو الفتح البستى رحمه الله فى الصوفى :

تَخَالَفَ النَّاسُ فى الصُّوفى وَاخْتَلَفُوا ... جَهْلاً وَظَنُّوهُ مُشْتَقًّا مِنَ الصُّوفِ

وَلَسْتُ أَمْنَحُ هٰذَا الاسْمَ غير فَتًى ... صَافَى فَصُوفِي حَتَّى سُمِّيَ الصُّوفِي

الخامس : أنه منقول من صفّة المسجد النبوى الذى كان منزلا لأهل الصفّة ، لأن الصوفى تابع لهم فيما أثبت الله لهم من الوصف حيث قال :

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)[1] .

وهو الأصل الذى يرجع إليه كل قول فيه قاله الشيخ زروق رحمه الله .

استمداده : هو مستمد من الكتاب والسنة وإلهامات الصالحين وفتوحات

---

(١) الكهف : ٢٨ .

العارفين ، وقد أدخلوا فيه أشياء من علم الفقه لمسّ الحاجة إليه فى علم التصوف ، حررها الغزالى فى الإحياء فى أربعة كتب : كتاب العبادات وكتاب العادات ، وكتاب المهلكات ، وكتاب المنجيات ، وهو فيه كمال لاشرط إلا مالابد منه فى باب العبادات . والله تعالى أعلم .

حكم الشارع فيه : قال الغزالى : إنه فرض عين ، إذ لايخلو أحد من عيب أو مَرض إلا الأنبياء عليهم السلام .

وقال الشاذلى : من لم يتغلغل فى علمنا هذا مات مصرًّا على الكبائر وهو لايشعر ، وحيث كان فرض عين يجب السفر إلى من يأخذه عنه إذا عرف بالتربية واشتهر الدواء على يده وإن خالف والديه ، حسبما نص عليه غير واحد : كالبلالى والسنوسى وغيرهما . قال الشيخ السنوسى : النفس إذا غلبت كالعدو إذ فَجأ تجب مجاهَدتُها والاستعانة عليها وإن خالف الوالدين ، كما فى العدو إذا برز ، قاله فى شرح الجزيرى ، وما أحسن قول القائل :

أخَاطِرُ فى مَحَبَّتِكُمْ بِـرُوحِى وَأرْكَبُ بَحْـرَكُمْ إمَّـا وإمَّـا
وَأسْلُكُ كُلَّ فَجٍّ فى هَواكُمْ وَأشْرَبُ كَأْسَكُمْ لَوْ كانَ سُمَّا
وَلا أُصْغِى إلى مَنْ قَدْ نَهَانِى وَلِى أُذُنٌ عَنِ الْعُذَّالِ صَمَّا
أُخَاطِرُ بِالخَوَاطِرِ فى هَوَاكُمْ وَأتْرُكُ فى رِضَاكُمْ أبًا وأُمَّا

مسائله : هى معرفة اصطلاحاته والكلمات التى تتداول بين القوم : كالإخلاص ، والصدق والتوكل ، والزهد ، والورع ، والرضا ، والتسليم والمحبة ، والفناء ، والبقاء وكالذات ، والصفات ، والقدرة ، والحكمة ، والروحانية ، والبشرية ، وكمعرفة حقيقة الحال والوارد والمقام ، وغير ذلك .

وقد ذكر القشيرى فى أول رسالته جملة شافية ، وقد كنت جمعت كتابًا فيه مائة حقيقة من حقائق التصوف ، سميتهُ [**معراج التشوف إلى حقائق التصوف**] فليطالعه من أراده ليستعين به على فهم كلام القوم . ثم قلت : بل

التحقيق فى مسائل هذا العلم أنها القضايا التى يبحث عنها السالك فى حال سيره ليعمل بمقتضاها ، ككون الإخلاص شرطًا فى العمل ، وكون الزهد ركنًا فى الطريق ، وكون الخلوة والصمت مطلوبين ، وأمثال هذه القضايا ، فهى مسائل هذا الفن ، فينبغى تصورها قبل الشروع فى الخوض فيه علمًا وعملا ، والله تعالى أعلم .

فضيلته : تقدم أن موضوعه الذات العلية ، وهى أفضل على الإطلاق ؛ فالعلم الذى يتعلق بها أفضل على الإطلاق ، إذ هو دال بأوله على خشية الله تعالى ، وبوسطه على معاملته ، وبآخره على معرفته والانقطاع إليه ، ولذلك قال الجنيد :

لو نعلم أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذى نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت إليه .

وقال الشيخ الصقلى رضى الله عنه فى كتابه المسمى « أنوار القلوب فى العلم الموهوب » .

قال : وكل من صدق بهذا العلم فهو من الخاصة ، وكل من فهمه فهو من خاصة الخاصة ، وكل من عبر عنه وتكلم فيه فهو النجم الذى لايدرك والبحر الذى لاينزَف .

وقال آخر : إذا رأيت من فتح له فى التصديق بهذه الطريقة فبشره ، وإذا رأيت من فتح له فى الفهم فيه فاغتبطه ، وإذا رأيت من فتح له فى النطق فيه فعظمه ، وإذا رأيت منتقدًا عليه ففرّ منه فرارك من الأسد واهجره ؛ وما من علم إلا وقد يقع الاستغناء عنه فى وقت ماإلا علم التصوف فلا يستغنى عنه أحد فى وقت من الأوقات .

نسبته من العلوم : هو كلّى لها وشرط فيها ، إذ لاعلم ولاعمل إلا بصدق التوجه إلى الله تعالى ، فالإخلاص شرط فى الجميع ، هذا باعتبار الصحة الشرعية والجزاء والثواب . وأما باعتبار الوجود الخارجى ؛ فالعلوم توجد فى الخارج بدون التصوف ، لكنها ناقصة أو ساقطة ، ولذلك قال السيوطى : نسبة التصوف من العلوم كعلم البيان مع النحو ، يعنى هو كمال فيها ومحسّن لها .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : نسبة التصوف من الدين نسبة الروح من الجسد ؛ لأنه مقام الإحسان الذى فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : « أن تعبد الله كأنك تراه »[1] الحديث ، إذ لامعنى له سوى ذلك ، إذ مداره على مراقبة بعد مشاهدة ، أو مشاهدة بعد مراقبة ، وإلا لم يقم له وجود ويظهر له موجود فافهم اهـ .

ولعله أراد بالمراقبة بعد المشاهدة الرجوع للبقاء بشهود الأثر بالله .

فائدته : تهذيب القلوب ومعرفة علام الغيوب ، أو تقول : ثمرته سخاوة النفوس ، وسلامة الصدور ، وحسن الخلق مع كل مخلوق .

واعلم أن هذا العلم الذى ذكرنا ليس هو اللقلقة باللسان ، وإنما هو أذواق ووجدان ، ولايؤخذ من الأوراق ، وإنما يؤخذ من أهل الأذواق ، وليس ينال بالقيل والقال ، وإنما يؤخذ من خدمة الرجال ، وصحبة أهل الكمال ، والله ماأفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح ، وبالله التوفيق .

أما ترجمة الشيخ : فهو الشيخ الإمام تاج الدين ، وترجمان العارفين ، أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين ابن عطاء الله ، الجذامى نسبًا ، المالكى مذهبًا ، الإسكندرى دارًا ، القرافى مزارًا ، الصوفى حقيقة ، الشاذلى طريقة ، أعجوبة زمانه ، ونخبة عصره وأوانه ، المتوفى فى جمادى الآخرة سنة تسع بتقديم التاء وسبعمائة . قاله الشيخ زروق .

وقال فى الديباج المذهب : كان جامعًا لأنواع العلوم ، من تفسير وحديث وفقه ونحو وأصول ، وغير ذلك . كان رحمه الله متكلمًا على طريق أهل التصوف واعظًا ، انتفع به خلق كثير ، وسلكوا طريقه . قلت : وقد شهد له شيخه أبو العباس المرسى بالتقديم . قال فى لطائف المنن :

قال لى الشيخ : الزم فوالله لئن لزمت لتكونن مفتيًا فى المذهبين : يريد مذهب أهل الشريعة أهل العلم الظاهر ، ومذهب أهل الحقيقة أهل العلم الباطن وقال فيه أيضًا : والله لايموت هذا الشاب حتى يكون داعيًا يدعو إلى الله . وقال

---

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه البخارى فى كتاب الإيمان .

فيه أيضًا : والله ليكونن لك شأن عظيم ، والله ليكونن لك شأن عظيم . قال فكان بحمد الله ما لا أنكره .

وله من التآليف خمسة : التنوير فى إسقاط التدبير ، ولطائف المنن فى مناقب شيخه أبى العباس ، وشيخه أبى الحسن ، وتاج العروس وهو مؤلف منهما ، ومفتاح الفلاح فى الذكر ، وكيفية السلوك . وله أيضًا : القول المجرد فى الاسم المفرد ، والحكم الذى أردنا أن نتكلم عليه .

ومضمنه من علوم القوم أربعة :

الأول : علم التذكير والوعظ ، وقد حاز منه أوفر نصيب ، وهو لمقام العوام ، وتستفاد مواده من كتب ابن الجوزى ، وبعض تآليف المحاسبى ، وصدور كتب الإحياء ، والقوت ، وتحبير القشيرى وماجرى مجراها ، والله أعلم .

الثانى : تصفية الأعمال وتصحيح الأحوال ، بتحلية الباطن بالأخلاق المحمودة ، وتطهيره من الأوصاف المذمومة ، وهذا حظ المتوجهين من الصادقين والمبتدئين من السالكين ، وقد حاز منها جملة صالحة ، ومادتها من كتب الغزالى ، والسهروردى ونحوهما .

الثالث : تحقيق الأحوال والمقامات ، وأحكام الأذواق والمنازلات ، وهو نصيب المستشرفين من المريدين والمبتدئين من العارفين . وهذا النوع من أكثر ماوقع فيه ومادته ، من مثل كتب الحاتمى فى المعاملات ، والبونى فى المنازلات ، إلى غير ذلك .

الرابع : المعارف والعلوم الإلهامية ، وفيه منها ما لا يخفى ، لكن كتبه ملئت بشرحها لاسيما التنوير ولطائف المنن اللذان هما كالشرح لجملة هذا الكتاب .

وبالجملة فهو جامع لما فى كتب الصوفية المطولة والمختصرة ، مع زيادة البيان واختصار الألفاظ ، والمسلك الذى سلك فيه مسلك توحيدى لايسع أحدًا إنكاره ولا للطعن فيه ، ولا يدع للمعتنى به صفة حميدة إلا كساه إياها ، ولاصفة ذميمة إلا أزالها عنه بإذن الله ، كما قال الشيخ ابن عباد فى وصف التنوير ، وهما أخوان من أب واحد وأم واحدة قاله سيدى أحمد زروق فى بعض شروحه .

البَابُ الأول

العمل وماورد فيه

ولما كان علم التصوف إنما هو نتائج الأعمال الصحيحة وثمرات الأحوال الصافية ، « من عمل بما عَلِم أورثه الله علم ما لم يعلم » بدأ بالكلام على العمل فقال .

[**من علامة الاعتماد على العمل ، نقصان الرجاء عند وجود الزلل**] .

الاعتماد على الشيء : هو الاستناد عليه والركون إليه ، والعمل : حركة الجسم أو القلب ، فإن تحرك بما يوافق الشريعة سمى طاعة ، وإن تحرك بما يخالف الشريعة سمى معصية .

والأعمال عند أهل الفن على ثلاثة أقسام : عمل الشريعة ، وعمل الطريقة ، وعمل الحقيقة . أو تقول : عمل الإسلام وعمل الإيمان وعمل الإحسان . أو تقول : عمل العبادة ، وعمل العبودية ، وعمل العبودة : أى الحرية . أو تقول : عمل أهل البداية ، وعمل أهل الوسط وعمل أهل النهاية .

فالشريعة : أن تعبده ، والطريقة : أن تقصده ، والحقيقة : أن تشهده . أو تقول : الشريعة لإصلاح الظواهر ، والطريقة لإصلاح الضمائر ، والحقيقة لإصلاح السرائر .

وإصلاح الجوارح بثلاثة أمور : بالتوبة والتقوى والاستقامة . وإصلاح القلوب بثلاثة أمور : بالإخلاص والصدق والطمأنينة . وإصلاح السرائر ، بثلاثة أمور : بالمراقبة والمشاهدة والمعرفة .

أو تقول : إصلاح الظواهر باجتناب النواهى ، وامتثال الأوامر . وإصلاح الضمائر بالتخلية من الرذائل والتحلية بأنواع الفضائل . وإصلاح السرائر وهى هنا الأرواح : بذلها وانكسارها ، حتى تتهذب وترتاض بالأدب والتواضع وحسن الخلق .

واعلم أن الكلام هنا إنما هو فى الأعمال التى توجب تصفية الجوارح أو القلوب أو الأرواح ، وهى ماتقدم تعيينها لكل قسم . وأما العلوم والمعارف : فإنما هى ثمرات التصفية والتطهير ، فإذا تطهرت الأسرار ملئت بالعلوم والمعارف والأنوار ، ولايصح الانتقال إلى مقام حتى يحقق ماقبله . فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته ، فلا ينتقل إلى عمل الطريقة حتى يحقق عمل الشريعة وترتاض جوارحه معها ، بأن يحقق التوبة بشروطها ويحقق التقوى بأركانها ، ويحقق الاستقامة بأقسامها ، وهى متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى أقواله ، وأفعاله ، وأحواله ، فإذا تزكّى الظاهر وتنوَّر بالشريعة انتقل من عمل الشريعة الظاهرة إلى عمل الطريقة الباطنة ، وهى التصفية من أوصاف البشرية على مايأتى .

فإذا تطهرت من أوصاف البشرية تحلى بأوصاف الروحانية وهى الأدب مع الله فى تجلياته التى هى مظاهره ، فحينئذ ترتاح الجوارح من التعب وما بقى إلا حسن الأدب .

قال بعض المحققين : من بلغ إلى حقيقة الإسلام لم يقدر أن يَفْتر عن العمل ، ومن بلغ إلى حقيقة الإيمان لم يقدر أن يلتفت إلى العمل بسوى الله ، ومن بلغ إلى حقيقة الإحسان لم يقدر أن يلتفت إلى أحد سوى الله اهـ .

الاعتماد فى الأعمال

ولايعتمد المريد فى سلوك هذه المقامات على نفسه ولاعلى عمله ولاعلى حوله وقوته ، وإنما يعتمد على فضل ربه وتوفيقه وهدايته وتسديده . قال تعالى :

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَايَشَاءُ ويَخْتارُ ، مَا كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)[1] وقال تعالى : (وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَافَعَلُوهُ)[2] . (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ)[3] .

وقال صلى الله عليهِ وَسَلم : « لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمُ الْجَنَّةَ بعَمَلِهِ ، قَالُوا :

(١) القصص الآية : ٦٨ .

(٢) الأنعام الآية : ١١٢ .

(٣) هود الآية : ١١٨ .

وَلا أَنْتَ يارَسولَ الله ؟ قَالَ : وَلا أَنَا إلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِى اللهُ بِرَحْمَتِهِ » .

فالاعتماد على النفوس من علامة الشقاء والبؤس ، والاعتماد على الأعمال من عدم التحقق بالزوال ، والاعتماد على الكرامة والأحوال من عدم صحبة الرجال ، والاعتماد على الله من تحقق المعرفة بالله . وعلامة الاعتماد على الله أنه لاينقص رجاؤه إذا وقع فى العصيان ، ولايزيد رجاؤه إذا صدر منه إحسان .

أو تقول : لايعظم خوفه إذا صدرت منه غفلة كما لايزيد رجاؤه إذا وقعت منه يقظه ، قد استوى خوفه ورجاؤه على الدوام ، لأن خوفه ناشئ عن شهود الجلال ، ورجاؤه ناشئ عن شهود الجمال ، وجلال الحق وجماله لايتغيران بزيادة ولانقصان ، فكذا ماينشأ عنها ، بخلاف المعتمد على الأعمال ، إذا قل عمله قل رجاؤه ، وإذا كثر عمله كثر رجاؤه لشركه مع ربه وتحققه بجهله ، ولو فنى عن نفسه وبقى بربه لاستراح من تعبه وتحقق بمعرفة ربه ، ولابد من شيخ كامل يخرجك من تعب نفسك إلى راحتك بشهود ربك . فالشيخ الكامل هو الذى يريحك من التعب لا الذى يدلك على التعب .

من دلك على العمل فقد أتعبك ، ومن دلّك على الدنيا فقد غشك ، ومن دلك على الله فقد نصحك ، كما قال الشيخ ابن مشيش رضى الله عنه .

والدلالة على الله هى الدلالة على نسيان النفس ، فإذا نسيت نفسك ذكرت ربك . قال تعالى : (وَاذْكُرْ رَبَّكَ إذَا نَسِيتَ)[1]

أى ماسواه ، وسبب التعب هو ذكر النفس والاعتناء بشئونها وحظوظها . وأما من غاب عنها فلا يلقى إلا الراحة .

وأما قوله تعالى : (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فى كَبَد)[2] .

أى فى تعب ، فهو خاص بأهل الحجاب . أو تقول خاص بإحياء النفوس ، وأما من مات فقد قال الله تعالى فيه :

---

(١) الكهف الآية : ٢٤ .

(٢) البلد الآية : ٤ .

(فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ)[١]

أى فروح لوصال ، وريحان لجمال ، وجنة لكمال . وقال تعالى :

(لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ)[٢] .

أى تعب ، ولكن لاتدرَك الراحة إلا بعد التعب ، ولايحصل الظفَر إلا بالطلب .

« حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ » .

أَيُّهَا الْعَاشِقُ مَعْنَى حُسْنِنَا ... مَهْرُنَا غَالٍ لِمَنْ يَخْطُبُنَا
جَسَدٌ مُضْنًى وَرُوحٌ فِى الْعَنَا ... وَجُفُونٌ لاتَذُوقُ الْوَسَنَا
وَفُؤَادٌ لَيْسَ فِيهِ غَيْرُنَا ... وَإِذَا مَا شِئْتَ أَدِّ الثَّمَنَا
فَافْنَ إِنْ شِئْتَ فَنَاءً سَرْمَدًا ... فَالفَنَا يُدْنِى إِلَى ذَاكَ الْفِنَا
وَاخْلَعِ النَّعْلَيْنِ إِنْ جِئْتَ إِلَى ... ذٰلِكَ الْحَىِّ فَفِيهِ قُدْسُنَا
وَعَنِ الْكَوْنَيْنِ كُنْ مُنْخَلِعًا ... وَأَزِلْ مَا بَيْنَنَا مِنْ بَيْنِنَا
وَإِذَا «ما»[٣] قِيلَ مَنْ تَهْوَى فَقُلْ ... أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا

عقبات فى الطريق

وقال فى حل الرموز : ثم اعلم أنك لاتصل إلى منازل القرُبات ، حتى تقطع ست عقبات :

العقبة الأولى: فطم الجوارح عن المخالفات الشرعية .

العقبة الثانية: فطم النفس عن المألوفات العادية .

العقبة الثالثة: فطم القلب عن الرعونات البشرية .

---

(١) سورة الواقعة : ٨٨ ، ٨٩ . (٢) الحجر الآية : ٤٨ .

(٣) ما ساقطة من الأصل وبها يستقيم الوزن .

العقبة الرابعة: فطم النفس عن الكدورات الطبيعية .
العقبة الخامسة: فطم الروح عن البخورات الحسية .
العقبة السادسة: فطم العقل عن الخيالات الوهمية .

فتشرف من العقبة الأولى على ينابيع الحكم القلبية ، وتطلع من العقبة الثانية على أسرار العلوم اللدنية ، وتلوح لك فى العقبة الثالثة أعلام المناجاة الملكوتية ، ويلمع لك فى العقبة الرابعة أنوار المنازلات القربية ، وتطلع لك فى العقبة الخامسة أنوار المشاهدات الحبية ، وتهبط من العقبة السادسة على رياض الحضرة القدسية ، فهنالك تغيب بما تشاهده من اللطائف الأنسية عن الكثائف الحسية ، فإذا أرادك لخصوصيته الاصطفائية ، سقاك بكأس محبته شربة تزداد بتلك الشربة ظمأ ، وبالذوق شوقًا ، وبالقرب طلبًا ، وبالسكر قلقًا اهـ المراد منه .

تتميم : أشكل على بعض الفضلاء قوله تعالى :
﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[١] مع قوله صلى الله عليه وسلم : « لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ » الحديث .

والجواب : أن الكتاب والسنة وردا بين شريعة وحقيقة .

أو تقول بين تشريع وتحقيق ، فقد يشرّعان فى موضع ويحققان فى آخر فى ذلك الشىء بعينه ، وقد يحققان فى موضع ويشرعان فيه فى آخر ، وقد يشرع القرآن فى موضع وتحققه السنة ، وقد تشرع السنة فى موضع ويحققه القرآن فالرسول عليه الصلاة والسلام مبين لما أنزل الله . قال تعالى :
﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[٢] .

فقوله تعالى : (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) هذا تشريع لأهل الحكمة وهم أهل الشريعة ، وقوله صلى الله عليه وسلم « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » هذا تحقيق لأهل القدرة وهم أهل الحقيقة ، كما أن قوله تعالى :
﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ﴾[٣] تحقيق .

---

(١) النحل الآية : ٣٢ .
(٢) النحل الآية : ٤٤ .
(٣) سورة الإنسان الآية : ٣٠ .

وقوله صلى الله عليه وسلم :

« إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِحَسَنَةٍ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَة » تشريع .

والحاصل أن القرآن تقيده السنة ، والسنة يقيدها القرآن ، فالواجب على الإنسان أن تكون له عينان :

إحداهما تنظر إلى الحقيقة ، والأخرى تنظر إلى الشريعة ، فإذا وجد القرآنَ قد شرّع فى موضع فلابد أن يكون قد حقق فى موضع آخر ، أو تحققه السنة ، وإذا وجد السنة قد شرعت فى موضع فلابد أن تكون قد حققت فى موضع آخر أو حققها القرآن ، ولاتعارض حينئذ بين الآية والحديث ، ولا إشكال .

وهنا جواب آخر : وهو أن الله تعالى لما دعا الناس إلى التوحيد والطاعة علم أنهم لايدخلون فيه من غير طمع فوعدهم بالجزاء على العمل ، فلما رسخت أقدامهم فى الإسلام أخرجهم عليه الصلاة والسلام من ذلك الحرف ورقّاهم إلى إخلاص العبودية والتحقق بمقام الإخلاص ، فقال لهم : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » والله تعالى أعلم ، وهنا أجوبة لأهل الظاهر لاتجدى شيئًا .

ولما كان الانتقال من عمل الظاهر إلى عمل الباطن لابد أن يظهر أثره على الجوارح قال تعالى : (إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا)[1] الآية .

التجريد :

وهو ظهور الأثر أشار إليه بقوله :

[إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك فى الأسباب من الشهوة الخفية ، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك فى التجريد انحطاط عن الهمة العلية] .

قلت : التجريد فى اللغة : هو التكشيط والإزالة ، تقول جردت الثوب ، أزلته عنى وتجرد فلان أزال ثوبه ، وجردت الجلد أزلت شعره .

وأما عند الصوفية فهو على ثلاثة أقسام : تجرد الظاهر فقط ، أو الباطن

(١) سورة النمل الآية : ٣٤ .

فقط ، .أو هما معًا . فتجريد الظاهر : هو ترك الأسباب الدنيوية ، وخرق العوائد الجسمانية . والتجريد الباطنى : هو ترك العلائق النفسانية ، والعوائق الوهمية . وتجريدهما معًا : هو ترك العلائق الباطنية ، والعوائد الجسمانية .

أو تقول : تجريد الظاهر هو ترك كل مايشغل الجوارح عن طاعة الله ، وتجريد الباطن هو ترك كل مايشغل القلب عن الحضور مع الله ، وتجريدهما هو إفراد القلب والقالب لله . والتجريد الكامل فى الظاهر : هو ترك الأسباب ، وتعرية البدن من معتاد الثياب . وفى الباطن هو تجريد القلب من كل وصف ذميم ، وتحليته بكل وصف كريم ، وهو : أى التجريد الكامل الذى أشار إليه شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن المجذوب بقوله :

أَقَارِئِينَ عِلْمَ التَّوْحِيدِ هُنَا الْبُحُورُ إِلَيَّ تُنْبِي
هٰذَا مَقَامُ أَهْلِ التَّجْرِيد الْوَاقِفِينَ مَعَ رَبِّي

وأما من جرد ظاهره دون باطنه فهو كذاب ، كمن كسا النحاس بالفضة ، باطنه قبيح وظاهره مليح ، ومن جرد باطنه دون ظاهره إن تأتّى ذلك فهو حسن ، كمن كسا الفضة بالنحاس وهو قليل ، إذ الغالب أن من تنشّب ظاهره تنشّب باطنه ومن اشتغل ظاهره بالحس اشتغل باطنه به ، والقوة لاتكون فى الجهتين ، ومن جمع بين تجريدى الظاهر والباطن فهو الصديق الكامل ، وهو الذهب المشحر[1] الصافى الذى يصلح لخزانة الملوك .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : آداب الفقير المتجرد أربعة : الحرمة للأكابر ، والرحمة للأصاغر ، والإنصاف من نفسك ، وعدم الانتصار لها .

وآداب الفقير المتسبب أربعة : موالاة الأبرار ، ومجانبة الفجار ، وإيقاع الصلاة فى الجماعة ، ومواساة الفقراء والمساكين بما يُفتح عليه . وينبغى له أيضا أن يتأدب بآداب المتجردين ، إذ هو كمال فى حقه .

ومن آداب المتسبب إقامته فيما أقامه الحق تعالى فيه من فعل الأسباب ، حتى

---

(١) المشحر : الذى جعل رقائق أو صفائح .

يكون الحق تعالى هو الذى ينقله منها على لسان شيخه إن كان ، أو بإشارة واضحة كتعذرها من كل وجه ، فحينئذ ينتقل للتجريد ، فإرادته التجريد مع إقامته تعالى له فى الأسباب هو الشهوة الخفية ، لأن النفس قد تقصد بذلك الراحة ولم يكن لها من اليقين ماتحمل به مشاق الفاقة ، فإذا نزلت بها الفاقة نزلت واضطربت ورجعت إلى الأسباب ، فيكون أقبح لها من الإقامة فيها ، فهذا وجه كونها شهوة ، وإنما كانت خفية لأنها فى الظاهر أظهرت الانقطاع والتبتل ، وهو مقام شريف ، وحال منيف ، لكنها فى الباطن أخفت حظها من قصد الراحة أو الكرامة أو الولاية أو غير ذلك من الحروف ، ولم تقصد تحقيق العبودية وتربية اليقين ، وفاتها أيضًا الأدب مع الحق ، حيث أرادت الخروج بنفسها ولم تصبر حتى يؤذن لها . وعلامة إقامتها فيها دوامها له مع حصول النتائج ، وعدم العوائق القاطعة له عن الدين . وحصول الكفاية بحيث إذا تركها حصل له التشوف إلى الخلق والاهتمام بالرزق ، فإذا انخرمت هذه الشروط انتقل إلى التجريد .

قال فى التنوير : والذى يقتضيه الحق منك أن تمكث حيث أقامك ، حتى يكون الحق تعالى هو الذى يتولى إخراجك كما تولى إدخالك ، وليس الشأن أن تترك السبب بل الشأن أن يتركك السبب .

قال بعضهم : تركت السبب كذا وكذا مرة فعدت إليه فتركنى السبب فلم أعد إليه . قال : ودخلت على الشيخ أبى العباس المرسى وفى نفسى العزم على التجريد قائلا فى نفسى[1] : إن الوصول إلى الله تعالى على هذه الحالة التى أنا عليها بعيد من الاشتغال بالعلم الظاهر ووجود المخالطة للناس ، فقال لى من غير أن أسأله صحبنى إنسان مشتغل بالعلوم الظاهرة ومتصدِّر فيها فذاق من هذا الطريق شيئًا ، فجاء إلى فقال لى : ياسيدى أخرج عما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك ؟ فقلت له ليس الشأن ذا ، ولكن امكث فيها أنت فيه وما قسم الله لك على أيدينا فهو لك واصل ، ثم قال الشيخ ونظر إلىّ : وهكذا شأن الصديقين ، لايخرجون من شىء حتى يكون الحق سبحانه هو الذى يتولى إخراجهم ،

---

(١) هذا الكلام للشيخ ابن عطاء الله .

فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبى ، ووجدت الراحة بالتسليم إلى الله تعالى ، ولكنهم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« هُمُ الْقَوْمُ لايَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ » اهـ .

قال رضى الله عنه : إنما منعه من التجريد لشَرَهِ نفسه إليه ، والنفس إذا شرِهت للشىء كان خفيفًا عليها ، والخفيف عليها لاخير فيه ، وماخف عليها إلا لحظٍّ لها فيه ، ثم قال : فلا يتجرد المريد فى حال القوة حتى تفوت إن أراد أن يستفيد نفسه ، فإن جردها فى حال القوة أتاه الضعف فيعقبه الخصمان ويشوشونه ويفتنونه ، وربما إذا لم يدركه المولى بلطفه سامح فى الخلطة ، ويرجع إلى ماخرج منه حتى يسىء ظنه بأهل التجريد ويقول ليسوا على شىء كلنا دخلنا البلد وما رأينا شيئًا ، والذى يثقل عليه التجريد أولا هو الذى ينبغى له أن يتجرد ، لأنه ماثقل عليها إلا حيث تحققت أن عنقها تحت السيف مهما حرك يده قطع أوداجها . انتهى المقصود منه .

وأما المتجرد إذا أراد الرجوع إلى الأسباب من غير إذن صريح فهو انحطاط من الهمة العلية إلى الهمة الدنية ، أو سقوط من الولاية الكبرى إلى الولاية الصغرى :

قال شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه : قال لى شيخى سيدى العربى : ياولدى لو رأيت شيئًا أعلى من التجريد وأقرب وأنفع لأخبرتك به ، ولكن هو عند أهل هذه الطريقة بمنزلة الإكسير الذى قيراط منه يغلب مابين الخافقين ذهبًا ، كذلك التجريد فى هذه الطريق اهـ .

وسمعت شيخ شيخنا رضى الله عنه يقول : معرفة المتجرد أفضل ، وفكرته أنصع ، لأن الصفا من الصفاء والكدَر من الكدر ، صفاء الباطن من صفاء الظاهر ، وكدر الباطن من كدر الظاهر ، وكلما زاد فى الحس نقص فى المعنى .
وفى بعض الأخبار : إذا أخذ العالم شيئًا من الدنيا نقصت درجته عند الله وإن كان كريمًا على الله . وأما من أذن له فى السبب فهو كالمتجرد إذا صار حينئذ سببه عبودية .

والحاصل : أن التجريد من غير إذن سبب والسبب مع الإذن تجريد ، وبالله التوفيق .

تنبيه : هذا الكلام كله مع السائرين ، وأما الواصلون المتمكنون فلا كلام عليهم ، إذ هم رضى الله عنهم مأخوذون عن أنفسهم ، يُقْبَضون من الله ويُدفَعون بالله ، قد تولى الحق تعالى أمورهم ، وحفظ أسرارهم ، وحرس قلوبهم بجنود الأنوار ، فلا تؤثر فيها ظُلَم الأغيار ، وعليه يحمل حال الصحابة فى الأسباب رضى الله عنهم ونفعنا ببركاتهم آمين .

واعلم أن المتسبب والمتجرد عاملان لله ، إذ كل واحد منهما حصل له صدق التوجه إلى الله تعالى حتى قال بعضهم : مثل المتجرد والمتسبب كعبدين للملك ، قال لأحدهما اعمل وكل ، وقال للآخر الزم أنت حضرتى وأنا أقوم لك بقسمتى ، ولكن صدق التوجه فى المتجرد أقوى لقلة عوائقه وقطع علائقه كما هو معلوم .

ولما كانت همة الفقير المتجرد لاتخطئ فى الغالب ، لقوله عليه الصلاة والسلام : «إنَّ لله رِجَالاً لَوْ أَقْسَمُوا عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُمْ فى قَسَمِهِمْ» .

قال شيخنا : ولله رجال إذا اهتموا بالشىء كان بإذن الله . وقال أيضًا عليه الصلاة والسلام : « اتقُوا فِراسَةَ المؤمِنِ فإنَّهُ ينظر بِنورِ اللّهِ » .

الهمم والمقادير

خشى الشيخ أن يتوهم أحد أن الهمة تخرق سور القدر وتفعل ما لم يجر بِه القضاء والقدر ، فرفع ذلك بقوله :

[سوابق الهمم لاتخرق أسوار الأقدار] .

قلت السوابق : جمع سابقة ، وهى المتقدمة . والهمم : جمع همة ، والهمة : قوة انبعاث القلب فى طلب الشىء والاهتمام به ، فإن كان ذلك الأمر رفيعًا كمعرفة الله وطلب رضاه سميت همة عالية ، وإن كان أمرًا خسيسًا كطلب الدنيا وحظوظها سميت همة دنية ، وسوابق الهمم من إضافة الموصوف إلى الصفة : أى

الهمم السوابق لاتخرق أسوار الأقدار : أى إذا اهتم العارف أو المريد بشىء وقويت همته بذلك ، فإن الله تعالى يكون ذلك بقدرته فى ساعة واحدة حتى يكون أمره بأمر الله .

وكان شيخ شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه يقول : المريد الصادق إذا كان فانيًا فى الاسم مهما اهتم بالشىء كان ، وإن كان فانيًا فى الذات تكون الشىء الذى يحتاجه قبل أن يهتم به ، أو كلام هذا معناه ، وهو صحيح .

وفى بعض الأخبار « يقولُ الله تعالى : عَبْدِى ، أَنَا الله الّذى أَقُولُ للشّىء كُنْ فَيَكُونُ ، فَأَطِعْنِى أَجْعَلْكَ تَقُولُ لِلشىْء كُنْ فَيَكُونُ »

وفى الحديث الصحيح أيضًا : « فَإِذَا أَحْبَبْتهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا ويَدًا ومُؤَيِّدًا ، إنْ سَأَلِنى أعطَيْتهُ » الحديث .

ومع ذلك لاينفصل بذلك ولايتكون إلا ما أحاط به قدر الله وقضاؤه ، فهمة العارف تتوجه للشىء ، فإن وجدت القضاء سبق به كان ذلك بإذن الله ؛ وإن وجدت سور القدر مضروبًا عليه لاتخرقه ، بل تتأدب معه وترجع لوصفها وهى العبودية ، فلا تتأسف ولاتحزن ، بل ربما تفرح لرجوعها ولمحلها وتحققها بوصفها .

وقد كان شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه يقول : نحن إذا قلنا شيئًا فخرج فرحنا مرة واحدة ، وإذا لم يخرج فرحنا عشر مرات وذلك لتحققه بمعرفة الله .

قيل لبعضهم : بماذا عرفت ربك ؟ قال بنقض العزائم .

وقد يحصل هذا التأثير للهمة القوية وإن كان صاحبها ناقصًا كما يقع للعاين والساحر عن خبثها ، أو لخاصية جعلها الله فيها إذا نظرا لشىء بقصد انفعل ذلك بإذن الله ، وهذا كله أيضًا لايخرق أسوار الأقدار ، بل لايكون إلا ما أراد الواحد القهار . قال تعالى :

﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ به مِنْ أَحَدٍ إلَّا بِإِذْنِ الله ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ إنَّا كُلَّ

---

(١) البقرة : ١٠٢ .

شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)[١] وقال تعالى : (وَمَا تَشَاءونَ إلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ)[٢] وقال صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ شَيْء بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ حَتّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ » .

أى النشاط للفعل ، وأشعر قوله سوابق أن الهمم الضعيفة لاينفعل لها شىء وهو كذلك فى الخير والشر ، وفى استعارته الخرق والأسوار مايشعر بالقوة فى الجانبين ، لكن الحاصر قاهر فلا عبرة بقوة العبد القاصر .

وإذا كانت الهمة لاتخرق أسوار الأقدار فما بالك بالتدبير والاختيار الذى أشار إليه بقوله .

التدبير

[أرح نفسك من التدبير ، فما قام به غيرك عنك لاتقم به أنت لنفسك] .

قلت : التدبير فى اللغة : هو النظر فى الأمور وأواخرها . وفى الاصطلاح : هو كما قال الشيخ زروق رضى الله عنه : تقدير شئون يكون عليها فى المستقبل بما يخاف أو يرجى بالحكم لا بالتفويض ، فإن كان مع تفويض وهو أخروىّ فنية خير ، أو طبيعى فشهوة ، أو دنيوى فأمنية اهـ .

فاقتضى كلامه أن التدبير على ثلاثة أقسام : قسم مذموم ، وقسم مطلوب ، وقسم مباح . فأما القسم المذموم : فهو الذى يصحبه الجزم والتصميم سواء كان دينيًّا أو دنيويًّا لما فيه من قلة الأدب وما يتعجله لنفسه من التعب ، إذ ماقام به الحى القيوم عنك لاتقوم به أنت عن نفسك ، وغالب ماتدبره لنفسك لاتساعده رياح الأقدار ، وتعقبه الهموم والأكدار ، ولذلك قال أحمد بن مسروق : « من ترك التدبير فهو فى راحة » . وقال سهل بن عبد الله : « ذروا التدبير والاختيار ، فإنهما يكدران على الناس عيشهم » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) القمر : ٤٩ . (٢) الإنسان : ٣٠ .

« إِنَّ اللهَ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالرَّاحَةَ فِى الرِّضَا وَالْيَقِينِ » .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : لاتختر من أمرك شيئًا ، واختر ألا تختار ، وفر من ذلك المختار ، ومن فرارك ، ومن كل شىء إلى الله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَايَشَاءُ وَيَخْتارُ ﴾[1] اهـ .

وقال أيضًا : إن كان ولابد من التدبير فدبر ألا تدبر ، وقيل : من لم يدبر دُبّر له . وقال شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه : من أوصاف الولى الكامل ألا يكون محتاجًا إلا إلى الحال الذى يقيمه مولاه فى الوقت ، يعنى ماله مراد إلا مايبرز من عنصر القدرة اهـ . فكلام هؤلاء السادات محمول على ما إذا كان بالنفس مع الجزم ، وأما ما كان مع التفويض فليس بمذموم مالم يطُل .

وأما القسم المطلوب ، فهو تدبير ماكلفت به من الواجبات ، وماندبت إليه من الطاعات ، مع تفويض المشيئة والنظر إلى القدرة ، وهذا يسمى النية الصالحة . وقد قال عليه الصلاة والسلام :

« نِيَّةُ المؤمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ » .

وقال أيضًا حاكيًا عن الله سبحانه :

« إِذَا هَمَّ عَبْدِى بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً كامِلَة » الحديث .

وهذا مفهوم قول الشيخ فما قام به غيرك ، إذ مفهومه أن مالم يقم به عنك وهو الطاعة لايضرك تدبيره ، ولذلك قال إبراهيم الخواص رضى الله عنه : العلم كله فى كلمتين : لاتتكلف ماكُفِيتَ ، ولاتضيّع ما استُكفِيتَ ، فقوله لاتتكلف ماكفيت هو القسم الأول المذموم ، وقوله ولاتضيع ما استكفيت هو القسم الثانى المطلوب .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : وكل مختارات الشرع وترتيباته ليس لك منه شىء إنما هو مختار الله لك واسمع وأطع ، وهذا محل الفقه الربانى والعلم

---

(١) القصص : ٦٨ .

الإلهامى ، وهو أرض لتنزل علم الحقيقة المأخوذة عن الله تعالى لمن استوى اهـ . وقوله لمن استوى : أى كمل عقله وتمت معرفته واستوت حقيقته مع شريعته ، لكن لاينبغى الاسترسال معه فيشغله عن الله .

وأما القسم المباح : فهو التدبير فى أمر دنيوى أو طبيعى ، مع التفويض للمشيئة والنظر لما يبرز من القدرة ، غير معول على شىء من ذلك ؛ وعليه يحمل قوله صلى الله عليه وسلم : « التَّدْبِيرُ نِصْفُ الْعَيْشِ » .

بشرط ألا يردده المرة بعد المرة ، فالقدر المباح منه هو مروره على القلب كالريح يدخل من طاق ويخرج من أخرى ، وهذا هو التدبير بالله ، وهو شأن العارفين المحققين .

وعلامة كونه بالله أنه إذا برز من القدرة عكس مادبر لم ينقبض ولم يضطرب ، بل يكون كما قال الشاعر :

سَلِّمْ لِسَلْمَى وَسِرْ حَيثُ سَارَتْ
وَاتْبَعْ رِيَاحَ الْقَضَا وَدُرْ حَيْثُ دَارَتْ

وقال فى التنوير : فائدة . اعلمْ أن الأشياء إنما تذم وتمدح بما تؤدى إليه . فالتدبير المذموم ماشغلك عن الله ، وعطلك عن القيام بخدمة الله ، وصدك عن معاملة الله . والتدبير المحمود هو الذى يؤديك إلى القرب من الله ويوصلك إلى مرضاة الله ، انظر بقية كلامه : فهذا تحرير ماظهر لى فى شأن التدبير . وقد ألف الشيخ رضى الله عنه فيه كتابا سماه « **التنوير فى إسقاط التدبير** » أحسن فيه وأجاد ، ومرجعه إلى ماذكرنا ، والله تعالى أعلم ، ولما كمله اطلع عليه الولى الكامل سيدى ياقوت العرشى . فلما طالعه قال له جميع ماقلت مجموع فى بيتين ، وهما هاتان :

مَا ثَمَّ إلا مَا أَرَادْ فَاتْرُكْ هُمُومَكَ وَانْطَرِحْ
وَاتْرُكْ شَوَاغِلَكَ التى شُغِلْتَ بِهَا تَسْتَرِحْ

ولما كان الانهماك فى التدبير والاختيار يدل على انطماس البصيرة ، وتركهما أو فعلهما بالله يدل على فتح البصيرة ذكر علامة أخرى أظهر وأشهر منهما على فتح البصيرة أو طمسها فقال :

[اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك ، دليل على انطماس البصيرة منك] .

قلت : الاجتهاد فى الشيء استفراغ الجهد والطاقة فى طلبه ، والتقصير : هو التفريط والتضييع ، والبصيرة ناظر القلب ، كما أن البصر ناظر القالب ، فالبصيرة لاترى إلا المعانى ، والبصر لايرى إلا المحسوسات ، أو تقول : البصيرة لاترى إلا اللطيف ، والبصر لايرى إلا الكثيف . أو تقول البصيرة لاترى إلا القديم ، والبصر لايرى إلا الحادث . أو تقول البصيرة لاترى إلا المكون ، والبصر لايرى إلا الكون ، فإذا أراد الله فتح بصيرة العبد أشغله فى الظاهر بخدمته ، وفى الباطن بمحبته ، فكلما عظمت المحبة فى الباطن والخدمة فى الظاهر قوى نور البصيرة حتى يستولى على البصر ، فيغيب نور البصر فى نور البصيرة ، فلا يرى إلا ماتراه البصيرة من المعانى اللطيفة والأنوار القديمة ، وهذا معنى قول شيخ شيوخنا المجذوب :

غَيّبْتُ نَظَرِى فِى نَظَرْ وَأُفْنِيتُ عَنْ كُلِّ فَانِى
حَقّقْتُ مَا وَجَدْتُ غِيرْ وَأمْسَيْتُ فى الْحَالِ هَانِى

وإذا أراد الله خذلان عبده أشغله فى الظاهر بخدمة الأكوان ، وفى الباطن بمحبتها ، فلا يزال كذلك حتى يطمس نور بصيرته ، فيستولى نور بصره على نور بصيرته ، فلا يرى إلا الحس ، ولايخدم إلا الحس ، فيجتهد فى طلب ماهو مضمون من الرزق المقسوم ، ويقصر فيما هو مطلوب منه من الفرض المحتوم ، ولو كان بدّل الاجتهاد استغراقًا ، وبدّل التقصير تركًا لكان بدّل الطمس عمى وهو الكفر والعياذ بالله ، لأن الدنيا كنهر طالوت ولاينجو منها إلا من لم يشرب أو اغترف غرفة بيده ، لا من شرب على قدر عطشه فافهم . قاله الشيخ زروق رضى الله عنه .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : البصيرة كالبصر أدنى شىء يقع فيه يمنع النظر وإن لم ينته إلى العمى . فالخطرة من الشىء تشوش النظر ، وتكدر الفكر . والإزادة له تذهب بالخير رأسًا ، والعمل به يذهب عن صاحبه سهمًا من الإسلام فيما هو فيه ويأتى بضده ، فإذا استمر على الشر تفلت منه الإسلام كله ، فإذا انتهى إلى الوقيعة فى الأمة وموالاة الظلمة حبًّا فى الجاه والمنزلة ، وحبًّا للدنيا على الآخرة فقد تفلت منه الإسلام كله . ولايغرنك ماتوسم به ظاهرًا فإنه لاروح له ، إذ الإسلام حب الله وحب الصالحين من عباده انتهى .

الرضا باختيار الله

ولما كان الاجتهاد فى المضمون كله مذموم كان بالفعل كما تقدم أو بالقول ، وهو الاستعجال فى تحصيله قبل إبّانه بالدعاء أو بغيره ، أشار إلى ذلك بقوله :

[لايكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح فى الدعاء موجبًا ليأسك ، فهو ضمن لك الإجابة فيما يختار لك لافيما تختار لنفسك ، وفى الوقت الذى يريد لافى الوقت الذى تريد] .

قلت : الإلحاح فى الشىء هو تكرره من وجه واحد ، والدعاء : طلب مصْحوب بأدب فى بساط العبودية لجناب الربوبية ، والموجب للشىء ما كان أصلا فى وجوده ، واليأس قطع المطامع .

اعلم أن من أسمائه تعالى القيوم ، وهو مبالغة فى القيام ، فقد قام تعالى بأمر خلقه من عرشه إلى فرشه ، وعيّن لكل مَظهَر وقتًا محدودًا وأجلا معلومًا ، ولكل واحد شكلا معلومًا ورزقًا مقسومًا :

(فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لايَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)[1] .

فإذا تعلق قلبك بحاجة من حوائج الدنيا والآخرة ، فارجع إلى وعد الله ، واقنع بعلم الله ، ولاتحرص ، ففى الحرص تعب ومذلة .

قال شيخ شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه : الناس تقضى حوائجهم

---

(١) الأعراف : ٣٤ .

بالحرص فيها والجرى عليها ، ونحن نقضى حوائجنا بالزهد فيها والاشتغال بالله عنها اهـ .

وإن كان ولابد من الدعاء فليكن دعاؤك عبودية لاطلبًا للحظ ، فإن تركتَ الحظوظ صُبَّت عليك الحظوظ ، وإن غلب عليك وارد الطلب وطلبت شيئًا ثم تأخر عنك وقت العطاء فيه ، فلا تتهم الله فى وعده حيث قال :

(ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)[1] .

ولا تيأس من نواله ورفده ، فإن الله قد ضمن لك الإجابة فيما يريد من خير الدنيا وخير الآخرة ، وقد يمنعك لطفًا بك لكون ذلك المطلب لايليق بك كما قال الشيخ أبو الحسن : اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم ، فكيف لانعجز عن ذلك من حيث لانعلم بما لانعلم ؟ وقد قال بعض المفسرين فى قوله تعالى :

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَايَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ) .

ما موصولة : أى ويختار الأمر الذى لهم فيه خيرتهم ، وقد يكون أجابك وعين لذلك وقتًا هو أصلح لك وأنفع ، فيعطيك ذلك فى الوقت الذى يريد لافى الوقت الذى تريد ، وقد يؤخر لك ذلك لدار الكرامة والبقاء وهو خير لك وأبقى . وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مَا مِنْ دَاعٍ إلاّ وَهُوَ بَيْنَ إحْدَى ثَلاثٍ : إمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ طَلِبَتُهُ ، وَإمَّا أَنَ يُدَّخَرَ لَهُ ثَوَابُهَا ، وإمَّا أَنْ يُصْرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوء مِثْلُهَا » الحديث .

وقال الشيخ عبد العزيز المهدوىّ رضى الله عنه : من لم يكن فى دعائه تاركا لاختياره راضيًا باختيار الحق تعالى له ، فهو مستدرج ممن قيل له « اقضوا حاجته فإنى أكره أن أسمع صوته » فإن كان مع اختيار الحق تعالى لا مع اختياره لنفسه كان مجابًا وإن لم يعط ، والأعمال بخواتمها اهـ .

---

[1] (١) سورة غافر : ٦٠ .

وعد الله حق

ثم حقق لك ماتقدم من إنجاز الوعد ونفوذ الموعود ولكن على الوجه الذى يريد وفى الوقت الذى يريد ، وأمرك فى ذلك بالصدق والتصديق ، ونهاك عن الشك والترديد ، ليكمل بذلك فتح بصيرتك ، وتبتهج أنوار سريرتك فقال :

[لا يشككنك فى الوعد عدم وقوع الموعود وإن تعين زمنه ، لئلا يكون ذلك قدحًا فى بصيرتك ، وإخمادًا لنور سريرتك] .

التشكيك فى الشىء : هو التردد فى الوقوع وعدمه . والوعد : الإخبار بوقوع الشىء فى محله ، والموعود : المخبر به ، والقدح فى الشىء : التنقيص له والغض من مرتبته ، والبصيرة : القوة المهيئة لإدراك المعانى ، والسريرة : القوة المستعدة لتمكن العلم والمعرفة .

واعلم أن النفس والعقل والروح والسر شىء واحد ، لكن تختلف التسامى باختلاف المدارك ، فما كان من مدارك الشهوات فمدركه النفس ، وما كان من مدارك الأحكام الشرعية فمدركه العقل ، وما كان من مدارك التجليات والواردات فمدركه الروح ، وماكان من مدارك التحقيقات والتمكنات فمدركه السر والمحل واحد ، وإخماد الشىء خفاؤه بعد ظهوره .

قلت : إذا وعدك الحق تعالى بشىء على لسان الوحى أو الإلهام من نبى أو ولى أو تجلٍ قوى فلاتشك أيها المريد فى ذلك الوعد إن كنت صدّيقًا ، فإن لم يتعين زمنه فالأمر واسع ، وقد يطول الزمان وقد يقصر ، فلاتشك فى وقوعه وإن طال زمنه ، وقد كان بين دعاء سيدنا موسى وهارون على فرعون بقوله :

(رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ)[1] الآية .

أربعون سنة على ماقيل ، وإن تعين زمنه ولم يقع ذلك عند حلوله فلا تشك فى صدق ذلك الوعد ، فقد يكون ذلك مترتبًا على أسباب وشروط غيبية أخفاها الله تعالى عن ذلك النبى أو الولى لتظهر قهربة عزته وحكمته . وتأمل قضية سيدنا

---

(١) يونس : ٨٨ .

يونس عليه السلام حيث أخبر قومه بالعذاب لما أخبر به وفر عنهم ، وكان ذلك متوقفًا على عدم إسلامهم ، فلما أسلموا تأخر عنهم العذاب . وكذلك قضية سيدنا نوح عليه السلام حيث قال :

(إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ)(١) .

فوقف مع ظاهر العموم فقال له تعالى :

(إِنَّهُ لَيْس مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ)(٢) .

ونحن إنما وعدناك بنجاة الصالح من أهلك ، وإن فهمت العموم فعلمنا متسع ولهذا السر الخفى كان الرسل عليهم الصلاة والسلام وأكابر الصديقين لايقفون مع ظاهر الوعد ، فلا يزول اضطرارهم ، ولايكون مع غير الله قرارهم ، بل ينظرون لسعة علمه تعالى ونفوذ قهره ، ومنه قول سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام :

(وَلا أَخَافُ مَاتُشْرِكُونَ بِهِ إِلاّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا)(٣) .

وقول سيدنا شعيب عليه السلام : (وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا) أى فى ملة الكفر (إِلاَّ أَنْ يَشَاء الله رَبُّنَا وسِعَ رَبُّنا كلَّ شَىْء)(٤) .

وقضية نبينا صلى الله عليه وسلم يوم بدر حيت دعا حتى سقط رداؤه وقال :

« اللَّهُمَّ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ ، اللهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هٰذِهِ الْعِصَابَةُ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ » .

فقال له الصديق : حسبك يارسول الله فإن الله منجز لك ما وعدك ، فنظر المصطفى أوسع لعدم وقوفه مع ظاهر الوعد ، ووقف الصديق مع الظاهر ، فكل على صواب والنبى صلى الله عليه وسلم أوسع نظرًا وأكمل علمًا :

---

(١) هود : ٤٥ .
(٢) هود : ٤٦ .
(٣) الأنعام : ٨٠ .
(٤) الأعراف : ٨٩ .

وأما قضية الحديبية : فلم يتعين فيها زمن الوعد لقوله تعالى :
(فَعَلِمَ مَالَمْ تَعْلَمُوا)[١] .

وقد قال عليه الصلاة والسلام لعمر حين قال له : ألم تخبرنا أنا ندخل مكة : فقال له:
« أَقُلْتُ لَكَ هٰذَا الْعَام ؟ فَقَالَ لَا ، فَقَالَ إِنَّكَ دَاخِلُهَا ومُطَّوِّفٌ بِهَا » .

فشد يدك ياأخى على تصديق ماوعدك الله به وحسن ظنك به وبأوليائه ولاسيما شيخك . فإياك أن تضمر التكذيب أو الشك فيكون ذلك قدحًا فى بصيرتك ، وقد يكون سببًا فى طمسها ، ويكون أيضًا إخمادًا أى إخفاء وإطفاء لنور سريرتك ، فترجع من حيث جئت ، وتهدم كل مابنيت . فانظر أحسن التأويلات والتمس أحسن المخارج . وقد تقدم قول شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه : نحن إذا قلنا شيئًا فخرج فرحنا مرة ، وإذا لم يخرج فرحنا عشر مرات ، وماذاك إلا لوسع نظره وتمكنه فى معرفة ربه ، وأيضًا قد يطلع أولياءه على نزول القضاء ولايطلعهم على نزول اللطف ، فينزل ذلك القضاء مصحوبًا باللطف ، فينزل خفيفًا سهلا حتى يظن أنه لم ينزل . وقد شهدنا هذا وماقبله من أنفسنا ومن أشياخنا رضى الله عنهم ، فلم ينقص صِدْقنا ولم يُخمِد نور سريرتنا ، فلله الحمد ربنا .

تنبيه : كان شيخنا الفقيه العلامة سيدى التاوُدى بن سَوْدة يستشكل هذه الحكمة ويقول : كيف يتصور تعيين الزمان ؟ إن كان بالوحى فقد انقطع ، وإن كان بالإلهام فلا يلزم من الشك فيه القدح فى البصيرة ، إذ لايجب الإيمان به . قلنا كلامنا مع المريدين الصديقين السائرين أو الواصلين ، وهم مطالبون بالتصديق للأشياخ فى كل مانطقوا به إذ هم ورثة الأنبياء فهم على قدمهم ، فللأنبياء وحى الأحكام ، وللأولياء وحى الإلهام ، لأن القلوب إذا صفت من الأكدار والأغيار وملئت بالأنوار والأسرار لايتجلى فيها إلا الحق ، فإذا نطقوا

(١) الفتح : ٢٧ .

بشيء من وعد أو وعيد يجب على المريد تصديقه ، فإذا دخله تشكيك أو تردد فيما وعده الله على لسان نبيه أو شيخه قدح ذلك في نور بصيرته وأخمد سريرته ، فإذا لم يعين زمنه انتظر وقوعه وإن طال ، وإن عين زمنه ولم يقع تأول فيه ماتقدم فى حق الرسل من توقفه على أسباب وشروط خفية ، وبهذا فرقوا بين الصديق والصادق ، لأن الصديق لايتردد ولايتعجب ، والصادق يتردد ثم يجزم . وإن رأى خرق عادة تعجب واستغرب ، والله تعالى أعلم .

تجلِّى الله للعبد

ولما كانت التعرفات القهرية ظاهرها جلال وباطنها جمال لمايعقبها من أوصاف الكمال ، وربما يشك المريد فيما وعد الحق عليها من الخيرات ومارتب عليها من الفتوحات ، نبه الشيخ على ذلك فقال :

[إذا فتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معها إن قل عملك ، فإنه مافتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك ، ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك والأعمال أنت مهديها إليه ؟ وأينّ ماتهديه إليه مما هو مورده عليك] .

فتح هنا : بمعنى هيأ ويسّر ، والغالب استعماله فى الخير ، فأشْعَر الإتيان به هنا أن جهة التعريف من الأمور الجميلة ، والوجهة : هى الجهة ، والمراد هنا الباب والمدخل . والتعريف : طلب المعرفة ، تقول تعرف لى فلان : إذا طلب منى معرفته ، والمعرفة : تمكن حقيقة العلم بالمعروف من القلب حتى لايمكن الانفكاك عنه بحال ، والمبالاة التهمم بفوات الشيء .

قلت : إذا تجلى لك الحق تعالى باسمه الجليل أو باسمه القهار وفتح لك منها بابًا ووجهة لتعرفه منها ، فاعلم أن الله تعالى قد اعتنى بك وأراد أن يجتبيك لقربه ويصطفيك لحضرته ، فالتزم الأدب معه بالرضا والتسليم ، وقابله بالفرح والسرور ؛ ولاتبال بما يفوتك بها معها من الأعمال البدنية ، فإنما هى وسيلة للأعمال القلبية ، فإنه مافتح هذا الباب إلا وهو يريد أن يرفع بينك وبينه الحجاب . ألم تعلم أن التعرفات الجلالية هو الذى أوردها عليك لتكون عليه

واردًا ، والأعمال البدنية أنت مهديها إليه لتكون إليه بها واصلا ، وفرق كبير بين ماتهديه أنت من الأعمال المدخولة والأحوال المعلولة ، وبين مايورده عليك الحق تعالى من تحف المعارف الربانية والعلوم اللدنية ، فطب نفسًا أيها المريد بما ينزل عليك من هذه التعرفات الجلالية والنوازل القهرية ، ومثل ذلك كالأمراض والأوجاع والشدائد والأهوال ، وكل مايثقل على النفس ويؤلمها كالفقر والذل وأذية الخلق وغير ذلك مماتكرهه النفوس ، فكل ماينزل بك من هذه الأمور فهى نعم كبيرة ومواهب غزيرة تدل على قوة صدقك ، إذ بقدر مايعظم الصدق يعظم التعرف : « أَشَدُّكُمْ بَلَاءً الْأَنْبِياء ، فَالْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ » .

والصدق متبوع ، وإذا أراد الله أن يطوى مسافة البعد بينه وبين عبده سلط عليه البلاء ، حتى إذا تخلص وتشحر صلح للحضرة كما تصفى الفضة والذهب بالنار لتصلح لخزانة الملك ، ومازال الشيوخ والعارفون يفرحون بهذه النوازل ويستعدون لها فى كسب المواهب . وكان شيخ شيوخنا سيدى على العمرانى رضى الله عنه يسميها ليلة القدر ويقول : كل الحيزة هى ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر ، وذلك لأجل مايجتنيه العبد منها من أعمال القلوب ، التى الذرة منها أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح ، وقد قلت فى ذلك بيتين وهما :

إِذَا طَرَقَتْ بَابِى مِنَ الدَّهْرِ فَاقَةٌ … فَتَحْتُ لَهَا بَابَ الْمَسَرَّةِ والْبِشْرِ
وَقُلْتُ لَهَا أَهْلاً وَسَهْلاً وَمَرْحَبًا … فَوقْتُكِ عِنْدِى أَحْظَى مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ

واعلم أن هذه التعرفات الجلالية هى اختبار من الحق ومعيار للناس ، وبها تعرف الفضة والذهب من النحاس ، فكثير من المدعين يظهرون على ألسنتهم المعرفة واليقين ، فإذا وردت عليهم عواصف رياح الأقدار ألقتهم فى مهاوى القنط والإنكار . من ادعى ماليس فيه فضحته شواهد الامتحان .

وكان شيخ شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه يقول : العجب كل العجب ممن يطلب معرفة الله ويحرص عليها ، فإذا تعرف له الحق تعالى هرب منه وأنكره .

وقال شيخنا اليزيدى رضى الله عنه : هذه التعرفات الجلالية على ثلاثة

أقسام : قسم عقوبة وطرد ، وقسم تأديب وتنبيه ، وقسم زيادة وترق ، أما الذى هو عقوبة وطرد ، فهو الذى يسىء الأدب فيعاقبه الحق تعالى ويجهل فيها فيسخط ويقنط وينكر ، فيزداد من الله طردًا وبعدًا . وأما القسم الذى هو تأديب ، فهو يسىء الأدب فيؤدبه الحق تعالى فيعرفه فيها وينتبه لسوء أدبه وينهض من غفلته ، فهى فى حقه نعمة فى مظهر النقمة ، وأما الذى هى فى حقه زيادة وترق ، فهو الذى تنزل به هذه التعرفات من غير سبب فيعرف فيها ويتأدب معها ويترقى بها إلى مقام الرسوخ والتمكين اهـ بالمعنى .

قلت : ولذلك قال بعضهم : بقدر الامتحان يكون الامتكان . وقال أيضًا : اختبار الباقى يقطع التباقى .

فائدة : إذا أردت أن يسهل عليك الجلال فقابله بضده وهو الجمال فإنه ينقلب جمالا فى ساعته . وكيفية ذلك : أنه إذا تجلى باسمه القابض فى الظاهر فقابله أنت بالبسط فى الباطن فإنه ينقلب بسطًا . وإذا تجلى لك باسمه القوى فقابله أنت بالضعف ، أو تجلى باسمه العزيز فقابله بالذل فى الباطن ، وهكذا يقابل الشىء بضده قيامًا بالقدرة والحكمة . وكان شيخ شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه يقول : ماهى إلا حقيقة واحدة إن شربتها عسلا وجدتها عسلا ، وإن شربتها لبنًا وجدتها لبنًا ، وإن شربتها حنظلا وجدتها حنظلا ، فاشرب يا أخى المليح ولاتشرب القبيح اهـ .

ومعنى كلامه رضى الله عنه هو كما تقدم : كما تقابله يقابلك ، والله تعالى أعلم .

تنوع الأعمال

ولما تكلم على الأعمال وثمراتها وهو الأدب ، ومرجعه إلى السكون تحت مجارى الأقدار من غير تدبير ولا اختيار ، ولاتعجيل لما تأخر ولاتأخر لما تعجل ، بل يكون محط نظره إلى مايبرز من عنصر القدرة فيتلقاه بالمعرفة ، تكلم على تنويعها وتهذيبها بتهذيب عاملها فقال :

[تنوعت أجناس الأعمال بتنوع واردات الأحوال] .

تنويع الشىء : تكثيره . والأعمال هنا عبارة عن حركة الجسم ، والواردات والأحوال عبارة عن حركة القلب . فالخاطر والوارد والحال محلها واحد وهو القلب ، لكن مادام القلب تخطر فيه الخواطر الظلمانية والنورانية سمى مايخطر فيه خاطرًا ، وإن انقطعت عنه الخواطر الظلمانية سمى مايخطر فيه واردًا أو حالا ، فإضافة أحدهما إلى الآخر إضافة بيانية وكلاهما يتحولان ، فإن دام ذلك سمى مقامًا .

قلت : قد تنوعت أجناس الأعمال الظاهرة بتنوع الأحوال الباطنة . أو تقول : أعمال الجوارح تابعة لأحوال القلوب ، فإن ورد على القلب قبض ظهر على الجوارح أثره من السكون ، وإن ورد عليه بسط ظهر على الجوارح أثره من الخفة والحركة ، وإن ورد على القلب زهد وورع ظهر على الجوارح أثره وهو ترك وإحجام أى تأخر ، وإن ورد على القلب رغبة وحرص ظهر على الجوارح أثره ، وهو كد وتعب ، وإن ورد على القلب محبة وشوق ظهر على الجوارح أثره وهو شطح ورقص ، وإن ورد على القلب معرفة وشهود ظهر على الجوارح أثره وهو راحة وركود ، إلى غير ذلك من الأحوال وماينشأ عنها من الأعمال .

وقد تختلف هذه الأحوال على قلب واحد فيتلون الظاهر فى أعماله . وقد يغلب على قلب واحد حال واحد فيظهر عليه أثر واحد ، فقد يغلب على الشخص القبض فيكون مقبوضًا فى الغالب ، وقد يغلب عليه البسط كذلك إلى غير ذلك من الأحوال ، والله تعالى أعلم .

وفى الحديث : « إِنَّ فِى الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِىَ الْقَلْبُ » .

قلت : ولأجل هذا المعنى اختلفت أحوال الصوفية ، فمنهم عباد ، ومنهم زهاد ومنهم الورعون ، والمريدون ، والعارفون .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه فى قواعده :

قاعدة : النسك الأخذ بكل مسلك من الفضائل من غير مراعاة لغير ذلك ، فإن رام التحقيق فى ذلك : أى النسك فهو العابد ، وإن مال للأخذ بالأحوال

فهو الورع ، وإن آثر جانب الترك طالبًا للسلامة فهو الزاهد ، وإن أرسل نفسه فى مراد الحق فهو العارف ، وإن أخذ بالتخلق والتعلق فهو المريد . اهـ المراد منه .

وقال فى قاعدة أخرى : لايلزم من اختلاف المسالك اختلاف المقاصد ، بل يكون متحدًا مع اختلاف مسالكه كالعبادة والزهادة والمعرفة مسالك لقرب الحق على سبيل الكرامة وكلها متداخلة ، فلابد للعارف من عبادة وإلا فلا عبرة بمعرفته إذ لم يعبد معروفه ، ولابد له من زهادة وإلا فلا حقيقة عنده ، إذ لم يعرض عما سواه ، ولابد للعابد منهما إذ لاعبادة إلا بمعرفة : أى فى الجملة ، ولا فراغ للعبادة إلا بزهد ، والزاهد كذلك إذ لازهد إلا بمعرفة أى فى الجملة ، ولازهد إلا بعبادة وإلا عاد بطالة . نعم من غلب عليه العمل فعابد ، أو الترك فزاهد ، أو النظر لتصريف الحق فعارف . والكل صوفية ، والله أعلم اهـ .

الإخلاص

ولما كان الإخلاص شرطًا فى كل عمل ذكره بأثره فقال :

[الأعمال صور قائمة ، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها] .

الأعمال هنا : عبارة عن الحركة الجسمانية أو القلبية ، والصور : جمع صورة ، وهو مايتشخص فى الذهن من الكيفيات ، والروح : السر المودع فى الحيوانات ، وهو هنا عبارة عمايقع به الكمال المعتبر فى الأعمال ، والإخلاص : إفراد القلب لعبادة الرب ، وسره لبه ، وهو الصدق المعبر عنه بالتبرى من الحول والقوة ، إذ لايتم إلا به وإن صح دونه ، إذ الإخلاص نفى الرياء والشرك الخفى ، وسره : نفى العجب وملاحظة النفس ، والرياء قادح فى صحة العمل ، والعجب قادح فى كماله فقط .

قلت : الأعمال كلها أشباح وأجساد ، وأرواحها وجود الإخلاص فيها ، فكما لاقيام للأشباح إلا بالأوراح وإلا كانت ميتة ساقطة ، كذلك لاقيام للأعمال البدنية والقلبية إلا بوجود الإخلاص فيها وإلا كانت صورًا قائمة وأشباحًا خاوية لاعبرة بها قال تعالى :

(وَمَا أمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء)[١] وقال تعالى : (فَاعْبُدِ الله مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)[٢] .

وقال صلى الله عليه وسلم حاكيًا عن الله تعالى :

« يقُولُ : أنَا أغْنَى الشُّرَكاء . مَنْ أشْرَكَ مَعِي غَيْرِى تَرَكْتُهُ وَشَرِيكَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم : « أخْوفُ مَا أخَافُ عَلَى أمَّتِي الشِّرْكُ الخَفِيُّ وَهُوَ الرِّيَاء »

وفى رواية : « اتَّقُوا هٰذَا الشِّرْكَ الْخَفِى فَإنَّهُ يَدِبُّ دَبِيبَ النَّمْلِ ، قيل : وَمَا الشِّرْكُ الخَفِيُّ ؟ قَالَ الرِّيَاء » اهـ بالمعنى لطول العهد به .

وفى حديث مسلسل إلى النبى صلى الله عليه وسلم :

« أنَّهُ سُئِلَ عَنِ الإخْلاصِ ، فَقَالَ : حَتَّى أسْأل جِبْرِيلَ ، فَلَمَّا سَألَهُ قَالَ : حَتَّى أسْألَ رَبَّ الْعِزَّةِ ، فَلَمَّا سَألَهُ قَالَ لَهُ : هُوَ سِرٌّ مِنْ أسْرَارِى أودِعُهُ قَلْبَ مَنْ أحْبَبتُ مِنْ عِبَادِى ، لاَ يَطَّلِعُ عَلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكْتُبَهُ ، وَلاَ شَيْطَانٌ فَيُفْسِدَهُ » : قال بعضهم : هو مقام الإحسان « أنْ تَعْبُدَ الله كَأنكَ تَرَاهُ » .

والإخلاص على ثلاث درجات : درجة العوام ، والخواص ، وخواص الخواص . فإخلاص العوام : هو إخراج الخلق من معاملة الحق ، مع طلب الحظوظ الدنيوية والأخروية ، كحفظ البدن والمال وسعة الرزق والقصور والحور . وإخلاص الخواص : طلب الحظوظ الأخروية دون الدنيوية . وإخلاص خواص الخواص إخراج الحظوظ بالكلية ، فعبادتهم تحقيق العبودية ، والقيام بوظائف الربوبية ، أو محبة وشوقًا إلى رؤيته كما قال ابن الفارض :

لَيْسَ سُؤلِى مِنَ الْجِنَانِ نَعِيمًا غَيْرَ أنِّى أحِبُّهَا لِأرَاكَـا

---

(١) البينه : ٥ .
(٢) الزمر : ٢ .

وقال آخرُ :

كُلُّهُمْ يَعْبُدُونَ مِنْ خَوفِ نَارٍ ... وَيَرَوْنَ النَّجَاةَ حَظًّا جَزِيلَا
أَوْ بِأَنْ يَسْكُنُوا الجنَانَ فَيَضْحَوا ... فى رِيَاضٍ وَيَشْرَبُوا السَّلْسَبِيلَا
لَيْسَ لِى فى الجِنَانِ وَالنَّارِ رأىٌ ... أَنَا لَا أَبْتَغِى بِحِبِّى بَدِيلَا

قال الشيخ أبو طالب رضى الله عنه : الإخلاص عند المخلصين إخراج الخلق من معاملة الحق ، وأول الخلق النفس ، والإخلاص عند المحبين : ألا يعملوا عملا لأجل النفس وإلا دخل عليها مطالعة العوض أو الميل إلى حظ النفس . والإخلاص عند الموحدين : خروج الخلق من النظر إليهم فى الأفعال ، وعدم السكون والاستراحة إليهم فى الأحوال .

وقال بعض المشايخ : صحح عملك بالإخلاص ، وصحح إخلاصك بالتبرى من الحول والقوة . اهـ كلامه .

وقال بعض العارفين : لايتحقق الإخلاص حتى يسقط من عين الناس ويُسقِط الناس من عينه ، ولذلك قال آخر : كلما سقطت من عين الخلق عظمت فى عين الحق وكلما عظمت فى عين الخلق سقطت من عين الحق ، يعنى مع ملاحظتهم ومراقبتهم .

وسمعت شيخنا يقول : مادام العبد يراقب الناس ويهابهم لايتحقق إخلاصه أبدًا . وقال أيضًا : لاتجتمع مراقبة الحق مع مراقبة الخلق أبدًا ، إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه اهـ .

والحاصل : لايمكن الخروج من النفس والتخلص من دقائق الرياء من غير شيخ أبدًا ، والله تعالى أعلم .

الخمول

ولما كان الخمول من مضامن الإخلاص ، بل لايتحقق فى الغالب إلا به إذ لاحظ فيه للنفس ذكره بعده فقال :

[ادفن وجودك فى أرض الخمول ، فمانبت مما لم يدفن لايتم نتاجه] .

الدفن : هو التغطية والستر ، والخمول : سقوط المنزلة عند الناس ، ونتاج الشجرة : ثمرتها ، استعير هنا للحكم والمواهب والعلوم التى يجتنيها العبد من المعرفة بالله ، وذلك عند موت نفسه وحياة روحه .

قلت : استر نفسك أيها المريد وادفنها فى أرض الخمول حتى تَستأنِسَ به وتستحليَه ،ويكون عندها أحلى من العسل ، ويصير الظهور عندها أمرّ من الحنظل ، فإذا دفنتها فى أرض الخمول وامتدت عروقها فيه ، فحينئذ تجنى ثمرتها ويتم لك نتاجها ، وهو سر الإخلاص والتحقق بمقام خواص الخواص . وأما إذا لم تدفنها فى أرض الخمول وتركتها على ظهر الشهرة تجول ، ماتت شجرتها أو أسقطت ثمرتها ، فإذا جنى العارفون ماغرسوه من جنات معارفهم من العلوم ، ومادفنوه من كنوز الحكم ومخازن الفهوم بقيت أنت فقيرًا سائلا أوسارقًا صائلا .

قال سيدنا عيسى عليه السلام لأصحابه : أين تنبت الحبة ؟ قالوا فى الأرض ، قال كذلك الحكمة لاتنبت إلا فى القلب كالأرض اهـ .

وقال بعض العارفين : كلما دفنت نفسك أرضًا أرضًا سماقلبك سماء سماء .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِى طِمْرَيْنِ تَنْبُو عَنْهُ أَعْيُنُ النَّاسِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ فى قَسَمِهِ » .

« وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ جَالِسًا مَعَ الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ كبير بَنى تميمٍ ، فَمَرَّ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاء الْمُسْلِمينَ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلامُ لِلْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ مَاتَقُولُ فى هٰذا ؟ فقالَ هذا يارَسُولَ اللهِ مِنْ فُقَرَاء الْمُسْلِمينَ ، حَقِيق إنْ خَطَبَ ألا يُزَوَّجُ ، وَإن اسْتأْذَنَ ألّا يُؤْذَنَ لهُ ، وإنْ قال ألا يُسمعَ لَهُ ؛ ثُمَّ مَرَّ بِهِمَا رَجُلٌ مِنَ الْمتْرَفِينَ ، فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ : وَمَا تَقُولُ فى هٰذا ؟ فَقَالَ : هٰذَا حَقِيقٌ إنْ خَطَبَ أَنْ يُزَوَّجَ ، وَإنِ اسْتَأْذَنَ أن يُؤذَنَ لَهُ، وإنْ قَالَ أَنْ يُسْمَعَ لَهُ ،

فقَالَ صَلى الله عليهِ وسلَم : هٰذَا ، يَعْنِي الفَقِيرَ ، خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِنْ هٰذَا » .

وفى مدح الخمول أحاديث كثيرة ، وفضائل مشهورة ، ولو لم يكن فيه إلا الراحة وفراغ القلب لكان كافيًا ، وأنشد بعضهم وهو الحضرمى :

عِشْ خَامِلَ الذِّكْرِ بَيْنَ النَّاسِ وَارْضَ بِهِ
فَذَاكَ أَسْلَمُ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ
مَنْ عَاشَرَ النَاسَ لَمْ تَسْلَمْ دِيَانَتُهُ
وَلَمْ يَزَلْ بَيْنَ تَحْرِيكٍ وَتَسْكِينِ

وقال بعض الحكماء : الخمول نعمة والنفس تأباه ، والظهور نقمة والنفس تهواه ، وقال آخر : طريقتنا هذه لاتصلح إلا بقوم كنست بأرواحهم المزابل .

قلت : ويجب على من ابتلى بالجاه والرياسة أن يستعمل من الخراب مايسقط به جاهه وإن كان مكروهًا دون الحرام المتفق عليه بقصد الدواء ، كالسؤال فى الحوانيت أو الديار ، والأكل فى السوق وحيث يراه الناس ، وكالرقاد فيه ، وكالسقى بالقربة ، وحمل الزبل على الرأس بوقاية ، وكالمشى بالحفا ، وإظهار الحرص والبخل والشح ، وكلبس المرقعة ، وتعليق السبحة الكبيرة ، وكل مايثقل على النفس من المباح أو المكروه دون الحرام .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : وكما لا يصح دفن الزرع فى أرض رديئة لايجوز الخمول بحالة غير مرضية . وقياس ذلك بالغصة لايصح ، لأن فوت الحياة الحسية مانع من كل خير واجبًا ومندوبًا ، وتفويتها مع إمكان إبقائها محرم إجماعًا ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَاتُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾[1] .

بخلاف الخمول لايفوت به شىء من ذلك ، إنما يفوت به الكمال ، وهو نفى الجاه والمنزلة ، وأصله الإباحة اهـ .

وأجاب بعضهم بأنه إذا جاز لفوت الحياة الفانية ، فأولى أن يجوز لفوت

---

(١) البقرة : ١٩٥ .

الحياة الدائمة وهى المعرفة فتأمله .

وقصة لص الحمام تشهد له ، والله تعالى أعلم .

ولقد سمعت شيخنا رضى الله عنه يقول : الفقير الصديق يقتل نفسه بأدنى شىء من المباح ، والفقير الكذاب يقع فى المحرم ولايقتلها ، وكان كثيرًا ماينهى عن الأحوال الظلمانية ويقول : عندنا من المباح مايغنينا عن المحرم والمكروه .

وأما السؤال فإنما هو مكروه أو حرام ، لقصد قوت الأشباح مع الكفاية . وأما لقصد قوت الأرواح فليس بحرام . وقد ذكر القسطلانى فى شرح البخارى عن ابن العربى الفقير ، أنه واجب على الفقير فى بدايته فانظره . وقد ذكره فى المباحث الأصلية مستوفى فانظره ، وسيأتى الكلام عليه إن شاء الله عند قوله : لاتمدن يدك إلى الأخذ من الخلائق إلخ .

فإن قلت : هذا الخراب الذى ذكرت فيه شهرة أيضًا ، إذ الخمول هو الخفاء عن أعين الناس ، وهذا فيه ظهور كبير .

قلت : الخمول هو إسقاط المنزلة عند الناس وكتمان سر الولاية ، وكل مايسقط المنزلة عندهم وينفى تهمة الولاية فهو خمول ، وإن كان فى الحس ظهورًا ، ولذلك كان شيخنا رضى الله عنه يقول : طريقنا منها الخمول فى الظهور ، والظهور فى الخمول .

وقال النجيبى فى « الإنالة » مانصه : ومن يقل من الصوفية إن المرقعة شهرة ، فجوابه أن سلمان الفارسى سافر فى زيارة أبى الدرداء من العراق إلى الشام راجلا وعليه كساء غليظ غير مضموم ، فقيل له أشهرت نفسك ؟ فقال الخير خير الآخرة ، وإنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد ، فإذا أعتقت لبست حلة لاتبلى حواشيها اهـ .

ومن ذلك قصة الغزالى رضى الله عنه : من حمله جلد الثور على ظهره حين ملاقاة شيخه الخراز وكنسه السوق واستعماله القربة ليسقى الناس ، كذا سمعتها من الشيخ مرارًا ، ولم أقف عليها عند أحد ممن عرف به . وانظر ماجرى له مع ابن العربى عند قوله : رب عُمْر اتسعت آماده وقَلَّت أمداده . وكذلك قصة الشُّشترى رضى الله عنه مع شيخه ابن سبعين ، لأن الششترى كان وزيرًا وعالمًا وأبوه كان أميرًا ، فلما أراد الدخول فى طريق القوم قال له شيخه :

لاتنال منها شيئًا حتى تبيع متاعك وتلبس قُشَّابة وتأخذ بنديرًا وتدخل السوق ، ففعل جميع ذلك ، فقال له مانقول فى السوق ؟ فقال قل بدأت بذكر الحبيب ، فدخل السوق يضرب بنديره ويقول بدأت بذكر الحبيب ، فبقى ثلاثة أيام وخرقت له الحجب فجعل يغنى فى الأسواق بعلوم الأذواق . ومن كلامه رضى الله عنه :

شُوَيْخٌ مِنْ أرْضِ مِكْنَاسِ   فى وَسَطِ الأَسْوَاقِ يُغَنِّى
آشْ عَلَيَّ مِنَ النَّاسِ   وَآشْ عَلَى النَّاسِ مِنِّى

ثم قال :

إشْ حَد مِنْ حَدّ   أَفْهَمُوا ذِى الإشَارَه
وَانْظُرُوا كِبَرَ سِنِّى   وَالْعَصَا وَالْغِرَارَهْ

* * *

هٰكَذَا عِشْتُ بِفَاسِ   وَكِذْهَانِ هَوْنِى
آشْ عَلَيَّ مِنَ النَّاس   وَآشْ عَلَى النَّاسِ مِنِى

* * *

وَمَا أحْسَنَ كَلاَمَهُ   إذَا يَخْطُرُ فى الأسْواقِ
وَتَرَى أَهْلَ الحَوَانِتِ   تَلْتَفِتُ لَوْ بالأعْنَاقِ

* * *

بِالْغِرَارةِ فى عُنُقُو   بِعُكَيْكِزٍ وبِغْرَاف

* * *

شَيْخٌ يَبْنِى عَلَى سَاسِ   كَإنْشَاء الله يَبْنِى
إشْ عَلَيَّ مِنَ النَّاسِ   وَآشْ عَلَى النَّاسِ مِنِى

وكذا قصة الرجل الذى كان مع أبى يزيد البسطامى بقى معه ثلاثين سنة ، فكان لاينقطع عن مجلسه ولا يفارقه ، فقال له يومًا : يا أستاذى أنا منذ ثلاثين

سنة أصوم النهار وأقوم الليل ، وقد تركت الشهوات ، ولست أجد فى قلبى شيئًا من هذا الذى تذكر البتة ، وأنا أومن بكل ماتقول وأصدقه ؟ فقال له أبو يزيد رضى الله عنه : لو صليت ثلاثمائة سنة وأنت على ماأراك عليه لاتجد منه ذرة ، قال فلم ياأستاذ ؟ قال : لأنك محجوب بنفسك ، قال أفلهذا دواء حتى ينكشف هذا الحجاب ؟ قال نعم ، ولكنك لاتقبل ولاتعمل ، قال بل أقبل وأعمل ماتقول ، قال له أبو يزيد : اذهب الساعة إلى الحجام واحلق رأسك ولحيتك وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة ، وعلق فى عنقك مخلاة واملأها جوزًا واجمع حولك صبيانًا ، وقل بأعلى صوتك ياصبيان من يصفعنى صفعة أعطه جوزة وادخل سوقك الذى تُعظَّم فيه وأنت على هذه الحالة حتى ينظر إليك كل من عرفك ، فقال : يا أبا يزيد ، سبحان الله أيقال لمثلى هذا وتحسب أنى أفعله ، فقال له : قولك سبحان الله شرك ، فقال له وكيف ؟ فقال أبو يزيد لأنك عظمت نفسك فسبحتها قال : يا أبا يزيد لست أقدر على هذا ولا أفعله ، ولكن دلنى على غير هذا حتى أفعله ، فقال له أبويزيد : ابدأ بهذا قبل كل شىء حتى تسقط جاهك وتذل نفسك ، ثم بعد ذلك أعرفّك بما يصلح لك ، قال لا أطيق هذا ، قال : إنك قد قلت إنك تقبل وتعمل ، وأنا أعلم أن لامطمع لعبد فيما حجب عن العامة من أسرار الغيب حتى تموت نفسه ويخرق عوائد العامة ، فحينئذ تخرق له العوائد وتظهر له الفوائد اهـ .

وكذلك قصة أبى عمران البردعى مع شيخه أبى عبد الله التاودى بفاس ، من حلق رأسِه ولبسه جلابية وأخذ خبزة ينادى عليها من يخلصها ؟ ففعل جميع ذلك . وكذلك قصة شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن المجذوب ، من أكْلِه التين عند أشجار الناس ، وغنائه بالأسواق ، وخرابه بالقصر مشهور حتى طوّف بها مرارًا . وكذلك قصة سيدى على العمرانى ، فخرابه بفاس مشهور كنار على علم . سكن السفليات حتى مات رضى الله عنه . وكذلك قصة شيخ شيخنا مولاى العربى ، من لبسه الغرارة وسقيه بالقربة وغير ذلك مما هو معلوم .

فهذه الحكايات تدل على أن الخمول ليس هو ما يفهمه العوام من لزوم البيوت والفرار إلى الجبال ، فذلك هو عين الظهور عند المحققين . وإنما الخمول هو كما قال الشيخ زروق رضى الله عنه : تحقق النفس بوصفها الأدنى وشعورها

به أبدًا ، ووصفها الأدنى هو الذل ، وكل مايثقل عليها فمرجعه للتحقيق بوصف التواضع ، وفائدته تحصيل العمل وكمال الحقيقة اهـ .

فإن قلت : فى فعل هذه الأحوال التعرض لكلام الناس وإيقاعهم فى الغيبة قلت : هذا مبنى على القصد والنية ، وكل من فعل شيئًا من ذلك فإنما قصده قتل نفسه وتحقيق إخلاصه ودواء قلبه ، وهم مسامِحُون لمن قال فيهم عاذِرون له . قال سيدى على فى كتابه : نحن نعذِر من عذرنا ونعذر من لم يعذرنا . وقال الشيخ زروق فى قواعده : قاعدة حكم الفقه عام فى العموم ، لأن مقصوده إقامة رسم الدين ورفع مناره وإظهار كلماته ، وحكم التصوف خاص فى الخصوص ، لأنه معاملة بين العبد وربه من غير زائد على ذلك فمن ثم صح إنكار الفقيه على الصوفى ، ولم يصح إنكار الصوفى على الفقيه ولزم الرجوع من التصوف إلى الفقه فى الأحكام لافى الحقائق اهـ .

تنبيه : هذه الأدوية التى ذكرنا إنما هى فى حالة المرض ، وأما من تَحَقَّقَ شِفاؤه وكمل فناؤه فهو عبد الله سواء أظهره أو أخفاه . وفى هذا قال أبو العباس المرسى رضى الله عنه : من أحب الظهور فهو عبد الظهور ، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء ، وعبد الله سواء عليه أظهره أم أخفاه اهـ .

العزلة والفكرة

ولما كان التخلص من دقائق الرياء ومخادع النفوس ، لايكون فى الغالب إلا بالفكرة ، ولاتتم الفكرة إلا بالعزلة ، ذكرها فقال :

[ما نفع القلب شىءٌ مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة] .

النفع : إيصال الفائدة ، والقلب : القوة المستعدة لقبول العلم ، والعزلة : انفراد القلب بالله ، وقد يراد بها الخلوة التى هى انفراد القالب عن الناس وهو المراد هنا ، إذ لا ينفرد القلب فى الغالب إلا إذا انفرد القالب ، وميدان بالفتح والكسر فى الميم : مجال الخيل استعير هنا للأفكار ، إذ ترددها فى مواقعها كتردد الخيل فى مجالها ، والفكرة : سير القلب إلى حضرة الرب ، وهى على قسمين : فكرة تصديق وإيمان ، وفكرة شهود وعيان على ما يأتى .

قلت : لا شيء أنفع للقلب من عزلة مصحوبة بفكرة ، لأن العزلة كالحمية والفكرة كالدواء فلا ينفع الدواء من غير حمية ، ولا فائدة فى الحمية من غير دواء . فلا خير فى عزلة لا فكرة فيها ، ولا نهوض لفكرة لا عزلة معها ، إذ المقصود من العزلة هو تفرغ القلب ، والمقصود من التفرغ هو جولان القلب واشتغال الفكرة ، والمقصود من اشتغال الفكرة تحصيل العلم وتمكنه من القلب ، وتمكن العلم بالله من القلب هو دواؤه . وغاية صحته وهو الذى سماه الله القلب السليم ، قال الله تعالى فى شأن القيامة :

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)[1] .

أى صحيح . وقد قالوا : إن القلب كالمعدة إذا قويت عليها الأخلاط مرضت ولا ينفعها إلا الحمية ، وهى قلة موادها ومنعها من كثرة الأخلاط .

وفى الحديث : « المَعِدَةُ بَيْتُ الدَّاء ، وَالحِمْيَةُ رَأْسُ الدَّوَاءِ » .

وكذلك القلب إذا قويت عليه الخواطر واستحوذ عليه الحس مرض وربما مات ، ولا ينفعه إلا الحمية منها ؛ والفرار من مواطنها ، وهى الخلطة. فإذا اعتزل عن الناس واستعمل الفكرة نجح دواؤه واستقام قلبه ، وإلا بقى سقيمًا حتى يلقى الله بقلب سقيم بالشك والخواطر الرديئة ، نسأل الله العافية .

قال الجنيد رضى الله عنه : أشرف المجالس الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : ثمار العزلة الظفر بمواهب المنة ، وهى أربعة : كشف الغطاء ، وتنزل الرحمة ، وتحقق المحبة ، ولسان الصدق فى الكلمة . قال الله تعالى :

(فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ)[2] الآية .

---

(١) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) مريم : ٤٩ .

فوائد الخلوة

واعلم أن فى الخلوة عشر فوائد :

الفائدة الأولى : السلامة من آفات اللسان ، فإن من كان وحده لا يجد معه من يتكلم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

« رَحِمَ اللهُ عَبْدًا سَكَتَ فَسَلِمَ ، أَوْ تَكَلَّمَ فَغَنِمَ » .

ولا يسلم فى الغالب من آفاته إلا من آثر الخلوة على الاجتماع . وقال شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه : إذا رأيت الفقير يؤثر الخلوة على الاجتماع ، والصمت على الكلام ، والصيام على الشبع ، فاعلم أن حبجه قد عسل . وإذا رأيته يؤثر الخلطة والكلام والشبع على ضدها ، فاعلم أن حبجه خاو . وقال فى القوت : وفى كثرة الكلام : قلة الورع ، وعدم التقوى ، وطول الحساب ، ونشر الكتاب ، وكثرة الطالبين ، وتعلق المظلومين بالظالمين ، وكثرة الأشهاد من الكرام الكاتبين ، ودوام الإعراض عن الملك الكريم ، لأن الكلام مفتاح كبائر اللسان ، وفيه الكذب ، وفيه الغيبة والنميمة ، والزور والبهتان . ثم قال : وفى الخبر :

« أَكْثَرُ خَطَايَا ابْنِ آدَمَ فى لِسَانِهِ ، وأَكْثَرُ النَّاسِ ذُنُوبًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ خَوْضًا فيما لَا يَعْنِي » .

الفائدة الثانية : حفظ البصر ، والسلامة من آفات النظر ، فإن من كان معتزلا عن الناس سلم من النظر إليهم وإلى ما هم منكبون عليه من زهرة الدنيا وزخرفها . قال تعالى :

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾[1] .

---

(١) طه : ١٣١ .

فتمنع بذلك النفس من التطلع إليها والاستشراف لها ومنافسة أهلها .

وقال محمد بن سيرين رضى الله عنه : إياك وفضول النظر ، فإنها تؤدى إلى فضول الشهوة .

وقال بعض الأدباء : من كثرت لحظاته دامت حسراته .

وقالوا : إن العين سبب الحَيْن : أى الهلاك ، ومن أرسل طرفه اقتنَصَ حَتْفه ، وإن النظر بالبصر إلى الأشياء يوجب تفرقة القلب اهـ .

الفائدة الثالثة : حفظ القلب وصونه عن الرياء والمداهنة وغيرهما من الأمراض . قال بعض الحكماء : من خالط الناس داراهم ، ومن داراهم راءاهم ، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فهلك كما هلكوا . وقال بعض الصوفية : قلت لبعض الأبدال المنقطعين إلى الله كيف الطريق إلى التحقيق ؟ قال : لا تنظر إلى الخلق فإن النظر إليهم ظلمة .

قلت : لابد لى ؛ قال فلا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة . قلت لابد لى ، قال فلا تعاملهم فإن معاملتهم خسران وحسرة ووحشة . قلت : أنا بين أظهرهم لابد لى من معاملتهم ، قال فلا تسكن إليهم فإن السكون إليهم هَلَكة . قلت هذا لعله يكون . قال : يا هذا تنظر إلى اللاعبين ، وتسمع كلام الجاهلين ، وتعامل البطالين ،وتسكن إلى الهالكين وتريد أن تجد حلاوة الطاعة وقلبك مع غير الله . هيهات، هذا لايكون أبدًا ، ثم غاب عنى .

وقال القشيرى رضى الله عنه : فأرباب المجاهدة إذا أرادوا صون قلوبهم عن الخواطر الرديئة لم ينظروا إلى المستحسنات أى من الدنيا ، قال وهذا أصل كبير لهم فى المجاهدات فى أحوال الرياضة .

الفائدة الرابعة : حصول الزهد فى الدنيا والقناعة منها ، وفى ذلك شرف العبد وكماله ، وسبب محبته عند مولاه . لقوله صلى الله عليه وسلم :

« ازْهَدْ فِى الدُّنْيَا يُحِبَّكَ الله ، وازْهَدْ فِيمَا فى أَيْدِى النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ » اهـ .

ولا شك أن من انفرد عن الناس ولم ينظر إلى ما هم فيه من الرغبة فى الدنيا

والانكباب عليها ، يسلم من متابعتهم فى ذلك ، ويسلم من متابعة الطباع الرديئة والأخلاق الدنيئة ، وقل من يخالطهم أن يسلم مما هم فيه .

وقد روى عن عيسى عليه السلام : لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم ، قالوا من الموتى يا روح الله ؟ قال المحبون للدنيا الراغبون فيها .

الفائدة الخامسة : السلامة من صحبة الأشرار ، ومخالطة الأرذال ، وفى مخالطتهم فساد عظيم وخطر جسيم ، ففى بعض الأخبار :

« مَثَلُ الْجَلِيسِ السُّوءِ كَمَثَلِ الكِيرِ إِذَا لَمْ يَحْرِقْكَ بِشَرَرِهِ عَلِقَ بِكَ مِنْ رِيحِهِ » .

وقال سيدى عبد الرحمن المجذوب رضى الله عنه : الجلسة مع غير الأخيار ترذل ولو تكون صافيًا .

أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : ياداود مالى أراك منتبذًا وحدانيًّا ؟ فقال : إلهى قَلَيْتُ الخلق من أجلك ، فقال : ياداود كن يقظان ، وارتَدْ لنفسك إخوانًا ، وكل أخ لا يوافقك على مسرتى فلا تصحبه ، فإنه لك عدو يقسِّى قلبك ويباعدك منى اهـ .

فإن أردت الصحبة فعليك بصحبة الصوفية ، فإن صحبتهم كنز لا نفاد له .

قال الجنيد رضى الله عنه : إذا أراد الله بعبد خيرًا أوقعه إلى الصوفية ومنعه صحبة القراء .

وقال آخر : والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح .

الفائدة السادسة : التفرغ للعبادة والذكر والعزم على التقوى والبر ، ولا شك أن العبد إذا كان وحده تفرغ لعبادة ربه وانجمع عليها بجوارحه وقلبه لقلة من يشغله عن ذلك .

قال فى القوت : وأما الخلوة فإنها تفرغ القلب من الخلق ، وتجمع الهم بالخالق ، وتقوّى العزم على الثبات إلخ كلامه .

الفائدة السابعة : وجدان حلاوة الطاعات ، وتمكن لذيذ المناجاة لفراغ سره ، وهذا مجرب صحيح .

قال أبو طالب : ولا يكون المريد صادقًا حتى يجد فى الخلوة من الحلاوة والنشاط والقوة ما لا يجده فى العلانية ، وحتى يكون أنسه فى الوحدة وروحه فى الخلوة ، وأحسن أعماله فى السر اهـ .

الفائدة الثامنة : راحة القلب والبدن ، فإن فى مخالطة الناس ما يوجب تعب القلب بالاهتمام بأمرهم ، وتعب البدن بالسعى فى أغراضهم ، وتكميل مرادهم وإن كان فى ذلك الثواب ، فقد يفوته ما هو أعظم وأهم ، وهو جمع القلب فى حضرة الرب .

الفائدة التاسعة : صيانة نفسه ودينه من التعرض للشرور والخصومات التى توجبها الخلطة ، فإن للنفس تولعًا وتسارعًا للخوض فى مثل هذا إذا اجتمعت بأرباب الدنيا وزاحمتهم فيها ، وللشافعى رضى الله عنه :

وَمَنْ يَذُقِ الدُّنْيَا فإِنِّى طَعِمْتُهَا ... وَسِيقَ إِلَىَّ عَـذْبُهَا وَعَـذَابُهَا
فَلَمْ أَرَهَا إِلَّا غُرُورًا وَبَاطِلًا ... كَما لَاحَ فى ظَهْرِ الْفَلاةِ سَرَابُهَا
وَمَا هِىَ إِلَّا جِيفَةٌ مُسْتَحِيلَةٌ ... عَلَيْهَا كِلابٌ هَمُّهُنَّ اجْتِذَابُهَا
فَإِنْ تَجْتَنِبْهَا عِشْتَ سِلْمًا لِأَهْلِهَا ... وَإِنْ تَجْتَذِبْهَا نَاهَشَتْكَ كِلابُهَا
فَطُوبَى لِنَفْسٍ أَوطَأَتْ قَعْرَ بَيْتِهَا ... مُغَلَّقَةَ الأَبْوَابِ مُرْخًى حِجَامُهَا

الفائدة العاشرة : التمكن من عبادة التفكر والاعتبار ، وهو المقصود الأعظم من الخلوة . وفى الخبر :

« تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِينَ سَنَةً » .

وكان عيسى عليه السلام يقول : طوبى لمن كان كلامه ذكرًا ، وصمته تفكرًا ، ونظره عبرة ، وإن أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت .

وقال كعب : من أراد شرف الآخرة فليكثر من التفكر . وكان أفضل عبادة أبى الدرداء التفكر ، وذلك لأنه يصل به إلى حقائق الأشياء وتبيين الحق من الباطل ، ويطلع بها أيضًا على خفايا آفات النفوس ومكائدها وغرور الدنيا ، ويتعرف بها وجوه الحيل فى التحرز عنها والطهارة منها .

قال الحسن رضى الله عنه : الفكرة مرآة تريك حَسَنك من سيئك ، ويطلع بها أيضًا على عظمة الله وجلاله إذا تفكر فى آياته ومصنوعاته ، ويطلع بها أيضًا على آلائه ونعمائه الجلية والخفية ، فيستفيد بذلك أحوالاً سنية ، يزول بها مرض قلبه ، ويستقيم بها على طاعة ربه ، قاله الشيخ ابن عباد رضى الله عنه : فهذه ثمرات عزلة أهل البداية . وأما أهل النهاية فعزلتهم مصحوبة معهم ولو كانوا وسط الخلق ، لأنهم رضى الله عنهم أقوياء محجوبون بالجمع عن الفرق ، وبالمعنى عن الحس ، استوى عندهم الخلوة والخلطة ، لأنهم يأخذون النصيب من كل شىء ، ولا يأخذ النصيب منهم شيئًا . وفى هذا المعنى قال شيخ شيوخنا المجذوب رضى الله عنه :

الْخَلْقُ نُوَّارٌ وَأَنَا أَرْعَيْتُ فيهِمُ ... هُم الحُجُبُ الأَكْبَرُ وَالْمَدْخَلُ فِيهِمُ

حجاب الروح

فإن أضاف المريد إلى العزلة الصمت والجوع والسهر ، فقد كملت ولايته ، وظهرت عنايته ، وأشرقت عليه الأنوار ، وانمحت من مرآة قلبه صور الأغيار . وقد أشار الشيخ إلى بعض ذلك متعجبًا من ضده فقال :

[كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته ؟] .

يشرق : بضم الياء أى يستنير ويضىء ، وصور الأكوان : أشخاصها وتماثيلها الحسية والمعنوية ، والأكوان : أنواع المخلوقات دقت أو جلّت ، ومنطبعة : أى ثابتة ، وانطبع الشىء فى الشىء : ظهر أثره فيه ، والمرآة بكسر الميم : آلة صقيلة ينطبع فيها ما يقابلها ، فكلما قوى صقلها قوى ظهور ما يقابلها فيها ، واستعيرت هنا للبصيرة التى هى عين القلب التى تتجلى فيها الأشياء حسنها وقبيحها .

قلت : جعل الله قلب الإنسان كالمرآة الصقيلةينطبع فيها كل ما يقابلها وليس لها إلا وجهة واحدة ، فإذا أراد الله عنايته بعبد شغل فكرته بأنوار ملكوته وأسرار جبروته ، ولم يعلق قلبه بمحبة شىء من الأكوان الظلمانية والخيالات

الوهمية ، فانطبعت فى مرآة قلبه أنوار الإيمان والإحسان ، وأشرقت فيها أقمار التوحيد وشموس العرفان ، وإلى ذلك أشار الششترى فى بعض أزجاله بقوله :

أغْمِضِ الطَّرْفَ تَرَى وَتَـلُوحُ أَخْبـارُكْ
وافْنَ عَنْ ذِى الوَرَى تَبْدُو لَكَ أَسْرارُكْ
وَبِصَقْلِ المِرَا يَـهْ يَـزُولُ إِنكارُك

ثم قال :

الفُلْكُ فِيكَ يَدورُ وَيُضِىء وَيَلْمَعْ
والشُّموسُ والبُدورُ فِيكَ تَغِيبُ وتَطلُعْ

أى وبصقل مرآة قلبك يزول إنكارك للحق فتعرفه فى كل شىء ، فيصير قلبك قطب فلك الأنوار ، فيه تبدو أقمار التوحيد وشموس العرفان .

وإذا أراد الله تعالى خذلان عبد بعدله وحكمته أشغل فكرته بالأكوان الظلمانية والشهوات الجسمانية ، فانطبعت تلك الأكوان فى مرآة قلبه ، فانحجب بظلماتها الكونية وصورها الخيالية عن إشراق شموس العرفان وأنوار الإيمان . فكلما تراكمت فيها صور الأشياء انطمس نورها واشتد حجابها ، فلا ترى إلا الحس ولا تتفكر إلا فى الحس ، فمنها ما يشتد حجابها وينطمس نورها بالكلية ، فتنكر وجود النور من أصله ، وهو مقام الكفر والعياذ بالله . ومنها ما يقل صداها ويرق حجابها ، فتقرّ بالنور ولا تشاهده ، وهو مقام عوام المسلمين ، وهم متفاوتون فى القرب والبعد وقوة الدليل وضعفه ، كل على قدر يقينه ، وقلة تعلقاته الدنيوية ، وعوائقه الشهوانية ، وخيالاته الوهمية .

وفى الحديث : « إِنَّ الْقُلُوبَ تَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الحَدِيدُ ، وإِنَّ الإِيمان يَخْلَقُ » أى يبلى « كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ الجَدِيدُ » الحديث .

وفى حديث آخر : « لِكُلِّ شَىْء مَصْقَلَةٌ ، ومَصْقَلَةُ الْقُلُوبِ ذِكْرُ اللهِ » .

وقال صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّم أيضًا : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِى قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَودَاء ، فَإِنْ هو نَزَعَ واستَغْفَرَ صَقُلَتْ وإِنْ عادَ زِيدَ فِيها حتَّى

تَعْلُوَ قَلْبَهُ ، فَذٰلِكَ الرَّانُ الَّذِى ذَكَرَ اللهُ : (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يكْسِبُونَ)[1] . أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وإذا علمت أن القلب ليس له إلا وجهة واحدة ، إذا قابلها النور أشرقت ، وإذا قابلتها الظلمة أظلمت ، ولا تجتمع الظلمة والنور أبدًا ، علمت وجه تعجب الشيخ بقوله : كيف يشرق قلب بنور الإيمان والإحسان وصور الأكوان الظلمانية منطبعة فى مرآة قلبه ؟ فالضدان لا يجتمعان . قال الله تعالى :

(مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلبَيْنِ فى جَوْفِهِ)[2] .

فما لك أيها الفقير إلا قلب واحد . إذا أقبلت على الخلق أدبرت عن الحق ، وإذا أقبلت على الحق أدبرت عن الخلق فترحل من عالم الملك إلى الملكوت ، ومن الملكوت إلى الجبروت ، ومادمت مقيدًا فى هذا العالم بشهواتك وعوائدك فلا يمكنك الرحيل إلى ربك ، وإلى ذلك أشار بقوله :

[أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبّل بشهواته ؟] .

الرحيل : هو النهوض والانتقال من وطن إلى وطن ، وهو هنا من نظر الكون إلى شهود المكوّن ، أو من الملك إلى الملكوت ، أو من الوقوف مع الأسباب إلى رؤية مسبب الأسباب ، أو من وطن الغفلة إلى اليقظة ، أو من حظوظ النفس إلى حقوق الله أو من عالم الأكدار إلى عالم الصفا ، أو من رؤية الحس إلى شهود المعنى ، أو من الجهل إلى المعرفة ، أو من علم اليقين إلى عين اليقين ، أو من عين اليقين إلى حق اليقين ، أو من المراقبة إلى المُشاهدة ، أو من مقام السائرين إلى وطن المتمكنين ، والمكبل هو المقيد ، والمراد بالشهوات كل ما تشتهيه النفس وتميل إليه .

قلت : الرحيل مع التكبيل لا يجتمعان ، فمادام القلب محبوسًا بالميل إلى شىء من هذا العرض الفانى ولو كان مباحًا فى الشرع فهو مقيد به ومكبل فى

---

(١) المطففين : ١٤ .

(٢) الأحزاب : ٤ .

وطنه ، فلا يرحل إلى الملكوت ، ولا تشرق عليه أنوار الجبروت ، فتعلق القلب بالشهوات مانع له من النهوض إلى الله لاشتغاله بالالتفات إليها ، وعلى تقدير النهوض معها تكون مثبطة له عن الإسراع بالميل إليها ، وعلى تقدير الإسراع ، فلا يأمن العثار معها لأنس النفس بها ، ولذلك ترك الأكابر لذتها حتى قال بعضهم : لدغ الزنابير على الأجسام المقرحة أيسر من لدغ الشهوات على القلوب المتوجهة اهـ .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : قلت هذا إن تعلق القلب بطلبها قبل حصولها وإلا فلا ، لعدم تعلق القلب بها . وقد تقدم فى حقيقة التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة . وكان شيخنا رضى الله عنه يقول : إن شئتم أن نقسم لكم لا يدخل عالم الملكوت من فى قلبه علقة اهـ .

فاقطع عنك يا أخى عروق العلائق ، وفر من وطن العوائق ، تشرق عليه أنوار الحقائق ، ولهذا كانت السياحة والهجرة من الأمور المؤكدة على المريد ، إذ الإقامة فى وطنه الحسى لا يخلو معها من التعلقات الحسية . وقد قالوا : الفقير كالماء إذا طال فى موطن واحد تغير ، وإذا جرى عذب ، وبقدر ما يسير فى الحس يسير فى المعنى ، وبقدر ما يسير القالب يسير القلب ، والهجرة سنة نبوية ، ومنذ هاجر النبى صلى الله عليه وسلم لم تكن له راحة إلا فى السفر للجهاد ، حتى فتح الله عليه البلاد وكذلك الصحابة رضوان الله عليهم لم يستقر فى وطنه إلا القليل منهم ، حتى فتح الله على أيديهم سائر البلاد وهدى الله بهم العباد ، فنفعنا الله ببركاتهم آمين .

دخول القلب حضرة القدس

وإذا رحل القلب من وطن شهوته ، وتطهر من لوث غفلاته ، وصل إلى حضرة ربه ، وتنعم بشهود قربه ، ولذلك أشار بقوله :

[أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ؟] .

الحضرة : هى حضور القلب مع الرب . وهى على ثلاثة أقسام : حضرة القلوب ، وحضرة الأرواح ، وحضرة الأسرار . فحضرة القلوب للسائرين ، وحضرة الأرواح للمستشرفين ، وحضرة الأسرار للمتمكنين . أو تقول : حضرة القلوب لأهل المراقبة ، وحضرة الأرواح لأهل المشاهدة ، وحضرة الأسرار لأهل المكالمة ، وسر ذلك أن الروح مادامت تتقلب بين الغفلة والحضرة كانت فى حضرة القلوب ، فإذا استراحت بالوصال سميت روحًا وكانت فى حضرة الأرواح ، وإذا تمكنت وتصفت وصارت سرًّا من أسرار الله سميت سرًّا وكانت فى حضرة الأسرار ، والله تعالى أعلم .

قلت : الحضرة مقدسة منزهة مرفعة لا يدخلها إلا المطهرون ، فحرام على القلب الجنب أن يدخل مسجد الحضرة ، وجنابة القلب غفلته عن ربه ، قال تعالى :

(يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا)[1] .

أى لا تقربوا صلاة الحضرة وأنتم سكارى بحب الدنيا وشهود السوى وحتى تتيقظوا وتتدبروا ما تقولون فى حضرة الملك ، ولا جنبًا من جماع الغفلة وشهود السوى حتى تتطهروا بماء الغيب الذى أشار إليه الحاتمى رضى الله عنه ، كما فى الطبقات الشعرانية فى ترجمة أبى المواهب بقوله :

تَوَضَّأْ بِمَاءِ الْغَيْبِ إِنْ كُنْتَ ذَا سِرٍّ ... وَإِلَّا تَيَمَّمْ بِالصَّعِيدِ أَوِ الصَّخْرِ
وَقَدِّمْ إِمَامًا كُنْتَ أَنْتَ إِمَامَهُ ... وَصَلِّ صَلاةَ الظُّهْرِ فى أَوَّلِ الْعَصْرِ
فَهٰذِى صَلاةُ الْعَارِفِينَ بِرَبِّهِمْ ... فَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فَانْضَحِ الْبَرَّ بِالْبَحْرِ

يعنى تطهر من شهود نفسك بماء الغيبة عنها بشهود ربك ، أو تطهر من شهود الحس بشهود المعنى ، أو تطهر من شهود عالم الشهادة بماء شهود عالم الغيب ، أو تطهر من شهود السِّوى بماء العلم بالله ، فإنه يغيب عنك كل

---

(١) النساء : ٤٣ .

ما سواه . وإذا تطهرت من شهود السوى تطهرت من العيوب كلها ، وإلى ذلك أشار الششترى رضى الله عنه بقوله :

طَهِّرِ الْعَيْنَ بِالْمَدَامِعِ سَكْبًا مِنْ شُهُودِ السِّوَى تَزُلْ كُلُّ عِلَّةْ

وهذا الماء الذى هو ماء الغيب هو النازل من صفاء بحار الجبروت ، إلى حياض رياض الملكوت ، فتغرقه سحائب الرحمة ، وتثيره رياح الهداية ، فتسوقه إلى أرض النفوس الطيبة ، فتملأ منه أودية القلوب المنوَّرة ، وخلجان الأرواح المطهَّرة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :

(أَنْزَلَ مِنَ السَّماء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا)[١] الآية .

شبه الحق تعالى العلم النافع بالمطر النازل من السماء ؛ فكما أن المطر تغمر منه الأودية والغدران ، وتجرى منه العيون والأنهار ، كل على قدر سعته وكبره ، كذلك العلم النافع نزل من سماء عالم الغيب إلى أرض عالم الشهادة ، فسالت به أودية القلوب ، كل على قدر طاقته ، وحسب استعداده ، وكما أن المطر يطهر الأرض من الأوساخ ، وهو معنى قوله تعالى : (فاحتمل السيل زبدًا رابيًا) أى مرتفعًا على وجه الماء ، كذلك العلم النافع يطهر النفوس من الأدناس والقلوب من الأغيار ، والأرواح من الأكدار والأسرار من لَوْث الأنوار وهذا الماء هو الذى أشار إليه بقوله : توضأ بماء الغيب إن كنت ذا سر : أى كنت صاحب سر ، والشهود شهود الوحدة ونفى الكثرة ، أو شهود العظمة بالعظمة ، ومن لم يتحقق بهذا فلا يمكنه التطهير بماء الغيب بالكلية لفقده ذلك الماء ، أو لعدم قدرته عليه ، فينتقل للتيمم الذى هو رخصة للضعفاء وطهارة المرضى ، وإلى ذلك أشار بقوله : وإلا تيمم بالصعيد أو بالصخر : أى وإن لم تقدر على الطهارة الأصلية ، وهى الغيبة عن السوى لمرض قلبك مع عدم صدقك فانتقل للطهارة الفرعية التى هى العبادة الظاهرية .

أو تقول : وإن لم تقدر على الطهارة الحقيقية التى هى الطهارة الباطنية فانتقل

---

(١) الرعد : ١٧ .

للطهارة المُجازية التى هى الطهارة الظاهرية .

أو تقول : وإن لم تقدر على طهارة المقرَّبين فانتقل لطهارة أهل اليمين .

أو تقول : وإن لم تقدر على طهارة أهل المحبة فانتقل لطهارة أهل الخدمة ، قوم أقامهم الله لخدمته ، وقوم اختصهم بمحبته :

﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[1] .

فطهارة أهل المحبةُ الفكرة والنظرة ،وطهارة أهل الخدمة بالمجاهدة والمكابدة ، بين عبادة ظاهرة كصلاة وصيام وذكر وتلاوة وتعليم وغير ذلك ، وبين عبادة خفية كخوف ورجاء وزهد وصبر وورع ورضًى وتسليم ورحمة وشفقة ، وغير ذلك مما لا يظهر للعيان ، وهذا هو تصوف أهل الظاهر . وأما تصوف أهل الباطن : فهو الغيبة عن الأكوان بشهود المكوّن ، أو الغيبة عن الخلق بشهود الملك الحق ، وهو الذى عبر عنه الناظم بماء الغيب ، فكل من لم يدرك تصوف أهل الباطن فهو من أهل التيمم ، فإن كان مشغولا بالعمل الظاهر كالصلاة والصيام ونحوهما فهو كالمتيمم بالصعيد لظهورها كظهور أثر التراب على الجوارح ، وإن كان مشغولا بالعبادة الخفية كالزهد والورع ونحوهما فهو كالمتيمم بالصخر ، لعدم ظهورها فى الغالب ، كعدم ظهور أثر الصخر .

ولما أمرك بالغيبة عن السِّوَى خاف عليك إنكار الواسطة وإسقاط الحكمة ، فتقع فى الزندقة فقال : وقدم إمامًا كنت أنت إمامه ، والمراد بالإمام هو النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن كان على قدمه ممن جمع بين الحقيقة والشريعة ، فأمرك باتباع الشريعة المحمدية فى حال غيبتك عن السوى ، فيكون ظاهرك سلوكا وباطنك جذبًا ، ظاهرك مع الحكمة ، وباطنك مع القدرة ، ولابد أن تقتدى بإمام كامل سلك الطريقة على يد شيخ كامل ، يعلمك كيفية العمل بالشريعة ، ويدلك على الحقيقة ، وإلا بقيت مريضًا على الدوام تستعمل طهارة المرضى على الدوام . وانظر قول القرافى رضى الله عنه ، لما سقط على شيخ التربية قال : تيممت بالصعيد زمانًا ، والآن سقطت على الماء ، إذ لا تجد ماء

---

(١) الإسراء : ٢٠ .

الغيب ولا تقدر على استعماله إلا بصحبة أهل هذا الماء الذين شربوه وسكروا به ، ثم صحوا من سكرتهم ، وسلكوا من جذبتهم ، فتملكهم زمامَ أمرك وتنقادُ إليهم بكليتك ، بعد أن أطلعك الله على خصوصيتهم ، وكشف لك عن أسرارهم ، فشهدت لهم روحك بالتقديم وسرك بالتعظيم ، فتقدمهم أمامك بعد أن كنت أنت إمامهم ، وهم يطلبونك للحضرة ، وكذلك النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو الناس إلى الله وهم فارون أمامه ، فلما عرفوا الحق قدموه أمامهم ، وهذا معنى قوله : كنت أنت إمامه ، وقوله : وصل صلاة الفجر فى أول العصر ، وفى بعض النسخ : وصل صلاة الظهر فى أول العصر : أى اجمع ظهر الشريعة لعصر الحقيقة ، وفى أكثر النسخ : وصل صلاة الفجر فى أول العصر : أى ارجع إلى البقاء بعد كمال الفناء ، أو إلى السلوك بعد الجذب ، إذ الغالب على المريد أن يتقدمه السلوك ثم يأتيه الجذب ، فأوله سلوك وآخره جذب ، كما أن أول النهار صلاة الفجر وآخره صلاة العصر : أى ارجع إلى صلاة الفجر التى كانت فى أول نهارك فصلها فى آخر نهارك ، فارجع إلى السلوك الذى كان فى أول أمرك فاجعله فى آخر أمرك ، وهو معنى قولهم : منتهى الكمال مبدأ الشرائع . وقالوا أيضًا نهاية السالكين بداية المجذوبين ، ونهاية المجذوبين بداية السالكين. وقالوا أيضًا : علامة النهاية الرجوع إلى البداية وسيأتى الكلام على هذا فى محله إن شاء الله ، وقوله : فهذى صلاة العارفين بربهم ، لأنهم تطهروا الطهارة الأصلية وصلوا الصلاة الدائمة . قال الله تعالى :

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)[1] .

فالعوام حدّ صلاتهم أوقاتهم ، والعارفون فى الصلاة على الدوام . قيل لبعضهم هل للقلوب صلاة ؟ فقال نعم ، إذا سجد لا يرفع رأسه أبدًا : أى إذا سجدت الروح لهيبة الجلال والجمال لا ترفع رأسها أبدًا ، وإليه أشار الششترى بقوله :

فَاسْجُدْ لِهَيْبَةِ الجَلَالِ عِنْدَ التَّدانِي ‌ ‌ ‌ ‌ وَلْتَقْرَأْ آيَةَ الكَمَالِ سَبْعَ المَثَانى

---

(١) المعارج : ٢٣ .

وقوله : فإن كنت منهم فانضح البر بالبحر : أى فإن كنت من العارفين المحققين فانضح بر شريعتك ببحر حقيقتك بحيث ترش على شريعتك من بحر حقيقتك حتى تغمرها وتغطيها ، فتصير الشريعة عين الحقيقة ، والحقيقة عين الشريعة ، حتى يصير عملك كله بالله ، والله تعالى أعلم ، وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وإذا دخل القلب حضرة القدس ومحل الأنس ، فهم دقائق الأسرار ، وملئ بالمواهب والأنوار ، وإلى ذلك أشار بقوله :

[أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته] .

الرجاء : تمنى الشيء مع السعى فى أسبابه وإلا فهو أمنية . والفهم حصول العلم بالمطلوب ودقائق الأسرار غوامض التوحيد . والتوبة : الرجوع عن كل وصف ذميم إلى كل وصف حميد ، وهذه توبة الخواص . والهفوات : جمع هفوة وهى الزلة والسقطة .

قلت : فهم دقائق الأسرار لا يكون أبدًا مع وجود الإصرار .

أو تقول : فهم غوامض التوحيد لا يكون إلا بقلب فريد ، فمن لم يتب من هفواته ، ويتحرر من رق شهواته ، فلا يطمع فى فهم غوامض التوحيد ، ولا يذوق أسرار أهل التفريد .

قال أحمد بن أبى الحوارى : وسمعت شيخى أبا سليمان الدارانى رضى الله عنه يقول : إذا اعتادت النفوس ترك الآثام ، جالت فى الملكوت ورجعت إلى صاحبها بطرائف الحكمة من غير أن يؤدى إليها عالم علمًا .

قال أحمد بن حنبل : صدقت يا أحمد وصدق شيخك ، ما سمعت فى الإسلام بحكاية أعجب إلى من هذه :

« مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللهُ عِلمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

وقيل للجنيد رضى الله عنه : كيف الطريق إلى التحقيق ؟ قال بتوبة تزيل الإصرار ، وخوف يقطع التسويف ، ورجاء يبعث على مسالك العمل ، وإهانة النفس بقربها من الأجل وبعدها من الأمل ، فقيل له بماذا يصل إلى هذا ؟ فقال : بقلب مفرد فيه توحيد مجرد اهـ . فإذا انفرد القلب بالله وتخلص

مما سواه فهم دقائق التوحيد وغوامضه التى لا يمكن التعبير عنها ، وإنما هى رموز وإشارات لا يفهمها إلا أهلها ولا تفشى إلا لهم ، وقليل ما هم ، ومن أفشى شيئًا من أسرارها مع غير أهلها فقد أباح دمه وتعرض لقتل نفسه كما قال أبو مدين رضى الله عنه :

وَفِى السِّرِّ أَسْرَارٌ دِقَاقٌ لَطِيفَةٌ تُرَاقُ دِمَانَا جَهْرَةً لَوْ بِها بُحْنا

وقال آخر :

وَلِى حَبِيبٌ عزيز لا أَبُوحُ بِهِ أَخْشَى فَضِيحَةَ وَجْهِى يَوْمَ أَلْقَاهُ

وهذه الأسرار هى أسرار الذات وأنوار الصفات التى تجلى الحق بها فى مظهر الأكوان ، وإلى ذلك أشار بقوله :

[الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه] .

الكون : ما كونته القدرة وأظهرته للعيان ، والظلمة ضد النور وهى عدمية والنور وجودى ، وأناره أى صيره نورًا ، وظهور الحق تجليه .

قلت : الكون من حيث كونيته وظهور حسه كله ظلمة ، لأنه حجاب لمن وقف مع ظاهره عن شهود ربه ، ولأنه سحاب يغطى شمس المعانى لمن وقف مع ظاهر حس الأوانى ، وإليه أشار الششترى بقوله : لاتنظر إلى الأوانى ، وخض بحر المعانى ، لعلك ترانى ، فصار الكون بهذا الاعتبار كله ظلمة ، وإنما أناره تجلى الحق به وظهوره فيه ، فمن نظر إلى ظاهر حسه رآه جسماً ظلمانيًّا ، ومن نفذ إلى باطنه رآه نوراً ملكوتيًّا قال الله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1] .

فتحصل أن قول الشيخ الكون كله ظلمة إنما هو فى حق أهل الحجاب ، لانطباع ظاهر صور الأكوان فى مرآة قلوبهم . وأما أهل العرفان ، فقد نفذت بصيرتهم إلى شهود الحق ، فرأوا الكون نورًا فائضاً من بحر الجبروت ، فصار

---

(١) النور : ٣٥ .

الكون عندهم كله نوراً ، قال الله تعالى :

(قُلِ انْظُرُوا ماذَا فى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ)[1] .

أى من نور ملكوته وأسرار جبروته ، أو من أسرار المعانى القائمة بالأوانى .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن اللهَ احْتَجَبَ عَنْ أَهْلِ السَّماءِ كما احْتَجَبَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَإِنَّ أَهْلَ الملأ الْأَعْلى لَيَطْلُبُونَهُ كما تَطْلُبونَهُ أَنْتُمْ ، وإِنّهُ مَا حَلَّ فى شَىْءٍ وَلا غَابَ عَنْ شَىْءٍ » اهـ .

وهذه المعانى إنما هى أذواق لاتدرك بالعقل ولا بنقل الأوراق ، وإنما تدرك بصحبة أهل الأذواق ، فسلم ولا تنتقد :

وَإِذَا لَمْ تَرَ الْهِلَالَ فَسَلِّمْ لِأُنَاسٍ رَأَوْهُ بِالْأَبْصَارِ

ثم قسم الناس فى شهود الحق على ثلاثة أقسام : عموم ، وخصوص ، وخصوص الخصوص ، فقال :

[**فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده ، فقد أعوزه وجود الأنوار ، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار**] .

فأهل مقام البقاء يشهدون الحق بمجرد وقوع بصرهم على الكون ، فهم يثبتون الأثر بالله ولا يشهدون بسواه ، إلا أنهم لكمالهم يثبتون الواسطة والموسوطة ، فهم يشهدون الحق بمجرد شهود الواسطة أو عندها بلا تقديم ولا تأخير ولا ظرفية ولا مظروف :

مُذْ عَرَفْتُ الإِلٰهَ لَمْ أَرَ غَيْرًا وَكَذَا الْغَيْرُ عِندنَا مَمنوعُ

وقال الشيخ مولاى عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه لأبى الحسن رضى الله عنه : ياأبا الحسن حدِّد بصر الإيمان تجد الله فى كل شىءٍ ، وعند كل شىءٍ ، ومع كل شىءٍ ، وقبل كل شىءٍ ، وبعد كل شىءٍ ، وفوق كل شىءٍ ، وتحت كل

---

(١) يونس : ١٠١ .

شيءٍ ، وقريبًا من كل شيءٍ ، ومحيطاً بكل شيءٍ ، بقرب هو وصفه، وبحيطة هى نعته ، وعدٍّ عن الظرفية والحدود ، وعن الأماكن والجهات ، وعن الصحبة والقرب بالمسافات ، وعن الدور بالمخلوقات ، وامحق الكل بوصفه : الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو هو هو :

« كَانَ اللهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ ، وَهُوَ الآنَ عَلَى مَاكَانَ » اهـ .

وقال بعضهم : مارأيت شيئا إلا رأيت الله فيه ولم أره حديثا ، وإنما هو من قول بعض العارفين : فأهل السير من المريدين يشهدون الكون ، ثم يشهدون المكون عنده . وبأثره فيمتحق الكون من نظرهم بمجرد نظرهم إليه وهذا حال المستشرفين . وأهل مقام الفناء يشهدون الحق قبل شهود الحق بمعنى أنهم لايرون الخلق أصلا ، إذ لاثبوت له عندهم لأنهم لسكرتهم غائبون عن الواسطة ، فانون عن الحكمة ، غرقى فى بحر الأنوار ، مطموس عليهم الآثار .

وفى هذا المقام قال بعضهم : مارأيت شيئا إلا رأيت الله قبله ، وأهل الحجاب من أهل الدليل والبرهان إنما يشهدون الكون ولا يشهدون المكوِّن لاقبله ولا بعده ، إنما يستدلون على وجوده بوجود الكون وهذا لعامة المسلمين من أهل اليمين ، قد أعوزهم : أى فاتهم وجود الأنوار ، ومنعوا منها ، وحجبت عنهم شموس المعارف بسحب الآثار بعد طلوعها وإشراق نورها ، لكن لابد للشمس من سحاب ، وللحسناء من نقاب ، ولله در القائل :

وما احْتَجَبَتْ إلاّ بِرَفْعِ حِجَابِها ⁂ وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ الظُّهُورَ تَسَتُّرُ

وقال آخر :

لَقَدْ ظَهَرْتَ فَلَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ ⁂ إلَّا عَلَى أَكْمَهٍ لاَيُبْصِرُ القَمَرَا

لٰكِنْ بَطَنْتَ بِمَا أَظْهَرْتَ مُحْتجِبا ⁂ وَكَيْفَ يُعْرَف مَنْ بِالْعِزَّةِ اسْتَتَرَا

ثم احتجابه تعالى فى حال ظهوره مما يدلك على وجود قهره كما أشار إليه بقوله :

[مما يدلك على وجود قهره سبحانه أن حجبك عنه بما ليس بموجود معه] .

قلت : من أسمائه تعالى القهار ، ومن مظاهر قهره احتجابه فى ظهوره ، وظهوره فى بطونه ، وبطونه فى ظهوره ، ومما يدلك أيضًا على وجود قهره أن احتجب بلا حجاب وقرب بلا اقتراب ، بعيد فى قربه ، قريب فى بعده ، احتجب عن خلقه فى حال ظهوره لهم ، وظهر لهم فى حال احتجابه عنهم ، فاحتجب عنهم بشىء ليس بموجود وهو الوهم والوهم أمر عدمى مفقود ، فما حجبه إلا شدة ظهوره ، وما منع الأبصار من رؤيته إلا قهارية نوره ، فتحصل انفراد الحق بالوجود ، وليس مع الله موجود . قال تعالى :

(كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ)[1] .

واسم الفاعل حقيقة فى الحال . وقال تعالى :

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)[2] وقال تعالى : (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ)[3] وقال تعالى : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ)[4] وقال تعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ)[5] وقال تعالى : (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلٰكِنَّ اللهَ رَمَى)[6] وقال تعالى : (إنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ)[7] الآية ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أَفْضَلُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ :

أَلا كُلُّ شَىْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ
وَكُـلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَـالَـةَ زَائِـلُ »

وقال صلى الله عليه وسلم : « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : يَا عبْدِى مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِى ، فَيَقُولُ يَارَبِّ كَيْفَ أَعُودُك وأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ فَيَقُولُ اللهُ : أَمَا إِنَّهُ مَرِضَ عَبْدِى فُلَانٌ فَلَمْ تَعُدْهُ ، فَلَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِى عِنْدَهُ ، ثُمَّ يَقُولُ :

(١) القصص : ٨٨ .
(٢) الحديد : ٣ .
(٣) البقرة : ١١٥ .
(٤) الحديد : ٤ .
(٥) الإسراء : ٦٠ .
(٦) الأنفال : ١٧ .
(٧) الفتح : ١٠ .

يَا عَبْدِى اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِى ، ثُمَّ يَقُولُ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تُسْقِنِى » الحديث .

فدل الحديث على أن هذه الهياكل والأشخاص خيالات لا حقيقة لها ، فهى أشبه شىء بالظلال . قال الششترى رضى الله عنه :

الخَلْقُ خَلْقُكُمُ وَالأَمْرُ أَمْرُكُمُ فَأَىُّ شَىءٍ أَنَا لَكِنْتُ مِنْ ظُلَلِ
مَا لِلْحِجَابِ مَكَانٌ فِى وُجُودِكُم إلَّا بِسِرِّ حُرُوفِ انْظُرْ إلَى الْجَبَلِ
أنتم دَلَلْتُم عَلَيْكم مِنْكُمُ وَلَكُمْ دَيْمُومَةٌ عَبَّرَتْ عَنْ غَامِضِ الْأَزَلِ
وقَدْ[1] عَرفْتُ بِكُمْ هٰذَا الْخَبِيرَ بِكُمْ أَنْتُمْ هُمُ ياحَيَاةَ الْقَلْب يَا أَمَلِى

قوله الخلق خلقكم إلخ : المراد بالخلق صور الأشباح ، وبالأمر سر الأرواح : أى الأشباح حكمتكم ، والأرواح سر من أسراركم ، فأنا لاوجود لى أصلا ، فأى شىء قدرت نفسى وجدتها لكم ومظهرًا من مظاهركم ، وإنما أنا ظلل من ظلل وجودكم ، ثم قال : ماللحجاب مكان فى وجودكم : أى لا موضع للحجاب الحسى فى وجودكم ، إذ لو كان للحجاب مكان فى وجودكم لكان أقرب إلينا منكم وهو محال ، لأنك قلت :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَم مَاتُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحنُ أَقْربُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)[2] .

وقوله : إلا بسر حروف إلخ . الاستثناء منقطع : أى لاموضع للحجاب الحسى بيننا وبينكم ، لكن حجاب القهرية ورداء العزة والكبرياء هو الذى منع الأبصار من رؤية نوركم الأصلى الجبروتى ، إذ لو ظهر ذلك النور لاضمحلت المكوِّنات ، ولاحترقت من نور السبحات ، ولهذا السر أمر الله سيدنا موسى عليه السلام حين طلب الرؤية بالنظر إلى الجبل ، لما أراد تعالى أن يتجلى له بشىء من ذلك ، فلما لم يثبت الجبل لشىء قليل منه علمنا أنه لاطاقة للعبد

(١) قد زيادة يقتضيها الوزن . (٢) سورة ق الآية : ١٦ .

الضعيف فى هذه الدار على رؤية الواحد القهار إلا بواسطة الأكوان الكثيفة ، بعد أن نشر عليها الأردية المعنوية ، وهذا معنى قوله إلا بسر حروف (انظر إلى الجبل) أى إلا بحجاب القهرية المفهوم من سر قوله تعالى : (انظر إلى الجبل) ، أو إلا حجابًا ملتبسًا بسر الحكمة المفهوم من قوله تعالى (انظر إلى الجبل) وكأنه تعالى يقول ياموسى لن تقدر أن ترانى من غير حجاب الحكمة ولكن انظر إلى الجبل ، فإن أطاق ذلك فسوف ترانى أنت ، فلما تجلى له الحق تعالى من غير واسطة الحس جعله دكاء والله تعالى أعلم . وقال أيضًا فى هذا المعنى .

أنا شَىءٌ عجيبٌ لِمَنْ رَآنى   وَأَنَا الُمحبُّ والحبيبْ لَيْسَ ثَمَّ ثَانى

يَاقَاصِدًا عَيْنَ الْخَبرْ غَطَّاهُ أَيْنُكْ   الْخَمرُ مِنْكَ والْخَبَر والسِّر عِنْدَكْ

ارْجِع لِذَاتِكَ واعْتَبِرْ مَاثَمَّ غَيْرُكْ

فقوله ياقاصدًا عين الخبر : أى عين خبر التحقيق ، وقوله غطاه أينك : أى مكان وجودك الوهمى ، إذ لو غبت عن وجودك لوقعت على عين التحقيق ، وقوله الخمر منك أى شربة خمرءالمحبة منك وهذا كما قال : منى علىّ دارت كؤوسى . وقوله والخبر : أى والخبر عن عين التحقيق منك أيضًا ، وسر الربوبية عندك ، لأنك كنز مطلسم ، فإذا أردت أن تعرفه فارجع لذاتك واعتبر تجد الوجود كله واحدًا وأنت ذلك الواحد . قال الشاعر :

هٰذَا الوُجُودُ وَإنْ تَعَدَّد ظَاهِرًا   وَحَيَاتِكُمْ مَا فِيهِ إلا أَنْتُمُ

وقال أيضًا رضى الله عنه : لقد فشا سرى بلا مقال ، وقد ظهر عنى فى ذا المثال ، ترى وجود غيرى من المحال ، وكل مادونى خيال فىّ متحد فى كل شىء ، أنا هو المحبوب وأنا الحبيب ، والحب لى منى شىء عجيب ، وحدى أنا فافهم سرى غريب ، فمن نظر ذاتى رآنى شىّ ، وفى حلا ذاتى طوانى طىّ ، صفاتى لاتخفى لمن نظر ، وذاتى معلومة تلك الصورة ، افن عن الإحساس ترى عبر ، فى السر والمعنى خفيت كى أظهر ، لأنه من ستر علىّ وقد اتفقت على هذا المعنى وهو سر .

الواحدة مقالات العارفين ، ومواجيد المحبين ، وأشعارهم كل على قدر ذوقه وشربه جزاهم الله عنا وعن المسلمين خيرًا ، ولايفهم هذه العبارات إلا أهل الأذواق والإشارات وحسب من لم يبلغ لها فهمه ، ولم يحط بها علمه أن يسلّم ويكل فهمها إلى أربابها ، وليعتقد كمال التنزيه وبطلان التشبيه ، لأن هذه المعانى أذواق لاتنال إلا بصحبة أهل الأذواق .

بطلان وجود الحجاب

ثم استدل على بطلان وجود الحجاب فى حقه تعالى بعشرة أمور متعجبًا من كل واحد لظهوره مع خفائه : لشدة ظهوره عند العارفين وشدة خفائه عند الغافلين الجاهلين ، فأشار إلى الأول بقوله :

[كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الذى أظهر كل شىء] .

والظاهر هو الباطن . مابطن فى عالم الغيب هو الذى ظهر فى عالم الشهادة ، فحياض الجبروت متدفقة بأنوار الملكوت ، انظر جمالى شاهدًا ، فى كل إنسان ، الماء يجرى نافذًا فى أس الأغصان ، تجده ماء واحدًا ، والزهر ألوان ، ياعجبًا كيف يعرف بالمعارف من به عُرِفت المعارف ؟

عجبت لمن يبغى عليك شهادة   وأنت الذى أشهدته كل شاهد

ثم ذكر الثانى فقال :

[كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الذى ظهر بكل شىء ؟] .

بباء الجر أى تجلى بكل شىء فلا وجود لشىء مع وجوده فكيف يحجبه شىء ، والغرض أن لاشىء . قال صاحب العينية رضى الله عنه :

تَجَلَّيْتَ فى الْأشياء حِينَ خَلَقْتَها   فَهَا هِىَ مِيطَتْ عَنْكَ فِيها البَراقِعُ

ثم ذكر الثالث فقال :

[كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الذى ظهر فى كل شىء ؟] .

بقدرته وحكمته ، القدرة باطنة والحكمة ظاهرة ، فالوجود كله بين قدرة وحكمة ، وبين جمع وفرق ، وقد تقدم قوله بعضهم : مارأيت شيئًا إلا رأيت الله

فيه أي بقدرته وحكمته ، فلولا ظهور أنوار الصفات ماعرفت الذات ، ولولا الحس ماقبضتُ المعنى ، ولولا الكثيف ماعرفتُ اللطيف .

وللششترى رحمه الله : محبوبى قد عم الوجود ، وقد ظهر فى بيض وسود . وفى النصارى مع اليهود ، وفى الخنازير مع القرود ، وفى الحروف مع النقط ، أفهمنى قط ، أفهمنى قط .

ثم قال : عرفته طول الزمان ، ظهر لى فى كل أوان ، وفى المياه والدلوان ، وفى الطلوع وفى الهبوط ، أفهمنى قط ، أفهمنى قط .

ثم ذكر الرابع فقال :

[كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الظاهر لكل شىء] .

بلام الجر : أى المتجلى لكل شىء بأسرار ذاته وأنوار صفاته ، ولما تجلى لكل شىء ، وعرفه فى الباطن كل شىء ، وسبح بحمده كل شىء ، فلم يحجبه شىء عن شىء ، قال الله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)[1] .

يقول بلسان حاله : سبحان المتجلى لكل شىء ، الظاهر بكل شىء ، يفقهه العارفون ويجهله الغافلون .

ثم ذكر الخامس فقال :

[كيف يتصور أن يحجبه شىء ، وهو الظاهر قبل وجود كل شىء ؟] .

فكل ماظهر فمنه وإليه فكان فى أزله ظاهرًا بنفسه ثم تجلى لنفسه بنفسه ، فهو الغنى بذاته عن أن يظهر بغيره أو يحتاج إلى من يعرفه غيره فالكون كله مجموع ، والغير عندنا ممنوع .

ثم ذكر السادس فقال :

[كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو أظهر من كل شىء ؟] .

إذ لاوجود للأشياء مع وجوده ولاظهور لها مع ظهوره ، وعلى تقدير ظهورها فلا وجود لها من ذاتها فلولا ظهوره فى الأشياء ماوقع عليها أبصار :

---

(١) الإسراء : ٤٤ .

مَنْ لاوُجُودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ فَوُجُودُهُ لَوَلَاهُ عَيْنُ مُحَال

فالعبد فى حالة الحجاب تكون نفسه وجودها عنده ضروريًا ، ووجود الحق تعالى عنده نظريًّا . فإذا عرف الحق وفنى عن نفسه وتحقق بزوالها صار عنده وجود الحق ضروريًّا ووجود نفسه نظريًّا . بل محال ضرورى .

قال أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : إنا لننظر إلى الله ببصر الإيمان والإيقان ، فأغنانا عن الدليل والبرهان ، وإنا لانرى أحدًا من الخلق ، فهل فى الوجود أحد سوى الملك الحق ؟ وإن كان ولابد فكالهباء فى الهواء إن فتشتهم لم تجدهم شيئًا اهـ .

زاد فى لطائف المنن : ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصلة إلى الله فليت شعرى هل لها وجود معه حتى توصل إليه ، أو هل لها من الوضوح ماليس له حتى تكون هى المظهرة له ، وإن كانت الكائنات موصلة له فليس ذلك لها من حيث ذاتها ، لكن هو الذى ولاها رتبة التوصيل فوصّلت ، فما وصّل إليه غير إلاهيته ، ولكن الحكيم هو واضع الأسباب وهى لمن وقف معه ، ولاينفذ إلى قدرته عين الحجاب ، فظهور الحق أجلى من كل ماظهر ، إذ هو السبب فى ظهور كل ماظهر ، وما اختفى إلا من شدة ماظهر .

* وَمِنْ شِدَّةِ الظُّهُورِ الْخَفَاء *

وإلى هذا المعنى أشار الرفاعى بقوله :

يامَنْ تَعَاظَمَ حَتَّى رَقَّ مَعْنَاهُ وَلَا تَرَدَّى رِداء الْكِبْرِ إلَّا هُو

أى يامن تعاظم فى ظهوره حتى خفى معناه .

ثم ذكر السابع فقال :

[كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الواحد الذى ليس معه شىء] .

لتحقق وحدانيته أزلا وأبدًا :

« كانَ اللهُ وَلَا شَىْءَ مَعَهُ وَهُوَ الآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كانَ » (أَإِلٰهٌ مَعَ الله

تَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ)[١] .

أفى الله شك ؟ فكل ماظهر للعيان فإنما هو مظاهر الرحمن ، قال صاحب العينية رضى الله عنه :

تَجَلَّى حَبِيبى فى مَرَائى جَمَالِهِ ... فَفِى كُلِّ مَرْءٍ لِلحَبِيبِ طَلَائِعُ
فَلَمَّا تَجَلَّى حُسْنُهُ مُتَنَوِّعًا ... تَسَمَّى بأسَاء فَهُنَّ مَطَالِعُ

فالحق تعالى واحد فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، فلا شىء قبله ، ولاشىء بعده ، ولاشىء معه .

ثم ذكر الثامن فقال :

[كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو أقرب إليك من كل شىء] .

قال تعالى :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ ماتُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحنُ أقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد) وقال تعالى : (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليْهِ مِنْكُمْ وَلٰكِنْ لا تُبْصِرُونَ)[٢] وقال تعالى : (وَكَانَ الله عَلَى كُلِّ شَىءٍ رَقِيبًا)[٣] وقال تعالى (إنْ تَجْهَرْ بِالْقَولِ فَإنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)[٤] .

وقربه تعالى قرب علم وإحاطة وشهود لاقرب مسافة ، إذ لامسافة بينك وبينه ، وتقدم فى الحديث :

« وَإنَّ الله مَا حَلَّ فى شَىءٍ ولا غَابَ شَىْء » .

وقال سيدنا على كرم الله وجه : الحق تعالى ليس من شىء ، ولافى شىء ، ولا فوق شىء ، ولاتحت شىء ، إذ لو كان من شىء لكان مخلوقًا ، ولو كان

---

(١) النمل : ٦٣ .
(٢) الواقعة : ٨٥ .
(٣) الأحزاب ٥٢ .
(٤) طه : ٥٧ .

فوق شيء لكان محمولا ولو كان فى شيء لكان محصورًا ، ولو كان تحت شيء لكان مقهورًا اهـ .

وقيل له : يا بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم أين كان ربنا ، أو هل له مكان ؟ فتغير وجهه وسكت ساعة ثم قال : وقولكم أين الله سؤال عن مكان وكان الله ولا مكان ، ثم خلق الزمان والمكان ، وهو الآن كما كان دون مكان ولازمان اهـ .

وقال أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : قيل لى ياعلى بى قل ، وعلى دل ، وأنا الكل اهـ هذا كما فى حديث البخارى :

« يَقُول الله تَعَالَى : يَسُبُّ ابْنُ آدَمَ الدَّهْر وأَنَا الدَّهْرُ ، بِيَدِى اللَّيْلُ والنَّهَارُ » .

وقال أيضًا صلى الله عليه وسلم :

« لاَتَسبُّوا الدَّهْرَ ، فَإِنَّ الله هُوَ الدَّهْرُ » .

وتفسيره ما فى الحديث قبله ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر التاسع فقال :

[كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه لما ظهر وجود كل شيء] .

قال الله تعالى :

(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْء فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا)[1] وقال تعالى : (إنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)[2] .

فكل ماظهر فى عالم الشهادة فهو فائض من عالم الغيب ، وكل مابرز فى عالم الملكوت فهو فائض من بحر الجبروت ، فلا وجود للأشياء إلا منه ، ولاقيام لها إلا به ، ولا نسبة لها معه ، إذ هى عدم محض ، وعلى توهم وجودها فهى حادثة فانية ولانسبة للعدم مع الوجود ، ولا للحادث مع القديم ولذلك تعجب الشيخ من اجتماعهما فقال :

---

(١) الفرقان : ٢ . (٢) القمر : ٤٩ .

[ياعجبًا كيف يظهر الوجود فى العدم ؟ أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم] .

قلت : وهذا هو العاشر ، فالوجود والعدم ضدان لايجتمعان ، والحادث والقديم متنافيان لايلتقيان . وقد تقرر أن الحق واجب الوجود ، وكل ماسواه عدم على التحقيق ، فإذا ظهر الوجود انتفى ضده وهو العدم ، فكيف يتصور أن يحجبه وهو عدم ؟ فالحق لايحجبه الباطل . قال تعالى :

(فَذٰلِكُمُ الله رَبُّكُمْ الحق فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إلاَّ الضَّلَالُ)[1] .

فلا وجود للأشياء مع وجوده ، فانتفى القول بالحلول ، إذ الحلول يقتضى وجود السِّوى حتى يحل فيه معنى الربوبية . والفرض أن السِّوى عدم محض فلا يتصور الحلول ، وإلى هذا أشار فى العينية بقوله :

وَنَزِّهْهُ فى حُكْمِ الْحُلُولِ فَمَا لَهُ سِوًى وإلى تَوحِيدِهِ الأمْرُ رَاجِعُ

والقديم والحادث لايلتقيان ، فإذا قرن الحادث بالقديم تلاشى الحادث وبقى القديم .

قال رجل بين يدى الجنيد رضى الله عنه : الحمد لله ولم يقل رب العالمين ، فقال له الجنيد كمله يا أخى ، فقال له الرجل : وأى قدر للعالمين حتى يذكروا معه ؟ فقال الجنيد قله يا أخى ، فإن الحادث إذا قرن بالقديم تلاشى الحادث وبقى القديم اهـ .

فقد تقرر أن الأشياء كلها فى حيز العدم إذ لايثبت الحادث مع من له وصف القدم ، فانتفى القول بالاتحاد ، إذ معنى الاتحاد هو اقتران القديم مع الحادث ، فيتحدان حتى يكونا شيئًا واحدًا وهو محال ، إذ هو مبنى أيضًا على وجود السوى ، ولاسوى ، وقد يطلقون الاتحاد على الوحدة كقول ابن الفارض :

وَهامَتْ بِهَا رُوحِى بِحَيْثُ تَمَازَجَا اتحادًا وَلَا جِرْمٌ تَخَلَّلَهُ جِرْمُ

---

(١) يونس : ٣٢ .

فأطلق الاتحاد على اتصال الروح بأصلها بعد صفاتها ، ولذلك قال بعده ولا جرم تخلله إلخ فتحصل أن الحق سبحانه واحد فى ملكه ، قديم أزلى باق أبدى ، منزه عن الحلول والاتحاد ، مقدس عن الشركاء والأضداد ، كان ولا أين ولامكان ، وهو الآن على ماعليه كان ، ومما ينسب لسيدنا على كرم الله وجهه :

رَأيْتُ رَبِّى بِعَـيْنِ قَلبى ... فَقُلْتُ لاَشَكَّ أنت أَنْتَ
أَنْتَ الذِى حُزْتَ كُلَّ أيْنٍ ... بِحَيْثُ لاَ أيْنَ ثم أَنْتَ
فَلَيْسَ لِـلأيْنِ مِنْك أيْنٌ ... فَيَعْـلَمُ الأيْنُ أيْـنَ أَنْتَ
وَلَيْسَ لِلْوَهْمِ فِيكَ وَهْمٌ ... فَيَعْلَمُ الوهْمِ كَيْفَ أَنْتَ
أَحَطْتَ عِلْمًا بِكُل شَىءٍ ... فَكُـــلُّ شَىءٍ أَرَاهُ أَنْتَ
وفى فَنَـائى فَنَـا فَنَـائى ... وَفِى فَنَائى وجَدْتُ أَنْتَ

وسئل أبو الحسن النُّوَرى رضى الله عنه أين الله من مخلوقاته ؟ فقال : كان الله ولا أين والمخلوقات فى عدم فكان حيث هو ، وهو الآن حيث كان ، إذ لا أين ولامكان ، فقال له السائل وهو على بن ثور القاضى فى قصة محنة الصوفية ، فما هذه الأماكن والمخلوقات الظاهرة ؟ فقال ؛ عزٌّ ظاهر ، وملك قاهر ، ومخلوقات ظاهرة به وصادرة عنه ، لاهى متصلة به ولامنفصلة عنه ، فرّغ من الأشياء ولم تفرغ منه ، لأنها تحتاج إليه وهو لايحتاج إليها ؛ قال له صدقت ؛ فأخبرنى ماذا أراد الله بخلقها ؟ قال : ظهور عزّته وملكه وسلطانه ، قال صدقت ؛ فأخبرنى مامراده من خلقه ، قال : ماهم عليه ، قال أوَيريد من الكفرة الكفر ؟ قال : أفيكفرون به وهو كاره ؟ ثم قال : أخبرنى ماذا أراد الله باختلاف الشيع وتفريق الملل ؟ قال : أراد إبلاغ قدرته ، وبيان حكمته ، وإيجاب لطفه ، وظهور عدله وإحسانه اهـ المراد منه .

وفيه إشارة إلى أن تجليات الحق على ثلاثة أقسام : قسم أظهرهم ليظهر فيهم كرمه وإحسانه ، وهم أهل الطاعة والإحسان . وقسم أظهرهم ليظهر فيهم عفوه وحلمه ، وهم أهل العصيان من أهل الايمان . وقسم أظهرهم ليظهر فيهم نقمته

وغضبه ، وهم أهل الكفر والطغيان ؛ فهذا سر تجليه تعالى فى الجملة ، والله تعالى أعلم .

فذلكة: حاصل ماااشتمل عليه هذا الباب من أول الكتاب ثلاثة أمور: عمل الشريعة والطريقة والحقيقة . أو تقول : عمل الإسلام والإيمان والإحسان ، وهى البداية والوسط والنهاية . ومن علامة النجح فى النهاية الرجوع إلى الله فى البداية ، فأمرك بالرجوع إليه والاعتماد عليه دون الاعتماد على العمل مع وجود العمل ، ثم دَلّك على الأدب فى حال التجريد والأسباب ، ثم نهاك فى حالة المسير عن شغل باطنك بكدّ التدبير ، فإنه سبب التكدير . ثم أنهضك إلى الاجتهاد فى الأعمال المطلوبة منك مع التقصير فيما هو مضمون لك ، ليكون سببًا فى فتح بصيرتك ، ومن جملة ماهو مضمون ماتطلبه بدعائك ، فلا تستعجل ماتأخر عن وقته ، ولاتيأس من رحمته . وإذا وعدك بشىء فلاتشك فى وعده لاتتهمه فيما ينزل بك من تعرفاته وقهره ، فهذه أعمال أهل البدايات اختلفت أجناسها باختلاف أحوالهم ، فقوله : من علامة الاعتماد على العمل إلى قوله : الأعمال صور قائمة كله من عمل الشريعة الذى هو مقام الإسلام ، وقوله الأعمال صورة قائمة إلى قوله الكون كله ظلمة هو من عمل الطريقة الذى هو مقام الإيمان ، ومداره على تخليص الباطن وتهذيبه فأمرك بالإخلاص والصدق وهو سر الإخلاص والخمول ، لأنه محله ومظهره ، والعزلة لتتمكن من الفكرة وتصفية مرآة القلب من صور الأكوان لتتهيأ لإشراق شموس العرفان ثم فتح لك الباب ورفع عنك الحجاب وقال لك هاأنت وربك ، وهو قوله : الكون كله ظلمة إلى آخر الباب ، فقد قطع لك توهم الحجاب من جميع الوجوه ، فجزاه الله أحسن جزائه ، ومتعه برضوانه مع أنبيائه وأحبائه ، وخرطنا فى سلوكهم مع كافة الأحباب آمين .

ولما أدخلك الحضرة دلك على آدابها فقال فى أول الباب الثانى مترجمًا عنها من بعض التلامذة بقوله : وقال رضى الله عنه : وجملة أبوابه خمسة وعشرون بابا وثلاث رسائل وجواب ثم مناجاة .

الباب الثانى

آداب العارف

فلما فرغ من الباب الأول أشار إلى الباب الثانى فقال : وقال رضى الله عنه :

[ماترك من الجهل شيئًا من أراد أن يظهر فى الوقت غير ماأظهره الله فيه] .

الجهل هو ضد العلم ، وقيل هو عدم العلم بالمقصود . وهو على قسمين : بسيط ومركب : فالبسيط أن يجهل ويعلم أنه جاهل . والمركب أن يجهل جهله ، وأقبح الجهل الجهل بالله وإنكاره بعد طلب معرفته .

قلت : من آداب العارف الحقيقى أن يقر الأشياء فى محلها ويسير معها على سيرها ، فكلما أبرزته القدرة للعيان فهو فى غاية الكمال والإتقان ، وفى ذلك قال صاحب العينية رضى الله عنه ..

وَكُلُّ قَبِيحٍ إنْ نَسَبْتَ لِحُسْنِهِ
أَتَتْكَ مَعَانِى الْحُسْنِ فِيهِ تُسَارِعُ
يُكَمِّلُ نُقصَانَ الْقَبِيحِ جَمَالُهُ
فَمَا ثَمَّ نُقْصَانٌ وَلَا ثَمَّ بَاشِعُ

وقال أبو الحسن النَّورى رضى الله عنه : مراد الله من خلقه ماهم عليه ، فإذا أقام الله عبدًا فى مقام من المقامات فالواجب على العارف أن يقره فيه بقلبه كائنًا ما كان ، وإن كان لاتسلمه الشريعة رغبة فى الخروج عنه بالسياسة وينظر مايفعل الله . قال بعضهم : من عامل الخلق بالشريعة طال خصمه معهم ، ومن عاملهم بالحقيقة عذرهم . والواجب أن يعاملهم فى الظاهر بالشريعة فيذكرهم ،

وفى الباطن بالحقيقة فيعذرهم . ومن أراد أن يظهر فى الوقت غير ماأظهره الله تعالى فى نفسه أو فى غيره فقد جمع الجهل كله ولم يترك منه شيئًا ، حيث عارض القدر ونازع القادر ، وقد قال تعالى :

(إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)[1] (وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ)[2] (وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِى الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤمِنِين)[3] .

وفى بعض الأخبار : يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : « مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَائى ، وَلَمْ يَصْبِرْ عَلَى بَلَائى ، فَلْيَخْرُجْ مِنْ تحتِ سَمائى وَلْيَتَّخِذْ رَبًّا سِوَاىَ » .

وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما : لأن ألحس جمرة أحرقت ماأحرقت وأبقت ماأبقت أحب إلى من أن أقول لشىء كان ليته لم يكن ، أو لشىء لم يكن ليته كان .

وقال أبو عثمان رضى الله عنه : منذ أربعين سنة ماأقامنى الله تعالى فى حال فكرهته ، ولانقلنى إلى غيره فسخطته .

وقال شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه فى كتابه : من عرف أهل حقائق الظاهر ولم ينكر عليهم شيئًا من أحوالهم يظفر بما فى أيديهم ولايمنع خيرهم قطعًا ، ومن عرف أهل حقائق الباطن ولم ينكر عليهم شيئًا من أحوالهم يظفر بما فى أيديهم على كل حال ولايمنع خيرهم قطعًا . والعارف بالله يجمع بين خير الفرقتين يصطحب معهما جميعًا ، وكل فرقة يتلون على لونها كشيخ شيوخنا رضى الله عنهم سيدى أحمد اليمانى ، نفعنا الله به ، كان رضى الله عنه ممن لاينكر حالا من أحوال الخلق أهل الظاهر ، يتلمذهم فى ظواهرهم ويدفعهم إليها ويقرهم فيها ، وأهل البواطن يتلمذهم فى بواطنهم ويدفعهم إليها ويقرهم فيها ، فحصل له خير الفرقتين بما رزقه الله من المعرفة والحكمة .

قيل إن الولى الكامل يتطور بجميع الأطوار يقضى جميع الأوطار اهـ .

---

(١) هود : ١٠٧ . (٢) الأنعام : ١١٢ .

(٣) يونس : ٩٩ .

قلت : ومن تأمل الأحاديث النبوية وجدها على هذا المنوال ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان سيد العارفين وقدوة المربين ، فكان يقر الناس على ماأقامهم الله فى حكمتهم ويرغبهم فيها ، فلذلك تجد الأحاديث متعارضة ولاتعارض فى الحقيقة ، فإذا نظرت فى أحاديث الذكر قلت لا أفضل منه ، وإذا نظرت فى أحاديث الجهاد قلت لا أفضل منه ، وإذا نظرت فى أحاديث فضل العلم قلت لا أفضل منه ، وإذا نظرت فى أحاديث الزهد والتجريد من أسباب الدنيا قلت لا أفضل منه ، وإذا نظرت فى أحاديث الكسب والخدمة على العيال كذلك ، فكل حكمة رغب النبى صلى الله عليه وسلم فيها حتى تقول لاأفضل منها ، تطييبًا لخاطر أهلها ، ليكونوا فيها على بينة من ربهم ، ولم يأمرهم عليه الصلاة والسلام بالانتقال عنها ، إذ مراد الله منهم هو تلك الحكمة فأقرهم عليه الصلاة والسلام عليها ، ورغبهم فيها حتى يظن من يسمع أحاديثها أنه لا أفضل منها وهو كذلك ، إذ لا أفضل منها فى حق أهلها .

والحاصل : أن العارف لاينكر شيئًا ولايجهل شيئًا ، وقد قال بعض العارفين : ليس فى الإمكان أبدع مما كان . وتأويله أن ماسبق فى علم الله يكون لايمكن غيره فلا أبدع منه وسيأتى الكلام عليه إن شاء الله ، والله تعالى أعلم ،

ثم ذكر الأدب الثانى من آداب الحضرة القدسية ، وهى ترك الرعونات البشرية فقال :

[إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفوس] .

الإحالة على الشىء : هو تسليطه وإغراؤه عليه ، والمراد هنا توقف الأمر عليه ، بحيث لايتوجه له حتى يتيسر وجوده ، والفراغ من الشىء : خلوه منه ، وفراغ القلب : خلوه مما يشغله ، وفراغ الجوارح : خلوها من الأشغال ، والرعونة : نوع من الحمق .

من آداب العارف أن يكون كامل العقل ثاقب الذهن . ومن علامة العقل انتهاز الفرصة فى العمل ، ومبادرة العمر غير تسويف ولا أمل ، إذ مافات منه لاعوض له ، وما حصل لاقيمة له . وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« أَلَا وَإِنَّ مِنْ عَلَامَةِ الْعَقْلِ التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ ، وَالإِنَابَةَ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ وَالتَّزَوُّدَ لِسُكْنَى الْقُبُورِ ، والتَّأَهُّبَ لِيَوْمِ النُّشُورِ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، والْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَع نَفْسَه هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْأَمَانِي » اهـ .

والكيس : هو العاقل . ودان نفسه : حاسبها .

وفى صحف إبراهيم عليه السلام : وعلى العاقل مالم يكن مغلوبًا على عقله أن تكون له ساعات ، ساعة يناجى فيها ربه عز وجل ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها فى صنع الله عز وجل ، وساعة يخلو فيها بحاجته من المطعم والمشرب . وعلى العاقل ألا يكون ظاعنًا إلا لثلاث : تزودٍ لمعاد ، أو مرمّةٍ لمعاشٍ ، أو لذةٍ من غير محرم ، وعلى العاقل أن يكون بصيرًا بزمانه ، مقبلًا على شانه ، حفاظًا للسانه . ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه اهـ .

فإحالتك الأعمال وتأخيرها إلى وقت آخر تكون فيه فارغ القلب أو القالب من علامة الرعونة والحمق ، وهو غرور ، ومن أين لك أن تصل إلى ذلك الوقت والموت هاجم عليك من حيث لاتشعر ؟ وعلى تقدير وصولك إليه لاتأمن من شغل آخر يَعرِض لك ، وفراغ الأشغال من حيث هو نادر لقوله عليه الصلاة والسلام : « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصِّحَّةُ ، وَالْفَرَاغُ » .

أى كثير من الناس فقدوهما وغبنوا فيهما ، إذ كثير منهم لاتجده إلا مشغولا بدنيًّا ، أو مفتونًا بهوى ، أو مريضًا مبتلى . ومفهوم الكثير أن القليل من الناس رزقهم الله الصحة والفراغ ، فإن عمروهما بطاعة مولاهم فقد شكروا وربحوا ربحًا عظيمًا ، وإن ضيعوهما فقد خسروا خسرانًا مبينًا وكفروا بهاتين النعمتين ، فجدير أن تُسلَبا عنهم ، وهو أيضًا من علامة الخذلان ، وسيأتى من كلام الشيخ : الخذلان كل الخذلان أن تقل عوائقك ثم لاتقبل عليه ، فالواجب على الإنسان أن يقطع علائقه وعوائقه ، ويخالف هواه ، ويبادر إلى خدمة مولاه ، ولاينتظر وقتًا آخر ؛ إذ الفقير ابن وقته ، فلا تجده مشغولا إلا بفكرة أو نظرة

أو ذكر أو مذاكرة أو خدمة شيخ يوصله إلى مولاه . وقد قلت لبعض الإخوان : الفقير الصدّيق ليس له فكرة ولا هدرة إلا فى الحضرة أو مايوصله للحضرة ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر الأدب الثالث : وهو إقامته حيث أقامه الله ، فقال :

[لاتطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيها سواها ، فلو أرادك لاستعملك من غير إخراج] .

قلت : من آداب العارف الاكتفاء بعلم الله والاستغناء به عما سواه ، فإذا أقامه الله تعالى فى حالة من الأحوال فلا يستحقرها ويطلب الخروج منها إلى حالة أخرى ، فلو أراد الحق تعالى أن يخرجه من تلك الحالة ويستعمله فيها هواها لاستعمله من غير أن يطلب منه أو يخرجه ، بل يمكث على ماأقامه فيه الحق تعالى حتى يكون هو الذى يتولى إخراجه كما تولى إدخاله :

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ)[1] .

فالمدخل الصدق : هو أن تدخل فيه بالله ، والمخرج الصدق : هو أن تخرج منه بالله وهذا هو الفهم عن الله ، وهو من علامة تحقق المعرفة بالله ، فالعارف بالله إذا كان أعزب لايتمنى التزويج ، وإذا كان متزوجًا لايتمنى الفراق ، وإذا كان فقيرًا لايتمنى الغنى ، وإذا كان غنيًّا لايتمنى الفقر ، وإذا كان صحيحًا لايتمنى المرض . وإذا كان مريضًا لايتمنى الصحة وإذا كان عزيزًا لايتمنى الذل ، وإذا كان ذليلا لايتمنى العز ، وإذا كان مقبوضًا لايتمنى البسط ، وإذا كان مبسوطًا لايتمنى القبض . وإذا كان قويًّا لايتمنى الضعف ، وإذا كان ضعيفًا لايتمنى القوة ، وإذا كان مقيمًا لايتمنى السفر ، وإذا كان مسافرًا لايتمنى الإقامة ، وهكذا باقى الأحوال ينظر مايفعل الله به ولا ينظر مايفعل بنفسه لتحقق زواله ، بل يكون كالميت بين يدى الغاسل أو كالقلم بين الأصابع كما قال صاحب العينية رضى الله عنه :

---

(١) الإسراء : ٨٠ .

أَرَانِيَ كالآلاتِ وَهْوَ مُحَرِّكِي · أنا قَلَمٌ وَالإقْتِدارُ أَصَابِعُ

قال تعالى : (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَايَشَاءُ وَيَخْتَارُ ما كانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ)[1] وقال تعالى : (وَمَا تَشَاءونَ إلَّا أَنْ يَشَاء الله)[2] .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام فقال : ياداود تريد وأريد ولايكون إلا ماأريد ، فإن سلمت لى ماأريد أتيتك بما تريد ، وإن لم تسلم لى ماأريد أتعبتك فيما تريد ولايكون إلا ماأريد .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى هريرة :

« جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ » وفى حديث آخر : « جَفَّتِ الأَقْلَامُ ، وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ » .

وقال شيخ شيوخنا سيدى أحمد اليمانى رضى الله عنه حين سأله أصحابه عن حقيقة الولاية فقال لهم : حقيقة الولاية أنه إذا كان صاحبها جالسًا فى الظل لا تشتهى نفسه الجلوس فى الشمس ، وإذا كان جالسًا فى الشمس لا تشتهى نفسه الجلوس فى الظل ا هـ . وهذا كله مع الاختيار دون الأمر الضرورى ، وقد تقدم قول شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه : من أوصاف الولى الكامل ألا يكون محتاجًا إلا على الحال الذى يقيمه مولاه فيه فى الوقت ، يعنى ما له مراد إلا ما يبرز من عنصر القدرة لا تشتهى نفسه غيره ا هـ .

قلت : فإذا تجلى فى العارف شىء من هذه الأمور أعنى الانتقال من حال إلى حال فليتأن وليصبر حتى يفهم أنه من الله ، بإشارة ظاهرة أو باطنة أو هاتف حسى أو معنوى ، ولينصت إلى الهواتف فإن الله تعالى يخاطبه بما يفعل ، وهذا أمر مجرَّب صحيح عند العارفين حتى إنهم لا يتصرفون إلا بإذن من الله ورسوله ، إذ لا فرق عند أهل الجمع ، جعلنا الله منهم آمين . وهذا كله إذا كان الحال الذى هو فيه موافقًا للشريعة وإلا فليطلب الخروج منه بما يمكن .

ثم ذكر الأدب الرابع : وهو رفع الهمة عن الأكوان ودوام الترقى فى مقامات العرفان فقال :

---

(١) القصص : ٦٨ . (٢) الإنسان : ٣٠ .

[ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة : الذى تطلب أمامك ، ولا تبرجت ظواهر المكنونات إلا ونادته حقائقها : إنما نحن فتنة فلا تكفر] .

همة السالك : هى القوة الباعثة له على السير ، ووقوفها مع الشىء : هو اعتقادها أن ما وصلت إليه هو الغاية أو فيه كفاية ، وهواتف الحقيقة : هى لسان حال الكشف عن عين التحقيق ، وتبرج الشىء : ظهوره فى حال الزينة لقصد الإمالة ، وظواهر المكونات : هو ما كساها من الحسن والحكمة ، وتزيينها : هو خرق عوائدها له وانقيادها لحكمه وحقائقها : نورها الباطنى ، وهو تجلى المعنى فيها .

قلت : السالك هو الذى يشهد الأثر ، فإن كان يشهده فى نفسه فهو سالك فقط وهو فى حالة السير ، وإن كان يشهده بالله فهو سالك مجذوب . والمقامات التى يقطعها ثلاث فناء فى الأفعال ، وفناء فى الصفات ، وفناء فى الذات .

أو تقول : فناء فى الاسم ، وفناء فى الذات ، وفناء فى الفناء ، وهو مقام البقاء ، ثم الترقى إلى ما لا نهاية له ، فإذا كشف للسالك عن سر توحيد الأفعال وذاق حلاوته وأرادت همته أن تقف مع ذلك المقام نادته هواتف حقيقة الفناء فى الصفات : الذى تطلب أمامك ، وإذا ترقى إلى مقام الفناء فى الصفات وكشف له عن سر توحيد الصفات ، واستشرف على الفناء فى الذات ، وأرادت همته أن تقف مع ذلك المقام نادته هواتف حقيقة الفناء فى الذات : الذى تطلب أمامك ، وإذا ترقى إلى الفناء فى الذات وكشف له سر توحيد الذات ، وأرادت همته أن تقف مع ذلك المقام نادته هواتف حقيقة فناء الفناء أو حقيقة البقاء : الذى تطلب أمامك ، وإذا وصل إلى البقاء نادته هواتف العلوم الغيبية .

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[1] وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا أُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » .

أو تقول : إذا كشف للمريد عن الفناء فى الاسم ، وذاق حلاوة العمل

---

(١) طه : ١١٤ .

والذكر ، وأرادت همته أن تقف معها ، نادته هواتف حقائق الفناء فى الذات : الذى تطلب أمامك ، فإذا ترقى إلى مقام الفناء فى الذات وذاق حلاوته ، ولم يتمكن وقنع بذلك وأرادت همته أن تقف مع ذلك نادته هواتف حقيقة التمكين : الذى تطلب أمامك ، وإذا تمكن ولم يطلب زيادة الترقى نادته هواتف الترقى : الذى تطلب أمامك ، وهكذا كل مقام ينادى على ما قبله :

(يا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ)[1] .

وإذا تبرجت : أى ظهرت بزينتها وحللها للسالك أو للعوارف ظواهر المكونات بخرق عوائدها وانقيادها له ، وتصرفه فيها بهمته ، كالمشى على الماء والطيران فى الهواء ونبع الماء وجلب الطعام وغير ذلك من الكرامات الحسية ، وأرادت همة السالك أن تقف مع ظواهرها وتشتغل بحلاوة حسها ، نادته هواتف المعانى الباطنة : إنما نحن فتنة لك نختبرك ، هل تقنع بها دون معرفة مالكها ومنشيها المتجلى فيها ؟ أو تعرض عنها وتنفذ إلى نور معانيها وشهود مالكها ومجريها ، فلا تكفر وتجحد المتجلى بها ، فتنكره فتكون من الجاهلين .

وقد ضرب الساحلى فى البغية مثلا لهذه المقامات والسير فيها فقال : مثل ذلك كملك ظهر بالمشرق مثلا ، وأرسل لنا رسلا بكتاب من عنده فقرءوا علينا كتاب الملك وشوقونا إليه غاية التشويق بذكر كرمه ومحاسنه . فمن الناس من أعرض عن طاعته والانقياد إليه وهم الكفار . ومن الناس من قبل وآمن ولم يقدر على النهوض إلى حضرة الملك وهم عوام المسلمين ضعفاء المحبة واليقين . ومن الناس من تشوق للملك ونهض إلى حضرته ، فقالت له الرسل نحن نسيرك ونعرفك الطريق فتقدموا أمامهم يسيرون بهم ، ثم إن الملك بنى ديارًا ومنازل ينزلونها كل منزلٍ أعظم من الذى قبله هكذا إلى حضرته ، فإذا نزلوا أول المنازل ورأوا حسنه وبهجته أرادوا أن يقيموا فيه ، فتقول لهم الرسل الذين جاءوا من عند الملك : الذى تطلبون أمامكم ، فينهضونهم من ذلك المنزل ، فإذا نزلوا الثانى وجدوه أعظم من الأول ، فيريدون أن يقيموا فيه فترحلهم الرسل

---

(١) الأحزاب : ١٣ .

إلى ما بعد ، وهكذا يقطعون بهم المنازل منزلا منزلا حتى يوقفوهم على الملك ، فيقولون لهم ها أنتم وربكم ، فيستريحون من التعب ويتمتعون بالمجالسة والنظر ، والمراد بالرسل هنا الأنبياء الذين بعثهم الله وخلفاؤهم ممن كان على قدمهم ممن جمع بين الحقيقة والشريعة ، وهذه المنازل هى المقامات التى يقطعها المريد ا هـ بالمعنى مع الاختصار لطول العهد به ، وقد أشار الششترى إلى التنبيه على عدم الوقوف مع هذه المقامات والكرامات فقال :

فَلَا تَلْتَفِتْ فِى السَّيْرِ غَيْرًا وَكُلُّ مَا ... سِوَى اللهِ غَيْرٌ فَاتَّخِذْ ذِكْرَه حِصْنَا
وَكُلُّ مَقَامٍ لا تَقُمْ فِيهِ إِنَّهُ ... حِجَابٌ فَجِدَّ السَّيْرَ وَاسْتَنْجِدِ الْعَوْنَا
وَمَهْمَا تَجِدْ كُلَّ الْمَرَاتِبِ تُجْتَلَى ... عَلَيْكَ فَحُلْ عَنْهَا فَعَنْ مِثْلِهَا حُلْنَا
وَقُلْ لَيْسَ لِى فِى غَيْرِ ذَاتِكَ مَطْلَبٌ ... فَلَا صُورَةٌ تُجْلَى وَلَا طُرْفَةٌ تُجْنَى

واعلم أن هذه الآداب التى ذكرها الشيخ فى هذا الباب قد تكون خاصة بالعارف وقد يشاركه فيها غيره ، فلذلك يعبر بعبارة واسعة لتكون عامة ، لأن المريد قد يترقى إلى مقام وقد بقيت عليه بقية مما قبله فيكملها فيه ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر الأدب الخامس : وهو ترك الطلب من حيث هو ، قال فيها يأتى : ربما دلهم الأدب على ترك الطلب فقال :

[طلبك منه اتهام له ، وطلبك له غيبة منك عنه ، وطلبك لغيره لقلة حيائك منه ، وطلبك من غيره لوجود بعدك منه] .

قلت : طلبك منه يكون بالتضرع والابتهال ، وطلبك له يكون بالبحث والاستدلال وطلبك لغيره يكون بالتعرف والإقبال ، وطلبك من غيره يكون بالتملق والسؤال .

وحاصلها أربعة : طلب الحق ومنه طلب الباطل وكلها مدخولة عند المحققين . أما طلبك منه فلوجود تهمتك له ، لأنك إنما طلبته مخافة أن يهملك أو يغفل عنك ، فإنما ينبه من يجوز منه الإغفاء ، وإنما يذكّر من يمكن منه الإهمال :

(وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)[١] - (أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)[٢]
وقال ﷺ فيما يَرويه عَن ربِّه : « مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِى عَنْ مَسْأَلَتِى أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِى السَّائِلِينَ » .

فالسكون تحت مجارى الأقدار أفضل عند العارفين من التضرع والابتهال . وكان شيخ شيوخنا مولاى العربى رضى الله عنه يقول : الفقير الصادق لم تبق له حالة يطلبها، وإن كان ولابد من الطلب فليطلب المعرفة اهـ .

قلت : وإذا ورد منهم الدعاء فإنما هو عبودية وحكمة لا طلبًا للقسمة ، إذ ما قسم لك واصل إليك ولو سألته أن يمنعكه ما أجابك .

وفى المسألة خلاف بين الصوفية ، هل السكوت أولى أو الدعاء ؟ والتحقيق أن ينظر ما يتجلى فيه وينشرح له الصدر فهو المراد منه .

وأما طلبك له فهو دليل على غيبتك عنه بوجود نفسك ، فلو حضر قلبك وغبت عن نفسك ووهمك لما وجدت غيره :

أَرَاكَ تَسْأَلُ عَنْ نَجْدٍ وَأَنْتَ بِهَا ... وَعَنْ تِهَامَةَ هٰذا فِعْلُ مُتَّهِمِ

وقال ابن المرحَّل السبتى رضى الله عنه :

وَمِنْ عَجَبٍ أَنِّى أَحِنُّ إِلَيْهِمُ ... وَأَسْأَلُ شَوْقًا عَنْهُمُ وَهُمُ مَعِى
وَتَبْكِيهِمُ عَيْنِى وَهُمْ بِسَوَادِهَا ... وَيَشْكُو النَّوَى قَلْبِى وَهُمْ بَيْنَ أَضْلُعِى

وللزفاعى رضى الله عنه :

قَالُوا أَتَنْسَى الَّذِى تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ ... يَاقَوْمِ مَنْ هُوَ رُوحِى كَيْفَ أَنْسَاهُ ؟
وَكَيْفَ أَنْسَاهُ وَالأَشْيَا بِهِ حَسُنَتْ ... مِنَ الْعَجَائِبِ يَنْسَى الْعَبْدُ مَوْلَاهُ
ما غابَ عنِّى ولكِنْ لست أبصره ... إلا وقُلْتُ جِهارًا قُلْ هو اللهُ

وأما طلبك لغيره : أى لمعرفة غيره فلقلة حيائك منه وعدم أنسك به . أما

---

(١) البقرة : ١٤٩ . (٢) الزمر : ٣٦ .

وجه قلة حيائك منه ، فلأنه يناديك إلى الحضرة وأنت تفر منه إلى الغفلة ، ومثال ذلك كمن كان فى حضرة الملك والملك مقبل عليه ثم يعجل هو يريد الخروج منها ويلتفت إلى غيره ، فهذا يدل على قلة حيائه وعدم اعتنائه بالملك ، فهو حقيق بأن يطرد إلى الباب إلى سياسة الدواب ، وقد قالوا : أنكر من تعرف ، ولا تتعرف لمن لا تعرف .

وأما وجه عدم أنسك به فلأنك لو أنست به لاستوحشت من خلقه ، فلا يتصور منك طلب معرفتهم وأنت تفر منهم ، فإذا آنسك به أوحشك من خلقه وبالعكس ، والاستئناس بالناس من علامة الإفلاس .

إقبالك على الحق إدبارك عن الخلق ، وإقبالك على الخلق إدبارك عن الحق ، وقد عدُّوا من أصول الطريق الإعراض عن الخلق فى الإقبال والإدبار .

وأما طلبك من غيره فلوجود بعدك عنه ، إذ لو تحققت بقربه منك وهو كريم ما احتجت إلى سؤال غيره وهو لئيم ، وسيأتى فى المناجاة : أم كيف يطلب من غيرك وأنت ما قطعت عادة الامتنان ؟

وفى بعض الكتب المنزلة : يقول الله تبارك وتعالى : إذا أنزلت بعبدى حاجة فرفعها إلىّ أعلم ذلك من نيته ، لو كادته السموات السبع والأرضون السبع لجعلت له من أمره فرجًا ومخرجًا ، وإذا أنزلت بعبدى حاجة فرفعها إلى غيرى أطحت الأرض من تحته وأسقطت السماء من فوقه ، وقطعت الأسباب فيما بينى وبينه ، أو كما قال لطول العهد به . فتحصّل أن الأدب هو الاكتفاء بعلم الله ، والتحقق بمعرفة الله ، والاستغناء به عما سواه ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر الأدب السادس وهو التسليم والرضا بما يجرى به القدر والقضاء فقال :

[ما من نفَس تبديه إلا وله قدر فيك يُمضيه] .

قلت : النفس بفتح الفاء : عبارة عن دقيقة من الزمان قدر ما يخرج النفس ويرجع ، وهو أوسع من الطرفة ، والطرفة أوسع من اللحظة وهى رمق البصر ورده ، والقدر هو العلم السابق للأشياء قبل أن تظهر ، وهو علم أوقاتها وأماكنها ومقاديرها وعدد أفرادها، وما يعرض لها من الكيفيات ، وما ينزل بها من الآفات .

فإذا علمت أيها الإنسان أن أنفاسك قد عمها القدر ، ولا يصدر منك ولا من غيرك إلا ما سبق به علمه وجرى به قلمه ، لزمك أن ترضى بكل ما يجرى به القضاء ،[٩] فأنفاسك معدودة ، وطرفاتك ولحظاتك محصورة ، فإذا انتهى آخر أنفاسك رحلت إلى آخرتك ، وإذا كانت الأنفاس معدودة فما بالك بالخطوات والخطرات وغير ذلك من التصرفات ، ولله در القائل :

مشيناها خُطًا كُتِبَتْ عَلَيْنَا ... وَمَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ خُطًا مَشَاهَا
وَمَنْ قُسِمَتْ مَنِيَّتُهُ بِأَرْضٍ ... فَلَيْسَ يموتُ فى أَرْضٍ سِوَاهَا

وحقيقة الرضا : تلقى المهالك بوجه ضاحك ، وحقيقة التسليم استواء النقمة والنعيم ، بحيث لا يختار فى أيهما يقيم ، وهذا هو مقام أهل الكمال الذين تحققوا بالزوال ، نفعنا الله بذكرهم ، وخرطنا فى سلكهم آمين .

ثم ذكر الأدب السابع ، وهو دوام المراقبة ومواصلة المشاهدة ، فقال :

[لا تترقب فراغ الأغيار ، فإن ذلك يقطعك عن وجود المراقبة له فيما هو مقيمك فيه] .

الترقب : هو الانتظار ، والأغيار : جمع غِيَرٍ بكسر الغين ، وهو ما يغير القلب عن حاله ، والغالب استعماله فيما يغيره من حالة الكمال إلى حالة النقص . وعند الصوفية كل ما يشغل عن الحضرة ويغير القلب عنها فهو غير ، والمراقبة هى العسة على القلب لئلا يخرج من حضرة الرب ، والمراد بها فى كلام الشيخ مطلق العسة ، فتصدق بمراقبة القلب كما تقدم ، وتصدق بمراقبة الروح وهى عسها على دوام الشهود ، وبمراقبة السر وهى عسته على دوام الترقى والأدب .

قلت : إذا أقامك الحق تعالى فى حال يغلب فيها وجود الأغيار لغلبة الحس فيها ، كما إذا أقامك فى شغل دنيوى فى الظاهر لا محيد لك عنه فجاهد قلبك فى العسة عليه فى الحضور لئلا تسرقك الغفلة ، أو جاهد روحك فى العسة عليها فى دوام الشهود لئلا يسرقك الحس ، أو جاهد سرك فى استمداد المواهب والعلوم لئلا يحصل فى ذلك فتور، ولا تترقب – أى – تنظر فراغ شغل يدك من تلك

الأغيار فتؤخر حضور قلبك إلى تمام شغل يدك ، فيفوتك وجود المراقبة فى تلك الحال التى أقامك الحق فيها ، فيكون فى حقك سوء أدب ، وفيه أيضًا تضييع ذلك الوقت وخلوّه من معاملة الحق ، وصرف الأوقات لا يمكن قضاؤها .

ولقد بلغنى أن شيخ شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه ، كان إذا رأى أصحابه فى شغل وخاف عليهم أن يسرقهم الحس نادى عليهم بأعلى صوته ، أنت أنت ، تنبيهًا لهم وإيقاظًا من شهود الحس . وقد ذكر الشعرانى فى العهود عن بعض أشياخه أنه كان لا يغيب عن الله ولو فى حالة الجماع . وهذا شأن الاعتناء من العارفين ؛ وهذا هو جمع الجمع ، والله تعالى أعلم .

تنبيه : ليس هذا تكرارًا مع ما تقدم فى قوله إحالتك الأعمال على وجود الفراغ إلخ ، لأن ذلك فى عمل الجوارح وهذا فى عمل القلوب ، يدلك على ذلك تعبيره هنا بالمراقبة وتعبيره ثم بالأعمال والإفادة خير من الإعادة ، وبالله التوفيق .

وإذا حصلت لك المراقبة أو المشاهدة فى حال الأغيار فلا تستغرب ما تراه من الأكدار لئلا يحصل لك الإنكار ، وإلى هذا أشار بقوله :

[لا تستغرب وقوع الأكدار مادمت فى هذه الدار ، فإنها ما أبرزت إلا ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها] .

الاستغراب : تصيير الشىء غريبًا حتى يتعجب منه . والأكدار : كل ما يكدر على النفس ويؤلمها . ومستحق وصفها : ما تستحق أن توصف به . وواجب نعتها : ما يجب أن تنعت به . قال بعضهم : الوصف يكون بالأمور اللازمة ، والنعت يكون بالعوارض الطارئة ، فالأمور اللازمة كالبياض والسواد والطول والقصر ، والعوارض كالمرض والصحة والفرح والحزن وغير ذلك ، والمراد هنا بالأوصاف ما يتكرر وقوعه كالموت والأمراض وما يقع كثيرًا ، وبالنعوت ما يقل وقوعه فى العادة كالفتن والهرج والزلازل لأنهم يقولون : الأوصاف لوازم والنعوت عوارض ، وقيل شىء واحد وهو الأصح .

قلت : من آداب العارف ألا يستغرب شيئًا من تجليات الحق ، ولا يتعجب من شىء منها كائنة ماكانت جلالية أو جمالية ، فإذا نزلت به نوازل قهرية ،

أو وقعت فى هذه الدار أكدار وأغيار جلالية فلا يستغرب وقوع ذلك ، لأن تجليات هذه الدار جلها جلالية ، لأنها دار أهوال ومنزل فرقة وانتقال .

وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال فى بعض خطبه :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّ هٰذِهِ الدَّارَ دارُ تَوَاءٍ ، أى هلاك ، لَا دَارُ اسْتِوَاءٍ ، وَمَنْزِلُ تَرَح ، أىْ حُزْنٍ ، لَا مَنْزِلُ فَرَحٍ ، فَمَنْ عَرَفَهَا لَمْ يَفْرَحْ لِرَخَائِهَا وَلَمْ يَحْزَنْ لِشَقَائِهَا ، أَلَا وَإِنَّ اللهَ خَلَقَ الدُّنْيَا دَارَ بَلْوَى ، وَالآخِرَةَ دَارَ عُقْبَى ، فَجَعَلَ بَلْوَى الدُّنْيَا لِثَوَابِ الآخِرَةِ سَبَبًا ، وَثَوَابَ الآخِرَةِ مِنْ بَلْوَى الدُّنْيَا عِوَضًا ، فيَأْخُذُ لِيُعْطِى، وَيَبْتَلِى لِيَجْزِى ، وَإِنَّهَا لَسَرِيعَةُ التَّوَى وَشِيكَةُ الِانْقِلَابِ ، فَاحْذَرُوا حَلَاوَةَ رَضَاعِهَا لِمَرَارَةِ فِطَامِهَا ، وَاهْجُروا لَذِيذَ عَاجِلِهَا لِكُرْبَةِ آجِلِهَا ، وَلَا تَسْعَوْا فى عُمْرَانِ دَارٍ قَدْ قَضَى اللهُ خَرَابَهَا وَلَا تُوَاصِلُوهَا وَقَدْ أَرَادَ اللهُ مِنْكُمُ اجْتِنَابَهَا فَتَكُونُوا لِسُخْطِهِ مُتَعَرِّضِينَ . وَلِعُقُوبَتِهِ مُسْتَحِقِينَ » .

وقال الجنيد رضى الله عنه : لا أستبشع مما يرد علىّ من العالم لأنى أصلت أصلا وهو أن الدار دار همٍّ وغمٍّ وبلاء وفتنة ، وأن العالم كله شر .

ومن حكمه : أنه يتلقانى بكل ما أكره ، فإن تلقانى بما أحب فهو فضل وإلا فالأصل هو الأول ، وفى ذلك قيل :

يُمَثِّلُ ذُو اللُّبِّ فى لُبِّهِ ... شَدَائِدَهُ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَا
فَإِنْ نَزَلَتْ بَغْتَةً لَمْ تَرُعْهُ ... لِمَا كَانَ فى نَفْسِهِ مَثَّلَا
رَأَى الأَمْرَ يُفْضِى إِلَى آخِرٍ ... فَصَيَّرَ آخِرَهُ أَوَّلَا
وَذُو الْجَهْلِ يَأْمَنُ أَيَّامَهُ ... وَيَنْسَى مَصَارِعَ مَنْ قَدْ خَلَا
فَإِنْ دَهَمَتْهُ صُرُوفُ الزَّمَا ... نِ بِبَعْضِ مَصَائِبِهِ أَعْوَلَا
وَلَوْ قَدَّمَ الْحَزْمَ مِنْ نَفْسِهِ ... لَعَلَّمَهُ الصَّبْرَ عِنْدَ الْبَلَا

قال أبو سليمان الدارانى لأحمد بن أبى الحوارىّ : يا أحمد جوعٌ قليل ،

وعرىٌّ قليل ، وذلٌّ قليل ، وصبر قليل ، وقد انقضت عنك أيام الدنيا اهـ .
فلا تستغرب أيها العارف ما يقع بك أو لغيرك من الأكدار مادمت مقيمًا فى هذه الدار ، لأنها ما برز فيها من التجليات الجلالية إلا ما هو مستحق أن تتصف به وواجب أن تُنعت به ، فلا تستغرب شيئًا ، ولا تتعجب من شىء ، بل الواجب عليك أن تعرف الله فى الجلال والجمال والحلوة والمرة . وأما إن كنت لا تعرفه إلا فى الجمال فهذا هو مقام العوام ، والمعرفة فى الجلال السكون والأدب والرضا والتسليم . فينبغى للفقير أن يكون كعشب السمار ، إذا جاءت حملة الوادى حنى رأسه ، وإذا ذهبت رفع رأسه ، وكما لا تستغرب وقوع الأكدار بحيث لا تحزن ولا تخف ولا تجزع ، كذلك لا تتعجب من وقوع المسار وهو الجمال بحيث لا تفرح ولا تبطر . فإن الجلال مقرون بالجمال ، والجمال مقرون بالجلال ، يتعاقبان تعاقب الليل والنهار والعارف يتلون من كل واحد منهما ، لا يستغرب شيئًا ولا يتعجب من شىء ، إذ كل ما يبرز من عنصر القدرة كله واحد ، وبهذا وقع التفريق بين الصادق والصدّيق ، لأن الصديق لا يتعجب من شىء ولا يتردد فى شىء وَعَد به ، بخلاف الصادق فقط فإنه مهما رأى شيئًا مستغربًا تعجب منه ، وإذا وعد بشىء قد يتردد فى امتثاله ، وقد وصف الله تعالى السيدة مريم بالصديقية ولم يصف السيدة سارة بها ، لأنها لما بشرت بالولد على وجه خرق العادة استغربت وقالت : (إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ)[1] فلذلك قالت لها الملائكة : (أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)[1] .

بخلاف مريم فلم تتعجب وإنما سألت سؤال استفهام فقط أو سألت عن وقت ذلك أو كيفيته هل بالتزوج أو بغيره ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر الأدب الثامن وهو أن يكون تصرفه بالله ولله ومن الله وإلى الله ، وهو مقام الصدق الذى هو لب الإخلاص ، وإخلاص خواص الخواص فقال :

[ما توقف مطلب أنت طالبه بربك ، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك] .

التوقف : الحبس والتعذر ، والمطلب ما يطلب قضاؤه ، والتيسر : التسهيل .

---

(١) هود : ٧٢ ، ٧٣ .

قلت : إذا عرضت لك حاجة من حوائج الدنيا والآخرة وأردت أن تقضى لك سريعًا فاطلبها بالله ولا تطلبها بنفسك ، فإنك إذا طلبتها بالله تيسر أمرها وسهل قضاؤها ، وإن طلبتها بنفسك صعب قضاؤها وتعسر أمرها ؛ ولا يتوقف ويحبس أمر طلبته بربك ؛ ولا يتيسر ويسهل أمر طلبته بنفسك . قال تعالى حاكيًا عن سيدنا موسى عليه السلام :

(قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُو بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)[1] .

فكل من استعان بالله وصبر في طلب حاجته كانت العاقبة له وكان من المتقين ، وقال تعالى : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)[2] .

أى كافيه كل ما أهمه . وقال صلى الله عليه وسلم لبعض أصحابه وهو سويد ابن غفلة :

« لَا تَطْلُبِ الإِمَارَةَ ، فَإِنَّكَ إِنْ طَلَبْتَهَا وُكِلْتَ إِلَيْهَا ، وَإِنْ أَتَتْكَ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا » .

وعلامة الطلب بالله هو الزهد فى ذلك الأمر والاشتغال بالله عنه ، فإذا جاء وقته تكون بإذن الله . وعلامة الطلب بالنفس هو الحرص والبطش إليه . فإذا تعذر عليه ، انقبض وتغير عليه ، فهذا ميزان من كان طلبه بالله وطلبه بنفسه ، فمن طلب حوائجه بالله قضيت معنى وإن لم تقض حسًّا ، ومن طلب حوائجه بنفسه خاب سعيه وضاع وقته ، وإن قضيت نهمته وحاجته .

وها هنا ضابط يعرف به أهل العناية من أهل الخذلان ، وأهل الولاية من أهل الخسران ذكره الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه فقال : إذا أكرم الله عبدًا فى حركاته وسكناته نصب له العبودية لله ، وستر عنه حظوظ نفسه ، وجعله يتقلب فى عبوديته والحظوظ عنه مستورة مع جرى ما قدر له ، ولا يلتفت إليها كأنه فى معزل عنها . وإذا أهان الله عبدًا فى حركاته وسكناته نصب له

---

(١) الأعراف : ١٢٨ . (٢) الطلاق : ٣ .

حظوظ نفسه ، وستر عنه عبوديته ، فهو يتقلب فى شهواته وعبودية الله عنه بمعزل ، وإن كان يجرى عليه شىء منها فى الظاهر . قال وهذا باب من الولاية والإهانة .

وأما الصديقية العظمى والولاية الكبرى ، فالحظوظ والحقوق كلها سواء عند ذوى البصيرة ، لأنه بالله فيها يأخذ ويترك اهـ . نقله الشيخ زروق فى بعض شروحه .

والحاصل : أن تصرفات العارف كلها بالله وتصرفات غيره كلها بالنفس ولو كانت بالله ، فالعمل بالله يوجب القربة ، والعمل لله يوجب المثوبة . العمل بالله صاحبه داخل الحجاب فى مشاهدة الأحباب ، والعمل لله يوجب الثواب من وراء الباب . العمل بالله من أهل التحقيق والعمل لله من أهل التشريع . العمل لله من أهل قوله تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) .

والعمل بالله من أهل قوله تعالى : (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) .

وقال شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه : بين العمل بالله والعمل لله ما بين الدينار والدرهم ا هـ . وبالله التوفيق .

النجاح فى النهايات وسببه

ومن كان علمه بالله كان راجعًا إليه فى كل شىء ومعتمدًا عليه فى كل حال ، وإليه أشار بقوله :

[من علامة الناجح فى النهايات الرجوع إلى الله فى البدايات] .

النجح فى الشىء : هو بلوغ القصد ، والمراد فيه ، ونجحت مطالبه إذا قضيت وبلغ منها ما أحب ، ونهاية الشىء : تمامه ، وبدايته : أوله .

قلت : إذا توجهت همتك أيها المريد إلى طلب شىء أىّ شىء كان ، وأردت أن ينجح أمره ، وتبلغ مرادك فيه ، وتكون نهايته حسنة ، وعاقبته محمودة ، فارجع إلى الله فى بداية طلبه ، وانسلخ من حولك وقوتك، وقل كما قال عليه الصلاة والسلام :

« إِنْ يَكُنْ مِنْ عِنْدِ اللهِ يُمْضِهِ فَلَا تَحْرِصْ عَلَيْهِ وَلَا تَهْتَمَّ بِشَأْنِهِ ، فَمَا شَاءَ اللهُ كانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ رَبُّنَا لَمْ يَكُنْ ، فَلَوِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ ينفَعُوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يُقَدِّرْهُ الله لَك لم يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ ، وَلَوْ اجْتَمعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَىءٍ لَمْ يُقَدِّرْهُ الله عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذٰلِك ، جَفَّتِ الأَقْلَامُ وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ » كما فى الحديث .

فإذا طلبت شيئًا وكنت معتمدًا على الله ومفوضًا أمرك إلى الله تنظر ما سبق فى علم الله ، كان ذلك علامة نجح نهايتك ، وحصول مطلبك ، قُضيَت فى الحس أو لم تُقض ، لأن مرادك مع مراد الله لا مع مراد نفسك ، قد انقلبت حظوظك حقوقًا ، لا تشتهى إلا ما قضى الله ، ولا تنظر إلا مايبرز من عند الله ، قد فَنِيتَ عن حظوظك وشهواتك ، وإن طلبت شيئًا بنفسك ، معتمدًا على حولك وقوتك ، حريصًا على قضائها ، جاهدًا فى طلبها ، كان ذلك علامة على عدم قضائها ، وخيبة الرجاء فيها وعدم نجح نهايتها ، وإن قضيت فى الحس وُكِلْتَ إليها ، فتعبت بسببها ولم تُعن على شئونها ومآربها ، وهذا كله مجرب صحيح عند العام والخاص ، وهذه الحكمة تتميم لما قبلها وشرح لها ، والله تعالى أعلم .

ثم كمل هذه المسألة بقاعدة كلية تصدق بما تقدم وبغيره ، فقال :

[من أشرقت بدايته أشرقت نهايته] .

قلت : إشراق البداية : هو الدخول فيها بالله ، وطلبها بالله ، والاعتماد فيها على الله ، مع السعى فى أسبابها والاعتناء فى طلبها ، قيامًا بحق الحكمة ، وأدبًا مع القدرة ، ويعظم السعى فى السبب بقدر عظمة المطلب فبقدر المجاهدة تكون بعدها المشاهدة :

(وَالّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِين)[1] (إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)[2] .

فمن رأيناه فى بدايته جادًّا فى طلب الحق ، معرضًا عن الأنس بالخلق ،

---

(١) العنكبوت : ٦٩ . (٢) الأعراف : ٥٦ .

مستغرقًا فى خدمة مولاه ، ناسيًا لحظوظه وهواه ، علمنا أن نهايته مشرقة ، وعاقبته محمودة ، ومآربه مقضيّة ومن رأيناه مقصرًا فى طلب مولاه ، لم يخرج عن نفسه وهواه ، علمنا أنه كاذب فى دعواه ، فنهايته الحرمان ، وعاقبته الخذلان ، إلا أن يتداركه الكريم المنان . هذا فى طريق الوصول إلى حضرة الحق .

وأما إشراق البداية فى طلب حوائج الدنيا أو المقامات أو المراتب أو الخصوصية مثلا ، فهو بالزهد فيها والإعراض عنها ، والاشتغال بالله عنها . قال بعضهم : لا تدرك المراتب إلا بالزهد فيها .

قال الشيخ أبو الحسن : كنت أنا وصاحب لى نعبد الله فى مغارة ونقول فى هذا الشهر يفتح الله علينا ، فى هذه الجمعة يفتح الله علينا ؛ فوقف على باب المغارة رجل عليه سمات الخير فقال : السلام عليكم فرددنا عليه السلام وقلنا له : كيف أنت ؟ فنهض علينا وقال : كيف يكون حال من يقول : فى هذا الشهر يفتح الله ، فى هذه الجمعة يفتح الله ، لا فتح ولا فلاح ، هلا عبدنا الله كما أمرنا ؟ ثم غاب عنا ، ففهمنا من أين أخذنا ، فرجعنا على أنفسنا باللوم ، ففتح الله علينا اهـ بالمعنى ذكره فى التنوير. فمن طلب الخصوصية كان عبد الخصوصية وفاته حظه من الله حتى يتوب . ومن كان عبد الله نال حظه من العبودية ، وأدركته الخصوصية من غير التفات ولا طلب ، والله تعالى أعلم .

ثم إن هذه الأمور التى تشرق بها البداية وتكون علامة على إشراق النهاية هى أمور باطنية ، كالاعتماد على الله ، والرجوع إليه ، أو كثرة الشوق والاشتياق إليه ، ولكن لابد من ظهور أثرها على الظاهر ، وإليه أشار بقوله :

[ما استودع من غيب السرائر ظهر فى شهادة الظواهر] .

استودع أى وضع ، فالاستيداع : هو وضع الشىء فى محل ليحفظ ، وغيب السرائر هو باطنها ، والمراد بالسرائر هو القلوب والأرواح ، وشهادة الظواهر : هى ظاهر الجوارح .

قلت : ما استودع الله سبحانه فى القلوب وجعله فيها ، من خير أو شر ، من نور أو ظلمة ، من علم أو جهل ، من رحمة أو قسوة ، من بخل أو شحّ ، أو كرم وسخاء ، وقبض وبسط ، ويقظة أو غفلة ، ومعرفة أو نكران ، أو غير

ذلك من الأخلاق المحمودة أو المذمومة ، لابد أن يظهر آثار ذلك على الجوارح ، من أدب وتهذيب ، وسكون وطمأنينة ورزانة ، وبذل وعفو ، أو طيش وقلق وغضب ، وغير ذلك من الأحوال القلبية والأعمال القالبية قال تعالى : (تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ)[1] وقال تعالى : (سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ)[2] وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سَرَّ سَرِيرَةً كَسَاهُ اللهُ رِدَاءَهَا » .

فأفعال الجوارح تابعة لأحوال القلوب ، فمن أودع فى سر غيبه معرفة مولاه لم يطلب مَنْ سواه ؛ ومن أودع فى سر غيبه الجهل بمولاه تعلق بما سواه ، وهكذا أحوال الظاهر تابعة لأحوال الباطن ، كما تقدم فى قوله : تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال .

فالأسرَّة تدل على السريرة ، والكلام صفة المتكلم ، وما فيك ظهر على فيك : « وكلُّ إناء بالَّذى فيه يرْشَحُ » وما خامر القلوب فعلى الوجوه أثره ، والله تعالى أعلم .

وأعظم ما استودع فى غيب السرائر معرفة الله . وهى على قسمين : معرفة البرهان ومعرفة العيان ، أشار إلى الفرق بينهما فقال :

[شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه ، المستدل به عرف الحق لأهله ، فأثبت الأمر من وجود أصله ، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه ، وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه ؟ ومتى بعد حتى تكون الآثار هى التى توصل إليه] .

شتان : بمعنى بعد وافترق ، ولا تكون إلا فى افتراق المعانى دون الحسيات .

قلت : اعلم أن الحق سبحانه لما أراد أن يتجلى بأسرار ذاته وأنوار صفاته أظهر بقدرته قبضة من نوره الأزلى ، فاقتضت القدرة ظهور آثارها وشهود أنوارها ، واقتضت الحكمة إسدال حجابها وإظهار أستارها ، فلما أفرغت القدرة نورها فى مظاهر الكون أسدلت عليها الحكمة رداء الصون ، فصارت الأكوان كلها نورًا فى حجاب مستور .

---

(١) سورة البقرة : ٢٧٣ .　　(٢) الفتح : ٢٩ .

ثم إن الحق سبحانه قسم الخلق قسمين وفرقهم فرقتين : قسم اختصهم بمحبته وجعلهم من أهل ولايته ، ففتح لهم الباب ، وكشف لهم الحجاب ، فأشهدهم أسرار ذاته ، ولم يحجبهم عنه بآثار قدرته . وقسم أقامهم لخدمته ، وجعلهم من أهل حكمته ، أسدل عليهم حجاب الوهم ، وغيب عنهم نور العلم والفهم ، فوقفوا مع ظواهر القشور ولم يشهدوا بواطن النور ، مع شدة الظهور ، فسبحان من أخفى سره بحكمته ، وأظهر نوره بقدرته . فأما أهل المحبة وهم أهل الولاية والعرفان ، من أهل الشهود والعيان ، فهم يستدلون بالنور على وجود الستور ، فلا يرون إلا النور ، وبالحق على وجود الخلق فلا يجدون إلا الحق ، وبقدرته على حكمته فوجدوا قدرته عين حكمته ، وحكمته عين قدرته ، فغابوا بشهود الحق عن رؤية الخلق ، إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه ، وأما أهل الخدمة من أهل الحكمة فهم يستدلون بظهور الستور على وجود النور ، وبالخلق على وجود الحق ، غابوا عنه فى حال حضوره ، وحجبوا عنه بشدة ظهوره .

قال بعض العارفين : أثبت الله تعالى للعامة المخلوق فأثبتوا به الخالق ، وأثبت للخاصة نفسه فأثبتوا به المخلوق اهـ . فشتان : أى فرق كبير بين من يستدل به على ظهور أثره ، وبين من يستدل بظهور أثره على وجوده ، لأن من يستدل به عرف الحق وهو الوجود الحقيقى لأهله : أى لمن هو أهل له ويستحقه وهو الله الواجب الوجود ، الملك المعبود . وأثبت الأمر وهو القدم للوجود الحقيقى من وجود أصله ، وهو الجبروت الأصلى القديم الأزلى ، يعنى أن من عرف الله حتى صار عنده ضروريًّا عرف الوجود إنما هو الله ، وانتفى عنه وجود ما سواه ، وأثبت القدم لأوله ومنتهاه .

أو تقول : عرف الحق وهو الوجود الأصلى لأهله وهو الله تعالى ، وأثبت الأمر وهو الوجود الفرعى من وجود أصله : أى ألحقه بأصله ،فإذا التحق الفرع بالأصل صار الجميع جبروتيًّا أصليًّا ، ويحتمل أن يكون معناهما واحدًا ، ويكون التقدير عرف الوجود الحقيقى لأهله ، وأثبت ذلك الأمر من أصله ، كقولك : عرفت هذا الحكم وأثبت به من أصله ، والله تعالى أعلم .

وأما من يستدل عليه فلبعده عنه فى حال قربه منه ، ولغيبته عنه فى حال

حضوره معه بعّده الوهم ، وغيّبه عدم الفهم ، وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه ، إذ هو أقرب إليك من حبل الوريد ، ومتى بعد حتى تكون الآثار الوهمية هى التى توصل إليه : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ)[١] .

إذ أثر القدرة هو عينها ، فالصفة لا تفارق الموصوف ، إذ لا قيام لها إلا به ، ولا ظهور لها إلا منه ، وسيأتى له فى المناجاة : إلهى كيف يُستَدلّ عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك ، أيكون لغيرك ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟ ومتى بعُدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك ؟ والله تعالى أعلم .

ولما كان المستدلون بالله قد وسع عليهم دائرة العلوم ، وفتحت لهم مخازن الفُهوم ، بخلاف المستدلين عليه قد قتر الله عليهم أرزاق العلم ، بوجوب حجاب الوهم ، أشار إلى ذلك بقوله :

[لينفق ذو سعة من سعته الواصلون إليه ، ومن قدر عليه رزقه السائرون إليه] .

السعة : هى الغنى ، وقدر عليه ضق عليه .

قلت : أما الواصلون إليه فلأنهم لما نفذت أرواحهم من ضيق الأكوان إلى فضاء الشهود والعيان .

أو تقول : لما عرجت أرواحهم من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح ، أو من عالم الملك إلى عالم الملكوت ، اتسعت عليها دائرة أرزاق العلوم ، وفتحت لها مخازن الفهوم ، فأنفقوا من سعة غناهم جواهر العلم المكنون ، ومن مخازن كنوزهم يواقيت السر المصون ، فاتسع لهم ميدان المجال ، وركبوا أجياد البلاغة وفصاحة المقال ، فما أسرع الغنى لمن واجهته منهم العناية ، وما أعظم فتح من لحظته منهم الرعاية . إن لله رجالا من نظر إليهم سعد سعادة لا يشقى بعدها ،أبدًا ، وهم أهل السر والحال . أما السائرون إلى الله فلأنهم باقون فى ضيق الأكوان ، وفى عالم الأشباح مسجونون فى سجن الوهم ، لم يفتح لهم

---

(١) الحديد : ٤ .

شيء من مخازن الفهم ، مشغولون بجهاد نفوسهم ، ومعاناة تصفية قلوبهم ، مضيّق عليهم في العلوم ، ومقتّر عليهم في سائر الفهوم ، فإن جدُّوا في السير وصلوا ، وانتقلوا من ضيق الأكوان ، ورحلوا وتبختروا في رياض العلوم ، ورَفلوا فظفروا بما أمّلوا ، واستغنوا بعد ما إن ملوا ، وإن رجعوا من الطريق أو قصّروا فقد خابوا وخسروا .

تنبيه : إن أردت أن يتسع عليك علم الأذواق فاقطع عنك مادة الأوراق ، فما دمت متكلا على كنز غيرك لا تحفر على كنزك أبدًا ، فاقطع عنك المادة ، وافتقر إلى الله تفيض عليك المواهب من الله :

(إنما الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ)[1] .

إن أردت بسط المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك .

وقد قال الشيخ الدباس لتلميذه ميمونة حين تأخر عنه الفتح ، فرصده فوجده يطالع رسالة القشيرى : اطرح كتابك واحفر في أرض نفسك يخرج لك ينبوع ، وإلا فاذهب عنى اهـ وبالله التوفيق .

أنوار التوجه وأنوار المواجهة

ثم ذكر سبب اتساع العلوم على الواصلين دون السائرين ، وهو أن الواصلين لم يقفوا مع شهود الأنوار بل نفذوا إلى نور الأنوار ، بخلاف السائرين فإنهم واقفون مع الأنوار مفتقرون إليها مملوكون في يدها فقال :

[اهتدى الراحلون إليه بأنوار التوجه ، والواصلون لهم أنوار المواجهة . فالأولون للأنوار وهؤلاء الأنوار لهم ، لأنهم لله لا لشيء دونه (قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون)[2]] .

قلت : أنوار التوجيه : هى أنوار الإسلام والإيمان ، وأنوار المواجهة ، هى أنوار الإحسان .

---

(١) التوبة : ٦٠ .　(٢) الأنعام : ٩١ .

أو تقول : أنوار التوجيه ، أنوار الطاعة الظاهرة والباطنة ؛ وأنوار المواجهة هى أنوار الفكرة والنظرة .

أو تقول : أنوار التوجه أنوار الشريعة والطريقة ، وأنوار المواجهة أنوار الحقيقة .

أو تقول : أنوار التوجه أنوار المجاهدة والمكابدة ، وأنوار المواجهة هى أنوار المشاهدة والمكالمة ، وبيان ذلك أن الحق سبحانه إذا أراد أن يوصل عبده إليه توجه إليه أولا بنوره حلاوة العمل الظاهر ، وهو مقام الإسلام ، فيهتدى إلى العمل ويُعنى فيه ويذوق حلاوته ، ثم يتوجه إليه بنور حلاوة العمل الباطن ، وهو مقام الإيمان من الإخلاص والصدق والطمأنينة والأنس بالله ، والتوحش مما سواه ، فيهتدى إليه ويفنى فيه ، ويذوق حلاوته ، ويتمكن من المراقبة ، وهذا النور أعظم من الأول وأكمل ، ثم يتوجه إليه بنور حلاوة المشاهدة وهو عمل الروح ، وهو أول نور المواجهة ، فتأخذه الدهشة والحيرة والسكرة . فإذا أفاق من سكرته ، وصحا من جذبته ، وتمكن من الشهود وعرف الملك المعبود ، ورجع إلى البقاء كان لله وبالله ، فاستغنى عن النور بمشاهدة نور النور ، لأنه صار عين النور ، فصار مالكًا للأنوار بعد أن كانت مالكة له ، لافتقاره لها قبل وصوله إلى أصلها ، فلما وصل صار عبد الله حرًّا مما سواه ، ظاهره عبودية ، وباطنه حرية .

والحاصل : أن المريد مادام فى السير فهو يهتدى بأنوار التوجيه ، مفتقرًا إليها لسيره بها ، فإذا وصل إلى مقام المشاهدة حصلت له أنوار المواجهة فلم يفتقر إلى شىء ، لأنه لله لا لشىء دونه ، فالراحلون وهم السائرون للأنوار ، لافتقارهم إليها وفرحهم بها ، وهؤلاء الواصلون الأنوار لهم لاستغنائهم عنها بالله ، فهم لله وبالله لا لشىء دونه ، ثم تلا الشيخ هذه الآية على طريق أهل الإشارة :

(قُلِ اللهُ) بقلبك وروحك ، وغب عما سواه (ثُمَّ ذَرْهُمْ) أى الناس : أى اتركهم (فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) .

أى يخوضون فى السِّوى لاعبين فى الهوى . وقد اعترض بعض المفسرين على

الصوفية استشهادهم بهذه الآية ولم يفهم مرادهم .

(قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ)[١] .

وكان الشيخ ابن عباد يقول : لا تجعلوا أهل الظاهر حجة على أهل الباطن اهـ . لأن أهل الباطن نظرهم دقيق وغزلهم رقيق ، لا يفهم إشارتهم غيرهم ، نفعنا الله بهم ، وخرطنا فى سلكهم آمين . هذا آخر الباب الثانى .

وحاصلها : آداب المعارف وعلاماته ، فالآداب ثمانية ، العلامات أربع : الرجوع إليه فى كل شىء ، والاعتماد عليه فى كل حال ، والغيبة فيه عن كل شىء ، والاستدلال به على كل شىء ، واتساع أرزاق العلوم ، وفتح مخازن الفهوم ، والوصل إلى مواجهة الأنوار ، والغيبة عنها بشهود الواحد القهار .

---

(١) الأعراف : ١٦٠ .

البـَابُ الثـالث

التشوف إلى معرفة العيوب

ثم افتتح الباب الثالث بذكر التخلية والتحلية فقال رضى الله عنه :

[**تشوّفك إلى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوّفك إلى ما حجب عنك من الغيوب**] .

التشوف إلى الشيء : الاهتمام به والتطلع له .

قلت : تشوفك أيها الإنسان إلى ما بطن فيك من العيوب ، كالحسد والكبر وحب الجاه والرياسة ، وهم الرزق وخوف الفقر وطلب الخصوصية ، وغير ذلك من العيوب ، والبحث عنها ، والسعى فى التخلص منها أفضل من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب كالاطلاع على أسرار العباد ، وما يأتى به القدر من الوقائع المستقبلة ، وكالاطلاع على أسرار غوامض التوحيد قبل الأهلية له ، لأن تشوفك إلى ما بطن من العيوب سبب فى حياة قلبك ، وحياة قلبك سبب فى الحياة الدائمة والنعيم المقيم ، والاطلاع علىّ الغيوب إنما هو فضول ، وقد يكون سببًا فى هلاك النفس ، كاتصافها بالكبر ورؤية المزية على الناس ، وسيأتى للشيخ : من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلهية كان اطلاعه فتنة عليه وسببًا يجر الوبال عليه .

واعلم أن العيوب ثلاثة : عيوب النفس ، وعيوب القلب ، وعيوب الروح .

فعيوب النفس : تعلقها بالشهوات الجسمانية ، كطيب المآكل والمشارب والملابس والمراكب والمساكن والمناكح ، وشبه ذلك .

وعيوب القلب : تعلقه بالشهوات القلبية ، كحب الجاه والرياسة والعز والكبر والحسد والحقد ، وحب المنزلة والخصوصية ، وشبه ذلك مما يأتى إن شاء الله فى أوصاف البشرية .

وعيوب الروح : تعلقها بالحظوظ الباطنية ، كطلب الكرامات والمقامات

والقصور والحور، وغير ذلك من الحرف ، فتشوف المريد إلى شىء من ذلك كله ، قادح فى عبوديته ، مانع له من القيام بحقوق ربوبيته ، فاشتغاله بالبحث عن عيوبه النفسانية والقلبية والروحانية ، وسعيه فى التطهير من جميع ذلك أولى من تشوفه إلى ما حجب عنه من علم الغيوب كما تقدم ، وبالله التوفيق .

ولما ذكر التخلية ذكر ثمرتها وهى التحلية بالمعرفة ، إذا مامنع منها إلا تشوف النفس أو القلب أو الروح إلى حظوظها الوهمية فقال :

[الحق ليس بمحجوب عنك ، إنما المحجوب أنت عن النظر إليه ، إذ لو حجبه شىء لستره ما حجبه ، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر ، وكل حاصر لشىء فهو له قاهر ، وهو القاهر فوق عباده] .

قلت : الحق تعالى محال فى حقه الحجاب ، فلا يحجبه شىء ، لأنه ظهر بكل شىء وقبل كل شىء وبعد كل شىء ، فلا ظاهر معه ، ولا موجود سواه ، فهو ليس بمحجوب عنك ، وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه ، لاعتقادك الغيرية ، وتعلق قلبك بالأمور الحسية ، فلو تعلق قلبك بطلب المولى وأعرضت بالكلية عن رؤية السوى ، لنظرت إلى نور الحق ساطعًا فى مظاهر الأكوان ، وصار ما كان محجوبًا عنك بالوهم فى معد الشهود والعيان ، ولله در القائل :

لَقَدْ تَجَلَّى مـا كـان مُخَبَّىْ وَالْكَـوْنَ كُلُّهُ طَـوَيْتُ طَىّ
مِنِّى عـلىّ دارتْ كؤوسِـى مِنْ بَعدِ مَوْتِى تَـرانِى حَىّ

فالناس كلهم يشاهدون ولا يعرفون ، وكلهم فى البحر ولا يشعرون . وسمعت شيخنا رضى الله عنه يقول : والله ما حجب الناس عن الله إلا الوهم ، والوهم أمر عدمى لا حقيقة له ا هـ . وسيأتى للشيخ : ما حجبك عن الحق وجود موجود معه ، إذ لا شىء معه ، وإنما حجبك عنه توهم موجود معه اهـ . إذ لو حجبه تعالى شىء حسى لستره ذلك الحجاب ، ولو كان له ساتر حسى لكان لوجوده حاصر ، إذ محال أن يستره من جميع الوجوه ولا يحصره ، وكل حاصر لشىء فهو له قاهر ، كيف والله تعالى يقول :

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)[١] .

أى لأنهم فى قبضته ، وتحت تصريف قدرته ، وتخصيص إرادته ومشيئته . والفوقية : عبارة عن رفعة الجلال والمكانة لا المكان ، كما يقال : السلطان فوق الوزير والسيد فوق عبده ، والمالك فوق المملوك ، وغير ذلك مما يثبت الكبرياء وينفى سمات الحدوث ، والله تعالى أعلم .

ولما كان حجاب الروح عن المعرفة أمرًا وهميًا عدميًا لا حقيقة له وهو مرضها بأوصاف البشرية ، فلو صحت لعرفت ، أشار إلى ذلك بقوله :

[اخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك ، لتكون لنداء الحق مجيبًا ، ومن حضرته قريبًا] .

قلت : أوصاف البشرية هى الأخلاق التى تناقض خلوص العبودية ، ومرجعها إلى أمرين :

الأول : تعلق القلب بأخلاق البهائم ، وهى شهوة البطن والفرج ، وما يتبعهما من حب الدنيا وشهواتها الفانية . قال تعالى :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)[٢] الآية .

الثانى : تخلقه بأخلاق الشياطين ، كالكبر والحسد ، والحقد والغضب ، والحدة وهى القلق ، والبطر : وهى خفة العقل ، والأشر : وهو التكبر ، وحب الجاه والرياسة ، والمدح ، والقسوة والعطاء والفظاظة والغلظة ، وتعظيم الأغنياء ، واحتقار الفقراء ، وكخوف الفقر وهَمّ الرزق ، والبخل والشح ، والرياء والعُجب ، وغير ذلك مما لا يحصى حتى قال بعضهم : للنفس من النقائص ما لله من الكمالات .

وقد ألف الشيخ عبد الرحمن السلمى كتابًا فى عيوب النفس وأدويتها ونظمه الشيخ زروق فى نحو ثمانمائة بيت ، ومن ألقاه الله إلى شيخ التربية فلا يحتاج

---

(١) الأنعام : ٦١ .　　(٢) آل عمران : ١٤ .

إلى شيء سوى الاستماع والاتباع ، فإذا خرج المريد من أخلاق البهائم تخلق بأخلاق الروحانيين ، كالزهد الورع والقناعة والعفة ، والغنى بالله ، والأنس به . وإذا خرج من أخلاق الشياطين تخلق بأخلاق المؤمنين، أو بأخلاق الملائكة ، كالتواضع وسلامة الصدور ، والحلم والسكينة والرزانة ، والطمأنينة والسهولة والليونة ، والخمول ، والاكتفاء بعلم الله ، والشفقة والرحمة ، وتعظيم الفقراء والمساكين ، وأهل النسبة وجميع الأمة ، والكرم والسخاء والجود والإخلاص ، والصدق والمراقبة والمشاهدة والمعرفة ، فإذا تخلق العبد بهذه الأخلاق وتحقق بها ذوقًا بعد أن تخلص من أضدادها ، كان عبدًا خالصًا لمولاه ، حرًّا مما سواه ، وكان لندائه مجيبًا ، ومن حضرته قريبًا ، فإذا قال له ربه : ياعبدى قال له : يارب ، فكان صادقًا فى إجابته لصدق عبوديته ، بخلاف ما إذا كان منهمكًا فى شهواته الظاهرة والباطنة كان عبدًا لنفسه وشهواته . فإذا قال : يارب كان كاذبًا ، إذ من أحب شيئًا فهو عبد له ، وهو لا يحب أن يكون عبدًا لغيره ، وإذا تخلص من رق الشهوات والحظوظ كان أيضًا قريبًا من حضرة الحق بل عاكفًا فيها ، إذ ماأخرجنا عن الحضرة إلا حب هذه الخيالات الوهمية ، فإذا تحررنا منها وتحققنا بالعبودية وجدنا أنفسنا فى الحضرة .

واعلم أن هذه الأوصاف البشرية التى احتجبت بها الحضرة إنما جعلها الله منديلا لمسح أقذار القدر ، كالنفس والشيطان والدنيا ، فجعل الله النفس والشيطان منديلا للأفعال المذمومة ؛ وجعل البشرية منديلا للأخلاق الدنيئة ، وما ثم إلا مظاهر الحق وتجليات الحق ، وما ثم سواه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . ثم إن هذه العيوب سبب بقائها فى الإنسان باعتبار الحكمة هى الغفلة عن البحث عنها ، وسبب الغفلة عن البحث عنها هو الرضا عن النفس ، إذ لو أساء ظنه بها لبحث عن مساويها فاستخرجها وتطهر منها ، فلذلك قال :

[أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس] .

قلت : إذ كل من رضى عن نفسه استحسن أحوالها وغطى مساويها ، لقول الشاعر :

* وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ *

[وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها] .

قلت : لأن من اتَّهم نفسه ، وأساء ظنه بها ، ونظر إليها بعين السخط بحث عن عيوبها واستخرج مساويها ، لقول الشاعر :

* وَلٰكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِى المَسَاوِيَا *

فابحث أيها المريد عن مساويك واتّهم نفسك ، ولا تستحسن شيئًا من أحوالها ، فإنك إذا رضيت عنها واستحسنت أحوالها لدغتك وأنت لا تشعر ، وحجبتك عن الحضرة وأنت تنظر .

قال أبو حفص الحداد : من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ، ولم يخالفها فى جميع الأحوال ولم يجرَّها إلى مكروهها فى سائر أيامه كان مغرورًا . ومن نظر إلى نفسه باستحسان شىء منها فقد أهلكها ، وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه ، والكريم ابن الكريم ابن الكريم يقول :

(وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَارَحِمَ رَبِّى)[1] .

وفى معنى ذلك أنشدوا :

تَوَقَّ نَفْسَكَ لَا تَأْمَنْ غَوَائِلَهَا   فَالنَّفْسُ أَخْبَثُ مِنْ سَبْعِينَ شَيْطَانَا

وقال السرى السقطى : من عرف الله عاش ، ومن مال إلى الدنيا طاش ، والأحمق يروح ويغدو فى لاش ، والعاقل عن عيوبه فتاش اهـ .

فابحث يا أخى عن عيوبك إن أردت نصح نفسك ، فإذا بحثت عن عيوبها وفضحت عوراتها ، تخلصت وتحررت ، وتحققت ، ودخلت الحضرة ، واتسعت لك النظرة ، واشتكت لك الفكرة .

وكان شيخ شيخنا يقول : لعنة الله على من ظهرت له عورة نفسه فلم يفضحها . وكان أيضًا كثيرًا ما يوصى بعدم المراقبة للناس وعدم المبالاة بهم ،

---

(١) يوسف : ٥٣ .

إذ لا يتخلص من دقائق الرياء إلا بإسقاطهم من عينه وسقوطه هو من عينهم . ومن أراد أن يتخلص فليصحب من تخلّص ، ولذلك قال :

[ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير من أن تصحب عالمًا يرضى عن نفسه] .

قلت : إذ صحبة من لا يرضى عن نفسه خير محض ، لتحققه بالإخلاص ، فيسرى ذلك فى الصاحب حتى يتحلى بالإخلاص ، ويصير من جملة الخواص ، وصحبة من يرضى عن نفسه شر محض ، ولو كان أعلم أهل الأرض ، لأن الطباع تسرق الطباع ، إذ الجهل الذى يقرب للحضرة أحسن من العلم الذى يبعد عن الحضرة ، ولذلك قال بعض العارفين : أشد الناس حجابًا عن الله العلماء ، ثم العباد ، ثم الزهاد ، لوقوفهم مع علمهم وعبادتهم وزهدهم ، والجهل الذى يوصل إلى الله علم على الحقيقة ، والعلم الذى يحجب عن الله جهل على الحقيقة ، ولذلك قال :

[فأى علم لعالم يرضى عن نفسه ؟] .

قلت : لأنه صار حجابًا له عن ربه ، ثم قال :

[وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه ؟] .

قلت : إذ بعدم الرضا عن نفسه بحث عنها وتخلص من رقّها ، فصار عبدًا حقيقة لله فحينئذ أحبه سيده ، واصطفاه لحضرته ، واجتباه لمحبته ، وأطلعه على مكنون علمه ، فكان أعلم خلقه ، والله تعالى أعلم .

وإذا تخلص العبد من حظوظه وأوصاف بشريته ، قرب من حضرة ربه ، لصحة قلبه وإشراقه بنور ربه ، ثم امتحق وجوده فى وجود محبوبه ، وشهوده فى شهود معبوده ، وإلى ذلك أشار بقوله :

[شعاع البصيرة يشهدك قربه منك ، وعين البصيرة تشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة يشهدك وجوده لا عدمك ولا وجودك ، كان الله ولا شىء معه ، وهو الآن على ما عليه كان] .

قلت : البصيرة ناظر القلب ، كما أن البصر ناظر القلب ، فالبصيرة ترى المعانى اللطيفة النورانية ، والبصر يرى المحسوسات الكيفية الظلمانية الوهمية .

ثم البصيرة باعتبار إدراك نور المعانى اللطيفة عل خمسة أقسام : قسم فسد ناظرها فعميت ، فأنكرت نور الحق من أصله ، قال سيدى البوصيرى :

قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ
وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمِ

وهذه بصيرة الكفار . قال تعالى : (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ)[١] .

وقسم صح ناظرها لكنها مسدودة لضعف ناظرها لمرض أصابه ، فهى تقر بالنور لكنها لا تقوى على مشاهدته ، ولا تشهد قربه منها ولا بعده عنها ، وهى لعامة المسلمين .

وقسم صح ناظرها وقوى شيئًا ما ، حتى قرب أن يفتح عينه ، ولكن لشدة الشعاع لم يطق أن يفتح عينه فأدرك شعاع النور قريبًا منه ، وهو لعامة المتوجهين ، ويسمى هذا المقام شعاع البصيرة .

وقسم قوى ناظرها ففتح عين بصيرته فأدرك النور محيطًا به حتى غاب عن نفسه بمشاهدة النور ، وهذا لخاصة المتوجهين ، ويسمى هذا المقام عين البصيرة .

وقسم صحت بصيرته واشتد نورها فاتصل نورها بنور أصلها ، فلم تر إلا النور الأصلى ، وأنكرت أن يكون ثم شيء زائد على نور الأصل ؛ كان الله ولا شيء ، وهو الآن على ما عليه كان ، ويسمى هذا حق البصيرة ، ووجه تسميته بشعاع البصيرة أن صاحبها لما كان يرى وجود الأكوان انطبعت فى مرآة بصيرته ، فحجبته عن شهود النور من أصله ، لكن لما رقّت كثافتها وتنورت دلائلها ، رأى شعاع النور من ورائها قريبًا منه ، فأدرك الشعاع ولم يدرك النور ، وهذا هو نور الإيمان ، وهو مقام علم اليقين .

ووجه تسمية عين البصيرة : أن البصيرة لما صحت وقويت انفتحت عينها فرأت النور محيطًا ومتصلا بها ، فسميت عين البصيرة ، لانفتاحها وإدراكها ما خفى على غيرها ، وهذا مقام عين اليقين .

---

(١) الحج : ٤٦ .

ووجه تسمية حق البصيرة : أن البصيرة لما أدركت الحق من أصله وغابت عن نور الفروع بنور الأصول ، سميت حق البصيرة ، لما أدركته من الحق ، وغابت عن شهود الخَلْقِ ، وهذا مقام حق اليقين ، فشعاع البصيرة هو نور الإيمان لأهل المراقبة ، وعين البصيرة هو نور الإحسان لأهل المشاهدة ، وحق البصيرة هو نور الرسوخ والتمكين لأهل المكالمة .

أو تقول : شعاع البصيرة نور علم اليقين ، وعين البصيرة هو نور عين اليقين ، وحق البصيرة هو نور حق اليقين .

فعلم اليقين لأهل الدليل والبرهان ، وعين اليقين لأهل الكشف والبيان ، وحق اليقين لأهل الشهود والعيان . مثال ذلك : كمن سمع بمكة مثلا ولم يرها ، فهذا عنده علم اليقين ، فإذا استشرف عليها ورآها ولم يدخلها فهو عين اليقين ، فإذا دخلها وتمكن فيها فهو حق اليقين ، وكذلك طالب الحق ، فمازال من وراء الحجاب فانيًا فى الأعمال فهو فى علم اليقين ، فإذا استشرف على الفناء فى الذات ولم يتمكن من الفناء فهو عين اليقين ، فإذا رسخ وتمكن فهو فى حق اليقين .

أو تقول : شعاع البصيرة لأهل عالم الملك ، وعين البصيرة لأهل عالم الملكوت وحق البصيرة لأهل عالم الجبروت .

أو تقول : شعاع البصيرة لأهل الفناء فى الأعمال ، وعين البصيرة لأهل الفناء فى الذات ، وحق البصيرة لأهل الفناء فى الفناء . فشعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك : أى يوجب لك شهود قرب نور الحق منك . قال تعالى :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)[1] وقال تعالى : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ)[2] .

وعين البصيرة يشهدك عدمك : أى زوالك بزوال وهمك لوجوده أى وجود الحق ، إذ محال أن تشهد معه سواه ، فإذا زال عنك الوهم وفنيت عن وجودك ، شهدت ربك بربك ، وهو علامة فتح البصيرة ، وعلاج السريرة كما قال شيخ

---

(١) سورة ق : ١٦ .
(٢) سورة الحديد :٤ .

شيوخنا عبد الرحمن المجذوب :

مَنْ رَأَى الْمُكَوِّن بِالْكَوْنِ عَـزِّهِ فِى عَمَى البَصِيرَةِ
وَمَنْ رَأَى الْكَوْنَ بِالْمُكَوِّنِ صَـادَفَ عِلَاجَ السَّـرِيرَةِ

فظاهره أن عامة المسلمين عميت بصيرتهم . والتحقيق هو ما تقدم من التفصيل ، وأنها مسدودة فقط مع صحة ناظرها ، بخلاف بصيرة الكفار فإنها عمياء ، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق وحده لا وجودك ، لأنك مفقود من أصلك وعدمك ، إذ لا يعدم إلا ماثبت له وجود ، ولم يكن مع الله موجود . كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان . وهذه الزيادة وإن لم تكن فى الحديث لكن معناها صحيح ، إذ التغير عليه تعالى محال .

قال محيى الدين بن محمد بن على بن العربى الحاتمى رضى الله عنه : من شهد الخلق لا فعل لهم فقد فاز ، ومن شهدهم لا حياة لهم فقد جاز ، ومن شهدهم عين العدم فقد وصل اهـ .

قلت : ومن شهدهم بعين العدم فقد تمكن وصاله ، وأنشدوا :

مَنْ أَبْصَرَ الْخَلْقَ كالسَّرابِ فَقَدْ تَرَقّى عَنِ الْحِجَابِ
إِلَى وجُـودٍ تَـرَاهُ رَتْقًـا بِلَا ابْتِعَادٍ وَلَا اقْتِـرابِ
فَـلَا خِـطَابَ بِـهِ إِلَيْـهِ وَلَا مُشِـيرَ إلى الْخِطَابِ

والله تعالى أعلم .

البـــاب الرابـــع

ما سوى الحق خيال

ثم إذا تقرر انفراد الحق بالوجود ، فلا تتعدّ همتك إلى غيره ، إذ هو مفقود ، وإلى ذلك أشار بقوله ، فى أول الباب الرابع . وقال رضى الله عنه :

[لا تتعد نيَّة همتك إلى غيره فالكريم لا تتخطاه الآمال] .

قلت : لا تتعد ، أى لا تتجاوز ، ونية الهمة : قصدها الذى تتوجه به ، والهمة : القوة المنبعثة فى طلب المقاصد ، والآمال : قصود القاصدين ، ومعنى لا تتخطاه أى لا تتجاوز إلى غيره .

قلت : إذا تعلقت همتك أيها المريد بشىء تريد تحصيله فردها إلى الله ولا تتعلق بشىء سواه ، لأنه سبحانه كريم على الدوام ، ونعمه سحاء على مر الليالى والأيام ، والكريم لا تتخطاه الآمال ، وهو يحب أن يسأل فيجيب السؤال . وقد قالوا فى تفسير اسمه تعالى الكريم : هو الذى إذا سئل أعطى ، ولا يبالى كم أعطى ولا لمن أعطى ، وإذا رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى ، وإذا جفا عفى ، وإذا عاتب ما استقصى ، فهذا من كمال كرمه ، وتمام إحسانه وإنعامه ، وفى ذلك يقول سيدى إبراهيم التازى فى قصيدة له :

كَمالُ اللهِ أَكْمَلُ كُلِّ حُسْنٍ ... فَللهِ الْكَمَــالُ وَلاَ مُمَــارِى
وَحُبُّ اللهِ أَشْرَفُ كُلِّ أُنْسٍ ... فَـلاَ تَنْسَ التَّخَلُّقَ بِالْـوَقَارِ
وَذِكْرُ اللهِ مَرْهَمُ كُلِّ جُرْحٍ ... وَأنفَــعُ مِنْ زُلاَلٍ لِـلأُوارِ
وَلاَ مَوْجُودَ إِلاَّ اللهُ حَقًّـا ... فَدَعْ عَنْكَ التَّعَلُّقَ بِـالفِشَارِ

وإذا علمت كرمه وجوده وكماله وإحسانه فلا ترفع إلى غيره ما هو مورده عليك كما قال :

[لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك] .

قلت : قد علمت أن ما سوى الحق خيال وهمى لا حقيقة لوجوده ، فإذا أنزل الله بك حاجة كفاقة أو شدة أو غير ذلك من العوارض فأنزلها بالله ، واجعلها تحت مشيئة الله ، وغب عنها فى ذكر الله ، ولا تلتفت إلى ما سواه تعلقًا وتملقًا ؛ ففى الحديث : « مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يغْضَبْ عَلَيْهِ » .

وقال أبو على الدقاق : من علامةَ المعرفة ألا تسأل حوائجك كلها إلا من الله قلَّت أو جلت ، مثل موسى عليه السلام اشتاق إلى رؤيته فقال :
(رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ)[1] .

واحتاج يومًا إلى رغيف فقال :
(رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فقِيرٌ)[2] اهـ .

ثم تعجب ممن رفع أحكام الحق إلى غيره مع عجزه وضعفه فقال :
[فكيف يرفع إلى غيره ما كان هو له واضعًا] .

قلت : من قلة حياء الإنسان أن يرفع إلى غيره ما أنزله عليه الحق تعالى من أحكام قهره ، مع علمه تعالى بإحسانه وبره وعدم انفكاك لطفه عن قدره . قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : أيست من نفع نفسى لنفسى فكيف لا أيأس من نفع غيرى لها ، ورجوت الله لغيرى فكيف لا أرجوه لنفسى .

وقال بعض العارفين من المكاشفين رضى الله عنهم : قيل لى فى نوم كاليقظة أو يقظة كالنوم : لا تبدين فاقة فأضاعفها عليك ، مكافأة لسوء أدبك وخروجك إلى حد عبوديتك ، إنما ابتليتك بالفاقة لتفرغ إلىّ منها ، وتتضرع بها لدىّ ، وتتوكل فيها علىّ ، سبكتك بالفاقة لتصير بها ذهبًا خالصًا ، فلا تزيغن بعدك السبك ، وسَمْتك بالفاقة وحكمت لنفسى بالغنى ، فإن وصلتها بى وصلتك بالغنى ، وإن وصلتها بغيرى قطعت عنك مواد معونتى ، وحسمت أسبابك من

---

(١) الأعراف : ١٤٣ .   (٢) القصص : ٢٤ .

أسبابى طردًا لك عن بابى ، فمن وكلته إلىّ مَلَك ، ومن وكلته إليه هلك اهـ .

ثم بين وجه التعجب فقال :

[من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعًا ؟] .

قلت : من عجز عن إصلاح نفسه فكيف يقدر أن يصلح غيره ؟ ضعف الطالب والمطلوب . قال بعضهم : من اعتمد على غير الله فهو فى غرور ، لأن الغرور ما لايدوم ، ولا يدوم شيء سواه ، وهو الدائم القديم الذى لم يزل ولا يزال ، وعطاؤه وفضله دائمان فلا تعتمد إلا على من يدوم لك منه العطاء والفضل اهـ . ثم إن الاعتماد على الله ورفع الحوائج إليه والرجوع فى كل النوازل إليه سببه حسن الظن به كما أشار إليه بقوله :

[إن لم تحسن ظنك به لأجل وصفه فحسن ظنك به لأجل معاملته معك ، فهل عوّدك إلا حسنًا وهل أسدى إليك إلا مننًا ؟] .

قلت : الناس فى حسن الظن بالله على قسمين : خواص وعوام . أما الخواص فحسن ظنهم بالله تعالى ناشئ عن شهود جماله ورؤية كماله ، فحسن ظنهم بالله لا ينقطع سواء واجههم بجماله أو بجلاله ، لأن اتصافه تعالى بالرحمة والرأفة والكرم والجود لا ينقطع ، فإذا تجلى لهم بجلاله أو قهريته علموا ما فى طى ذلك من تمام نعمته وشمول رحمته ، فغلب عليهم شهود الرحمة والجمال ، فدام حسن ظنهم على كل حال .

وأما العوام فحسن ظنهم بالله ناشئ عن شهود إحسانه وحسن معاملته وامتنانه ، فإذا نزلت بهم قهرية أو شدة نظروا إلى سالف إحسانه وحسن ما أسدى إليهم من حسن لطفه وامتنانه ، فقاسوا ما يأتى على ما مضى ، فتلقوا ما يَرِدُ عليهم بالقبول والرضا ، وقد يضعف هذا الظن بضعف النظر والتفكر ويقْوَى بقوتها ، بخلاف الأول فإنه ناشئ عن شهود الوصف والوصف لا يتخلف . والثانى ناشئ ، عن شهود الفعل وهو يتخلف فإن لم تقدر أيها المريد أن تحسن ظنك بالله لشهود وصفه بالرأفة والرحمة التى لا تتخلف فحسن ظنك به لوجود معاملته معك بلطفه ومننه ، فهل عودك الحق تعالى إلا برًّا حسنًا ولطفًا

جميلا ؟ وهل أسدى إليك : أى أوصل إليك إلا مننًا كبيرة ونعمًا غزيرة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يُغَذِّيكُمْ بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ ، وَأَحِبُّونِى بِحُبِّ اللهِ » .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : إنا لا نحب إلا الله ، فقال رجل أبى ذلك جدك يا سيدى بقوله :

« جُبِلَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا » .

فقال الشيخ أبوالحسن : إنا لما لم نر محسنًا غير الله لم نحب سواه اهـ.

وقال أيضًا رضى الله عنه : قرأت ليلة :

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) إلى أن بلغت فيها (مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ) .

فقيل لى : شر الوسواس وسواس يدخل بينك وبين حبيبك ، يذكرك أفعالك السيئة وينسيك أفعالك الحسنة ، ويُكثر عندك ذات الشمال : ويقلل عندك ذات اليمين ، ليعدل بك عن حسن الظن بالله ، وكرمه إلى سوء الظن بالله ورسوله . فاحذروا هذا الباب فقد أُخِذَ منه خلق كثير من العباد والزهاد وأهل الطاعة والسداد ا هـ .

وقال رضى الله عنه أيضًا : العارف من عرف شدائد الزمان فى الألطاف الجارية من الله عليه ، وعرف إساءته فى إحسان الله إليه .

(فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[1] اهـ .

وإذا كان الحق تعالى ما عودك إلا الإحسان ، وما أسدى إليك إلا الامتنان فمن العجب أن تتركه وتطلب ما سواه ، وإلى ذلك أشار بقوله :

[العجب كل العجب ممن يهرب مما لا انفكاك له عنه ، ويطلب ما لا بقاء له معه ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور] .

---

(١) الأعراف : ٦٩ .

قلت : ما لا انفكاك منه هو الحق تعالى وقضاؤه وقدره ، وما لا بقاء له هو الدنيا أو ما تدبره النفس وتقدره ، فمن أعجب العجائب أن يفر العبد من مولاه ، ويتوجه بالطلب لما سواه ، مع أنه لا انفكاك له منه ، ولا محيد له عنه ، إذ لا وجود له إلا منه ، ولا قيام له إلا به ، فكيف يهرب منه بترك طلب معرفته ، وبالتقرب به بامتثال أمره واجتناب نهيه ، ويطلب ما لابقاء له من حظوظ الدنيا الفانية التى إن لم تزل عنها فى الحياة زالت عنك بالممات ، فاطلب ما يبقى دون ما يفنى ، ولله در القائل :

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوًا أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى زَوَالِ

وَمَا دُنْيَاكَ إِلاَّ مِثْلُ ظِلٍّ أَظَلَّكَ ثُمَّ آذَنَ بِارْتِحَالِ

أو تقول : من العجب كل العجب أن يهرب العبد مما لا انفكاك له عن قدر الله وقضائه ، ويطلب ما لا بقاء له من حظوظ تدبيره واختياره ، إذ كل ما تدبره وتبرمه فسخه القضاء وهدمه :

مَتى يَبْلُغُ الْبُنْيَانُ يَوْمًا تَمَامَهُ إِذَا كُنْتَ تَبْنِيهِ وَغَيْرُكَ يَهْدِمُ

وهذا كله من عدم فتح البصيرة أو عماها ، ولذلك قال تعالى : (فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ) عن إدراك الحس ، لأنها أدركته وحجبت به (ولَكِن تعمى القلوبُ) عن إدراك المعنى ، فلا ترى إلا الحس ولا تحب إلا إياه ، ولا تطلب شيئًا سواه ؛ نسأل الله عافيته وهداه .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : عمى البصيرة فى ثلاث : إرسال الجوارح فى معاصى الله ، والطمع فى خلق الله ، والتصنع بطاعة الله اهـ .

ثم إذا طلبت الحق الذى لا انفكاك لك عنه ورحلت إليه ، فاطلب معرفة ذاته لا زخارف جناته ، إذ هى كون من مكوناته ، ولذلك قال :

[لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى يسير ، والذى ارتحل إليه هو الذى ارتحل عنه ، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكوِّن وأنَّ إلى ربِّك المُنتهى] .

الهجرة إلى الله

قلت : الرحيل من الكون إلى الكون هو الرحيل من السِّوى إلى طلب السِّوى ، وذلك كمن زهد فى الدنيا وانقطع إلى الله ، يطلب بذلك راحة بدنه وإقبال الدنيا عليه ، لقوله صلى الله عليه وسلم :

« مَنِ انْقَطَعَ إلَى اللهِ كَفَاهُ كُلَّ مُؤْنَةٍ وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ » ولقوله أيضًا : « مَنْ كانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ صَاغِرَةٌ » .

وكمن زهد فيها يطلب الخصوصية كإقبال الخلق والعز وتربية المهابة فى قلوب الناس ، أو زهد فيها يطلب الكرامة وخوارق العادات ، أو زهد فيها يطلب القصور والحور ، فهذا كله رحيل من كون إلى كون ، فمثله كحمار الطاحونة يسير الليل والنهار وهو فى موضعه ، فالذى ارتحل منه هو الذى ارتحل إليه ، فمن كانت همته الحظوظ النفسانية ، فحاله حال حمار الساقية فى السير دائم ، وهو فى موضعه قائم يظن أنه قطع مسافة مما طلب ، وما زاد إلا نقصًا مع تعب .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : قف بباب واحد لا لتفتَّح لك الأبواب ، تفتحْ لك الأبواب ، واخضع لسيد واحد لا لتخضع لك الرقاب تنخضعْ لك الرقاب قال تعالى:(وَإِنْ مِنْ شَىء إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)[1] اهـ.

فيبنغى لك أيها المريد أن ترفع همتك إلى الملك المجيد ، فترحل من رؤية الأكوان إلى طلب شهود الملك الديان ، أو ترحل من الدليل والبرهان إلى رتبة الشهود والعيان ، وهو غاية القصد وبلوغ المنتهى (وأنّ إلى ربك المنتهى) ولا ترحل من كون إلى كون ، بأن تترك حظًّا من حظوظ نفسك طلبًا لحظ آخر فتكون كحمار الرحى الذى سار منه هو الذى عاد إليه ، وتشبيهه بالحمار دليل على بلادته وقلة فهمه ، إذ لو فهم عن الله لرحل عن حظوظ نفسه وهواه ،

---

(١) الحجر : ٢١ .

قاصدًا الوصول إلى حضرة مولاه ، فلا ترحل أيها المريد من كون مخلوق إلى كون مخلوق مثلك ، ولكن ارحل من الكون إلى المكوِّن (وأن إلى ربك المنتهى) . والرحيل إلى المكوِّن يكون بثلاثة أمور :

الأول : قصر همتك عليه دون ما سواه حتى يطّلع على قلبك فلا يجده محبًّا لسواه .

الثانى : الرجعى إليه بإقامة الحقوق والفرار من الحظوظ .

الثالث : دوام اللجأ إليه ، والاستعانة به ، والتوكل عليه ، والاستسلام لما يورده عليك .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : أربعة من كن فيه احتاج الخلق إليه وهو غنى عن كل شىء : المحبة لله ، والغنى بالله ، والصدق ، واليقين . الصدق فى العبودية ، واليقين فى أحكام الربوبية .

(وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)[1] ا هـ .

قاله الشيخ زروق رضى الله عنه : ثم استدل على طلب رفع الهمة إلى الله مع الإعراض عما سواه بحديث الهجرة الذى فى الصحيح فقال :

[وانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه ، فافهم قوله عليه الصلاة والسلام : فهجرته إلى ما هاجر إليه ، وتأمل هذا الأمر إن كنت ذا فهم ، والسلام] .

قلت : الهجرة هى الانتقال من وطن إلى وطن آخر بحيث يهجر الوطن الذى خرج منه ، ويسكن الوطن الذى انتقل إليه ، وهى هنا من ثلاثة أمور : من وطن المعصية إلى وطن الطاعة ، ومن وطن الغفلة إلى وطن اليقظة ، ومن وطن عالم الأشباح إلى وطن عالم الأرواح .

أو تقول : من وطن الملك إلى وطن الملكوت ، أو من وطن الحس إلى وطن المعنى أو من وطن علم اليقين إلى وطن عين اليقين أو حق اليقين ، فمن هاجر

---

(١) المائدة : ٥٠ .

من هذه المواطن قاصدًا بهجرته الوصول إلى رضا الله عنه وسوله ، أو الوصول إلى معرفة الله ورسوله فهجرته موصلة إلى الله ورسوله على حسب قصده وهمته ، ومن كانت هجرته إلى حظوظ نفسه وهواه فقد خاب قصده ومسعاه ، وغاية هجرته ما هاجر إليه ، وكانت هجرته زيادة فى جر الوبال إليه . فافهم أيها السامع قوله عليه الصلاة والسلام : « فهجرته إلى ما هاجر إليه » وتدبر واعرضه على قلبك ونفسك ، وانظر هل فيك بقية من الالتفات إلى ما هاجرت منه ، أو فيك حظ سوى ما هاجرت إليه من رضوان الله ورسوله أو معرفة الله ورسوله فإن الله غيور لا يحب لمن طلبه أن يطلب معه سواه ، ولن يوصل إليه من بقى فيه بقية من حظه ، وهواه قال الششترى :

إِنْ تُـرِدْ وَصْلَنَـا فَمَـوْتـكَ شَـرْطٌ
لاَ يَنَـالُ الْوِصَـالَ مَنْ فِيهِ فَضْلَه

وقال أيضًا :

لَـيْسَ يُـدْرِك وِصَـالِى كُـلُّ مَنْ فيـهِ بُـقْيَـا

وسمعت شيخنا اليزيدىّ رضى الله عنه يقول : إن أردتم أن تعرفوا هل رحلت أنفسكم من هذا العالم إلى عالم الملكوت أو لم ترحل فاعرضوا عليها الأمور التى كانت تشتهيها وتميل إليها واحدًا بعد واحد ، فإن وجدتموها رحلت عنها وخرجت محبتها من قلبها ، ولم تركن إلى واحد منها فاستبشروا ، فقد رحلت أرواحكم إلى عالم الملكوت ، وإن وجدتموها ركنت أو مالت بالمحبة إلى شىء من هذا العالم فجاهدوها وأخرجوها عنه بالكلية حتى ترحل إلى ربها ا هـ بالمعنى .

وختم هذا الباب بالسلام لما اشتملت عليه من الرحيل والمقام ، فكلها تدل على سفر القلب من شهود الخلق إلى شهود الخالق ، فناسب ختمها بالسلام لما فيه من ذكر السلامة .

الباب الخامس

الصحبة

ولما كان السفر لابد فيه من دليل ، وإلا ضل عن سواء السبيل افتتح الباب الخامس بذكر الصحبة وشروط المصحوب وآدابها فقال :

[لا تصحب من لا ينهضك حالهُ ، ولا يدلك على الله مقالُه] .

قلت : الذى ينهضك حاله هو الذى إذا رأيته ذكرت الله ، فقد كنت فى حال الغفلة ، فلما رأيته نهض حالك إلى اليقظة ، أو كنت فى حالة الرغبة ، فلما رأيته نهض حالك إلى الزهد ، أو كنت فى حالة الاشتغال بالمعصية ، فلما رأيته نهض حالك إلى التوبة ، أو كنت فى حالة الجهل بمولاك فنهضت إلى معرفة من تولاك وهكذا . والذى يدلك على الله مقاله هو الذى يتكلم بالله ، ويدل على الله ، ويغيب عما سواه ؛ إذا تكلم أخذ بمجامع القلوب ، وإذ سكت أنهضك حاله إلى علام الغيوب ، فحاله يصدِّق مقاله ، ومقاله موافق لعلمه ، فصحبة مثل هذا إكسير يَقْلِب الأعيان ، وهو مفهوم من قول الشيخ : لا تصحب من لا ينهضك حاله إلخ : أى بل اصحب من ينهضك حاله ، وبذلك يدلك على الله مقاله . والصحبة فى طريق التصوف أمر كبير فى السير إلى الله تعالى حسبما جرت به عادة الله تعالى وحكمته ، حتى قال بعضهم : من لا شيخ له فالشيطان شيخه . وقال آخر : الإنسان كالشجرة النابتة فى الخلاء ، فإن لم تقطع وتقلم كانت دكارة . وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : كل من لا شيخ له فى هذا الشأن لا يُفرَح به .

ومن شروط الشيخ أربعة : علم صحيح ، وذوق صريح ، وهمة عالية ، وحالة مرضية ، فالعلم الصحيح : هو ما يتيقن به فرضه ، ولابد أن يكون عالمًا بالمقامات والمنازل التى يقطعها المريد ، وبغرور النفس ومكايدها ، قد سلك ذلك على يد شيخ كامل . وذاق ذلك ذوقًا لا تقليدًا ، وهو المراد بالذوق

الصريح . والهمة العالية هى المتعلقة بالله دون ما سواه . والحالة المرضية : وهى الاستقامة بقدر الاستطاعة ، ولابد أن يكون جامعًا بين حقيقة وشريعة ، وبين جذب وسلوك ، فبجذبه يجذب القلوب وبسلوكه يخرجها من حالة الجذب إلى البقاء ، فالسالك فقط ظاهرى لا يجذب ولا يحقق ، والمجذوب فقط لا يسير ولا يوصل ، وفساد صحبته أكثر من نفعها . قال فى أصول الطريقة : ومن فيه خمس لا تصح مشيخته : الجهل بالدين ، وإسقاط حرمة المسلمين ، ودخول ما لا يعنى ؛ واتباع الهوى فى كل شيء ، وسوء الخلق من غير مبالاة اهـ . فصحبة مثل هذا ضرر محض وإليه أشار بقوله :

[ربما كنت مسيئًا فأراك الإحسانَ منك صحبتُك إلى من هو أسوأ حالا منك] .

قلت : رب هنا للتكثير ، وصحبتك فاعل بأراك ، والإحسان مفعول مقدم ، والتقدير : ربما تكون مسيئًا فى حالك مقصرًا فى عملك ، فإذا صحبت من هو أسوأ حالا منك أراك أى أبصرتك صحبتك إلى من هو أسوأ حالا منك . الإحسان منك لما ترى ما يصدر منها من الإحسان ومن المصحوب من التقصير والنقصان ، فتعتقد المزية عليه ، لأن النفس مجبولة على رؤية الفضل لها ، ومشاهدة التقصير من غيرها علمًا أو عملاً أو حالا ، بخلاف ما إذا صحبت من هو أحسن منها فإنها لا ترى من نفسها إلا التقصير ، وفى ذلك خير كثير .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى : أوصانى حبيبى فقال : لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله ، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالبًا من معصية الله ، ولا تصطف لنفسك إلا من تزداد به يقينًا ، وقليل ما هم .

وقال له أيضًا : لا تصحب من يؤثر نفسه عليك فإنه لئيم ، ولا من يؤثرك على نفسه فإنه قلّ ما يدوم ، واصحب من إذا ذُكر ذكر الله ؛ فالله يغنى به إذا شهد ، وينوب عنه إذا فقد ، ذكره نور القلوب ، ومشاهدته مفاتيح الغيوب . اهـ .

وحاصله : لا تصحب من تتكلف له فوق جهدك ، ولا من يتكلف لك كذلك ؛ وخير الأمور أوساطها ، وهذا والله أعلم فى صحبة الإخوة . وأما صحبة الشيخوخة فكل ما أمر به الشيخ أو أشار إليه أو فهمت أنه يحب ذلك فلابد أن

تبادر إليه بقدر الإمكان ولو كان محالا عادة لأخذت فى التهيؤ للفعل . قال شيخ شيوخنا سيدى العربى بن أحمد بن عبد الله الفقير : الصديق هو الذى إذا قال له شيخه ادخل فى عين المخياط لا يتردد ويقوم يبادر فى امتثال ما أمر ولو كان لا يتأتى منه ذلك . وقال أيضًا : صاحبى هو الذى نفتله بشعرة اهـ .

وقال سيدى على رضى الله عنه فى كتابه : اعلم أنه لا يقرِّب طالبَ الله إلى الله شىء مثل جلوسه مع عارف بالله إن وجده ، وإن لم يجده فعليه بذكر الله ليلا ونهارًا قائما وقاعدًا مع العزلة عن أبناء الدنيا ، بعدم الجلوس معهم ، وعدم الكلام بذلك ، وعدم النظر فيهم ، لأنهم سم خارق ، ولا يُبعد من الله شىء مثل جلوسه مع فقير جاهل . الفقير الجاهل أقبح من العامى الغافل بألف ضعف . الجلوس مع العارف بالله أفضل من العزلة ، والعزلة أفضل من الجلوس مع العوام الغافلين ، والجلوس مع العامى الغافل أفضل من الجلوس مع الفقير الجاهل . لا شىء فى الوجود يسوِّد قلب المريد مثل جلسة مع الفقير الجاهل ، كما أن العارف بالله يجمع بين العبد ومولاه بنظرة أو بكلمة ، كذلك الفقير الجاهل بالله ربما أتلف المريد عن مولاه بنظرة أو بكلمة ، فما فوقها . ويرحم الله المجذوب حيث يقول فى بعض كلامه : الجلسة مع غير الأخيار ترذُل ولو تكون صافيًا اهـ .

وقال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : احذر صحبة ثلاث من أصناف الناس : الجبابرة الغافلين . والقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين اهـ . وزاد الشيخ زروق : علماء الظاهر ، قال لأن نفوسهم غالبة عليهم اهـ .

قلت : الجلوس معهم اليوم أقبح من سبعين عاميًّا غافلا وفقيرًا جاهلا ، لأنهم لايعرفون إلا ظاهر الشريعة ، ويرون أن من خالفهم فى هذا الظاهر خاطئ أوضالّ ، فيجهدون فى رد من خالفهم يعتقدون أنهم ينصحون وهم يغشون . فليحذر المريد من صحبتهم والقرب منهم ما استطاع ، فإن توقف فى مسألة ولم يجد من يسأل عنها من أهل الباطن فليسأله على حذرٍ ويكون معه كالجالس مع العقرب والحية ، والله ما رأيت أحدًا قط من الفقراء قرب منهم وصحبهم فأفلح أبدًا فى طريق الخصوص ، ويرحم الله أبا ذر الغفارى رضى الله

عنه حيث قال : والله لا أسألهم دنيا ولا أستفتيهم عن دين ا هـ . قال هذا فى علماء الصحابة الأخيار رضى الله عنهم ، فما بالك اليوم حين اشتغلوا بجمع الدنيا وتزيين الملابس ، وتكبير العمائم ، وتحسين المآكل والمساكن والمراكب ، ورأوا ذلك سنة نبوية ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وكان يحيى بن معاذ الرازى رضى الله عنه يقول لعلماء وقته : يامعشر العلماء دياركم هامانية ، ومراكبكم قارونية ، وأطعمتكم فرعونية ، وولائمكم جالوتية ، ومواسمكم جاهلية ، وقد صيّرتم مذاهبكم شيطانية ، فأين الملة المحمدية ؟

الأعمال والأحوال

ومما يتأكد النظر إليه فى المصحوب : الزهد فى الدنيا ، ورفع الهمة عنها ولو قل عمله فى الظاهر ، وإلى ذلك أشار بقوله :

[ما قل عمل برز من قلب زاهد ، ولا كثر عمل برز من قلب راغب] .

قلت : الزهد فى الشىء : هو خروج محبته من القلب وبرودته منه . وعند القوم : بغض كل مايشغل عن الله ، ويحبس عن حضرة الله ، ويكون أولا فى المال . وعلامته : أن يستوى عنده الذهب والتراب ، والفضة والحجر ، والغنى والفقر ، والمنع والعطاء . ويكون ثانيًا فى الجاه والمراتب . وعلامته : أن يستوى عنده العز والذل ، والظهور والخمول ، والمدح والذم ، والرفعة والسقوط . ويكون ثالثًا فى المقامات والكرامات والخصوصيات ، وعلامته : أن يستوى عنده الرجاء والخوف ، والقوة والضعف ، والبسط والقبض ، يسير بهذا كما يسير بهذا ، أو يعرف فى هذا كما يعرف فى هذا ، ثم يكون الزهد فى الكون بأسره بشهود المكون وأمره .

فإذا تحقق المريد بهذه المقامات فى الزهد أوجلها كان عمله كله عظيمًا كبيرًا فى المعنَى عند الله،وإن كان قليلا فى الحسن عند الناس،وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام : «عَمَلٌ قَليلٌ فى سنَّةٍ خَيْرٌ مِنْ عَملٍ كَثِيرٍ فى بِدْعَةٍ».

وأى بدعة أعظم وأشنع من حب الدنيا والانكباب عليها بالقلب والقالب ،

الذى لم يكن فى زمنه صلى الله عليه وسلم ولا فى زمن الصحابة ، حتى ظهرت الفراعنة فبنوا وشيدوا وزخرفوا ، فهذه هى البدعة الحقيقية ، فعمل هؤلاء قليل فى المعنى،وإن كان كثيرًا فى الحس ، إذ لاعبرة بحركة الأشباح ، وإنما العبرة بخضوع الأرواح . عبادة الزاهد بالله لله ، وعبادة الراغب بالنفس للنفس ، عبادة الزاهد حية باقية ، وعبادة الراغب ميتة فانية ، عبادة الزاهد متصلة على الدوام ، وعبادة الراغب منقطعة بلا تمام . عبادة الزاهد فى مساجد الحضرة التى أذن الله أن ترفع ، وعبادة الراغب فى مزابل القذرات التى أذن الله أن توضع ، ولذلك قال بعضهم : عبادة الغنى كالمصلى على المزبلة ، ومامثل عبادة الزاهد مع قلتها فى الحس وكثرتها فى المعنى ، وعبادة الراغب مع كثرتها فى الحس وقلتها فى المعنى إلا كرجلين أهديا للملك : أحدهما أهدى ياقوتة صافية صغيرة قيمتها قنطارًا ، والآخر أهدى ستين صندوقًا خاوية فارغة ، فلا شك أن الملك يقبل الياقوته ويكرم صاحبها ، ويرد الصناديق ويهين صاحبها ، ويغضب عليه لكونه استهزأ بالملك حيث أهدى له خُشبًا خاوية شهرتها أعظم من منفعتها .

وسمعت شيخنا رضى الله عنه يقول : الراغب فى الدنيا غافل ولو كان يقول الله الله بلسانه على الدوام ، إذ لاعبرة باللسان . والزاهد فى الدنيا ذاكر على الدوام ولو قل ذكره باللسان اهـ .

قلت : وبهذا فسر بعضهم قوله تعالى : (لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا)[1] .

أى مع الغفلة والرغبة ولو كثر فى الحس اهـ .

وقال سيدنا علىّ كرم الله وجهه : كونوا لقبول العمل أشد منكم اهتمامًا للعمل ، فإنه لم يقل عمل مع التقوى ، وكيف يقل عمل يتقبل اهـ .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ركعتان من زاهد عالم خير وأحب عند الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدًا سرمدًا .

قال بعض السلف : لم يفتكم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بكثرة صلاة ولاصيام إلا انهم كانوا أزهد فى الدنيا ا هـ .

وفى بعض الأخبار : أن سيدنا عيسى عليه السلام مر برجل نائم والناس

---

(١) النساء : ١٤٢ .

يتعبدون ، فقال له عيسى عليه السلام : قم فتعبد مع الناس ، فقال : تعبدت ياروح الله ، فقال له : وماعبادتك ؟ قال : تركت الدنيا لأهلها ، فقال له : نم ، نعمت العبادة هذه أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وقال رجل للشيخ أبى الحسن رضى الله عنه : مالى أرى الناس يعظمونك ولم أر لك كبير عمل ، فقال : بسنة واحدة افترضها الله على رسوله تمسكت بها ، فقال له : وما هى ؟ قال : الإعراض عنكم وعن دنياكم اهـ .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : وإنما كانت للزهاد هذه الفضيلة لثلاثة أوجه : أما أحدها مافيه من فراغ القلب عن الشواغل والشواغب . الثانى لأنه شاهد بوجود الصدق فى المحبة ، إذ الدنيا محبوبة لاتترك إلا بما هو أحب .

قال عليه الصلاة والسلام : « الصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ » .

قيل على حب العبد ربه . الثالث لأنه دليل على المعرفة بالله والثقة به ، لأن بذل الموجود من الثقة بالمعبود ، ومنع الموجود من سوء الظن بالمعبود اهـ .

ولما كان حسن العمل الظاهر وإتقانه الذى يكون به كماله ونقصانه إنما هو نتائج حسن الباطن وأحواله أشار إلى ذلك بقوله :

[حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال ، وحسن الأحوال من التحقق فى مقامات الإنزال] .

قلت : الأعمال حركة الجسم بالمجاهدة ، والأحوال حركة القلب بالمكابدة ، والمقامات سكون القلب بالطمأنينة ، مثال ذلك مقام الزهد مثلا ، فإنه يكون أولا عمله مجاهدة بترك الدنيا وأسبابها ، ثم يكون مكابدة بالصبر على الفاقة حتى يصير حالا ، ثم يسكن القلب ويذوق حلاوته فيصير مقامًا ، وكذلك التوكل يكون مجاهدة بترك الأسباب ، ثم يكون مكابدة بالصبر على مرارة تصرفات الأقدار ، ثم يصير حالا ، ثم يسكن القلب فيه ويذوقه فيصير مقامًا ، وكذلك المعرفة تكون مجاهدة بالعمل فى الظاهرة كخرق العوائد من نفسه ، ثم تكون مكابدة بالمعرفة والإقرار عند التعرفات ، ثم تصير حالا . فإذا سكنت الروح فى الشهود وتمكنت صارت مقامًا ، فالأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب ، يعنى أن الأحوال مواهب من الله جزاء لثواب الأعمال ، فإذا دام العمل واتصل الحال

صار مقامًا ؛ فالأحوال تتحول وتذهب وتجيء ، فإذا سكن القلب فى ذلك المعنى صار مقامًا وهو مكتسب من دوام العمل .

واعلم أن المقام والحال لكل واحد علم وعمل ، فالمقام يتعلق به العلم أولا ، ثم يسعى فى عمله حتى يكون حالا ، ثم يصير مقامًا ، وكذلك الحال يتعلق به العلم أولا ، ثم العمل ، ثم يصير مقامًا حالا ، والله تعالى أعلم . فعلامة التحقق بمقامات الإنزال ، هو حسن الحال ، وعلامة حسن الحال هو حسن العمل ، فإتقان الأعمال وحسنها هو ثمرة ونتيجة حسن الأحوال ، وحسن الأحوال وإتقانها هو نتيجة التحقق بمقامات الإنزال ، أى التحقق بالإنزال فى المقامات .

أو تقول : حسن الأحوال دليل على التحقق بالمقامات التى ينزل الله عبده فيها ، وحسن الأعمال دليل على حسن الأحوال . والتحقق بالحال والسكون فى المقام أمر باطنى ، ويظهر أثره فى عمل الجوارح .

والحاصل : أن حركة القالب تدل على صلاح القلب أو فساده ، لقوله صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ فِى الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِىَ الْقَلْبُ » .

فإذا تحقق القلب بالزهد مثلا وصار له حالا أو مقامًا ، ظهر ذلك على جوارحه ، من الثقة بالله ، والاعتماد عليه ، وقلة الحركة عند الأسباب المحركة لقوله عليه الصلاة والسلام :

« لَيْسَ الزُّهْدُ بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ وَلَا بِإِضَاعَةِ الْمَالِ ، إِنَّمَا الزُّهْدُ أَنْ تَكُونَ بِمَا فِى يَدِ اللهِ أَوْثَقَ مِمَّا فِى يَدِكَ » .

وقال الصدّيق رضى الله عنه لأبى الحسن الشاذلى فى النوم : علامة خروج حب الدنيا من القلب بذلها عند الوجد ، ووجود الراحة منها عند الفقد . وعلامة التحقق بالإنزال فى مقام التوكل السكون والطمأنينة عند محركات الأسباب . وعلامة التحقق بالإنزال فى مقام المعرفة هو الأدب ظاهرًا وباطنًا ، وحسن الخلق مع كل مخلوق ، ولذلك قال أبو حفص رضى الله عنه : حسن

أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هٰذَا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ » اهـ .

وراجع ماتقدم من شرح قوله : تنوعت أجناس الأعمال بتنوع واردات الأحوال ، ففيه زيادة شرح على هذا المحل ، والله تعالى أعلم .

وأفضل الأعمال التى يقطع بها المريد المقامات وأقربها هو ذكر الله ، ولذلك ذكره بأثره فقال : لاتترك الذكر لعدم حضور قلبك مع الله فيه ، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك فى وجود ذكره ، فعسى أن يرفعك من ذُكر مع وجود غفلة إلى ذِكرٍ مع وجود يقظة ، ومن ذِكرٍ مع وجود يقظة إلى ذِكر مع وجود حضور ، ومن ذِكر مع وجود حضور إلى ذكرٍ مع غيبة عما سوى المذكور وما ذلك على الله بعزيز .

قلت : الذكر ركن قوى فى طريق القوم ، وهو أفضل الأعمال قال الله تعالى : (فَاذْكُرُونِى أَذْكركُمْ)[1] وقال تعالى : (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا الله ذِكْرًا كَثِيرًا)[2] .

والذكر الكثير : ألا ينساه أبدًا . قال ابن عباس رضى الله عنهما : كل عبادة فرضها الله تعالى جعل لها وقتًا مخصوصًا وعذر العباد فى غير أوقاتها إلا الذكر لم يجعل الله له وقتًا مخصوصًا قال تعالى :

(اذْكُرُوا الله ذِكْرًا كَثِيرًا) وقال تعالى : (فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا الله قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ)[3] . وقال رجل : « يَارَسُولَ الله كَثُرَتْ عَلَيَّ شَعَائِرُ الإِسْلَامِ فَأَوْصِنِي بِأَمْرٍ أُدْرِكُ بِهِ مَافَاتَنِي وَأَوْجِزْ ، فَقَالَ : لَايَزَالُ لِسَانُك رَطْبًا بِذِكْرِ الله » . وقال عليه الصلاة والسلام : « لَوْ أَنَّ رَجُلًا فى حِجْرِهِ دَرَاهِمُ يُقَسِّمُهَا وَآخَرُ يَذْكُرُ الله لَكَانَ الذَّاكِرُ لله أَفْضَل » . وقال صلى الله عليه وسلم : « أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيككُمْ وَأَرْفَعِهَا فى دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْر لَكُمْ مِنْ إِنْفَاق الذَّهَب

---

(١) البقرة : ١٥٢ . (٢) الأحزاب : ٤١ . (٣) النساء : ١٠٣ .

وَالْوَرِقِ ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أعناقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ، قَالُوا : وَمَا ذَاكَ يَارَسُولَ الله ؟ قَالَ ذِكْرُ الله » .

وعن على كرم الله وجهه : « قُلْتُ : يَارَسُولَ الله أىُّ الطُّرُقِ أقْرَبُ إلَى الله وَأسْهَلُهَا عَلَى عِبَادِ الله وَأفْضَلُهَا عِنْدَ الله تَعَالَى ؟ فَقَالَ يَاعَلِىُّ عَلَيْكَ بِمدَاوَمَةِ ذِكْرِ الله ، فَقَالَ عَلِىّ : كُلُّ النَّاسِ يَذْكُرُونَ الله ، فَقَالَ صلّى الله عليهِ وسلم : يَاعَلِىُّ : لاَتَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لاَيَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأرْضِ مَنْ يَقُولُ الله ، فَقَالَ لَهُ عَلِىٌّ كَيْفَ أذْكُرُ يَارسُولَ الله ؟ فَقَالَ لَهُ صلى الله عليهِ وسلم : غَمِّضْ عَيْنَيْكَ وَاسْمعْ مِنِّى ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ قُلْ مِثْلَهَا وَأنَا أسْمَعُ ، فَقَالَ صلى الله عليهِ وسلم : لَا إلَهَ إلاَّ الله ثَلَاث مَرَّات مُغَمِّضًا عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ قَالَهَا عَلِىٌّ كَذٰلِكَ » .

ثم لقنها على للحسن البصرى ، ثم الحسن لحبيب العجمى ثم حبيب لداود الطائى ، ثم داود لمعروف الكرخى ، ثم معروف للسرىّ ، ثم السرىّ للجنيد ، ثم انتقلت إلى أرباب التربية ، فلا مدخل على الله إلا من باب الذكر ، فالواجب على العبد أن يستغرق فيه أوقاته ، ويبذل فيه جهده ، فإن الذكر منشور الولاية ولابد منه فى البداية والنهاية ، فمن أعطى الذكر فقد أعطى المنشور ومن ترك الذكر فقد عزل ، وأنشدوا :

وَالـذِّكْـرُ أعْـظَمُ بَـابٍ أنْتَ دَاخِلُهُ
لله فَـاجْعَـلْ لَـهُ الْأنْفَـاسَ حُـرَّاسَـا

فبقدر مايفنى فى الاسم يفنى فى الذات ، وبقدر مايفْتُرُ فى الفناء فى الاسم يكون متفترًا فى الفناء فى الذات ، فيلتزم المريد الذكر على كل حال ولايترك الذكر باللسان لعدم حضور قلبه فيه ، بل يذكره بلسانه ولو كان غافلا بقلبه ، فإن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك فى وجود ذكره ، لأن غفلتك عن ذكره ، إعراض عنه بالكلية ، وفى وجود ذكره إقبال بوجه ما ، وفى شغل

اللسان بذكر الله تزيين جارحة بطاعة الله ، وفى فقده تعرّض لاشتغالها بالمعصية .

قيل لبعضهم : مالنا نذكر الله باللسان والقلب غافل ؟ فقال اشكر الله على ماوفق من ذكر اللسان ، ولو أشغله بالغيبة ماكنت تفعل .

فيلزم الإنسان ذكرُ اللسان حتى يفتح الله فى ذكر الجنان ، فعسى أن ينقلك الحق تعالى من ذِكْرٍ مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة ، أى انتباه لمعانى الذكر عند الاشتغال به ، ومن ذكْرٍ مع يقظة إلى ذكر مع وجود حضور المذكور وارتسامه فى الخيال ، حتى يطمئن القلب بذكر الله ويكون حاضرًا بقلبه مع دوام ذكره ، وهذا هو ذكر الخواص والأول ذكر العوام ، فإن دمت على ذكر الحضور رفعك إلى ذكر مع الغيبة عما سوى المذكور ، لما يغمر قلبك من النور ، وربما يعظم قرب نور المذكور فيغرق فى النور ، حتى يغيب عما سوى المذكور ، حتى يصير الذاكر مذكورًا ، والطالب مطلوبًا ، والواصل موصولا .

(وَمَا ذٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ)[1] .

أى بممتنع ، فقد يرفع فى أعلى الدرجات من كان فى أسفل الدركات ، وهاهنا يسكت اللسان ، وينتقل الذكر للجنان ، فيصير ذكر اللسان غفلة فى حق أهل هذا المقام ، كما قال الشاعر :

مَـــا إِنْ ذَكَـــرْتُـــكَ إِلَّا هَمَّ يَلْعَـنُنِى
سِـرِّى وَقَلْبِى وَرُوحِى عِنْدَ ذِكـرَاكَـا

حَتَّى كَـــأَنَّ رَقِيبًـــا مِنْـــكَ يَهْتِفُ بِى
إِيَّـــاكَ وَيْحَــكَ وَالـتَّـــذْكَـــارَ إِيَّـــاكَـــا

أَمَا تَرَى الْحَقَّ قَـدْ لَاحَتْ شَوَاهِـدُهُ
وَوَاصَـلَ الْكُـلُّ مِنْ مَعْنَـاهُ مَعْنَـاكَـا

وقال الواسطى مشيرًا إلى هذا المقام : الذاكرون فى ذكره أكثر غفلة من

---

(١) إبراهيم : ٢٠ .

الناسين لذكره ، لأن ذكره سواه اهـ .

يعنى أن الذاكرين الله بالقلوب هم فى حال ذكرهم لله بلسانهم أكثر غفلة من التاركين لذكره ، لأن ذكره باللسان وتكلفه يقتضى وجود النفس وهو شرك ، والشرك أقبح من الغفلة ، هذا معنى قوله : لأن ذكره سواه ، أى لأن ذكر اللسان يقتضى استقلال الذاكر ، والفرض أن الذاكر محو فى مقام العيان .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : حقيقة الذكر الانقطاع عن الذكر إلى المذكور وعن كل شىء سواه ، لقوله تعالى :

﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾[1] .

وقال القشيرى رضى الله عنه : الذكر اندراج الذاكر فى مذكوره ، واستظلام السر ظهوره ، وفى معنى ذلك أنشدوا :

ذَكَرْتُكَ لَا أَنِّى نَسِيتُكَ لَمْحَةً ... وَأَيْسَرُ مَافِى الذِّكْرِ ذِكْرُلِسَانِى
وَصِرْتُ بِلَاوَجْدٍ أَهِيمُ مِنَ الْهَوَى ... وَهَامَ عَلَىَّ الْقَلْبُ بِالْخَفَقَانِ
فَلَمَّا أَرَانِى الْوَجْدُ أَنَّكَ حَاضِرِى ... شَهِدْتُكَ مَوْجُودًا بِكُلِّ مَكَانِ
فَخَاطَبْتُ مَوْجُودًا بِغَيْرِ تَكَلُّمٍ ... وَشَاهَدْتُ مَوْجُودًا بِغَيْرِ عِيَانِ

وفى هذا المقام يتحقق المريد بعبادة الفكرة أو النظرة ، وفكرة ساعة خير من عبادة سبعين سنة ، ولذلك قال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه : أوقاتنا كلها ليلة القدر : أى عبادتنا كلها مضاعفة مع خفائها وتحقيق الإخلاص فيها ، إذ لايطلع عليها ملك فيكتبه ، ولاشيطان فيفسده : وفى ذلك قال بعضهم ، قيل هو الحلاج :

قُلُوبُ الْعَارِفِينَ لَهَا عُيُونٌ ... تَرَى مَا لا يُرَى لِلنَّاظِرِينَا
وَأَلْسِنَةٌ بِأَسْرَارٍ تُنَاجِى ... تَغِيبُ عَنِ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَا
وَأَجْنِحَةٌ تَطِيرُ بِغَيْرِ رِيشٍ ... إِلَى مَلَكُوتِ رَبِّ الْعَالَمِينَا

---

(١) المزمل : ٨ .

وقد ذيلتها ببيتين فقلت :

وَأفْئِــدَةٌ تَهِيمُ بِعِشْقِ وَجْـدٍ   إلَى جَبَرُوتِ ذِى حَقٍّ يَقينَا
فَإنْ تُرِدَنْ تُبَاكِرُ ذِى المَعَانِى   فَبَذْلُ الرُّوحِ مِنْكَ يَقِلُّ فِينَا

الباب السادس

علامات موت القلب

ولما كان الذكر هو سبب حياة القلب وتركة سبب موته . وفى الحديث :
« مَثَلُ الَّذِى يَذْكُرُ رَبَّهُ والذى لايذكر ربه كَمَثِلِ الْحَىِّ والَمَيِّتِ »

ذكر علامة حياته وموته فى أول الباب السادس فقال : وقال رضى الله عنه :
[**من علامات موت القلب عدم الحزن على مافاتك من الموافقات ، وترك الندم على مافعلت من وجود الزلات**] .

قلت : موت القلب سببه ثلاثة أشياء : حب الدنيا ، والغفلة عن ذكر الله ، وإرسال الجوارح فى معاصى الله . وسبب حياته ثلاثة أشياء : الزهد فى الدنيا ، والاشتغال بذكر الله ، وصحبة أولياء الله . وعلامة موته ثلاثة أشياء : عدم الحزن على مافات من الطاعات ، وترك الندم على مافعلت من الزلات ، وصحبتك للغافلين الأموات ، وذلك لأن صدور الطاعة من العبد عنوان السعادة ، وصدور المعصية علامة الشقاوة ، فإن كان القلب حيًّا بالمعرفة والإيمان آلمه مايوجب شقاوته وأفرحه مايوجب سعادته .

أو تقول : صدور الطاعة من العبد علامة على رضا مولاه ، وصدور المعصية علامة على غضبه . فالقلب الحى يحس بما يرضيه عند مولاه فيفرح ، ومايسخطه عليه فيحزن . والقلب الميت لايحس بشىء ، قد استوى عنده وجود الطاعة والمعصية ، لايفرح بطاعة وموافقة ، ولايحزن على زلة ولا معصية ، كما هو شأن الميت فى الحس . وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَاتُهُ وَسَاءتْهُ سَيِّئَاتُهُ فَهُوَ مُؤمِنٌ » .

وقال عبد الله بن مسعود : المؤمن يرى ذنوبه كأنه فى أصل جبل يخاف أن

يقع عليه ، والفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فأطاره اهـ .
لكن لاينبغى للعبد أن يغلب النظر إلى جانب الذنب فيقل رجاؤه ويسىء الظن بسيده كما أشار إليه بقوله :

الخوف والرجاء

[لايعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله] .

قلت : الناس فى الخوف والرجاء على ثلاثة أقسام : أهل البداية ينبغى لهم تغليب جانب الخوف ، وأهل الوسط ينبغى لهم أن يعتدل خوفهم ورجاؤهم ، وأهل النهاية يغلبون جانب الرجاء ، أما أهل البداية فلأنهم إذا غلبوا جانب الخوف جدوا فى العمل وانكفوا عن الزلل ، فبذلك تشرق نهايتهم :

(وَالذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)[1] .

وأما أهل الوسط ، فلأنهم قد انتقلت عبادتهم إلى تصفية بواطنهم فعبادتهم قلبية ، فلو غلبوا جانب الخوف لرجعوا إلى عبادة الجوارح ، والمطلوب منهم عبادة البواطن على رجاء الوصول وخوف القطيعة فيعتدل خوفهم ورجاؤهم .

وأما الواصلون فلا يرون لأنفسهم فعلا ولا تركاً ، فهم ينظرون إلى تصريف الحق وما يجرى به سابق القدر فيتلقونه بالقبول والرضا ، فإن كان طاعة شكروا وشهدوا منة الله ، وإن كان معصية اعتذروا وتأدبوا ولم يقفوا مع أنفسهم إذ لا وجود لها عندهم ، وإنما ينظرون إلى ما يبرز من عنصر القدرة ، فنظرهم إلى حلمه وعفوه وإحسانه وبره أكثر من نظرهم إلى بطشه وقهره ، ويرحم الله الشافعى حيث قال :

فَلَمَّا قَسَا قَلْبِى وَضَاقَتْ مَذَاهِبِى ... جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّى لِعَفْوِكَ سُلَّمَا
تَعَاظَمَنِى ذَنْبِى فَلَما قَرَنْتُهُ ... بِعَفْوِكَ رَبِّى كانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا
فَمَا زِلْتَ ذَا جُودٍ وَفَضْلٍ وَمِنَّةٍ ... تَجُودُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّمَا
فياليتَ شعرِى هل أصيرُ لجنةٍ ... أهنّا وإما للسَّعير فأندما

(١) العنكبوت : ٦٩ .

قال تعالى : (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[1] .

وتأمل قضية الذى قتل تسعاً وتسعين نفساً ثم سأل راهباً فقال : له هل لى من توبة ؟ فقال له : لا توبة لك ، فكمل به المائة ثم أتى عالمًا فسأله ، فقال له : من يحول بينك وبينها ، ولكن اذهب إلى قرية كذا ففيها قوم يعبدون الله ، فكن فيهم حتى تموت ، فلما توسط الطريق أدركه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فأوحى الله إليهم أن قيسوا القرية التى خرج إليها والقرية التى خرج منها فإلى أيها كان أقرب فهو من أهلها ، فأوحى الله إلى القرية التى يريد أن تَقارَبِى وإلى القرية التى خرج منها أن تَباعَدى ، فوجد أقرب إلى القرية التى يريد بشبر ، فأخذته ملائكة الرحمة ، والحديث فى الصحيحين نقلته بالمعنى .

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : العامة إذا خوفوا خافوا ، وإذا رجوا رجوا ، والخاصة متى خوّفوا رجوا ومتى رجوا خافوا .

قال فى لطائف المنن : ومعنى كلام الشيخ هذا أن العامة واقفون مع ظواهر الأمر ، فإذا خوّفوا خافوا ، إذ ليس لهم نفوذ إلى ما وراء العبارة بنور الفهم كما لأهل الله ، وأهل الله إذا خوفوا رجوا عالمين أن من وراء خوفهم وما خوفوا به أوصاف المرجو الذى لا ينبغى أن يقنط من رحمته ولا أن ييأس من منته ، فاحتالوا على أوصاف كرمه ، علماً منهم ما خوفهم إلا ليجمعهم عليه وليردهم بذلك إليه ، وإذا رجَوا يخافون غيب مشيئته الذى هو من وراء رجائهم ، وخافوا أن يكون ما ظهر من الرجاء اختبارًا لعقولهم هل تقف مع الرجاء أو تنفذ إلى ما بطن فى مشيئته ، فلذلك أثار الرجاء خوفهم ا هـ .

ودخل الجنيد رضى الله عنه على شيخه السرى فوجده مقبوضًا ، فقال له مالك أيها الشيخ مقبوضا ؟ فقال : دخل علىّ شاب فقال لى ما حقيقة التوبة ؟ فقلت له : ألا تنسى ذنبك ، فقال الشاب : بل التوبة أن تنسى ذنبك ، ثم خرج

---

(١) الزمر : ٥٣ .

عنى . قال الجنيد : فقلت الصواب ما قاله الشاب ، لأنى إذا كنتُ فى حالة الجفاء ثم نقلنى إلى شهود الصفا فذكر الجفاء فى حال الصفا جفاء ا هـ .

قلت : نظر السرى إلى أهل البداية ، ونظر الجنيد إلى أهل النهاية والكل صواب ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر موجب تصغير الذنب فقال :

[فإن من عرف ربه استصغر فى جنب كرمه ذنبه]

قلت : بل من عرف ربه غاب عن رؤية ذنبه لفنائه عن نفسه بشهود ربه ، فإن صدر منه فعل يخالف الحكمة غلب عليه شهود النعمة قال تعالى : (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) وأما قوله تعالى : (وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)[1] فإنما هو لمن لم يتب .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لَوْ أَذْنَبْتُم حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكُمْ عَنَانَ السَّماءِ ثُمَّ تُبْتُمْ لَتَابَ الله عَلَيْكمْ ، وَلَوْ أَنَّ الْعِبَادَ لَمْ يُذْنِبُوا لَذَهَبَ الله بِهِمْ ثُمَّ جَاءَ بِقَوْمٍ آخرِينَ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

والله أفرح بتوبة عبده من الظمآن الوارد ، ومن العقيم الوالد ، ومن الضال الواجد ، لكن لا ينبغى أن يصغر عنده ذنبه حتى يغتر بحلم الله .

وقد أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود قل لعبادى الصديقين لا يغتروا ، فإنى إن أقم عليهم عدلى وقسطى أعذبهم غير ظالم لهم ، وقل لعبادى المذنبين : لا يقنطوا فإنه لا يعظم علىّ ذنب أغفره لهم ا هـ .

وقال الجنيد رضى الله عنه : إذا بدت عين من الكريم ألحقت المسىء بالمحسن .

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه فى حزبه : إلهى معصيتك نادتنى بالطاعة وطاعتك نادتنى بالمعصية ، ففى أيهما أخاف ، وفى أيهما أرجو ؟ إن قلت

---

(١) الحجر : ٤٩ ، ٥٠ .

بالمعصية قابَلتَنى بفضلك فلم تدع لى خوفاً ، وإن قلت بالطاعة قابلتنى بعدلك فلم تدع لى رجاء ، فليت شعرى كيف أرى إحسانى مع إحسانك ، أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك ؟ ا هـ .

ومعنى كلام الشيخ رضى الله عنه أن العبد إذا كان فى المعصية شهد قهرية الحق وعظمته وضعف نفسه وعجزه ، اكتسب من المعصية انكسارًا وذلا لنفسه وتعظيمًا وإجلالا لربه ، وهذا أفضل الطاعات فقد نادته معصيته التى هو فيها بالطاعة التى يجتنيها منها . وإذا كان فى الطاعة ربما شهد فيها نفسه وقصد متعته وحظه ، فأشرك بربه وأخل بأدبه ، وهذه معصية ، فإذا كان فى الطاعة نادته بهذه المعصية التى يجتنيها منها فلا يدرى من أيها يخاف وأيها يرجو ؟ وقوله إن قلت بالمعصية إلخ ، أى إن نظرت إلى صورة المعصية قابلتنى بفضلك فامتحى اسمها واندرس رسمها ، وإن نظرت إلى صورة الطاعة قابلتَنى بعدلك فاضمحلت وامتحت وبقى محض الرجاء من الكريم الوهاب الذى يعطى بلا سبب ويغطى بحلمه المناقشة والعتاب ، والله تعالى أعلم .

فتحصل أن العارف لا يقف مع معصية وإن جلت ، ولا مع طاعة وإن عظمت ، وهو معنى قوله :

[لا صغيرة إذا قابلك عدله ، ولا كبيرة إذا واجهك فضله] .

قلت : الصغيرة هى الجريمة التى لا وعيد فيها من القرآن ولا من الحديث ، والكبيرة هى التى تُوُعِّد عليها بالعذاب أو الحد فى القرآن أو فى السنة ، وقيل غير ذلك هذا كله بالنظر لظاهر الأمر ، وأما باعتبار ما عند الله من أمر غيبه وبالنظر إلى حلمه وعدله فقد يبرز خلاف ما يظن . قال تعالى :

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)[١] .

فمن سبقت له العناية لا تضره الجناية .

(فَأُولئكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ)[٢] .

وإن كانت الأعمال علامات فقد تختلف فى بعض المقدمات ، فوجب استواء

---

(١) الزمر : ٤٧ . (٢) الفرقان : ٧٠ .

الرجاء والخوف فى بعض المقامات ، والتسليم لله فى كل الأوقات ، إذ قد تمت كلمات ربك صدقاً وعدلا لا مبدل لكلماته ، فإذا قابلك الحق سبحانه وتعالى بعدله وجلاله لم تبق لك صغيرة وعادت صغائرك كبائر ، وإذا واجهك الحق تعالى بفضله وكرمه وإحسانه وجماله لم تبق لك كبيرة وعادت كبائرك صغائر .

قال يحيى بن معاذ الرازى رضى الله عنه : إذا أنالهم فضلَه لم تبق لهم سيئة ، وإذا وضع عليهم عدلَه لم تبق لهم حسنة ا هـ . وقيل لو وزن رجاء المؤمن وخوفه ما رجح أحدهما على الآخر ، بل المؤمن كالطائر بين جناحين أو كما قيل ، قاله الشيخ زروق رضى الله عنه .

قلت : وحديث الرجل تمد له تسع وتسعون سجلا كل سجل مد البصر ، ثم تخرج له بطاقة قدر الأنملة فيها شهادة أن لا إله إلا الله فتطيش تلك السجلات ، يدل على عظيم حلمه ورحمته وشمول كرمه ومنته .

ولما ذكر رضى الله عنه علامة موت القلب ذكر الأعمال التى توجب حياته فقال :

[لا عمل أرجى للقلوب من عمل يغيب عنك شهوده ، ويتحقر عندك وجوده] .

قلت : هكذا هى نسخة الشيخ بلفظ القلوب ، وهى أوفق بالسياق إذ الكلام كله فى موت القلوب وحياتها .

يعنى أنه لا عمل أرجى لحياة القلوب من عمل يكون بالله ولله غائباً فيه عما سواه ، غير ملاحظ فيه حظوظه وهواه ، متبرئًا فيه من حوله وقواه ، فإذا أظهرته عليه القدرة غاب عن شهوده وصغر فى عينه صورة وجوده ، لما تجلى فى قلبه من عظمة مولاه ، فصغر عنده كل ما سواه ، فمثل هذا العمل تحيا به القلوب ، وتحظى بمشاهدة علام الغيوب ، وهو روح اليقين ، وهو حياة قلوب العارفين ، فإذا أراد الله أن يتولى عبده أنهضه للعمل وصغَّره فى عينه ، فلا يزال جادًّا فى عمل الجوارح حتى ينقله إلى عمل القلوب ، فتستريح الجوارح من التعب ، ولا يبقى إلا شهود العظمة مع الأدب .

قال النهرجورى رحمه الله : من علامات من تولاه الله فى أحواله أن يشهد التقصير فى إخلاصه ، والغفلة فى أذكاره ، والنقصان فى صدقه ، والفتور فى

مجاهدته ، وقلة المراعاة فى فقره ، فتكون جميع أحواله عنده غير مَرضية ، ويزداد فقراً إلى الله فى قصده وسيره حتى يغنى عن كل شىء دونه ا هـ .

الواردات الإلهية

وإذا حَيِى القلب بمعرفة الله كان محلا لتجلى الواردات الإلٰهية ، وإلى ذلك أشار بقوله :

[إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردًا] .

قلت : الوارد نور إلهى يقذفه الله فى قلب من أحب من عباده ، وهو على ثلاثة أقسام ، على حسب البداية والوسط والنهاية . أو تقول : على حسب الطالبين والسائرين والواصلين .

القسم الأول ، وارد الانتباه : وهو نور يخرجك من ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة ، وهو لأهل البداية من الطالبين ، فإذا تيقظ من نومه وانتبه من غفلته استوى على قدمه طالبًا لربه ، فيقبل عليه بقلبه وبقالبه ، وينجمع عليه بكليته .

القسم الثانى ، وارد الإقبال : وهو نور يقذفه الله فى قلب عبده فيحركه لذكر مولاه ويغيبه عما سواه ، فلا يزال مشتغلا بذكره غائباً عن غيره ، حتى يمتلئ القلب بالنور ، ويغيب عما سوى المذكور ، فلا يرى إلا النور ، فيخرج من سجن الأغيار ويتحرر من رق الآثار .

القسم الثالث ، وارد الوصال : وهو نور يستولى على قلب العبد ثم يستولى على ظاهره وباطنه ، فيخرجه من سجن نفسه ويغيبه عن شهود حسه . وقد أشار إلى القسم الأول وهو وارد الانتباه بقوله : إنما أورد عليك إلخ ، أى إنما أشرق عليك نور اليقظة والانتباه وهو الوارد ، لتكون بسببه واردًا عليه وسائراً إليه ، ولو لم يورد عليك هذا الوارد لبقيت فى وطن غفلتك نائمًا فى سكرتك دائما فى حسرتك .

ثم أشار إلى القسم الثانى وهو وارد الإقبال فقال :

[أورد عليك الوارد ، ليتسلمك من يد الأغيار ، وليحررك من رق الآثار] .

أى إنما أورد عليك وارد الإقبالِ ، ليؤنسك بذكر الكبير المتعال ، فإذا اشتغلت بذكره وغبت عن غيره تسلمك : أى أنقذك من يد لصوص الأغيار بعد أن شدوا أوثاقك بحبل هواك ، وسجنوك فى سجن حظوظك ومناك ، وليحررك ويعتقك أيضاً من رق الآثار ، بعد أن ملكتك بما أظهرته لك من زخرف الاغترار . فإذا تسلمت من يد الأغيار أفضيت إلى شهود الأنوار ، وإذا تحررت من رق الآثار ترقيت إلى شهود الأسرار ، فالأنوار أنوار الصفات ، والأسرار أسرار الذات ، فالأنوار لأهل الفناء فى الصفاتَ ، والأسرار لأهل الفناء فى الذات .

ثم أشار إلى القسم الثالث وهو وارد الوصول فقال :

[أورد عليك الوارد ، ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك] .

أى إنما أورد عليك وارد الوصال ، بعد أن أهب عليك نفحات الإقبال ، ليخرجك من سجن رؤية وجودك إلى فضاء ، أى اتساع شهودك لربك ، فرؤيتك وجودَك مانعة لك من شهود ربك ، إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه ، وجودك ذنب لا يقاس به ذنب ، وأنشد الجنيد :

وجُودِى أَنْ أُغِيبَ عَنِ الْمُوجُودِ ... بِمَا يَبْدُو عَلَىَّ مِن الشهُودِ

فالفناء عن النفس وزوالها أصعب من الفناء عن الكون وهدمه ، فمهما زالت النفس وهدمت انهدم الكون ولم يبق له أثر ، وقد يهدم الكون وتبقى فى النفس بقية ، فلذلك قدم الشيخ رق الأكوان على سجن وجود الإنسان ، والله تعالى أعلم .

ثم فسر تلك الواردات فقال :

[الأنوار مطايا القلوب والأسرار] .

قلت : النور نكتة تقع فى قلب العبد من معنى اسم أو صفة ، يسرى معناها فى كليته حتى يبصر الحق والباطل إبصارًا لا يمكنه التخلف معه عن موجبه ، قاله الشيخ زروق .

والمطايا : جمع مطية ، وهى الناقة المهيأة للركوب . والقلوب : جمع قلب ،

وهو الحقيقة القابلة للمفهومات . والأسرار: جمع سر ، وهو الحقيقة القابلة للتجليات . والسر أدق وأصفى من القلب : والكل اسم للروح ، فإن الروح ما دامت مظلمة بالمعاصي والذنوب والشهوات والعيوب سميت نفسًا ، فإذا انزجرت وانعقلت انعقال البعير سميت عقلا ، فما زالت تتقلب فى الغفلة والحضور فلذلك سميت قلباً ، فإذا اطمأنت وسكنت واستراحت من تعب البشرية سميت روحاً ، فإذا تصفت من غبش الحس سميت سرًّا لكونها صارت سرًّا من أسرار الله حين رجعت إلى أصلها وهو سر الجبروت ، فإذا أراد الله تعالى أن يوصل عبده إلى حضرة قدسه ويحمله إلى محل أنسه أمده بواردات الأنوار كالمطايا ، فيحمل عليها فى محفة العناية مروّحًا عليه بنسيم الهداية ، محفوفًا بنصرة الرعاية ، فترحل الروح من عوالم البشرية إلى عوالم الروحانية حتى تصير سرًّا من أسرار الله لا يعلمها إلا الله :

(قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى)[1] .

فالأنوار التى هى الواردات مطايا القلوب تحملها إلى حضرة علام الغيوب ، وهى أيضاً مطايا الأسرار تحملها إلى جبروت العزيز الجبار ، فالسلوك هداية ، والجذب عناية ، فوارد الانتباه والإقبال حمله سلوك وارد الوصال حملة جذب ، فالأنوار التى هى مطايا القلوب تحملهم على جهة السلوك إلا أنهم محمولون فيه بحلاوة نور الانتباه والإقبال ، فصار سلوكهم كأنه جذب .

وأما الأنوار التى تحملهم على مطايا الأسرار ، فإنها تحملهم على جهة الجذب ممزوجاً بسلوك فيكونون بين جذب وسلوك ، وهذا الحمل أعظم ، والله تعالى أعلم .

ثم بين كيفية السير على هذه المطايا وما يعوقها عن السير فقال :

[النور جند القلب ، كما أن الظلمة جند النفس ، فإذا أراد الله أن ينصر عبده أمده بجنود الأنوار ، وقطع عنه مدد الظلم والأغيار] .

قلت : الظلمة نكتة تقع من الهوى فى النفس عن عوارض الوهم فتوجب العمى عن الحق ؟ لتمكن الباطل من الحقيقة ، فيأتى العبد ويذر على غير بصيرة

---

(١) الإسراء : ٨٥ .

قاله الشيخ زروق .

قلت : قد تقدم أن النفس والعقل والقلب والروح والسر أسماء لمسمى واحد ، وهو اللطيفة الربانية النورانية المودعة فى هذا القالب الجسمانى الظلمانى ، وإنما اختلفت أسماؤها باختلاف أحوالها وتنقل أطوارها ، ومثال ذلك كماء المطر النازل فى أصل الشجر ، ثم يصعد فى فروعها فيظهر ورقاً ثم نورًا وأزهارًا ، ثم يعقد ثمرة ينمو حتى يكمل ، فالماء واحد واختلفت أسماؤه باختلاف أطواره ، هكذا قال الساحلى فى بغيته . وقد نظمت فى ذلك قصيدة ذكرت فى غير هذا الكتاب ، فعلى هذا يكون تقابل القلب مع النفس بالمحاربة كناية عن صعوبة انتقال الروح من وطن الظلمة التى هى محل النفس إلى وطن النور الذى هو الطلب وما بعده . فالقلب يحاربها لينقلها إلى أصلها ، وهى تتقاعد وتسقط إلى أرض البشرية وشهواتها ، فالقلب له أنوار الواردات تقربه وتنصره حتى يترقى إلى الحضرة التى هى أصله وفيها كان وطنه ، وكأنها جنود له من حيث إنه يتقوى بها وينتصر على ظلمة النفس ، وهذه الأنوار هى الواردات المتقدمة ، والنفس لما ركنت إلى الشهوات واستحلتها صدرت كأنها جنود لها ، وهى ظلمة من حيث إنها حجبتها عن الحق ومنعتها من شهود شموس العرفان ، فإذا هاجت النفس بجنود ظلماتها وشهواتها إلى معصية أو شهوة رحل إليها القلب بجنود أنواره فيلتحم بينهما القتال ، فإذا أراد الله عناية عبده ونصره أمد قلبه بجنود الأنوار وقطع عنه من جهة النفس مدد الأغيار ، فيستولى النور على الظلمة وتولى النفس منهزمة ، وإذا أراد الله خذلان عبده أمد نفسه بالأغيار ، وقطع عن قلبه شوارق الأنوار ، فيأتى المنصور بالأمر على وجهه ، والمخذول بالشىء على عكسه .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : وأمداد الأنوار ثلاثة : أولها يقين لا يخالطه شك ولا ريب . الثانى علم تصحبه بصيرة وبيان . الثالث إلهام يجرى بعد العيان .

وأمداد الظلم ثلاثة : أولها ضعف اليقين . ثانيها غلبة الجهل على النفس . ثالثها الشفقة على النفس ، وذلك كله أصله الرضا عن النفس وعدمه ، ومظهره

الثلاث المرتبة عليه ، وهى المعاصى والشهوات والغفلات ، وأضدادها المتقدمة فى الباب الثالث فافهم ا هـ .

أمداد الأنوار

ولما كان النور هو جند القلب ، لأنه يكشف عن حقائق الأشياء ، فيتميز الحق من الباطل ، فيحق الحق ويبطل الباطل ، فينتصر القلب بإقباله على الحق على بينة واضحة ، وتنهزم النفس بانهزام جند ظلماتها ، إذ لا بقاء للظلمة مع وضوح النور ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[النور له الكشف ، والبصيرة لها الحكم ، والقلب له الإقبال والإدبار] .

قلت : النور من حيث هو من شأنه أن يكشف الأمور ويوضحها حتى يظهر حسنها من قبيحها ، ومن شأن البصيرة المفتوحة أن تحكم على الحسن بحسنه وعلى القبيح بقبحه والقلب يقبل على ما يثبت حسنه ويدبر عن ما يثبت قبحه .

أو تقول : يقبل على ما فيه نفعه ويدبر عما فيه ضرره ، ومثال ذلك : رجل دخل بيتاً مظلماً فيه عقارب وحيات وفيه سبائك ذهب وفضة ، فلا يدرى ما يأخذ ولا ما يذر ولا ما فيه نفع ولا ضرر . فإذا أدخل فيه مصباحاً رأى ما ينفعه وما يضره ، وما يأمنه وما يحذره ، كذلك قلب المؤمن العاصى لا يفرق بين مرارة المعصية وحلاوة الطاعة ، فإذا استضاء بنور التقوى عرف ما يضره وما ينفعه ، وفرق بين الحق والباطل ، قال تعالى :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)[1] .

أى نوراً يفرق بين الحق والباطل . وقال تعالى :

(أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ)[2] .

وقال تعالى : (أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ)[3] .

---

(١) الأنفال : ٢٩ . (٢) الأنعام : ١٢٢ . (٣) الزمر : ٢٢ .

وهذا النور الذى يكشف الأمور هو نور الواردات المتقدمة الذى هو مطايا إلى علام الغيوب .

أولها : نور وارد الانتباه ، ومن شأنه أن يكشف ظلمة الغفلة . ويظهر نور اليقظة ، فتحكم البصيرة بقبح الغفلة وحسن اليقظة ، فيقبل القلب حينئذ على ذكر ربه ويدبر عما يغفله عن ربه ، وهذا هو نور الطالبين .

الثانى : نور وارد الإقبال ، ومن شأنه أن يكشف ظلمة الأغيار ، ويظهر بهجة المعارف والأسرار ، فتحكم البصيرة بضرر الأغيار وحسن الأسرار ، فيقبل القلب على بهجة الأسرار ، ويدبر عن ظلمة الأغيار ، وهذا هو نور السائرين .

الثالث : نور وارد الوصال ، ومن شأنه أن يكشف ظلمة الكون ورداء الصون ، ويظهر نور تجليات المكون فيقبل القلب على مشاهدة مولاه ، ويدبر عن الالتفات إلى ما سواه ، وهذا هو نور الواصلين وهو نور المواجهة ، ونور ما قبله نور التوجه .

وإن شئت قلت : هو نور الإسلام والإيمان والإحسان ، فنور الإسلام يكشف ظلمة الكفر والعصيان ، ويظهر نور الانقياد والإذعان ، فتحكم البصيرة بقبح الكفر والعصيان ، وحسن نور الإسلام والإذعان ؛ فيقبل القلب على طاعة ربه ويعرض عما يبعده من ربه ، ونور الإيمان يكشف ظلمات الشرك الخفى ويظهر بهجة الإخلاص والصدق الوفى ؛ فتحكم البصيرة بقبح الشرك وضرره وحسن الإخلاص وخيره ، فيقبل القلب على توحيد ربه ويعرض عن الشرك وشره ، ونور الإحسان يكشف ظلمة السوى ويظهر نور وجود المولى ، فتحكم البصيرة بقبح ظلمة الأثر وحسن نور المؤثر ، فيقبل القلب على معرفة مولاه ويغيب بالكلية عما سواه .

وإن شئت قلت : هذا النور هو نور الشريعة والطريقة والحقيقة ، فنور الشريعة يكشف ظلمة البطالة والتقصير ، ويظهر نور المجاهدة والتشمير ، فتحكم البصيرة بقبح البطالة وحسن المجاهدة ، فيُقبِل القلب على مجاهدة الجوارح فى طاعة مولاه ، ويدبر عن متابعة حظوظه وهواه ، ونور الطريقة يكشف ظلمة المساوئ والعيوب ، ويُظهر بهجة الصفاء وما يثمره من علم

الغيوب ، فتحكم البصيرة بقبح العيوب وحسن الصفا وعلم الغيوب ، فيُقبل القلب على ما يوجب التصفية ويُدْبر عما يمنعه من التخلية والتحلية ، ونور الحقيقة يكشف ظلمة الحجاب ، ويظهر له محاسن الأحباب .

أو تقول : نور الحقيقة يكشف له ظلمة الأكوان ، ويظهر نور الشهود والعيان ، فيقبل القلب على مشاهدة الأحباب داخل الحجاب ، ويدبر عما يقطعه عن الأدب مع الأحباب ، جعلنا الله معهم على الدوام فى هذه الدار وفى دار السلام آمين .

الفرح بالطاعة

ولما كان أصل كل نور وسر وخير هو طاعة الله ، وأصل كل ظلمة وحجاب وبعد هو معصية الله . ومن علامة حياة القلب فرحُه بالطاعة وحزنه على صدور المعصية ، نبهك الشيخ على وجه الفرح بالطاعة التى هى سبب نور القلوب ومفاتيح الغيوب ، فقال :

[لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك ، وافرح بها لأنها برزت من الله إليك (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون)] .

قلت : قد تقدم فى الحديث : « من سرَّته حسناتُه وساءتْهُ سيِّئاتُه فهوَ مؤمنٌ » . والناس فى الفرح بالطاعة على ثلاثة أقسام .

قسم فرحوا بها لما يرجون عليها من النعيم ويدفعون بها من عذابه الأليم ، فهم يرون صدورها من أنفسهم لأنفسهم ، لم يتبرءوا فيها من حولهم وقوتهم ، وهم من أهل قوله تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) .

وقسم فرحوا بها من حيث إنها عنوان الرضا والقبول ، وسبب فى القرب والوصول ، فهى هدايا من الملك الكريم ، ومطايا تحملهم إلى حضرة النعيم ، لا يرون لأنفسهم تركًا ولا فعلا ، ولا قوة ولا حولا ، يرون أنهم محمولون بالقدرة الأزلية ، مصروفون عن المشيئة الأصلية ، وهم من أهل قوله تعالى :

(وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) .

فأهل القسم الأول عبادتهم لله ، وأهل القسم الثانى عبادتهم بالله وبقدرة الله ، وبينهما فرق كبير .

وقسم ثالث فَرَحهم بالله دون شيء سواه ، فانون عن أنفسهم ، باقون بربهم ، فإن ظهرت منهم طاعة فالمنة لله ، وإن ظهرت منهم معصية اعتذروا لله أدبًا مع الله ، لا ينقص فرحهم إن ظهرت منهم زلة ، ولا يزيد إن ظهرت منهم طاعة أو يقظة ، لأنهم بالله ولله من أهل لا حول ولا قوة إلا بالله وهم العارفون بالله ، فإن ظهرت منك أيها المريد طاعة أو إحسان فلا تفرح بها من حيث إنها برزت منك فتكون مشركا بربك ؛ فإن الله تعالى غنى عنك وعن طاعتك ، وغنى عن أن يحتاج إلى من يطيعه سواه . قال الله تعالى :

(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِن اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)(١) .

وقال صلى الله عليه وسلم حاكيًا عن ربه عز وجل :

« يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَازَادَ ذٰلِكَ فِى مُلْكِى شَيْئًا » الحديث .

وافرح بها من حيث إنها هدية من الله إليك ، تدل على أنك من مظاهر كرمه وفضله وإحسانه ، فالفرح إنما هو بفضل الله وبرحمته ، قال تعالى :

(قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)(٢) .

ففضل الله هو هدايته وتوفيقه ، ورحمته هو اجتباؤه وتقريبه ، وقيل فضل الله الإسلام ، ورحمته القرآن ، وقيل فضل الله هداية الدين ، ورحمته جنة النعيم ، وقيل فضل الله توحيد الدليل والبرهان ، ورحمته توحيد الشهود لعيان ، وقيل غير ذلك ، والله تعالى أعلم .

ولما كان الفرح بالطاعة قد يتوهم أنه فرع رؤيتها والنظر إليها رفع ذلك بقوله :

[قطع السائرين له والواصلين إليه ، عن رؤية أعمالهم ، وشهود

---

(١) العنكبوت : ٦ .　　(٢) يونس : ٥٨ .

أحوالهم . أما السائرون ، فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها . وأما الواصلون ، فلأنه غيبهم بشهوده عنها] .

قلت : قطع هنا بمعنى غيب ، ولو عبر به لكان أظهر وأسهل ، لما فى التعبير بالقطع من الشؤومة ، وفى عبارته شيء من النقص ، فلو قال غيب السائرين له عن رؤية أعمالهم وأحوالهم والواصلين إليه عن رؤية وجودهم ؛ أماالسائرون فلأنهم لم يتحققوا فيها الصدق مع الله ، وأما الواصلون فلأنهم لم يشهدوا مع الله سواه ، يعنى أن الحق تعالى غيب السائرين له والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم الظاهرة وشهود أحوالهم الباطنة . أما السائرون فلأنهم يتهمون أنفسهم على الدوام ، فمهما صدر منهم إحسان ، ولاح لهم يقظة أو وجدان رأوها فى غاية الخلل والنقصان ، فاستحيوا من الله أن يعتمدوا عليها أو يعتدوا بها ، فغابوا عن أعمالهم وأحوالهم ، واعتمدوا على فضل ربهم ، فالصدق هو لُبُّ الإخلاص وسره ؛ أى لم يتحققوا بسر الإخلاص فيها فلم يروها ولم يركنوا إليها .

سئل بعض العارفين : ما علامة قبول العمل ؟ قال : نسيانك إياه وانقطاع نظرك عنه بالكلية ، بدلالة قوله تعالى :

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)[1] .

وقال زين العابدين رضى الله عنه : كل شيء من أفعالك إذا اتصلت به رؤيتك فذلك دليل على أنه لم يقبل ، لأن المقبول مرفوع مغيب عنك ، وما انقطعت عنه رؤيتك فذاك دليل على القبول .

وأما الواصلون فلأنهم فانون عن أنفسهم غائبون فى شهود معبودهم ، فحركاتهم وسكناتهم كلها بالله ومن الله وإلى الله ، إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه ، فإن ظهرت عليهم طاعة أو صدر منهم إحسان شهدوا فى ذلك الواحد المنان .

وحكى عن الواسطى رحمه الله : أنه لما دخل نيسابور سأل أصحاب عثمان بماذا كان يأمركم شيخكم ؟ فقالوا : كان يأمرنا بالتزام الطاعة ورؤية التقصير

---

(١) فاطر : ١٠ .

فيها ، فقال أمركم بالمجوسية المحضة ، هلا أمركم بالغيبة عنها بشهود مجريها ومنشيها اهـ .

قال القشيرى : أراد صيانتهم عن الإعجاب ودلالتهم على الآداب اهـ . فضمير قطع يعود إلى الحق سبحانه وتعالى والسائرين والواصلين مفعول به .

واعلم أن السائرين فى كلام الشيخ هم القسم الثانى الذين فرحهم بالطاعة من حيث إنها عنوان القبول ولا يلزم من الفرح بها رؤيتها ، إذ قد يفرح بها من حيث إنها منة من الله ، ويقطع رؤيته عنها من حيث اعتماده على الله . والواصلون هنا هم القسم الثالث الذين هم فرحهم بالله دون شىء سواه ، والله تعالى أعلم .

هذا آخر الباب السادس ، وبه انتهى ربع الكتاب ، وحاصلها علاج القلوب ، وعلامة موتها ومرضها وصحتها ، واستمداد أنوارها ، واتصال وارداتها حتى تغيب عن شهود أعمالها وأحوالها ، وتفنى عن دائرة حسها باتساع فضاء شهودها ، وفى ذلك شرفها وعزها ، وفى ضد ذلك وهو رؤية المخلوق والركون إليه ذلها وهوانها .

الباب السابع

الطمع

افتتح الباب السابع فقال : وقال رضى الله عنه :
[ما بسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع] .
قلت : البسوق هو الطول ، قال تعالى :
(وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ)[1] أى طويلات .

والبذر الذريعة ، والطمع تعلق القلب بما فى أيدى الخلق وتشوف القلب إلى غير الرب ، وهو أصل شجرة الذل ، فما بسقت أغصان شجرة الذل إلا على ذريعة الطمع ، ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسى : والله ما رأيت العز إلا فى رفع الهمةعن الخلق ، وإنما كان الطمع هو أصل الذل ، لأن صاحب الطمع ترك ربًّا عزيزًا وتعلق بعبد حقير ، فاحتقِر مثلَه ، ترك ربًّا كريمًا وتعلق بعبد فقير ، فافتقر مثله ، ترك رفع همته إلى الغنى الكريم وأسقط همته إلى الدنىّ اللئيم ، إن الله يرزق العبد على قدر همته . وأيضًا كان عبدًا لله حرًّا مما سواه فصار عبدًا للمخلوق وعبدًا لنفسه وهواه ، لأنك ما أحببت شيئًا وطمعت فيه إلا كنت عبدًا له . وما أيست من شىء ورفعت همتك عنه إلا كنت حرًّا منه ، وفى ذلك يقول الشاعر :

أَبَتِ المَطَامِعُ أَنْ تُهَشِّمَنِي ... إِنِّي لِمَعْوَلِهَا صَفًا صَلْدُ
الْعَبْدُ حُرٌّ مَا عَصَى طَمَعًا ... وَالْحُرُّ مَهْمَا طَاعَهُ عَبْدُ

قال فى التنوير : وكن أيها العبد إبراهيميًّا ، فقد قال أبوك إبراهيم ، صلوات الله عليه وسلامه : (لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ)[2] .

---
(١) سورة ق : ١٠ .
(٢) الأنعام : ٧٦ .

وكل ما سوى الله آفل إما وجودًا وإما إمكانًا ، وقد قال سبحانه :
(مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ)[١] .

فواجب على المؤمن أن يتبع ملة إبراهيم ، ومن ملة إبراهيم رفع الهمة عن الخلق ، فإنه يوم زج به فى المنجنيق تعرض له جبريل عليه السلام فقال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، وأما إلى الله فبلى . قال : فاسأله ، قال : حسبى من سؤالى علمه بحالى .

فانظر كيف رفع إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه همته عن الخلق ووجهها إلى الملك الحق ، فلم يستغث بجبريل ولا احتال على السؤال من الله ، بل رأى الحق سبحانه أقرب إليه من جبريل ومن سؤاله ، فلذلك سلمه من نمروذ ونكالِه ، وأنعم عليه بنواله وأفضاله ، وخصه بوجود إقباله . ومن ملة إبراهيم معاداة كل ما شغل عن الله وصرف الهمة بالودّ إلى الله ، لقوله تعالى :
(فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ)[٢] .

والغنى إن أردت الدلالة عليه فهو فى اليأس .

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : أيست من نفع نفسى لنفسى ، فكيف لا أيأس من نفع غيرى لها ، ورجوت الله لغيرى فكيف لا أرجوه لنفسى ، وهذا هو الكيمياء والإكسير الذى من حصل له حصل له غنى لا فاقة فيه ، وعِزٌّ لا ذل معه ، وإنفاق لا نفاد له ، وهو كيمياء أهل الفهم عن الله تعالى .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : صحبنى إنسان وكان ثقيلًا علىّ فباسطته فانبسط ، وقلت : يا ولدى ما حاجتك ولم صحبتنى ؟ قال : يا سيدى قيل لى إنك تعلم الكيمياء فصحبتك لأتعلم منك ، فقلت له : صدقت وصدق من حدّثك ، ولكن إخالك ، أى أظنك ، لا تقبل ، فقال : بل أقبل ، فقلت : نظرت إلى الخلق فوجدتهم على قسمين أعداء وأحباء ، فنظرت إلى الأعداء فعلمت أنهم لا يستطيعون أن يشوكونى بشوكة لم يردنى الله بها فقطعت نظرى

---

(١) الحج : ٧٨ . (٢) الشعراء : ٧٧ .

عنهم ، وتعلقت بالأحياء فرأيتهم لا يستطيعون أن ينفعونى بشىء لم يردنى الله به فقطعت يأسى منهم ، وتعلقت بالله فقيل لى : إنك لا تصل إلى حقيقة هذا الأمر حتى تقطع يأسك منا كما قطعته من غيرنا أن نعطيك غير ما قسمنا لك فى الأزل .

وقال مرة أخرى لما سئل عن الكيمياء قال : أخرج الخلق من قلبك ، واقطع يأسك من ربك أن يعطيك غير ما قسم لك ، وليس يدل على فهم العبد كثرة علمه ولا مداومته على ورده ، إنما يدل على نوره وفهمه غناه بربه ، وانحياشه إليه بقلبه وتحرزه من رق الطمع ، وتحليه بحلية الورع ، وبذلك تَحسُن الأعمال ، وتَزكو الأحوال قال تعالى :

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)[1] .

فحسن الأعمال إنما هو الفهم عن الله ، والفهم هو ما ذكرناه من الاغتناء بالله والاكتفاء به والاعتماد عليه ، ورفع الحوائج إليه ، والدوام بين يديه ، وكل ذلك من ثمرة الفهم عن الله ، وتفقد وجود الورع من نفسك أكثر مما تتفقد ما سواه ، وتطهر من الطمع فى الخلق ، فلو تطهر الطامع فيهم بسبعة أبحر ما طهره إلا اليأس منهم ورفع الهمة عنهم .

وقدم علىّ رضى الله عنه البصرة فدخل جامعًا فوجد القصاص يقصون فأقامهم حتى وجد الحسن البصرى فقال : يافتى إنى سائلك عن أمر ، فإن أجبت عنه أبقيتك وإلا أقمتك كما أقمت أصحابك ، وكان قد رأى عليه سمتًا وهديًا ، فقال الحسن : سل عما شئت ، فقال : ما ملاك الدين ؟ قال : الورع ، قال : فما فساد الدين ؟ قال : الطمع ، قال : اجلس فمثلك من يتكلم على الناس .

قال : وسمعت شيخنا أبا العباس المرسى رضى الله عنه يقول : كنت فى ابتداء أمرى بالإسكندرية فجئت إلى بعض من يعرفنى فاشتريت منه حاجة بنصف درهم ، فقلت فى نفسى : لعله لا يأخذه منى ، فهتف بى هاتف : السلامة فى الدين بترك الطمع فى المخلوقين .

---

(١) الكهف : ٧ .

وسمعته يقول : صاحب الطمع لا يشبع أبدًا ، ألا ترى أن حروفه كلها مجوفة ؟ الطاء والميم والعين ، فعليك أيها المريد برفع همتك عن الخلق ولا تذل لهم فى شأن الرزق ، فقد سبقت قسمته وجودك ، وتقدم ثبوته ظهورك ، واسمع ما قال بعض المشايخ : أيها الرجل ما قدّر لماضغيك أن يمضغاه فلابد أن يمضغاه ، فكله ويحك بعز ولا تأكله بذل اهـ .

وقال أبو الحسن الوراق : من أشعر نفسه محبة شىء من الدنيا فقد قتلها بسيف الطمع ، ومن طمع فى شىء ذل له وبذلك هلك .

وقال أبو بكر الوراق : لو قيل للطمع : من أبوك ؟ لقال الشك فى المقدور ، فلو قيل له : ما حرفتك ؟ لقال : اكتساب الذل ، فلو قيل له ما غايتك ؟ لقال الحرمان اهـ .

وفى معنى هذا أنشدوا :

اضْرَعْ إِلَى اللهِ لَا تَضْرَعْ إِلَى النَّاسِ
وَاقْنَعْ بِعِزٍّ فَإِنَّ الْعِزَّ فِى الْيَاسِ
وَاسْتَغْنِ عَنْ كُلِّ ذِى قُرْبٍ وَذِى رَحِمٍ
إِنَّ الْغَنِىَّ مَنِ اسْتَغْنَى عَنِ النَّاسِ

ولما كان سبب وجود الطمع هو الوهم والجزع ذكره بأثره فقال :

[ما قادك شىء مثل الوهم] .

قلت : يقال قاد الشىء يقود : جره إليه ، وقدْت البهيمة : جررتها إليك ، والوهم : أول الخاطر ، وهو أضعف من الشك ، والمراد هنا ما خالف اليقين فيصدق بالظن والشك .

يقول رضى الله عنه : ما جَرَّك شىء وقادك إلى الطمع فى الخلق والتملق لهم والتذلل لما فى أيديهم شىء مثل الوهم ، يعنى أنك لما توهمت أن بيدهم نفعًا أو ضرًّا أو عطاء أو منعًا طمعت فيهم وتذلّلت لهم واعتمدت عليهم وخفت منهم ، ولو حصل لك اليقين أن أمرهم بيد الله وأنفسهم فى قبضة الله ، عاجزين عن نفع أنفسهم فكيف يقدرون على نفع غيرهم لقطعت يأسك منهم ، ولرفعت

همتك عنهم ، ولتعلقت همتك برب الأرباب ، ولنبذت الأصحاب والأحباب .

أو تقول : ما قادك شىء عن حضرة الشهود والأعيان إلا توهمك وجود الأكوان ، ولو انهتك عنك حجاب الوهم لوقع العيان على فقد الأعيان ، ولو أشرق نور الإيقان لغطى وجود الأكوان .

قال فى التنوير : وإنما منع العباد من السبق إلى الله جواذب التعلق بغير الله ، فكلما همت قلوبهم أن ترحل إلى الله جذبها ذلك التعلق إلى ما به تعلقت فكرة راجعة إليه ، مقبلة عليه ، فالحضرة محرمة على من هذا وصفه ، وممنوعة على من هذا نعته .

قال بعض العارفين : لا تظن أن تدخل الحضرة الإلهية وشىء من ورائك يجذبك ، وافهم هنا قوله سبحانه :

﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[1] .

والقلب السليم : هو الذى لا تعلق له بشىء دون الله ، وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[2] .

يفهم منه أيضًا أنه لا يصح مجيئك إلى الله بالوصول إليه إلا إذا كنت فردًا مما سواه وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾[3] .

يفهم أنه لا يأويك إليه إلا إذا صح يتمك مما سواه ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ اللَّهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ » .

أى يحب القلب الذى لا يشفع بثنوية الآثار ، ثم قال : وقال بعضهم : لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع ، فإنه لا غير معه حتى أشهده معه اهـ .

فتحصل أن الوهم حجب عن الله العوام والخواص . وأما خواص الخواص فلم يحجبهم عن الله شىء .

أما العوام فقادهم إلى التعلق بالخلق ، ومنعهم عن السير إلى الملك الحق ، فاشتغلوا بمراقبة الأحباب ، وعداوة من عاداهم من الأصحاب ، ففاتهم محبة

---

(١) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ . (٢) الأنعام : ٩٤ . (٣) الضحى : ٦ .

الحبيب ومراقبة الرقيب .

وأما الخواص فقادهم الوهم إلى ثبوت الآثار والوقوف مع الأنوار ، فقنعوا بذلك ولم يتشوفوا إلى ما وراء ذلك ، فالقناعة من الله حرمان ، وليس الخبر كالعيان . وسمعت شيخنا رضى الله عنه يقول : والله ما حجب الناس عن الله إلا الوهم ، والوهم أمر عدمى لا حقيقة له اهـ .

وأما خواص الخواص فلم يحجبهم عن الله شيء ، قطعوا حجاب الوهم ، وحصل لهم من الله العلم والفهم ، فلم يتعلقوا بشيء ، ولم يحجبهم عن الله شيء ، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه .

ولما كان الوهم ينشأ عنه الطمع ، والطمع ينشأ عنه الذل والعبودية ، واليقين ينشأ عنه الورع ، والورع ينشأ عنه العز والحرية نبه عليه بقوله :

[أنت حر مما أنت عنه آيس ، وعبد لما أنت فيه طامع] .

قلت : إنما كان الإنسان حرًّا مما أيس منه ، لأنه لما أيس من ذلك الشيء رفع همته عنه وعلقها بالملك الحق ، فلما علق همته بالملك الحق سخّر الحق تعالى له سائر الخلق ، فكانت الأشياء كلها عبيدًا له ومسخَّرَة لأمره .

أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكوِّن ، فإذا شهدت المكوِّن كانت الأكوان معك ، فمن كان عبدًا لله كان حرًّا مما سواه ، وإنما كان الإنسان عبدًا لما طمع فيه ، لأن الطمع فى الشيء يقتضى المحبة له والخضوع والانقياد إليه فيكون عند أمره ونهيه ، لأن حبك الشيء يعمى ويصم ، وهذه حقيقة العبودية ، وفى هذا المعنى قيل :

الْعَبْـدُ حُرٌّ مَـا قَنَـعْ وَالْحُرُّ عَبْدٌ مَـا طَمِعْ

وما أقبح الإنسان الذى يريد سيده منه أن يكون مَلِكًا وهو يريد أن يكون مملوكًا ، يريد سيده أن يجعله حرًّا وهو يريد أن يكون عبدًا ، خلق له سيده الكون بأسره خادمًا له عند نهيه وأمره ، فجعل هو يخدم الكون بنفسه ويتعبد لأقل شيء وأخسه .

يقول المصنف فى التنوير فى مناجاة الحق تعالى على ألسنة الهواتف : إنا أجللنا قدرك أيها العبد أن نشغلك بأمر نفسك ، فلا تضعن قدرك يا من رفعناه ،

ولا تذَلنَّ بحوالتك على غيرى يا من أعززناه ، ويحك أنت أجل عندنا من أن تشتغل بغيرنا ، لحضرتى خلقتك ، وإليها طلبتك وبجواذب عنايتى لها جذبتك ، فإن اشتغلت بنفسك حَجبتُك ، وإن اتبعت هواها طردتُك ، وإن أخرجت عنها قَرّبتّك ، وإن توددت لى بإعراضك عما سواى أجبتك اهـ .

فتحصّل أن محبة الأشياء والطمع فيها هو سبب الذل والهوان . والتعبد لسائر الأكوان وأن الإياس من الأشياء ورفع الهمة عنها هو سبب العز والحرية والتيه على الأقران ، ولله در القائل حيث قال :

رَأَيْتُ الْقَنَاعَةَ رَأْسَ الْغِنَى فصِرْتُ بِأَذْيَالِهَا مُمْتَسِكْ
فَأَلْبَسَنِي عِزُّهَا حُلَّةً يَمُرُّ الزَّمَانُ وَلَا تُنْتَهَكْ
فَصِرْتُ غَنِيًّا بِلَا دِرْهَمٍ أَتِيهُ عَلَى النَّاسِ تِيهَ الْمَلِكْ

قلت : وهذا هو الغنى الأكبر ، والإكسير عند الأكياس ، ويسمى فى اصطلاح الصوفية الورع ، أعنى الورع الخاص ، وهو رفع الهمة عن السوى .

قال فى لطائف المنن : واعلم رحمك الله أن ورع الخصوص لا يفهمه إلا قليل ، فإن من جملة ورعهم تورعهم أن يسكنوا لغيره ، أو يميلوا بالحب لغيره ، أو تمتد أطماعهم بالطمع فى غير فضله وخيره . ومن ورعهم ورعهم عن الخوف مع الوسائط والأسباب وخلع الأنداد والأرباب . ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع العادات ، والاعتماد على الطاعات ، والسكون إلى أنوار التجليات . ومن ورعهم ورعهم عن أن تفتنهم الدنيا أو توقفهم الآخرة ، تورعوا عن الدنيا وفاء وعن الآخرة صفاء .

قال الشيخ عثمان بن عاشوراء : خرجت من بغداد أريد الموصل ، فأنا أسير وإذا بالدنيا قد عرضت علىّ بعزها وجاهها ورفعتها ومراكبها وملابسها ومزيّناتها ومشتهياتها فأعرضت عنها ، فعرضت على الجنة بحورها وقصورها وأنهارها وثمارها فلم أشتغل بها ، فقيل لى : يا عثمان لو وقفت مع الأولى لحجبناك عن الثانية ، ولو وقفت مع الثانية لحجبناك عنا ، فها نحن لك وقسطك من الدارين يأتيك .

قال الشيخ عبد الرحمن المغربى وكان مقيمًا بشرقى الإسكندرية : حججت سنة من السنين ، فلما قضيت الحج عزمت على الرجوع إلى الإسكندرية ، فإذا النداء علىّ : إنك العام القابل عندنا ، فقلت فى نفسى : إذا كنت العام القابل ها هنا فلا أعود إلى الإسكندرية ، فخطر علىّ الذهاب إلى اليمن فأتيت إلى عدن ، فأنا يومًا على ساحلها أمشى إذا بالتجار قد أخرجوا بضائعهم ومتاجرهم ، ثم نظرت فإذا رجل قد فرش سجادة على البحر ومشى على الماء ، فقلت فى نفسى : لم أصلح للدنيا ولا للآخرة ، فإذا علىّ يقال : من لم يصلح للدنيا ولا للآخرة يصلح لنا .

وقال أبو الحسن : الورع نعم الطريق لمن عجل ميراثه وأجل ثوابه ، فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله عن الله والقول بالله والعمل لله وبالله ، على البيّنة الواضحة، والبصيرة الفائقة ، فهم فى عموم أوقاتهم وسائر أحوالهم لا يدبّرون ، ولا يختارون ، ولا يريدون ، ولا يتفكرون ، ولا ينظرون ، ولا ينطقون، ولا يبطشون ، ولا يمشون ، ولا يتحركون إلا بالله ولله من حيث يعلمون ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر ، فهم مجموعون فى عين الجمع لا يفترقون فيما هو أعلى ولا فيما هو أدنى .

وأما أدنى الأدنى فالله يورّعهم عنه ثوابًا لورعهم مع الحفظ لمنازلات الشرع عليهم ، ومن لم يكن لعلمه وعمله ميراث ، فهو محجوب بدنيا أو مصروف بدعوى ، وميراثه التعزز لخلقه ، والاستكبار على مثله ، والدلالة على الله بعلمه ، فهذا هو الخسران المبين ، والعياذ بالله العظيم من ذلك . والأكياس يتورعون عن هذا الورع ، ويستعيذون بالله منه ، ومن لم يزوّد بعلمه وعمله افتقارًا لربه واحتقارًا لنفسه وتواضعًا لخلقه فهو هالك . فسبحان من قطع كثيرًا من الصالحين بصلاحهم عن مصلحهم ، كما قطع كثيرًا من المفسدين بفسادهم عن موجدهم : ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾[1] اهـ .

فانظر فهّمك الله سبيل أوليائه ، ومنّ عليك بمتابعة أحبائه ، هذا الورع الذى ذكره هذا الشيخ رضى الله عنه ، هل كان فهمك يصل إلى هذا النوع من

(١) فصلت : ٣٦ .

الورع ؟ ألا ترى قوله : قد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله ، وعن الله ، والقول بالله ، والعمل لله ، وبالله على البينة الواضحة ، والبصيرة الفائقة ؟ فهذا هو ورع الأبدال والصديقين ، لا ورع المتنطعين الذى ينشأ عن سوء الظن وغلبة الوهم اهـ .

قلت : هذا الورع الذى ذكره الشيخ هو ورع الخواص أو خواص الخواص ، وهو الذى يقابل الطمع كما تقدم فى قول الحسن البصرى : صلاح الدين الورع ، وفساد الدين الطمع ، لا ورع العوام الذى هو ترك المتشابه والحرام ، فإنه لا يقابل الطمع كل المقابلة ، وحاصله صحة اليقين ، وكمال التعلق برب العالمين ، ووجود السكون إليه ، وعكوف الهم عليه ، وطمأنينة القلب به ، حتى لا يكون له ركون إلى شىء من السِّوى فهذا هو الورع الذى يقابل الطمع المفسد ، وبه يصلح كل عمل مُقرِّب وحال مسعِد .

قال يحيى بن معاذ رضى الله عنه : الورع على وجهين : ورع فى الظاهر ، وهو ألا تتحرك إلا لله . وورع فى الباطن ، وهو ألا يدخل قلبك إلا الله .

ذكر أن بعضهم كان حريصًا على أن يرى أحدًا ممن هذا صفته ، فجعل يجتهد فى طلبه ، ويحتال على التوصل إليه ، بأن يأخذ الشىء بعد الشىء من ماله ، ويقصد به الفقراء والمساكين ، ويقول لمن يعطيه خذلا لك ، فكانوا يأخذون ولا يسمع من أحد منهم جوابًا مطابقًا لما أراده ، إلى أن ظفر ذات يوم ببغيته ، وحصل على مقصوده ومنيته وذلك أنه قال لأحدهم : خذلا لك ، فقال له آخذه لا منك ، فإن كان للعبد استشراف إلى الخلق أو سبقية نظر إليهم قبل مجىء الرزق أو بعده فمقتضى هذا الورع والواجب فى حق الأدب ألا ينيل نفسه شيئًا مما يأتيه على هذا الحال عقوبة لنفسه فى نظره إلى أبناء جنسه ، كقصة أيوب الحمال مع أحمد بن حنبل رضى الله عنهما وهى معروفة .

وكما روى عن الشيخ أبى مدين رضى الله عنه : أنه أتاه حمال بقمح فنازعته نفسه وقالت يا ترى من أين هذا ؟ فقال أنا أعرف من أين هو ياعدوة الله ، وأمر بعض أصحابه أن يدفعه لبعض الفقراء عقوبة لها لكونها رأت الخلق قبل رؤية الحق تعالى .

وقد قيل : إن أحل الحلال لم يخطر على بال ولا سألت فيه أحدًا من النساء والرجال .

قال الشيخ عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه : الورع ألا تتحرك ولا تسكن إلا رأيت الله فى الحركات والسكون ، فإذا رأى الله ذهبت الحركة والسكون وبقى مع الله ، فالحركة ظرف لما فيها ، كما قال : ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله فيه ، فإذا رأيت الله ذهبت .

وقال أيضًا : أجمع العلماء على أن الحلال المطلق ما أخذ من يد الله بسقوط الوسائط وهذا مقام التوكل ، ولهذا قال بعضهم : الحلال هو الذى لا ينسى الله فيه اهـ على نقل ابن عباد رضى الله عنه .

وإذا أراد الله تعالى أن يعز عبده ويرفعه إلى هذا المقام ، قطع عنه زمام الوهم والجزع ، وحرره من رقة الطمع ، فقاده إليه بملاطفة الإحسان أو بسلاسل الامتحان كما أشار إلى ذلك بقوله :

[من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان ، قيد إليه بسلاسل الامتحان] .

أقسام العباد

قلت : قد قسم الله تعالى عباده ثلاثة أقسام : أهل الشمال ، وأهل اليمين ، والسابقون ، أما أهل الشمال ، فلا كلام عليهم ، إذ لا إقبال لهم على الله أصلا . وأما أهل اليمين ، فلهم إقبال بوجه ما لكن لا خصوصية لهم ، لأنهم قنعوا بظاهر الشريعة ولم يلتفتوا إلى سلوك طريقة ولا حقيقة ، وقفوا مع الدليل والبرهان ، ولم ينهضوا إلى مقام الشهود والعيان ، ولا كلام معهم أيضًا . وأما السابقون ، فقد أقبلوا على الله متوجهين إليه طالبين الوصول إلى معرفته ، وهم فى ذلك على قسمين : قسم أقبل على الله بملاطفة إحسانه وقيامًا بشكر إنعامه وامتنانه وهم أهل مقام الشكر . وقسم أقبل على الله بسلاسل الامتحان وضروب البلايا والمحن وهم أهل مقام الصبر أهل المقام الأول ، فأقبلوا على الله طوعًا . وأهل المقام الثانى أقبلوا على الله كرهًا ، قال تعالى :

(وللهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰواتِ والأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا)[١] .

قال أبو مدين رضى الله عنه : سنة الله استدعاء العباد لطاعته بسعة الأرزاق ودوام المعافاة ، ليرجعوا إليه بنعمته ، فإنْ لم يفعلوا ابتلاهم بالسراء والضراء لعلهم يرجعون ، لأن مراده عز وجل رجوع العباد إليه طوعًا وكرهًا .

فقوم بسط الله عليهم النعم وصرف عنهم البلايا والنقم ، ورزقهم الصحة وأمدهم بالأموال والعافية فأدوا حقها وقاموا بشكرها ، وتشوقوا إلى معرفة المنعم بها ، فكانت مطية لهم على السير إليه ، ومعونة لهم على القدوم عليه ، أخرجوها من قلوبهم ، وجعلوها في أيديهم .

قليل ما هم ، قال تعالى : (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)[٢] .

وفى مثل هؤلاء ورد الحد يث : « نِعْمَتِ الدُّنْيَا مَطِيَّةُ الْمُؤْمِنِ ، عَلَيْهَا يَبْلُغُ الْخَيْرَ ، وَبِهَا يَنْجُو مِنَ الشَّرِّ » . أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

قال بعض أصحابنا : جعل عليه الصلاة والسلام الدنيا مطية للمؤمن حاملة له ، ولم يجعل المؤمن مطية لها حتى يتكلف حملها ، فهذا يدل على أنها فى يده يستعين بها على السير إلى ربه ، لا أنها فى قلبه حتى يرتكب المشقة فى طلبها ، والله تعالى أعلم .

وقوم أمدهم الله بالنعم ، وبسط لهم فى المال والعافية ، وصرف عنهم النقم ، فشغلهم ذلك عن النهوض إليه ، ومنعهم من المسير إلى حضرته ، فسلب ذلك عنهم ، وضربهم بالبلايا والمحن ، فأقبلوا على الله بسلاسل الامتحان :

« عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلاسِلِ » .

وقد مدح الله الغنى الشاكر والفقير الصابر بمدح واحد ، فقال تعالى فى حق سليمان عليه السلام : (وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب)[٣].

---

(١) الرعد : ١٥ .   (٢) سبا : ١٣ .   (٣) ص : ٣٠ .

وقال فى حق أيوب عليه السلام : (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)[١] .

وقال بعضهم : لأن أعطى فأشكر أحب إلىّ من أن أبتلى فأصبر .

وكان الشيخ أبو العباس المرسى يرجّح الغنى الشاكر على الفقير الصابر ، وهو مذهب ابن عطاء ومذهب أبى عبد الله الترمذى الحكيم يقول : الشكر صفة أهل الجنة والفقر ليس كذلك ، قاله فى لطائف المنن .

والتحقيق أن الفقير الصابر هو الغنى الشاكر وبالعكس ، لأن الغنى إنما هو بالله ، فإذا استغنى القلب بالله فصاحبه هو الغنى الشاكر . ولا عبرة بما فى اليد ، فقد تكون اليد معمورة والقلب فقير ، وقد يكون القلب غنيًّا بالله واليد فقيرة ، وقد تكون اليد معمورة والقلب مع الله غنيًّا به عما سواه .

قال بعض المشايخ : كان رجل بالمغرب من الزاهدين فى الدنيا ومن أهل الجد والاجتهاد ، وكان عيشه مما يصيده من البحر ، وكان الذى يصيده يتصدق ببعضه ويتقوت ببعضه ، فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر إلى بلد من بلاد المغرب ، فقال له هذا الزاهد : إذا دخلت على بلدة كذا فاذهب إلى أخى فأقرئه منى السلام ، واطلب منه الدعاء فإنه ولى من أولياء الله تعالى . قال فسافرت حتى قدمت تلك البلدة فسألت عن ذلك الرجل فدللت على دار لا تصلح إلا للملوك ، فعجبت من ذلك وطلبته قيل لى هو عند السلطان ، فازداد تعجبى ، فبعد ساعة وإذا هو قد أتى فى أفخر مركب وملبس وكأنما هو ملك فى مركبه ، قال فازداد تعجبى أكثر من الأولين ، فهممت بالرجوع وعدم الاجتماع به ، ثم قلت لا يمكننى مخالفة الشيخ فاستأذنت فأذن لى ، فلما دخلت رأيت ما هالنى من العبيد والخدم والشارة الحسنة ، فقلت له أخوك فلان يسلم عليك قال لى : جئت من عنده ؟ قلت : نعم ، قال : إذا رجعت إليه فقل : له إلى كم اشتغالك بالدنيا ؟ وإلى كم إقبالك عليها ؟ وإلى متى لا تنقطع رغبتك فيها ؟ فقلت : والله هذا أعجب من الأولى . فلما رجعت إلى الشيخ قال : اجتمعت بأخى فلان ؟ قلت : نعم ، قال : فما الذى قال لك ؟ قلت :

---

(١) ص : ٤٤ .

لا شيء ، قال : لابد أن تقول لى ، فأعدت عليه ما قال ، فبكى طويلا وقال : صدق أخى فلان وهو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها فى يده وعلى ظاهره ، وأنا آخذها من يدى ولى إليها بقايا التطلع اهـ . من لطائف المنن للمؤلف رحمه الله ورضى الله عنه .

فأحوال الأولياء لا تنضبط بفقر ولا غنى ، لأن الولاية أمر قلبى لا يعلمها إلا من خصهم بها وبالله التوفيق .

ومن أقبل على الله بملاطفة إحسانه وجب عليه شكر ما أسدى إليه من لطائف كرمه وامتنانه ، وإلا زالت عنه بسبب كفره وعصيانه ، وإلى ذلك أشار بقوله :

[من لم يشكر النعم ، فقد تعرض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها] .

قلت : اتفقت مقالات الحكماء على هذا المعنى وأن الشكر قيد الموجود وصيد المفقود ، وقالوا أيضًا : من أُعطِى ولم يشكر سُلِب منها ولم يشعر ؛ فمن شكر النعمة فقد قيدها بعقالها ، ومن كفرها فقد تعرّض لزوالها . قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)[1] .

أى إن الله لا يغير ما بقوم من النعم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الشكر ، وتغييرهم الشكر هو اشتغالهم بالمعاصى والكفر ، ولذلك قال الجنيد رضى الله عنه : الشكر ألا يعصى الله بنعمه ، وقيل الشكر فرح القلب بالمنعم لأجل نعمته حتى يتعدى ذلك إلى الجوارح فتنبسط بالأوامر ، وتنكفّ على الزواجر .

وقال فى لطائف المنن : الشكر على ثلاثة أقسام : شكر اللسان ، وشكر الأركان ؛ وشكر الجنان ، فشكر اللسان التحدث بنعم الله ، قال تعالى :

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)[2] .

وشكر الأركان العمل بالطاعة لله تعالى ، قال تعالى :

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا)[3] .

---

(١) الرعد : ١١ .　　(٢) الضحى : ١١ .　　(٣) سبأ : ١٣ .

وشكر الجنان بالاعتراف بأن كل نعمة بك أو بأحد من العباد هى من الله تعالى ، قال الله تعالى : (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ)[١] .

ومن القسم الأول قول النبى صلى الله عليه وسلم :

« التَّحَدُّثُ بِالنِّعَمِ شُكْرٌ » ومن الثانى : « أَنَّهُ صلى الله عليه وَسَلم قَامَ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ ، فَقِيلَ لَهُ أَتَتَكَلَّفُ كُلَّ ذٰلِكَ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ فَقَالَ : أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا » اهـ

وسئل أبو حازم رضى الله عنه : ما شكر العينين ؟ قال : إذا رأيت بهما خيرًا أعلنته ، وإذا رأيت بهما شرًّا سترته ، قال : فما شكر الأذنين ؟ قال : إذا سمعت بهما خيرًا وعيته ، وإذا سمعت بهما شرًّا دفنته .

قال : فما شكر اليدين ؟ قال : لا تأخذ بهما ما ليس لك ، ولا تمنع حقًّا هو لله فيهما ، قال : فما شكر البطن ؟ قال : أن يكون أسفله صبرًا ، وأعلاه علمًا ، قال : فما شكر الفرج ؟ قال كما قال الله تعالى :

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ) إلى قوله : (غَيْرُ مَلُومِينَ)[٢]

قال : فما شكر الرجلين ؟ قال : إن رأيت شيئًا غبطته استعملتهما ، وإن رأيت شيئًا مقته كففتهما اهـ .

واعلم أن الناس فى الشكر على ثلاث درجات : عوام وخواص وخواص الخواص ، فشكر العوام على النعم فقط ، وشكر الخواص على النعم والنقم ، وشكر خواص الخواص الغيبة فى المنعم عن شهود النعم والنقم .

والنعم التى يقع الشكر عليها ثلاثة أقسام ؛ دنيوية ، كالصحة والعافية والمال الحلال . ودينية كالعلم والعمل والتقوى والمعرفة . وأخروية ، كالثواب على العمل القليل بالعطاء الجزيل . وأجلّ النعم الدينية التى يتأكد الشكر عليها نعمة الإسلام والإيمان والمعرفة ، وشكرها هو اعتقاد أنها منة من الله تعالى بلا واسطة ولا حول ولا قوة ، قال الله تعالى :

---

(١) النحل : ٥٣ .   (٢) المعارج : ٢٩ ، ٣٠ .

(وَلَٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ) ثم قال : (فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً)[١] .

قال أبو طالب المكى رضى الله عنه بعد كلام : فلو قلب قلوبنا فى الشك والضلال كما يقلب نياتنا فى الأعمال أى شىء كنا نصنع ؟ وعلى أى شىء نعول ؟ وبأى شىء كنا نطمئن ونرجو ؟ فهذا من كبائر النعم . ومعرفته هو شكر نعمة الإيمان ، والجهل بهذا غفلة عن نعمة الإيمان توجب العقوبة ، وادعاء الإيمان أنه عن كسب معقول أو استطاعة بقوة وحول هو كفر نعمة الإيمان ، وأخاف على من توهم ذلك أن يسلب الإيمان ، لأنه بدّل شكر نعمة الإيمان كفرًا اهـ .

استدراج الله العبد

فإن غفل العبد عن شكر هذه النعم ثم دامت صورتها عنده فلا يغتر ، فقد يكون ذلك استدراجًا كما أشار إلى ذلك بقوله :

[خف من وجود إحسانه إليك ، ودوام إساءتك معه أن يكون ذلك استدراجًا – سنستدرجهم من حيث لا يعلمون –] .

الاستدراج : هو كمون المحنة فى عين المنة ، وهو مأخوذ من درج الصبى : أى أخذ فى المشى شيئًا بعد شىء ، ومنه الدرج الذى يرتقى عليه إلى العلو ، كذلك المستدرج هو الذى تؤخذ منه النعمة شيئًا بعد شىء وهو لا يشعر . قال الله تعالى : (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)[٢] .

أى نأخذهم بالنعم حتى نجرهم إلى النقم وهم لا يشعرون ، قاله الشيخ زروق رضى الله عنه .

فخف أيها المريد من دوام إحسان الحق إليك بالصحة والفراغ وسعة الأرزاق ، ودوام الأمداد الحسية أو المعنوية ، مع دوام إساءتك معه بالغفلة والتقصير ، وعدم شكرك للملك الكبير ، أن يكون ذلك استدراجًا منه تعالى ،

---

(١) الحجرات : ٧ ، ٨ .   (٢) سورة القلم : ٤٤ .

قال تعالى : (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَيَعْلَمُونَ) .

قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها ، فإذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن المنعم أخذوا .

وقال ابن عطاء رضى الله عنه : كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة ونسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة ، ثم قال الحق تعالى : (وَأُمْلِي لَهُمْ)[١] .

أى نمدهم بالعوافى والنعم حتى نأخذهم بغتة ، قال تعالى :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُون)[٢] .

أى فلما غفلوا عما ذكروا به من العقوبة والعذاب فتحنا عليهم أبواب النعم وبسطنا عليهم الأرزاق الحسية ، (حتى إذا فرحوا بما أوتوا) من النعم وتمكنوا منها (أخذناهم) بالهلاك (بغتة) أى فجأة (فإذا هم مبلسون) آيسون من كل خير ، وهكذا عادة الله فى خلقه أن يرسل إليهم من يذكرهم بالله ويدلهم على الله ، فإذا أعرضوا عنه وردوا عليه قوله بسط عليهم النعم الحسية حتى إذا اطمأنوا وفرحوا بها دمرهم الله وأخذهم بغتة ليكون ذلك أشد فى العقوبة ، قال الشاعر :

* وَأَعْظَمُ شَيْءٍ حِينَ يَفْجَؤُكَ الْبَغْتُ *

وقال تعالى : (وَلاَيَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُم لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)[٣] .

فالواجب على الإنسان إذا أحس بنعمة ظاهرة أو باطنة حسية أو معنوية ، أن يعرف حقها ويبادر إلى شكرها نطقًا واعتقادًا وعملاً ، فالنطق الحمد والشكر باللسان ، والاعتقاد شهود المنعم فى النعمة وإسنادها إليه ، والغيبة عن الواسطة بالقلب مع شكرها باللسان :

---

(١) القلم : ٤٥ .　(٢) الأنعام : ٤٤ .　(٣) آل عمران : ١٧٨ .

« مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ الله » . « أَشْكَرُكُمْ للنَّاس أَشْكَرُكُمْ لله » . فإذا قال له جزاك الله خيرًا فقد أدى شكرها .

والشكر بالعمل صرفها فى طاعة الله كما تقدم ، فإن لم يقم بهذا الواجب خيف عليه السلب والاستدراج وهو أقبح .

والحاصل : أن الشكر هو الأدب مع المنعم ، ومن جاءت على يديه ، فإن أساء الأدب أدب ، وقد يؤدب فى الباطن وهو لايشعر كما أشار إلى ذلك بقوله :

[من جهل المريد أن يسىء الأدب فتؤخر العقوبة عنه ، فيقول : لو كان هذا سوء أدب لقطع الأمداد وأوجب البعاد ، فقد يقطع المدد من حيث لايشعر ولو لم يكن إلا منع المزيد . وقد تقام مقام البعد وأنت لاتدرى ولو لم يكن إلا أن يخليك وما تريد] .

قلت : من الأمور المؤكدة على المريد الصادق أن يراعى الأدب مع الله فى كل شىء ، ويلتزم التعظيم لكل شىء . ويحفظ الحرمة فى كل شىء ، فإن أخل بشىء من هذه الأمور وأساء الأدب مع ربه فليبادر بالتوبة والاعتذار مع الذلة والانكسار ، فإن أخر التوبة إلى وقت آخر انقطعت عنه الأمداد ، واستوجب الطرد والبعاد ، وقد لايشعر بذلك فى الحين ، فيحتج لنفسه ويقول لو كان هذا سوء أدب لانقطع عنى المدد ، وهذا منه جهل قبيح يفضى إلى العطب إن لم تدركه العناية من رب الأرباب ، وإنما كان هذا جهلا من المريد لانتصاره لنفسه وقت سوء أدبه ، وعدم شعوره بنقصان قلبه ، إذ لو كان عالمًا بمخادع النفس لاتهمها وما انتصر لها ، ولو كان عارفًا بربه لشعر بنقصان قلبه ، فقد جمع بين جهالة وجهل ؛ فالجهالة هى سوء الأدب الذى صدر منه ، والجهل هو مخاصمته عن نفسه ، وإنكاره أن يكون ماصدر منه سوء أدب ، وما احتج به من كونه لم يحس بالعقوبة ولو كان ذلك سوء أدب لأحس بقطع الأمداد ولأوجب الطرد والبعاد لاينهض ، فقد يقطع عنه المدد وهو لايشعر . ومثال ذلك الأشجار التى على الماء ، فإذا قطع عنها الماء لايظهر أثر العطش عليها إلا بعد حين فإذا طال الأمر يبست شيئًا فشيئًا ، كذلك قلب المريد قد لايحس بقطع المدد فى القرب حتى يغرق فى الوهم ويحترق بالحس ، فإن كانت له سابقة خير تاب وأصلح

ماأفسد فيرجع إليه المدد ، وإن لم تكن له سابقة رجع إلى وطنه وأقام فى بعده ، نسأل الله السلامة من سلب نعمته بعد عطائه ؛ ولو لم يكن من العقوبة إلا منع المزيد من السير أو الترقى لكان كافيًا ، لأن من لم يكن فى زيادة فهو فى نقصان ، ومن كان يومه شرًّا من أمسه فهو الخسران ، وقوله فى الاحتجاج أيضًا : لو كان هذا سوء أدب لأوجب البعاد ، فقد يقام مقام البعد وهو يظن أنه فى محل القرب ، لأن مراتب القرب والبعد لانهاية لها ، ومامن مقام فى القرب إلا وما بعده أعظم منه حتى يكون ذلك القرب بالنسبة إلى مابعده بعدًا ، ولو لم يكن ذلك البعد إلا أن يتركك مع ماتريد لكان كافيًا فى الطرد والبعد ، إذ ترك العبد مع هواه وشهواته من علامة الإهمال ، وإخراج العبد عن هواه وماتركن إليه نفسه من علامة الاعتناء والإقبال ، فإذا اعتنى الله تعالى بعبد وأراد أن يوصله إلى حضرته شوش عليه كل ماتركن إليه نفسه وأزعجه طوعًا أو كرهًا حتى يؤيسه من هذا العالم ، ولم يبق له ركون إلى شىء منه ، فحينئذ يصطفيه لحضرته ويجتبيه لمحبته ، فليس له حينئذ عن نفسه أخبار ولامع غير الله قرار .

وأصل ذلك قضية سيدنا موسى عليه السلام لما علم الله تعالى محبته لعصاه وركونه إليها قال له الحق تعالى :

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى ؟ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى) أى حوائج أخر (قَالَ) له (أَلْقِهَا يَامُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى) فلما فر عنها وقطع يأسه منها (قَالَ) له (خُذْهَا وَلَا تَخَفْ)[1] .

لأنها لاتضرك حيث رجعت إليها بالله . ويقال للفقير وماتلك بيمينك أيها الفقير ؟ فيقول هى دنياى أعتمد عليها وأقضى بها مآربى فيقال له ألقها من يدك . فإذا هى حية تسعى كانت تلدغه وهو لايشعر ، فإذا أيس منها واستأنس بالله واطمأن به قيل له خذها ولا تخف لأنك تأخذها بالله لابنفسك ، والله تعالى أعلم .

---

(١) طه : ١٧ - ٢١ .

ومواطن الآداب التى بها يخل المريد فيعاقب عليها ثلاثة : آداب مع الله ورسوله ، وآداب مع الشيخ ، وآداب مع الإخوان .

الآداب مع الله

فأما الآداب مع الله باعتبار العوام ، فبامتثال أمره واجتناب نهيه ، ومع رسوله باتباع السنة ومجانبة أهل البدعة ، فإذا قصروا فى الأمر وخالفوا فى النهى عوقبوا عاجلا فى الحس أو آجلا فى المعنى والحس . وباعتبار الخواص مع الله بالإكثار من ذكره ومراقبة حضوره وإيثار محبته . زاد الشيخ : وحفظ الحدود ، والوفاء بالعهود ، والتعلق بالملك الودود ، والرضا بالموجود ، وبذل الطاقة والمجهود اهـ . ومع رسوله صلى الله عليه وسلم ، بإيثار محبته ، والاهتداء بهديه ، والتخلق بأخلاقه ، فإذا قصروا فى ذكره أو حالت قلوبهم فى غير حضرته ، أو مالت محبتهم إلى شىء سواه ، أو قصروا فى شىء مما تقدم أو حلوا عقدة عقدوها مع الله عوقبوا فى الحس بالضرب أو السجن أو الإذاية باللسان أو فى المعنى وهو أشد وكقطع المدد وإيجاب الطرد والإقامة مقام البعد ، وباعتبار خواص الخواص وهم الواصلون يكون مع الله بالتواضع معه فى كل شىء ، والتعظيم لكل شىء ، ودوام معرفته فى تجليات الجلال والجمال ، أو مع اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار . ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالتحقق بحسبه ، وتعظيم أمته ، وشهود نوره كما قال أبو العباس المرسى : لى ثلاثون سنة ماغاب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفة عين ، ولو غاب عنى ماعددت نفسى من المسلمين .

فإذا قصر العارف فيما تقدم فى حقه أو فى حق غيره من الآداب عوقب فى الحس أو فى المعنى ، والغالب تيقظه فى الحين فيستدرك ما فات .

(إِنَّ الذِينَ اتَّقَوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرِونَ)[1] .

---

(١) الأعراف : ٢٠١ .

فهذه جملة الآداب التى تكون مع الله من العوام والخواص وخواص الخواص . أو تقول : من الطالبين والسائرين والواصلين ، والله تعالى أعلم .

الآداب مع الشيخ

وأما الآداب التى تكون مع الشيخ ، فمرجعها إلى ثمانية أمور : أربعة ظاهرة وأربعة باطنة .

فأما الظاهرة ، فأولها : امتثال أمره وإن ظهر له خلافه ، واجتناب نهيه وإن كان فيه حتفه ، فخطأ الشيخ أحسن من صواب المريد .

وثانيها : السكينة والوقار فى الجلوس بين يديه ، فلا يضحك بين يديه ، ولا يرفع صوته عليه ، ولا يتكلم حتى يستدعيه للكلام أو يفهم عنه بقرائن الأحوال ، كحال المذاكرة بخفض صوت ورفق ولين ، ولا يأكل معه ولا بين يديه ، ولا ينام معه أو قريبًا منه . قال شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه فى كتابه : ومن آداب المريد مع الشيخ ، ألا يأكل معه ، ولا ينام معه ، ولا يضحك بين يديه ، ولا ينام فى فراشه ولا يجلس فى موضع جلوسه ، ولا يتكلم فى مجلس الشيخ ولو كلمة واحدة ، والكلام فيه سوء الأدب أكثر من كل شىء ، وكل ما يشبه هذه الأوصاف يؤدى لعدم التعظيم والازدراء بجانب الشيخ ، وذلك هو الخسران المبين ، والعياذ بالله من السلب بعد العطاء والطرد بعد الإقبال . قالوا اجعل عملك ملحًا وأدبك دقيقًا ، وقال الشاعر :

أَدَبُ الْعَبْـــدِ تَـذَلُّـــلٌ   وَالْعَبْـدُ لاَيَدَعَ الأَدَبْ
فَـــإِذَا تَكـامَـــلَ ذُلّـُهُ   نَـالَ الْمَوَدَّةَ وَاقْتَـرَبْ

وثالثها : المبادرة إلى خدمته بقدر الإمكان بنفسه أو بماله أو بقوله ، فخدمة الرجال سبب الوصال ، لمولى الموالى . وقال سيدى عبد الله الهبطى الزجلى رضى الله عنه فى منظومة له فى السلوك :

إِنَّ الْخَـــدِيمَ ظَنُّـــهُ جَمِيـــلُ   دلَّ عَـــلَى فَـلاَحِـــهِ دَلِيـــلُ

أَهَّلَ نَفْسَه لِخِدْمَةِ الرِّجال لِكَىْ يَنَالَ مِنْ حَبِيبِهِ الْوِصَالْ
ذلُّ المحِبِّ فِى طَلَبِ الْقُرْبِ عِزٌّ عَزِيزٌ عِنْدَ أَهْلِ الْحُبِّ
أَتَى بُيُوتَ الْقُرْبِ مِنْ أَبْوَابِهَا فَفُتِّحَتْ لَهُ إِذًا بِأَسْرِهَا
طُوبَى لَهُ بُشْرَى لَهُ اسْتَفَادْ وَنَالَ خَيْرَ قُرْبَةٍ وَسَادْ

ثم قال :

مَقَامَكَ أَعْرِفْ أَيُّهَا الْخَدِيمُ فَإِنَّهُ مُفَخَّمٌ عَظِيمُ
أَمْسَيْتَ لِلْمَخْدُومِ فِى جِوَارِهِ مُشَارِكًا كذاك فِى أَسْرَارِه
لَا تَغْتَبِطْ سِوَى مَقَامِك الرَّفِيعْ فَالخَيْرُ كُلُّهُ لَدَيْك جَمِيعْ

ورابعها : دوام حضور مجلسه ، فإن لم يكن فتكرير الوصول إليه ، إذ بقدر تكرير الوصول إليه يقرب الوصول ، فمدد الشيخ جار كالساقية أو القادوس ، فإذا غفل عن الساقية أو القادوس تخرم وانقطع الماء إلى غيره ، وأيضًا تكرير الوصول يدل على شدة المحبة وبقدر شدة المحبة تكون الشربة ، وفى هذا المعنى قال شيخ شيوخنا رضى الله عنه :

لَا مَحَبَّةَ إِلَّا بِأُصُولْ وَلَا وُصُولَ إِلَّا غَالِى
وَلَا شَرَابَ إِلَّا مَخْتُومْ وَلَا مَقَامَ إِلَّا عَالِى

وقال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رضى الله عنه فى كتابه : اعلم أنه لا يقرِّب طالب الوصول إلى الله تعالى شىء مثل جلوسه مع عارف بالله إن وجده ، ثم قال : الجلوس مع العارف بالله أفضل من العزلة ، والعزلة أفضل من الجلوس مع العوام الغافلين ، والجلوس مع العامى الغافل أفضل من الجلوس مع الفقير الجاهل ، كما أن العارف بالله يجمع بين المريد ومولاه بنظرة أو بكلمة ، كذلك الفقير الجاهل بالله ربما أتلف المريد عن مولاه بنظرة أو بكلمة فما فوقها ، ويرحم الله سيدى المجذوب حيث يقول : الجلسة مع غير الأخيار ، ترذل ولو تكون صافيًا ا هـ المراد منه .

وأما الآداب الباطنية .

فأولها : اعتقاد كماله ، وأنه أهل للشيخوخة والتربية ، لجمعه بين شريعة وحقيقة ، وبين جذب وسلوك ، وأنه قدم النبى صلى الله عليه وسلم .

وثانيها : تعظيمه ، وحفظ حرمته غائبًا وحاضرًا ، وتربية محبته فى قلبه ، وهو دليل صدقه ، وبقدر التصديق يكون التحقيق ، فمن لا صدق له لا سير له ولو بقى مع الشيخ ألف سنة ، ويرحم الله سيدى محمد الشرقى حيث قال : من لا صدق ما عند باش ينفق من لا حق ما جاب إيمار أيا بابا .

وثالثها : انعزاله عن عقله ورياسته وعلمه وعمله إلا مايرد عليه من قبل شيخه ، كما فعل شيخ طريقتنا الشاذلى رضى الله عنه عند ملاقاته بشيخه ، فهى سنة فى طريقه ، فكل من أتى شيخه فى هذه الطريقة الشاذلية فلابد أن يغتسل من علمه وعمله قبل أن يصل إلى شيخه ، لينال الشراب الصافى من بحر مدده الوافى .

ورابعها : عند الانتقال عنه إلى غيره ، وهذا عندهم من أقبح كل قبيح وأشنع كل شنيع ، وهو سبب تسويس بذرة الإرادة ، فتفسد شجرة الإرادة لفساد أصلها وهذا كله مع شيوخ التربية كما تقدم ، وأما شيوخ أهل الظاهر فلا بأس أن ينتقل عنهم إلى أهل الباطن إن وجدهم ، ولا يحتاج إلى إذن والله تعالى أعلم .

الآداب مع الإخوان

وأما الآداب مع الإخوان فأربعة :

أولها : حفظ حرمتهم غائبين أو حاضرين ، فلا يغتاب أحدًا ولا ينقص أحدًا ، فلا يقول أصحاب سيدى فلان كمال وأصحاب سيدى فلان نُقَّص ، أو فلان عارف أو فلان ليس بعارف ، أو فلان ضعيف وفلان قوى أو غير ذلك ، فهذه عين الغيبة ، وهى حرام بالإجماع لا سيما فى حق الأولياء ، فإن لحومهم سموم قاتلة كلحوم العلماء والصالحين . فليحذر المريد جهده من هذه الخصلة الذميمة ، وليفر ممن هذا طبعه فراره من الأسد ، فمن أولع بهذا

فلا يفلح أبدًا ، فالأولياء كالأنبياء فمن فرّق بينهم حُرِم خيرَهم وكفر نعمتهم . وقد قال بعض الصوفية : من كسره الفقراء لا يجبره الشيخ ، ومن كسره الشيخ فقد يجبره الفقراء ، وهو صحيح مجرب ، لأن إذاية ولى واحد ليس كإذاية أولياء كثيرة ، ومن كسره الشيخ يشفع فيه الإخوان فيجبر قلب الشيخ ، بخلاف قلوب الفقراء إذا تغيرت قل أن تتفق على الجبر والله تعالى أعلم .

وثانيها : نصيحتهم ، بتعليم جاهلهم ، وإرشاد ضالهم : وتقوية ضعيفهم ولو بالسفر إليه ، فإن فيهم أهل بدايات ونهايات والقوى والضعيف ، فكل واحد يذكره بما يليق بمقامه ، خاطبوا الناس بقدر ما يفهمون ، كما فى الحديث .

وثالثها : التواضع لهم ، والاستنصاف من نفسك معهم ، وخدمتهم بقدر الإمكان فخديم القوم سيدهم ، فمن عرض له شغل لا ينفعك عنه . فالواجب إعانته ليتفرغ منه إلى ذكر الله إن كان خفيفًا .

قال تعالى : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)[1] .

فكل مايشغل قلب الفقير فدفعه جهاد وبر .

ورابعها : شهود الصفا فيهم واعتقاد كمالهم ، فلا ينقص أحدًا ولو رأى منه ما يوجب النقص فى الظاهر ، فالمؤمن يلتمس المعاذير فليلتمس له سبعين عذرًا ، فإن لم يزل عنه موجب نقصه فليشهده فى نفسه .

فـ « الْمُؤمِنُ مِرْآةُ أَخِيهِ » .

ما كان فى الناظر يظهر فيه ، فأهل الصفا لا يشهدون إلا الصفا ، وأهل التخليط لا يشهدون إلا التخليط ، وأهل الكمال لا يشهدون إلا الكمال ، وأهل النقص لا يشهدون إلا النقص ، وتقدم فى الحديث عنه ﷺ :

« خَصْلَتَانِ لَيْسَ فوقَهُمَا شَيءٌ مِنَ الْخَيْرِ : حُسْنُ الظَنِّ بِالله ، وَحُسْنُ الظَّنِّ بِعِبَادِ اللهِ . وَخَصْلَتَانِ لَيْسَ فَوْقَهُمَا شَيْءٌ مِنَ الشَّرِّ : سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ وَسُوءُ الظَّنِّ بِعِبَادِ اللهِ » وبالله التوفيق .

---

(١) المائدة : ٢ .

فهذه من جملة الآداب التى يجب على الفقير مراعاتها والتحفظ عليها سواء كان طالبًا أو سائرًا أو واصلا ، وقد تقدمت فى أول الباب الأول ثمانية آداب ، بعضها فى حق العارف ، وبعضها فى حق السائر ، فليراجعها وليعمل بمقتضاها ، فإن الطريق كلها آداب حتى قال بعضهم : اجعل عملك مِلْحا وأدبك دقيقًا :

وقال أبو حفص رضى الله عنه : التصوف كله آداب ، لكل وقت آداب ، ولكل حال آداب ، ولكل مقام آداب ، فمن لزم الأدب بلغ مبلغ الرجال ، ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، مردود من حيث يظن القبول .

وقال بعضهم : الزم الأدب ظاهرًا وباطنًا ، فما أساء أحدٌ الأدب ظاهرًا إلا عوقب فى الظاهر ، وما أساء أحد الأدب باطنًا إلا عوقب فى الباطن : وقال فى المباحث الأصلية :

وَالأَدَبُ الظَّاهِرُ لِلْعِيَانِ دَلَالَةُ الْبَاطِنِ فى الإِنْسَانِ
وَهُوَ أَيْضاً لِلفقيرِ سَنَدُ وَلِلغنِىّ زِينَةٌ وَسُؤدَدُ
وَقِيلَ مَنْ يُحْرَمَ الأَدَبْ فَهُوَ بَعِيدٌ مَاتَدَانَى وَاقْتَرَبْ
وَقِيلَ مَنْ تَحْبِسهُ الأَنْسَابُ فَإِنَّمَا تُطْلِقُهُ الآدَابُ
فَالْقَوْمُ بِالآدَابِ حَقًّا سَادُوا مِنْهُ اسْتَفَاد الْقَوْمُ مَا اسْتَفَادُوا

وقال أبو حفص السراج رحمه الله : والناس فى الآداب على ثلاث طبقات : أهل الدنيا ، وأهل الدين ، وأهل الخصوصية مع أهل الدين .

فأما أهل الدنيا ، فأكثر آدابهم فى البلاغة ، وأخبار الملوك ، وأشعار العرب .

وأما أهل الدين ، فأكثر آدابهم حفظ العلوم ، ورياضة النفوس ، وتأديب الجوارح وتهذيب الطباع ، وحفظ الحدود ، وترك الشهوات ، واجتناب الشبهات ، والمسارعة إلى الخيرات .

وأما أهل الخصوصية من أهل الدين ، فآدابهم ، حفظ القلوب ومراعاة الأسرار واستواء السر والعلانية . فالمريدون يتفاضلون بالعلم ، والمتوسطون بالآداب ، والعارفون بالهمم اهـ .

ثم ما ذكره الشيخ من لزوم الجهل للمريد مقيد بما ذكره من احتجاجه لنفسه

ومدافعته عنها ، لأنه فى هذه الحالة صاحب جدل لتركيبه المقدمة والنتيجة ، وعليه يفهم قولهم : ما ألهم قوم الجدل إلا حرموا العمل .

وأما لو اعترف بإساءته وأنصف من نفسه لم يكن ذلك فى حقه جهلا ولا جهالة ، وقد قالوا : عدم الأدب إن كان يجر إلى الأدب فهو أدب ، والله تعالى أعلم .

ومن جملة الآداب ألا يستحقر مقامًا أقام الحق تعالى فيه عبدًا من عباده كائنًا ما كان كما أشار إليه بقوله :

[إذا رأيت عبدًا أقامه الله بوجود الأوراد ، وأدامه عليها مع طول الإمداد ، فلاتستحقرن ما منحه مولاه ، لأنك لم تر عليه سيما العارفين ، ولا بهجة المحبين فلولا وارد ما كان ورد] .

قلت : ما ذكره الشيخ هنا من مؤكدات هذا الباب كلها فى الآداب . وهو ألا يستحقر شيئًا من تجليات الحق على أى حال كانت ، فلا ينبغى أن ينازع مقتدر ، ولا أن يضاد قهار ، ولا أن يعترض على حكيم .

فإذا رأيت عبدًا أقامه الحق تعالى بوجود الأوراد ، ككثرة صلاة وصيام وذكر وتلاوة واجتهاد وأدامه عليها مع طول الإمداد بكسر الهمزة : أى استمراره معه ، وهو تقويته فى الباطن وصرف الشواغل والشواغب فى الظاهر لكنه لم يفتح عليه فى علم الأذواق وعمل القلوب ، فلا تستحقرن حاله وما منحه مولاه ، لأجل أنك لم تر عليه سيما العارفين من السكينة والطمأنينة وراحة الجوارح والقلب ، بسبب هبوب نسيم الرضا والتسليم على أرواحهم وقال الشيخ زروق : سيما العارفين ثلاث :

أولها : الإعراض عما سوى معروفهم بكل حال وعلى كل وجه .

الثانى : الإقبال عليه بترك الحظوظ وإقامة الحقوق .

الثالث : الرضا عنه فى مجارى أقداره اهـ . ولا تستحقر حاله أيضًا لأجل أنك لم تر عليه بهجة المحبين ،وهى الفرح بمحبوبه ، والإكثار من ذكره ، والقيام بشكره ، والاغتباط بمحبته ، والمسارعة إلى محابه وطلب مرضاته ، والخضوع لعظمته ، والتذلل لقهره وعزته :

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَى فَلَيْسَ الهوى سَهْلُ ... إِذَا رَضِيَ المَحْبُوبُ صَحَّ لَكَ الْوَصْلُ
تَذَلَّلْ لَهُ تَحظَى بِرُؤيَا جَمَالِهِ ... فَفِي وَجْهِ مَنْ تَهْوَى الفَرَائِضُ وَالنَّفْلُ

فكيف تستحقر من دامت خدمته واتصلت أوراده ؟ فلولا وجود الوارد الإلهى فى باطنه ما قدر على إدامة أوراده ، ولولا وارد ما كان ورد . فالوارد ما منه إليك والورد ما منك إليه .

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدًا)(١) ، (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا)(٢) ، (يحبهم ويحبونه)(٣) ، (ثم تاب عليهم ليتوبوا)(٤) . فالعناية سابقة ، والهداية لاحقة والأمر كله بيده . وفى التحقيق : ما ثم إلا سابقة التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : أكرم المؤمنين وإن كانوا عصاة فاسقين ، وأقم عليهم الحدود ، واهجرهم رحمة بهم لا تقذرًا لهم .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : فالمنتسب لجانب الحق يتعين إكرامه مراعاة لنسبته . ثم إن كان كاذبًا فالأمر بينه وبين من انتسب إليه ، فإن أمرنا بإقامة حقه عليه بحيث يتعين عليه كنا معه كعبد السيد يضرب ولد سيده بإذنه يؤدبه ولا يحتقره . ولأبى الحسن الحرانى رحمه الله :

اِرْحَمْ بُنَيَّ جَمِيعَ الخَلْقِ كُلَّهِمِ ... وَانْظُرْ إِلَيْهِمْ بِعَينِ اللُّطْفِ وَالشَّفَقَهْ
وَقِّرْ كَبِيرَهُم وَارْحَمْ صَغِيرَهُمُ ... وَرَاعِ فِى كلِّ خلْقٍ حَق مَنْ خَلَقَهْ

المخصوصون بالعناية

ثم إن الإقامة على دوام الأوراد وهى خدمة الجوارح من شأن أهل الخدمة وهم العباد والزهاد ، والانتقال منها إلى عمد القلوب من شأن أهل المحبة

---

(١) النور : ٢١ . (٢) النساء : ٨٣ . (٣) المائدة : ٥٤ (٤) التوبة : ١١٨ .

والمعرفة وهم العارفون ، وكلهم عباد الله ومن أهل عنايته ، فلا يستحقرهم إلا جاهل أو مطرود ، كما بين ذلك بقوله :

[قوم أقامهم الحق لخدمته ، وقوم اختصهم بمحبته . كلا نُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورًا][1] .

قلت : العباد المخصصون بالعناية على قسمين : قسم وجههم الحق لخدمته وأقامهم فيها . وهم أنواع : فمنهم من انقطع فى الفيافى والقفار لقيام الليل وصيام النهار ، وهم العباد والزهاد . ومنهم من وجهه الحق لإقامة الدين وحفظ شرائع المسلمين ، وهم العلماء والصلحاء . ومنهم من أقامه الحق لنصرة الدين وإعلاء كلماته ، وهم المجاهدون فى سبيل رب العالمين . ومنهم من أقامه الحق لتمهيد البلاد وتسكين العباد ، وهم الأمراء والسلاطين .

وقسم أقامهم الحق لمحبته واختصهم بمعرفته ، وهم العارفون الكاملون ، سلكوا سواء الطريق ، ووصلوا إلى عين التحقيق ، وبينهما فرق كبير ، لأن أهل الخدمة طالبون الأجور ، وأهل المحبة رفعت عنهم الستور ، أهل الخدمة يأخذون أجورهم وراء الباب ، وأهل المحبة فى مناجاة الأحباب ، أهل الخدمة مسدول بينهم وبينه الحجاب وأهل المحبة مرفوع بينهم وبينه الحجاب ، أهل الخدمة من أهل الدليل والبرهان ، وأهل المحبة من أهل الشهود والعيان ، أهل الخدمة لا تنفك عنهم الحظوظ . وأهل المحبة تنصب عليهم الحظوظ ، أهل الخدمة محبتهم مقسومة ، وأهل المحبة محبتهم مجموعة ، فلذلك دام أهل الخدمة فى خدمتهم ، ونفذ المحبون إلى شهود محبوبهم ، فلو تركوا الحظوظ وحصروا محبتهم فى محبوب واحد ، لنفذوا إلى محبوبهم ، وشهدوه ببصر إيقانهم واستراحوا من تعب خدمتهم ، ولكن حكمة الحكيم أقامتهم فى خدمتهم ، فوجب تعظيمهم فى الجملة ، ولا يلزم منه عدم تفضيل أهل المعرفة والمحبة عليهم . انظر كيف قال قال تعالى بعد ذلك :

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)[2] .

---

(١) الإسراء : ٢٠ . (٢) الإسراء : ٢١ .

فدل على تفضيل بعضهم على بعض ، لكن عبيد الملك كلهم معظمون فى الجملة ، ولا يحب الملك أن نحقر له عبدًا من عباده ، وإن كانوا متفاوتين عنده ، والله تعالى أعلم .

وقال أبو يزيد رضى الله عنه : اطلع الله على قلوب أوليائه ، فمنهم من لم يصلح لحمل المعرفة صرفًا فشغلهم بالعبادة .

وقال أبو العباس الدينورى رضى الله عنه : إن لله عبادًا لم يستصلحهم لمعرفته فشغلهم بخدمته وله عباد لم يستصلحهم لخدمته فأهلهم لمحبته .

وقال يحيى بن معاذ رضى الله عنه : الزاهد صيد الحق من الدنيا ، والعارف صيد الحق من الجنة اهـ .

يعنى أن الزاهد اصطاده الله من الدنيا فقبضه وأدخله الجنة ، والعارف اصطاده الحق من الجنة فأدخله الحضرة ، اصطاده من جنة الحس وجعله فى جنة المعنى وهى جنة المعارف . وقال شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه فى كتابه : سبحانه من هيأ أقوامًا لخدمته وأقامهم فيها ، وهيأ أقوامًا لمحبته وأقامهم فيها .

أهل الخدمة تجلى لهم الحق بصفة الجلال والهيبة فصاروا مستوحشين من الخلق ، قلوبهم شاخصة لما يرد عليها من حضرة الحق ، قد نحلت أجسادهم ، واصفرت ألوانهم وخمصت بطونهم ، وبالشوق ذابت أكبادهم ، وقطعوا الدياجى بالبكاء والنحيب ، واستبدلوا الدنيا بالمجاهدة فى الدين ، ورغبوا فى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

أهل المحبة تجلى لهم تعالى بصفة الجمال والمحبة وسكروا بخمر لذيذ القربة ، شغلهم المعبود عن أن يكونوا لا من العباد ولا من الزهاد ، اشتغلوا بالظاهر والباطن وهو الله ، فحجبوا عن كل ظاهر وباطن ، زهدوا فى التنعيم والإنعام ، واشتغلوا بمشاهدة الملك العلام ، اهـ كلامه رضى الله عنه ، هذا آخر الباب السابع .

وحاصلها : رفع الهمة ، وشكر النعمة ، وحسن الأدب فى الخدمة ، ونفوذ العزيمة بالانتقال من دوام الخدمة إلى المحبة والمعرفة .

الباب الثامن

الواردات لاتحتاج إلى استعداد

وإذا أراد الله أن يصطفى عبدًا لحمل معرفته وينقله من تعب خدمته ، قوّى عليه الواردات الإلهية فجذبته إلى الحضرة الربانية ، وهى مواهب لا مكاسب تنال بأعمال لا بحيل ، وقلّ أن تأتى إلا بغتة كما أشار إلى ذلك فى أول الباب الثامن فقال رضى الله عنه :

[قلَّ ما تأتى الواردات الإلهية إلا بغتة صيانة لها لئلا يدعيها العباد بوجود الاستعداد] .

قال القشيرى : الوارد هو ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة مما لا يكون للعبد فيه تحمل ، والواردات أعم من الخواطر ، لأن الخواطر تختص بنوع خطاب أو ماتضمن معناه . والواردات تكون وارد سرور ، ووارد حزن ، ووارد قبض ، ووارد بسط ، إلى غير ذلك من المعانى ، وهو قريب من الحال .

وسئل الشيخ عبد القادر الجيلانى نفعنا الله بذكره عن صفات الواردات الإلهية والطوارق الشيطانية ، فقال : الوارد الإلهى لا يأتى باستعداد ولا يذهب بسبب ولا يأتى على نمط واحد ولا فى وقت واحد ، والطوارق الشيطانية بخلاف ذلك غالبًا اهـ .

قلت : والمراد به هنا نوع خاص ، وهو نفحات إلهية يهب نسيمها على القلوب والأرواح والأسرار فتغيب القلوب فى حضرة علام الغيوب ، وتغيب الأرواح فى جبروت العزيز الجبار ، فتطيش فرحًا وسرورًا ، وترقص شوقًا وحبورًا :

إذا اهْتَزَّتِ الأَرْوَاحُ شَوْقًا إِلَى اللِّقَا ... تَرَقَّصَتِ الأَشْبَاحُ يَاجَاهِلَ الْمَعْنى

وقل ما تكون هذه الواردات الإلهية إلا بغتة ، لأنها لا تنال باكتساب ، وإنما

هى فتح من الكريم الوهاب ، ولو كانت تنال بجد واجتهاد لادّعاها العبّاد والزهّاد ، بوجوب التأهب والاستعداد ، فتصير حينئذ المكاسب ، والأحوال والواردات إنما هى مواهب :

(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ الْعَظِيمِ)(١) .

ونسخة الشيخ زروق العباد بالتخفيف جمع عبد وهى أعم .

قال : والحكمة فى إتيانها بغتة ثلاثة أمور : أحدها ليعرف منة الله فيها . الثانى لِيُقْدَرَ قَدرُها ويعظُم الفرح بها . الثالث الغيرة عليها وتعزيزها ، لأن ما كان من العزيز لا يكون إلا عزيزًا اهـ .

الواردات والخواطر

ثم إن هذه الواردات الإلهية والمواهب الاختصاصية أسرار من الحكيم الغفار لا يمنحها إلا لأهل الصيانة والأمانة ، لا لأهل الإفشاء والخيانة ، كما أشار إليه بقوله :

[من رأيته مجيبًا عن كل ما يسأل ، ومعبرًا عن كل ما شهد ، وذاكرًا لكل ما علم فاستدل بذلك على وجود جهله] .

قلت : أما وجه جهله فى كونه مجيبًا عن كل ما سئل فلما يقتضيه حاله من الإحاطة بالعلوم ، وقد قال تعالى :

(وَمَا أوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَليلاً)(٢) .

فأى جهل أعظم ممن يعارض كلام الله ولما فيه أيضًا من التكلف ، وقد قال تعالى : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا وَمَا أَنا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ)(٣) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أَنَا وَأَتْقِيَاءُ أُمَّتِي بُرَآءُ مِنَ التَّكَلُّفِ » .

ولا يخلو صاحب التكلف من التصنع والتزين ، وهو من شأن الجهل بالله ، إذ لو كان عالمًا به لاكتفى بعلمه وعرف قدره ، ففى بعض الأخبار .

---

(١) البقرة : ١٠٥ . (٢) الإسراء : ٨٥ . (٣) ص : ٨٦ .

« عَاشَ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ » .

وسئل بعضهم عن العلم النافع ، فقال : أن تعرف قدرك ، ولا تتعدى طورك .

وقال بعض المحققين : إذا قال العالم لا أدرى أصيبت مقاتله . وقال فى الإحياء : كان السلف الصالح يسأل أحدهم عن المسألة الواحدة فيدفع السائل إلى غيره ، ثم يدفعه الثانى إلى آخر ، ثم كذلك حتى يرجع إلى الأول . وكان بعضهم إذا سئل عن مسألة يقول للسائل اذهب بهاإلى القاضى فقلدها فى عنقه .

وقد سئل مالك رحمة الله عن اثنتين وثلاثين مسألة ، فأجاب عن ثلاث وقال فى الباقى لا أدرى فقال له السائل : وما نقول للناس ؟ فقال قل لهم قال مالك لا أدرى . وأيضًا إجابة كل سائل جهل وضرر ، إذ قد يكون السائل متعنتًا لا يستحق جوابًا ، وقد تكون المسألة التى سأل عنها لا تليق به لأنه لا يفهمها ولا يطيق معرفتها ، فتوقعه فى الحيرة أو الإنكار وقد قال عليه الصلاة والسلام :

« لَاتُؤْتُوا الْحِكْمَةَ غَيْرَ أَهْلِهَا فَتَظْلِمُوهَا وَلَا تَمْنَعُوهَا أَهْلَهَا فَتَظْلِمُوهُمْ » ، وفى ذلك يقول الشاعر :

سَأَكْتُمُ عِلْمِى عَنْ ذَوِى الْجَهْلِ طَاقَتِى ... وَلَا أَنْثُرُ الدُّرَّ النَّفِيسَ عَلَى الْبُهُمْ
فَإِنْ قَدَّرَ اللهُ الْكَرِيمُ بِلُطْفِهِ ... وَلَاقَيْتُ أَهْلًا لِلْعُلُومِ وَلِلْحِكَمْ
بَذَلْتُ عُلُومِى وَاسْتَفَدْتُ عُلُومَهُمْ ... وَإِلَّا فَمَخْزُونٌ لَدَىَّ وَمُكْتَتَمْ
فَمَنْ مَنَحَ الْجُهَّالَ عِلْماً أَضَاعَهُ ... وَمَنْ مَنَعَ الْمُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمْ

وقال على كرم الله وجهه : حدث الناس بقدر ما يفهمون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله . وقد قيل للجنيد رضى الله عنه : يسألك الرجلان فتجيب هذا بخلاف ما تجيب به هذا ؟ فقال : الجواب على قدر السائل : قال عليه الصلاة والسلام : « أُمِرْنَا أَنْ نُخَاطِبَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ » اهـ .

وقال رجل لبعض العلماء وقد سأله فلم يجبه : أما علمت أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ كَتَمَ عِلْماً نَافِعًا أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بلجامٍ مِنَ النارِ » .

فقال له العالم : اترك اللجام واذهب ، فإن جاء من يستحقه وكتمته فليلجمنى به اهـ . وأما وجه جهله فى كونه معبرًا عن كل ما شهد من الكرامات وما وصل إليه من المقامات وما ذاقه من الأنوار والأسرار ، فلأن هذه الأمور أذواق باطنية وأسرار ربانية لا يفهمها إلا أربابها ، فذكرها لمن لا يفهمها ولا يذوقها جهل بقدرها . وأيضًا هى أمانات وسر من أسرار الملك ، وسر الملك لا يحل إفشاؤه ، فمن أفشاه كان خائنًا ، واستحق الطرد والعقوبة ، ولا يصلح أن يكون أمينًا بعد ذلك . فكتم الأسرار من شأن الأخيار ، وهتك الأسرار من شأن الأشرار ، وقد قالوا : قلوب الأحرار قبور الأسرار . وقال الشاعر :

لَايَكتمُ السِّرَّ إلا كُلُّ ذِى ثِقَةٍ فالسِّرُّ عِنْدَ خِيَارِ الناس مَكْتُومُ

وفى إفشائها قلة عملها ونفعها فى الباطن ، ففائدة هذه الأحوال والواردات الإلهية هى محو الحس وإظهار المعنى أو محو الشك وتقوية اليقين ، فإذا أفشاها ضعف إعمالها وقلت نتيجتها ، والخير كله فى الكتمان . فى الحديث :
« اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِكُمْ بِكتمانِهَا » أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وينخرط فى سلك الأحوال التى يجب كتمانها خرق عوائد النفوس ، فمن خرق عادة فى نفسه فلا يفشى ذلك لغيره ، فإن فى ذلك دسيسة لها ، لأنها تحب أن تذكر بالقوة والنجدة فيكون كلما قتل منها أحياه فى ساعته . وفيه أيضًا نقص الإخلاص وإدخال الرياء ، وهو سبب الهلاك والعياذ بالله .

وأما وجه جهله فى كونه ذاكرًا لكل ما علم من الحقائق والعلوم والمعارف ، فلأنه جهل قدرها واستخف شأنها ، فلو كانت عنده رفيعة عزيزة ما أفشاها لغيره ، إذ صاحب الكنز لا يبوح به وإلا سلبه من ساعته ، وانظر قول شيخ شيوخنا المجذوب رضى الله عنه :

احْفُــرْ لِســِرِّكَ وَدُكُّــو فى الأَرْضِ سَبْعِينَ قَامَهْ
وَخَــلِّ الخَـلَائِقَ يَشْكُــوا إِلَى يَــوْمِ الـقِـيَــامَــه

وإذا كان الله تعالى يقول : (وَلَا تُؤتُوا السُّفَهَاء أَمْوَالكُمْ)[١] .

فكيف بالعلم الذى هو لؤلؤ مكنون . قال عليه الصلاة والسلام :
« إنَّ مِنَ الْعِلمِ كَهَيْئَةِ المكْنُونِ لَا يَعْرِفُه إلَّا الْعُلَماء بِالله ، فإذا أظهروه أنكره أهل العِزة بالله » اهـ .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : حفظت من رسول الله ﷺ جرابين من علم : أما أحدهما فبثثته فى الناس ، وأما الآخر فلو بثثته لقطع منى هذا البلعوم اهـ .

ولله در زين العابدين سيدنا على بن الحسين بن على كرم الله وجهه حيث يقول :

يَارُبَّ جَوْهَرِ عِلمٍ لَوْ أَبُوحُ بِهِ لقِيلَ لى أَنْتَ مِمَّنْ يَعْبُدُ الوثَنَا
وَلاسْتَحَلَّ رِجَالٌ مُسْلِمُون دَمِى يَرَوْنَ أَقْبَحَ مَا يأْتُونَهُ حَسَنَا
إنِّى لَأَكْتُمُ مِنْ عِلْمِى جَوَاهِرَهُ كَىْ لايَرَى الحقَّ ذُو جَهْلٍ فَيَفْتَتِنَا

وقال الروذبارى رحمه الله : علمنا هذا إشارة ، فإذا صار عبارة خفى . وقال الإمام الغزالى : قد تضر الحقائق بأقوام كما يتضرر الجُعَل بالورد والمسك .

قلت : قد يرخص للعارف الماهر إلقاء الحقائق مع من لا يعرفها ، بعبارة رقيقة ، وإشارة لطيفة ، وغزل رقيق بحيث لا يأخذ السامع منها شيئًا . فقد كان الجنيد رضى الله عنه يلقى الحقائق على رءوس الأشهاد ، فقيل له فى ذلك ، فقال : جانب العلم أحمى من أن يأخذه غير أهله ، أو علمنا محفوظ من أن يأخذه غير أهله ، والله تعالى أعلم .

ثم إن الإجابة عن كل ما سئل والتعبير عن كل ما شهد وذكر كل ما علم يوجب إقبال الخلق عليهم وتعظيمهم وإكرامهم فى هذه الدار ، لأن من ظهرت

(١) النساء : ٥ .

مزيته وجبت خدمته : ومن شأن العامة تعظيم صاحب الكرامة ، فيجنى ثمرة علمه وعمله فى هذه الدار الفانية ، وتفوته درجات الصديقين فى تلك الدار الباقية ، فأمره بكتمها ، ويقنع بعلم الله ويدخل الجزاء عليها ليوم لقاء الله ، وعلى ذلك نبه بقوله : إنما جعل الدار الآخرة محلا لجزاء عباده المؤمنين ، لأن هذه الدار لا تسع ما يريد أن يعطيهم ، ولأنه أجَلَّ أقدارهم عن أن يجازيهم فى دار لا بقاء لها .

قلت : لاشك أن الله تعالى وسم هذه الدار بدار الغرور ، وحكم عليها بالهلاك والثبور ، فهى دار دنية دانية ، زائلة فانية ، فلذلك سميت الدنيا إما لدنوها وإما لدناءتها ، فهى ضيقة الزمان والمكان ، ووسم الآخرة بدار القرار ، ومحل ظهور الأنوار ، وانكشاف الأسرار ، محل النظرة والحبور ، ودوام النعمة والسرور ، محل شهود الأحباب ودفع الحجاب ، نعيمها دائم ، ووجودها على الدوام قائم ، فلذلك جعلها الحق تعالى محلا لجزاء عباده المؤمنين ، ومقعد صدق للنبيين والصديقين ، ولم يرض سبحانه أن يجازيهم فى دار لا بقاء لها ضيقة الزمان والمكان ، ومحل الأكدار والغيار والذل والهوان ، لأنها ضيقة لا تسع ما يريد أن يعطيهم : أى لا يسع فيها ما يريد أن يكرمهم به تعالى زمانًا ولا مكانًا . لأن أدنى أهل الجنة يملك قدر الدنيا عشر مرات فكيف بأعلاهم ؟ قال تعالى :

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[1] .

وقال ﷺ : « يَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَعْدَدْتُ لِعِبَادى الصَّالِحِينَ مَالاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » .

ولأنه جل وعلا عظم أقدار عباده المؤمنين والمقربين أن يجازيهم فى دار لا بقاء لها ، فعمارتها خراب ، ووجودها سراب . ففى بعض الأخبار : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لاختار العاقل الذى يبقى على الذى لا يبقى اهـ لا سيما بالعكس . فالآخرة من ذهب يبقى ، والدنيا من خزف يفنى ؛ فلا يختارها إلا من حكم الله عليه بالشقاء والعناء .

(١) السجدة : ١٧ .

والخزف : بالخاء والزاى والفاء المحركات : الطين المصنوع للبناء وهو الآجر .

وفى حديث آخر : « أَلَا وَإِنَّ السَّعِيدَ مَنِ اخْتَارَ بَاقيةً يَدُومُ نَعِيمُهَا عَلَى فَانِيَةٍ لَايَنْفَكُّ عَذَابُهَا ، وَقَدَّمَ لِمَا يَقْدُمُ عَلَيْهِ مِمَّا هُوَ الآن فى يدِهِ قَبْلَ أَنْ يُخَلِّفَهُ لِمَنْ يَسْعدُ بِإِنْفَاقِهِ وَقَدْ شَقِىَ هُوَ بِجَمْعِهِ وَاحْتِكَارِهِ » اهـ .

وعن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« حَلُّوا أَنفسَكُمْ بِالطَّاعَةِ ، وألبِسُوهَا قِنَاعَ المَخَافَةِ ، وَاجْعَلُوا آخِرَتَكُمْ لأنْفُسِكم وَسَعْيَكُمْ لِمُسْتَقَرِّكُمْ : وَاعْلَمُوا أَنكُمْ عَنْ قَلِيلٍ رَاحِلُونَ ، وَإِلَى اللهِ سَائِرُونَ ، وَلَا يُغْنِى عَنْكُمْ هُنَالِكَ إِلَّا صَالِحُ عَمَلٍ قَدَّمْتُمُوهُ ، أَوْ حُسْنُ ثَوَابٍ جُزِيتُمُوهُ ، إِنَّكُمْ إِنَّمَا تَقْدمُونَ عَلَى مَاقَدَّمْتُمْ وَتُجَازَوْنَ عَلَى مَاأَسْلَفْتُمْ فَلَا تَخْدَعَنَّكُمْ زَخَارِفُ دُنْيَا دَنِيَّةٍ عَنْ مَرَاتِبِ جَنَّاتٍ عَالِيَةٍ ، فَكَأَنْ قَدْ كُشِفَ الْقِنَاعُ وَارْتَفَعَ الارْتِيَابُ ، وَلَاقَى كُلُّ امْرِئٍ مُسْتَقَرَّهُ وَعَرَفَ مَثْوَاهُ وَمُنْقَلَبَهُ » اهـ .

دليل قبول الأعمال

ثم إن الجزاء فى تلك الدار إنما يكون على العمل فى هذه الدار بشرط كونه مقبولا وقبوله مغيب ، لكن له علامات يعرف بها هنا أشار إليها بقوله :

[من وجد ثمرة عمله عاجلا فهو دليل على وجود القبول آجلا].

قلت : ثمرة العمل هى لذيذ الطاعة ، وحلاوة المناجاة ، وأنس القلب بالمراقبة ، وفرح الروح بالمشاهدة ، والسر بالمكالمة .

(قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ)(١) .

---

(١) البقرة : ٦٠ .

ودليل وجود هذه الثمرة النشاط فى النهوض إليها والاغتباط بها والمداومة عليها وزيادة المدد فيها ، وهى علامة حلول الهداية فى القلب . قال تعالى :

(وَيَزِيدُ اللهُ الذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى)[1] وللبوصيرى فى همزيته :

وَإِذَا حَلَّتِ الْهِدايَةُ قَلْبًا نشِطت للعِبادَةِ الأَعْضَاء

فمن رأيناه فى زيادة الأعمال ، والترقى فى الأحوال ، علمنا أنه وجد لعمله ثمرة ، فهى بشارة له على قبولها ، ومن رأيناه انقطع عن عمله أو نقص من أحواله ، خفنا عليه عدم قبول أعماله . ومن ثمرة العمل أيضًا الاستيحاش من الخلق ، والأنس بالملك الحق . ومن ثمرة العمل أيضًا الاكتفاء بعلم الله والاستغناء به عما سواه : زاد الشيخ زروق رضى الله عنه : الحياة الطيبة ونفوذ الكلمة وانتفاء الحزن للفرح بالمنة اهـ .

فدليل الأول قوله تعالى : (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)[2] .

قيل هى القناعة ، وقيل هى الرضا والتسليم . والتحقيق أنها المعرفة .

ودليل الثانى وهو نفوذ الكلمة قوله تعالى :

(وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الأَرْض)[3] فنفوذ الكلمة هى الخلافة : وقال أيضا : (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُون بِأَمْرِنَا)[4] .

وأما الثالث وهو انتفاء الحزن ، فدليله فى نفسه ، لأن حلاوة العمل تنسى الحزن والغم ، لأنها شبيهة بنعم الجنة ، قال تعالى فى شأن أهل الجنة :

(وَقَالُوا الحَمْدُ لله الذى أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ)[5] والله تعالى أعلم .

وسيأتى التحذير من الوقوف مع حلاوة الطاعة وأنها سموم قاتلة .

---

(١) مريم : ٧٦ .
(٢) النحل : ٩٧ .
(٣) النور : ٥٥ .
(٤) الأنبياء : ٧٣ .
(٥) فاطر : ٣٤ .

كيف تعرف قَدْرَك

ولما ذكر ميزان مقادير الأعمال ذكر ميزان مقادير الرجال . أو تقول : لما ذكر ميزان العمل المقبول من المردود ذكر ميزان العامل المحبوب من المطرود ، فقال :

[إن أردت أن تعرف قدرك عنده فانظر فى ماذا يقيمك ؟] .

قلت : جعل الله تعالى بحكمته خلقه على قسمين : أشقياء وسعداء ، وجعل السعداء قسمين : أهل قرب وأهل بعد . أو تقول : أهل يمين ومقربين وهم السابقون ، فإن أردت أن تعرف نفسك هل أنت من أهل الشقاوة أو من أهل السعادة فانظر فى قلبك ، فإن كنت تصدق بوجود ربك وتوحده فى ملكه وتنقاد لمن عرفك به وهو رسوله عليه الصلاة والسلام ، فأنت ممن سبقت له الحسنى ، وإن كنت تنكر أو تشك فى ربك أو تشرك به غيره فى اعتقادك ، أو لم تذعن لمن عرفك به فأنت من أهل الشقاء ، ثم إن وجدت نفسك من أهل السعادة وأردت أن تعرف هل أنت من أهل القرب أو من أهل البعد فانظر ، فإن كنت ممن يستدل بأثره عليه فأنت من أهل البعد من أصحاب اليمين ، وإن كنت ممن يستدل به على غيره فأنت من أهل القرب من المقربين . ثم إن عرفت أنك من أهل اليمين وأردت أن تعرف قدرك عنده ، هل أنت من المكرمين أو من المهانين فانظر ، فإن كنت تمتثل أمره وتجتنب نهيه ، وتسارع فى مرضاته وتتحبب إلى أوليائه وأحبائه فأنت من المكرمين المعظمين ، وإن كنت تتهاون فى أمره وتتساهل فى نواهيه وتتكاسل عن طاعته وتهتك حرماته ، وتعادى أولياءه فأنت والله عنده من المهانين المحرومين المطرودين إلا إن تداركتك عناية من رب العالمين ، وإن تحققت أنك من أهل القرب وأنك بلغت مقام الشهود تستدل به على غيره فلا ترى سواه ، فإن كنت تقر بالواسطة وتثبت الحكمة وتعطى كل ذى حق حقه فأنت من المقربين الكاملين ، وإن كنت تنكر الحكمة وتغيب عن الواسطة ، فإن كنت مجذوبًا مغلوبًا فأنت فى هذا المحل ناقص ، وإن كنت صاحيًا فأنت ساقط إلا أن يأخذ بيدك شيخ واصل أو عارف كامل .

وهنا ميزان آخر تعرف به نفسك فى القرب والبعد ، فإن وجدت شيخًا مربيًا كشف الله لك عن أنواره وأطلعك على خصائص أسراره فأنت قطعًا من أهل القرب بالفعل أو بالإمكان لقول الشيخ رضى الله عنه : سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه . وإن لم تجد شيخًا مربيًا وغرك قول من قال إنه انقطع وجوده فأنت قطعًا من أهل اليمين من عوام المسلمين ، هذا الغالب والنادر لا حكم له ، والله تعالى أعلم .

وفى الحديث عنه ﷺ :

« يَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَنَا الله لَا إله إِلَّا أَنَا ، خَلَقْتُ الخَيرَ وَالشَّرَّ ، فَطُوبَى لِمَنْ خَلَقْتُهُ لِلْخَيرِ وَأَجْرَيْتُ الْخَيْرَ عَلَى يَدِهِ ، وَوَيْلٌ لِمَنْ خَلَقْتُهُ للشَّرِّ وَأَجْرَيْتُ الشَّرَّ عَلَى يَدِهِ » .

وفى حديث آخر : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ مَالَهُ عِنْدَ اللهِ فَلْيَنظُرْ مالله عِنْدَهُ » .

وفى رواية : « مَنْ أَرادَ أن يَعْلَمَ مَنْزِلَتَهُ عِنْد اللهِ فلينْظُرْ كيف مَنْزِلَةُ الله تَعالَى مِنْ قَلْبه ، فَإِنَّ الله تَعالَى يُنْزِلُ الْعبْدَ حَيْثُ أَنْزَلَهُ العَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ » قالَ الله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)[1] الآية ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر ميزانًا آخر تعرف به المقربين والأغنياء الشاكرين فقال :

[متى رزقك الطاعة والغنى به عنها فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة] .

قلت : الطاعة فى الظاهر هى رسوم الشريعة ، والغنى به فى الباطن هو شواهد الحقيقة ، فإذا جمع لك بين الطاعة فى جوارحك والغنى به عنها فى باطنك فقد أسبغ عليك : أى أكمل وأطال عليك نعمه ظاهرة وباطنة ، وهذه سيما

---

(١) الليل : ٥ - ٧ .

العارفين المقربين الأغنياء بالله الفقراء مما سواه ، استغنوا بمعبودهم عن رؤية عبادتهم ، وبمعلومهم عن علمهم ، وبمصلحهم عن صلاحهم .

قال الشيخ أبو الحسن فى حزبه الكبير : « نسألك الفقر مما سواك ، والغنى بك حتى لا نشهد إلا إياك » ، فهؤلاء الأغنياء بالله الغائبون فيه عما سواه ، عبادتهم بالله ولله ومن الله ، قياماً بشكر النعمة ، وإتماماً لوظائف الحكمة . وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

« أَحَبُّ الْعبادِ إلى اللهِ الأغْنياء الأخْفِيَاءُ الأتْقِيَاءُ » أو كما قال عليه الصلاة والسلام . وفى حديث آخر :

« لَيْسَ الْغِنَى بِكَثْرَةِ ٱلْعَرَضِ ، إِنَّمَا ٱلْغِنَى غنَى النَّفْسِ » اهـ .

وهو الغنى بالله وهذه النعمة الحقيقية .

فالنعم الظاهرة هى تزيين الجوارح بالشريعة ، والنعم الباطنة هى إشراق الأسرار بالحقيقة . وقيل النعم الظاهرة هى الكفاية والعافية ، والنعم الباطنة هى الهداية والمعرفة ، وقيل النعم الظاهرة راحة البدن من مخالفة أمره ،والباطنة سلامته من منازعة حكمه .

وحقيقة النعمة من حيث هى ما لا يوجب ألماً ولا يعقب ندماً ، وقيل النعمة العظمى الخروج من رؤية النفس ، وقيل النعمة ما وصلك بالحقائق ، وطهرك من العلائق ، وقطعك عن الخلائق ، وبالله التوفيق : هذا آخر الباب الثامن .

وحاصلها : تحقيق الآداب مع الواردات الإلهية ، لأنها مواهب اختصاصية ، فمن أراد مد أنوارها فعليه بكتمان أسرارها وليؤخر جزاء ثوابها لدار يدوم بقاؤها ، فحينئذ يتحقق إخلاصه ، ويظهر اختصاصه ، فيذوق حلاوة الطاعة والإيمان ، ويعظم قدره عند الملك الديان ، فيغيبه به عما سواه ، ويسبغ عليه منته ، ومهما أغناك به استغنيت به عن طلبه .

الباب التاسع

خير ما يطلب من الله

وإن كان ولابد من الطلب فاطلب منه ما هو طالبه منك كما أشار إليه فى أول الباب التاسع فقال رضى الله عنه :

[خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك] .

قلت : والذى طالبه منا هى الاستقامة ظاهرًا وباطنًا ، ومرجعها إلى تحقيق العبودية فى الظاهر ، وكمال المعرفة فى الباطن .

أو تقول : الذى هو طالبه منا إصلاح الجوارح الظاهرة بالشريعة قيامًا برسم الحكمة وإصلاح القلوب والأسرار الباطنة بالحقيقة قيامًا بوظائف القدرة .

أو تقول : الذى طلبه منا امتثال أمره ، واجتناب نهيه والإكثار من ذكره ، والاستسلام لقهره ، فالأكمل فى حق العارف أن يستغنى بعلم الله ويكتفى بسؤال الحال عن طلب المقال ، فإن تجلى فيه وارد الطلب فخير ما يطلبه من سيده ما هو طالبه منه وهو ما تقدم ذكره .

ففى بعض الأحاديث : « إنَّ الله لاَيَسْأَلُ الْخَلْقَ عَنْ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَلَا عَنْ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ، وَلكن عَنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ » .

قلت : لأن الأمر والنهى فى كسبه ومكلف به ، ومعرفة الذات والصفات والرضا والتسليم إنما هى مواهب جزاء الأعمال ، ونتائج الامتثال ، فإذا فعل ما أمره به سيده رزقه المعرفة به المعرفة العامة وهى معرفة الدليل ، فإذا اشتد عطشه قيض له من يأخذ بيده حتى يعرّفه به المعرفة الخاصة .

وقال بعضهم : إذا عرضت لك حاجة فأنزلها بالله ، يعنى من غير طلب ما لم يكن لك فيها حظ فتحجب عن الله اهـ قال تعالى :

(ولا تتَمَنَّوْا مَافَضَّلَ الله بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعض لِلرِّجالِ نَصيب مِمَّا

اكْتَسَبُوا وَلِلنسَاءِ نَصيبٌ مِما اكْتَسَبْنَ وَاسأَلُوا الله مِنْ فَضْلِهِ)[١] وفضله هو الغنى به .

ومن دعاء الجنيد رضى الله عنه : اللهم وكل سؤال فعن أمرك لى بالسؤال ، فاجعل سؤالى لك سؤال محابك ، ولا تجعلنى ممن يتعمد بسؤاله مواضع الحظوظ ، بل يسأل القيام بواجب حقك .

ثم إذا طلبت منه فاطلب منه ما طلبه منك وهو الطاعة والاستقامة ولم تساعفك الأقدار ومنعت منها قبل أن تسأل ، فإن لم تنهض إليها بقلبك وتأسفت عليها بنفسك فذلك علامة الاغترار ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إليها من علامات الاغترار].

قلت : الحزن هو التحسر على شىء ، فإن لم تحصله وندمت على عدم تحصيله ، أو التوجع على شىء منعت منه ولم تقدر على تحصيله ، فإن كان حزنك على شىء منعت منه ونهضت إلى أسبابه الموصلة إليه فهو حزن الصادقين .

وفيه قال أبو على الدقاق : يقطع صاحب الحزن فى شهر ما لا يقطعه غيره فى سنين ، وإن لم تنهض إلى أسبابه فهو حزن الكاذبين ، وإن كان على ما فات ونهضت إلى استدراك ما يمكن استدراكه فهو حزن الصادقين ، وإن لم تنهض إلى استدراكه فهو حزن الكاذبين وقد سمعْتْ رابعة العدوية رجلا يقول واحزناه ، فقالت له : قل واقلة حزناه فلو كان حزنك صادقًا لم يتهيأ لك أن تتنفس اهـ .

وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه : ليس البكاء بتعصير العيون ، وإنما البكاء أن تترك الأمر الذى تبكى عليه . وقيل : لا يغرنك بكاء الرجل ، فإن إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون وقد فعلوا ما فعلوا اهـ . فالحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إلى استدراك ما فات منها أو تحصيل ما حضر منها من علامة الاغترار : أى الغرور وهو الركون إلى ما لا حقيقة له ، فالاغترار قبول الغارّ والانقياد إلى غروره وخدعه .

---

(١) سورة النساء : ٣٢ .

فالحزن ينقسم إلى ثلاثة أقسام : حزن الكاذبين ، والصادقين ، والصديقين السائرين . فحزن الكاذبين : هو ما تقدم من عدم النهوض والاستدراك لما فات . وحزن الصادقين هو الحزن المصحوب بالجد والاجتهاد ، والتوسط فى العمل والاقتصاد مع اغتنام ما بقى من الأوقات لاستدراك ما فات . وحزن الصِّدّيقين من السائرين : هو الحزن على فوات الأوقات ، أو حصول شىء من الغفلات ، أو وقوع ميل أو ركون إلى الحظوظ والشهوات إلا أن حزنهم لا يدوم ، إذ لا يقفون مع شىء ولا يقبضهم شىء . وأما الواصلون فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، قال تعالى :

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[1] .

إذ الحزن إنما يكون على فقد شىء أو فوات غرض ، وماذا فقد من وجد الله : (وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الذى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ) .

وفى هذا المقام ينقطع البكاء ، إذ لا بكاء فى الجنة .

وقد رأى الصديق قومًا يقرءون ويبكون ، فقال : كذلك كنا ثم قست القلوب ، فعبر بالقسوة عن التمكين أدبًا وتسترًا ، لأن القلب فى بدايته رطب يتأثر بالمواعظ وتحركه الأحوال ، فإذا استمر معها وتصلب لم يتأثر بشىء ويكون كالجبل الراسى .

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ)[2] .

تنبيه : قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : من لم تطاوعه نفسه على النهوض إلى الطاعات ، وأخلدت إلى أرض الشهوات فدواؤه فى حرفين : الأول أن يعلم منة الله عليه بالهداية للإسلام ومحبة الإيمان ، فيشكر الله عليها ليحصن بقاءها عنده . الثانى دوام تضرعه وابتهاله فى مظان الإجابة قائلا يارب سلم سلم ، وإن أهمل هذين الأمرين فالشقاوة لازمة له اهـ بالمعنى وبالله التوفيق .

---

(١) يونس : ٦٢ .　　(٢) النمل : ٨٨ .

الإشارات

ثم إذا أعطاك ما طلبت من كمال الاستقامة ونهضت إليه نادمًا على ما فاتك من الطاعة كانت نهايتك الوصول إلى الحبيب ، ومناجاة القريب ، هناك تكلّ الألسن عن العبارة وتنقطع الإشارة كما أبان ذلك بقوله :

[ما العارف ؟ من إذا أشار وجد الحق أقرب إليه من إشارته ، بل العارف من لا إشارة له لفنائه فى وجوده وانطوائه فى شهوده] .

قلت : الإشارة أرق وأدق من العبارة . والرمز أدق من الإشارة .

فالأمور ثلاثة : عبارات وإشارات ورموز ، وكل واحدة أدق مما قبلها .

فالعبارة توضح ، والإشارة تلوح ، والرمز يفرح : أى يفرح القلوب بإقبال المحبوب وقالوا : علمنا كله إشارة ، فإذا صار عبارة خفى : أى خفى سره ، فإذا صار عبارة بإفصاح اللسان لم يظهر سره على الجنان ، فإشارة الصوفية هى تغزلاتهم وتلويحاتهم بالمحبوب ، كذكر سلمى وليلى وذكر الخمرة والكؤوس والنديم وغير ذلك مما هو مذكور فى أشعارهم وتغزلاتهم ، وكذكر الأقمار والنجوم والشموس والبدور واللوائح والطوالع ، وكذكر البحار والإغراق وغير ذلك مما هو مذكور فى اصطلاحاتهم .

وأما الرموز : فهى إيماء وأسرار بين المحبوب وحبيبه لا يفهمها غيرهم ، ومنها فى القرآن فواتح السور ، ومنها فى الحديث كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر :

« أُرِيدُ أَنْ أَدْعُوَكَ لِأَمْرٍ ، قَالَ : وَمَاهُوَ يَارَسُولَ الله ؟ قال : هُوَ ذَاكَ » . فرمز لأمر بينهما لا يعرفه غيرهما .

وقال له أيضًا : « يَاأَبَا بَكْرٍ أَتَعْلَمُ يَوْمَ يَوْمَ » بتكرير لفظ يوم « قَالَ نَعَمْ يَارَسُولَ الله سَأَلْتنِي عَنْ يَوْمِ المَقَادِيرِ » فهذه رموز بين الصديق وحبيبه .

قال الشيخ زروق رضي الله عنه فى شرح الحزب الكبير : وقد حارت العقول

فى رموز الحكماء فكيف بالعلماء ؟ فكيف بالأنبياء ؟ فكيف بالمرسلين ؟ فكيف يطمع فى حقائق رب العالمين اهـ .

وأما الإشارات : فيدركها أربابها من أهل الفن ، والناس فى إدراكها وعدمه على أقسام : فمنهم من لا يفهم منها شيئًا ولا يعرف إلا ظاهر العبارة ، وهم الجهال من عموم الناس . ومنهم من يفهم المقصود ويجد الحق بعد الإشارة : أى بعد سماع الإشارة ، وهم أهل البداية من السائرين . ومنهم من يفهم الإشارة ويجد المشار إليه وهو الحق أقرب إليه من إشارته ، وهم أهل الفناء فى الذات قبل التمكين : ولهذا تجدهم يتواجدون عند السماع ويتحركون وتطيب أوقاتهم وتهيم أرواحهم أكثر مما يتواجدون عند الذكر ، لأن الإشارة تهيج أكثر من العبارة ، خلاف المتمكنين قد رسخت أقدامهم واطمأنت قلوبهم وتحقق وصولهم ، فاستغنوا عن الإشارة والمشير . ولذلك قيل للجنيد : مالك كنت تتحرك عند السماع وتتواجد واليوم لا نراك تتحرك بشىء ؟ قال : وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب اهـ . وهذا هو العارف الذى لا إشارة له لفنائه فى وجود الحق وانطوائه فى مشهوده .

أو تقول : لتحقق وصوله وتمكنه فى شهوده ، فصار المشير عين المشار إليه لفناء وجوده فى وجود محبوبه ، وانطواء ذاته فى ذات مشهوده .

أو نقول : لزوال وهمه وثبوت علمه ، فتحققت الوحدة وامتحقت الغيرة :

رَقَّ الزُّجاجُ وَرَاقَتِ الخَمْرُ ... فَتَشَابَهَا وَتَشَاكَلَ الأَمْرُ
فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلاَ قَدَحُ ... وَكَأَنَّمَا قَدَحٌ وَلَا خَمْرُ

فالأقداح أشباح ، والخمور أرواح . أو تقول : لذهاب حسه وانطماس رسمه ، فانكسرت الأوانى وسطعت المعانى :

وَطَاحَ مُقَامِى فِى الرَّوَاسِمِ كُلِّهَا
فَلَسْتُ أَرَى فِى الْوَقْتِ قُرْبًا وَلَا بُعْدا

فَنِيتُ بِـهِ عَنِّى فَبَـانَ بِـهِ عَيْبِى
فَهَذا ظُهُورُ الْحَق عِنْدَ الفَنَا قَصْدَا

أَحَاطَ بِنَا التَّعْظِيمُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
وَعادَتْ صِفَاتُ الْحَقِّ مِمَّا يَلِى الْعَبْدَا

قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : إن لله عبادًا محق أفعالهم بأفعاله وأوصافهم بأوصافه وذاتهم بذاته ، وحملهم من أسراره ما تعجز عنه الأولياء .

وقال القطب الشيخ ابن مشيش رضى الله عنه ونفعنا ببركاته : وشراب المحبة مزج الأوصاف بالأوصاف ، والأخلاق بالإخلاق ، والأنوار بالأنوار ، والأسماء بالأسماء ، والنعوت بالنعوت ، والأفعال بالأفعال اهـ . وأطلق المزج على التبديل مناسبة للشراب .

وقال إمام الطريقة أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه فى وصف العارف : عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرقت قلبه أنوار هدايته ، وصفا شرابه من كأس وده ، تجلى له الجبار عن أستار غيبه ، فإن تكلم فبالله ، وإن سكت فمن الله ، وإن تحرك فإذن الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو بالله ولله ومع الله ومن الله وإلى الله اهـ .

فهذه صفات العارف الحقيقى الراسخ المتمكن ، قد كلّ لسانه عن التعبير ، واستغنى عن الإشارة والمشير ، فإذا صدرت منه إشارة أو تعبير ، فإنما ذلك لفيضان وجد أو هداية فقير .

وقد صدرت إشارات من المتمكنين فتحمل على هذا القصد كقول الشيخ أبى العباس رضى الله عنه :

أَعِنْـدَكَ عَنْ لَيْـلَى حَـدِيثٌ مُحـرَّرُ
بِـإيـرَادِهِ يُحْيِى الـرَّمِيمَ وَيَنْشُـرُ ؟

فَعَهْـدِى بِهَا العهْـدُ القَـدِيمُ وَإِنَّنِى
على كُلِّ حالٍ فِى هَوَاهَـا مُقَصِّرُ

وَقَدْ كانَ هذا اللطيفُ قِدْمًا يَزُورُنِى
وَلَمَّا يَـزُرْ مَـا بـالُـهُ يَتَعَـذَّرُ ؟
وَهَـلْ بَخِلَتْ حتى بِطَيْفِ خَيَـالِهـاَ
أَمِ اعْتلَّ حَتَّى لاَ يَصِحَّ التَّصَوُّرُ ؟
وَمِن وجْهِ لَيْلَى طَلْعَةُ الشَّمْسِ تَستضِى
وَفِى الشَّمْسِ أَبْصَارُ الْوَرَى تَتَحَيَّرُ
وماَ احْتَجَبَتْ إلاَّ برفْـعِ حِجَابِهَـا
وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ الـظُّهورَ تَسَـتُّر !

هكذا وجدت بخط الشيخ ، وكان كثيرًا ما يتمثل بها ، قاله المصنف فى لطائف المنن فقول الشيخ ما العارف إلخ : أى ليس العارف الكامل وهو الراسخ المتمكن . وأما السائر فيحتاج إلى الإشارة ويجد الحق أقرب إليه من الإشارة أو معها وهى إعانة له وقوته كالعبارة للمتوجهين ، وسيأتى : العبارة قوتٌ لعائلة المستمعين ، وليس لك إلا ما أنت له آكل ، وقوله من إذا أشار : أى أشير له ، وقوله بل العارف من لا إشارة له : أى لا يحتاج إليها فى نفسه ، وقد يشير لأجل غيره كما تقدم ، وإنما استغنى عن الإشارة ، لأن الإشارة والعبارة قوت الجائع وهو قد شبع واستغنى .

أو تقول : لأن الإشارة تقتضى البينونة والفرق ، وهو مجموع فى فرقه ، ولذلك قال الشيخ أبو يزيد رضى الله عنه ، أبعدهم من الله أكثرهم إشارة إليه .

وقال ابن العريف فى محاسنه : الإشارة نداء على رأس البعد وبوح بعين العلة اهـ . أى تصريح بعين علته وهى بعده .

وقال الروزبارى ، الإشارة الإبانة عما يتضمنه الوجد من المشار إليه ، وفى الحقيقة الإشارة يصحبها العلل ، والعلل بعيدة من الحقائق .

وقال الشبلى رضى الله عنه : كل إشارة أشار بها والبينونة بدليل قوله حتى

يشيروا إلى الحق بالحق ، وإنما نفى الطريق إلى ذلك الاستغناء الحق عن الإشارة والمشير ، والله تعالى أعلم ، ويحتمل أن يريد بالإشارة إشارة القلب أو الفكرة إلى الوجود ، فإن القلب إذا أشار إلى الكون بأسره فنى وتلاشى ووجد الحق أقرب إليه من إشارته لكونه كان فانيًا قبل إشارته وهذا حال السائرين .

وأما الواصل فلا يحتاج إلى إشارة لكونه قد تحقق فناؤه وانطوى وجوده فى وجود محبوبه ، فلم يحتج إلى إشارة لتمكن حاله وتحقق مقامه ، والله تعالى أعلم .

وسئل أبو سعيد بن الأعرابى عن الفناء ، فقال : هو أن تبدو العظمة والإجلال على العبد ، فتنسيه الدنيا والآخرة والأحوال والدرجات والمقامات ، والأذكار تفنيه عن كل شىء وعن عقله وعن نفسه وفنائه عن الأشياء وعن فنائه عن الفناء لأنه يغرق فى التعظيم اهـ .

الرجاء

ولما كان المطلوب من العبد القيام بوظائف العبودية ومعرفة عظمة الربوبية تشوقت القلوب إلى نيلها وطمعوا فى إدراكها ورجوا بلوغ آمالهم فيها ، فبين الشيخ علامة الرجاء الصادق من الكاذب فقال :

[الرجاء ما قارنه عمل وإلا فهو أمنية] .

قال بعض العلماء : الرجاء تعلق القلب بمطموع يحصل فى المستقبل مع الأخذ فى العمل المحصل له . وأقرب منه طمع يصحبه عمل فى سبب المطموع فيه لأجل تحصيله اهـ .

الأمنية : اشتهاء وتمن لا يصحبه عمل ، فإن كان من الحكم والجزم فهو تدبير وهو أتم قبحًا قاله الشيخ زروق .

قلت : فمن رجا أن يدرك النعيم الحسى كالقصور والحور فعليه بالجد والطاعة والمسارعة إلى النوافل والخيرات وإلا كان رجاؤه حمقًا وغرورًا .

وقد قال معروف الكرخى رضى الله عنه : طلب الجنة بلا عمل ذنب من

الذنوب ، وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور ، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق .

وقيل من زعم أن الرجاء مع الإصرار صحيح ، فكذلك فليزعم أن الربح مع الفقر ، ووقد النار من البحر صحيح ، ومن كان رجاؤه تحقيق العلوم ، وفتح مخازن الفهوم ، فعليه بالمدارسة والمطالعة ومجالسة أهل العلم المحققين العاملين مع تحليته بالتقوى والورع . قال تعالى : (وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ)[1] .

فإن فعل هذا كان طالبًا صادقًا وإلى ما رجا واصلا ، وإلا كان باطلا وبقى جاهلا .

وقد قال بعض المحققين : من أعطى كليته فى العلم أخذ كليته ، ومن لم يعط كليته لم يأخذ بعضه ولا كليته .

وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّمَا العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ ، وَإِنمَا الحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ ، مَنْ يَطْلُبِ الْخَيرَ يُؤْتَهْ ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهْ » اهـ .

والذى تفيده التقوى إنما هو فهم يوافق الأصول ، ويشرح الصدور ويوسع المعقول ، ومن كان رجاؤه الوصول إلى إدراك المقامات وتحقيق المنازلات ، ومواجيد المحبين وأذواق العارفين ، فعليه بصحبة الفحول من الرجال أهل السر والحال ، بحط رأسه وذبح نفسه ، والأخذ فيماكلفوا به من الأعمال ، مع الذل والافتقار والخضوع والانكسار ، فإن زعم أنه لم يجدهم فليصدق فى الطلب ، فسر الله كله فى صدق الطلب ، وليستغرق أوقاته فى ذكر الله ، وليلتزم الصمت والعزلة ، وليحسن ظنه بالله وبعباد الله ، فإن الله يقيض له من يأخذ بيده :

(إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُم خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ)[2] .

قال فى القواعد : قاعدة طلب الشىء من وجهه وقصده أقرب لتحصيله ، وقد ثبت أن حقائق علوم الصوفية منح إلهية ومواهب اختصاصية لا تنال بمعتاد

---

(١) البقرة : ٢٨٢ . (٢) الأنفال : ٧٠ .

الطلب ، فلزم مراعاة وجه ذلك وهو ثلاث :

أولها : العمل بما علم قدر الاستطاعة .

الثانى : اللجأ إلى الله على قدر الهمة .

الثالث : إطلاق النظر فى المعانى حال الرجوع لأصل السنة ، فيجرى الفهم وينتفى الخطأ ويتيسر الفتح . وقد أشار الجنيد رحمه الله تعالى إلى ذلك بقوله : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال والمراء والجدال ، إنما أخذناه عن الجوع والسهر وملازمة الأعمال ، أو كما قال .

وفى الخبر عنه عليه الصلاة والسلام :

« مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه : إذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام ، جالت فى الملكوت ورجعت إلى صاحبها بطرائف العلوم ، من غير أن يؤدى إليها عالم علماً اهـ . فمن رجا أن يدرك هذه الأمور المتقدمة ، وشرع فى أسبابها وتحصيل مباديها ، كان علامة على نجح مطلبه ، وكان رجاؤه صادقا . ومن طمع فيها من غير أن يأخذ بالجد فى أسباب تحصيلها كان أمنية : أى غرورًا وحمقًا .

وكان الحسن رضى الله عنه يقول : ياعباد الله اتقوا هذه الأمانى فإنها أودية النوكى يحلون فيها ، فوالله ما أتى عبد بأمنية خيرًا فى الدنيا والآخرة اهـ .

والنوكى : بفتح النون جمع أنوك ، وهو الأحمق .

ولما كان من رجا شيئاً وطمع فيه الغالب أنه يطلبه بين الشيخ خير ما يطلبه العبد ويرجوه فقال :

[مطلب العارفين من الله تعالى : الصدق فى العبودية ، والقيام بحقوق الربوبية] .

قلت : المطلب مصدر بمعنى المفعول أو اسم مكان : أى مطلوب العارفين ومقصودهم أو محل قصدهم ومحل نظرهم إنما هو تحقق الصدق فى العبودية بحيث لا تبقى فيهم بقية إذ المكاتب عبد مابقى عليه درهم ، فما دام العبد مسجونًا بمحيطاته ، محصورًا فى هيكل ذاته ، لا تنفك عنه الحظوظ إما دنيوية

أو أخروية ، فلا تتحقق عبوديته لله وفيه عبودية لحظوظه وهواه ، فلا يكون صادقًا فى عبوديته وهو مملوك لحظ نفسه ، فإذا قال أنا عبد الله نازعته حظوظه وهواه ، فلا تتفق عبوديته حتى يتحرر من رق الأكوان ، ويتحقق بمقام الأحرار من أهل العرفان ، فحينئذ يكون سالمًا لله حرًّا مما سواه . قال الله تعالى : (ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فيهِ شُرَكاء مُتَشَاكِسُونَ) أى متخاصمون (وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا)[1] .

أى لا يستويان أبدًا ، إذ العبد الخالص لسيد واحد يكون أحظى وأعز وأقرب من العبد المشترك ، وكذلك العبد الخالص لله أحظى بمحبة مولاه .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تَعِسَ » أى خاب وخسر : « عَبْدُ الدِّينارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْخميصَة إذا أُعْطِيَ رَضِيَ . وَإِذَا لَمْ يُعْطَ سَخِطَ ، تَعس وَانْتَكَسَ ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَش » .

أى إذا أصابته شوكة فالله لا يخرجها منه بالنقش عليها ، وهو دعاء على من حطه هواه بالتنكيس ، وعدم الخروج مما يقع فيه .

وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه : شتان بين من همه الحور والقصور ، وبين من همه الحضور ورفع الستور اهـ .

ولأجل هذا كان مطلب العارفين إنما هو التحقيق بالعبودية لمولاهم ، بالتحرر من رق هواهم ، والقيام بوظائف الربوبية بالأدب والتعظيم ، والإجلال لمولاهم وهما متلازمان ، فما تحقق الصدق فى العبودية إلا حصل القيام بوظائف الربوبية ، فإن النفس إذا ماتت بترك حظوظها حييت الروح ، وإذا حييت الروح عرفت ، وإذا عرفت أذعنت وخضعت لهيبة الجلال ، وهذا هو القيام بحقوق الربوبية ، وهو مراد العارفين ، ومقصود السائرين ، ومحط نظر القاصدين والطالبين . قيل لبعضهم : ما مراد العارف ؟ قال : مراد معروفه اهـ . أى لا يريد إلا ما أراد سيده ، ولا يتمنى إلا ما يقضيه عليه مولاه .

---

(١) الزمر : ٢٩ .

وقيل لبعضهم : ما تشتهى ؟ قال : ما يقضى الله ، فهذا يتحقق للعارف فناؤه ، وبتحقق فنائه بقاؤه ، وأنشدوا :

لَوْ قِيلَ مَاتَمَنّى وَالْعَبْدُ يُعْطَى مُنَاهْ
لَقُلْتُ مُنْيَةُ قَلْبِى فِى بَقَاه

أى بقائه مع مولاه والله تعالى أعلم .

فإذا طلب العبد من مولاه ما هو طالبه منه من استقامة ظاهرة بالنهوض إلى كمال الطاعات ، والحزن على ما سلف من الغفلات ، واستقامة باطنه بمعرفة معبوده ، والفناء فى شهوده ، فيكون ظاهره قائمًا بوظائف العبودية ، وباطنه متحققًا بحقوق الربوبية .

ثم إذا أحس بإجابة المطلب ، وحصول المنى والمرغب ، فرح قلبه وانبسطت روحه ، حيث ثمت نسيم الإقبال وروح الوصال ، فربما يقبضها البسط عن شهود مولاها ، فيخرجها منه إلى القبض ، ثم يرحلها عنهما إليه كما أشار الشيخ إلى ذلك بقوله :

[بسطك كى لا يبقيك مع القبض ، وقبضك كى لا يتركك مع البسط ، وأخرجك عنهما كى لا تكون لشىء دونه] .

قلت : البسط فرح يعترى القلوب أو الأرواح ، إما بسبب قرب شهود الحبيب ، أو شهود جماله ، أو بكشف الحجاب عن أوصاف كماله ، وتجلى ذاته لهم ، أو بغير سبب . والقبض حزن وضيق يعترى القلب ، إما بسبب فوات مرغوب ، أو عدم حصول مطلوب ، أو بغير سبب ، وهما يتعاقبان على السالك تعاقب الليل والنهار ، فالعوام إذا غلب عليهم الخوف انقبضوا ، وإذا غلب عليهم الرجاء انبسطوا ، والخواص إذا تجلى لهم بوصف الجمال انبسطوا ، وإذا تجلى لهم بوصف الجلال انقبضوا ، وخواص الخواص تستوى عندهم الجلال والجمال ، فلا تغيرهم واردات الأحوال ، لأنهم بالله ولله لا لشىء سواه ، فالأولون ملكتهم الأحوال ، وخواص الخواص مالكون الأحوال ، فمن لطفه بك أيها السالك أخرجك من الأغيار ، ودفعك إلى حضرة الأسرار ، فإذا أخذك القبض وتمكن منك الخوف ، وسكنت تحت قهره ، وأنست بأمره ، أخرجك إلى

البسط ، لئلا يحترق قلبك ، ويذوب جسمك ، فإذا حبسك البسط وفرحت به وأنست بجماله ، قبضك لئلا يتركك مع البسط ، فتسىء الأدب ، وتجر إلى العطب ، إذ لا يقف مع الأدب فى البسط إلا القليل ، هكذا يسيرك بين شهود جلاله وجماله ، فإذا شهدت أثر وصف الجلال انقبضت ، وإذا شهدت أثر وصف الجمال انبسطت ، ثم يفتح لك الباب ، ويرفع بينك وبينه الحجاب ، فتتنزه فى كمال الذات وشهود الصفات ، فتغيب عن أثر الجلال والجمال ، بشهود الكبير المتعال ، فلا جلاله يحجبك عن جماله ، ولا جماله يحجبك عن جلاله ، ولا ذاته تحبسك عن صفاته ، ولا صفاته تحبسك عن ذاته . تشهد جماله فى جلاله وجلاله فى جماله ، وتشهد ذاته فى صفاته وصفاته فى ذاته ، أخرجك عن شهود أثر الجلال والجمال ، لتكون عبدًا لله فى كل حال ، أخرجك عن شىء لتكون حرًّا من كل شىء ، وعبدًا له فى كل شىء وأنشدوا :

حَـرَام عَـلَى مَنْ وَحَّـدَ اللهَ رَبَّـهُ
وَأَفْـرَدَهُ أَنْ يَحْتَـذِى أَحَـدًا رِفْـدَا

فَيَا صَاحِبى قِفْ بِى عَلَى الْحَقِّ وَقْفَةً
أَمُوتُ بِهَا وَجْدًا وأَحْيَا بِهَا وَجْدًا

وَقُلْ لِلْمُلُوكِ الأَرْضِ تَجْهَدَ جُهْدَهَا
فَذَا الْمُلْكُ مُلْك لَا يُبَاحُ وَلَا يُهْدَى

قال فارس رضى الله عنه : القبض أولا ، ثم البسط ثانيًا ، ثم لا قبض ولا بسط ، لأن القبض والبسط لمعان فى الوجود . وأما مع الفناء والبقاء فلا اهـ .

آداب القبض والبسط

واعلم أن القبض والبسط لهما آداب ، فإذا أساء فيهما الأدب طرد إلى الباب ، أو إلى سياسة الدواب . فمن آداب القبض : الطمأنينة والوقار ، والسكون تحت مجارى الأقدار والرجوع إلى الواحد القهار ، فإن القبض شبيه بالليل ، والبسط شبيه بالنهار ، ومن شأن الليل الرقاد والهدوّ والسكون والحنو . فاصبر أيها المريد واسكن تحت ظلمة ليل القبض حتى تشرق عليك شموس نهار البسط ، إذ لابد لليل من تعاقب النهار ، ولابد للنهار من تعاقب الليل :

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ ﴾[1] .

هذه آداب القبض الذى لا تعرف له سببًا . وأما إن عرفت له سببًا فارجع فيه إلى مسبب الأسباب . ولُذْ بجانب الكريم الوهاب ، فهل عوّدك إلا حسنًا ؟ وهل أسدى إليك إلا مننًا ؟ فالذى واجهتك منه الأقدار هو الذى عودك لحسن الاختيار ، فالذى أنزل الداء ، هو الذى بيده الشفاء ، يامهمومًا بنفسه لو ألقيتها إلى الله لاسترحت ، فما تجده القلوب من الأحزان ، فلأجل ما منعته من الشهود والعيان .

والحاصل : أن سبب القبض إنما هو النظر للسِّوى والغفلة عن المولى ، وأما أهل الصفا فلا يشهدون إلا الصفا ، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يقول : « مَنْ أَصَابَهُ هَمٌّ أَوْ غَمٌّ فَلْيَقُلْ : الله الله لا أُشْرِكُ بِه شَيْئًا ، فَإِنَّ الله يُذْهِبُ هَمَّهُ وَغَمَّهُ » .

أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، والحديث صحيح .

فانظر كيف دل عليه الصلاة والسلام المقبوض إلى الدواء وهو شهود التوحيد . والغيبة عن الشرك ، فدلنا صلى الله عليه وسلم على القول والمراد

---

(١) الحديد : ٦ .

منه المعنى ، فكأنه قال اعرفوا الله ووحدوه ينقلب قبضكم بسطًا ونقمتكم نعمة ، وكذلك فى حديث آخر قال :

« ماَ قَالَ أَحَدٌ : اللَّهُمَّ إِنِّى عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِى بِيَدِكَ مَاضٍ فِىَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِىَّ قَضاؤُكَ ، أَسْأَلُك بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفسكَ ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِى كِتابِكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِى عِلْمِ الغيبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ القرْآنَ العَظِيم رَبِيع قلبى ، وَنورَ بَصَرِى ، وَجَلَاءَ حُزنِى ، وَذَهَابَ هَمِّى وَغَمِّى ، إلاّ أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَغَمَّهُ ، وَأُبْدِلَ مَكان هَمِّهِ فَرَحاً وَسُرُورًا » .

فدلهم أولا فى الحديث الأول على شهود الربوبية ، وفى الحديث الثانى على القيام بوظائف العبودية ، وهو الصبر والرضا ، إذ من شأن العبد أن يصبر على أحكام سيده ، ويسلم ويرضى لما يجريه عليه من أوصاف قهره .

ومن آداب البسط كف الجوارح عن الطغيان ، وخصوصًا جارحة اللسان ، فإن النفس إذا فرحت بطرت وخفت ونشطت ، فربما تنطق بكلمة لا تلقى لها بالا فتسقط فى مهاوى القطيعة بسبب سوء أدبها ، ولذلك كان البسط مزلة أقدام ، فإذا أحس المريد بالبسط ، فليلجم نفسه بلجام الصمت ، وليتحل بحلية السكينة والوقار ، وليدخل خلوته ، وليلتزم بيته ، فمثل الفقير فى حالة البسط والقوة كقدر غلى وفار ، فإن تركه يغلى اهراق إدامه وبقى شاحتًا ، وإن كفه وأخمد ناره بقى إدامه تاماً ، كذلك الفقير فى حالة القوة والبسط يكون نوره قويًّا وقلبه مجموعًا ، فإذا تحرك وبطش وتتبع قوته برد ورجع لضعفه ، وما ذلك إلا لسوء أدبه ، والله تعالى أعلم .

ولأجل هذا كان العارفون يخافون من البسط أكثر من القبض كما نبه عليه بقوله :

[العارفون إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا] .

قلت : كل من فتح عليه فى شهود المعانى فهو عارف ، فإن تمكن من شهود المعنى على الدوام فهو واصل متمكن ، وإلا فهو سائر ، وإنما كان العارف إذا

انبسط أخوف منه إذا انقبض ، لأن القبض من شأنه أن يقبض النفس عن حظوظها ، ومن شأنه أيضًا السكون ، والسكون كله أدب ، ومن شأن البسط أن يبسط النفس وينشطها ، فربما تبطش لما فيه حظها ، فتزل قدم بعد ثبوتها بسبب قلة آدابها ، ولذلك قال .

[ولا يقف على حدود الأدب فى البسط إلا قليل] .

قلت : وهم أهل الطمأنينة والتمكين ، لأنهم كالجبال الرواسى ، لا يحركهم قبض ولا بسط ، فهم مالكون الأحوال ، لا يخرجهم القبض ولا البسط عن حالة الاعتدال بخلاف السائرين وإن كانوا عارفين ، فإنهم ربما تؤثر فيهم الواردات ، فيرد عليهم وارد البسط فيخرجهم عن حد الأدب ، وقد قيل : قف على البساط ، وإياك والانبساط .

وقال رجل لأبى محمد الحريرى رضى الله عنه : كنت على بساط الأنس وفتح علىّ طريق البسط ، فزللت زلة فحجبت عن مقامى ، فكيف السبيل إليه ؟ دلنى على الوصول إلى ما كنت عليه ، فبكى أبو محمد وقال : ياأخى الكل فى قهر هذه الخطة ، لكنى أنشدك أبياتًا لبعضهم وأنشد يقول :

قِفْ بالدِّيَـارِ فَهذِهِ آثَـارُهُمْ ... تَبْكِى الأحبَّةَ حَسْرَةً وَتَشَوُّقا
كَمْ قَدْ وَقَفْتُ بِرَبْعها مُسْتَخْبِراً ... عَنْ أَهْلِهَا أَوْ سَائِلاً أَوْ مُشْفِقا
فَأَجَابَنِى دَاعِى الهَوَى فى رَسْمِها ... فارَقْتَ مَنْ تَهْوَى فَعزَّ المُلْتَقَى

ثم علل عدم الوقوف على حدود الأدب فى البسط فقال :

[البسط تأخذ النفس منه حظها بوجود الفرح ، والقبض لاحظ للنفس فيه].

قلت : لأن البسط جمال ، والقبض جلال ، ومن شأن الجمال أن يأتى بكل جمال ، وأين هو الجمال ؟ ثم هو عين الجلال ، أين هو حبيبك ؟ ثم هو عدوك أين هو الربح ؟ ثم هو الخسارة ، ومعنى ذلك أنه الموضع الذى يلائم النفس ويليق بها ، ثم هو خسارة القلب وحجاب الروح ، لأن الموضع الذى تحيا به النفس يموت فيه القلب ، والموضع الذى تموت فيه النفس يحيا به القلب

والروح ، ولذلك قال ابن الفارض رضىَ الله عنه :

المـوْتُ فِيـهِ حَيَـاتِي وَفِى حَـيَـاتِيَ قَـتْـلِى

وقال الششترى رضى الله عنه :

إنْ تُرِدْ وَصْلَنَا فَمَوْتُكَ شَرْطٌ لا يَنَالُ الْوِصَالَ مَنْ فيهِ فَضْلَهْ

وكتب يوسف بن الحسين الرازى رحمه الله إلى الجنيد رضى الله عنه ، لا أذاقك الله طعم نفسك ، فإنك إن ذقتها لا تذق بعدها خيرًا أبدًا اهـ .

وقال أبو على الدقاق رضى الله عنه : القبض حق الحق منك ، والبسط حقك منه ، ولأن تكون بحق ربك أولى من أن تكون بحظ نفسك اهـ . وهذا كله فى حق السائرين ، وأما الواصلون المتمكنون فلا يؤثر فيهم جلال ولا جمال ، ولا يحركهم قبض ولا بسط كما تقدم ، لأنهم بالله ولله ومن الله وإلى الله . بالله تصرفهم ، ولله عبوديتهم ، ومن الله ورودهم ، وإلى الله صدورهم ، لأنهم لله لا لشىء دونه . قال الجنيد رضى الله عنه : الخوف يقبضنى ، والرجاء يبسطنى ، والحقيقة تجمعنى ، والحق يفرقنى ، إذا قبضنى بالخوف أفنانى عنى ، وإذا بسطنى بالرجاء ردنى علىّ ، وإذا جمعنى بالحقيقة أحضرنى ، وإذا فرقنى بالحق أشهدنى غيرى ، فغطانى عنه ، فهو فى كل ذلك محركى غير مسكنى ، وموحشى غير مؤنسى ، بحضورى لذوق طعم وجودى ، فليته أفنانى عنى ، فمتعنى أو غيبنى عنى فروحنى اهـ .

قوله رضى الله عنه : الخوف يقبضنى ، لأن العبد فى حالة الخوف يشهد ما منه إلى الله من الإساءة فينفتح له باب الحزن ، وفى حالة الرجاء يشهد ما من الله إليه من الإحسان فينفتح له باب الرجاء والبسط .

وقوله : والحقيقة تجمعنى : أى تغنينى عن نفسى وتجمعنى به ، فلا تشهد إلا ما من الله إلى الله ، فلا قبض ولا بسط .

وقوله : والحق يفرقنى ، المراد بالحق الحقوق اللازمة للعبودية ، فلا ينهض إليها إلا بشهود نوع من الفرق ، وإن كان نهوضه بالله .

وقوله : إذا قبضنى بالخوف أفنانى عنى ، أى إذا تجلى لى باسمه الجليل ذاب

جسمي من هيبة المتجلي ، وإذا بسطني بالرجاء بأن تجلى لي باسمه الجميل أو الرحيم رد نفسي ووجودي علي ، وإذا جمعني إليه بشهود الحقيقة أحضرني معه بزوال وهمي ، وإذا فرقني بالحق الذي أوجبه علي للقيام بوظائف حكمته أشهدني غيري ، حتى يظهر الأدب مني معه ، وقد يقوى الشهود فلا يشهد الأدب إلا منه إليه .

وقوله : فغطاني عنه ، لأن العبد في حالة النزول إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ قد يرجع لمقام المراقبة لكنه غير لازم وسيأتي للمؤلف ، بل نزلوا في ذلك بالله ومن الله وإلى الله ، فعلى هذا لا تغطية للعبد في حالة النزول للحق أصلا .

وقوله : فهو في كل ذلك محركي غير مسكني ، يعني أن الحق تعالى حين يقبضه بالخوف ، أو يبسطه بالرجاء ، أو يجمعه بالحقيقة ، أو يفرقه بالحق ، هو محرك له ليسيره إليه ويحوشه إليه ، غير مسكن له في مقام واحد ، وموحشه عن عالم نفسه ، غير مؤنس له بها بسبب حضوره مع عوالمه البشرية ، فيذوق طعم وجودها فإذا غيَّبَه عنه عرف قدر ما منَّ به عليه ، ولذلك قال : فليته أفناني عني ، أي عن رؤية وجودي فمتعني بشهودة أو غيبني عن حسي . فروحني من الحقوق التي تفرقني عنه بإسقاطها عني في حالة الغيبة ، وكأنه مال إلى طلب السلامة خوفاً من الوقوع فيما يوجب الملامة وإن كان الكمال هو الجمع بين العبودية وشهود الربوبية ، والله تعالى أعلم .

أسباب القبض والبسط

ثم ذكر أسباب القبض والبسط وهو العطاء والمنع في الغالب فقال :
[**ربما أعطاك فمنعك ، وربما منعك فأعطاك**] .

قلت : الغالب على النفس الأمّارة واللوامة أن تنبسط بالعطاء وتنقبض بالمنع ، لأن في العطاء متعتها وشهوتها ، فلا جرم أنها تنبسط بذلك ، وفي المنع قطع موادها وترك حظوظها ولاشك أنها تنقبض بذلك ، وذلك لجهلها بربها وعدم فهمها . فلو فهمت عن الله لعلمت أن المنع عين العطاء والعطاء عين المنع كما يأتي ، فافهم أيها الفقير عن مولاك ، ولا تتهمه فيما به أولاك ،

فربما أعطاك ما تشتهيه النفوس فمنعك بذلك حضرة القدوس ، وربما منعك ما تشهيه نفسك ، فيتم بذلك حضورك وأنسك .

ربما أعطاك متعة الدنيا وزهرتها ، فمنعك جمال الحضرة وبهجتها ، وربما منعك زينة الدنيا وبهجتها ، فأعطاك شهود الحضرة ونظرتها .

ربما أعطاك قوت الأشباح ، فمنعك قوت الأرواح ، وربما منعك قوت الأشباح فمتعك بقوت الأرواح .

ربما أعطاك إقبال الخلق ، فمنعك من إقبال الحق ، وربما منعك من إقبال الخلق فأعطاك الأنس بالملك الحق .

ربما أعطاك العلوم ، وفتح لك مخازن الفهوم ، فحجبك بذلك عن شهود المعلوم ، ومعرفة الحى القيوم ، وربما منعك من كثرة العلوم ، وأعطاك الأنس بالحى القيوم ، فأحطت بكل مجهول ومعلوم .

ربما أعطاك عز الدنيا ومنعك عز الآخرة ، وربما منعك من عز الدنيا وأعطاك عز الآخرة .

ربما أعطاك التعزز بالخلق ، ومنعك من التعزز بالحق ، وربما منعك من التعزز بالخلق ، وأعطاك التعزز بالملك الحق .

ربما أعطاك خدمة الكون ، فمنعك من شهود المكون ، وربما منعك من خدمة الكون ، وأعطاك شهود المكون .

ربما أعطاك التصرف فى الملك ، ومنعك دخول الملكوت ، وربما منعك من التصرف فى الملك ، ومنحك شهود الملكوت .

ربما أعطاك أنوار الملكوت ، ومنعك الترقى إلى بحر الجبروت ، وربما حجب عنك أنوار الملكوت ، فأعطاك الدخول إلى حضرة الجبروت .

ربما أعطاك القطبانية ، ومنعك التمتع بشهود الفردانية ، وربما منعك القطبانية ، ومتعك بشهود سر الوحدانية ، إلى غير ذلك مما لا يحصيه إلا علام الغيوب .

قال ابن العربى الحاتمى رضى الله عنه : إذا مُنعتَ فذاك عطاؤه ، وإذا أُعطيتَ فذاك منعه ، فاختر الترك على الأخذ ا . هـ وشاهده قوله تعالى :

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُم)[1] الآية :

فإذا فهمت هذا علمت أن المنع هو العطاء كما بينه بقوله :

[متى فتح لك باب الفهم فى المنع عاد المنع هو عين العطاء] .

قلت : إذا فهمت أيها العبد عن الله بعد تحققك برحمته ورأفته وكرمه وجوده ونفوذ قدرته وإحاطة علمه ، علمت أنك إذا سألته شيئًا أو هممت بشىء أو احتجت إلى شىء ، فمنعك منه ، فإنما منعك ذلك رحمة بك وإحسانًا إليك ، إذ لم يمنعك من بخل ولا عجز ولا جهل ولا غفلة ، وإنما ذلك حسن نظر إليك ، وإتمام لنعمته عليك ، لكونه أتم نظر وأحمد عاقبة (وعَسَى أنْ تكْرهُوا شيئًا وهُو خَيرٌ لكُم وعَسَى أنْ تحبُّوا شَيْئًا وهُو شرٌّ لكُم واللهُ يعْلَم وأنتمُ لا تعْلمُونَ)[1] فربما دبرنا أمرًا ظننا أنه لنا فكان علينا . وربما أتت الفوائد من وجوه الشدائد، والشدائد من وجوه الفوائد ، وربما كمنت المنن فى المحن ، والمحن فى المنن ، وربما انتفعنا على أيدى الأعداء ، وأوذينا على أيدى الأحباء ، وربما تأتى المسارّ من حيث المضار وقد تأتى المضار ، من حيث المسار .

ولأبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه فى حزبه : اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم ، فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم ؟ فمتى فتح لك أيها المريد باب الفهم عنه فى المنع ، وعلمت ما فيه من الشر والخير ، وحسن النظر لك عاد المنع فى حقك هو عين العطاء .

ومثال ذلك : كصبى رأى طعامًا حسنًا أو حلواء أو عسلا وفيه سم ، وأبوه عالم بما فيه ، فكلما بطش الصبى لذلك الطعام رده أبوه ، فالصبى يبكى عليه لعدم علمه ، وأبوه يرده بالقهر لوجود علمه ، فلو عقل الصبى ما فيه ما بطش إليه ولعلم نصح أبيه وشدة رأفته به .

ومثال آخر : كرجل صنع طعامًا جيدًا وعمل فيه بصاقًا ومخاطًا أو قذرًا وأتى به لمن لا يعرفه ، فكل من رآه ولم يعرف ما فيه بطشت نفسه إليه ، فلو علم ما فيه ما بطشت نفسه . فإذا نهاه عنه من علم ما فيه اتهمه لعدم فهمه ، كذلك العبد يبطش للدنيا أو الرياسة أو غير ذلك مما فيه ضرره ، فيمنعه الحق تعالى

---

(١) سورة البقرة : ٢١٦ .

منه رحمة به وشفقة عليه واعتناء به . فإذا فهم من الله سلم الأمر إلى مولاه ، ولم يتهمه فيما أبرمه وقضاه . وإذا لم يفهم عن الله تحسر وربما سخط ، فإذا انكشف له سر ذلك بعد علم ما كان فى ذلك من الخير ، لكن فاتته درجة الصبر ، لقوله عليه الصلاة والسلام :« إنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأولى » .

وانظر قضية الرجل الذى كان يسكن فى البادية وكان من العارفين ، فاتفق له ذات يوم أن مات حماره وكلبه وديكه ، فأتى إليه أهله ، فقالوا له حين مات الحمار : مات حمارنا ، فقال : خير ، ثم قالوا : مات الكلب ، فقال : خير ، ثم قالوا له : مات الديك ، فقال : خير ، فغضب أهل الدار وقالوا : أى خير فى هذا ؟ متاعنا ذهب ونحن ننظر ، فاتفق أن بعض العرب ضربوا على ذلك الحى فى تلك الليلة فاجتاحوا كل ما فيه ، وكانوا يستدلون على الخيام بنهيق الحمار ونباح الكلاب وصراخ الديكة ، فأصبحت خيمته سالمة إذ لم يكن بقى من يفضحها .

فانظر كيف كان حسن نظر الحق لأوليائه وحسن تدبيره لهم ؟ وكيف فهم الرجل العارف ما فى ذلك من السر فى أول مرة ؟ فهذا هو الفهم عن الله ، رزقنا الله من ذلك الحظ الأوفر آمين .

قال الشبلى : الصوفية أطفال فى حجر الحق تعالى اهـ . يعنى أنه يتولى حفظهم وتدبيرهم على ما فيه صلاحهم ولا يكلهم إلى أنفسهم ، والله تعالى أعلم .

سبب عدم الفهم عن الله

وسبب عدم الفهم عن الله هو الوقوف مع ظواهر الأشياء دون النظر إلى بواطنها كما أبان ذلك بقوله :

[**الأكوان ظاهرها غرة ، وباطنها عبرة**] .

قلت : الغرة بكسر الغين وقوع الغرور ، وإنما كانت الأكوان ظاهرها غرة لوجهين :

الوجه الأول : ما جعل الله سبحانه على ظاهر حسها من البهجة وحسن

المنظر ، وما تشتهيه النفوس من أنواع المآكل والمشارب والملابس والمراكب ، وشهوة المناكح والمساكن والبساتين والرياضات ، وكثرة الأموال والبنين ، وكثرة الأصحاب والعشائر والأجناد والعساكر ، وغير ذلك من بهجتها وزهرتها وزخرفها ، فانكب جلّ الناس على الاشتغال بجمعها وتحصيلها ، والجرى عليها الليل والنهار والشهور والأعوام ، حتى هجم عليها هادم اللذات ، فأعقبهم الندم والحسرات ، ولم ينفع الندم وقد جف القلم .

سافروا بلا زاد ، وقدموا على الملك بلا تأهب ولا استعداد ، فاستوجبوا من الله الطرد والبعاد ، ولأجل هذا حذر الله سبحانه وتعالى من غرورها وزخرفها ، والوقوف مع ظاهرها . قال تعالى :

(زُيِّنَ لِلنَّاس حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّساءِ وَالبَنِينَ) الآية .

ثم قال : (قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ منْ ذلِكُمْ لِلذِينَ اتَّقوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ الله وَالله بَصِيرٌ بِالعِبَادِ)[١] .

وقال تعالى : (إنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهم أَحْسَنُ عَمَلا)[٢] .

أى لنختبرهم أيهم أزهد فيها ؟ وقال تعالى لنبيه ﷺ :

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْك إِلَى مَامَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ) أى أصنافًا منهم (زَهْرَةَ الحيَاةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيه)[٣] .

وسئل رسول الله ﷺ عن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فقال :

« الذينَ نَظرُوا إلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا حِينَ نَظَرَ الناسُ إلَى ظَاهِرِهاَ ، وَاهْتمُّوا بآجِلِ الدُّنْيَا حِينَ اهْتَمَّ الناسُ بِعَاجِلِهَا ، فَأَمَاتُوا مِنْهَا مَاخَشَوْا

(١) آل عمران : ١٤ ، ١٥ . (٢) الكهف : ٧ . (٣) طه : ١٣١

أَنْ يميتَهُمْ ، وَتَرَكُوا مِنْهَا مَاعَلِمُوا أَنْ سَيَتْرُكَهُمْ ، فَمَا عَارَضَهُمْ مِنْ نَائِلِها عَارِضٌ إِلَّا رَفَضُوهُ ، وَلَا خَادَعَهُمْ مِنْ رِفْعتِهَا خَادِعٌ إِلَّا وَضَعُوهُ ، خلَقَت الدُّنْيَا فِى قُلُوبِهِمْ فَلَمْ يُجَدِّدُوهاَ ، وَخَرَّبَتْ بُنْيَانَهُمْ فَمَا يَعْمُرُونَها ، وَمَاتَتْ فِى صُدُورِهِم فَمَا يُحْيُونَها بَلْ يَهْدِمُونَهَا فَيَبْنُونَ بِهَا آخِرَتَهُمْ ، وَيَبِيعُونَهَا لِيَشْتَرُوا بِهاَ ماَ يَبْقَى لَهُمْ ، ونَظَرُوا إِلَى أَهْلِهاَ صَرْعَى قَدْ خَلَتْ بِهِمُ المَثُلاتُ ، فَمَا يَرَوْنَ أَمَانًا دُون مايَرْجُونَ ، وَلَا خَوْفًا دُونَ مَايَجدونَ » اهـ .

وقال على كرم الله وجهه فيما كتبه إلى سلمان الفارسى رضى الله عنه : إنما مثل الدنيا كمثل الحية لين مسها قاتل سمها ، فأعرض عنها وعما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها ، ودع عنك همومها لما تيقنت من فراقها ، وكن أسرّ ما تكون فيها أحذر ما تكون منها ، فإن صاحبها كلما اطمأن فيها إلى سرور أشخص منها إلى مكروه اهـ .

فقد جعل الحق سبحانه هذه الأكوان وهى الدنيا وما اشتملت عليه ، ظاهرها فتنة وباطنها عبرة ، فمن وقف مع ظاهرها كان مغرورًا ، ومن نفذ إلى باطنها كان عند الله مبرورًا ، فأهل الغفلة والبطالة وقفوا مع متعة عاجلها وبهجة ظاهرها ، فغرتهم بزخرفها وخدعتهم بغرورها حتى أخذتهم بغتة ، وأهل اليقظة والحزم نفذوا إلى باطنها فعرفوا سرعة ذهابها وقلة بقائها ، فاشتغلوا بجمع الزاد ، وتأهبوا ليوم المعاد ، أولئك الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وكان السلف الصالح إذا أقبلت الدنيا قالوا ذنب عجلت عقوبته ، وإذا أقبل الفقر قالوا مرحبًا بشعار الصالحين .

الوجه الثانى : إنما جعل الله سبحانه الأكوان ظاهرها غرة ، تغطية لسره وإظهاراً لحكمته ، وذلك أن الحق سبحانه لما تجلى فى مظاهر خلقه غطى سره بظهور حكمته .

أو تقول : الأكوان ظاهرها ظلمة وباطنها نور ، فمن وقف مع الظلمة كان محجوبًا ، ومن نفذ إلى شهود النور كان عارفًا محبوبًا .

أو تقول : الأكوان ظاهرها حس وباطنها معنى ، فمن وقف مع الحس كان جاهلا ، ومن نفذ إلى المعنى كان عارفًا .

أو تقول : الأكوان ظاهرها ملك وباطنها ملكوت ، فمن وقف مع الملك كان من عوام أهل اليمين ، ومن نفذ إلى شهود الملكوت كان من خواص المقربين . وقد أشرت إلى ذلك فى قصيدتى التائية حيث قلت :

إِذَا حُبِسَتْ نَفْسٌ فى سِجْنِ الهَوَى الَّذى
تَقَيَّدْ بِهِ العَقْلُ فى قَهْرِ قَبْضَةِ

وَأَشْغَلَهَا عِلْمُ الصِّوَانِ لحِكْمَةٍ
فَلَمْ تَرَ إِلاَّ الْكَوْنَ فى كُلِّ وِجْهَةِ

فَذلكَ عَيْنُ الْمُلْكِ وَهْمٌ ثبُوتُهُ
وَنَاظِرُهُ مَحْجُوبٌ فى سِجْنِ ظُلْمَةِ

وَإِنْ نَفَذَتْ رَوحُ الْمُقَدَّسِ سِرُّهُ
إِلَى دَرْكِ نُورِ الْحَقِّ فَاضَ بِقُدْرَةِ

فَذَا مَلَكُوتُ الله يُسْمَى لِوُسْعِهِ
وَعَارِفُهُ يَحْظَى بِفَتْحِ بَصِيـرَةِ

والله تعالى أعلم .

ثم بين الشيخ الواقف مع الظواهر والنافذ إلى البواطن فقال :

[فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها ، والقلب ينظر إلى باطن عبرتها] .

قلت : إنما كانت النفس تنظر عبرتها إلى ظاهر غرتها ، لما فيها من متعة شهوتها وحظوظها ، فلا يخرجها عن ذلك ، إلا شوق مقلق أو خوف مزعج ، أو عناية ربانية ، إما بواسطة شيخ كامل له إكسير يقلب به الأعيان ، أو بغير واسطة : (وَالله ذُو الفضْلِ العَظِيم)[1] .

---

(١) الحديد : ٢٩ .

وإنما كان القلب ينظر إلى باطن عبرتها لما فيه من نور العرفان : الذى يفرق بين الحق والباطل ، ويميز بين النافع والضار ، وهو ثمرة التقوى والتصفية .

أو تقول : لما فيه من عين البصيرة التى لا ترى إلا المعانى ، بخلاف عين البصر لا ترى إلا الحس . فتحصل أن أهل النفوس وقفوا مع ظواهر الأشياء ، واغتروا بعاجلها ولم يهتموا بآجلها ، فحجبوا عن العمل ، وغرهم الأمانى وطول الأمل .

وفى مثلهم ورد الخبر عن سيدنا عيسى عليه السلام كان يقول : ويلكم ياعلماء السوء ، مثلكم كمثل قناة حشٍّ ظاهرها جصٌّ وباطنها نتن اهـ . والحش : هو بيت الخلاء .

وأهل القلوب لم يقفوا مع ظواهر الأشياء ، بل نفذوا إلى بواطنها واهتموا بآجلها ، ولم يغتروا بعاجلها ، فاشتغلوا بالجد والإجتهاد ، وأخذوا فى الأهبة والاستعداد ، وهم العباد والزهاد ، وأهل الأرواح والأسرار لم يقفوا مع الأكوان لا ظاهرها العاجل ولا باطنها الآجل ، بل نفذوا إلى نور الملكوت ، فاشتغلوا بتطهير القلوب ، والتأهب لحضرة علام الغيوب ، حتى صلحوا للحضرة ، وتنزهوا فى رياض الفكر والنظرة .

(أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُون)[1] (أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ)[2] ، (فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)[3] جعلنا الله منهم بمنه وكرمه .

وهؤلاء ومن تعلق بهم هم الأعزاء عند الله ، تعززوا بطاعة العزيز فعزهم العزيز كما أشار إلى ذلك بقوله :

[إن أردت أن يكون لك عز لا يفنى فلا تستعزن بعز يفنى] .

قلت : العز الذى لا يفنى ، هو العز بالله والغنى بطاعة الله ، أو بالقرب ممن تحقق عزه بالله فالعز بالله يكون بتعظيمه وإجلاله ، وهيبته ومحبته ومعرفته ، وحسن الأدب معه فى كل شىء وعلى كل حال ، ويكون بالرضا بأحكامه ، والخضوع تحت قهر جلاله وكبريائه ، وبالحياء والخوف منه ، ويكون بالذل

(١) المجادلة : ٢٢ (٢) الواقعة : ١١ ، ١٢ . (٣) القمر : ٥٥ .

والانكسار كما قال الشاعر :

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَى لِتَكْسِبَ عِزَّةً
فَكَمْ عِزَّةٍ قَدْ نالَهَا المَرْءِ بِالذُّلِّ
إذَا كانَ مَنْ تَهْوى عَزِيزًا وَلَم تَكُنْ
ذَلِيلًا لَهُ فَاقْرِ السَّلامَ عَلَى الْوَصْلِ

وسمعت شيخنا رضى الله عنه يقول : قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : والله ما رأيت العز إلا فى الذل . وقال شيخ شيخنا مولاى العربى : وأنا أقول : والله ما رأيت الذل إلا فى الفقر ، يعنى أن الشيخ فسر الذل بالفقر ، إذ لا يتحقق ذل الإنسان إلا بالفقر فهو ذل الذل ، لأن النفس تموت بالفقر ولا يبقى لها عرق أصلا ، والله أعلم .

وأما العز بطاعة الله فهو بالمبادرة لامتثال أمره واجتناب نهيه ، والإكثار من ذكره وبذل المجهود فى تحصيل بره .

وأما العز بالقرب ممن تحقق عزه بالله فيكون بصحبتهم وتعظيمهم وخدمتهم وحسن الأدب معهم ، وهذا فى التحقيق يرجع إلى التعزز بالله بكونه وسيلة إليه ، فإذا تحقق بالله استغنى بعز الله عن عز غيره فمن حصل هذا العز وتحقق به ، فقد تعزز بعز لا يفنى أبدًا ينسحب عليه وعلى أولاده وأولاد أولاده إلى يوم القيامة . قال تعالى :

﴿ مَنْ كانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلهِ العِزَّةُ جمِيعًا ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَولَّ الله وَرَسُولَهَ وَالذِينَ آمَنُوا فَإنَّ حِزْبَ الله هُم الغالِبُونَ ﴾[2] .

والمراد بالذين آمنوا هم الأولياء أهل الإيمان الكامل . وقال تعالى : ﴿ وَلله العِزَّةُ وَلرسُولِهِ وللمؤمنين وَلَكنَّ الْمُنَافِقِين لا يَعْلَمُونَ ﴾[3] .

وقال سيدنا على كرم الله وجهه : من أراد الغنى بغير مال ، والكثرة بغير

---

(١) فاطر : ١٠ . (٢) المائدة : ٥٦ . (٣) المنافقون : ٨ .

عشيرة ،فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة اهـ . فمن تحقق عزه بالله لم يقدر أحد أن يذله .

وانظر قضية الرجل الذى أمر هارون الرشيد بالمعروف فحنق عليه ، فقال : اربطوه مع بغلة سيئة الخلق لتقتله ، فلم تقض فيه شيئًا ثم قال : اسجنوه وطينوا عليه البيت ففعلوا ، فرئى فى بستان فأتى به فقال له : من أخرجك من السجن ؟ فقال : الذى أدخلنى البستان ، فقال : ومن أدخلك البستان ؟ فقال الذى أخرجنى من السجن ، فعلم هارون أنه لم يقدر على ذله ، فأمر هارون أن يركب على دابة وينادى عليه : ألا إن هارون أراد أن يذل عبدًا أعزه الله فلم يقدر اهـ .

وأما التعزز بالعز الذى يفنى ، فهو التعزز بالمخلوق : كتعزز ملوك الجور ومن انتسب إليهم بكثرة الأتباع والأجناد ، وبالعصى والقهر ، وكالتعزز بالأموال والجاه فى غير محله والرياسة ، وغير ذلك مما ينقطع ويبيد ، فمن تعزز بهذا مات عزه واتصل ذله ، فإن التعزز بالمخلوق قطعًا يعقبه الذل عاجلا وآجلا .

وانظر قضية الرجل الذى تكبر فى الحرم ، فصار بعد ذلك يتكفف الناس وقال إنى تكبرت فى موضع يتواضع فيه الناس فوضعنى فى موضع ترتفع فيه الناس ، ذكر القضيتين فى التنبيه : ويقال لمن تعزز بالمخلوق :

(انْظُرْ إلى إِلٰهِكَ الذِى ظَلْتَ عَلَيْه عَاكِفًا لَنحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فى اليَمِّ نَسْفًا)[1] .

ودخل عارف على رجل يبكى ، فقال له : وما يبكيك ؟ فقال له : مات أستاذى ، فقال له : ولم جعلت أستاذك من يموت ؟ فنبهه على رفع همته وإنفاذ بصيرته ، وقد مات شيخه قبل أن يرشد ، والله تعالى أعلم .

فإن أردت أيها المريد أن يكون لك عز لا يفنى ، فاستعز بالله وبطاعة الله وبالقرب من أولياء الله ، ولا تستعزن بعز مخلوق يفنى ، فإن من تعزز بمن يموت مات عزه . قال الله تعالى :

---

(١) طه : ٩٧ .

(أَيبتَغُونَ عِنْدَهُمُ ٱلعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لله جَمِيعًا)[1] .

وقال أبو العباس المرسى رضى الله عنه : والله ما رأيت العز إلا فى رفع الهمة عن الخلق .

تنبيه وإرشاد : اعلم أن سبب العز الذى يعطيه الله لأوليائه هو حبه لهم ، فالعز نتيجة الحب ، ففى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« إِذَا أَحَبَّ الله عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ : إِنَّ الله يُحِبُّ فُلَانًا فأَحِبَّهُ فَيحبهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِى جِبْرِيلُ فى السَّمواتِ : إِنَّ الله يُحِبُّ فُلَانًا فأَحِبُّوهُ ، فَيُحِبُّه أَهْلُ السَّماءِ ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبولُ فى الأَرْضِ فَيحبُّهُ أَهْلُ الأَرْضِ » .

وفى رواية : « يُلْقَى لَهُ الْقَبُولُ فى الماء فَيَشْرَبُهُ الناسُ فَيُحِبُّونَهُ جَمِيعًا » . أو كما قال عليه الصلاة والسلام . وسبب حب الله للعبد هو زهده فى الدنيا ، ففى حديث الترمذى عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« ازْهَدْ فى الدُّنْيَا يُحِبَّكَ الله ، وَازْهَدْ فيما فى أَيْدِى النَّاس يُحِبَّكَ النَّاسُ » .

ثم اعلم أن هذا العز الذى يعطيه الله لأوليائه لا يكون فى بدايتهم ولا فى أول أمرهم ، لئلا يفتنهم الخلق عن الوصول إلى الحق ، بل من لطف الله بهم وإغارته عليهم ، أن ينفر عنهم الخلق أو يسلط عليهم حتى يتخلصوا من رق الأشياء ويتحققوا بالوصول والتمكين فحينئذ إن شاء أظهر عزهم لينفع بهم عباده ويهدى بهم من شاء من خلقه ، وإن شاء أخفاهم واستأثر بعزهم حتى يقدموا عليه ، فينشر عزهم ويظهر مكانتهم فى دار لافناء لها . وسيأتى الكلام على هذا فى محله إن شاء الله .

---

(١) النساء : ١٣٩ .

الطيّ عند الصوفية

ثم ذكر الشيخ سبب العز الذى لا يفنى وهو الزهد فى الدنيا كما ذكرنا فقال :

[الطى الحقيقى أن تطوى مسافة الدنيا عنك ، حتى ترى الآخرة أقرب إليك منك] .

قلت : الطى هو اللف والضم ، بحيث يصير الطويل قصيرًا والكبير صغيرًا، يقال طويت الثوب أى ضممته . وينقسم عند الصوفية إلى أربعة أقسام : طى الزمان ، وطى المكان ، وطى الدنيا ، وطى النفوس .

فأما طى الزمان : فهو أن يقصر فى موضع ويطول فى موضع آخر ، كمن مر عليه سنون فى موضع وفى موضع آخر ساعة أو يوم ، كالرجل الذى خرج يغتسل فى الفرات يوم الجمعة قرب الزوال ، فلما فرغ من غسله لم يجد ثيابه ، فسلك طريقًا حتى دخل مصر ، فتزوج فيها وولد له أولاد وبقى سبع سنين ، ثم ذهب يغتسل يوم الجمعة بنيل مصر ، فلما فرغ فإذا ثيابه الأولى ، فسلك طريقًا فإذا هو ببغداد قبل صلاة الجمعة من ذلك اليوم الذى خرج فيه والحكاية مطولة للفرغانى فى شرح التائية .

وأما طى المكان : فمثاله أن يكون بمكة مثلا . فإذا هو بغيرها من البلدان ، وهذا مشهور لأولياء الله ، قال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه : والله ما صار الأولياء من قاف إلى قاف حتى يلقوا رجلا مثلنا ، فإذا لاقوه كان بغيتهم .

وأما طى الدنيا : فهو أن تطوى عنك مسافتها بالزهد فيها ، والغيبة عنها ، وحصول اليقين التام فى قلبك حتى يكون الآتى عندك واقعًا أو كالواقع ، وسيأتى للشيخ : لو أشرق نور اليقين فى قلبك لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها ، ولرأيت الدنيا وكسفة الفناء ظاهرة عليها ، وسيأتى تتمة الكلام على هذه الحكمة ثم إن شاء الله .

وأما طى النفوس : فهو بالغيبة فى الله عنها ، ولذلك يتحقق الزوال وتمام الوصال ، وقد ذكره الشيخ بقوله فيما يأتى : ليس الشأن أن تطوى لك الأرض ، فإذا أنت بمكة أو غيرها من البلدان ، إنما الشأن أن تطوى عنك

أوصاف نفسك فإذا أنت عند ربك اهـ . وهذا هو الطى الحقيقى المعتبر عند المحققين لا طى الزمان أو المكان ، إذًا قد يكون استدراجًا أو مكرًا أو تخيلا وسحرًا ، فالطى الحقيقى : هو أن تطوى عنك مسافة الدنيا كلها حتى يكون الموت أقرب إليك من نفسك التى بين جنبيك ، وكما قال الصديق رضى الله عنه :

كُـلُّ امـرِئٍ مُصَبَّـحٌ فى أَهْلِهِ
وَالمـوْتُ أَدْنَى مِنْ شِـرَاكِ نَعْلِهِ

وحتى ترحل عنها بالكلية فلا تبقى فيك منها بقية ، هنالك ترحل إلى عالم الملكوت ، وتكشف لك أسرار الجبروت ، وقد قيل فى قوله عليه الصلاة والسلام : « الدُّنْيا خُطْوَةُ مُؤْمِنٍ » .

بمعنى أنه يتخطاها بالزهد فيها . وقال بعضهم لا تتعجبوا ممن يدخل يده فى جيبه فيخرج ما يريد ، ولكن تعجبوا ممن يضع يده فى جيبه ولم يجد شيئاً ولم يتغير .

وقيل لأبى محمد المرتعش : إن فلانًا يمشى على الماء ، قال : عندى من مكنه الله من مخالفة هواه ، فهو أعظم من المشى على الماء وفى الهواء اهـ .

ومخالفة الهوى إنما تكون بالزهد فى كل شىء والغيبة عن كل شىء . وكان شيخ شيخنا رضى الله عنه يقول : لا تفرحوا للفقير إذا رأيتموه يصلى كثيرًا أو يذكر كثيرًا أو يصوم كثيرًا أو يعتزل كثيرًا ، حتى تروه زهد فى الدنيا ورحل عنها ، ولم يبق له التفات إليها ! فحينئذ يفرح به ولو قلت صلاته وصيامه وذكره وعزلته .

قلت : ومثل هذا تقدم فى قوله : ما قل عمل برز من قلب زاهد ، وكذلك قال فى التنوير : لا تدل على فهم العبد كثرة علمه ولا مداومته على ورده ، وإنما يدل على نوره وفهمه غناه بربه ، وانحياشه إليه بقلبه ، وتحرره من رق الطمع ، وتحليه بحلية الورع ، وبذلك تحسن الأعمال وتزكو الأحوال اهـ . فما قاله شيخ شيخنا صحيح ، لكن لا يفهمه إلا أهل الفن من أهل الذوق ، إذ لا تجتمع

مجاهدة ومشاهدة ، وإنما تكون المجاهدة أولا ، فإذا حصلت المشاهدة فى الباطن ركدت الجوارح فى الظاهر ، وما بقى إلا فكرة أو نظْرة ، والأدب مع الحضرة ، وربما يعترض على الشيخ من لم يعرف مقصوده من جهلة علم الطريق ، وبالله التوفيق .

وإنما يتحقق طى مسافة الدنيا بتحقق الزهد فيها ، ولا يتحقق الزهد فيها إلا برفع الهمة عن الخلق ، والتعلق بالملك الحق ، وبالإياس مما فى أيدى الناس ، كما أبان ذلك بقوله :

[العطاء من الخلق حرمان ، والمنع من الله إحسان] .

قلت : إنما كان العطاء من الخلق حرمانًا لثلاثة أوجه :

الوجه الأول : ما فى ذلك من حظها وفرحها ، والتوصل إلى شهواتها وحظوظها ، وفى ذلك موت القلب وقسوته .

الوجه الثانى : ما فى ذلك من نقص الدرجات والغض من كمال المراتب والمقامات ، ولذلك ترك الأكابر التمتع بالشهوات ، لقوله تعالى :

﴿ أَذْهَبْتُم طَيبَاتِكُم فى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾[1] .

وقد يتعرض المريد للسؤال لأجل موت نفسه وحياة روحه ، فإذا كثر عليه العطاء من الخلق فرحت النفس وأنست فلا تموت به سريعًا ، بخلاف ماإذا واجهه المنع فإنها تموت سريعًا ، إذ لاحظ لها فيه ، فالجهاد الذى لا غنيمة فيه أعظم من الجهاد الذى فيه الغنيمة ، فقد ورد فى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إِذَا خَرَجَتْ طَائِفَةٌ لِلْغَزْوِ فَجَاهَدُوا وَغَنِمُوا فَقَدْ تَعَجَّلُوا ثُلُثَىْ أَجْرِهِمْ ، وَإِذَا لَمْ يَغْنَمُوا رَجَعُوا بِأَجْرِهِمْ كَامِلًا » أو كما قال صلى الله عليه وسلم .

الوجه الثالث : ما فى ذلك من الركون إليهم وميل القلب بالمحبة لهم ، إذ

---

(١) الأحقاف : ٢٠ .

النفس مجبولة على حب من أحسن إليها فتسترق لهم وتكون أسيرة فى أيديهم .
وفى وصية سيدنا على كرم الله وجهه : لا تجعل بينك وبين الله منعماً ، وعدّ نعمة غيره عليك مغرماً ، وأنشد رضى الله عنه :

لَعَمْـرُكَ مَنْ أَوْلَيْتَه مِنْـكَ نِعْمَـةً
وَمَـدَّ لَهَا كَفًّـا فَـأَنْتَ أَمِيـرُهُ
وَمَنْ كُنْتَ مُحْتَاجاً إليـهِ فَإِنَّـهُ
أَمِيـرُكَ تحقِيقًـا وَأَنْـتَ أَسِيـرُهُ
وَمَنْ كُنْتَ عنْهُ ذَا غنًى وهْوَ مَالِك
أَزِمَّـةَ أَهْلِ الـدَّهْـرِ أَنْتَ نَـظِيـرُهُ
فَعِشْ قَـانِعًـا إنَّ القَنَـاعَـةَ لِلْفَتَى
غنَـاء وَهـذَا مُقْتَضَى مَـا أُشِيـرُهُ

وقال آخر :

فَـلَا أَلْبَسُ النَّعْـمَا وَغَيْـرُكَ مُلْبِسى
وَلَا أَمْلِكُ الـدُّنْيَـا وَغَيْـرُكَ وَاهِبى

وقال شيخ شيوخنا ومادة طريقنا بعد نبينا مولاى عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه لأبى الحسن رضى الله عنه : ياأبا الحسن اهرب من خير الناس أكثر من أن تهرب من شرهم ، فإن خيرهم يصيبك فى قلبك ، وشرهم يصيبك فى بدنك ، ولأن تصاب فى بدنك خير من أن تصاب فى قلبك ، ولعدو تصل به إلى ربك خير من حبيب يقطعك عن ربك اهـ .
وقال بعضهم : عز النزاهة أكمل من سرور الفائدة ، ولأجل هذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام : « إذَا أَسْدَى إلَيْكُمْ أَحَدُ مَعْروفًا فَكَافِئوه » .

أى لتسقطوا منته عليكم ، وتقطعوا رقبته لكم ، والله تعالى أعلم .
وإنما كان المنع من الله إحسانًا لوجهين : أحدهما : ما تقدم من أن الله

سبحانه ما منعك بخلا ولا عجزًا ، وإنما هو حسن نظر لك ، إذ لعل ما طلبته لا يليق بحالك فى الوقت وآخره لوقت هو أولى لك وأحسن ، أو ادخر لك ذلك ليوم فقرك . الثانى : ما فى ذلك من دوام الوقوف ببابه واللياذ بجنابه ، وفى ذلك غاية شرفك ورفع لقدرك ، وفى الحديث :

« إِذَا دَعَا العَبْدُ الصَّالِحُ يَقُولُ الله تَعَالى لِلْمَلَائِكَةِ : أَخِّرُوا حَاجَتَهُ ، فَإِنِّى أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ ، وَإِذَا دَعَا الفَاجِرُ قالَ لِلْمَلائِكَةِ : اقْضُوا حَاجَتَهُ فَإِنِّى أُكْرَهُ صَوْتَهُ » . أو كما قال عليه الصلاة والسلام لطول العهد به .

تنبيه : ما ذكره الشيخ من كون العطاء من الخلق حرمانًا إنما هو باعتبار السائرين ، أو باعتبار الزهاد والعباد . وأما الواصلون إلى الله المتمكنون مع الله فقد تولاهم الحق . وغيبهم عن شهود الخلق ، فهم يتصرفون بالله ، يأخذون من الله ويدفعون بالله ، ولا يرون فى الوجود إلا الله :

مُنْذُ عَرَفْتُ الإِلهَ لَمْ أَرَ غَيْرًا وَكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعُ
مُنْذُ تَجَمَّعْتُ مَاخَشيتُ افْتِراقًا فَأَنَا اليَوْمَ وَاصِلٌ مَجْمُوعُ

فلا يرون العطاء إلا من الله ، ولا يرون الخلق البتة إلا ما يشهدون فيهم من واسطة الحكمة ، كما قال القائل :

إذا مَارَأَيْتَ الله فى الْكُلِّ فَاعِلًا رَأَيْتَ جَمِيعَ الكائِنَاتِ مِلَاحَا

وبالله التوفيق ولا حول ولا قوة لا بالله . هذا آخر الباب التاسع .

وحاصلها : علامة كمال العارف وآدابه فى الطلب . وفى البسط والقبض ، وفى المنع والعطاء .

الباب العاشر

النقد والنسيئة

ومن جملة العطاء ما يعطيه الحق سبحانه عباده من الخيرات ، فى مقابلة أعمالهم الصالحات ، كما أشار إلى ذلك فى أول الباب العاشر بقوله رضى الله عنه :

[جل ربنا أن يعامله العبد نقدًا فيجازيه نسيئة] .

قلت : النقد ما كان معجلا ، والنسيئة ما كان مؤخرًا ، ومن شأن الكريم إذا اشترى شيئاً أن ينجز نقده ويزيد إحسانه ورفده ، وقد اشترى الحق تعالى منا أنفسنا وأموالنا ، فعوّضنا بها الجنة ، فمن باع نفسه وماله ونقدهما وسلمهما إليه عوضه الله جنة المعارف عاجلا ، وزاده جنة الزخارف آجلا ، مع ما يتحفه به من أنواع النعيم ، ودوام الشهود والنظر إلى وجهه الكريم .

فجل ربنا : أى تنزه وترفع أن يعاجله العبد نقدًا ، أى معجلا فيجازيه نسيئة ، أى مؤخرًا ، بل لابد أن يعجل له ما يليق به فى هذه الدار ويدخر له ما يليق به فى تلك الدار .

والذى عجل له سبحانه فى هذه الدار أمور :

منها : ما يدفع عنه من المضار ، ويجلب له من المنافع والمسار ، لقوله تعالى : (وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)[1] وقال تعالى : (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ)[2] وقال تعالى : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[3] .

وقد يتعدى ذلك إلى عقبه كماتقدم .

ومنها : ما يشرق عليه من الأنوار ، ويكشف لقلبه من الأسرار ، وهى أنوار

---

(١) الأعراف : ١٩٦ .   (٢) الطلاق : ٢ ، ٣ .   (٣) يونس : ٦٢ .

التوجه وأنوار المواجهة ، قال تعالى : (يٰأَيُّها الذين آمَنوا إنْ تَتقُوا الله يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقانًا)[١] . وهو نور يفرق بين الحق والباطل . وقال تعالى : (وَاتَّقُوا الله وَيُعَلمُكُمُ الله)[٢] وقال تعالى : (الله وَلِيُّ الذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ)[٣] .

يخرجهم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ، ومن ظلمة المعصية إلى نور الطاعة ، ومن ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة ، ومن ظلمة الحس إلى نور المعنى ، ومن ظلمة الكون إلى نور المكوِّن .

ومنها : التوفيق والهداية لها قبل عملها ، حتى جعلك أهلا للوقوف بين يديه ، وهو الذى أبانه بقوله :

[كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلا] .

قلت : لأن الملك لا يدعو لخدمته إلا من يريد أن يكرمه ، ولا يدخل لحضرته إلا من يريد أن يعظمه ، ولا ينسب له إلا أهل الفضل والتكرمة . (وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمته مَازَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا)[٤] .

فالتوفيق لها أعظم منة وأكبر جزءًا على وجودها ، لأنها تحقق للعبد ثلاثًا :

أولها : تصحيح النسبة لمولاه بوجه ما .

الثانى : وجود الإقبال عليه بصورة ما .

الثالث : إقامة رسم العبودية فى الجملة ، والله أعلم ، قاله الشيخ زروق رضى الله عنه .

ومنها : ما يرد على قلبه حال عملها من المؤانسة به والقرب له ، وهو الذى ذكره بقوله :

[كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم فى طاعته] .

قلت : والذى فتحه على قلوبهم فى حالة العمل ثلاث : محاضرة أو مراقبة أو مشاهدة ، فالمحاضرة للطالبين ، والمراقبة للسائرين ، والمشاهدة للواصلين ،

---

(١) الأنفال : ٢٩ .
(٢) البقرة : ٢٨٢ .
(٣) البقرة : ٢٥٧ .
(٤) النور : ٢١ .

فالمحاضرة للعموم والمراقبة للخصوص والمشاهدة لخصوص الخصوص ، والكل يسمى خشوعًا .

قال بعضهم : الخشوع إطراق السر على بساط النجوى باستكمال نعت الهيبة ، والذوبان تحت سلطان الكشف والإمحاء عند غلبات التجلى اهـ ، ويختص المقام الثالث بقرة العين .

وقال الشيخ زروق : ما يجده فى حالة الطاعة ثلاث : أولها : وجود الأنس به فيها بروح إقباله ، ومنه ما يقع من الرقة والخشوع . الثانى : وجود التملق بين يديه ، وله حلاوة ينسى بها كل شىء . الثالث : حصول الفهم والفوائد العلمية والإلهامات اللدنية ، التى بها يترك كل شىء .

قال بعضهم : فى الدنيا جنة من دخلها لم يشتق إلى جنة الآخرة ولا إلى شىء ولم يستوحش أبدًا ، قيل : وما هى ؟ قال : معرفة الله .

وقال بعض العلماء : ليس فى الدنيا ما يشبه نعيم الجنة إلا ما يجده أهل التملق فى قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة .

وكان بعضهم يقول : التملق للحبيب والمناجاة للقريب فى الدنيا ليس من الدنيا ، هو من الجنة أظهره الله فى الدنيا لا يعرفه إلا هم ، ولا يجده سواهم روحاً لقلوبهم اهـ .

ومنها : ما يجده من الثمرات بعد عملها وهو الذى أشار إليه بقوله :
[وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته] .

قلت : هذه المؤانسة التى يجدها العامل بعد العمل على ثلاثة أقسام : مؤانسة ذكر : وهو لأهل الفناء فى الأفعال . ومؤانسة قرب : وهو لأهل الفناء فى الصفات وهم أهل الاستشراف . ومؤانسة شهود : وهو لأهل الفناء فى الذات ، فالأول لأهل الإسلام ، والثانى لأهل الإيمان ، والثالث لأهل الإحسان . فمؤانسة الأول توجب له الفرار من الناس والوحشة منهم ، ومؤانسة الثانى توجب القرب لهم على حذر منهم ، ومؤانسة الثالث توجب الصحبة لهم ومخالطتهم ، لأنه يأخذ منهم ولا يأخذون منه . فالأول لا تليق به إلا العزلة لضعفه . والثانى تليق به الصحبة مع العفة ليتعلم بالقوة ، فهو يشرب منهم

ولا يشربون منه لبعده منهم بقلبه . والثالث لا تليق به إلا الصحبة لتحققه بالقوة ، فهو يأخذ النصيب من كل شيء ولا يأخذ النصيب منه شيء ، يصفو به كدر كل شيء ولا يكدر صفوه شيء ، ومؤانسة الذكر توصل لمؤانسة القرب ، ومؤانسة القرب توصل لمؤانسة الشهود ، فمن صعد عقبة أفضت به إلى راحة ما بعدها .

قال بعض العارفين : ليس شيء من الطاعات إلا ودونه عقبة كئود يحتاج فيها إلى الصبر ، فمن صبر على شدتها أفضى إلى الراحة والسهولة ، وإنما هي مجاهدة النفس ومخالفة الهوى ، ثم والله مكابدة فى ترك الدنيا ، ثم اللذة والتنعم : أى ثم تكون لذة الطاعة وتنعم المعرفة .

أنواع العبادة

ثم ينبغي لك أيها المريد ألا تقصد شيئًا من هذه الأمور التى يجازيك الحق تعالى بها كانت معجلة أو مؤجلة ، فإن ذلك نقص فى إخلاصك وناقض لصدق عبوديتك ، كما أشار إليه بقوله :

[من عبده لشيء يرجوه منه ، أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة عنه ، فما قام بحق أوصافه] .

قلت : الناس فى عبادة الله باعتبار إخلاصهم على ثلاثة أقسام : فمنهم من يعبد الله خوفًا من عقوبته معجلة أو مؤجلة، أو طمعًا فى رحمته وحفظه عاجلا وآجلا وهم عوام المسلمين ، وفيهم قال عليه الصلاة والسلام :

« لَوْلَا النَّارُ مَاسَجَد لله سَاجِدٌ » .

ومنهم : من يعبد الله محبة فى ذاته وشوقًا إلى لقائه ، لا طمعًا فى جنته وحفظه ، ولا خوفًا من ناره ونكاله ، وهم المحبون العاشقون من السائرين .

ومنهم : من يعبد الله قيامًا بوظائف العبودية ، وأدبًا مع عظمة الربوبية .

أو تقول : صدقًا فى العبودية وقيامًا بوظائف الربوبية ، وهم المحبون العارفون ، فالقسم الأول عبادته بنفسه لنفسه ، والثانى عبادته بنفسه لله ،

والثالث عبادته بالله لله ، ومن الله إلى الله . فمن عبد الله تعالى لشىء يرجوه منه فى الدنيا أو فى الآخرة ، أو ليدفع عنه بطاعته ورود العقوبة فى الدنيا أو فى الآخرة ، فما قام بحق أوصاف الربوبية التى هى العظمة والكبرياء ، والعزة والغنى ، وجميع أوصاف الكمال ونعوت الجلال والجمال إذ نعوت الربوبية من العظمة والجلال تقتضى خضوع العبودية بالانكسار والإذلال .

أرأيت إن لم تكن جنة ولا نار ألم يكن أهلا لأن يعبد الواحد القهار ؟ أرأيت من أنعم بنعمة الإيجاد والإمداد ، أليس أهلا لأن يشكره جميع العباد ؟ فمن كان عبدًا مملوكًا لسيده لا يخدمه فى مقابلة نواله ورفده ، بل يخدمه لأجل عبوديته ورقه ، وسيده لا محالة يقوم بمئونته ورزقه ، أيبرزك لوجوده ويمنعك من جوده ؟ أيدخلك داره ويمنعك إبراره ؟ لقد أسأت الظن بالرب الكريم إن اعتقدت أنك إن لم تعبده منعك من جوده العظيم ، لقد أجرى عليك منته ورزقه وأنت فى ظلمة الأحشاء ، ثم حين أظهرك لوجوده وبسط لك من جوده ، جعلك تتصرف فيه كيف تشاء وتصنع به ما تشاء .

ومما وجد مكتوبًا بقلم القدرة فى حجر فى الكعبة :

تَذَكَّرْ جَمِيلِى فِيكَ إذْ كنْتَ نُطْفَةً
وَلَا تَنْسَ تَصْوِيرِى لِشَخْصِكَ فى الحشا
وَكُنْ وَاثِقًا بِى فى أُمُورِكَ كُلِّهَا
سَأَكْفِيكَ مِنْهَا مَايُخَافُ وَيُخْتَشَى
وَسَلِّمْ إلىَّ الأَمْرَ وَاعْلَمْ بِأَنَّنِى
أُصَرِّفُ أَحْكَامِى وَأَفْعَلُ مَا أَشَا

فاستحى من الله أيها الإنسان أن تطلب أجرًا على عبادة أجراها عليك الواحد المنان ، واذكر قوله تعالى :

(الحَمْدُ لله الذى هَدَانَا لِهٰذَا وَماكُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا الله)[1]

(١) الأعراف : ٤٣ .

وقوله تعالى : (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَايَشَاء وَيَخْتَارُ)[١] وقوله تعالى : (وَمَاتَشَاءونَ إلَّا أَنْ يَشَاءَ الله)[٢] .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا يَكُنْ أَحَدُكُمْ كَالْعَبْد السُّوء ، إنْ خَافَ عَمِلَ ، وَلَا كالأجِيرِ السُّوءِ ، إنْ لَمْ يُعْطَ الأُجْرَة لَمْ يَعْمَلْ » .

وقال سيدنا عمر رضى الله عنه : نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه .

وقال وهب بن منبه : فى زبور داود عليه السلام يقول الله تعالى : ومن أظلم ممن عبدنى لجنة أو نار ، لو لم أخلق جنة ولا نارًا ألم أكن أهلا أن أطاع » اهـ .

وفى أخبار داود أيضًا عليه السلام : إن الله أوحى إليه : إن أودّ الأوداء إلىّ من عبدنى لغير نوال لكن ليعطى الربوبية حقها اهـ .

ثم إن رفعت همتك عن طلب الحظوظ صبت عليك الحظوظ ، فقد ورد فى بعض الأخبار : إن الله يحفظ الأولاد وأولاد الأولاد بطاعة الأجداد ، لقوله تعالى : (وَكانَ أَبُوهُما صَالِحاً)[٣] .

فقد حفظ الحق تعالى كنزهما بصلاح أبيهما ، فقد صبت الحظوظ على الأولاد وهو حفظهم بترك الآباء الحظوظ . وكان سعيد بن المسيب يقول لولده : إنى لأطيل الصلاة من أجلك اهـ . ومعناه : إنى أعبده مخلصًا عله يحفظك ، ثم إن مدد الحق وهو لطفه وإبراره جارٍ على الطائعين فى كل وقت وحين ، سواء أعطاهم فى الحس أو منعهم ، وسواء بسطهم أو قبضهم . وهو ظاهر لمن يفهم عن الله كما أشار إليه بقوله :

[متى أعطاك أشهدك برّه ، ومتى منعك أشهدك قهره ، فهو فى كل ذلك متعرِّف إليك ، ومقبل بوجود لطفه عليك] .

قلت : من أسمائه تعالى « اللطيف والرحيم » فهو تعالى لطيف بعباده رحيم بخلقه فى كل وقت وعلى كل حال ، سواء أعطاهم أو منعهم ، وسواء بسطهم أو قبضهم ، فإن أعطاهم أو بسطهم أشهدهم برِّه وإحسانه ، فعرفوا أنه سبحانه بار بعباده لطيف بخلقه ، رحيم كريم جواد محسن ، فتعْظُم محبتهم فيه ، ويكثر

---

(١) القصص : ٦٨ . (٢)الإنسان : ٣٠ . (٣) الكهف : ٨٢ .

شوقهم واشتياقهم إليه ويكثر شكرهم ، فيزداد نعيمهم . وفى هذا مالا مزيد عليه من البر والإحسان ، والجود والامتنان ، وإن منعهم أو قبضهم أشدهم قهره وكبرياءه فعلموا أنه تعالى قهار كبير عظيم جليل ، فخافوا من سطوته ، وذابوا من خشيته ، وخضعوا تحت قهره ، فدامت عبادتهم ، وقلّت ذنوبهم ، ومُحيت مساويهم ، واضمحلّت خطيئتهم ، فوردوا يوم القيامة خفافًا مطهَّرين فرحين مبهجين ، إذ لا يجمع الله على عبده خوفين ولا أمنين ، فمن أخافه فى الدنيا أمنه يوم القيامة ، ومن أمَّنه فى الدنيا فاغتر أخافه يوم القيامة كما فى الحديث .

فلا تتهم ربك أيها العبد فى المنع ولا فى العطاء ، فإنه متى أعطاك أشهدك بره ورحمته وكرمه ، فعرفت بذلك أنه بر كريم رءوف رحيم ، فتتعلق بكرمه وجوده دون غيره فتتحرر من رق الطمع ، ويذهب عنك الغم والجزع وتتخلق أيضًا بوصف الكرم والرحمة والإحسان ، فإن الله يحب أن يتخلق عبده بخلقه . وفى الحديث : « تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ الرَّحْمنِ » .

وقالت عائشة رضى الله عنها : كان خلق رسول صلى الله عليه وسلم القرآن ، والقرآن فيه أوصاف الرحمن ، فكأنها قالت كان خلقه خلق الرحمن ، إلا أنها احتشمت الحضرة وتأدبت مع الربوبية . ومتى منعك أو قبضك أشهدك قهره وكبرياءه ، فعرفت أنه قهار جبار فيعظم خوفك وتشتد هيبتك وحياؤك منه ، فلا جرم أن الله يعظمك ويكرمك ويحفظك ويستحيى منكم كما استحييت منه ، فإن الله ينزل عبده على قدر منزلته منه ، وإنما يطيع العبد ربه على قدر معرفته به وخوفه منه ، فهو سبحانه وتعالى فى كل ذلك من إعطاء ومنع وقبض وبسط متعرف إليك ، أى طالب منك أن تعرفه بصفاته وأسمائه ، وما من اسم من أسمائه تعالى إلا اقتضى ظهور ما يطلبه .

فاسمه الكريم اقتضى الإعطاء والإحسان وهو ظاهر فى خلقه . واسمه المانع اقتضى ظهور المنع ، فظهر فى عباده أيضًا . واسمه المنتقم اقتضى ظهوره فى قوم وجههم لمخالفته . واسمه القهار اقتضى ظهوره فى قوم يقهرهم على ما يريد من منع أو غيره ، وظهر قهره أيضًا فى عباده بالموت ، فهو من مقتضى اسمه القهار . وهكذا كل اسم يقتضى ظهوره فى الوجود ، وكلها فى بنى آدم ، فإذا

تحققت هذا فى حالة الإعطاء والمنع علمت أيضًا أنه تعالى مقبل بوجود لطفه وإبراره عليك ، إذ هو متعرف إليك فى كل شىء ومقبل عليك فى كل وجه ، فاطلب أيضًا أنت معرفته فى كل حال ، واعرف منّته عليك فى الجمال والجلال ، وأقبل عليه بكليتك ، واستسلم لقهره بروحك وبشريتك ، تكن عبده حقًا وهو ربك حقًا وصدقًا ، والله تعالى أعلم .

ويؤخذ من هذه الحكمة أن المدار إنما هو على قوة الروحانية التى هى المعرفة فى الجلال والجمال لا على قوة البشرية ، لأن بمنعه يحصل للعبد الكمال . وبالله التوفيق .

ثم هذا كله إنما يذوقه من يفهم عن الله كما تقدم ، وإليه أشار بقوله :

[إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه] .

قلت : لأن الفهم عن الله يقتضى وجود المعرفة به ، ولا تكون المعرفة كاملة حتى يكون صاحبها يعرفه فى الجلال والجمال ، والمنع والعطاء ، والقبض والبسط .

وأما إن كان لا يعرفه إلا فى الجمال ، فهذه معرفة العوام الذين هم عبيد أنفسهم ، فإن أعطوا رضوا وإن لم يعطوا إذا هم يسخطون .

وأيضًا من ثمرات المعرفة : التسليم والرضا لما يجرى به القضاء . ومن ثمرات المحبة والهوى : الصبر عند الشدائد والبلوى :

تَدَّعى مَذْهَبَ الهَوَى ثُمَّ تَشْكُو   أىُّ دَعْوَاكَ فى الهَوَى قُلْ لى أينا
لَوْ وَجَدْنَاكَ صَابِرًا لِهَوانا   لمَنَحْنَاكَ كُلَّ مَا تَتَمَنَّى

فلا يكون المحب صادقًا فى محبته ، ولا العارف صادقا فى معرفته ، حتى يستوى عنده المنع والعطاء ، والقبض والبسط ، والفقر والغنى ، والعز والذل ، والمدح والذم ، والفقد والوجد ، والحزن والفرح ، فيعرف محبوبه فى الجميع كما قال القائل :

* حَبِيبِى وَمَحْبُوبِى عَلَى كُلِّ حالَةٍ *

ويرضى ويسلم فى الجميع ، فإن لم يجد ذلك عنده سواء فلا يدعى مرتبة العشق والهوى ، فيعرف قدره ولا يتعدى طوره ، ولا يترامى على مراتب

الرجال . من ادعى ما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان ، ولابن الفارض رضى الله عنه :

فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَحْيا سَعِيدًا فَمُتْ بِهِ
شَهِيدًا وَإِلَّا فَالْغَرامُ لَهُ أَهْلُ

وقال إبراهيم الخواص رضى الله عنه : لا يصح الفقر للفقير حتى تكون فيه خصلتان : إحداهما الثقة بالله ، والأخرى الشكر لله فيما روى عنه مما ابتلى به غيره من الدنيا .

وقيل لبعضهم : ما الزهد عندكم ؟ قال : إذا وجدنا شكرنا ، وإذا فقدنا صبرنا فقال هذه حالة الكلاب عندنا ببلخ ، فقال وما الزهد عندكم أنتم ؟ قال : إذا فقدنا شكرنا ، وإذا وجدنا آثرنا ، فهذا هو الفهم عن الله حيث شكر حين الفقد ، فقد عد الفقد نعمة ، والفاقة غنى ، لما يجد فيها من المواهب والأسرار ، ولما يترقب بعدها من ورود الواردات والأنوار ، ولو لم يكن إلا التفرغ من الشواغل والأغيار ، وبهذا تزكو الأحوال ، وتعظم الأعمال ، ويتأهل صاحبها للقبول والإقبال ، وإلا فلا عبرة بصورة وجودها مع عدم قبولها ، كما نبه على ذلك بقوله :

[ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول] .

قلت : لا عبرة بالطاعة إذا لم يصحبها قبول ، كما لا عبرة بالسؤال حيث لم يحصل به مأمول ، إذ الطاعة إنما هى وسيلة لمحبة المطاع ، وإقباله على المطيع ، بحيث يفتح فى وجهه الباب ، ويرفع عن قلبه وجود الحجاب ، ويجلسه على بساط الأحباب ، فإذا فتح لك باب العمل ، وبلغت فى تحصيله غاية الأمل ، غير أنك لم تجد له ثمرة ، ولم تذق له حلاوة ، من الأنس بالله والوحشة مما سواه ، ومن الغنى به والانحياش إليه ، والاكتفاء بعمله ، والقناعة بقسمته ، فلا تغتر بذلك أيها المريد ، فربما فتح لك باب طاعته ، وأنهضك إلى خدمته ، ولم يفتح لك باب القبول ، ومنعك بها من الوصول ، حيث اعتمدت عليها ، وركنت إليها ، وأنست بها ، وأشغلتك حلاوتها عن الترقى إلى حلاوة شهود المنعم بها .

ولذلك قال بعضهم : احذروا حلاوة الطاعات فإنها سموم قاتلة ، لأنها تقبض صاحبها فى مقام الخدمة ، ويحرم من مقام المحبة . وفرق كبير بين من شغله بخدمته ، وبين من اصطفاه لمحبته ، واجتباه لحضرته .

قد يكون الذنب سبب الوصول

فإجراء الذنب على العبد أحسن من مثل هذه الطاعة التى تكون سبب الحجاب ، كما نبه عليه بقوله :

[وربما قضى عليك الذنب فكان سببًا فى الوصول] .

قلت : وذلك أن العبد إذا كان سائرًا لمولاه ، قاصدًا لوصول حضرة حبيبه ورضاه فقد يحصل له كلل ، أو يصيبه ملل ، أو يركبه كسل ، فسلط الحق عليه ذنبًا ، أو تغلبه نفسه فيسقط ، فإذا قام من سقطته جد فى سيره ، ونهض من غفلته ، ونشط من كسله ، فلا يزال جادًّا فى طلب مولاه غائبًا عما سواه ، حتى يدخل حضرته ويشاهد طلعته ، وهى الحضرة التى هى تجليات الحق وأسرار ذاته . ومثال ذلك رجل مسافر أصابه فى الطريق نوم أو كسل فيسقط فيضربه حجر ، فإذا قام ذهب كسله وجد فى سيره .

وفى الحديث : « رُبَّ ذَنْبٍ أَدْخَلَ صَاحِبَهُ الجَنَّةَ ، قَالُوا : وَكَيْفَ ذَلِكَ يَارَسُولَ الله ؟ قالَ : لاَيَزَالُ تَائِبًا فَارًّا مِنْهُ خَائِفاً مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يموتَ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ » . أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وفى حديث آخر عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَالَّذِى نفسِى بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ الله بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ » اهـ .

وقال صلى الله عليه وسلم فى شأن الطاعة التى لم تقبل :

« رُبَّ صَائمٍ لَيْسَ لَهُ مَنْ صِيَامِهِ إلا الجوعُ ، وَقَائمٍ لَيْسَ له مِنْ قِيَامِهِ إلَّا السَّهَرُ » .

فمثل هذه الطاعة المعصية التى يصحبها الانكسار أحسن منها بكثير ؛ كما أبان ذلك بقوله :

[معصية أورثت ذلا وافتقارًا ، خير من طاعة أورثت عزًّا واستكبارًا] .

قلت : إنما كانت المعصية التى توجب الانكسار أفضل من الطاعة التى توجب الاستكبار ، لأن المقصود من الطاعة هو الخضوع والخشوع والانقياد والتذلل والانكسار : « أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهم مِنْ أَجْلِي » .

فإذا خلت الطاعة من هذه المعانى واتصفت بأضدادها ، فالمعصية التى توجب هذه المعانى ، وتجلب هذه المحاسن أفضل منها ، إذ لا عبرة بصورة الطاعة ولا بصورة المعصية وإنما العبرة بما ينتج عنها :

« إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وَلَا إلى أَعْمَالِكُمْ ، وَإنما يَنْظُرُ إلَى قُلُوبِكُمْ » .

فثمرة الطاعة هى الذل والانكسار ، وثمرة المعصية هى القسوة والاستكبار ، فإذا انقلبت الثمرات انقلبت الحقائق ، وصارت الطاعة معصية والمعصية طاعة . ولذلك قال المحاسبى رضى الله عنه : إنما مراد الله سبحانه من عباده قلوبهم ، فإذا تكبر العالم أو العابد وتواضع الجاهل والعاصى وذل هيبة لله عز وجل وخوفًا منه ، فهو أطوع لله عز وجل من العالم والعابد بقلبه اهـ .

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : كل إساءة أدب تثمر أدبًا فليست بإساءة أدب . وكان رضى الله عنه كثير الرجاء لعباد الله الغالب عليه شهود وسع الرحمة .

وكان رضى الله عنه يكرم الناس على نحو رتبتهم عند الله ، حتى إنه ربما يدخل عليه مطيع فلا يبالى به ، وربما دخل عليه عاص فأكرمه ، لأن ذلك الطائع أتى وهو متكبر بعمله وناظر لفعله ، وذلك العاصى دخل بكثرة معصيته وذلته ومخالفته . قاله المصنف فى لطائفه .

وقال أبو يزيد رضى الله عنه : نوديت فى سرى : خزائنى مملوءة بالخدمة ،

فإن أردتنا فعليك بالذلة والافتقار .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَاهُوَ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ : الْعُجْبُ » كذا فى الصحيحين ، وقال عليه الصلاة والسلام : « لَوْلَا أَنَّ الذَّنْبَ خَيْرٌ مِنَ الْعُجْبِ مَاخَلَّا الله بَيْنَ مُؤْمِنٍ وَذَنْبٍ أَبَدًا » .

وقال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه : انكسار العاصى خير من صولة المطيع .

وقال شيخ شيوخنا رضى الله عنه : معصية بالله خير من ألف طاعة بالنفس اهـ .

ومعنى كلام الشيخ : أن العبد إذا أجريت عليه زلة لم يقصدها بقلبه ، وإنما جرته القدرة إليها رغمًا على أنفه ثم ندم وانكسر ، فهى فى حقه خير من ألف طاعة يشهد فيها نفسه ويتبجح بها على عباد الله ، ولله در صاحب العينية حيث يقول :

وَأَسْلَمْتُ نَفْسِى حَيْثُ أَسْلَمَنِى الهوَى ... وَمَالِىَ عَنْ حُكْمِ الْحَبِيبِ تَنَازُعُ
فَطَوْرًا تَرَانِى فى المَسَاجِدِ رَاكِعًا ... وَإِنِّى طَوْرًا فى الكَنَائِسِ رَاتِعُ
أَرَانِى كالآلاتِ وَهْوَ مُحَرِّكِى ... أَنَا قَلَمٌ والإقتِدَارُ أَصَابِعُ
وَلَسْتُ بِجَبْرِىٍّ وَلكن مُشَاهِدٌ ... فِعَالَ مُرِيدٍ ماَ لَهُ مَنْ يُدَافِع
فَآوِنَةً يَقْضِى عَلَىَّ بِطَاعَةٍ ... وَحِينًا بِمَا عَنْهُ نَهَتْنَا الشَّرَائِعُ
لِذَاكَ تَرَانِى كُنْتُ أَتْرُكُ أَمْرَهُ ... وَآتِى الذى أُنْهَاهُ وَالجَفْنُ دَامِعُ
وَلِى نُكتَةٌ غَرَّاءُ سَوْفَ أَقُولُهَا ... وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَرْعَوِيهَا المَسَامِعُ
هِىَ الفَرْقُ مَا بَيْنَ الْوَلِىِّ وَفَاسِقٍ ... تَنَبَّهْ لهَاَ فَالأَمْرُ فيه فَظَائِعُ
وَمَا هُوَ إلَّا أَنَّهُ قَبْلَ وَقْعِهِ ... يُخَبِّرُ قَلْبِى بالذِى هُوَ وَاقِعُ
فَأَجْنِى الذِى يَقْضِيه فِىَّ مُرَادُهَا ... وَعَيْنِى لَهُ قَبْلَ الفِعَالِ تُطَالِعُ
فَكُنْتُ أَرَى مِنْهَا الإِرَادَةَ قَبْلَ مَا ... أَرَى الفِعْلَ مِنِّى وَالأَسِيرُ مُطَاوِعُ

١٠ فأَنِى الذِى تَهْوَاهُ نَفْسِى وَمهجَتِى لِذَلِكَ فى نَارِ حَوَتْها الأَضَالِعُ
إذَا كُنْتُ فى حُكْمِ الشَّرِيعَة عَاصِيًا فَإِنِّى فى عِلْمِ الْحقيقَةِ طَائِعُ

فأشار إلى الفرق بين معصية الولى ومعصية الفاسق ، وذلك من ثلاثة أوجه : الولى لا يقصدها ولا يفرح بها ولا يصرّ عليها ، والفاسق بالعكس فى الجميع .

وقيل للجنيد : أيزنى العارف ؟ فقال :

(وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا)[1] .

لكن معصية الولى حدها الظاهر . ولذلك قال ابن عطاء الله : ليت شعرى لو قيل له أتتعلق همة العارف بغير الله لقال لا اهـ .

ولما كانت النعم تقتضى من العبد شكرها ، وشكرها هو العمل بطاعة الله فيها . قال الجنيد : الشكر ألا يعصى الله بنعمه . بين الشيخ أصول النعم وفروعها فقال :

[نعمتان ما خرج موجود عنهما ولابد لكل مكون منهما : نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد] .

قلت : أما نعمة الإيجاد فهى الإظهار من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، أو من عالم الأمر إلى عالم الخلق ، أو من عالم الأرواح إلى عالم الأشباح ، أو من عالم القدرة إلى عالم الحكمة ، أو من عالم التقدير إلى عالم التكوين .

وأما نعمة الإمداد : فهى قيامه تعالى بالأشياء بعد وجودها ، وإمداده إياها بما تقوم به بنيتها ، وهاتان النعمتان عامتان . واختص الإنسان بما اجتمع فيه من الضدين ، وهما النور والظلمة ، والطاقة والكثافة ، فلو بقيت أيها الإنسان على ما كنت عليه من العدم فى عالم القدم لم تتمتع بنعمتين : نعمة الأشباح ، ونعمة الأرواح ، ولو تجلى فيك بوجهة واحدة لكنت ناقصًا فى شهود المعرفة ، لأن مزية الآدمى فى المعرفة أعظم ، إذ بقدر المجاهدة يكون الترقى فى المشاهدة ، لما فيه من الكثافة واللطافة ، فكلما لطف من كثافة ترقى فى مشاهدة ربه ، ولما فيه من النور والظلمة ، فكلما انتفت الظلمة قوى النور بخلاف غيره من الجن والملائكة

---

(١) الأحزاب : ٣٨ .

غير المقربين ، قال الله تعالى فى حق الملائكة :

(وَمَا مِنَّا إلاَّ لَهُ مَقَامٌ معْلُومٌ)[١] .

فما مثل الآدمى إلا كياقوتة سوداء وهى أعظم اليواقيت ، كلما صقلتها أشرقت وزاد نورها وجمالها ، ومثل الملائكة كالزجاج إذا صقل مرة كفاه ولا يزيد نوره على أصله .

فلو بقيت أيها الإنسان على ما كنت عَليهْ مْن العدم أو من اللطافة بعد قبضة القدم لم يكن لك مزية على غيرك .

ومما يدلك على أن تجلى الآدمى أعظم اختصاصه بالجنة والنظر ، قال تعالى :

(وَتَرَى الملائِكَةَ حَافِّين مِنْ حَوْلِ الْعَرش)[٢] .

والكلام إنما هو مع الخواص ، فخواص الآدمى ، أعنى الأنبياء أعظم من خواص الملائكة ، وخواص الملائكة أعنى المقربين أعظم من خواص الآدمى أعنى العارفين ، والعارفون أعظم من عوام الملائكة ، وعوام الملائكة أعظم من عوام بنى آدم والله تعالى أعلم . فأنعم الحق سبحانه عليك أيها الإنسان أولا بنعمة الإيجاد ، وأصحبك الرأفة والوداد لتَظهر مزيتُك وتكمُل نعمتك ، ثم أنعم عليك ثانيًا بنعمة الإمداد حسية ومعنوية .

أما المدد الحسى ، فغذاء البشرية من أول النشأة إلى منتهاها . وأما المدد المعنوى : فغذاء الروح من قوت اليقين والعلوم والمعارف والأسرار .

ثم إن هذا المدد المعنوى من حيث هو ينقسم إلى ثلاثة أقسام : منه ما لا يزيد ولا ينقص ، وهو مدد الملائكة . قال تعالى فيهم :

(وَما مِنَّا إلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ) .

ومنه ما يزيد وينقص ، وهو مدد عوام بنى آدم . ومنه ما لايزيد ولا ينقص ، وهو مدد خواصهم كالرسل والأنبياء وأكابر الأولياء ، ومن تعلق بهم ممن دخل تحت حضانتهم ، ولزم عشهم من الفقراء والمريدين السائرين ، فمددهم فى

(١) الصافات : ١٦٤ . (٢) الزمر : ٧٥ .

الزيادة على الدوام ، وهذا المدد ثابت للروح قبل اتصالها بالبشرية ، فذلك أقرت بالربوبية فى عالم الذر .

قال فى التنوير : اعلم أن الحق سبحانه تولاك بتدبيره على جميع أطوارك ، وقام لك فى كل ذلك بوجود إبرارك ، فقام لك بحسن التدبير يوم المقادير يوم قال :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾[1] .

ومن حسن تدبيره لك أن عرّفك به فعرفته ، وتجلى لك فشهدته ، واستنطقك وألهمك الإقرار بربوبيته فوحدته ، ثم إنه جعلك نطفة مستودعة فى الأصلاب ، تولاك بتدبيره هنالك حافظًا لك وحافظًا لما أنت فيه ، موصلا لك المدد بواسطة ما أنت فيه من الآباء إلى أبيك آدم ، ثم قذفك فى رحم الأم فتولاك بحسن التدبير ، وجعل الرحم قابلة لك أرضا يكون فيها نباتك ، ومستودعًا تعطى فيها حياتك ، ثم جمع بين النطفتين وألف بينهما فكنت عنهما لما بنيت عليه الحكمة الإلهية من أن الوجود كله مبنى على سر الازدواج ثم جعلك بعد النطفة علقة مهيأة لما يريد سبحانه أن ينقلها إليه ، ثم بعد العلقة مضغة ، ثم فتق سبحانه فى المضغة صورتك وأقام فيها بنْيتك ، ثم نفخ فيك الروح بعد ذلك ، ثم غذاك بدم الحيض فى رحم الأم فأجرى عليك رزقه من قبل أن يخرجك إلى الوجود ثم أبقاك فى رحم الأم حتى قويت أعضاؤك واشتدت أركانك ، ليهيئك إلى البروز إلى ما قسم لك أو عليك ، وليبرزك إلى دار يتعرف فيها بفضله وعدله إليك ، ثم لما أنزلك إلى الأرض ، علم سبحانه أنك لا تستطيع أن تتناول خشونات المطاعم وليس لك أسنان ولا أرحى تستعين بها على ما أنت طاعم ، فأجرى الثديين بالغذاء اللطيف ، ووكل بهما مستحث الرحمة التى جعلها فى قلب الأم ، فكلما وقف اللبن عن البروز استحثته الرحمة التى جعلها لك فى الأم مستحثًا لا يفتر ومستنهضًا لا يقصر ، ثم إنه شغل الأب والأم بتحصيل مصالحك والرأفة عليك والرحمة والنظر بين المودة منهما إليك ، وما هى إلا رأفته ساقها للعباد فى مظاهر الآباء والأمهات تعريفًا بالوداد ، وفى حقيقة الأمر ما كفلتك إلا ربوبيته ،

---

(١) الأعراف : ١٧٢ .

وما حضنتك إلا ألوهيته . ثم ألزم الأب القيام بك إلى حين البلوغ وأوجب عليه ذلك رأفة منه بك ، ثم رفع قلم التكليف عنك إلى أوان تكمل الأفهام ، وذلك عند الاحتلام ، ثم إلى أن صرت كهلا لم يقطع عنك نوالا ولا فضلا ، ثم إذا انتهيت إلى الشيخوخة ، ثم إذا قدمت عليه ، ثم إذا حشرت إليه ، ثم إذا أقامك بين يديه ، ثم إذا سلمك من عقابه ، ثم إذا أدخلك دار ثوابه ، ثم إذا كشف عنك وجود حجابه وأجلسك مجالس أوليائه وأحبابه . قال سبحانه :

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ)[١] .

فلأى إحسانه تشكر ؟ ولأى أياديه تذكر واسمع قوله سبحانه :

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ)[٢] .

تعلم أنك لم تخرج عن إحسانه ، ولن يعدوك وجود فضله وامتنانه اهـ كلامه فى التنوير ، وهو شرح لهذه الحكمة لاشتماله على النعمتين إيجادًا وإمدادًا .

ومن نعمة الإمداد المعنوى نعمة الإسلام والإحسان ، وحفظ ذلك وإدامته علينا فى كل وقت وحين ، وزيادة الترقى فى المعرفة واليقين ، إلى يوم الدين ، فالحمد لله رب العالمين .

ثم المقصود بالنظر إلى هاتين النعمتين هو الإنسان وإن كانتا عامتين فى جميع الأكوان ، إذ هو المطلوب بشكرها والتحدث بذكرها ، ولذلك خصه بالخطاب كما أشار إلى ذلك بقوله :

[أنعم عليك أولا بالإيجاد ، وثانيًا بتوالى الإمداد] .

قلت : توالى الإمداد هو تتابعه واتصاله ، سواء كان حسيًّا أو معنويًّا ، ففى كل ساعة ولحظة أنت مفتقر إلى أمداده قلبًا وقالبًا ، كما أبان ذلك بقوله :

[فاقتك لك ذاتية ، وورود الأسباب مذكرة لك بما خفى عليك منها ، والفاقة الذاتية لا ترفعها الغوارض] .

قلت : الفاقة الذاتية هى الأصلية الحقيقية ، والأسباب المحركة لها هى

---

(١) القمر : ٥٤ ، ٥٥ .   (٢) النحل : ٥٣ .

العوارض الجلالية ، وهى كل ما يقهر النفس ويزعجها عن حظوظها وتصرفاتها العادية ، وإنما كانت فاقتنا ذاتية لا تفارقنا ساعة واحدة ، لأن نشأتنا مركبة من حس ومعنى ، ولا يقوم الحس إلا بالمعنى ، والمعنى هو أسرار الربوبية القائمة بالأشياء ، فأشباحنا مفتقرة فى كل لحظة إلى نعمة الإمداد بعد نعمة الإيجاد ، وما الحكمة إلا بالقدرة ، ولا البشرية إلا بالروحانية . والروح سر من أسرار الله ، قال الله تعالى : (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى)[1] .

فالبدن قائم بالروح ، والروح أمر من أمر الله ، وكل شىء قائم بأمر الله ، فافتقار البشرية للروحانية حاصل على الدوام ، قال تعالى فى نعمة الإيجاد : (يٰأَيُّها الناسُ أَنْتُم الْفُقَراء إِلَى الله والله هُوَ الْغَنِىُّ الحميدُ)[2] .

فهذا هو الافتقار إلى نعمة الإيجاد ، ثم قال فى نعمة الإمداد : (إِنْ يَشأْ يُذْهِبْكُمْ وَيأْتِ بِخَلقٍ جَديدٍ)[3] .

وهذا هو افتقارنا إلى نعمة الإمداد ، وقال تعالى فى افتقار بقية العالم : (إِنَّ الله يُمْسِكُ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ)[4] .

فالكون كله قائم بأمر الربوبية ، مظهر من مظاهر لا قيام له بدونها .

قال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه : الحق سبحانه مستبد والوجود مستمد ، والمادة من عين الجود ، فإذا انقطعت المادة : أى مادة المعنى انهد الوجود اهـ . والمراد بالوجود ظهور الحس ، وعين الجود هو المعانى اللطيفة القديمة .

يعنى أن الحق تعالى مستبد أى قائم بنفسه ، وظهور تجلياته مستمدة من باطن صفاته ، ومادة الأشياء كلها من عين الجود وهى نعمة الإيجاد والإمداد ، فإذا انقطعت المادة ، أى مادة المعنى من الحس اضمحل الحس واضمحلت الأكوان ، فلو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته ، ففاقتك ، أى افتقارك أيها الإنسان لك

---

(١) الإسراء : ٨٥ .
(٢) فاطر : ١٥ .
(٣) فاطر : ١٦ .
(٤) فاطر : ٤١ .

ذاتية ، أى أصلية حقيقية لكنها خفية ، وورود الأسباب المحركة لظهور تلك الفاقة وهى الشدة والحيرة ، وكل ما يلجئك إلى مولاك مذكرة لك ما خفى عنها منها .

يعنى أن فاقتك لا تفارقك إذ كل لحظة تفتقر إلى من يمدك بالوجود فى الساعة الثانية إلا أنها خفية لا تذكرها حتى يتحرك عليك أسباب ظهورها كالفتن والمرض وغيرهما ، والفاقة الأصلية الذاتية لا ترفعها العوارض وهى الصحة والعافية ، فما دام العبد فى العافية ففاقته خفية لا يتفطن لها إلا العارفون لأنه لا يزول اضطرارهم ، فإذا قام عليه جلال أو محرك ظهر افتقاره وتحقق اضطراره مع أنه دائم فى الفاقة حسه ومعناه ، والله تعالى أعلم .

ثم إن رجوع الشىء إلى أصله مرغب فيه وخروجه عن أصله لا خير فيه ، وأصلك أيها الإنسان هو الفاقة والاضطرار والذلة والانكسار ، فكل ما يردك إلى أصلك فهو لك فى غاية الحسن والاختيار ، كما أبان ذلك بقوله :

[خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك ، وتُرد فيه إلى وجود ذلتك] .

قلت : إنما كان شهود الفاقة هو خير أوقاتك لوجهين :

أحدهما : ما فى ذلك من تحقيق العبودية وتعظيم شأن الربوبية ، وفى ذلك شرف العبد وكماله ، إذ بقدر تحقيق العبودية فى الظاهر يعظم شهود الربوبية فى الباطن .

أو تقول : بقدر العبودية فى الظاهر تكون الحرية فى الباطن .

أو تقول : بقدر الذل فى الظاهر يكون العز فى الباطن .

أو تقول : بقدر وضع الظاهر يكون رفع الباطن . من تواضع دون قدره رفعه الله فوق قدره . وانظر أشرف خلق الله وهم الأنبياء بماذا خاطبهم الله تعالى ، فما خاطبهم إلا بالعبودية ، قال الله تعالى :

(سُبْحَانَ الذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا)[1] ، (واذْكُرْ عِبَادَنَا إبْراهيم

---

(١) الإسراء : ١ .

وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ)[١] ، (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ)[٢] ، (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيوب)[٣] .

وقد اختارها نبينا صلى الله عليه وسلم حين خير بين أن يكون نبيًّا ملكًا أو نبيًّا عبدًا فاختار أن يكون نبيًّا عبدًا ، فدل على أن أشرف حال الإنسان هو العبودية ، فبقدر ما يتحقق بها فى الظاهر يعظم قدره فى الباطن ، ومهما خرج منها فى الظاهر بإظهار الحرية أدبته القدرة وردته القهرية حتى يرجع إلى أصله ويعرف ماله وعليه .

الوجه الثانى : ما فى الفاقة من مزيد المدد وطلب الاستمداد :

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالمسَاكِينِ)[٤]

إن أردت بسط المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك ، كما يأتى إن شاء الله . وقد جعل الله النصر والفتح مقرونين بالفاقة والذلة ، وتحقيق الضعف والقلة ، قال الله تعالى :

(ولَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ)[٥] ، وقال تعالى : (وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ)[٦] .

وجعل الخذلان وعدم النصر والمعونة فى إظهار الحرية والقوة . قال تعالى :
(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أعجبتكم كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُدْبِرِين)[٧] .

وذلك لما وقع من بعض الصحابة الذين كانوا حديثى عهد بالإسلام ، فأدبهم الله بإظهار الحرية ، ولكن عمت الفتنة .

---

(١) ص : ٤٥ .
(٢) ص : ١٧ .
(٣) ص : ٤١ .
(٤) التوبة : ٦٠ .
(٥) آل عمران : ١٢٣ .
(٦) الأعراف : ٨٥ .
(٧) التوبة : ٢٥ .

قال تعالى : (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)[١] .

وهذا وجه ذكر الآية قبل ذكر القضية ، والله تعالى أعلم .

فإذًا خير أوقاتك أيها المريد وقت تشهد فيه وجود فاقتك : أى ظهورها وإلا فهى كامنة فيك كما تقدم ، وتسمى عند المتأخرين الحيزة وهى الشدة ، فهى خير لك من ألف شهر إن عرفت فيها ربك .

والمعرفة فيها أن تسكن عن التحرك والاضطراب ، وتقطع النظر عن التعلق بالأسباب ، وترجع فيها إلى مسبب الأسباب ؛ وتعلق همتك برب الأرباب ، وتكتفى بعلم الله الكريم الوهاب . ولقد سمعت شيخنا اليزيدى رضى الله عنه يقول : العجب من الإنسان يرى الخير أو الفتح واصلا إليه وقادمًا عليه ثم يقوم يبادر بسد الباب فى وجهه ، وهو أن يرى الفاقة قادمة عليه فيبادر إلى الأسباب التى تقطعها عنه قبل وصولها ، فقد كان الربح واصلا إليه فقام فردّه أو ما هذا معناه . وخير أوقاتك أيضًا وقت تشهد فيه وجود ذلتك كما تقدم ، لأنه سبب عزك ونصرك ، إذ الأشياء كامنة فى أضدادها . العز فى الذل ، والغنى فى الفقر ، والقوة فى الضعف ، والعلم فى الجهل : أى فى إظهار الجهل ، إلى غير ذلك ، قال تعالى : (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فى الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)[٢] .

وقال تعالى فى حق الصحابة رضى الله عنهم حين كانوا فى حالة الاستضعاف والإذاية تسلية لهم :

(وَعَدَ اللهُ الذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَعَمِلوا الصَّالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الأَرْضِ كما اسْتَخْلَفَ الذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)[٣] الآية .

ومما جرت به العادة الإلٰهية أن الفرج على قدر الضيق ، فبقدر الفقر يكون الغنى ، وبقدر الذل يكون العز ، وبقدر العسر يكون اليسر .

والحاصل : بقدر الجلال يكون الجمال عاجلا وآجلا ، قال تعالى :

---

(١) الأنفال : ٢٥ .　　(٢) القصص : ٥ .　　(٣) النور : ٥٥ .

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)[1] وقال ﷺ : « لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ » .

كما فى الحديث حيث قال عليه الصلاة والسلام لابن عباس رضى الله عنهما :
« وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَع الْكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » اهـ .

خير أوقاتك

ثم إذا صح فقرك إليه وتحققت ذلتك بين يديه أتحفك بأنسه وزجّ بك فى حضرة قدسه ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[**متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به**] .

قلت : هذه سنة الله تعالى فى خلقه إذا أراد أن يؤنس عبده بذكره ، ويتحفه بمعرفته ، أوحشه من خلقه ، وشغله بخدمته ، وألهمه ذكره ، حتى إذا امتلأ قلبه بالأنوار وتمكن من حلاوة الشهود والاستبصار ، رده إليهم رحمة لهم ، لأنه حينئذ لقوته يأخذ منهم ولا يأخذون منه ، ومثاله فى الحس كفتيلة أشعلتها ، فمادامت ضعيفة لابد أن تحفظها من الريح وتقصد بها المواضع الخفية ، فإذا اشتد نورها وأشعلتها فى الحطب صعدت بها إلى ظهور الجبال ، فبقدر ما يضيبها الريح يعظم اشتعالها ، كذلك الفقير مادام فى البداية لا يليق به إلا الوحشة من الخلق والفرار منهم ، فإذا تمكن فى الشهود فلا يليق به حينئذ إلا الخلطة معهم ، لأنهم لا يضرونه .

فمتى أوحشك أيها الفقير من خلقه وعزلك عنهم فى قلبك ، فاعلم أنه تعالى أراد أن يؤنسك به ويغنيك بمعرفته ، فقد كان عليه الصلاة والسلام حين قرب أوان النبوة والرسالة حبب إليه الخلوة ، فكان يخلو بغار حراء . وحكمة ذلك تصفية البواطن من الشواغل والشواغب ، لتتهيأ لقبول ما تتحمله من الأسرار

---

(١) الشرح : ٥ ، ٦ .

والمواهب ، فإذا تطهر من الأكدار ملئ بالأنوار ، فأشرقت فيه شموس العرفان ، وتمكن من حضرة الشهود والعيان ، فهذه سنة الله فى أوليائه وأصفيائه يفرون أولا من الناس حتى يحصل لهم منهم الإياس ثم يردهم الحق إليهم رغمًا على أنفهم لمقام الدلالة والإرشاد ، فينتفع بهم العباد وتحيا بوجودهم البلاد ، وفى مثلهم قال الشاعر :

تَحْيَا بِكُمْ كُلُّ أَرْضٍ تَنْزِلُونَ بِهَا
كَأَنَّكُمْ فى بِقَاعِ الأرضِ أَمْطَارُ

وَتَشْتَهِى العَيْنُ فيكم مَنْظَرًا حَسَناً
كَأَنَّكُمْ فى عُيُونِ الناسِ أَزْهَارُ

وَنُورُكُمْ يَهْتَدى السَّارِى بِرُؤْيَتِه
كَأَنَّكُم فى ظَلَامِ الليلِ أقمارُ

لَا أَوحَش الله رَبْعًا مِنْ زِيَارَتِكُمْ
يَامَن هُمُ فى الحشَا وَالْقَلْبِ تَذْكارُ

نفعنا الله بهم وحققنا بمعرفتهم آمين .

ثم إذا فتح لك باب الأنس وتشوقت إلى حضرة القدس ، ثم أطلق لسانك بطلبها فاعلم أنه يريد أن يفتح لك بابها كما أشار إلى ذلك بقوله :

[**متى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك**] .

قلت : لأن الحق تعالى جعل الطلب سببًا من الأسباب ، فإذا أراد أن ينجز للعبد ما سبق له فتح له فيه باب الطلب ، فإذا حصل منه الطلب حصل الذى قسم له فى الأزل إظهارًا لحكمته وإخفاء لقدرته وتغطية لنسره ، فالدعاء من جملة الأسباب العادية كالحرث والدواء والتزوج فى الولد وغير ذلك وكل ذلك سبقت به المشيئة ونفذ به القضاء والقدر ، فما بقى الدعاء إلا إظهارًا للفاقة وإبقاء لرسم العبودية لا طلبًا لحصول ما لم يكن . جل حكم الأزل أن يضاف للأسباب والعلل .

فمتى أطلق لسانك أيها المريد بالطلب لشيء تجلى فى قلبك أو احتجت إليه فاعلم أن الحق تعالى أراد أن يعطيك ما طلبت منه فلا تحرص ولا تستعجل ، فكل شيء عنده بمقدار ، فإن أطلق لسانك فى الدعاء من غير سبب ، فخير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك كما تقدم .

قال رسُول اللهَّ صلى الله عليهِ وسلم : « مَنْ أُعْطِيَ الدُّعَاءَ لَمْ يُحْرَمِ الإِجَابَةَ » وقال أيضًا عليه الصلاة والسلام : « مَنْ أُذِنَ لَهُ فى الدُّعَاء فَقَدْ فُتِحَتْ لهُ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ ، وَمَا سُئِلَ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ العَفْوِ وَالعَافِيَةِ » .

وقال الكتانى رضى الله عنه : لم يفتح الله لسان المؤمن بالمعذرة إلا وقد فتح له بالمغفرة اهـ .

وقال الخفاف رحمه الله : وكيف لا يجيبه وهو يحب صوته ، ولولا ذاك ما منح الدعاء ، وفى ذلك قيل :

لَوْ لَمْ تُرِدْ نَيْلَ مَا أَرْجُو وَأَطْلُبُهُ
مِنْ فَيْضِ جُودِك مَاعَلَّمْتَنى الطَّلَبَا

ثم هذا كله قبل فتح باب المعرفة .

وإذا فتح لك الباب فلا تحتاج إلى طلب لغناك بسبب الأسباب ، فيكون دعاؤك إنما هو إظهار للفاقة والاضطرار اللازمتين لك مع كل نفس ، وفى كل وقت وحالة كما أشار إليه بقوله :

[العارف لا يزول اضطراره ولا يكون مع غير الله قراره] .

قلت : أما وجه كونه لا يزول اضطراره فلتحقق قيوميَّة الحق به إذ الحس لا يقوم إلا بالمعنى ، فحس العبودية لا يقوم إلا بمعنى الربوبية ، فبقدر تحقق العبد بقيومية الربوبية يشتد اضطراره فى ظاهر العبودية . وأيضًا العارف لا يزال فى الترقى ، فهو متعطش للزيادة على الدوام كما قال النقشبندى رحمه الله :

وَذُو الصَّبابَةِ لَوْ يُسْقَى عَلَى عَدَدِ الْأَنْـ
ـفاس وَالكَوْنُ كَأْسٌ لَيْسَ يُرْوِيهِ

وقال آخر :

سَقَانِى الْحبَّ كَأْسًا بعد كأسٍ
فَمَا نَفِدَ الشَّرَابُ وَلَا رَوِيتُ

وقال بعضهم : لو شربت فى كل لحظة ألف بحر لا ترى ذلك إلا قليلا وتشهد شفتيك يابسة ، وكل ذلك كناية عن عدم النهاية وأن المقصود غير منضبط ، فالعارف لا يزال مفتقرًا للزيادة على الدوام ، فلا يزول اضطراره على الدوام ، وقد قال الله تعالى لسيد العارفين : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا)[1] .

فالاضطرار إلى زيادة العلم لا ينقطع ولو جمع علوم أهل السموات والأرض . قال تعالى مخاطبًا للكل :

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِن العِلمِ إلَّا قَلِيلًا)[2] .

وأما وجه كونه لا يكون مع غير الله قراره ، فلأن قلب العارف رحل إلى الله من الكون بأسره ، فلم تبق له حاجة إلى غيره ، فقراره إنما هو شهود الذات الأقدس ، فإن نزل إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فبالإذن والتمكن والرسوخ فى اليقين ، فالعارف ليس له عن نفسه إخبار ، ولا مع غير الله قرار . وأيضًا سابق العناية لا يتركه يركن إلى غير مولاه ، فمهما ركن قلبه إلى شىء شوشته عليه العناية ، واكتنفته الرعاية ، فهو محفوظ من الأغيار ، محفوف من كل جهة بمدد الأنوار ، إذ كان الله حرس السماء من استراق السمع ، فكيف لا يحرس قلوب أوليائه من الأغيار ، وما تولاهم بمحبته حتى حفظهم من شهود غيره ، فكيف بالركون ؟ هيهات هيهات ، هذا لا يكون .

---

(١) طه : ١١٤ .　　(٢) الإسراء : ٨٥ .

أنوار الظواهر

من كان ظاهره محفوفًا بالأنوار ، وباطنه محشوًّا بالأسرار ، فكيف يركن إلى شهود الأغيار ؟ كما أبان ذلك بقوله :

[أنار الظواهر بأنوار آثاره ، وآثار السرائر بأنوار أوصافه] .

قلت : أنوار الظواهر ، هى ما ظهر على تجليات الأكوان من تأثير قدرته ، وإبداع حكمته كتزيين السماء بالكواكب والقمر والشمس وما فيها من إبداع الصنع وتمام الإتقان ، وكتزيين الأرض بالأزهار والثمار والنبات وسائر الفواكه ، وكتزيين الإنسان بالبصر والسمع والكلام وسائر ما فيه عن عجائب الصنعة .

قال تعالى : (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)[1] وقال تعالى : (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا)[2] .

فهذه أنوار الظواهر ، وأنوار الأوصاف هى العلوم والمعارف والأسرار ، والمراد بالأوصاف أوصاف الربوبية كالعظمة والعزة والجلال والجمال والكبرياء والكمال ، وغير ذلك من أوصاف الذات العلية ، والذات لا تفارق الصفات . فإذا أشرقت السرائر بأنوار معرفة الصفات ، فقد أشرقت بأنوار معرفة الذات ، للتلازم الذى بين الصفات والذات .

ثم الناس فى شهود هذه الأنوار الباطنة التى هى أنوار الأوصاف على ثلاثة أقسام : قسم يشهدونها على العبد ، وهم أهل مقام الإسلام . وقسم يشهدونها على القرب ، وهم أهل المراقبة من مقام الإيمان . وقسم يشهدونها على الاتصال ، وهم أهل المعرفة من مقام الإحسان .

فأهل مقام الإسلام أنوارهم ضعيفة كأنوار النجوم ، وأهل مقام الإيمان أنوارهم متوسطة كنور القمر ، وأهل مقام الإحسان أنوارهم ساطعة كأنوار الشمس .

---

(١) التين : ٤ . (٢) الكهف : ٧ .

فتحصل أن أنوار الباطن الثلاثة : نجوم الإسلام ، وقمر التوحيد ، وشمس المعرفة ، وإلى هذا المعنى أشار ابن الفارض بقوله :

لها الْبَدْرُ كَأْسٌ وهْيَ شَمسٌ يُدِيرُهَا
هِلَالٌ وَكَمْ يَبْدُو إذَا مُزِجَتْ نَجْمُ

فالضمير لخمرة المحبة وهى أيضًا شمس المعرفة ، فإذا مزجت لتشرب ظهر نجم الإسلام ، وإذا وضعت فى الكأس طلع قمر التوحيد وهو الإيمان ، وإذا شربت أشرقت شمس المعرفة ، والذى يديرها على الشاربين هلال الهداية ، هذا معنى كلامه فى الجملة ، وتشبيه الأنوار المعنوية بالأنوار الحسية إنما هو تقريب ، وإلا فأنوار القلوب كلها عظيمة حتى قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : لو كشف عن نور المؤمن العاصى لطبق ما بين السماء والأرض فما ظنك بنور المؤمن المطيع ؟

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه : لو كشف عن حقيقة الولى لعبد من دون الله . وقال فى لطائف المنن : ولو كشف الحق عن مشرقات قلوب أنوار أوليائه لانطوى نور الشمس والقمر فى مشرقات أنوار قلوبهم ، وأين نور الشمس والقمر من أنوارهم ؟ الشمس والقمر يطرأ عليهما الكسوف والغروب ، وأنوار قلوب أوليائه لا كسوف لها ولا غروب ، ولذلك قال قائلهم :

هـذِهِ الشَّمْسُ قَابَلَتْنَـا بِنُورٍ ... وَلشَمْسُ اليَقِـينِ أَبْهَرُ نُـورَا
فَـرَأَيْنَا بِهـذِهِ النُّورَ لكنـاً ... بِهـاتيكَ قَـدْ رَأَيْنـا الْمُنيـرَا

فأنار الحق سبحانه ظواهر الكائنات بأنوار الظواهر وهى النجوم والقمر والشمس فى الحسن ، وتزيين الخلق وإبداعه وتخصيصه وتقييده عن شكل معلوم فى الأنوار الخفية ، وتهذيب الجوارح وتطهيرها من الأنوار المعنوية .

وأنار سبحانه القلوب والسرائر بأنوار أوصافه وهى عظمة الربوبية وأوصافها ، فإذا أشرقت فى سماء القلوب الصحبة والأسرار الصافية غاب العبد عن شهود الأغيار وغرق فى بحر الأنوار ، فتفنى الأشكال والرسوم ولا يبقى إلا الحى القيوم .

ثم ذكر الفرق بين أنوار الظواهر وأنوار السرائر فقال :

[**لأجل ذلك أفلت أنوار الظواهر ، ولم تأفل أنوار القلوب والسرائر**] .

أى لأجل أن أنوار الظواهر إنما هى أنوار الأثر ومن شأن الأثر أن يتأثر ويتغير بالطلوع والغروب ، فأفلت : أى غربت أنوار الظواهر إما بالغروب المعلوم أو بالعدم المحتوم ، ولم تأفل : أى لم تغرب أنوار القلوب ، وهى أنوار الإسلام والإيمان وأنواز السرائر وهى أنوار الإحسان ، فأنوار الإسلام والإيمان هى أنوار التوجه ، وأنوار الإحسان هى أنوار المواجهة .

فالنور عبارة عن اليقين الذى يحصل فى القلب يثمر حلاوة العمل ، فإذا قوى اليقين قوى النور واشتدت الحلاوة حتى يتصل بحلاوة الشهود فيغطى حلاوة العمل ، فلذلك يقل عمل الجوارح عند العارف ، إذ حلاوة الشهود تغنى عن كل شىء . ليس الخبر كالعيان .

وفى بعض الأحاديث : « سُئِلَ رَسُولُ الله صلى الله عَليه وسلّم أىُّ الأعمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : العِلْمُ بالله ، قَالُوا : يَارسُولَ الله سَأَلْنَاكَ عَنِ العَمَلِ قَالَ العِلْم بِالله ، ثُمَّ قَالَ فى الثَّالِثَة : عَمَلٌ قَليلٌ كافٍ مَعَ العِلْم بِالله » .

وحقيقة النور فى الأصل كيفية تنبسط من النيرين على سطح الجسم فينكشف ما عليه بواسطة البصر . ثم شبه به العلم واليقين والمعرفة لما بينهما من الشبه فى كشف حقيقة الأشياء وتمييزها ، فالنور الحسى ينقطع بانقطاع أصله ، والنور المعنوى الذى هو نور القلوب لا ينقطع أبدًا ، فلذلك أنشد الشيخ هذا البيت فقاله . ولذلك قيل :

إنَّ شَمْسَ النَّهارِ تَغْربُ باللّيـ ـل وَشَمْسَ القُلُوبِ لَيْسَتْ تَغيبُ

وليس هو من عند المؤلف بل هو لغيره ، وسيأتى فى المناجاة بتمامه إن شاء الله .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : فشمس القلوب لا تغيب أبدًا ، بل هى

دائمة لا تنقطع وباقية لا تنصرم لبقاء مددها ، وهى معانى الأوصاف الربانية ودوام محالها ، وهى الآفاق الروحانية ، فالمتعلق بها متعلق بحقيقة لا تنصرم ، ومن هذا الوجه كان غنى القوم بالله لا بالأسباب ، وتعلقهم به لا بشىء دونه اهـ . هذا آخر الباب العاشر .

وحاصلها : ذكر كيفية الجزاء على الأعمال ، والزجر على طلبه ، وتحقيق معرفته فى عطائه ومنعه ، والاعتناء بإقباله وقبوله لا بخدمته ودوام الاضطرار بين يديه ، والافتقار إلى نعمته ، والاستيحاش من خلقه بدوام أنسه ، ثم إشراق أنواره على قلوب أوليائه وأسرار أصفيائه ، جزاء لإقبالهم عليه وانحياشهم إليه . فإذا أتحفهم بذلك وهيأهم لما هنالك ، تلا عليهم قوله :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ)[1] الآية .

---

(١) البقرة : ٢١٤ .

الباب الحادى عشر

لطف الله

كما نبه عليه فى أول الباب الحادى عشر بقوله رضى الله عنه :

[ليخفف ألم البلاء عنك علمك بأنه سبحانه هو المبلى لك ، فالذى واجهتك منه الأقدار ، هو الذى عوَّدك حسن الاختيار] .

قلت : إذا أصابتك أيها الإنسان مصيبة أو نزلت بك بلية فى بدن أو أهل أو مال فاذكر من أنزل ذلك عليك ، وما هو متصف به من الرحمة والرأفة بك ، والمحبة والعطف عليك ، لعلك تفهم ما فى طى ذلك من النعم ، وما يعقبه من سوابغ الفضل والكرم ، ولو لم يكن إلا تطهيرك من الذنوب ، وتمحيصك من العيوب ، وتقريبك من حضرة علام الغيوب لكفى ، فهل تعودت منه إلا الإحسان ؟ وهل رأيت منه إلا غاية المبرة والامتنان ، فالذى واجهتك منه الأقدار هو الذى عودك حسن الاختيار ، فالذى واجهتك منه أحكام قهره هو الذى عودك تمام إحسانه وبره ، فالذى واجهتك منه ظواهر المحن هو الذى أسبغ عليك بواطن المنن ، فالذى واجهتك من حضرة قهاريته الرزايا هو الذى أتحفك بأنواع الكرامات والهدايا ، ولله در صاحب العينية حيث يقول :

تَلَذُّ لِىَ الآلامُ إذْ أَنْتَ مُسْقِمِى ... وَإنْ تَمْتَحِنِّى فَهْىَ عِنْدِى صَنَائِعُ

تَحَكَّمْ بِمَا تهواهُ فِىَّ فَإِنَّنِى ... فَقِيرٌ لِسُلْطَانِ المَحَبَّةِ طَائِعُ

قال الجنيد رضى الله عنه : كنت نائمًا بين يدى السرى فأيقظنى وقال لى : ياجنيد رأيت كأنى وقفت بين يديه فقال لى : ياسرى خلقت الخلق فكلهم ادعوا محبتى ، فخلقت الدنيا فهرب منى تسعة أعشارهم ، وبقى معى العشر فخلقت الجنة فهرب منى تسعة أعشار العشر وبقى معى عشر العشر ، فسلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب منى تسعة أعشار عشر العشر ، فقلت للباقين معى :

لا الدنيا أردتم ولا الآخرة أخذتم ولا من النار هربتم فماتريدون ؟ قالوا إنك تعلم ما نريد ، فقلت : إنى مسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم ما لا تقوم له الجبال الرواسى أتصبرون ؟ قالوا إن كنت أنت المبتلى فافعل ما شئت ، هؤلاء عبادى حقًا اهـ .

وقال فى التنوير : وإنما يعينهم على حمل الأحكام فتح باب الإفهام .

وإن شئت قلت : وإنما يقوِّيهم على حمل البلايا واردات العطايا .

وإن شئت قلت : وإنما يقوِّيهم على حمل أقداره شهود حسن اختياره .

وإن شئت قلت : وإنما يصبرهم على وجود حكمه علمهم بوجود علمه .

وإن شئت قلت : إنما يصبرهم على أفعاله ظهوره عليهم بوجود إجماله .

وإن شئت قلت : إنما صبرهم على القضاء علمهم بأن الصبر يورث الرضا .

وإن شئت قلت : إنما صبرهم على الأقدار كشف الحجب والأستار .

وإن شئت قلت : إنما صبرهم على أقداره علمهم بما أودع فيها من لطفه وإبراره اهـ .

وإلى هذا الأخير أشار بقوله :

[من ظنّ انفكاك لطفه عن قدره ، فذلك لقصور نظره] .

قلت : من أعظم إحسان الله وبره كون لطفه لا ينفك عن قدره ، فما نزل القدر إلا سبقه اللطف وصحبه ، وبهذا حكم النقل والعقل . أما العقل فما من مصيبة تنزل بالعبد إلا وفى قدرة الله ما هو أعظم منها وقد وجد ذلك ، فإذا نزلت بك أيها الإنسان مصيبة فاذكر من هو أعظم منك بلاء ، فكم من إنسان يتقطع بالأوجاع ، وكم من إنسان مبتلى بالجذام والبرص والجنون والعمى ، وكم من إنسان مطروح فى الفنادق لا يجد من يبرئه إلا من ابتلاه ، وكم من إنسان أعمى أو مقعد أو محموم إلى ما لا يتناهى ، نسأل الله عافيته الدائمة فى الدارين .

وأما من جهة النقل ، فقد ورد فى ثواب الأمراض والأوجاع أحاديث كثيرة وآيات قرآنية فى مدح الصابرين : منها قوله تعالى :

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)[1] وقوله تعالى : (وَبَشِّرِ

(١) الزمر : ١٠ .

الصَّابِرِينَ)[1] الآية : (إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)[2] إلى غير ذلك ، وقوله صلى الله عليهِ وَسَلَّم : « مَايُصِيبُ المؤمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلاَنَصَبٍ وَلاَ سَقَمٍ وَلاَ حَزَنٍ حَتَّى الشَوْكَةُ يُشَاكُهَا وَحَتَّى الْهَمَّ يُهِمُّهُ إلاَّ كَفَّرَ بِهِ سَيِّئَاتِهِ » .

وورد فى الحمى أحاديث كثيرة وأن حمى ساعة تكفر سنة إلى غير ذلك .

وقد ذكر الشيخ ابن عباد رضى الله عنه منها جملة شافية ، فيطالعه من أراد تكثير الأجور ، ورفع الستور ، والرضا بالمقدور ، وما ذكرناه كاف إن شاء الله .

وكان شيخ شيخنا رضى الله عنه يقول : كلام النية قصير وبالله التوفيق ؛ فالأمر واضح لمن هو لنفسه ناصح ، فلا يخاف عليك من الجهل بالحق وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى وجهلة الخلق كما أشار إلى ذلك بقوله :

[لا يخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك] .

قلت : لاشك أن الله سبحانه بين لنا طريق الوصول على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، فبين لنا أعلام الشريعة ومنار الطريقة وأنوار الحقيقة ، فقرر لنا شرائع الإسلام وقواعد الإيمان ومقام الإحسان ، فما ترك صلى الله عليه وسلم شيئًا يقربنا إلى الله إلا دلنا عليه ، ولا شيئًا يبعدنا عنه إلا حذرنا منه ، لم يأل جهدًا فى إرشاد العباد وإظهار طريق السداد ، فما رحل إلى الله تعالى حتى ترك الناس على الدين القويم والمنهاج المستقيم ، على طريق بيضاء لا يضل عنها إلا من كان أعمى .

قال تعالى : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ ديناً)[3] وقال تعالى : (لاَ إِكْرَاهَ فى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَىِّ)[4] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَة » .

---

(١) البقرة : ١٥٥ .
(٢) البقرة : ١٥٣ .
(٣) المائدة : ٣ .
(٤) البقرة : ٢٥٦ .

وفى رواية : « عَلَى المِلَّةِ البيْضَاءِ نَهَارُهَا كلَيْلِهَا » أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وقال أحمد بن حضرويه البلخى رضى الله عنه : الطريق واضح ، والدليل لائح والداعى قد أسمع ، فما التحير بعد هذا إلا من العمى .

وسمعت رابعة العدوية صالحا المرى يقول : من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له ، فقالت له : الباب مفتوح وأنت تفر منه ، كيف تصل إلى مقصد أخطأت الطريق إليه فى أول قدم اهـ كلامها رضى الله عنها ، فلا يخاف عليك أيها المريد أن تلتبس الطرق الموصلة إلى الله تعالى عليك ، لأنها فى غاية الوضوح ، وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك فيصمك ويعميك :

* إنَّ الهوَى مَاتَولَّى يُصْمِ أو يصَمِ *

فلا يخاف عليك التباس الهدى ، إنما يخاف عليك اتباع الهوى ، فلا يخاف عليك التباس الحق وإنما يخاف عليك جهلة الخلق .

(وَإنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فى الأرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ الله)(١) .

فلا يخاف عليك عدم وجود أهل التحقيق ، وإنما يخاف عليك قطاع الطريق ، لا يخاف عليك من خفاء أهل الحق ، إنما يخاف عليك من قلة الصدق .

(فَلَوْ صَدَقُوا الله لَكانَ خَيْرًا لَهُمْ)(٢) .

والله ما حجبهم عنك إلا من عدم صدقك ، فلو حسنت ظنك بالله وبأولياء الله لرفع الله الحجاب بينك وبينهم ، ووجدتهم أقرب إليك من أن ترحل إليهم ، فسبحان من سترهم فى حال ظهورهم ، وأظهرهم فى حال خفائهم كما نبه عليه الشيخ بقوله :

[سبحان من ستر سر الخصوصية ، بظهور وصف البشرية ، وظهر بعظمة الربوبية فى إظهار العبودية] .

---

(١) الأنعام ١١٦ .　　(٢) محمد : ٢١ .

قلت : الخصوصية : هى نور الحق يشرقه الله فى قلوب خواص عباده المقربين ، بعد تطهيرها من الأكدار ، وتنزيهها عن المساوى والأغيار ، يغيبون به عن شهود أنفسهم بشهود محبوبهم ، وسرها : هو ما احتوى عليه ذلك النور من الكمالات العلية ، والنعوت القدسية ، والصفات السنية ، التى تليق بالمتحلى به : كالكبرياء والعز والقوة والعظمة والإجلال ، وكالاتصاف بالقدرة التامة ، والعلم المحيط ، وسائر أوصاف الكمال .

ثم إن الحق سبحانه من عظيم حكمته وباهر قدرته ، أن ستر تلك الأوصاف اللازمة لذلك النور بظهور أضدادها التى هى أوصاف العبودية ، فستر كبرياءه وعظمته بظهور الذل والفقر والضعف على العبد ، وستر قدرته وإرادته بظهور العجز والقهرية عليه ، وستر علمه المحيط بظهور الجهل والسهو ، إلى غير ذلك من أوصاف العبودية المقابلة لأوصاف الربوبية .

فسبحان من جعل الأشياء كامنة فى أضدادها ، ستر كمالات الربوبية بنقائص العبودية ، ولولا ذلك لكان السر غير مصون ، والكنز غير مدفون ، وسيأتى قوله : ستر أنوار السرائر بكثائف الظواهر إجلالا لها أن تبتذل بالإظهار ، وأن ينادى عليها بلسان الاشتهار اهـ . ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : لو كشف عن نور الولى لعبد من دون الله . وثبت عن الشيخ أبى يزيد رضى الله عنه أنه لما تجلى له هذا النور قال سبحانى ما أعظم شانى . وقال الحلاج رضى الله عنه :

أَنَا أَنْتَ بِلَا شَك ... سُبْحَانَكَ سُبْحَانِى
تَوْحِيدُكَ تَوْحِيدى ... وَعِصْيَانُكَ عِصْيَانى

وقال أيضًا :

سُبْحَانَ مَنْ أَظْهَرَ نَاسوتَهُ ... سِرَّ سَنَاءِ لاهُوتِهِ الثَّاقِبْ
ثُمَّ بَدَا فِى خَلْقِهِ ظَاهِرًا ... فِى صُورة الآكِلِ وَالشَّارِبْ
حَتَّى لَقَدْ عَايَنَهُ خَلْقُهُ ... كَلَحْظَةِ الحَاجِبِ بِالحَاجِبْ

وبإظهار هذا وأمثاله قتل رضي الله عنه ، فمن لطف الله تعالى ورحمته أن ستر ذلك السر بظهور نقائصه صونًا لذلك السر أن يظهر لغير أهله ، ومن أفشاه لغير أهله قتل كما فعل بالحلاج ، وكما ستر سر الخصوصية بظهور أضدادها ظهر بعظمة الربوبية فى مظاهر العبودية .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : العبودية جوهرة أظهر بها الربوبية اهـ إذ الربوبية تقتضى مربوبًا موصوفًا بضد ما اتصف به ربه من الكمالات الإلهية والنعوت القدسية ، فما ظهرت أوصاف الربوبية التى هى الغنى والعز والقدرة وغير ذلك من الكمالات إلا فى أضدادها من الفقر والذل والضعف وغير ذلك ، فالفقر الحقيقى شامل لسائر الموجودات ، والغنى المطلق واجب لمن تجلى فى الأرض والسموات :

(يٰأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ واللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)[1] .

فإذا تقرر هذا علمت أن الإضافة فى سر الخصوصية ليست هى للبيان بل هى للتخصيص ، فسر الخصوصية غيرها ، إذ الخصوصية هى النور الذى يقذفه الله سبحانه فى قلوب أوليائه ، وسرها هو الكمالات التى تلازم ذلك النور كماتقدم .

واعلم أن سر الخصوصية الذى جعله الله فى بواطن أوليائه وستره بظهور وصف بشريتهم قد يظهره عليهم على وجه خرق العادة ، فقد يظهر على وليه من قدرته وعلمه وسائر كمالاته ما تحار فيه العقول وتذهل فيه الأذهان ، لكن لا يدوم ذلك لهم ، بل يكون على سبيل الكرامات وخرق العادات ، يشرق عليهم شموس أوصافه فيتصفون بصفاته ، ثم يقبض ذلك عنهم فيردهم إلى حدودهم ، فنور الخصوصية وهى المعرفة ثابت لا يزول ، ساكن لا يحول ، وسرها وهو كمالاته تعالى تارة يشرق على أفق بشريتهم فيستنير بأوصاف الربوبية ، وتارة ينقبض عنهم فيردون إلى حدودهم وشهود عبوديتهم ، فالمعرفة ثابتة والواردات مختلفة ، والله تعالى أعلم .

واعلم أيضًا أن أوصاف البشرية التى ستر الله بها سر الخصوصية إنما هى الأوصاف الذاتية اللازمة للبشر ، كالأكل والشرب والنوم والنكاح ،

---

(١) فاطر : ١٥ .

لا الأوصاف المذمومة المناقضة للعبودية ، كالكبر والعجب والحسد والغضب وغير ذلك ، فإن تلك أوصاف ذهبت بظهور نور العناية وسابق الهداية ، إذ لا تثبت الخصوصية إلا بعد محوها ، بخلاف الأوصاف الذاتية فإنها تجامع الخصوصية كما سيأتى إن شاء الله بل هى حجابها وصوانها ، وبوجودها وقع الستر والخفاء لأولياء الله تعالى غيرة عليهم أن يعرفهم من لا يعرف قدرهم . قال فى لطائف المنن : فأولياء الله أهل كهف الإيواء فقليل من يعرفهم .

وسمعت الشيخ أبا العباس رضى الله عنه يقول : معرفة الولى أصعب من معرفة الله فإن الله معروف بكماله وجماله ، ومتى تعرف مخلوقًا مثلك يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب ، وإذا أراد الله أن يعرفك بولى من أوليائه طوى عنك وجود بشريته ، وأشهدك وجود خصوصيته اهـ .

تنبيه : هذا النور الذى أشرقه الله فى قلوب أوليائه كان كامنًا فى الروح فى أصل بروزها ، فأصلها نورانية عالمة بأسرار الغيب درّاكة للأشياء على حقيقتها ، وإنما حجبها عن ذلك سجنها فى هذا البدن الطينى واشتغالها بحظوظه وشهواته ، فمن أدبها وريَّضها على يد شيخ كامل رجعت إلى أصلها ، قال فى المباحث :

وَلَمْ تَزَلْ كُلُّ نُفُوسِ الأَحْيَا ... عَـلَّامَـةً دَرَّاكَـةً لـلأشيـا
وَإِنَّمـا تَعُـوقُهَـا الأَبْـدَانُ ... والأَنْفُسُ النُّزَّغُ وَالشَّيْطانُ
فَكُلُّ مَنْ أَذَاقهمْ جِهَادَهْ ... أَظْهَرَ للقَاعِدِ خَرْقَ العَادَهْ

فإذا كمل تطهير الروح من الأغيار ، وأشرقت عليها شموس الأنوار ، كوشفت بأسرار الذات وأنوار الصفات ، فغرقت فى بحر التوحيد الذى تكل عنه العبارة ، ولا تلحقه الإشارة ، وهو التوحيد الخاص الذى أشار إليه الهروى بقوله :

مَاوَحَّدَ الـوَاحِدَ مِنْ وَاحِـدِ ... إِذْ كلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَـاحِدُ
تَوْحِيدُ مَنْ يَنْطِقُ عَنْ نَعْتِه ... عَـارِيَـةٌ أَبْـطَلَهَـا الْـوَاحِـدُ
تَـوْحِيـدُهُ إِيَّـاهُ تَـوْحِيـدُهُ ... وَنَعْتُ مَنْ يَـنْـعَتُـهُ لَاحِـدُ

ومضمنه أن الحق سبحانه تولى توحيد نفسه بنفسه ، فكل من ادعى أنه وحده بنفسه فهو جاحد لوحدانيته حيث أشرك معه نفسه ، وكل من ينعته بنفسه فهو لاحد : أى مائل عن الصواب ، والله تعالى أعلم .

فإذا طلبت ربك فى تطهيرك من وصف البشرية ليكشف لك سر الخصوصية ثم تأخر مطلبك فإنما ذلك من سوء أدبك كما نبه عليه بقوله :

[لا تطالب ربك بتأخر مطلبك ، ولكن طالب بتأخر أدبك] .

قلت : هذه قاعدة عامة وإن كانت مناسبتها خاصة ، فإذا طلبت شيئًا ثم تأخر ظهور ذلك المطلب ، فإنما ذلك لما فاتك من حسن الأدب ، ولو لم يكن إلا قصد خصوص ذلك الطلب ، فلا تطالب ربك أن يعجل مطلبك بسبب تأخره عنك ، ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك ، فلو أحسنت الأدب فى الطلب لقيت حاجتك عنى وإن لم تقض حسًا .

وحسن الأدب هنا هو اكتفاؤك بعلمه ورضاك بحكمه ، واعتمادك على ما اختاره لك دون ما اخترته لنفسك لقلة علمك ، فقد ضمن لك الإجابة فيما يريد لا فيما تريد ، وفى الوقت الذى يريد لا فى الوقت الذى تريد ، ولله در القائل :

وَكَم رُمْتُ أَمْرًا خِرْتَ لى فى انْصِرافِهِ ... فَلَا زِلْتَ لى مِنِّى أَبَرَّ وَأَرْحَمَا

عَزَمْتُ عَلَى أَلّا أُحِسَّ بِخَاطِرٍ ... عَلَى القَلْبِ إلَّا كُنْتَ أَنْتَ المُقَدَّمَا

وَأَلَّا تَرَانِى عِنْدَ مَا قَدْ نَهَيْتَنِى ... لِأَنَّكَ فى نَفْسِى كَبِيرًا مُعَظَّمَا

وقال وهب بن منبه رضى الله عنه : قرأت فى بعض الكتب : يابن آدم أطعنى فيما أمرتك ولا تعلمنى بما يصلحك ، إنى عالم بخلقى ، إنما أكرم من أكرمنى وأهين من هان عليه أمرى ، ولست بناظر فى حق عبدى حتى ينظر عبدى فى حقى .

وأعظم الآداب وأكملها امتثال أمره والاستسلام لقهره كما نبه عليه بقوله :

[متى جعلك فى الظاهر ممتثلا لأمره ، وفى الباطن مستسلمًا لقهره ، فقد أعظم المنة عليك] .

قلت : إنما كان من أعظم المنة ، لأنه شاهد المعرفة التى هى منتهى الهمم ،

وأقصى غاية النعم .

فامتثال الأمر فى الظاهر يدل على كمال الشريعة وتحقيق العبودية ، والاستسلام للقهر فى الباطن يدل على كمال الطريقة ونهاية الحقيقة ، والجمع بينهما هو غاية الكمال ، إذ منتهى الكمالات الشرائع ، فمتى جعلك أيها الإنسان فى الظاهر ممتثلا لأمره ومجتنبًا لنهيه ، وفى الباطن مستسلمًا لقهره فقد أعظم المنة عليك ، حيث أراح ظاهرك من عنت المخالفة وأراح باطنك من تعب المنازعة .

أو تقول : حيث زين ظاهرك بالطاعة وزين باطنك بالمعرفة ، فالواجب عليك أن تشكر هذه النعمة ، وتعرف قدرها حتى تعظم محبة الله فى قلبك ، وذلك أقصر مرادك وقصدك (وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ) .

ومتى أثبت لك هذا الأمر فقد خلصك من نفسك وحررك من رق حظك ، فلا تبال معها ما فاتك من تخصيص الكرامات الحسية ، لأنها أمور وهمية ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[**ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه**] .

قلت : المراد هنا بالتخصيص تخصيصه بالكرامات الحسية ، والمراد بالتخليص تخليصه من رق الحظوظ ومن بقية السوى ، فليس كل من ثبت تخصيصه بالكرامات الحسية كمل تخليصه من حظوظه النفسية .

ليس كل من ثبت تخصيصه بالكرامات ، كمل تخليصه من العوائد والشهوات ، بل قد يُعطَى الكرامة الحسية بعض من لم يتخلص من حظوظه النفسية . وحكمة ظهورها عليه ثلاثة أمور :

أحدها : إنهاضه فى العمل لحصول فترة أو وقعة .

الثانى : اختبار له ، هل يقف معها فيحجب أو يأنف عنها فيقرب .

الثالث : زيادة فى يقينه أو يقين الغير فيه لينتفع به ، فهى مقصودة بالتكميل على كل حال .

قال سهل رضى الله عنه لرجل قال له : إنى أتوضأ فأجد الماء يسقط من يدى قضبان ذهب وفضة ، فأجابه بقوله : أما علمت أن الصبيان إذا بكوا أعطوا خشخاشة يشتغلون بها .

قال بعض العلماء : ما رأيت هذه الكرامات ، إلا على أيدى البله من الصادقين اهـ .

قلت : الكرامة العظمى هى المعرفة والاستقامة ورفع الحجاب وفتح الباب ، فلا كرامة أعظم من هذا ، وسيأتى الكلام على هذا المعنى بعد إن شاء الله . ويحتمل أن يريد بالتخصيص تخصيص التقريب والهداية فليس كل من ثبت تخصيصه بالهداية وشروق الأنوار كمل تخليصه من رؤية الأغيار ، فقد يخصص بالمجاهدة والمكابدة ولا يتحف بالمعرفة والمشاهدة . قوم أقامهم لخدمته وقوم اختصهم بمحبته كما تقدم ، فالعباد والزهاد ثبت تخصيصهم فهم من عوام المقربين ، ولم يكمل تخليصهم من شهود السوى حتى يكونوا من خواص العارفين ، وبالله التوفيق . هذا آخر الباب الحادى عشر .

وحاصلها : تحقيق الأدب فى التعرفات الجلالية بدوام معرفته وشهود نعمته فى نعمته ، وجريان لطفه وبره فى حال قضائه وقدره ، حتى لا يغلبك الهوى فتلتبس عليك سبل الهدى ، أو تقف مع ظاهر الأشياء التى هى محل الجلال فتحجب عن البواطن التى هى مستقر الجمال ، فالذات جَلال والصفات جمال ، فمن وقف مع ظواهر الجلال حجب عن شهود الجمال وحرم من معرفة الرجال ، وكان محجوباً عن ذى العظمة والجلال ، فيسىء الأدب ، ويحرم حصول المطلب ، فإذا استدركته العناية ، وهبت عليه ريح الهداية شغل ظاهره بوظائف العبودية ، وباطنه بشهود الربوبية فكان فى الظاهر ممتثلا لأمره ، وفى الباطن مستسلماً لقهره فتمت عليه نعمة مولاه ، وكمل تخليصه من رق حظوظه وهواه فهو يعظِّم ما يعظِّم مولاه ، ولا يستحقر شيئاً من أسباب محبته ورضاه كما أبان ذلك فى أول الباب الثانى عشر بقوله رضى الله عنه :

الباب الثانى عشر

الورد وأقسامه

[لا يستحقر الورد إلا جهول ، الوارد يوجد فى الدار الآخرة ، والورد ينطوى بانطواء هذه الدار ، وأولى ما يعتنى به ما لا يخلف وجوده ، الورد هو طالبه منك ، والوارد أنت تطلبه منه ، وأين ما هو طالبه منك مما هو مطلبك منه ؟] .

قلت : الورد فى اللغة هو الشرب ، قال تعالى : (بِئْسَ الـوِرْدُ المَوْرُودُ)[1] .

وفى الاصطلاح ما يرتبه العبد على نفسه أو الشيخ على تلميذه من الأذكار والعبادات . والوارد فى اللغة : هو الطارق والقادم ، يقال ورد علينا فلان : أى قدم . وفى الاصطلاح : ما يتحفه الحق تعالى قلوب أوليائه من النفحات الإلهية فيكسبه قوة محركة ، وربما يدهشه أو يغيبه عن حسه ، ولا يكون إلا بغتة ولا يدوم على صاحبه .

ثم إن الورد ينقسم على ثلاثة أقسام : ورد العباد والزهاد من المجتهدين . وورد أهل السلوك من السائرين . وورد أهل الوصول من العارفين .

فأما ورد المجتهدين فهو استغراق الأوقات فى أنواع العبادات ، وعبادتهم بين ذكر ودعاء وصلاة وصيام ، وقد ذكر فى الإحياء والقوت أوراد النهار وأوراد الليل ، وعين لكل وقت وردًا معلومًا .

وأما ورد السائرين فهو الخروج من الشواغل والشواغب ، وترك العلائق والعوائق ، وتطهير القلوب من المساوى والعيوب ، وتحليتها بالفضائل بعد تخليتها من الرذائل ، وعبادتهم ذكر واحد ، وهو ما يعينه له الشيخ لا يزيد عليه مع جمع القلب وحضوره مع الرب .

---

(١) هود : ٩٨ .

وأما وِرد الواصلين فهو إسقاط الهوى ومحبة المولى ، وعبادتهم فكرة أو نظرة مع العكوف فى الحضرة فكل من أقامه مولاه فى وِرد فليلتزمه ولا يتعدى طَوره ولا يستحقر غيره ، إذ العارف لايستحقر شيئًا بل يصير مع كل واحد فى مقامه ، ويقرر كل شيء فى محله ، فلا يستحقر الورد ويطلب الوارد إلا جهول أو معاند ، وكيف يستحقر الورد وبه يكون الورود على الملك المعبود ؟ الورد يوجد ثوابه وثمرته فى الدار الآخرة ، والوارد الذى تطلبه ينطوى بانطواء هذه الدار ، قال تعالى : (وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِى أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[1] وجاء فى الأثر : « إِنَّ اللهَ يَقُولُ أُدْخُلُوا الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي وَتَقَاسَمُوهَا بِأَعْمَالِكُمْ » .

وأيضاً المراد من الواردات ثمراتها ونتائجها ، وهو ما يعقبها من اليقين والطمأنينة والرضا والتسليم ؛ وغير ذلك من المحاسن ، فإذا أعطتك نتائجها وجنيت ثمراتها فلك فى الله غنى عنها ، فلا يستحقر الوردَ ويطلب الوارد إلا من كان عبد الوارد ، وأما من كان عبد الله فلا يلتفت إلى ما سواه ، بل يلزم ما هو مكلف به من وظائف العبودية ، قياماً بحق عظمة الربوبية ، فهو الذى يدوم ، وبه يتوصل إلى رضا الحى القيوم ، وأولى ما يعتنى به الإنسان ما ينقطع وجوده بانقطاع مونه وهو ورده ، فيغتنم وجوده مادام فى هذه الدار ، فليس فى تلك الدار عمل ، وإنما هى دار جزاء وحصول أمل ، فالدنيا دار عمل لا جزاء فيها ، والآخرة دار جزاء لا عمل فيها ، فليغتنم الإنسان عمره قبل الفوات ، فما من زمن يخلو عنه إلا وهو فائت منه .

وقد جاء فى الحديث « لَا تَأْتِى عَلَى الْعَبْدِ سَاعَةٌ لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا كَانَتْ عَلَيْهِ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ » اهـ .

والذكر متنوع ، كل بحسب حاله .

وقال الحسن رضى الله عنه : أدركت أقواماً كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنانيركم ودراهمكم ، وفى معنى ذلك قيل :

السِّبَاقَ السِّبَاقَ قَوْلًا وَفِعْلًا حَذِرِ النَّفْسَ حَسْرَةَ الْمَسْبُوقِ

---

(١) سورة الزخرف : ٧٢ .

وفى بعض الأحاديث عنه عليه الصلاة والسلام : «مَن اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ ، وَمَنْ كانَ يَوْمُهُ شَرًّا مِنْ أَمْسِهِ فَهُوَ مَحْرُومٌ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ فى الزِّيَادَةِ فَهُوَ فِى النُّقْصَانِ ، وَمَنْ كانَ فِى النقصَانِ فَالمَوْتُ خَيرٌ لَهُ » .

وأولى ما يعتنى به العبد أيضًا ما هو طالبه منه الحق تعالى وهو الورد ، دون ما يطلبه هو منه وهو الوارد ، فالورد من وظائف العبودية وهو الذى طلبه منا الحق تعالى ، والوارد من وظائف الحرية ولذلك تطلبه النفس وتتعشق إليه ، وأين ما هو طالبه منا مما هو مطلبنا منه ؟ بينهما فرق كبير .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : بينهما فى القدر ما بينهما فى الوصيف : «قَضَاءُ اللهِ أَحَقُّ ، وَشَرْطُ اللهِ أَوْثَقُ ، وَإِنَّمَا الوَلاَءُ لِمَنْ أَعْتَقَ» اهـ.

فتحصل أن الاعتناء بالورد أفضل وأكمل من الاعتناء بالوارد ، لأن الورد من وظائف العبودية وهى لا تنقطع مادام العبد فى هذه الدار ، كما أن حقوق الربوبية لا تنقطع كذلك حقوق العبودية لا تنقطع .

قال النقشبندى رحمه الله : ولهذا لم يترك العبادة سيد هذا المقام صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه ، « فَقِيلَ لَهُ : تَفْعَلُ هٰذَا وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ فَقَالَ : أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُوراً » .

فأفاد صلى الله عليه وسلم أن شكر النعمة تمام الخدمة وهو موجب المزيد ، قال تعالى : (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ)[1] .

وهذا سبيل طائفة الجنيد رضى الله عنه ، لم يترك أوراده فى حال نزعه ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : ومن أولى منى بذلك وهذه صحائفى تطوى . فلم يترك الخدمة رضى الله عنه فى مثل هذه الحالة فكيف بسواها . قيل له إن جماعة يزعمون أنهم يصلون إلى حالة يسقط عنهم التكليف . قال : وصلوا ولكن إلى سقر .

---

(١) إبراهيم : ٧ .

وقال فى كلام آخر : هذا كلام من يقول بالإباحة ، والسرقة والزنى عندنا أهون حالا ممن يقول بهذه المقالة ، ولقد صدق رضى الله عنه فى قوله هذا ، فإن الزانى والسارق عاص بزناه وسرقته ولا يصل إلى حد الكفر .

وأما القائل بسقوط الفرائض المعتقد لذلك فقد انسل من الدين كانسلال الشعرة من العجين ، فعض على هذا الأصل بالنواجذ يا أخى ، ولا تسمع كلام من أخذ الحقائق من الكتب وصار يتكلم بالزندقة والإلحاد وإسقاط الأعمال على حسب فهمه وهواه . قال صلى الله عليه وسلم :

« لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَابِعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ » .

وقال تعالى : (قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ)[1] .

فعليك بمتابعته صلى الله عليه وسلم ومتابعة السلف الصالح فى الأقوال والأفعال والأحوال تحز مقامهم وتسكن معهم ، فالمرء مع من أحب ا هـ كلام النقشبندى وهو حسن ، لأن من أخذ الحقائق من الكتب لا ذوق عنده ، وإنما يترامى على الحقيقة بالعلم ، فيتبع الرخص ويسقط فى مهاوى الهوى .

وأما من كان من أهل الأذواق فسره مكتوم ، وأمره محزوم ؛ عبادته أدب وشكر ، وهو أحق بدوام الشكر ، وكيف ينكر الواسطة ولولا الواسطة لذهب الموسوط .

قال أبو الحسن الدراج رضى الله عنه : ذكر الجنيد أهل المعرفة بالله وما يراعونه من الأوراد والعبادات بعدما أتحفهم الله به من الكرامات ، فقال الجنيد رضى الله عنه العبادة على العارفين أحسن من التيجان على رءوس الملوك ا هـ .

وقد رأى رجل الجنيد رضى الله عنه وفى يده سبحة ، فقال له : أنت مع شرفك تأخذ فى يدك سبحة . فقال نعم ، سبب وصلنا إلى ما وصلنا فلا نتركه أبداً ا هـ . فالشريعة باب والحقيقة بيت الحضرة ، قال تعالى :

(وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا)[2] .

ثم قال : فلا دخول للحقيقة إلا من باب الشريعة ، ولله در سيدى عبد الله

---

(١) آل عمران : ٣١ .　　(٢) البقرة ١٨٩ .

الهبطى الزجلى رضى الله عنه حيث يقول فى منظومته :

وَثَالِثُ الْفُصُولِ فِى الشَّرِيعَهْ لِأَنَّهَا إِلَى الْهُدَى ذَرِيعَهْ
فَكُلُّ بَابٍ دُونَهَا مَسْدُودُ وَمَنْ أَتَى مِنْ غَيْرِهَا مَرْدُودُ
قَد اصْطَفَاهَا رَبُّنَا عَزَّ وَجَل بِفَضْلِهِ وجودِه عَلَى الْمِلَلْ
طَرِيقَةُ الْعَدْنَانِ لِلرَّحْمٰنِ مَحْفُوفَةٌ بِالنورِ وَالرِّضْوَانِ
طوبى لِمَنْ أَتَى بِهَا لِلْعَرْضِ وَالْوَيْلُ لِلَّذِى بِهَا لَمْ يَقْضِ
يَا أَيُّهَا الْمُرِيدُ إِنْ أَرَدْتَ وِصَالَ مَنْ بِحُبِّهِ شُغِفْتَ
فَشُدَّ مِنْكَ الْكَفَّ يَـاوَلِىّ عَلَى شَرِيعَةِ النَّبِى الأمىِّ
حَصِّلْ جَمِيعَ مَالَهُ الشَّرْعُ ارْتَضَى وَكُنْ لِكُلِّ مَا سِوَاه رَافِضاً
تَرَى الْفُؤَادَ صَافِيًا وَشَارِقًا وَعَنْ سِوىَ الْمَوْلَى إِلَى الْمَوْلَى ارْتَقَى

ثم قال :

فَبِالشريعَةِ الْوِصَالُ لِلْمُنَى كَالْفَوْزِ بِالْبَقَاء مِنْ بَعْدِ الْفَنَا
وَمَنْ يَظُنُّ الْخَيْرَ فى سِوَاها فَـإِنَّـهُ وَاللهِ مَـا دَرَاهَـا

قلت : وقد رأيت كثيراً من الفقراء قصروا من الشريعة ، فخرجوا من الطريقة ، وسلبوا نور الحقيقة . ورأيت آخرين طال أمدهم فى صحبة القوم ، ولم يظهر عليهم بهجة المحبين ولاسيما العارفين ، وما ذلك إلا لعدم التحفظ على مراسم الشريعة .

وكان شيخنا اليزيدى رضى الله عنه يقول : كل من ترك الشريعة من غير جذب ولا عذر سلوكه كبيرة ا هـ .

قلت : والله ما رأينا الخير إلا فيها ، وما ربحنا إلا منها ، فالله يرزقنا الأدب معها إلى يوم الفصل والقضاء آمين .

ثم ذكر ثمرة الورد ونتيجته وهو المدد الإلهى ، إذ بقدر الاستعداد تحصل الأمداد ولا استعداد لها إلا بدوام الأوراد ، وتفرغ الفؤاد ، فقال :

[ورود الأمداد ، بحسب الاستعداد] .

قلت : المراد بالأمداد أنوار التوجه للسائرين ، وأنوار المواجهة للواصلين ، فهى تتوالى على قلوب العباد بحسب التأهب والاستعداد ، فبقدر المجاهدة تكون المشاهدة ، وبقدر التخلية تكون التحلية .

وفائدة هذه الأمداد تطهير القلوب من الأغيار ، وتقديس الأسرار من غبش الحس والأكدار ، والوقوف مع الأنوار ، فلا تزال أمطار المدد تنزل على أرض النفوس الطيبة ، والقلوب المطهرة ، والأرواح المنورة ، والأسرار المقدسة ، حتى تمتلئ بأنوار المعانى فحينئذ تنشق لها أسرار الذات ، وتتعلق لها أنوار الصفات ، فتغيب بشهود الذات عن أثر الصفات ، ثم ترد إلى شهود الصفات بالذات ، والذات بالصفات ، لا يحجبها جمعها عن فرقها ، ولا فرقها عن جمعها ، تعطى كل ذى حق حقه ، وتوفى كل ذى قسط قسطه .

قال شيخ شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه فى بعض رسائله : فإن قلتم أى وقت نكون كالجبال : (تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ)[1] .

قلنا : إذا زهدتم فى الدنيا بالكلية ، وقطعتم الإياس من الرجوع إليها بالكلية ، ثم اعتقدتم فى شيوخكم أنهم كمّل وأنهم على قدم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من ورثة النبى صلى الله عليه وسلم ، فوالله العظيم لينزل عليكم المدد الليل والنهار والشهر والعام ، وفى كل وقت وساعة ولحظة ، حتى تمتلئ قلوبكم بمعرفة الله ، وتطمئن قلوبكم بذكر الله وتكونوا كالجبال الراسية ، هذا معنى كلامه باختصار رضى الله عنه ، وهو كما قال ، لأن الزاهد فى الدنيا تفرغ وتخلى من الأكدار ، وتهيأ للأنوار ، فإذا نزل المدد وجد القلب متسعاً مطهراً منظفاً ، فملأه من أنواره وحلاه بحلية أسراره ، بخلاف ما إذا كان القلب معموراً بأغيار الدنيا لم يجد المدد موضعاً ينزل فيه ، فيرجع من حيث جاء ، واعتقاد كمال الشيوخ هو عين الصدق . وبقدر الصدق ينبع المدد . ولا يمكن أن ينقطع الوهم أو يذهب الحس إلا بالصدق مع الزهد ، فبالزهد يتهيأ للمدد ، وبالصدق يفيض عليه المدد ، فكلما فاض ماء المدد غسل أوساخ الوهم ، فإذا لم

---

(١) النمل : ٨٨ .

يبق للوهم أثر حصل الغرق فى البحر ، والله تعالى أعلم .

ثم فسر الأمداد وكيفية الاستعداد فقال :

[وشروق الأنوار ، على حسب صفاء الأسرار] .

قلت : شروق أنوار المعارف فى أفق سماء القلوب يكون على قدر صحوها من سحب الآثار ، وغيم الأغيار ، وغين الأنوار ، كما قال الشاعر :

إِنْ تَلَاشَى الْكَوْنُ عَنْ عَيْنِ قَلْبِى ... شَاهَدَ السِّرُّ غَيْبَهُ فى بيَانِ
فَاطْرَحِ الْكَوْنَ عَنْ عِيَانِكَ وَامْحُ ... نُقْطَةَ الْغَيْنِ إِنْ أَرَدْتَ تَرَانِى

فبقدر صفائها ومحوها يكون تمام إشراق نورها ، فإذا انجلت عن سماء القلوب سحب الآثار وغيم الأغيار ، أشرق فيها نور الفناء ، فيغيب القلب والروح عن الرسوم ، ولم يبق إلا الحى القيوم ، وإذا انجلت عن الأسرار غين الأنوار أشرق فيها نور البقاء فيفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل ؛ ولصاحب العينية رضى الله عنه :

فَنِيَتَ بِهَا عَيْنِى فَمَالِى أَنِيَّة ... هوِيَّةُ لَيْلى لِلأَنِيَّةِ قَاطِعُ
وَكُنْتُ كَمَا إِنْ لَمْ أَكُنْ وَهْوَ أَنَّهُ ... كَمَا لَمْ يَزَلْ فَرْدًا وَلِلْكُلِّ جَامِعُ
فَشَمْسِىَ فِى أُفْقِ الْأُلُوهَةِ مُشْرِقٌ ... وَبَدْرِىَ فِى شَرْقِ الرُّبُوبَةِ طَالِعُ
فَأَفنيْتهَا حَتى فَنَتْ وَهْىَ لَمْ تَكُنْ ... وَلٰكِنَّنِى بِالْوَهْمِ كُنْتُ أُطَالِعُ

فعلامة شروق هذه الأنور ترك التدبير والاختيار ، والاكتفاء بنظر الواحد القهار ، كما أشار إليه بقوله :

[الغافل إذا أصبح نظر ماذا يفعل ، والعاقل ينظر ماذا يفعل الله به] .

قلت : الغافل هو الجاهل بالله ولو كثر ذكره باللسان ، والعاقل هو العارف بالله ولو قل له ذكر اللسان ، إذ المعتبر هو ذكر الجنان ، فالغافل نفسه موجودة ، وآماله ممدودة ، إذا أصبح نظر ماذا يفعل بنفسه فيدبر شئونه ومأربه بعقله وحدثه ، فهو ناظر لفعله ، معتمد على حوله وقوته ، فإذا فسخ القضاء ما أبرمه ، وهدم له ما أمله ، غضب وسخط وحزن وقنط ، فنازع ربه وأساء أدبه ،

فلا جرم أنه يستحق من الله البعد ، ويستوجب فى قلبه الوحشة والطرد ، إلا إن حصل له إياب ، وأدام الوقوف بالباب حتى يرفع عنه الحجاب ، فحينئذ يلتحق بالأحباب .

وأما العاقل وهو العارف فقد تحققت فى قلبه عظمة ربه ، وانجمع إليه بكلية قلبه فأشرقت فى قلبه شموس العرفان ، وطوى من نظره وجود الأكوان ، فليس له عن نفسه أخبار ، ولا مع غير الله قرار ، تصرفه بالله ومن الله وإلى الله ، فقد فنى عن نفسه وبقى بربه فلم ير لها تركاً ولا فعلا ولا قوة ولا حولاً ، فإذا أصبح نظر ماذا يفعل الله به فتلقى كل ما يرد عليه بالفرح والسرور والبهجة والحبور لما هجم عليه من حق اليقين والغنى برب العالمين .

قال سيدنا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : أصبحت وما لى سرور إلا مواقع القدر .

وقال أبو عثمان رضى الله عنه : منذ أربعين سنة ما أقامنى الله فى حال فكرهته ، ولا نقلنى إلى غيره فسخطته ا هـ .

فإذا أراد الفقير أن يكون تصرفه بالله فلينعزل عن حظوظه وهواه فإذا أراد أن يفعل أمراً فليتأن ويصبر ويستمع إلى الهاتف فإن الله سبحانه يسمعه ما يريد أن يتوجه إليه فعلا أو تركاً ، وقد جربنا هذا فى سفرنا وإقامتنا فكنا لا نتصرف إلا بإذن خاص والحمد لله . وصاحب الاعتناء كله هكذا مع التأنى ، فإن التأنى من الله ، والعجلة من الشيطان ، وكثيراً ما كان الشيخ المجذوب الولى العارف سيدى أحمد أبو سلهام ينشدنى هذا البيت :

تَأَنَّ وَلَا تَعْجَلْ لِأَمْرٍ تُرِيدُهُ وَكُنْ رَاحِماً بِالْخَلْقِ تُبْلَى بِرَاحِمِ

فعليك أيها المريد بالاعتناء بهذا الأمر ، وافهم عن الله فى أمورك كلها وأنشد على نفسك :

اتْبَعْ رِيَاحَ الْقَضَا وَدُرْ حَيْثُ دَارَتْ وَسَلِّمْ لِسَلْمَى وَسِرْ حَيْثُ سَارَتْ

واستعن على هذا الأمر بأدعيته عليه الصلاة والسلام فى هذا المقام كقوله :

« اللهُمَّ إِنِّى أَصْبَحْتُ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، وَلَا مَوْتًا وَلَا

حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ، وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ إِلَّا مَا أَعْطَيْتَنِى وَلَا أَنْ أَتَّقِى إِلَّا مَا وَقَيْتَنِى ، فَوَفِّقْنِى اللَّهُمَّ لِمَا تَرْضَاهُ مِنِّى مِنَ الْقَوْلِ وَالفِعْلِ ، وَفِى عَافِيَةٍ وَسِتْرٍ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » .

وكقوله أيضا عليه الصلاة والسلام : « اللَّهُمَّ إِنِّى أَصْبَحْتُ لَا أَسْتَطِيعُ دَفْعَ مَا أَكْرَهُ ، وَلَا أَمْلِكُ نَفْعَ مَا أَرْجُو ، وَأَصْبَحَ الْأَمْرُ بِيَدِ غَيْرِى ، وَأَصْبَحْتُ مُرْتَهِناً بِعَمَلِى فَلَا فَقِيرَ أَفْقَرُ مِنِّى ، اللَّهُمَّ لَا تُشْمِتْ بِى عَدُوِّى وَلَا تُسِئْ بِى صَدِيقِى ، وَلَا تَجْعلْ مُصِيبتِى فى دِينِى ، وَلَا تَجْعلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّى ، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِى ، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَىَّ مَنْ لَا يَرْحَمُنِى » .

إلى غير ذلك من الأدعية التى تكسب الرضا والتسليم ، والمقصود من دعائه عليه الصلاة والسلام فهم معانيها لا مجرد ألفاظها ، فالمراد المعانى لا الأوانى ، والله تعالى أعلم .

ويجمع هذه المعانى وصية شيخ طريقتنا القطب ابن مشيش للرجل الذى قال له وظّف علىّ وظائف وأوراداً ، فغضب وقال له أرسول أنا فأوجب الواجبات . الفرائض معلومة ، والمعاصى مشهورة ، فكن للفرائض حافظاً ، وللمعاصى رافضا ، واحفظ قلبك من إرادة الدنيا وحب النساء ، ومن الجاه وإيثار الشهوات . واقنع فى ذلك كله بما قسم الله لك إذا خرج لك مخرج الرضا – وهو جماله تعالى – فكن لله فيه شاكرًا . وإذا خرج لك مخرج السخط – وهو جلاله – فكن عليه صابرًا ، وحب الله قطب تدور عليه الخيرات ، وأصل جامع لجميع الكرامات .

وحصن ذلك كله أربعة : صدق الورع ، وحسن النية ، وإخلاص العمل ، ومحبة العلم ، ولا يتم ذلك إلا بصحبة أخ صالح أو شيخ ناصح ا هـ .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : احرص أن تصبح وتمسى مفوضًا مستسلمًا لعله ينظر إليك فيرحمك ا هـ .

وقال بعضهم : من اهتدى إلى الحق لم يهتد إلى نفسه ، ومن اهتدى إلى نفسه

لم يهتد إلى الله : أى من رأى الحق غاب عن نفسه ، ومن رأى نفسه حجب عن الله .

ثم إن العاقل الذى ينظر ما يفعل الله هو العارف كما تقدم ، لأنه هو الذى يتحقق فيه ذلك ، ومن علامته أنه لا يستوحش من شىء لمعرفته فى كل شىء وفهمه عن الله فى كل شىء ، بخلاف غيره من العباد والزهاد وهو الذى أشار إليه بقوله :

[إنما يستوحش العباد والزهاد من كل شىء لغيبتهم عن الله فى كل شىء ، فلو شهدوه فى كل شىء لم يستوحشوا من شىء] .

قلت : العباد هم الذين غلب عليهم الفعل ، فهم مستغرقون فى العبادة الحسية ، يقومون الليل ويصومون النهار ، شغلتهم حلاوة العبادة عن حلاوة شهود المعبود ، فحجبوا بعبادتهم عن معبودهم ، والزهاد هم الذين غلب عليهم الترك ، فهم يفرون من الدنيا وأهلها ، ذاقوا حلاوة الزهد فوقفوا معه وحجبوا عن الله ، فهم يستوحشون من الأشياء لغيبتهم عن الله فيها ، ولو عرفوا الله فى كل شىء ما استوحشوا من شىء ولأنسوا بكل شىء ، وتأدبوا مع كل شىء . والعارفون لنفوذ بصيرتهم شهدوا الخلق مظاهر من مظاهر الحق فحجبوا أولا بالحق عن الخلق ، وبالمعنى عن الحس ، وبالقدرة عن الحكمة ، ثم ردوا إلى شهود الحق فى الخلق والقدرة فى الحكمة ، فحين عرفوه فى كل شىء ، أنسوا بكل شىء وتأدبوا مع كل شىء ، وعظموا كل شىء . وفى هذا المقال قال المجذوب رضى الله عنه :

الخَلْقُ نَوارٌ وَأَنَا رَعَيْتُ فِيهِمْ هُمُ الْحَجَبُ الْأَكْبَرُ وَالْمَدْخَلُ فِيهِمْ

وقال سيدى على رضى الله عنه على قول الشيخ أبى الحسن الشاذلى فى شأن الخلق : أراهم كالهباء فى الهواء ، إن فتشتهم لم تجدهم شيئًا ، قال بل إن فتشتهم وجدتهم شيئاً ، وذلك الشىء ليس كمثله شىء ، يعنى وجدتهم مظاهر من مظاهر الحق أنوارًا من أنوار الملكوت ، فائضة من بحر الجبروت ، كما قال صاحب العينية رضى الله عنه :

تَجَلَّيْتَ فى الأَشْيَاء حينَ خَلَقْتَهَا ... فهَا هِىَ مِيطَتْ عَنْكَ فِيهَا الْبَرَاقِعُ
قَطَعْتَ الْوَرَى مِنْ ذَاتِ نَفْسِكَ قِطْعَةً ... وَلَمْ يَكُ مَوْصُولٌ وَلاَ فَصْلَ قَاطِعُ

وقال شيخ شيوخنا المجذوب رضى الله عنه :

طَلَعَ النَّهَارُ عَلَى قَلْبِى حتَّى نَظَرْتُ بِعيْنِيا ... أَنْتَ دَلِيلِى يَارَبِّ أَنْتَ أَوْلَى مِنِّى بِيَا

والحاصل : أن العارفين بالله غابوا عن شهود الخلق بشهود الحق ، فهم مع الخلق بالأشباح ، ومع الحق بالأرواح ، ماتوا وبعثوا وقامت قيامتهم ، وتبدلت فى حقهم الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار ، فهم يرون الأنوار والناس فى ظلمة الأغيار .

تجلى الذات

كشف لهم فى هذه الدار عن أسرار مكنوناته مسدولة عليها قهارية أستاره وسيكشف لهم فى تلك الدار عن أسرار ذاته من غير حجاب الحكمة التى هى أثر صفاته ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[أمرك فى هذه الدار بالنظر فى مكوناته . وسيكشف لك فى تلك الدار عن كمال ذاته] .

قلت : إنما أمرك فى هذه الدار أن تنظر إليه بواسطة مكوناته ، لأنك لا تقدر هنا أن تنظر إلى حقيقة ذاته المقدسة فى عظمة الجبروت الأصلى بلا واسطة ، لضعف نشأتك وإن كان ذلك جائزاً عقلا ، ولذلك طلبه سيدنا موسى عليه السلام ، لكن حكمة الحكيم اقتضت تغطية أسرار الربوبية ، بأنوار سبحات الألوهية ، إذ لابد للحسناء من نقاب ، وللشمس من سحاب ، ولو ظهر من غير رداء الكبرياء لوقع الإدراك ولم يبق حينئذ ترق ، فالترقى فى أسرار الذات إنما هو بالنظر إلى أنوار الصفات وهو لا ينقطع أبدًا فى الدارين ، فلا تنال الذات من غير مظهر أصلا ، فالمعنى لا تقبض إلا بالحس . هذا مذهب أهل التحقيق من أهل المعانى .

فإن قلت : كيف فرق الشيخ بين الرؤيتين باعتبار الدارين والتحقيق أنها رؤية واحدة لأن المظهر متحد ؟

فالجواب : أنه لما كان مظهر هذه الدار الحس فيه غالب على المعنى ، والحكمة ظاهرة والقدرة باطنة ، ومظهر الدار الآخرة بالعكس ، المعنى غالب على الحس ، والقدرة ظاهرة ، انكشف ثم عن حقيقة الذات أكثر مما انكشف هنا ، فبهذا المعنى وقع التفريق بين الرؤيتين ، ومثله قول الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه فى حزبه الكبير : عز الدنيا بالإيمان والمعرفة ، وعز الآخرة باللقاء والمشاهدة ا هـ ، هذا باعتبار الخواص . وأما العوام فلا يرون إلا الحس فى هذه الدار وفى تلك الدار .

وأما الرؤية التى تحصل لهم يوم المزيد فيحتمل أن يظهر لهم نوراً من أنوار قدسه ويلهمهم المعرفة فيه وهو ظاهر الحديث ، أو يفنيهم عن حسهم فى ذلك الوقت حتى يشهدوا معانى الذات ويتلذذوا برؤيتها ثم يردهم إلى حسهم .

والحاصل : أن تجلى الذات على قسمين :

قسم يكون بوسائط كثيفة ، ظاهرها ظلمة وباطنها نور ، ظاهرها حكمة وباطنها قدرة ؛ ظاهرها حس وباطنها معنى . وهو تجلى هذه الدار .

وقسم يكون بوسائط لطيفة نورانية ، ظاهرها نور وباطنها نور ، ظاهرها قدرة وباطنها حكمة . ظاهرها معنى وباطنها حس ، وهو تجلى دار الآخرة .

فالعارفون لما حصل لهم الشهود والمعرفة فى هذه الدار وفى تلك الدار لا يحجبهم عن الله حور ولا قصور ، بل دائماً فى النظرة والسرور والنضرة والحبور ، وذلك أنهم لما عرفهم به هنا لم يحجبهم هنالك ، يموت المرء على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه ، بخلاف العامة فإنهم لما حجبهم هنا بشهود أنفسهم انحجبوا هناك عن رؤية معبودهم إلا فى وقت مخصوص على وجه مخصوص ، ولذلك كتب ابن العربى الحاتمى إلى الإمام الرازى فقال له : تعال نعرفك بالله اليوم قبل أن تموت ؛ فإذا تجلى الله لعباده أنكرته ولم تعرفه .

وسئل الشيخ أبو محمد عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه عن رجل يدعى أنه يرى الله ببصره فاستدعاه فسأله عن ذلك ، فقال : نعم ؛ فانتهره ونهاه عن

هذا القول ، ثم قيل له أمحق هو أم مبطل ؟ فقال : هو محق ملبس عليه . وذلك أنه شهد ببصيرته نور الجمال ثم خرق من بصيرته إلى بصره فنفذ فرأى بصره بصيرته ، وبصيرته يتصل شعاعها بنور شهوده ، فظن أن بصره رأى ما شاهدته بصيرته ، وإنما رأى بصره بصيرته فحسب ا هـ .

والحاصل : أنه انعكس بصره فى بصيرته فرآه ببصيرته وظن أنه رآه ببصره . ومعنى ذلك أن الروح مادامت محجوبة بالبشرية كان النظر إنما هو للبصر الحسى فلا يرى إلا الحسى ، فإذا استولت الروحانية على البشرية انعكس نظر البصر إلى البصيرة فلا يرى البصر إلا المعانى التى كانت تراها البصيرة ، وهو معنى قول شيخ شيوخنا المجذوب :

غَيَّبْتُ نَظَرِى فِى نَظَرْ وَأَفْنِيتُ عَنْ كُلِّ فَانِى
حَقَّقْتُ مَا وَجَدْتُ غِيرْ وَأَمْسَيْتُ فى الحَالِ هَانِى

والله تعالى أعلَم .

وإنما أمرك فى هذه الدار أن تنظر إليه فى مكوناته تسلية لك عن شهود ذاته والنظر إليه ، إذ لا صبر للمحب عن محبوبه ، كما أبان ذلك بقوله :

[لما علم أنك لا تصبر عنه ، أشهدك ما برز منه] .

قلت : لما فصل الحق سبحانه هذه الروح التى هى لطيفة نورانية من أصلها وتغربت عن وطنها تعشقت إلى أصلها وتعطشت إلى محبة سيدها ، فلما علم الحق سبحانه أنها لا تصبر عنه ، ولا تقدر أن تراه على ما هو عليه من كمال جلاله ونور بهاء جماله مادامت فى هذا السجن الذى هو قفص البدن ، أشهدها الحق تعالى ما برز منه من تجلياته فى مظاهر مكوناته وآثار صفاته ، لكن لابد للحسناء من نقاب ، وللشمس من سحاب فبرزت أنوار الجبروت إلى رياض الملكوت ، فغطتها سحائب الحكمة وآثار القدرة ، فبقيت الروح تتعشق إلى أصلها من وراء سحاب الأثر ، فإذا انقشع السحاب ورفع الحجاب لقى كل حبيب حبيبه ، وعرف كل إنسان مثواه ومستقره ، فقنعت الروح بشهود المعانى خلف رقة الأوانى ، وإليه أشار الشيخ الغوث أبو مدين رضى الله عنه بقوله :

فَلوْلاَ مَعَانِيكُمْ تَرَاهَا قُلُوبُنَا إِذَا نَحْنُ أَيْقَاظٌ وفى النَّوْمِ إِنْ غِبْنَـا
لَمُتْنَا أَسًى مِنْ بُعْدِكُمْ وَصَبَابَةً وَلٰكِنَّ فى المَعْنَى مَعَانِيكُمُ مَعْنَا

أى فلولا معانى ذاتكم تراها قلوبنا فى مظاهر صفاتكم لمتنا عشقاً ، أو فلولا معانى ربوبيتكم تراها قلوبنا فى مظاهر مكوناتكم ، أو فلولا معانى الجبروت تراها قلوبنا فى عالم الملكوت لمتنا أسى ، أى حزناً على فراقكم وشوقاً إلى لقائكم وقوله : « ولكن فى المعنى معانيكم معنا » أى ولكن معانيكم التى تشاهدها قلوبنا فى المعنى معنى عظيم فاستأنسنا بمشاهدتها وأنست أرواحنا بها ، فلم تمت عشقًا وشوقًا ، والله تعالى أعلم .

تلوين الطاعات

ومما تستأنس به الروح عن صدمات المحبة اشتغالها بالخدمة كما أشار إلى ذلك بقوله :

[لما علم منك وجود الملل ، لوّن لك الطاعات] .

قلت : من كرمه تعالى وحسن اختياره لك أيها العبد أنه لما علم أنك لا تقدر أن تصبر عنه أشهدك ما برز منه ، ولما علم الحق سبحانه أن من عباده من لا يقدر أن يشهده فيما برز منه أشغله بخدمته ، ولما علم منه أنه ربما يملّ من خدمة واحدة لوّن له طاعته ، لأن من شأن النفس أن تمل من تكرر الشىء الواحد ، وفى ذلك يقول الشاعر :

لَا يُصْلِحُ النَّفْسَ إِذْ كانَتْ مُدَبِّرَةً إِلَّا التَّنَقُّلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالِ

فلوّن لك طاعته ، فإذا مللت من الصلاة مثلا انتقلت إلى ذكره ، وإذا مللت من ذكره انتقلت إلى قراءة كتابه وهكذا ، وأنواع الذكر كثيرة ، والتنقل من موجبات النشاط . فالعبادة مع النشاط ولو قلت أعظم من العبادة مع الكسل وإن كثرت ، ليس العبرة بكثرة الحس وإنما العبرة بوجود المعنى .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : فلوّنت له الطاعة لثلاثة أوجه :

أحدهما : رحمة به ليستريح من لون إلى لون .

الثانى : إقامة للحجة عليه إذ لا عذر له فى الترك .

الثالث : ليثبت له النسبة فى العمل بوجود التخيير فى الجملة فتكمل الكرامة وتسهل الطاعة .

فقد قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : إذا وافق الحق الهوى فذلك الشهد بالزبد ، ومن سار إلى الله بطبعه كان الوصول أقرب إليه من طبعه ، ومن سار إلى الله بمخالفة طبعه كان الوصول إليه بقدر بعده عن طبعه ، ومتى يصح بعده عن طبعه والمقصود إنما هو موافقة الحق لا مخالفة النفس ، وشواهد السنة لا تخفى فافهم .

ومن دواعى الملل وجود الشره وهو الحرص ، وموجبه هو الإطلاق فى العمل ، فلذلك قيدت الطاعة بأعيان الأوقات كما أبان ذلك بقوله :

[وعلم ما فيك من وجود الشره فحجرها عليك فى بعض الأوقات] .

الشره : خفة فى النفس توجب المسارعة للعمل والإسراع فيه وينتج آفات ثلاثاً :

أولها : الترك عند الدوام لتروى النفس وضيقها .

الثانى : الملل ، وهو التثاقل إن لم يكن ترك .

الثالث : الإخلال بالحقوق لوجود العجلة .

والحجر بالوقت فيه فوائد ثلاث :

أولها : منع الشره ، إذ لو كانت مرسلة لوقعت النفس فيها على وجه الشره .

الثانى : نفى التسويف ، إذ لولا الوقت لكانت النفس تؤخره من زمن إلى زمن فيؤدى إلى التفريط .

الثالث : التمكين من العمل والتمكن فيه ، إذ لولا الوقت لأهمل العمل ولم يحافظ عليه لغلبة الهوى ولم يحفظه استعمالا للحظوظ اهـ .

ثم بين وجه التحجير وهو الإتقان والإقامة فقال :

[ليكون همك إقامة الصلاة لا وجود الصلاة].

قلت : السر فى تحجير الصلاة فى بعض الأوقات لتشتاق النفس إليها وترتاح بها فيحصل فيها الخشوع والحضور وقرة العين ، بخلاف ما إذا كانت دائمة فيها فلا تتعشق إليها بل ربما تمل فتوقعها على غير تمام ، والمقصود منك حركة قلبك لا حركة جسمك :

« إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَا إِلَى أَعْمَالِكُمْ وَلٰكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ » .

ليس الشأن حركة الأشباح إنما الشأن خضوع الأرواح ، فالسر فى تحجير الصلاة عنك فى بعض الأوقات أن يكون همك إقامة الصلاة ، وهو إتقانها والقيام بحقوقها الظاهرة والباطنة لا وجود الصلاة من غير إقامة ، فهى ميتة خاوية فهى إلى العقوبة أقرب .

قال الإمام القشيرى رضى الله عنه : إقامة الصلاة هو القيام بأركانها وسننها ثم الغيبة عن شهودها برؤية من يصلى له فتحفظ عليه أحكام الأمر بما يجرى عليه منه وهو عن ملاحظتها محو ، فنفوسهم منه مستقبلة إلى القبلة ، وقلوبهم مستقرة فى حقائق الوصلة اهـ .

وقال المؤلف رضى الله عنه : إقامة الصلاة حفظ حدودها مع حفظ السر مع الله عز وجل لا يختلج بسرك سواه .

وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى عماله : إن أهم أموركم عندى الصلاة ، فمن حفظها وحافظ عليها فهو لما سواها أحفظ ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع اهـ من الشيخ زروق .

الخشوع فى الصلاة

ثم ذكر وجه كون المطلوب هو الإقامة دون الوجود من حيث هو فقال :

[**فما كل مصل مقيم**] .

قلت : لأن الإقامة فى اللغة هى الإكمال والإتقان ، يقال أقام فلان داره : إذا أكملها وجعل فيها كل ما يحتاج إليه ، فإقامة الصلاة إتقانها كما تقدم وضد

الإقامة هو الإخلال والتفريط ، فليس كل مصل مقيماً ، فكم من مصل ليس له من صلاته إلا التعب .

وفى بعض الأحاديث : « مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ تَزِدْهُ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا » .

وفى حديث آخر عنه صلى الله عليه وسلم :

« إِذَا صَلَّى الْعَبْدُ فَلَمْ يُتِمَّ رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا وَلَا خُشُوعَهَا لُفَّتْ كَمَا يُلَفُّ الثَّوْبُ الْخَلَقُ ثُمَّ يُضْرَبُ بِهَا وَجْهُهُ » .

أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، فالمصلون كثير ، والمقيمون قليل . فأهل الأشباح كثير وأهل القلوب قليل .

قال أبو بكر بن العربى المعافرى رحمه الله : ولقد رأيت ممن يحافظ عليها آلافًا لا أحصيها فأما من يحافظها بالخشوع والإقبال فما استوفى منهم خمسة .

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : كل موضع ذكر فيه المصلون فى موضع المدح فإنما جاء لمن أقام الصلاة إما بلفظ الإقامة أو بمعنى يرجع إليها ، قال الله سبحانه .

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ)[1] ، (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ)[2] ، (وَأَقَامَ الصَّلاة)[3] . (وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ)[4] ولما ذكر المصلين بالغفلة قال : (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ)[5] ، ولم يقل فويل للمقيمين الصلاة ا هـ .

واعلم أن الخشوع فى الصلاة على ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى : خشوع خوف وانكسار وإذلال ، وهو للعباد والزهاد .

المرتبة الثانية : خشوع تعظيم وهيبة وإجلال ، وهو للمريدين السالكين .

---

(١) البقرة : ٣ . (٢) إبراهيم : ٤٠ . (٣) التوبة : ١٨ .

(٤) الحج : ٣٥ . (٥) الماعون : ٤ ، ٥ .

المرتبة الثالثة : خشوع فرح وسرور وإقبال ، وهو للواصلين من العارفين ويسمى هذا المقام قرة العين كما يأتى إن شاء الله .

ثم اعلم أن الصلاة التى لا يصحبها خشوع ولا حضور هى باطلة عند الصوفية غير مقبولة عند العلماء ، وقالوا : ليس للعبد من صلاته إلا ما حضر فيها قلبه : فقد يكون له ربع صلاته أو نصفها بقدر ما حضر فيها ، ويعين على الخشوع الزهد فى الدنيا وهذا هو الدواء الكبير ، إذ محال أن تكون عندك بنت إبليس ولا يزورها أبوها ، فلا يتأتى الخلوص من الخواطر مادامت فى القلب وقليلها هو كثيرها ، فمن بقيت فيه بقية منها فإنه تأتيه الخواطر على حسبها ، فمحال أن تكون شجرة الدنيا فى قلبك وتسلم من الخواطر .

ومثال ذلك كشجرة عندك فى بستان يجتمع عليها الطيور ويهولونك بأصواتهم ، فكلما شوشتهم رجعوا فلا ينقطعون عنك أبداً حتى تقطع تلك الشجرة ، فإذا قطعتها استرحت من أصواتهم ، فكذلك الدنيا مادامت فى اليد وهو معمور بها ، لا يسلم القلب من الخواطر حتى يخرج عنها ، وحينئذ يستريح من مساويها ، والله تعالى أعلم .

ومما يعين أيضاً على الخشوع : الإكثار من ذكر الله بالقلب والقالب ، وإدمان الطهارة لأن الظاهر له تعلق بالباطن ، إذا طهر هذا ، طهر هذا وبالله التوفيق .

ثم ذكر نتائج الصلاة وثمراتها ، ومرجعها إلى ست كل واحدة توصل إلى ما بعدها . (وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى)[1]

فأشار إلى الأولى بقوله :

[الصلاة مطهرة للقلوب]

قلت : إنما كانت الصلاة طهرة للقلوب من المساوئ والعيوب ، لما فيها من الخضوع والانكسار ، والذل والافتقار ، والتذلل والاضطرار : فإذا خضع القلب لهيبة الجلال طهر من سائر العلل ، لأن طلب العلوم والرفعة هو أصل العلل وعنصرها ، ومن شأن النفس وطبيعتها لطلب العلو والاستكبار والتعزز والافتخار ، لأنها جاءت من عالم العز فلا ترضى إلا بالعز ، وإلى هذا أشار

---

(٧) النجم : ٤٢ .

شيخ شيوخنا المجذوب بقوله :

مَنْ أَيْنَ جِئْتِ يَاذِى الرُّو ... حْ الهايما رُوحانيًّا
مَقَامُهَا بِساطُ الْعِـ ... ـزِّ أَحْوَالُهَا رَبَّانِيًّا

فلما ركبت هذا القالب الجسمانى ردتها القهرية إلى العبودية ، وجعلتها لها باباً للوصول إلى حضرة الربوبية ، فلا يطمع لها فى الرجوع إلى أصلها إلا بانكسارها وذلها ، ولذلك قال الشيخ عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه : أتيت الأبواب كلها فوجدت عليها ازدحامًا فأتيت باب الذل والانكسار فوجدته خالياً ، فدخلت منه وقلت هلموا إلى ربكم ، هكذا سمعته من أشياخنا ، فإذا انكسرت وذلت رجعت لأصلها ووصلت ، وإذا تعززت واستكبرت حجبت وطردت ، وإذا طردت بعدت ، وكلما بعدت عن الحضرة الربانية استحكمت فيها الشهوات الجسمانية والأخلاق الشيطانية ، فاتصفت حينئذ بكل خلق دنى وبعدت من كل خلق سنى .

فإذا أراد الله تعالى أن يرحمها بالقرب من جنابه والوقوف ببابه ، ألهمها الصلاة وحببها إليها ، حتى إذا تطهرت من الذنوب ومحيت عنها المسَاوى والعيوب ، قربت من حضرة الحبيب ومناجاة القريب ، فقرعت الباب ، وطلبت رفع الحجاب ، وهذا معنى قوله :

[واستفتاح لباب الغيوب] .

وهى النتيجة الثانية من نتائج الصلاة .

قلت : المراد بالغيوب أسرار الملكوت وأسرار الجبروت ، وإنما كانت الصلاة استفتاحاً لباب الغيوب ، لما اشتملت عليه من تطهير الظاهر والباطن .

قال محمد بن على الترمذى الحكيم رضى الله عنه : دعا الله الموحدين إلى هذه الصلوات الخمس رحمة منه عليهم ، وهيأ لهم فيها أنواع الضيافة لينال العبد من كل قول وفعل شيئاً من عطاياه ؛ فالأفعال كالأطعمة والأقوال كالأشربة ، وهى عرش الموحدين هيأها رب العالمين لأهل رحمته فى كل يوم خمس مرات حتى لا يبقى عليهم دنس من الأغيار ا هـ .

فإذا تطهر الظاهر بالطهارة الحسية ، والباطن بالطهارة المعنوية ، استحق

الدخول إلى الحضرة القدسية ، فأول ما يتحف به قربه إلى الباب وسماع خطاب الأحباب من وراء حجاب فيتمتع بمناجاة الأحباب ولذيذ الخطاب ، وهو معنى قوله :

[الصلاة محل المناجاة] .

وهى النتيجة الثالثة .

قلت : المناجاة هى المسارة والمكالمة مع الأحباب ، فمناجاة العبد ربه بالتلاوة والأذكار ، ومناجاة الرب لعبده بالتفهم والفتح ورفع الأستار .

وفى الحديث الصحيح : « الْمُصَلِّى يُنَاجِى رَبَّهُ » .

وقال أيضًا عليه الصلاة والسلام : « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِى وَبَيْنَ عَبْدِى وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ : الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، قال تعالى : حَمِدنى عَبْدِى ، فإِذَا قَالَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ، قال الله تعالى : مَجَّدَنِى عَبْدِى ، فَإِذَا قَالَ : مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى فَوَّضَ إِلَىَّ عَبْدِى ، فَإِذَا قَالَ : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : هٰذِهِ بَيْنِى وَبَيْنَ عَبْدِى ، فَإِذَا قَالَ : اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ الآية ، قَالَ اللهُ هٰذِهِ لِعَبْدِى وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ » الحديث .

فلا يزال المصلى يناجى ربه ويطلب قربه ، حتى تتمكن المحبة من القلب والإقبال من الرب ؛ فتصفو المحبة من كدر الجفا ، ويتصل المحب مع حبيبه فى محل الصفا ، وهو معنى قوله :

[ومعدن المصافاة] .

وهى النتيجة الرابعة .

قلت : المعدن هو محل الذهب والفضة ، استعير هنا لصفاء القلوب والأرواح لتصفيتها من لوث صلصال الأشباح ، فالمصافاة خلوص المناجاة من تشويش الحس وكدر الهواجس ، فهى أرق وأصفى من المناجاة كما قال ابن الفارض رضى الله عنه :

وَلَقَدْ خَلَوْتُ مَعَ الْحَبِيبِ وَبَيْنَنَا   سِرٌّ أَرَقُّ مِنَ النَّسِيمِ إِذَا سَرَى

وهذه مصافاة العبد لربه ، ومصافاة الرب لعبده بالإقبال عليه حتى لا يدعه لغيره .

وفى الخبر : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلاةِ رَفَعَ الله الْحِجَابَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ وَوَاجِهُهُ بِوَجْهِهِ وَقَامَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ لَدُنْ مَنْكِبَيْهِ إِلَى الْهَوِىِّ يُصَلُّونَ بِصَلاتِهِ » ا هـ .

فإذا تمت التصفية ، وعظمت المحبة ، وكثر العطش ، وظهر الدهش استحقت الروح رفع الحجاب وفتح الباب ، فتدخل إلى حضرة الأحباب ، ويرتفع بينها وبينهم الحجاب فتخرج من ضيق الأشباح ، إلى فضاء عالم الأرواح أو من ضيق الملك إلى سعة عالم الملكوت ، وهو معنى قوله :

[تتسع فيها ميادين الأسرار] .

وهى النتيجة الخامسة .

قلت : الميادين : جمع ميدان ، وهو مجال الخيل ، استعير هنا لفضاء عالم الملكوت .

فإذا تنزهت الروح فى عالم الملكوت وجالت بفكرتها فى سعة أنوارها أشرقت عليها أنوار سنا الجبروت ، وهو معنى قوله :

[وتشرق فيها شوارق الأنوار] .

وهى النتيجة السادسة .

قلت : أراد بالأسرار أسرار الذات وهو لأهل الفناء ، وبالأنوار أنوار الصفات وهو لأهل البقاء ، والله أعلم . وأراد الشيخ بهذه الصلاة التى تنقله من حال إلى حال ، ومن مقام إلى مقام صلاة أهل الاعتناء ، وهم أهل السلوك على يد الشيوخ لا صلاة أهل الغفلة ، وصلاة أهل المجاهدة من العباد والزهاد ، فليس لهم هذا السير ، والله تعالى أعلم .

قال أبو طالب : حدثنا أن المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعدت عنه الشياطين فى أقطار الأرضين خوفاً منه ، لأنه تأهب للدخول على الملك ، فإذا كبر حجب عنه إبليس وضرب بينه وبينه بسرادق لا ينظر إليه وواجهه الجبار بوجهه ، فإذا

قال : الله أكبر اطلع الملك فى قلبه فإذا ليس فى قلبه أكبر من الله ، فيقول الملك صدقت الله أكبر فى قلبك كما تقول ، فيتشعشع فى قلبه نور يلحق ملكوت العرش ، فينكشف له بذلك ملكوت السموات والأرض ويكتب له حشو ذلك النور حسنات . قال : وإن الغافل الجاهل إذا قام إلى الوضوء احتوشته الشياطين كما يحتوش الذباب على نقطة العسل ، فإذا كبر اطلع الملك فى قلبه فإذا كل شىء فى قلبه أكبر من الله عنده ، فيقول الملك كذبت ليس الله فى قلبك كما تقول ، فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجاباً لقلبه عن الملكوت ، قال : فيرد ذلك الحجاب صلاته ، وتلتقم الشياطين قلبه ، ولا تزال تنفخ فيه وتنفث وتوسوس وتزين له حتى ينصرف من صلاته ولا يعقل ما فعل .

ثم ذكر حكمة حصرها فى عدد معلوم وهو خمسة فقال :

[علم وجود الضعف منك فقلل أعدادها] .

وهى خمس بعد أن كانت خمسين .

فمن لطفه سبحانه بك أيها الإنسان قلل أعدادها مع سعة الزمان . فجعل عليك صلاة فى أول نهاره شكراً لما أظهره لك من باهر أنواره ، وليكون نهوضك إليه فى أول قيامك جبرًا لما حصل من غفلتك فى طول منامك . وجعل عليك صلاة فى وسط نهاره إخمادًا عنك لما أظهره فى ذلك الوقت من وقود ناره . وجعل عليك صلاة قرب انصراف النهار ليكون شاهدًا لك بوجود طاعتك عند الملك الغفار ، ولتشهد عليك ملائكة الرحمن بالصلاة عند الملك الديان . وأوجب عليك صلاة فى أول زمان الليل استفتاحًا لذلك الزمان بوجود طاعتك كما استفتحت أول نهارك واستحفاظًا لما يتوقع من عجائب الليل . ثم لما أردت أن تنام عن سيدك وتغفل عن ربك وتتمتع بفراشك أمرك أن تودعه بحضورك معه ، وأن يكون آخر عهدك به وجود طاعتك ، فهذا كله جذب منه لك لحضرته ، واستخراج منك لشكر منته .

« عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلاسِلِ » .

وحين قلل أعدادها لما علم احتياجك إلى منته كثر إمدادها ، وإليه أشار بقوله :

[وعلم احتياجك إلى فضله فكثر إمدادها] .

المراد بالإمداد : الجزاء الذى رتب عليها ، فجعل كل صلاة بعشر ، فهى خمس وهى خمسون ، خمس فى الحس ، وخمسون فى المعنى ، أى الثواب . وإذا فعلت فى الجماعة كانت كل واحدة بخمس وعشرين وكل درجة بعشر ، فكان عدد صلاة الجماعة مائتين وخمسين فى كل صلاة :

(وَاللهُ ذُو الفَضْلِ الْعَظِيمِ)[1] .

وتتفاوت الدرجة أيضًا بكثرة الجماعة وكمالها ، وبقدر الحضور والخشوع والغيبة ورفع الستور :

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[2] .

وتتفاوت أيضًا بقدر البقاع كبيت الله الحرام والمسجد النبوى وبيت المقدس ، وبقدر رتبة الإمام .

« مَنْ صَلَّى خَلْفَ مَغْفُورٍ غَفَرَ اللهُ لَهُ » والله تعالى أعلم .

لكن لا ينبغى لك أيها الفقير أن تلتفت إلى هذا الحظ ، فإن فضل الله كثير لمن رفع همته إلى العلى الكبير كما أبان ذلك بقوله :

[متى طلبت عوضاً عن عمل طولبت بوجود الصدق فيه . ويكفى المريب وجدان السلامة].

قلت : متى صدر منك عمل من أعمال البر وطلبت الحق سبحانه أن يجازيك عليه طلبك الحق تعالى بوجود الصدق فيه ، وهو سر الإخلاص ولبه الذى هو التبرى من الحول والقوة ، وانعزال النفس عن رؤية العمل لها بالكلية بعد تحقيق الحضور ، والسلامة من الوساوس والخواطر والهواجس حتى تكون صلاتك بالله ولله غائباً فيها عما سواه ، قد ملأت قلبك عظمة الله فغبت فى الله بالله ، فإن تحققت فيك هذه الأمور صح لك أن تطلب ما رتب الحق سبحانه على العمل من

---

(١) الحديد : ٢٩ . (٢) السجدة : ١٧ .

أنواع الجزاء والأجور ، وإن لم تتحقق من نفسك هذه الأمور فاعلم أن عملك مدخول فاستحى من الله أن تطلب الجزاء على عمل مدخول ، فيكفيك من الجزاء وحصول المطلب السلامة من الهلاك والعطب . يكفيك من طلب حسن نواله السلامة من عقابه ونكاله ، يكفى المريب وهو المتهم وجدان السلامة من العقوبة فيما اتهم فيه ، فمن كان عند الملك متهمًا وهو محبوس للعقوبة على ما اتهم فيه ثم قيل له إن الملك يمنحك ويعطيك كذا وكذا فيقول لهم يكفينى فى العطاء وجدان السلامة من عقوبته .

وأنت أيها الإنسان طولبت بالأعمال والإخلاص فيها وإتقانها وإتمام إقامتها فأتيت بطاعة مشوبة بالخواطر والوساوس ، وعلى تقدير سلامتها من ذلك ، فطلبك الجزاء يقتضى رؤية نفسك ، ووجود الفعل منك وهو شرك تستحق عليه العقوبة ، فيكفيك من عطائه وجود السلامة من عقابه .

قال الواسطى رضى الله عنه : العبادة إلى طلب العفو عنها أقرب منها إلى طلب الأعواض ا هـ .

وقال خير النساج رضى الله عنه : ميراث أعمالك ما يليق بأفعالك ، فاطلب ميراث فضله فإنه أتم وأحسن . وقال الله تعالى :

(قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفرحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)[1] .

ومعنى كلامه رضى الله عنه : أن جزاء أعمالك ما يليق بأفعالك الناقصة وجزاء الناقص ناقص ، فاطلب منه ثمرة فضله فإنه كامل من كل وجه فهو أتم وأكمل ، والله تعالى أعلم .

وكيف تطلب الجزاء على عمل لست له فاعلا ، ولا علمت كون القبول له حاصلا ؟ كما أشار بقوله :

[لا تطلب عوضاً على عمل لست له فاعلا ، يكفى من الجزاء لك على العمل أن كان له قابلا] .

---

(١) يونس : ٥٨ .

قلت : قد تقرر عند أهل الحق أن العبد مجبور فى قالب مختار ، فليس له فعل ولا اختيار ، وإنما الفاعل هو الواحد القهار ، قال تعالى :

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ)[١] وقال تعالى : (وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)[٢] وقال تعالى : (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)[٣] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ » أى النشاط .

وقال عليه الصلاة والسلام : « كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ ، فَأَمَّا مَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَّا مَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ ، ثُمَّ قَرَأَ : (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى)[٤] الآية .

فإذا تقرر هذا فكيف يطلب العبد الأجر على عمل ليس هو فاعله ، وعلى تقدير نسبته إليه فالجزاء متوقف على القبول ، فمن أين تدرى هل يكون مقبولا أو لا ؟ وإذا تفضل عليك بالقبول على ما هو عليه من النقص والخلل ؛ فهذا يكفيك فى جزائك على العمل ، فلولا جميل ستره لم يكن عملك أهلا للقبول ، فلولا أن الله سبحانه تفضل على عباده بالعفو والحلم ما قبل عملا قط ، إذ تصفية الأعمال كادت تكون من المحال قال الله تعالى :

(وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ)[٥] . أى عظموه حق تعظيمه . وقال تعالى : (كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ)[٦] . أى لم يقض الإنسان ما أمره سيده على الوجه الذى أمره به ، وانظر قوله تعالى : (أُولَٰئِكَ الَّذِين نَتَقَبَّلُ عَنْهُم أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا)[٧] .

---

(١) القصص : ٦٨ . (٢) الصافات : ٩٦ . (٣) التكوير : ٢٩ .
(٤) الليل : ٥ (٥) الزمر : ٦٧ . (٦) عبس : ٢٣ .
(٧) الأحقاف : ١٦ .

ولم يقل الحق تعالى نتقبل منهم ، لأنه يقتضى أنه كامل بل عدّاه بعن المفيدة للتجاوز كأنه قال أولئك الذين نتجاوز عنهم فى أحسن ما عملوا فنتقبلها منهم ، ولو لم يتجاوز عنهم فيها ما تقبلت منهم ، ولكن الكريم لا ينتقد بل يقبل كل ما يعطاه لعظيم كرمه وغناه .

فالحمد دائماً لله خلق فيه العمل وأعطانا عليه غاية المنى والأمل ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق فيك ونسب إليك] .

قلت : الحق تعالى فاعل بالمشيئة والاختيار :

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)[1] .

أى لا يسأل عما يفعل حقيقة وهم يسألون شريعة .

تقسيم العباد

ثم إن الحق سبحانه وتعالى قسم عباده على ثلاثة أقسام :

قسم أعدهم للانتقام ، فأظهر فيه اسمه المنتقم واسمه القهار ، أجرى عليهم صورة العصيان بحكمته ، ونسبها إليهم بعدله وقهره :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ)[2] ، (وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا)[3] .

فقامت الحجة عليهم باعتبار النسبة وإظهار الحكمة :

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)[4] ، (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)[5] .

وقسم أعدهم الله للحلم ، ليظهر فيه اسمه الحليم واسمه الرحيم ، أجرى عليهم العصيان وحلاهم بالإيمان فاستحقوا العقوبة على العصيان ، ثم إن الحق

---

(١) الأنبياء : ٢٣ .　(٢) الأنعام : ١١٢ .　(٣) الأنعام : ١٠٧ .

(٤) فصلت : ٤٦ .　(٥) النحل : ١١٨ .

تعالى حلم عليهم وعفا عنهم وأدخلهم الجنان .

وقسم أعدهم الله للكرم ، ليظهر فيه اسمه الكريم واسمه الرحيم ، خلق فيهم الطاعة والإحسان ، وحلاهم بالإسلام والإيمان ،وربما زادهم التحلى بالإحسان ، فأدخلهم فسيح الجنان ومتعهم بالنظر إلى وجه الرحمن ، فإذا أراد الله تعالى أن يلحقك بهؤلاء السادات هيأك لأنواع الطاعات ، وخلق فيك القوة على فعل الخيرات ، ثم نسب إليك ذلك الفعل فقال : يا عبدى فعلت كذا وكذا من الخير فأنا أجازيك عليه ، ادخل الجنة برحمتى وترقّ إلى مقامك بعملك فمقامك حيث انتهى عملك قال تعالى :

(كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)[1] وقال تعالى : (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)[2] .

ثم ينبغى لك أيها الإنسان أن تتأدب مع الملك الديان ، فلا تنسب إليه النقص والعصيان وإنما أغوتك نفسك والشيطان قال تعالى :

(فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ)[3] .

أى الشيطان ، فما كان من الكمال فانسبه إلى الكبير المتعال ، وما كان من النقصان فامسحه فى منديل النفس والشيطان .

قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : إذا عمل العبد حسنة وقال يارب بفضلك عملت وأنت أعنت وأنت سهلت شكر الله ذلك له وقال : يا عبدى ، بل أنت أطعت وأنت تقربت .

وإذا نظر إلى نفسه وقال أنا عملت وأنا أطعت وأنا تقربت أعرض الله عنه وقال له : يا عبدى أنا وفقت وأنا أعنت وأنا سهلت .

وإذا عمل سيئة وقال يارب أنت قدرت وأنت قضيت وأنت حكمت ، غضب المولى جلت قدرته عليه وقال : يا عبدى بل أنت أسأت وأنت جهلت وأنت عصيت .

---

(١) الإسراء : ٢٠ ، ٢١ .　　(٢) النحل : ٣٢ .　　(٣) لقمان : ٣٣ .

وإذا قال يارب أنا ظلمت وأنا أسأت وأنا جهلت أقبل المولى جلت قدرته عليه وقال : يا عبدى أنا قضيت وأنا قدرت وقد غفرت وقد حلمت وقد سترت اهـ .

ثم إن هذه النسبة التى نسب الله لعبده بما خلق فيه بها يستحق المدح والذم ، فإذا خلق فيه الطاعة ونسبها إليه استحق المدح بلسان الشرع ، وإذا أجرى عليه المعصية وقضاها عليه استحق الذم بلسان الشرع أيضاً كما أشار إليه بقوله :

[لا نهاية لمذامّك إن أرجعك إليك ولا تفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك] .

قلت : إذا أراد الله إهانة عبد وإذلاله رده إلى نفسه وهواه فأحيل عليها ووكل إليها فيوليه ما تولى ، فإذا استولى عليه الهوى أعماه وأصمه ، وفى مهاوى الردى أسقطه كما قال الشاعر :

تركُك نَفْسَكَ وهَوَاهَا سَعْىٌ لَهَا فى رَدَاهَا

فالهوى مختصر من الهوان وموجب له كما قال البرعى رحمه الله :

لَا تَتْبَعِ النَّفْسُ فى هَوَاهَا إِنَّ اتِّبَاعَ الهوَى هَوَانُ

وإذا أراد الله إعزاز عبد وعنايته ، أظهر عليه جوده وكرمه فتولاه وحفظه ، ولم يتركه مع نفسه وهواه طرفة عين ولا أقل من ذلك ، فلا نهاية لمذامّك أيها الإنسان إن ردك إلى نفسك وحكّمها فيك وتركك مع هواك ، لأن ذلك من علامة الإهمال وسقوطك من عين الكبير المتعال ، والعياذ بالله من كل خسر ووبال ، ولا تفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك فتولاك بحفظه ورعاك بعنايته وحجزك عن نفسك ، وحال بينك وبين تدبيرك وحدسك .

ومن دعائه عليه الصلاة والسلام : « إِنْ تَكِلْنِى إِلَى نَفَسِى تَكِلْنِى إِلى ضَعْفٍ وَعَوْزَةٍ وَذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ وَإِنِّى لَا أَثِقُ إلا بِرَحْمَتِكَ » .

والحاصل : أنك إن كنت بربك تكمّل عزك ولا يتناهى مدحك ، وإن كنت

بنفسك تكامل ذلك ولا يتناهى ذمُّك كما قال الشاعر :

إِذَا كُنَّا بِهِ تُهْنَا دَلَالَا عَلَى كُلِّ الحَرَائِرِ وَالْعَبِيدِ
وإِنْ كُنا بنا عُدنا إلينا فعطَّلَ ذلُّنا ذلَّ اليَهُودِ

أو تقول : من أهمله الله وتركه مع نفسه وهواه لا نهاية لمذامه وقبائحه ، فإن للنفس من النقائص ما لله من الكمالات ، ومن تولاه الله وأظهر جوده عليه ولم يتركه مع نفسه وأزعجه عن حظه وحال بينه وبين هواه ، فلا نهاية لمدائحه ، إذ كمالات الله لا نهاية لها وما هنا إلا مظاهره . فكما لا نهاية لجلاله كذلك لا نهاية لجماله ، والله تعالى أعلم .

هذا آخر الباب الثانى عشر .

وخاصلها : تعظيم الأوراد ، والتأهب لورود الأمداد ، وتصفية البواطن من الأكدار لتشرق عليها شموس الأنوار ، وهى شموس العرفان ، فيفنى العارف عن التدبير والاختيار ، فكل يوم ينظر ما يفعل الواحد القهار ، فيتأنس حينئذ بكل شىء ويتأدب مع كل شىء ويعظم كل شىء ولا يستوحش من شىء لمعرفته فى كل شىء ؛ فيستأنس فى هذه الدار بالنظر إلى الله فى حجاب صفاته وهى مظاهر مكوناته ، وسيكشف له فى تلك الدار عن كمال ذاته من غير حجاب صفاته .

وذلك أنه لما علم أنه لا يصبره عنه أشهده ما برز منه ، ولما علم أن من عباده من لا يقدر أن يشهده فى مكوناته أشغله بخدمته وعلم أيضًا أنه إن دام على عمل واحد ربما حصل له الملل ، لون له الطاعة والعمل ، وعلم ما فى عبده من الشره فحجرها عليه فى بعض الأوقات ليكون همه إقامة الصلاة لا وجود الصلاة . ثم ذكر ثمراتها ونتائجها ونهاك عن طلب العوض عليها لكونك لست عاملا لها وإنما هو فضل من الله عليك ، خلق فيك القوة ونسبها إليك ، فإن ردك إلى نفسك وتركك مع هواك لا تتناهى مذامك ، وإن أخذك عن نفسك وتولاك بجوده وفضله لاتفرغ مدائحك ، حيث صرت وليًّا من أوليائه وصفيًّا من أصفيائه ، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه آمين .

الباب الثالث عشر

أوصاف الربوبية وأوصاف العبودية

فإذا أردت أن يظهر جوده عليك وتبسط مواهبه لديك ، فتحقق بوصفك وتعلق بوصفه ، كما أبان ذلك بقوله رضى الله عنه :

[كن بأوصاف ربوبيته متعلقاً ، وبأوصاف عبوديتك متحققًا].

قلت : أوصاف الربوبية هى العز والكبرياء والعظمة والغنى والقدرة والعلم وغير ذلك من أوصاف الكمالات التى لا نهاية لها ، وأصاف العبودية هى الذل والفقر والعجز والضعف والجهل وغير ذلك مما يناسب العبودية من النقائص .

وكيفية التعلق بأوصاف الحق : هو أن تلتجئ فى أمورك إليه ، وتعتمد فى حوائجك عليه ، وترفض كل ما سواه ، ولا ترى فى الوجود إلا إياه . فإذا نظرت إلى عزه وكبريائه وعظمته تعززت به ولم تعزز بغيره ، وصغر فى عينك دونه كل شىء . وإذا نظرت إلى وصفه تعالى بالغنى تعلقت بغناه ، واستغنيت عما سواه ، ولم تفتقر إلى شىء ، واستغنيت به عن كل شىء . وإذا نظرت إلى وصفه تعالى بالقدرة والقوة لم تلتجئ فى حال عجزك وضعفك إلا إلى قدرته وقوته ، واستضعفت كل شىء . وإذا نظرت إلى سعة علمه وإحاطته اكتفيت بعلمه ، واستغنيت عن طلبه ، وقلت بلسان الحال :

« عِلْمُهُ بحَالِي يُغْنِي عَنْ سُؤَالِي » .

وهكذا فى جميع الأوصاف والأسماء ، فكلها تصلح للتعلق والتخلق والتحقق .

وكيفية التخلق بأوصافه تعالى : أن تكون فى باطنك عزيزاً ، قويًّا به عظيماً كبيراً عنده ، قويًّا فى دينه وفى معرفته عالماً به وبأحكامه ، وهكذا .

وحاصلها : استعمال الحرية فى الباطن والعبودية فى الظاهر .

وكيفية التحقق بأسماء الله تعالى : أن تكون تلك المعانى فيك راسخة متمكنة

متحققاً فيك وجودها ، فالتخلق مجاهدة ، والتحقق مشاهدة : أى يكون وجودها غريزيًّا .

وكيفية التخلق بأوصاف العبودية : هو التحقق بالذل فى الظاهر ، حتى يصير الذل عندك حرفة وطبيعة لا تأنف منه ، بل تستحليه وتغتبط به ، وكذلك الفقر والضعف والجهل ، وسائر أوصاف العبودية تتحقق بوجودها فى ظاهرك حتى يكون ذلك شرفاً عندك .

وكان شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه يقول : أهل الظاهر يتنافسون فى العلو أيهم يكون أعلى من الآخر ، وأهل الباطن يتنافسون فى الحنو أيهم يكون أحنى من الآخر اهـ بالمعنى .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : أوصاف الربوبية أربعة ، تقابلها أربعة هى أوصاف العبودية : أولها الغنى ، ويقابله الفقر . الثانى العز ، ويقابله الذل . الثالث القدرة ، ويقابلها العجز . الرابع القوة ، ويقابلها الضعف ، وكل هذه متلازمة ، إن وجد واحدها وجد جميعها ، ووجود المقابل ملزوم بوجود مقابله .

فمن استغنى بالله افتقر إليه ، ومن افتقر إلى الله استغنى به ، ومن تعزز بالله ذل له ، ومن ذل له تعزز به ، ومن شاهد قدرته رأى عجز نفسه ، ومن رأى عجز نفسه شاهد قدرة مولاه ، ومن نظر ضعف نفسه رأى قوة مولاه ، ومن رأى قوته علم ضعف نفسه ، لكن إن كان البساط النظر لأوصافك فأنت الفقير إلى الله ، وإن كان البساط النظر إلى أوصافه فأنت الغنى بالله . وهما يتعاقبان على العارف ، فتارة يغلب عليه الغنى بالله ، فتظهر عليه آثار العناية ، وتارة يظهر عليه آثار الفقر إلى الله فيلتزم الرعاية ، فحين غلب الغنى بالله على حبيب الله أطعم ألفاً من صاع ، وحين غلب عليه الفقر إلى الله شد الحجر على بطنه من الجوع فافهم اهـ .

قلت : والتحقيق ما قدمناه من أن التعلق بأوصاف الربوبية يكون فى الباطن ، والتحقق بأوصاف العبودية يكون فى الظاهر ؛ فالحرية فى الباطن على الدوام ، والعبودية فى الظاهر على الدوام ؛ فحرية الباطن هى شهود أوصاف الربوبية ، وهو معنى التعلق بها ، لكن إن كان مجاهدة فهو تعلق ، وإن كان

طبيعة وغريزة فهو تحقق .

أو تقول : إن كان حالا فهو تعلق وإن كان مقاماً فهو تحقق ، وعبودية الظاهر هى شهود أوصاف العبودية قيامًا بالحكمة وسترًا للقدرة .

والحاصل : أن عظمة الربوبية ظهرت فى مظاهر العبودية ، فمن نظر للعظمة صرفاً تحقق بعظمة الربوبية ، ومن نظر لظاهر المظهر تحقق بأوصاف العبودية ، والكامل ينظر لهما معًا ، فيتحقق بعظمة الربوبية فى الباطن ، ويتحقق بأوصاف العبودية فى الظاهر فيعطى كل ذى حق حقه ، فالجميع فى باطنه مشهود ، والفرق فى ظاهره موجود ، والله تعالى أعلم .

فإن أظهر أوصاف الربوبية فقد تعدى طوره ، وجهل قدره ، فلابد أن تؤدبه القدرة ، وإلى ذلك أشار بقوله :

[منعك أن تدعى ما ليس لك مما هو للمخلوقين ، أفيبيح لك أن تدعى وصفه وهو رب العالمين] .

قلت : الحق تعالى غيور فلا يحب لعبده أن يفشى سر خصوصيته ، ولا يرضى لعبده أن يشاركه فى أوصاف ربوبيته ؛ فمن غيرته تعالى أن ستر سرّ الخصوصية بظهور وصف البشرية ، ولولا ذلك لكان سر الربوبية مبتذلا ظاهرًا وذلك مناقض لحكمته ، وكيف وهو يقول : (إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)[1] .

ومن غيرته تعالى أن اختص بأوصاف الربوبية ، ونهانا عن إظهارها والتحلى بها حالا أو مقالا ، وذلك كاتصاف العبد بالعز والعظمة والكبر ، وطلب الرياسة والعلو ، أو ادعاء ذلك بالمقال . فإن فعل شيئاً من ذلك استحق من الله الطرد والنكال ، ففى الحديث القدسى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : الكِبْرِيَاءُ رِدَائى ، وَالعَظَمَةُ إِزَارِى ، فَمَنْ نَازَعَنى وَاحِدًا مِنْهُمَا قَصَمْتُهُ » .

وقال أيضًا صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الأنعام : ٨٣ .

« لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ فَلِذٰلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ » .

وفى البخارى فى قصة سيدنا موسى عليه السلام :

« أَنَّهُ خَطَبَ عَلَى النَّاسِ خُطْبَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ ، فَقَالَ لَهُ : هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ ؟ فقَالَ : لَا ، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذ لَمْ يَرُدَّ العِلمَ إِلَيْهِ ، فقَالَ لَهُ : بَلَى عَبْدُنَا خَضِرٌ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ ، فَكَانَ مِنْ شَأْنِهَا مَا قَصَّ اللهُ فى كِتَابِهِ » .

فانظر كيف أدبه بطلب غيره ، حتى صار تلميذاً له يأمره وينهاه بقوة وصوله مع عظم قدره وجلالة منصبه ، وما ذلك إلا لإظهار شىء من الحرية ، فكل من أظهر الحرية رده إلى العبودية بالقهرية ، وكل من أظهر العبودية حقق له فى باطنه الحرية وملكه الكون بالكلية ، فمن تواضع دون قدره رفعه الله فوق قدره ، ومن غيرته تعالى أيضًا أن حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والفواحش : كل ما فحش قبحه وعظم جرمه : كالزنى والغصب والسرقة ، والتعدى ، وأكل أموال اليتامى ، وغير ذلك من حقوق العباد . فإذا كان منعك أن تدعى ما ليس لك مما هو للمخلوقين من العرض الفانى ، فكيف يبيح لك أن تدعى وصفه من العزة والكبرياء وهو رب العالمين .

فإذا ادعيت ما ليس لك سلبك ما ملكك ، وإذا تحققت بوصفك وسلمت له وصفه منحك ما لم يكن عندك وآتاك ما لم يؤت أحدًا من العالمين ، فكلما نزلت بنفسك أرضًا أرضًا سما قلبك سماء سماء وقد تقدم هذا المعنى فى الخمول ، والله تعالى أعلم .

تنبيه : اعلم رحمك الله ووفقك للتسليم لأوليائه أن الحرية إذا تحققت فى الباطن لابد من رشحات تظهر على الظاهر :

* فَكُلُّ إِنَاءٍ بِالَّذِى فِيهِ يَرْشَحُ *

وصاحب الكنز لابد أن يظهر عليه السرور ، وصاحب الغنى لا يخلو من

بهجة وحبور كما قال الشاعر :

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ آمْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

ولذلك نجد أهل الباطن رضى الله عنهم جلهم أقوياء فى الظاهر ، فربما تصدر منهم مقالات تستخرجها القدرة منهم ، فيظن الجاهل بحالهم أن ذلك دعوى وظهور ، وليس كذلك وإنما ذلك رشحات من قوة الباطن لا قدرة لهم على إمساكها ؟ منها ما يكون تحدثًا بالنعم ، ومنها ما يكون نصحًا للعباد ، ليعرفوا حالهم فينتفعوا بهم فى طريق الإرشاد ، ومن هذا الأمر رفضهم كثير من أهل الظاهر ، والمتعمقون فى العبادة أو المتجمدون على ظاهر الشريعة أو من لم تطل صحبته معهم فى الطريقة وإن كان كاملا .

ومن ذلك ما وقع للشيخ زروق رضى الله عنه مع أبى المواهب التونسى رضى الله عنه حين ظهرت عليه آثار القوة الباطنية حتى قال فيه الشيخ زروق دعواه أكبر من قدمه وليس كذلك ، فإن الشيخ أبا المواهب عظيم الشأن راسخ القدم فى العرفان ، أخذ عن أبى عثمان المغربى . وكان يقول : لبست خرقة التصوف من رسول الله صلى الله عليه وسلم وله شرح حسن على الحكم إلا أنه لم يكمل ، وله كلام رائق نظمًا ونثرًا . ومن نظمه رضى الله عنه :

مَنْ فَاتَهُ مِنْكَ وَصْلٌ حَظُّهُ النَّدَمُ وَمَنْ تَكُنْ هَمَّهُ تَسْمُو بِهِ الهِمَمُ
وَنَاظِرٌ فى سِوَى مَعْنَاكَ حُقَّ لهُ يَقْتَصُّ مِنْ جَفْنِهِ بالدَّمْعِ وَهْوَ دَمُ
والسَّمْعُ إِنْ جَالَ فِيهِ مَنْ يُحَدِّثُهُ سِوَى حَدِيثِكَ أَمْسَى وَقْرُهُ الصَّمَمُ
فى كلِّ جَارِحَةٍ عَيْنٌ أَرَاكَ بِهَا مِنِّى وفى كلِّ عُضْوٍ بالثَّنَاءِ فَمُ
فإِنْ تَكَلَّمْتُ لمْ أَنْطِقْ بِغَيْرِكُمُ وكلُّ قَلْبِىَ مَشْغُوفٌ بِحُبِّكُمُ
أَخَذْتُم الرُّوحَ مِنِّى فى مُلَاطَفَةٍ فَلَسْتُ أَعرِفُ غَيْرًا مُذْ عَرَفْتُكُمُ
نَسِيتُ كلَّ طَرِيقٍ كُنت أَعْرِفُهَا إِلَّا طَرِيقًا تُؤَدِّينِى لِرَبْعِكُمُ
فَمَا المَنَازِلُ لَولاً أَنْ تَحِلَّ بِهَا ومَا الدِّيَارُ ومَا الأَطْلَالُ والخِيَمُ
لَوْلَاكَ مَا شَاقَنِى رَبْعٌ ولا طَلَلٌ ولا سَعَتْ بِى إِلَى نحْوِ الحِمَى قَدَمُ

وأطال الشعرانى فى ترجمته فى الطبقات بما يدل على كمال خصوصيته وتمام ولايته ، وما حمل الشيخ زروقًا على مقالته تلك إلا القوة التى صدرت من أبى المواهب ، مع كونه لم تطل صحبته معه ، مع ما صدر منه فى جانب الشيخ ابن عباد رضى الله عنهم ، والله تعالى أعلم .

وهذا الأمر الذى ذكرناه من القوة التى فى العارفين لا يجهله إلا من لم يبلغ مقامهم ، وحسب من لم يبلغ مقامهم التسليم .

وسر هذه القوة التى ظهرت فى العارفين هو من جهة الروح ، وذلك أن الروح جاءت من عالم العز والقوة ، فلما ركبت فى هذا البدن حجبت وقهرت ، فأرادت الرجوع إلى أصلها فطلبته بالعز الأصلى والقوة الأصلية فمنعت منه وأتت من كوة الذل والافتقار ، وخرقت عوائد نفسها فانخرقت لها حينئذ الحجب ، فرجعت إلى أصلها ، فلما رجعت إلى أصلها اتصفت بالقوة التى كانت لها ، فأمرت أن تجعل ذلك فى باطنها ففعلت ، لكن ربما رشح شىء من ذلك على الظاهر غلبة .

خرق عوائد النفس

ولذلك ذكر الشيخ خرق العوائد إثر ذكر التحقق بالعبودية فقال :

[كيف تخرق لك العوائد ، وأنت لم تخرق من نفسك العوائد] .

قلت : العوائد كل ما تعودته النفس وألفته واستمرت معه حتى صعب خروجها عنه سواء كان ظلمانيًّا أو نورانيًّا ، كتتبع الفضائل وكثرة النوافل .

وهى على قسمين : عوائد ظاهرة حسية ، وعوائد باطنة معنوية .

فمثال العوائد الحسية : كثرة الأكل والشرب والنوم واللباس وخلطة الناس والدخول فى الأسباب ، وكثرة الكلام والمخاصمة والعتاب ، والاستغراق فى العبادة الحسية أو العلوم الرسمية ، وغير ذلك .

ومثال العوائد المعنوية : حب الجاه والرياسة وطلب الخصوصية ، وحب الدنيا والمدح ، وكالحسد والكبر ، والعجب والرياء ، والطمع فى الخلق ، وخوف الفقر

وهم الرزق ، والفظاظة والقسوة ، وغير ذلك مما تقدم . فمن خرق من نفسه عوائدها الحسية بالرياضات القهرية خرقت له العوائد الحسية : كالطيران فى الهواء والمشى على الماء ، ونفوذ الدعوة وغير ذلك من الكرامات الحسية ومن خرق من نفسه عوائدها المعنوية خرقت له العوائد الباطنة : كرفع حجب الغفلة وتطهير القلوب ، وكشف الحجاب وفتح الباب ، وتحقق العرفان ، والترقى إلى مقام الإحسان ، وهذا هو المعتبر عند الأكياس وهو المطلوب من سائر الناس .

وأما خرق العوائد الحسية ، فقد تكون لمن ليست لهم خصوصية : كالسحرة وأرباب الشعوذة ؛ نعم من جمع بينهما خرقت له فيهما فكيف تطلب أيها المريد أن تخرق لك عوائد نفسك حتى تدخل حضرة قدسك وأنت لم تخرق عوائد نفسك ، فما حجب النفس عن الشهود إلا ما تعودته من رؤية هذا الوجود ، فلو غابت عن رؤية هذا الوجود لتحقق لها أمر الشهود ، ولا يمكن أن تغيب عنه إلا بخرق عوائد نفسها .

وقد تقدمت حكاية الرجل الذى كان مع أبى يزيد ثلاثين سنة فلم يذق شيئاً ، فقال له لوصليت ثلاثمائة سنة لم تذق شيئاً ، لأنك محجوب بنفسك ، ثم قال له : اذهب الساعة إلى الحجام واحلق رأسك ولحيتك ، وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة ، وعلق فى عنقك مخلاة واملأها جوزاً واجمع حولك صبياناً وقل بأعلى صوتك يا صبيان من يصفعنى صفعة أعطه جوزة ، وادخل السوق وأنت على هذه الحالة حتى ينظر إليك كل من عرفك ، ثم قال له فلا مطمع لأحد فيما حجب عن العامة من أسرار الغيب حتى تموت نفسه ويخرق عوائد العامة ، فحينئذ تخرق لك العوائد وتظهر لك الفوائد ا هـ .

وتقدمت أيضًا فى باب الخمول قصة الغزالى والششترى والمجذوب وغيرهم ممن خرقوا العوائد ، فخرقت لهم العوائد ، وظهرت لهم الفوائد .

وأما من بقى مع عوائد نفسه فلا يطمع أن يتمتع بحضرة قدسه .

قال الشيخ أبو المواهب رضى الله عنه : من ادعى شهود الجمال قبل تأدبه بالجلال فارفضه فإنه دجال ، ولا جلال أعظم على النفس من خرق عوائدها : كتبديل العز بالذل والغنى بالفقر ، والجاه بالخمول وغير ذلك .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزّوا ، وحكمت عليهم بالفقد حتى وُجِدوا ، فلا مطمع فى نيل العز بالله حتى يتحقق بالذل له ، ولا فى نيل الغنى به حتى يتحقق بالفقد مما سواه .

وقال أبو حمزة البغدادى رضى الله عنه : علامة الصوفى الصادق أن يفتقر بعد الغنى ويذل بعد العز ويخفى بعد الشهرة ا هـ .

فهذه الأخبار كلها تدل على أن خرق عوائد النفس شرط فى تحقيق نيل الخصوصية ، فمن ادعاها قبل أن يخرقها فهو كذاب كما تقدم عن أبى المواهب .

وكتب شيخ شيخنا رضى الله عنه إلى بعض الإخوان : أما بعد ، فإن أردتم أن تكون أعمالكم زكية وأحوالكم مرضية ، فقللوا من العوائد فإنها تمنع الفوائد ا هـ .

وسمعته رضى الله عنه يقول : من جملة العوائد تتبع الفضائل وكثرة النوافل فإنه يشتت القلب ، وإنما يلزم المريد ذكراً واحدًا وعملا واحدًا كل واحد مما يليق به أو كلام هذا معناه .

فخرق العوائد إبدالها بضدها ، كتبديل كثرة الأكل والنوم بالجوع والسهر ، وكتبديل كثرة اللباس بالتقلل منه أو ما خشن من الثياب كالمرقعات ونحوها ، وكتبديل الخلطة بالعزلة والأسباب بالزهد ، والكلام بالصمت ، وسوء الخلق بحسن الخلق ، وكتبديل حب الجاه والرياسة بالذل والخمول ، وسقوط المنزلة عند الناس وحب الدنيا بالزهد فيها والفرار منها ، وكاتصافه بالتخلية من الرذائل والتحلية بالفضائل .

فإذا تحقق المريد بهذه الأمور وخرقت له العوائد على ما يريد حتى يكون باسم الله عنده موافقة لكن من الله ، فيكون أمره بأمر الله :

(وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ)[1] .

ولابد فى خرق العوائد الباطنية من شيخ كامل جامع بين حقيقة وشريعة يحملك بهمته ، فإذا رميت يدك فى نفسك حملتك الهمة ونصرتك القدرة فقتلتها بالمرة .

---

(١) إبراهيم : ٢٠ .

وأما إذا لم يكن لك شيخ فكلما قتلتها رجعت أكبر مما كانت ، ولا تموت النفس الحية إلا مع الأموات كما قال شيخنا رضى الله عنه ، هذا الأمر مجرب وبالله التوفيق .

وخرق العوائد الباطنية التى هى رفع الحجب وشهود المحبوب لا يكون بمجرد الطلب دون السعى فى السبب مع تحقق الأدب كما نبه عليه بقوله :

[ليس الشأن وجود الطلب ، إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب] .

قلت : قد تقدم فى أول الكتاب أن الطلب كله مدخول عند المحققين أولى الألباب ، لما يقتضيه من وجود النفس ، والوقوف مع الحس ، إذ العارف المحقق لم تبق له حاجة يطلبها ، لأنه قد حصل له الغنى الأكبر ، وفاز من مولاه بالحظ الأوفر ، وهو معرفة مولاه ، والغيبة عما سواه ، فإذا فقد من وجدك فليس الشأن وجود صورة الطلب ، وإنما الشأن أن تستغنى به عن كل مطلب ، وترزق معه حسن الأدب ، والاكتفاء بعلم الله والوقوف مع مراد الله .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : والأدب على ثلاثة أوجه : آداب فى الظاهر ، وذلك بإقامة الحقوق . وآداب فى الباطن بالإعراض عن كل مخلوق . وآداب فيهما ، وذلك بالانحياش للحق ، والدوام بين يديه على بساط الصدق ، وذلك هو جملة الأمر وتفصيله وتفريعه وتأصيله ا هـ .

فالطلب عند العارفين ليس هو بلسان المقال وإنما هو بلسان الحال وهو الاضطرار وظهور الذلة والافتقار ، كما نبه عليه بقوله :

[ما طلب لك شىء مثل الاضطرار ، ولا أسرع بالمواهب مثل الذلة والافتقار] .

قلت : إنما كان طلب العارفين بلسان الحال دون المقال ، لما حققهم به من وجود معرفته حتى شهدوا منته فى محنته ، ونعمته فى نقمته ، فإذا تجلى لهم بالقوة والجلال ، تلقوه بالضعف والإذلال ، فحينئذ يتجلى لهم باسمه الجميل ، فيمنحهم كل جميل ، وإذا تجلى لهم باسمه العزيز أو القهار ، تلقوه بالذلة والافتقار ، فتتوارد عليهم المواهب الغزار .

فإذا أردت أيها العارف أن تطلب من مولاك شيئاً جلباً أو دفعًا فعليك

بالاضطرار ، والاضطرار : هو أن يكون كالغريق فى البحر ، أو الضال فى التيه القفر ، ولا يرى لغياثه إلا مولاه ، ولا يرجو لنجاته من هلكته أحدًا سواه ، فما طلب لك من مولاك شيء مثل اضطرارك إليه ، والوقوف بين يديه ، متحلياً بحلية العبيد ، هنالك تنال كل ما تريد ، كما قال الشاعر :

أَدَبُ العَبِيـدِ تَـذَلُّـلٌ ... وَالْعَبْدُ لاَ يَدَعُ الْأَدَبْ
فـإِذَا تَكَـامَـلَ ذُلُّـهُ ... نَـالَ المَوَدَّةَ وَاقْتـرَبْ

وقال آخر :

وَمَا رُمْتُ الدُّخُولَ عَلَيْهِ حَتَّى ... حَلَلْتُ مَحلّةَ الْعَبْدِ الذَّلِيلِ
وَأَغْضَيْتُ الجُفُونَ عَلَى قَذَاهَا ... وصُنْتُ النَّفْسَ عَنْ قَالٍ وَقِيلِ

إذا أردت ورود المواهب عليك وهى العلوم اللدنية والأسرار الربانية ، فلا شيء أسرع لك بها مثل الذلة والافتقار ، بين يدى الحليم الغفار ، يكون ذلك قلباً وقالباً ، فينبغى لك حينئذ أن تستعد لكسب المواهب ، ونيل المراتب ، قال تعالى :(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِين)[1] وقال تعالى : (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعَاهُ)[2] وقال أيضاً : (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ الله بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ)[3] .

وقال صلى الله عليه وسلم :« إِنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَإِنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ ، وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » .

وقال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : ما أظهر عبد فاقة إلى الله فى شيء إلا قال الله تعالى للملائكة : لولا أنه لا يحتمل كلامى لأجبته لبيك لبيك ا هـ .

---

(١) التوبة : ٦٠ .   (٢) النمل : ٦٢ .   (٣) آل عمران : ١٢٣ .

الوصول إلى الله

فإذا طلبت الدخول مع الأحباب ، فقف ذليلا حقيراً بالباب ، حتى يرفع بينك وبينهم الحجاب ، من دون حيلة منك ولا أسباب ، وإنما هو فضل من الكريم الوهاب كما أشار إلى ذلك بقوله :

[لو كنت لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك ، ومحو دعاويك لم تصل إليه أبداً ، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه ستر وصفك بوصفه وغطَّى نعتك بنعته ، فوصلك إليه بما منه إليك لا بما منك إليه] .

قلت : الوصول إلى الله هو العلم به وبإحاطته ، بحيث يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل ، وهذا لا يكون إلا بعد موت النفوس ، وحط الرءوس ، وبذل الأرواح ، وبيع الأشباح ، لقوله تعالى :

(إنَّ الله اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَن لَهُمُ الْجَنَّةَ)[1] .

أى جنة المعارف لأهل الجهاد الأكبر ، وجنة الزخارف لأهل الجهاد الأصغر ، ولقوله عليه الصلاة والسلام : « مُوتُوا قَبْلَ أَن تَمُوتُوا » .

ذكره النقشبندى فى شرح الهائية حديثا .

وقال فى لطائف المنن : لا يدخل على الله إلا من بابين : أحدهما الموت الأكبر ، وهو الموت الحسى . والثانى الموت الذى تعنيه هذه الطائفة ، يعنى موت النفوس . وقال الششترى رضى الله عنه :

إِنْ تُرِدْ وَصْلَنَا فَمَوْتُك شَرْطٌ ‎ ‎ ‎ ‎ لَنْ يَنَالَ الوِصَالَ مَنْ فِيهِ فَضْلَهْ

وقال أيضاً :

لَيْسَ يُــدْرِك وِصَــالِي كــلُّ مَنْ فِيـهِ بُقْيَـا

---

(١) التوبة : ١١١ .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : لا يصل الولى إلى الله تعالى ومعه شهوة من شهواته ، أو تدبير من تدبيراته واختيار من اختياراته ا.هـ .

وهذه التصفية ليست هى من فعل العبد وكسبه ، وإنما هى بسابق عناية ربه ، فلو كان العبد لا يصل إلى الله تعالى إلا بعد فناء مساويه ومحو دعاويه من حيث هو هو لم يصل أبداً ، لكن الحق تعالى من كرمه وجوده إذا أراد أن يطوى عنه مسافة البعد ، أظهر له من أنوار قدسه ونعوت وصفه ما يغيب به العبد عن شهود نفسه ، فحينئذ تفنى المساوى وتمتحق الدعاوى ، فيحصل الوصول ويبلغ المأمول ، بما منَّ الله إلى العبد من سابق العناية والوداد ، لا بما منَّ العبد إلى الله من الكد والاجتهاد .

وإن شئت قلت : فناء المساوى هو التطهير من أوصاف البشرية ، وهى الأخلاق المذمومة من حيث هى ، ومحو الدعاوى، وهو التبرى من الحول والقوة ، بحيث لا يرى لنفسه فعلا ولا تركاً ولا نقصاً ولا كمالا ، وإنما هى غرض لسهام الأقدار تجرى عليها أحكام الواحد القهار ، فتحقيق هذين الأمرين على الكمال ، مع وجود النفس كاد أن يكون من المحال ، لكن الحق تعالى لكرمه وجوده إذا رأى منك صدق الطلب وأراد أن يوصلك إليه وصلك إلى ولىّ من أوليائه ، وأطلعك على خصوصيته واصطفائه فلزمت الأدب معه ؛ فما زال يسير بك حتى قال لك ها أنت وربك ، فحينئذ يستر الحق تعالى وصفك الذى هو وصف العبودية بوصفه الذى هو وصف الحرية ، فتتحد أوصاف البشرية ، بظهور أوصاف الروحانية ، ويغطى أيضاً نعتك الذى هو الحدوث بنعته الذى هو القدم ، أو غطى نعتك الذى هو العدم بنعته الذى هو الوجود .

وقال الشيخ زروق : سَتَر فقرَك بغناه ، وذلّك بعزه ، وعجزكَ بقدرته ، وضعفك بقوته ، ويصرفك عن شهود ذلك منك وإليك بشهود ما منه إليه ا هـ .

قلت : وهو لازم لما فسرته به من وصف العبودية ونعت الحرية ، فوصلك حينئذ بما منه عليك من الإحسان ، واللطف والامتنان ، لا بما منك إليه من المجاهدة والطاعة والإذعان . ومثال النفس كالفحمة كلما غسلتها بالصابون زاد سوادها ، فإذا اشتعلت فيها النار ونفخ فيها الريح كستها النار ولم يبق للون

الفحمة فيها أثر ، فكذلك أوصاف البشرية إذا كساها نور الروحانية تغطت ظلمة البشرية ، ولم يبق لها أثر فتنقلب البشرية فى صفة روحانية ، وفى ذلك يقول الششترى فى بعض أزجاله :

فمتَى مَـا يَبِـينُ لِى زَالَـتِ الـبَـشَـرِيّـا
وَتَحَـوَّلَـت غَـيْـرِى فى صَفَـا رُوحَـانِيّـا

والنار التى تحرق البشرية : هى مخالفة الهوى ، وتحمل النفس ما يثقل عليها ، كالذل والفقر ونحوهما مع دوام ذكر الاسم المفرد ، فكلما فنى فيه ذابت بشريته وقويت روحانيته حتى تستولى على بشريته ، فحينئذ يكون الحكم لها فتغيب فى نور مذكورها ، وتغرق فى شهود عظمة محبوبها ، فحينئذ يحصل الوصال ، ويتحقق الفناء فى ذى العظمة والجلال .

وللششترى أيضاً رضى الله عنه : فالتفت الخطاب ، وسمعت منى ، كلى عن كلى غاب وأنا عنى مغنى ، وارتفع لى الحجاب ، شهدت أنى ما بقى لى أثر ، غبت عن أثرى ، لم أجد من حضر ، فى الحقيقة غيرى ، وبالله التوفيق ، هذا آخر الباب الثالث عشر .

وحاصلها : أمرك بالتعلق بأوصاف الربوبية ، والتحقق بأوصاف العبودية ، وعدم مشاركتك له فى وصف الحرية ، وما تعودت به من ذلك فأخرق لها تلك العوائد هنالك حتى تتهذب وتتأدب ، وتكتفى بعلم الحال عن وجود الطلب ، فيكون طلبها شاهد حالها من الذلة والانكسار ، وظهور الفاقة والاضطرار ، فحينئذ تترادف عليها المواهب ، وتنال بذلك غاية المطالب ، ومنتهى الرغائب ، وهو الوصول إلى حضرة القدس ومحل الأنس ، من غير حيلة ولا اكتساب ، وإنما هو منة من الكريم الوهاب ، منّ عليها بالوصول ، وتفضل عليها بالقبول ، كما أشار إلى ذلك فى أول الباب الرابع عشر فقال رضى الله عنه :

الباب الرابع عشر

ستر الله

[لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلا للقبول] .

قلت : لأن العمل الذى يكون أهلا للقبول ، هو الذى تتوفر فيه شروط القبول ، وهو سر الإخلاص وغاية الحضور ، والتبرى فيه من الحول والقوة وهذا فى غاية الندور ، فلولا أن الله سبحانه تفضل علينا بجميل ستره ، فغطى مساوينا بجلائل لطفه وبره ، ما كان عمل أهلا للقبول أصلا ، ولكن الذى منّ بوجود الأعمال يمنّ بوجود القبول والإقبال .

قال بعضهم : ما هناك إلا فَضْلُه، ولا نعيش إلا فى ستره ، ولو كشف الغطاء لكشف عن أمر عظيم .

وقال يحيى بن معاذ رضى الله عنه : مسكين ابن آدم ، جسم مَعيب ، وقلب مَعيب ، يريد أن يخرج من معيبين عملا بلا عيب ا هـ .

قلت : ولهذا المعنى قال تعالى :

(أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا)[1] .

فعبر بعن التى تدل على التجاوز ولم يقل نتقبل منهم ، فكأنه قال : أولئك الذين نتجاوز عنهم فى أعمالهم فنتقبلها منهم ، والله تعالى أعلم .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« الْبَلَاءُ والْهَوَى وَالشَّهْوَةُ مَعْجُونَةٌ بِطِينِ آدَمَ » .

قيل : وهو معنى قوله تعالى :

(إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ)[2] .

---

(١) الأحقاف : ١٦ .   (٢) الإنسان : ٢ .

أى أخلاط ، فاختلط به البلاء والهوى والشهوة ، فركب ابن آدم منها ، فلزمته الثلاثة مادامت بنيته قائمة وبشريته موجودة ، فإذا انهدمت البشرية حسًا أو معنى لم يبق حكم النطفة الإمشاجية ، وصار الحكم للروح النورانية ، والله تعالى أعلم .

فإذا تقرر أن عملنا مدخول ، وليس أهلا للقبول ، لولا جميل ستره المأمول ، علمت أن افتقارنا إلى علمه وعفوه فى حال الطاعة ، أعظم من افتقارنا إليه فى حال المعصية ، كما أبان ذلك بقوله :

[أنت إلى حلمه إذا أطعته أحوج منك إليه إذا عصيته] .

قلت : وذلك لأن الطاعة بساط العز والرفعة ، وللنفس فيها شهوة ومتعة ، ولأن الناس يلحظون صاحب الطاعة الظاهرة ، وينظرون بعين التعظيم ، ويبادرون إليه بالخدمة والتكريم ، وكل ما عظم فى عين الخلق سقط من عين الحق ، إن كان يفرح بذلك ويقنع به دون الملك الحق ، بخلاف المعصية فإنما هى بساط الذل والانكسار ، ومحل السقوط والاحتقار ، وكل ما سقط من عين الخلق عظم فى عين الحق ، فكان العبد فى حال طاعته لربه أحوج إلى حلمه وعفوه منه فى جال معصيته ، لأن الطاعة التى ينشأ عنها العز والاستكبار ، أقبح من المعصية التى تورث الذل والافتقار ، بل فى الحقيقة ليست بطاعة ، لأن الطاعة التى توجب البعد ليست بطاعة ، والمعصية التى توجب القرب ليست بمعصية .

وفى الحديث : « يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُم مِنْ أَجْلِى » .

ومن كان الله عنده فهو أعظم من ألف مطيع توجب له طاعته طرده وبعده .

أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء عليهم السلام : قل لعبادى الصديقين لا يغتروا ، فإنى إن أقم عليهم عدلى وقسطى أعذبهم غير ظالم لهم ، وقل لعبادى الخاطئين لا ييئسوا من رحمتى ، فإنه لا يكبر على ذنب أغفره اهـ .

وقال الشيخ أبو زيد رضى الله عنه : توبة المعصية واحدة ، وتوبة الطاعة

ألف توبة ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا صلى استغفر ثلاثاً تعلياً للأمة فى شهود التقصير ، وإلا فلا استغفار من طاعة ، ولا ذنب على المختار صلى الله عليه وسلم .

ولما كانت المعصية بساط الذل والاحتقار كما تقدم ، وهى أقرب لمقام العبودية ، والطاعة من بساط العز والرفعة ، فافتقرت إلى حلم الله أكثر ، صار الناس يطلبون الستر فى المعصية أو عنها خوفاً مما ينشأ عنها ، كما أبان ذلك بقوله :

[الستر على قسمين : ستر عن المعصية ، وستر فيها . فالعامة يطلبون الستر من الله فيها خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق . والخاصة يطلبون من الله الستر عنها خشية سقوطهم من نظر الملك الحق] .

قلت : الستر هو الحفظ والتغطية ، وهو فى الحس من الآفات والبليات التى توجب هلاكه ، وفى المعنى من الفضيحة والمقت وسقوط المرتبة .

وهو باعتبار المعصية على قسمين : قسم يقع الستر فيها فلا يفضح صاحبها ، وقسم يقع الستر عنها فلا يقع العبد فيها ولو طلبها لما شمله من حفظ الله ورعايته .

فالعامة يطلبون الستر من الله فيها مع وقوعها لئلا يسقطوا من عين الخلق ، فهم : (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ)[١] ، (وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ)[٢] .

فمحط نظرهم إنما هو شهود الخلق غائبين عن نظر الملك الحق ، وذلك لضعف إيمانهم ، وقلة يقينهم ، وانطماس بصيرتهم .

وفى بعض الأخبار :

« يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالى : يَا عِبَادِى إِنْ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنِّى لَا أَرَاكُمْ فَالخَلَلُ فى إِيمَانِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنِّى أَرَاكُمْ فَلِمَ جَعَلْتُمُونِى أَهْوَنَ النَّاظِرِينَ إِلَيْكُمْ » اهـ .

---

(١) النساء : ١٠٨ .	(٢) التوبة : ٦٢ .

وأما الخاصة فهم يطلبون من الله الستر عنها والعصمة منها ، خشية أن يسقطوا من عين الحق ، لأن صدور المعصية من العبد سوء أدب ، ومن أساء الأدب مع الأحباب طرد إلى الباب ، فإذا وقعت منهم معصية بادروا إلى الاعتذار ، وصحبهم الخجل والانكسار ثم جدوا فى سيرهم ولم يقفوا مع نفوسهم ، إذ لا وجود لها فى نظرهم ولا التفات لهم إلى الخلق ، إذ لم يبق فى نظرهم إلا الملك الحق ، غابوا بشهود الحق عن رؤية الخلق ، أو بشهود المعنى عن رؤية الحس ، أوبشهود الموسوط عن الواسطة .

وأما خاصة الخاصة فلا يطلبون شيئاً ولا يخافون من شىء ، صارت الأشياء عندهم شيئاً واحدًا ، واستغنوا بشهود واحد عن كل واحد ، فهم ينظرون ما يبرز من عنصر القدرة فيتلقونه بالقبول والرضا ، فإن كان طاعة شهدوا فيها المنة ، وإن كان معصية شهدوا فيها القهرية ، وتأدبوا مع الله فيها بالتوبة والانكسار ، قياماً بأدب شريعة النبى المختار ، صلى الله عليه وسلم .

وقد وردت أحاديث فى المقامات الثلاثة تعليماً للأمة . فقد دعا عليه الصلاة والسلام بالستر على المساوى ومنها ، وهى العصمة والحفظ ، وطلب مقام الرضا والتسليم لأحكام الله القهرية ، كل ذلك منشور فى كتب الأحاديث فلا نطيل به .

حمد الله على ستره

ثم إذا ستر الحق تعالى مساويك وذنوبك ، ثم توجه الناس إليك بالتعظيم والمجد والتكريم ، فاعرف منه الله عليك ، وانظر من الممدوح فى الحقيقة ؟ هل أنت أو من ستر مساويك ، كما أبان ذلك بقوله :

[**من أكرمك فإنما أكرم فيك جميل ستره ، فالحمد لمن سترك ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك**] .

قلت : إذا كان الحق تعالى تولى حفظك برعايته ، وستر مساويك بستر عنايته ، فغطى وصفك بوصفه ونعتك بنعته ، ثم توجه الناس إليك بالتعظيم والتمجيد والتكريم ، فاعرف منة الله عليك ، وانعزل عن شهود نفسك ، فمن

أكرمك فإنما أكرم فيك جميل ستره .

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلا)[١]
(وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا)[٢] .

فالحمد فى الحقيقة إنما هو لمن سترك لا لمن أكرمك ، إذ لو أظهر للناس ذرة من مساويك لمقتوك وأبغضوك ، فاشكر الله على ما أسدى إليك من الكرم ، وغطى عليك من المساوى التى توجب أنواع الإذاية والنقم .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : إذ لولا ستره عن المعاصى ما كنت مطيعاً ، ولولا ستره فيها لكنت مهاناً عند الخلق ومخصوصاً بالمقت بينهم .

(وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)[٣] .

فالخلق كلهم إنما يتعاملون بينهم بستر مولاهم ، ولو خلا عبده من ستره لأبغضه أحب الناس إليه ، ولآذاه أشفق الخلق عليه ، ولأهلكه أرأف الخلق به ، ولله در القائل :

يَظُنُّونَ بِى خَيْرًا وَمَابِىَ مِنْ خَيْرٍ ... وَلٰكِنَّنِى عَبْدٌ ظَلُومٌ كَمَا تَدْرِى
سَتَرْتَ عُيُوبِى كُلَّهَا عَنْ عُيُونِهِمْ ... وَأَلْبَسْتَنِى ثَوْباً جَمِيلاً مِنَ السَّتْرِ
فَصارُوا يُحِبونِى وَمَا أَنَا بِالذِى ... يُحَبُّ ، وَلٰكِنْ شَبَّهُونِى بِالْغَيْرِ
فَلَا تَفْضَحَنِّى فى الْقِيَامَةِ بَيْنَهُمْ ... وَكُنْ لِىَ يَا مَوْلَاىَ فى مَوْقِفِ الْحَشْرِ

ولما بلغت الإذاية كل مبلغ من حبيب الله صلى الله عليه وسلم ما زاد على أن قال : « لَا غِنَى لِى عَنْ عَافِيَتِكَ ، عَافِيَتكَ أَوْسَعُ لِى » الحديث ا هـ .

وسيأتى التقسيم فى شهود الخلق فى حالة النعم ، وأن الناس على ثلاثة أقسام : قوم عوامّ لا يشهدون إلا الخلق ، وقوم خواص لا يشهدون إلا الخالق ، وقوم خواص الخواص يشهدون الخالق فى الخلق ، والموسوط فى الواسطة ؛ فيعطون كل ذى حق حقه كمايأتى مبيناً إن شاء الله .

---

(١) النساء : ٨٣ . (٢) النور : ٢١ . (٣) الصافات الآية : ٥٧ .

وإذا تحققت أن الذى أكرمك هو الذى ستر عيوبك وغطى مساويك ، بعد اطلاعه على خفاياها ، وعلمه بخباياها ، فاتخذه صاحباً ، وكن له مراقباً ، ودع الناس جانباً ، كما نبه عليه بقوله :

[ما صَحْبُك إلا من صَحِبَك وهو بعيبك عليم ، وليس ذلك إلا مولاك الكريم] .

قلت : وإذا علمت أنه ليس لك صاحب إلا مولاك ، فاعرف حقيقة صحبته ، والزم الأدب فى ظاهرك وباطنك ، واستحى منه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك .

وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه :

« اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ ، قَالُوا : إِنَّا نَسْتَحْيِى وَالْحَمْدُ للهِ ، قَالَ لَهُمْ : الْحَيَاءُ مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ ، أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى ، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى ، وَتَذْكُرَ الْقَبْرَ وَالْبِلَى ، فَمنْ فَعَلَ ذٰلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ ٱللهِ حَقَّ الحَيَاءِ » اهـ .

فالصاحب الذى يدوم لك هو الذى يصحبك وهو عالم بعيبك ، لأن ذلك داع للسلامة من التكلف والرياء والتصنع ، وليس ذلك إلا مولاك العالم بخفاياك ، المطلع على سرك وعلانيتك ، إن عصيته سترك ، وإن اعتذرت إليه قبل عذرك .

وقد قيل من الحكمة فى قوله تعالى :

(إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)[1] .

مع أن الكل ملكه ، ثلاثة أشياء :

أحدها : البشارة بعدم الرد بالعيب ، لأن المشترى عالم به .

الثانى : ليسلم العبد نفسه إليه فيتولى تدبيره ، إذ لا يتم بيع إلا بالتسليم ، ولا كفالة إلا بعد إقباض .

الثالث : إظهارًا لتمام الفضل فى ظهورِ النسبة لله سبحانه . وذكر الصحبة فى

---

(١) التوبه : ١١١ .

جانب الحق وقعت فى حديث : « انت الصَّاحِبُ فى السفرِ » .

واختلف فى إطلاقه فى غير ذلك المحل ، والظاهر أن الشيخ يرى ذلك فى محل إشارة الأدب والانحياش ، وعليه مر أبوحامد الغزالى فى بعض كتبه ، قاله الشيخ زروق رضى الله عنه .

صحبة العارفين

واعلم أن الأمر الذى يرغِّب فى الصحبة ويعقد المحبة والمودة أمران :
أحدهما : ما تقدم من كون الصاحب يغطى شينك بحلمه ويستر وصفك بوصفه .
والثانى : كونه يحبك ويطلبك إلى حضرته من غير غرض ولا منفعة له فى صحبتك ، وإلى الثانى أشار بقوله :

[خير من تصحب من يطلبك لا لشىء يعود منك إليه] .

قلت : ولا يوجد هذا الوصف المجيد إلا للغنى الحميد ، الفعال لما يريد ، يحب من يشاء بلاعلة ولا سبب ، ويمقت من يشاء بلا ضرر يلحقه ولا تعب ، يقرب من يشاء بلا عمل ، ويبْعد من يشاء بلا زلل .

(لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ)[1] (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ)[2] (أَنْ لَوْ يَشَاءُ الله لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً)[3]

وكلامنا إنما هو مع أهل التحقيق ، وأما باعتبار الحكمة وأهل التشريع فلا يظلم ربك أحدًا ، ولكن فاعل السبب هو فاعل المسبب .

« مَنْ وجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ الله ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذٰلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ » وللجيلى رحمه الله :

إِذَا كُنْتُ فى حُكْمِ الشَّرِيعَةِ عَاصِيًا   فإِنِّى فى حُكْمِ الْحَقِيقَةِ طَائِعُ

فخير من تصحبه أيها الإنسان مولاك ، الذى يطلبك لحضرته ويجتبيك

---

(١) الأنبياء : ٢٣ .   (٢) الأنعام : ١١٢ .   (٣) الرعد : ٣١ .

لمحبته ، من غير نفع يعود منك إليه ؛ وإنما هو بُرور وإحسان منه إليك ، فكيف تتركه وتطلب الأنس بغيره وضرره أقرب من نفعه .

قال بعضهم : جرّب الناس تجدهم عقارب ، فإذا طلبت الصحبة فاصحب العارفين الذين ينهضك حالهم ، ويدلك على الله مقالهم ، ولله در صاحب العينية حيث يقول فى عينيته :

فَشَمِّرْ وَلُذْ بالأَوْلِيَاءِ فَإِنَّهُمْ ... لَهُمْ مِنْ كِتَابِ الحَقِّ تِلْكَ الْوَقَائِعُ
هُمُ الذخرُ لِلْمَلْهُوفِ وَالكَنْزُ وَالرَّجَا ... وَمِنْهُمْ يَنَالُ الصَّبُّ مَا هُوَ طَامِعُ
بِهِمْ يَهْتَدِى لِلْعَيْنِ مَنْ ضَلَّ فِى الْعَمَى ... بِهِمْ يُجْذَبُ الْعُشَّاقُ وَالرَّبْعُ شَاسِعُ
هُمُ القَصْدُ وَالمَطْلُوبُ وَالسُّؤْلُ وَالمُنى ... وَإِسْمُهُمُ لِلصَّبِّ فى الحُبِّ شَافِعُ
هُمُ النَّاسُ فَالْزَم إِنْ عَرَفْتَ جَنَابَهُمْ ... فَفِيهِمْ لِضُرِّ الْعَالَمِينَ مَنَافِعُ

وقال فى التحذير من صحبة غيرهم من الغافلين والعوام :

وَقَاطِعْ لِمَنْ وَاصَلْتَ أَيَّامَ غَفْلَةٍ ... فَما وَاصَلَ الْعُذالَ إِلاَّ مُقَاطِعُ
وَجَانِبْ جَنَابَ الأَجْنَبِيِّ لَوَ انَّهُ ... لِقُرْبِ انتْسَابٍ فى المَنَامِ مُضَاجِعُ
فَلِلنَّفْسِ مِنْ جُلاَّسِهَا كُلُّ نِسْبَةٍ ... وَمِنْ خُلَّةٍ لِلْقَلبِ تِلْكَ الطَّبَائِعُ

والحاصل : أن صحبة من يوصل إلى الله فما هى إلا صحبة الله ، إذ ما ثم سواه ، والنظر إلى العارف بالله ، فإنما هو نظر إلى الله ، إذ لم تبق فيه بقية عليه لغير الله ، فصار نوراً محضاً من نور الله ، وفيهم قال عليه الصلاة والسلام :

« إِنَّ لِلهِ رِجَالاً مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِمْ سَعِدَ سَعَادَةً لاَ يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا » اهـ .

وهم موجودون لا ينقطعون أبداً ، ظاهرون ظهور الشمس لا يخفون إلا على من أراد الله منه طردًا وبعدًا ، والعياذ بالله من السلب بعد العطاء ، ومن سوء القضاء ، وشماتة الأعداء ، وعضال الداء ، وخيبة الرجاء ، وزوال النعمة ، وفجأة النقمة . آمين .

ثم فائدة صحبة العارفين ، وهو حصول اليقين ، كما أشار إليه بقوله :

[لو أشرق لك نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها ، ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كِسفةُ الفناء عليها] .

قلت : اليقين هو العلم الذى لا يزاحمه وهم ، ولا يخالطه ريب ، ولا يصحبه اضطراب مشتق من يقن الماء : إذا حبس ولم يجر ، شبه به العلم إذا صحبته الطمأنينة ، ولم يبق للقلب فيه تحرك ولا اضطراب ، وإشراق نوره وهو ظهور أثره على الجوارح ، فيظهر فيها الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة ، ويظهر منه الانحياش إلى الله ، والاشتياق إلى حضرة جماله ، والسكون والخضوع تحت قهر جلاله ، والمسارعة إلى ابتغاء مرضاته ، والمبادرة إلى مظان محابه ، ولَهَجُ اللسان بذكره ، وشُغل القلب بالفكرة فى عظمته ، وهيمان الروح فى حضرة قربه ، وسكرها من شراب حبه ، واغتمارها بشهود قربه ، فهذه علامة إشراق نور اليقين فى القلب . ومن علامته أيضًا أن يصير الآجل عاجلا ، والبعيد حاصلا ، والغيب شهادة :(إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)[1] .

ولنا فى هذا المعنى :

فَلَا تَرْضَى بِغَيرِ اللهِ حِبًّا ... وكُنْ أَبَدًا بِعِشْقٍ وَاشْتِيَاقِ
تَرَى الْأَمْرَ المُغَيَّبَ ذَا عِيَانٍ ... وَتَحْظَى بالوِصَالِ وبالتَّلَاقِ

كنت ذيلت بها قول القائل :

فَلَا دَهَشٌ وَحَامِ الحَىِّ حَىٌّ ... وَلَا عَطَشٌ وَسَاقِى الْقَوْمِ بَاقِ
فَمَا الدنْيَا بِبَاقِيَةٍ لِحَىٍّ ... ومَا حَىٌّ عَلَى الدنْيَا بِبَاقِ

فلو أشرق نور اليقين فى قلبك لرأيت الآخرة الآتية حاضرة لديك ، أقرب إليك من أن ترحل إليها ، إذ هى الراحلة إليك والمدركة لك ، ولرأيت محاسن الدنيا الوهمية الفانية ، قد ظهرت كِسفة الفناء عليها : أى قد انكسف نور وجودها بظهور ظلمة فنائها فصار ما كان ظاهرًا باطناً ، وما كان باطنًا صار

---

(١) الأنعام : ١٣٤ .

ظاهرًا ، وما كان كثيفًا صار لطيفًا ، وما كان لطيفًا صار كثيفًا ، ومان كان غيبًا صار شهادة ، وما صار شهادة صار غيبًا ، وإنما بعد ذلك عن الخلق ضعف إيمانهم وقلة نور إيقانهم ، ولو أشرق نور اليقين فى قلوبهم ، لرأوا الدنيا مكسوفة أنوارها ، بادية عوارها ، كما رآها حارثة رضى الله عنه حين أخبر عن حقيقة إيمانه .

فقد روى عن أنس رضى الله عنه قال :

« بَيْنما رَسُولُ اللهِ صلى الله عليهِ وسلم يَمْشِى إذِ اسْتَقْبَلَهُ شَابٌّ مِنَ الْأَنْصَارِ . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَاحَارِثَةُ ؟ قال : أَصْبَحْتُ مُؤْمِناً باللهِ حَقًّا ، فقَالَ لَهُ : انْظُرْ مَا تَقُولُ ، فإنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ حَقِيقَةً ، فما حَقِيقَةُ إيمَانِكَ ؟ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ عَزَفَتْ نَفْسِى عَنِ الدنْيا ، أى أدبرت وهربت ، فأَسْهَرْتُ لَيْلى ، وَأَظْمَأْتُ نَهَارِى ، فكأَنِّى بِعَرْشِ رَبِّى بَارِزاً ، وَكأَنِّى أَنْظُرُ إلى أَهْلِ الجَنَّةِ يَتزاوَرُون فِيهَا ، وَكأَنِّى أَنْظُرُ إلى أَهْلِ النَّارِ يَتَعَاوَوْنَ فِيهَا ، فقَالَ لَهُ : أَبْصَرْتَ فالْزَمْ ، عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ الإِيمَانَ فى قَلْبِهِ ؛ قالَ يَا رَسُولَ اللهِ ٱدْعُ اللهَ لِى بالشَّهَادَةِ ، فَدَعَا لهُ رسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عليه وسلم فَقُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ شَهيدًا ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ إلى رسُول اللهِ صلى الله عليه وسلم فقَالَتْ : يَا رسُولَ اللهِ قَدْ عَلِمْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّى ، فإنْ يكُنْ فى الجَنَّةِ أَصْبِرْ ، وَإِنْ لَمْ يكُنْ فى الجَنَّةِ تَرَ مَا أَصْنَعُ ، فقَالَ : أَوَ هُبِلْتِ ؟ أَجَنَّةٌ هِى ؟ إنَّهَا جِنَانٌ ، وإِنَّ ٱبْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الأَعلَى ، فَرَجَعَتْ وهِى تَضْحَكُ وتَقُولُ بَخٍ بَخٍ يَا حَارِثَة » إ هـ .

وكما رآها معاذ بن جبل رضى الله عنه حين دخل على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فقال له :

« كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا مُعَاذُ ؟ قال : أَصْبَحْتُ مُؤْمِناً . فقَالَ : إنَّ لِكُلِّ

قَوْلٍ مِصْدَاقاً ، ولِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً ، فَمَا مِصْدَاقُ مَا تَقُولُ ؟ فقَالَ : يَارَسُولَ اللهِ مَا أَصْبَحْتُ صَبَاحًا قَطُّ إِلّا ظَنَنْتُ لَا أُمْسِي ، وَمَا أَمْسَيْتُ قَطُّ إِلّا ظَنَنْتُ لَا أُصْبِحُ ، وَلَا خَطَوْتُ خُطْوَةً قَطُّ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنِّي لَا أُتْبِعُهَا بِأُخْرَى ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى كُلِّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا مَعَهَا نَبِيُّهَا وَأَوْثَانُهَا الَّتِي كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عُقُوبَةِ أَهْلِ النَّارِ وَثَوَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ . فقَالَ صلى اللهُ عليهِ وَسلم : عَرَفْتَ فَالْزَمْ » .

فهذان الرجلان الأنصاريان أشرق نور الإيقان فى قلوبهما ، وشرح الله به صدورهما فرأيا ما كان آجلا عاجلا ، وما كان آتياً واصلا .

وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إِنَّ النورَ إِذَا دَخَلَ الْقَلْبَ انْشَرَحَ لَهُ الصَّدْرُ وَانْفَسَحَ . قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ لِذٰلِكَ مِنْ عَلَامَةٍ يُعْرَفُ بِهَا ؟ قالَ : نَعَمْ . التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ وَالإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ » .

أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكى رحمه الله : اليقين نور يجعله الله فى قلب العبد حتى يشاهد به أمور آخرته ، ويخرق به كل حجاب بينه وبينها حتى يطالع الآخرة كالمشاهد لها ا هـ .

قلت : فإذا تكامل إشراق نور الإيقان غطى وجود الأكوان ، ووقع العيان على فقد الأعيان ، ولم يبق إلا نور الملك الديان ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[ما حجبك عن الله وجود موجود معه ، إذ لا شيء معه ، ولكن حجبك عنه توهم موجود معه].

قلت : الحق تعالى ظاهر ، ونوره للبصائر باهر ، وإنما حجبه مقتضى اسمه الحكيم واسمه القاهر ، فما حجبك عن شهود الحق وجود شيء معه :

(أَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يشْرِكُونَ)[1] .

ولكن حجبك عن شهوده توهم وجود موجود معه ولا شيء معه ، وكما كان ولا شيء ، بقى ولا شيء (هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)[2] :

واحد فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، فالفعل لا يصدر من غير صفة ، والصفة لا تفارق الموصوف ، فالفعل متحد والفاعل واحد ، والصفة متحدة والمتصف بها واحد .

وللششترى رضى الله عنه :

صِفَاتِىَ لَا تَخْفَى لِمَنْ نَظَرْ وَذَاتِىَ مَعْلُومَةٌ تِلْكَ الصوَرْ
فَافْنَ عَنِ الإِحْسَاسِ تَرَى عِبَرْ

وسبب توهم الغيرية عدم الفكرة ، وسبب عدم الفكرة حب العاجلة ، فهى الشاغلة للقلوب عن السير إلى حضرة علام الغيوب . وحكمة حب الدنيا ظهور القهرية ، فمن قهاريته تعالى أن احتجب بلا حجاب ، وغطى نور شمسه بلا سحاب .

وأيضاً قوالب العبودية ، حجبت مظاهر أنوار الربوبية ، ووجود الحكمة ، ستر ظهور القدرة .

وقال بعض العارفين : الحق تعالى منزه عن الأين والجهة والكيف والمادة والصورة ، ومع ذلك لا يخلو منه أين ولا مكان ولا كم ولا كيف ولا جسم ولا جوهر ولا عرض ، لأنه للطفه سار فى كل شيء ، ولنوريته ظاهر فى كل شيء ، ولإطلاقه وإحاطته متكيف بكل كيف غير متقيد بذلك ؛ ومن لم يذق هذا ولم يشهده فهو أعمى البصيرة ، محروم عن مشاهدة الحق اهـ .

ومن كلام ابن وفا رضى الله عنه :

هُوَ الحَق المُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ هُوَ الرَّحْمٰنُ ذُو الْعَرْشِ المَجِيدْ

---

(١) النمل : ٦٣ . (٢) الحديد : ٣ .

هُوَ النورُ المُبين بغيْر شَكٍّ | هُوَ الرَّبُّ المُحَجَّبُ فى الْعَبِيدْ
هُوَ المَشْهُودُ فى الأَشْهَادِ يَبْدُو | فَيُخْفِيهِ الشهُودُ عَنِ الشَّهِيدْ
هُوَ الْعَيْنُ الْعِيَانُ لِكُلِّ غَيْب | هُوَ المَقْصُودُ مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدْ
جَمِيعُ الْعَالَمِينَ لَهُ ظِلاَلٌ | سُجُودٌ فى الْقَرِيبِ وَفى الْبَعِيدْ
وَهَٰذَا الْقَدْرُ فى التَّحْقِيقِ كافٍ | فَكُفَّ النَّفْسَ عَنْ طَلَبِ المَزِيدْ

وقال الشيخ القطب مولاى عبد السلام بن مشيش مخاطباً لوارثه الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنهما فى وصية له وقد تقدمت : حدِّد بصر الإيمان تجد الله تعالى فى كل شىء ، وعند كل شىء ، ومع كل شىء ، وقبل كل شىء ، وبعد كل شىء ، وفوق كل شىء ، وتحت كل شىء ، وقريباً من كل شىء ، ومحيطاً بكل شىء ، بقرب هو وصفه ، وبحيطة هى نعته ، وعدِّ عن الظرفية والحدود ، وعن الأماكن والجهات . وعن الصحبة والقرب فى المسافات ، وعن الدور بالمخلوقات ، وامحق الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو هو هو :« كَانَ اللهُ وَلا شَيْءَ مَعَهُ ، وهُوَ الآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ » ا هـ .

قال بعضهم : ونبه بقوله وعد إلخ على أن ما جرى من كلامه من الظروف ليست بزمانية ولا مكانية ، لأنها من جملة الأكوان : وإنما هى أمور ذوقية ، فاعتقد كمال التنزيه وبطلان التشبيه ، وتمسك بقوله عز وجل :

﴿ لَيْسَ كمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[1] .

وسلم ذلك لأهله فإنهم على بصيرة فيما رمزوا إليه مما ذاقوه ووجدوه ،بل هو من محض الإيمان وخالص العرفان ، وهو حقيقة التوحيد وصفو الإيمان . وأما قوله وهو الآن على ما هو عليه كان وإن لم يرد فى الحديث الصحيح ، فهو فى نفسه صحيح ، إذ لا وجود فى الحقيقة للأشياء معه تعالى ، وإنما هى كالخيال ، ووجود الظلال ، فلا تنسخ أحديته ولا ترفع فردانيته .

وبالجملة فمن غلب عليه شهود الأحدية ، وكوشف بسر الوحدانية ،

(١) الشورى : ١١ .

واستغرق فى الحقيقة العيانية ، انقطع عن الشعور بنفسه ، وغاب عن السوى بالكلية ، وإن رد إلى الشعور به رآه قائماً به وظاهرًا فيه وبه وحكماً من أحكامه ا هـ .

وقال فى لطائف المنن : وأشبه شيء بوجود الكائنات إذا نظرت إليها بعين البصيرة وجودُ الظلال والظل ، لا موجود باعتبار جميع مراتب الوجود ، ولا معدوم باعتبار جميع مراتب العدم .

وإذا ثبت ظلية الآثار لم تنسخ أحدية المؤثر ، لأن الشيء إنما يشفع بمثله ويضم إلى شكله ، كذلك أيضاً من شهد ظلية الآثار لم تعقه عن الله ، فإن ظلال الأشجار فى الأنهار لا تعوق السفن عن التسيار ، ومن ها هنا تبين لك أن الحجاب ليس أمرًا وجوديًّا بينك وبين الله تعالى ، ولو كان بينك وبينه حجاب وجودى للزم أن يكون أقرب إليك منه ولا شيء أقرب من الله ، فرجعت حقيقة الحجاب إلى توهم الحجاب ا هـ .

كان الله ولا شيء معه

ولما قرر أمر الوحدة ونفى وجود الغيرية ، استشعر سائلا يقول له : وهذه المكونات الظاهرة فما نقول فيها مع ثبوت الوحدة ؟ فأجاب بأنها قائمة به ، ولولا ظهور نوره فيها ما ظهرت ، كما بين ذلك بقوله :

[لولا ظهوره فى المكونات ما وقع عليها وجود الصفات ، ولو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته] .

قلت : كان الله ولا شيء معه ، فكانت الخمرة الأزلية القديمة لطيفة خفية نورانية روحانية ، وليس هناك شكل ولا رسم متصفة بصفات المعانى والمعنوية ، متسمية بأسمائها القديمة ، منعوتة بنعوت الجلال والجمال ، فاقتضت الخمرة ظهور حسنها وجمالها ، واقتضت الصفات ظهور آثارها ، والأسماء ظهور مطالبها ، فقبضت الصفات من النور اللطيف قبضة نورانية لمقتضى اسمه الظاهر واسمه القادر ، فطلبها أيضًا اسمه الباطن واسمه الحكيم فأبطنها فى حال ظهورها ، وغطاها فى حال بروزها ، فكانت ظاهرة باطنة ، ثم تفرعت تلك

القبضة على تفاريع كثيرة بعدد الصفات ، وتنوعت على أجناس كثيرة بتنوع الأسماء :

* فَالمَاءُ وَاحِدٌ وَالزهْرُ أَلْوَان *

وفى ذلك يقول صاحب العينية :

وكلُّ الْوَرَى طُرًّا مَظَاهِرُ طَلْعَتى   مَرَاءٍ بِهَا مِنْ حُسْنِ وَجْهِىَ لَامِعُ
ظَهَرْتُ بأَوْصَافِ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا   أَجَلْ لِى ذَوَاتُ الْكُلِّ نُورِىَ سَاطِعُ

فبحر الجبروت فياض إلى عالم الملكوت ، ثم احتجب بالحكمة ، فصار ظاهره ظلمة وباطنه نوراً ، ظاهره حكمة وباطنه قدرة ، ظاهره ملك وباطنه ملكوت ، والجميع جبروت .

فإذا تقرر هذا علمت أن الأكوان لا وجود لها من ذاتها ، فلولا ظهور الحق بها ماظهرت . ولا وقع عليها أبصار الخلق كما قال القائل :

مَنْ لَا وُجُودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ   فَوُجُودُهُ لَوْلَاهُ عَيْنُ مُحَالِ

وقال آخر :

فَلَمْ يَبْقَ إلَّا الحقُّ لَمْ يَبْقَ كائِنٌ   فَما ثَمَّ مَوْصُولٌ وَمَا ثَمَّ بَائِنُ
بِذَا جَاء بُرْهَانُ العِيَانِ فَما أَرَى   بِعيْنَىَ شَيْئًا غَيرَهُ إذْ أعَايِنُ

وظهوره تعالى بواسطة تجليات الأكوان فيه لطف كبير ، إذ لايمكن شهوده ومعرفته إلا بواسطة هذه التجليات ، ولو ظهر بالأوصاف التى كان عليها فى الأزل بلا واسطة لتلاشت الكائنات واضمحلت .

وفى الحديث : « حِجَابُهُ النُّورُ ، لَوْ كُشِفَ عَنْهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ شَىْءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ » اهـ .

وهذا معنى قوله : لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوّناته : أى لو ظهرت نعوته الأصلية الأزلية لاضمحلت المكونات الحديثة ، إذ الكائنات كلها تكثيف للأسرار اللطيفة ، التى هى نعوت الخمرة الأزلية ، التى أشار إليها ابن الفارض فى خمريته بقوله :

صَفَاءٌ وَلَا مَاءٌ وَلُطْفٌ وَلَا هَوًى　　وَنُورٌ ولا نارٌ وَرُوحٌ وَلَا جِسْمُ
تَقَدَّمَ كُلَّ الْكَائِنَاتِ حدِيثُها　　قَدِيمٌ وَلَا شَكْلٌ هُنَاكَ وَلَا رَسْمُ

فلو ظهرت الأسرار اللطيفة لتلاشت الكائنات الكثيفة ، إذ لاظهور للكثيف إذا رجع لطيفًا . ومامثال الكون إلا كالثلجة ظاهرها جامد وباطنها مائع ، فإذا ذوبت الثلجة رجعت إلى أصلها ماء ولم يبق للثلجة أثر . فكذلك المكونات الحسية إذا ظهرت أسرارها اللطيفة التى قامت بها ذابت ذواتها الكثيفة وتلاشت ورجعت لأصلها ، وإلى هذا المعنى أشار صاحب العينية بقوله :

وَمَا الْكَوْنُ فى التِّمثالِ إلَّا كَثَلْجَةٍ　　وَأنْتَ لَهَا المَاء الذَّى هُوَ نَابِعُ
فَمَا الثَّلْجُ فى تَحْقِيقِنَا غيرُ مَائِهِ　　وَغيْرَانِ فى حُكْمٍ دَعَتْهُ الشَّرَائِعُ
وَلَكِنْ بِذَوْبِ المَاء يُرْفَعُ حُكْمُهُ　　وَيُوضَعُ حُكْمُ المَاء وَالأمْرُ وَاقِعُ

فمن وقف مع ظاهر الثلجة أنكر الماء الذى فى باطنها وكان جاهلا بحقيقتها ، ومن نفذ إلى باطنها عرف أصلها وفرعها ، وكذلك الأكوان ظاهرها غرة لمن وقف مع كثافتها وباطنها عبرة لمن نفذ إلى أصلها ، وقد مثلوا أيضًا الكون بصورة جبريل حين كان يتصور فى صورة دحية ، فمن رآه كثيفًا قال دحية وأنكر أن يكون ملكا ، ومن عرف أصله لم ينكره ولم يقف مع ظاهره ، فإذا تلطف ورجع إلى أصله ذهبت تلك الصورة واضمحلت فكذلك الكون إنما هو خيال ، فمادام موجودًا فى الحس رأى وظهر ، فإذا رجع إلى أصله بظهور أسراره التى قام بها اضمحل ولم يبق له أثر ، وقد أشار إلى هذا صاحب العينية أيضًا بقوله :

تَجَلَّيْتُ بالتَّحْقِيقِ فى كُلِّ صُورَةٍ　　فَفِى كُلِّ شَىْء مِنْ جَمَالِى لَوَامِعُ
فَمَا الْكَونُ فى التِّمثَالِ إلَّا كَدِحْيَةٍ　　تَصَوَّرُ رُوحِى فِيهِ شَكْلٌ مُخَادِعُ

ويسمون هذه الأسرار التى قامت بها الأكوان معانى ، ويسمون الأكوان أوانى حاملة للمعانى ، فلو ظهرت المعانى لاضمحلت الأوانى ، ومن وقف مع حس الأوانى حجب عن أسرار المعانى ، وفى ذلك يقول الششترى رضى الله عنه :

لَاتَنْظُرْ إلَى الْأَوَانِى وَخُضْ بَحْرَ الْمَعانِى
عَلَّكَ أنْ تَرَانِى

وقال ابن الفارض رضى الله عنه :

وَلُطْفُ الْأَوَانِى فى الْحَقِيقَةِ تَابِعٌ لِلُطْفِ الْمَعَانِى وَ الْمَعَانِى بِهَا تَسْمُو

فالأوانى كلها لطيفة فى الحقيقة تابعة للطف المعانى لأنها منها ؛ وإنما تكثفت فى حق أهل الحجاب الذين وقفوا مع ظواهر الأشياء ، واشتغلوا بخدمة الحس قلبًا وقالبًا ، فعظم عليهم الحس وقويت دائرة حسهم وغلظ الحجاب فى حقهم ، فعبادتهم حسية ، وفكرتهم حسية وذلك لصحبتهم أهل الحس ، ولو صحبوا أهل المعانى لاشتغلوا بخدمة المعانى حتى تتلطف لهم الأوانى .

قال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رضى الله عنه : سألت الشيخ يعنى سيدى العربى بن عبد الله فقلت : ياسيدى كنت أظن أنه لايشفى غليل الإنسان إلا الحس يعنى العبادة الحسية ، ولاظننت قط أن فعل المعانى يشفى الغليل أبدًا ، والآن وجدت نفسى بالعكس لايشفي غليلها إلا المعانى ، فأجابنى بأن قال : ياولدى لما كانت همتك مشورة للحسيات ، أمدك الله فيها فصرت لاتقنع إلا بالحسيات ، والآن انعكس الأمر لما وافقت أهل المعانى أثرت معرفتهم فيك بتشوير همتك لبلاد المعانى ، ولما انقلبت همتك عن بلاد الحس وشورت لبلاد المعانى ، أمدك الله فيها فصرت تقطع بالمعانى ، كما كنت تقطع بالحسيات اهـ مختصرًا . فكل من صحب أهل المعانى وانقلبت همته لبلاد المعانى ، حتى صارت عبادته باطنية معنوية تلطفت فى حقه الأوانى ولم ير إلا المعانى .

قلت : ومما منَّ الله علىَّ بصحبة أهل المعانى أنى إذا نظرت إلى الكون بعين بصيرتى من عرشه إلى فرشه ذاب وتلاشى ولم يبق له أثر :

(وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)[1] .

تنبيه : سئل سيدى أحمد بن يوسف الملياني عن ذات الحق تعالى هل معنوية

---

(١) الحديد : ٢١ .

أو حسية ؟ فقال : هى حسية لاتدرك ، قال سيدى عبد الله الهبطى : وهذا مما يدل على تحقيق معرفته .

قلت : ذات الحق تعالى موجودة لطيفة ، لاتدركها الأبصار ، ولاتكيفها العقول ، متصفة بصفات المعانى والمعنوية ، ولو كانت صفة أو معنى كما يزعمه النصارى لم تتصف بصفات المعانى ولا المعنوية ، لأن الصفة والمعنى لايقوم بنفسه ولابد أن يقوم بغيره ، والصفة لاتتصف بصفة أخرى .

وأما قول بعض المتأخرين : المعنى لايقبض إلا بالحس ، وقولهم أيضًا : لاتنظر إلى الأوانى ، وخض بحر المعانى ، وقولهم : الأكوان أوانٍ حاملة للمعانى ، فاعلم أنه قد تقدم أنهم يطلقون على أسرار الذات وهى الخمرة الأزلية معانى لخفائها ولطاقتها ، فأشبهت المعانى من هذا الوجه .

فتحصل أن الحس لاقيام له إلا بالمعنى وهى معانى أسرار الذات ، فصار قيام الأشياء كلها بالله ولا وجود لها معه ، وهو الذى أشار إليه ابن الفارض بقوله :

وَقَامَتْ بِهَا الْأَشْيَاء ثَمَّ لِحِكْمَةٍ بِهَا احْتَجَبَتْ عَنْ كُلِّ مَنْ لَا لَهُ فَهْمُ

أى قامت الأشياء كلها بالذات العلية أى بأسرارها اللطيفة الأزلية .

وقولهم أيضًا : الذات عين الصفات ؛ والصفات عين الذات . فاعلم أنه لما كان لاظهور للذات إلا من أنوار الصفات ، ولاقيام للصفات إلا بالذات ، والصفات لاتفارق الموصوف صار كأن هذا عين هذا ، فنطقوا بتلك العبارة تحويشًا للجمع وفرارًا من الفرق ، وهو اصطلاحٍ منهم ؛ سموا ماتكثف وظهر للحس صفات ، وما بطن من سر الربوبية ذاتا ومعنى ، والصفات لاتفارق الموصوف ، كما تقول فى الثلجة ظاهرها ثلج وباطنها ماء فالثلج صفات والماء ذات والثلج حس ، والماء معنى للطافته وخفائه صار كأنه معنى .

قال ابن عباس رضى الله عنه فى تفسير قوله تعالى :

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَافِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنه)[1] .

قال : فى كل شىء اسم من أسمائه ، واسم كل شىء من اسمه ، فإنما أنت

(١) الجاثية : ١٣ .

بين أسمائه وصفاته وأفعاله ، باطنًا بقدرته ، ظاهرًا بحكمته ، ظهر بصفاته ، وبطن بذاته ، حجب الذات بالصفات ، وحجب الصفات بالأفعال ، وكشف العلم بالإرادة ، وأظهر الإرادة بالحركات ، وأخفى الصنع فى الصنعة ، وأظهر الصنعة بالذوات ، فهو باطن فى غيبه وظاهر بحكمته وقدرته :

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) اهـ .

نقله شارح بداية السلوك هكذا عن ابن عباس رضى الله عنهما .

فقوله : حجب الذات بالصفات : أى حجب أسرار الذات بأنوار الصفات وهى أثرها .

وقوله : وحجب الصفات بالأفعال ، لأن الأفعال ظروف للصفات ، لأنها أثر من آثارها ومظهرة لها .

وقوله : وكشف العلم بالإرادة : أى أظهر ماسبق فى علمه بإرادته المخصصة لوقت إظهاره .

وقوله : وأظهر الإرادة بالحركات : أى أظهر ماسبق من إرادته بظهور الحركات الدالة على ماأراد .

وقوله : وأخفى الصنع فى الصنعة : أى أخفى الصانع فى صنعته .

وقوله : وأظهر الصنعة بالذوات : أى أظهر قدرته فى الأجرام وسائر الذوات ، والله تعالى أعلم .

وقول شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه فى كتابه فى تفسير الذات والصفات إن كل ماهو جلال فهو ذات ، وكل ماهو جمال فهو صفات ، فإنما ذلك على وجه التشبيه ، فإن تجلى الصفات كله جمال ، لأنه محل نزهة أرواح العارفين ، وبه يرتقى أهل الدليل إلى معرفة رب العالمين ، وهو الذى شبهه الشيخ ابن مشيش بالرياض فى قوله : فرياض الملكوت إلخ .

وأيضًا هو الذى تمكن رؤيته وتحصل المعرفة به ، بخلاف تجلى الذات فإنه جلال محض ، إذ لو ظهر ذرة من نوره الأصلى بلا واسطة لاحترق الكون من أصله . وفى الحديث : « حِجَابُهُ النَّارُ » وفى رواية : « النُّورُ ، لَوْ كَشَفَ عَنْهَا لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ شَىْءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ » .

فصار تجلى الصفات كله جمال ، وتجلى الذات كله جلال ، فأطلق وجه التشبيه أن كل مايشق على النفس فهو ذات . لأنه جلال كتجلى الذات ، وكل مايخف على النفس فهو صفات لأنه جمال كتجلى الصفات ، والله تعالى أعلم .

وإنما أطلت الكلام فى هذه المسألة ، لأنى لم أر من تكلم عليها ولا من شفى فيها الغليل ، وكنت كثير البحث عنها فلم أجد من يشفينى فيها ، وهذا ماظهر لى فيها وماأنتجته فكرتى ، والله تعالى أعلم ، وبالله التوفيق .

ثم استدل على ظهوره فى المكونات بقوله تعالى :

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) .

فأشار إلى تفسير الظاهر والباطن بقوله :

[**أظهر كل شيء بأنه الباطن ، وطوى وجود كل شيء بأنه الظاهر**] .

قلت : مضمنه أن اسمه تعالى الباطن يقتضى ظهور الأشياء حسًّا ليكون باطنًا بسبب ظهور حسها ، لأن الحس رداء أسرار المعانى ، واسمه الظاهر يقتضى بطون الأشياء : أى هلاكها واضمحلالها ، ليكون ظاهرًا بما ظهر منها ، هذا معنى قوله أظهر كل شيء بأنه الباطن : أى بسبب أنه الباطن ليتحقق بطونه بها ، وطوى وجود كل شيء بسبب أنه الظاهر ليتحقق انفراده بالظهور فيها .

والحاصل : أن الحصر فى قوله تعالى (هو الظاهر) يدل على أنه لاظاهر معه فانطوى وجود الأشياء واضمحل لها . وقوله (هو الباطن) يدل على أنه لاباطن سواه فبطنت الأشياء كلها بعد ظهورها ، فدل كلامه سبحانه أن ماظهر به هو الذى بطن فيه ، والذى بطن به هو الذى ظهر فيه وإلا لم يصح الحصر .

فإن قلت : المتقابلان لايجتمعان كالضدين وكيف جمعتهما فى ذات واحدة ؟

قلت : لم يتواردا على محل واحد بل ذلك باعتبارين : فاسمه الظاهر باعتبار الحس فى عالم الحكمة ، واسمه الباطن باعتبار المعنى فى عالم القدرة . فالحكمة ظاهرة ، والقدرة باطنة .

أو تقول : ظاهر باعتبار مظاهر الربوبية ، باطن باعتبار قوالب العبودية .
أو تقول : ظاهر باعتبار التعريف ، باطن باعتبار التكييف ، فالذات واحدة

والاعتبارات مختلفة وذلك كثير .

فتحصل أن الحق سبحانه ظاهر فى بطونه ، باطن فى ظهوره ، ماظهر به هو الذى بطن فيه ؛ ومابطن به هو الذى ظهر فيه : أى ماظهر فيه بحكمته هو الذى بطن فيه بقدرته ، وما بطن فيه بقدرته هو الذى ظهر فيه بحكمته ، وهو الذى قصده الشاعر بقوله :

لَقَدْ ظَهَرْتَ فَلَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ
إلَّا عَلَى أَكْمَهٍ لَا يُبْصِرُ الْقَمَرَا
لٰكِنْ بَطَنْتَ بِمَا أَظْهَرْتَ مُحْتَجِبًا
وَكَيْفَ يُعْرَفُ مَنْ بِالعِزَّةِ اسْتَتَرَا

والله تعالى أعلم .

تنبيه : قد كنت سألت الشيخين : أعنى شيخنا وشيخه عن الخمرة الأزلية قبل تجليها هل تسمى ظاهرة باطنة ، أو إنما تسمى باطنة فقط للطافتها حينئذ ؟ فأجابنى : بأن ماكان هو الذى ظهر وليس الذى ظهر غير ماكان فى الأزل :

« كانَ الله ولَا شَيْء مَعَهُ ، وَهُوَ الآنَ عَلَى مَاعَلَيْهِ كانَ » .

يعنى أن الذات العلية كما كانت متصفة بصفاتها وأسمائها فى الأزل بقيت كذلك فيما لايزال ، فكان فى الأزل ظاهرًا باطنًا ، وبقى بعد التجلى كذلك ظاهرًا لنفسه باطنًا ، عن خلقه ، ماتجلى به ظاهرًا هو فيه أيضًا باطن .

وقال القاشانى فى شرح تائية ابن الفارض مانصه بعد كلام : وأظهر الحق تعالى سر ذاته وصفاته فى مظاهر أفعاله ، وما كان لخفائه عليه قبل ذلك كما حكاه عن المحبوبة بلسان الجمع فى قوله :

مَظَاهِرُ لِي فيها بَدَوْتُ وَلَم أَكُنْ ... عَلَيَّ بِخَافٍ قَبْلُ مَوْطِنُ بَرْزَةِ

ولكن ليتجلى باسمه الظاهر آخرًا كما كان متجليًا باسمه الباطن أولا .

والعجب كل العجب أنه تعالى ماظهر بشىء من مظاهر أفعاله إلا وقد احتجب به كما قال :

بَدَتْ بِاحْتِجَابٍ وَاخْتَفَتْ بِمظاهِرٍ   عَلَى صِيَغِ الْأَكْوَانِ فى كُلِّ بَرْزَةِ

اهـ كلامه رضى الله عنه .

والتحقيق أن يقال : الحق تعالى لم يزل متصفًا بأسمائه وصفاته فى الأزل وفيما لايزال ، لكن ظهور آثارها وقع فيما لايزال ، فكان متصفًا باسمه الظاهر والباطن فى الأزل . وظهر بعد ذلك آثارهما فيما لايزال ، والله تعالى أعلم .

ثم بين كيفية النظر والاعتبار فى المكونات لتعرف ظهوره تعالى فيها فقال :

[أباح لك أن تنظر مافى المكونات ، وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكونات : قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ، فبقوله : انظروا ماذا فى السموات فتح لك باب الأفهام ، ولم يقل انظروا السموات لئلا يدلك على وجود الأجرام] .

قلت : إنما أبرز الله هذه المكونات وأظهر هذه العوالم ليعرف بها ويظهر نوره فيها . قال تعالى :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰواتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . مَاخَلَقْنَاهُما إلا بِالحَقِّ)[1] وقال تعالى : (أَفَحَسِبْتُمْ أنما خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا)[2] .

قال فى لطائف المنن : فما نصبت الكائنات لتراها ولكن لترى فيها مولاها ، فمراد الحق منك أن تراها بعين من لايراها ، تراها من حيث ظهوره فيها ولاتراها من حيث كونيتها ، قال ولنا فى هذا المعنى :

مَا [أقام] لَكَ الْعَوالِمَ إلا   لِتَـرَاهَا بِعَـيْنِ مَنْ لَايَرَاهَـا
فَارْقَ عَنْهَا رُقِيَّ مَنْ لَيْسَ يَرْضَى   حَالَةً دُونَ أَنْ يَرَى مَوْلَاهَا

فأباح لك أيها الإنسان أن تنظر ماذا فى السموات والأرض من النور اللطيف الذى قامت به الأشياء ، وما أباح لك أن تقف مع ذوات المكونات ، تقف مع القشر وتحجب عن اللب ، وقد تقدم قوله : الأكوان ظاهرها غِرة وباطنها عبرة ، فمن وقف مع ظاهرها كان محجوبًا ، ومن نفذ إلى باطنها كان عارفًا

---

(١) الدخان : ٣٨ ، ٣٩ .   (٢) المؤمنون : ١١٥ .

محبوبًا ، ولأجل هذا السر قال تعالى (قُلِ انْظُرُوا ماذا فى السّمواتِ)[١] أى مافيها من عظمته ومعانى أسرار ذاته وكمال قدرته وإرادته وسائر صفائه ، فقد فتح لك باب الأفهام ، جمع فهم : أى فتح لك باب الفهم لتدخل بها من ظاهر القشر إلى باطن اللب ، حتى تعرفه فى كل شيء ، وتفهم عنه فى كل شيء ، ولو قال الحق تعالى : قل انظروا السموات ، لدلك على الأجرام ، وسد لك باب الأفهام وكيف يدلك على الأجرام وهى أغيار والأغيار مانعة من الدخول إلى شهود الأنوار ؟ ومثال ذلك فى التقريب لو قال لك قائل : انظر هذه الثلجة لدلك على ظاهر جرمها ، ولو قال لك انظر مافى هذه الثلجة لفتح لك باب الفهم إلى نظر مافى باطنها من الماء دون الوقوف مع ظاهر جرمها .

واعلم أن الحق سبحانه ندب عباده إلى معرفة ذاته ودرجهم إليها شيئا فشيئا ، فمنهم من قصّر ، ومنهم من وصل ، فدرجهم أولا إلى توحيد الأفعال وأنه لافاعل سواه فقال تعالى :

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَايَشَاء وَيَخْتَارُ)[٢] ، (إنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)[٣] ، (واللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)[٤] ، (وَلَوْ شَاء الله مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ الله يَفْعَلُ مَايُرِيدُ)[٥] وقال فى فعل غير الآدمى : (مَامِنْ دَابَّةٍ إلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيتها)[٦] وفى شأن الطير : (مَايُمْسِكُهُنَّ إلاَّ الرَّحْمنُ)[٧] وقال تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فى الأرضِ ولاَطَائرٍ يَطِيرُ بِجنَاحَيْهِ إلاَّ أمَمٌ أمْثَالُكُمْ)[٨] .

أى فى قهر قبضتنا ، مقدرة آجالها ، مقسومة أرزاقها ، معدودة أنفاسها محفوظة أجسامها معلومة أماكنها ، ظاهرة أشباحها باطنة أنوارها .

وقال فى توحيد الصفات ، وأنه لاسميع ولابصير ولاقدير ولامتكلم إلا الله :

---

(١) يونس : ١٠١ . (٢) القصص : ٦٨ . (٣) هود : ١٠٧ .
(٤) الصافات : ٩٦ . (٥) البقرة : ٢٥٣ . (٦) هود : ٥٦ .
(٧) الملك : ١٩ . (٨) الأنعام : ٣٨ .

(إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[١] .

أى دون غيره ، فلا سمع ولابصر إلا به سبحانه . وقال تعالى :
(إِنَّهُ هو الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)[٢] وقال تعالى : (وَمَا تَشَاءونَ إِلَّا أَنْ يَشَاء الله) إلى غير ذلك من الآيات .
وقال تعالى فى توحيد الذات : (وَهُوَ الله فى السَّمٰوَاتِ وفى الْأَرضِ)[٣]
(الله نُورُ السَّمٰوَات وَالْأَرض)[٤] .

على تفسير أهل الإشارة وهم أهل الباطن . وقال :
(فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله)[٥] (وإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ)[٦] (إِنَّ الذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله)[٧] .
وقال فى محو الواسطة : (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ)[٨] ، (أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ) أى بالحرث (شَقًّا)[٩] .

ويحتمل أن تكون منها أو من توحيد الأفعال :
(وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلٰكِنَّ الله رَمَى)[١٠] ، (وَلٰكِنَّ الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)[١١] .

وقد يجمع الحق تعالى فى آية واحدة توحيد الصفات ، ويرقى إلى توحيد الذات كقوله تعالى :
(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فى الآفَاقِ وَفى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) .
ثم رقاهم إلى الشهود بقوله :

---

(١) الإسراء : ١ . (٢) الذاريات : ٣٠ . (٣) الأنعام : ٣ .
(٤) النور : ٣٥ (٥) البقرة : ١١٥ . (٦) الإسراء : ٦٠ .
(٧) الفتح : ١٠ . (٨) القيامة : ١٨ . (٩) عبس : ٢٥ ، ٢٦ .
(١٠) الأنفال : ١٧ . (١١) الأنفال : ٦٣ .

(أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) ، (أَلَا إِنَّهُم فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ)[١] وقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) .

ثم رقاهم من الغيب إلى الشهادة بقوله :

(وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)[٢] .

فتحصل أن الأشياء كلها قائمة بالله أثبتها ليعرف بها ، ثم محاها بوحدانيته كما أشار إلى ذلك بقوله :

[الأكوان ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته] .

قلت : الأكوان : هى ما ظهر فى عالم الشهادة . أو تقول : ما دخل عالم التكوين ، وهى موجودة بوجود الحق ، قائمة به ثابتة بإثباته ، ليعرف بها ، ممحوة بأحدية ذاته لانفراد وجوده ، فمن أثبتها لنفسها فقد جهله فيها وحجب بها عن شهود موجدها ، ومن أثبتها بالله فقد عرف فيها وشهدفيها مولاها ؛ فالثبوت للأكوان أمر عرضى ، والحق اللازم هو وجود أحدية الحق تعالى ، والأحدية مبالغة فى الوحدة ، ولا تتحقق إلا إذا كانت الوحدة بحيث لا يتمكن أن يكون أشد وأكمل منها ، فمن مقتضى حقيقتها محو الأكوان وبطلانها بحيث لا توجد ، إذ لو وجدت لم تكن أحدية ولكان فى ذلك متعددًا واثنينية كما قيل :

أَرَبٌّ وَعَبْـدٌ وَنَفْـيُ ضِـدٍّ ... قُلْتُ لَهُ لَيْسَ ذَاكَ عِنْدِى
فَقَـالَ مَـا عِنْـدَكُمْ فَقُلْنَـا ... وُجُـودُ فَقْـدٍ وَفَقْـدُ وُجْـدِ
تَـوْحِيـدُ حَقٍّ بِتَـرْكِ حَقٍّ ... وَلَيْسَ حَقٌّ سِـوَاىَ وَحْدِى

ومعنى كلام الشاعر : الإنكار على من أثبت الفرق ، بأن جعل للعبودية محلا مستقلا منفصلا عن أسرار معانى الربوبية قائمًا بنفسه ؛ ولا شك أن العبودية تضاد أوصاف الربوبية على هذا الفرق وأنت تقول فى توحيد الحق لا ضد له ،

---

(١) فصلت : ٥٣ ، ٥٤ .   (٢) الملك : ١٢ - ١٤ .

فقد نقضت كلامك ، ولذلك قال ونفى ضد ، فالواو بمعنى مع . وهو داخل فى الإنكار أى أيوجد رب وعبد مستقل مع نفى الضد للربوبية ، والعبودية تضاد أوصاف الربوبية . والحق أن الحق تعالى تجلى بمظاهر الجمع فى قوالب الفرق وظهر بعظمة الربوبية فى إظهار قوالب العبودية ، فلا شىء معه .

وقوله فى الجواب : وجود فقد : أى عندنا وجود فقد السوى وفقد وجود النفس .

وقوله توحيد حق بترك حق : أى توحيد حق الحق بترك حق الغير ولا غير ، ولذلك قال وليس حق موجود سوى وجودى وحدى ، تكلم على لسان الفناء ، والله تعالى أعلم .

وقال آخر :

سِرٌّ سَرَى مِنْ جَنَابِ الْقُدْسِ أَفْنَانِي
لٰكِنْ بِذَاكَ الْفَنَى عَنِّى قَد اَحْيَانِي

وَرَدَّنِي لِلْبَقَا حَتَّى أُعَبِّرَ عَنْ
جَمَالِ حَضْرَتِهِ لِكُلِّ هَيْمَانِ

وَصِرْتُ فِي مَلَكُوتٍ مِنْ عَجَائِبِهِ
لَمْ أَلْفِ غَيْرَ وُجُودٍ مَالَهُ ثَانِي

وأنشد المؤلف لنفسه فى لطائف المنن ، يوصى رجلا من إخوانه اسمه حسن :

حَسَنٌ بِأَنْ تَدَعَ الْوُجُودَ بِأَسْرِهِ
حَسَنٌ فَلَا يَشْغَلْكَ عَنْهُ شَاغِلُ

وَلَئِنْ فَهِمْتَ لَتَعْلَمَنَّ بِأَنَّهُ
لَا تَرْكَ إِلَّا لِلَّذِى هُوَ حَاصِلُ

وَمَتَى شَهِدْتَ سِوَاهُ فَاعْلَمْ أَنَّهُ
مِنْ وَهْمِكَ الْأَدْنَى وَقَلْبُكَ ذَاهِلُ

حَسْبُ الإِلٰـهِ شُهُـودُهُ لِـوُجُـودِهِ
والله يَعْلَمُ مَـا يَقُـولُ الْقَـائِـلُ
وَلَقَدْ أَشَرْتُ إِلَى الصَّرِيحِ مِنَ الهُدَى
دَلَّتْ عَلَيْـهِ إِنْ فَـهِمْـتَ دَلَائِـلُ
وَحَـدِيثُ كَـانَ وَلَيْسَ شَيءٌ دُونَـهُ
يَقْضِى بِـهِ الآنَ اللَّبِيبُ الْعَـاقِـلُ
لَا غَـرْوَ إِلَّا نِسْبَـةَ مَـثْبُـوتَـةٌ
لِيُـذَمَّ ذُو تَـرْكٍ وَيُحْمَـدَ فَـاعِـلُ

هذا آخر الباب الرابع عشر :

وحاصلها : تحويش العباد إلى الله وتحبيبه إليهم ، بذكر ما اشتمل عليه الحق سبحانه من الكرم والإحسان ، وغاية اللطف والمبرة والامتنان ، وذلك أنه سبحانه منّ علينا أولا بالطاعة والعمل ، وتفضل علينا ثانيًا بالقبول مع ما اشتمل عليه عملنا من النقص والخلل ، ثم إذا وقعت منّا معصية أو زلل غطانا بستره وبمغفرته لنا تفضلا ، وإذا توجهنا إليه بقلوبنا سترنا منها وعصمنا ليعظم قدرنا ، و يظهر شكرنا . فنتخده صاحبًا ، وندع غيره جانبًا ، فحينئذ تشرق فى قلوبنا أنوار اليقين ، ونرحل إلى الآخرة فى أقرب حين . ثم تشرق علينا أنوار الإحسان ، فتنطوى لنا رؤية الأكوان ، بشهود نور الملك الديان ، فحينئذ ينشر محاسننا للعباد ؛ فيقبلون علينا بالثناء والمحبة والوداد ، كما أبان هذا بقوله فى أول الباب الخامس عشر رضى الله عنه :

الباب الخامس عشر

الناس فى المدح والذم

[الناس يمدحونك لما يظنون فيك ، فكن أنت ذامًّا لنفسك لما تعلمه منها] .

قلت : إذا مدحك الناس بشىء ليس هو موجودًا فيك ، فاعلم أن ذلك هواتف من الحق يهتفون بك ويحوشونك إلى الزيادة ، ويقولون لك : الخير أمامك ، فلا تقنع بذلك ، ولا تركن إلى ما هنالك ، بل ارجع على نفسك باللوم ، ولا يغرنك ثناء القوم فإنهم لا يعلمون منك إلا الصوان الظاهر ، وأنت تعلم من نفسك اللب الباطن .

قال بعضهم : من فرح بمدح الناس فقد مكن الشيطان من أن يدخل بطنه . وكان بعضهم يقول : اللهم اجعلنى خيرًا مما يظنون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون ، واغفر لنا ما لايعلمون ، وإنما قلنا مدائح الناس هواتف الحق ، إذ ليس فى الوجود إلا الحق : (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ)[1] .

فأهل الفهم عن الله يستمعون إلى الخطاب ، فإذا سمعوه مدحهم بشىء نظروا ، فإذا كان فيهم علموا أنه تنبيه لهم على مقام الشكر ، وإن لم يجدوه فيهم علموا أنه تنبيه لهم على تحصيل ذلك المقام ، ولهذا لما سمع أبو حنيفة قومًا يمدحونه بقيام الليل كله وكان لا يقوم إلا نصفه جعل يقوم الليل كله .

وقد ذم الله قومًا أحبوا أن يمدحوا بما لم يفعلوا فقال :

(وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ)[2] .

وقال المحاسبى رضى الله عنه : مثل الذى يفرح بمدح الباطل ، كمن يقال

---

(١) آل عمران : ١٩١ . (٢) آل عمران : ١٨٨ .

له : العذرة التى تخرج من جوفك لها رائحة المسك وهو يفرح لذلك ويرضى بالسخرية به اهـ .

ثم إن ذمك لنفسك إذا توجه الخلق إليك بالمدح إنما هو حياء من ربك حيث ستر عيوبك وأظهر محاسنك ، وهو الذى نبه عليه بقوله :

[المؤمن إذا مدح استحيا من الله أن يثنى عليه بوصف لا يشهده من نفسه] .

قلت : قد تقرر أن التحقيق ما هو إلا سابقة التوفيق . ومن تمام نعمته عليك أن خلق فيك ونسب إليك ، فإذا أطلق الثناء عليك بشىء لا نسبة لك فيه وإنما أنت محل لظهوره فاستحى منه تعالى أن يثنى عليك بشىء تعلمه أنه من فعل غيرك ، أو لم يظهر عليك شىء منه أصلاً ،فإن مدحت بشىء زائد على ما ظهر فيك فاطلب منه القوة على المزيد (إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)[1] .

ولا يضرك مدحك بما تفعل إن لم تقصد التعرض للمدح .

ففى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُؤْمِنُ ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : الَّذِى لَا يَمُوتُ حَتَّى يَمْلأَ مَسَامِعَهُ مِمَّا يُحِبُّ ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا عَمِلَ بِطَاعَةِ اللهِ فِى جَوْفِ بَيْتٍ إِلَى سَبْعِينَ بَيْتًا عَلَى كُلِّ بَيْتٍ بَابٌ مِنْ حَدِيدٍ لأَلْبَسَهُ اللهُ رِدَاءَ عَمَلِهِ حَتَّى يَتَحَدَّثَ النَّاسُ بِذٰلِكَ وَيَزِيدُونَ ، قِيلَ : يَارَسُولَ اللهِ كَيْفَ يَزِيدُونَ ؟ قَالَ : الْمُؤْمِنُ يُحِبُّ مَا زَادَ فِى عَمَلِهِ » الحديث .

وفى حديث آخر : « قِيلَ : يَارَسُولَ اللهِ الرَّجُلُ يَعْمَلُ الْعَمَلَ خُفْيَةً ثُمَّ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهِ فَيَفْرَحُ ، فقالَ عليه الصلاة والسلام : لَهُ الأَجْرُ مَرَّتَيْنِ : أَجْرُ الْعَمَلِ ، وَأَجْرُ الْفَرَحِ » .

فإن مدح بما ليس فيه واغتر بذلك فهو جاهل بربه ، كما أشار إليه بقوله :

[أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس] .

---

(١) هود : ١٠٧ .

قلت : اليقين الذى عنده هو علمه بمساويه وخفايا عيوبه ، وما انطوت عليه سرائره من النقائص والتقصير ، وظن ما عند الناس هو ما يرون على ظاهره من الكمالات وأنوار الطاعات ، التى تصحبها العلل الباطنية ، والحظوظ النفسانية ، فيتوجهون إليه بالمدح والثناء ، فإذا قنع بذلك وفرح بما هنالك ، فهو أجهل الناس وأحمق الناس ، إذ قد قنع بعلم الخلق ، ولم يخف من مقت الحق ، والمطلوب من الفقير عكس هذا ، وهو أن ينقبض عند المدح وينبسط عند الذم حتى يستويا عنده ، هذا إن كان المادح من أهل الدين والخير ، وأما إن كان جاهلا أو فاسقًا فلا غباوة أعظم من الرضا بمدحهم والفرح به .

فقد روى عن بعض الحكماء أنه مدحه بعض العوام فبكى فقال له تلميذه أتبكى وقد مدحك ؟ فقال له : إنه لم يمدحنى حتى وافق بعض خلقى خلقه فلذلك بكيت .

وقال يحيى بن معاذ رضى الله عنه : تزكية الأشرار هجنة لك ، وحبهم لك عيب عليك .

وقيل لبعض الحكماء : إن العامة يثنون عليك ، فأظهر الوحشة من ذلك وقال : لعلهم رأوا منى شيئًا أعجبهم ، ولا خير فى شيء يعجبهم ويسوءنى اهـ .

فينبغى للفقير أن يخفى محاسنه وأعماله التى يمدح عليها ، ويظهر ما يسقط به من أعينهم مما هو مباح كما تقدم فى الخمول .

وكان شيخ شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه يقول : فينبغى للفقير ألا يكون صيته أكبر من قدمه ، بل يكون قدمه أكبر من صيته ، وقدره أكبر من دعواه اهـ . فيكون جلالىّ الظاهر جمالىّ الباطن ، فكل ما تظهره على ظاهرك من الجلال يدخل فى باطنك قدره من الجمال ، وكل ما تظهره من الجمال يدخل قدره فى باطنك من الجلال ، فتزيين الظواهر يخرب البواطن ، وتخريب الظواهر يزين البواطن ، فبقدر ما تخرب فى الظاهر يكون عمارة فى الباطن ، وبقدر ما تعمر فى الظاهر يكون خرابًا فى الباطن ، ولله در شيخ شيوخنا المجذوب رضى الله عنه حيث قال فى شأن الجهال :

اتَّفَقُوا عَلَى الدِّين تَرَكُوهُ تَعَانَدُوا فِى المَالِ وَالكَسَاوِى
الثَّوْبَ مِنْ فَوْقٍ غَسَلُوهُ وَخَلَّوُا القَلْب خَاوِى

فإذا أظهرت الجلال وأخفيت الجمال ، ثم أطلق الثناء عليك الكبير المتعال ، بما لست له أهلا ، فأثن عليه بما هو أهله ، كما أبان ذلك بقوله :

[إذا أطلق الثناء عليك ولست بأهل ، فأثن عليه بما هو أهله] .

قلت : إذا أطلق الله تعالى الثناء عليك على ألسنة خلقه بما لا تعلمه من نفسك ولست بأهل له ، فأثن على الله بما هو أهله : أى بما يستحقه من التعظيم ، ليكون ذلك شكرًا لنعمة إطلاق الألسنة بالثناء عليك . وأيضًا فإنه هو الذى ستر منهم مساويك وأظهر لهم محاسنك ، ولو أظهر لهم ذرة من مساويك لمقتوك وأبغضوك ، فإن العبد محل النقائص والحق تعالى محل الكمالات ، فكل ما ظهر عليك من الكمالات فإنما هى رشحة من كمالاته تعالى ، فالثناء فى الحقيقة إنما هو لله ، فإذا وقع عليك فرده أنت إلى أصله ، وفى الحقيقة ما وقع إلا فى أصله ، ولكن لما اختلف القصد اختلف الحكم .

أثنى على بعض السادات وهو ساكت ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : وما على من ذلك ولست أغلظ فى نفسى بل لست فى البين ، والمجرى والمنشى هو الله تعالى اهـ . هذه حالة أهل الجمع .

وكان بعض السادات يستعمل الفرق إذا سمع الثناء عليه ألقى على رأسه التراب فى خلوته .

فالناس فى حالة المدح والذم على ثلاثة أقسام : قسم يفرحون بالمدح ويكرهون الذم ، لأن نفوسهم غالبة عليهم ، ولا شك أنها تفرح بالعز والرفعة وتنقبض بالذم والضعة وهم العوام الغافلون .

وقسم يكرهون المدح ويحبون الذم ، لأنهم فى مجاهدة نفوسهم ، فكل ما يؤلمها ويقتلها أقبلوا عليه ، وكل ما يحييها ويقويها فروا منه ، وهم العباد والزهاد والسائرون من المريدين .

وقسم يفرحون بالمدح لشهوده من مولاهم ، وينقبضون من الذم لشهودهم جلال من تولاهم وهم العارفون .

وقد أشار إلى القسم الثانى والثالث بقوله :

[الزهاد إذا مدحوا انقبضوا لشهودهم الثناء من الخلق ، والعارفون إذا مدحوا انبسطوا لشهودهم ذلك من الملك الحق] .

قلت : أما العباد والزهاد ، فلأنهم محجوبون برؤية الخلق عن شهود الحق . فإذا مدحوا شهدوا ذلك من الخلق ، وحجبوا عن الجمع بالفرق ، فانقبضوا وخافوا على نفوسهم أن تغتر بذلك أو تقف هنالك ، وهم عاملون على ما تموت به نفوسهم وتحيا به قلوبهم ، ولا شك أن المدح لها فيه حظ وافر ، فربما تميل إلى ذلك فتعتقد المزية على الغير ، فيوجب لها التكبر والرضا وهما أصل كل معصية .

وأما الذم فلا حظ لها فيه ، وإنما فيه موتها وفى موتها حياتها ، فلذلك إذا مدحوا انقبضوا ، وإذا ذموا انبسطوا ، وسكت عنه الشيخ ، وكأنه يؤخذ بالمفهوم .

وأما العارفون الواصلون ، فلأنهم فانون عن أنفسهم ، باقون بربهم ، غائبون عن الخلق بشهود الملك الحق ، فإذا أثنى عليهم رأوا ألسنة الخلق أقلام الحق ، وشهدوا الجمع فى عين الفرق ، ففرحوا بمدح مولاهم ، وانبسطوا عند من تولاهم ، فيزدادون له حبًّا وشوقًا ، ويفنون فيه شغفًا وعشقًا ، وفى مثل هؤلاء ورد الحديث : « إِذَا مُدِحَ الْمُؤْمِنُ رَبَا الإِيمَانُ فى قَلْبِهِ رَبْوَةً » .

وإذا ذموا انقبصوا سكونًا تحت قهرية الحق ، وأدبًا مع جلاله ، وليس فى هذا الانقباض دليل على كراهية الذم من حيث نسبته للخلق ، لأنهم يرون الخلق مصرفين بقدرة الحق ، وعلامة ذلك أنهم يسمحون لمن أجرى ذلك عليه بل يتعطفون عليه ، ويتوددون بالمحبة إليه كما قال الشاعر :

رُبَّ رَامٍ لى بِـأَحْـجَـارِ الْأَذَى
لَمْ أَجِـدْ بُـدًّا مِنَ الْعَـطْفِ عَلَيْـهِ

فَـعَـسَـى يَـطَّلِعُ اللهُ عَـلَى
فَـرَحِ الْقَـوْمِ فَيُـدْنِـينِى إِلَـيْـهِ

وفى تعبيرآخر : الناس فى المدح والذم على أربعة أقسام ، عوام جهال ،

وعباد زهاد ، ومريدون سالكون ، وعارفون واصلون .

فأما العوام فنفوسهم غالبة عليهم ، ودائرة الحس محيطة بهم ، محط نظرهم الخلق ، غافلون عن طلب الحق ، إذا مدحوا وأقبل عليهم الخلق فرحوا وبطروا لنيل مرادهم وتحصيل أغراضهم ، والنفس الأمارة مجبولة على الإمارة ، وإذا ذموا وأدبر عنهم الخلق انقبضوا وحزنوا لفوات ما أملوا ، فهؤلاء قلوبهم خربة من النور .

وأما العباد والزهاد : فهم مجتهدون فى العبادة ، فارون من الخلق ، طالبون رضا الحق ، مستوحشون من الناس ، تحققوا منهم الإياس ، فإذا أقبلوا عليهم بالمدح والثناء انقبضوا وخافوا أن يشغلوهم عما هم فيه ، وإذا ذموا وأدبر عنهم الخلق فرحوا وانبسطوا لتفرغهم حينئذ للعبادة وإقبالهم على ما هم عليه من المجاهدة .

وأما المريدون السالكون : فهم عاملون على قتل نفوسهم وحياة قلوبهم ، فإذا ذموا وأدبر الخلق عنهم فرحوا لما فى ذلك من موت نفوسهم وحياة قلوبهم ، وإذا مدحوا انقبضوا خوفًا على قوة نفوسهم وضعف قلوبهم ؛ إذ فى موت النفس حياة القلوب ، وفى حياة القلوب موت النفوس .

وأما العارفون : فقد ظفروا بنفوسهم ، ووصلوا إلى شهود معبودهم ، فهم يستأنسون بكل شىء ، لمعرفتهم فى كل شىء ، يأخذون النصيب من كل شىء ويفهمون عن الله فى كل شىء ، فإذا مدحوا انبسطوا بالله لشهودهم المدح من الله وإلى الله ، ولا شىء فى الكون سواه ، وليس أحد أحب إليه المدح من الله كما فى الحديث ، وإذا ذموا انقبضوا تأدبًا مع جلال الله أو شفقة على عباد الله : « مَنْ عَادَى لى وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحرْبِ » .

فصار بسطهم بالله وقبضهم بالله واستغنوا به عما سواه ، وبهذا المعنى وهو الفناء عن النفوس صح مدحهم لأنفسهم ، تحدثًا بما أنعم الله عليهم ، كالشيخ عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه ، والشاذلى والمرسى ، والشيخ زروق وأشباههم رضى الله عنهم وذلك مشهور عنهم نظمًا ونثرًا ، ومن أجل ذلك أيضًا أقروا من مدحهم ، وأظهروا الانبساط عند مدحهم . وللمؤلف رحمه الله قصائد

فى مدح شيخه أبى العباس ، وكان يقول له : أيدك الله بروح القدس كما كان يقول عليه الصلاة والسلام لحسان بن ثابت رضى الله عنه حين يمدحه عليه الصلاة والسلام .

ومدح الشيوخ من أعظم القربات وأقرب الوسائل إلى الوصول ، إذ هم باب الله الأعظم ، ويد الله الآخذة بيد الداخلين إلى الحضرة ، فمن مدحهم فقد مدح الله : (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ)[1] .

ومن ذمهم فقد ذم الله ، وكذلك مدح الرسول صلى الله عليه وسلم هو باب عظيم فى الوصول إلى حضرة الكريم .

فإن قلت : قوله عليه الصلاة والسلام :

« احْثوا التُّرَابَ فى أَوْجُهِ المادِحِينَ » .

يقتضى العموم فيصدق بمدح العارفين وغيرهم .

قلت : هو محمول على المدح بالكذب على وجه الطمع ، كما يقع للملوك وأرباب الأموال طمعًا فيما عندهم ، أو يحمل على من كان باقيًا مع نفسه خائفًا عليها كالعباد والزهاد . فإذا مدحهم أحد فينبغى أن يزجروه ويحثوا فى وجهه التراب . قيل حقيقة ، وقيل : كناية عن الخيبة والرد والنهى والزجر .

وأما العارفون المتحققون فقد عرفوا الممدوح ، وغابوا عن شهود الواسطة فى المادح والممدوح ، نفعنا الله بذكرهم ، وخرطنا فى سلكهم آمين .

ثم من علامة الكمال ، تحقيق الاعتدال ، واستواء الأحوال ، فى ثمانية خصال : المدح والذم ، والعز والذل ، والقبض والبسط ، والمنع والعطاء ، وقد تقدم بعضها ، وأشار إلى الأخيرتين بقوله :

[متى كنت إذا أعطيت بسطك العطاء ، وإذا منعت قبضك المنع ، فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك ، وعدم صدقك فى عبوديتك] .

قلت : الطفولية والتطفل هو الدخول فى قوم وليس منهم ولم يستأذنهم .

والطفيلى : هو الذى يأتى للوليمة من غير دعوة ، وهو منسوب إلى رجل من

---

(١) الفتح : ١٠ .

أهل الكوفة من بنى عبد الله بن غطفان كان يقال له طفيل الأعراس : كان يأتى إلى الولائم من غير أن يدعى إليها : فشبه المؤلف به من دخل مع القوم ولم يتحقق بما تحققوا به من استواء الأحوال ، فإذا كنت أيها الفقير إذا أعطيت حظوظك ومنالك واتصلت بعوائدك وهواك ، من الغنى والعز والجاه ، والبسط والصحة والعافية ، وغير ذلك من الحظوظ والشهوات انبسطت وفرحت : وإذا منعت من حظوظك وشهواتك ، وأبدلك الغنى بالفقر ، والعز بالذل ، والجاه بالخمول ، والبسط بالقبض ، والصحة بالمرض ، والعافية بالبلية ، انقبضت وجزعت ، فاستدل بذلك على ثبوت تطفلك على كلامهم ، ولا نسبة لك من مقامهم ، وإنما أنت طفيلى الأعراس ، مازلت فى غفلة النعاس ، واستدل بذلك أيضًا على عدم صدقك فى عبوديتك ، إذ الصدق فى العبودية يقتضى استواء النعمة والبلية ، كما قال الشاعر :

أَحِبَّاىَ أَنْتُمْ أَحْسَنَ الدَّهْرُ أَمْ أَسَا
فَكونُوا كما شِئْتُم أَنَا ذلِـكَ الْخِلُّ

قال أبو عثمان الحيرى رضى الله عنه : لا يكمل الرجل حتى يستوى فى قلبه أربعة أشياء : فى المنع ، والعطا ، والعز ، والذل اهـ .

فإذا كان الفقير يتضعضع عند الجلال ، وينهزم عند حملة الأبطال ، فاعلم أنه ضعيف الحال ، متطفل على مقامات الرجال .

قال فى التنوير : وقد ابتلى الله بحكمته ووجود منته الفقراء الذين ليسوا بصادقين ، بإظهار ما كتموا من الرغبة ، وأسرّوا من الشهوة ، فابتذلوا أنفسهم لأبناء الدنيا مباسطين لهم ، ملائمين لهم ، موافقين لهم على ملذوذاتهم ، مدفوعين على أبوابهم ، فترى الواحد منهم يتزين كما تتزين العروس ، معتنون بإصلاح ظواهرهم ، غافلون عن إصلاح سرائرهم ، ولقد وسمهم الحق بسمة كشف بها عوارهم وأظهر أخبارهم ، فبعد أن كانت نسبته أن لو صدق مع الله أن يقال فيه عبد الكبير ، فخرج من هذه النسبة لعدم صدقه فصار يقال له شيخ الأمير أولئك الكاذبون على الله ، الصادون العباد عن صحبة أولياء الله ، لأن ما يشهده العموم منهم يسحبونه على كل منتسب لهم ، صادق وغير صادق ، فهم

حجب أهل التحقيق ، وسحب شموس أهل التوفيق ، ضربوا طبولهم ، ونشروا أعلامهم ، ولبسوا دروعهم ، فإذا وقعت الحملة ولّوا على أعقابهم ناكصين ، ألسنتهم منطلقة بالدعوى وقلوبهم خاوية من التقوى ، ألم يسمعوا قوله تعالى :

(لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ)[١] .

أترى إذا سأل الصادقين عن صدقهم ، أيترك المدعين من غير سؤال ؟ ألم يسمعوا قوله سبحانه :

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبئُكُمْ بِمَا كُنْتُم تَعْملونَ)[٢] .

فهم فى الظاهر فى زى الصادقين ، وعملهم عمل المعرضين ، كما قال القائل :

أَمَّـا الخيَامُ فَـإنَّها كَخِيَامِهِمْ ... وَأَرَى نِسَاءَ الْحَىِّ غَيْرَ نسَائهاَ

لاَ وَالذِى حَجَّتْ قُرَيْشُ بَيْتَهُ ... مُسْتَقْبلِينَ الرُّكْنَ مِنْ بَطْحَائهاَ

مَا أَبْصَرَتْ عَيْنِى خِيامَ قَبِيلَةٍ ... إلاَّ بَكَيْتُ أَحِبَّتِى بِفِنَــائهَــا

هذا آخر الباب الخامس عشر .

وحاصلها : آداب المريد فى المدح والذم ، ومرجعها إلى خمسة :

الأول : ذم النفس عند مدحها بما ليس فيها . الثانى : استحياؤه من الله أن يمدح بوصف لا يشهده من نفسه . الثالث : أن يرجع إلى يقين ما عنده فيعوّل عليه ، ولا يغتر بظن ما عند الناس فيعتمد عليه . الرابع : أن يكثر من الحمد والشكر لمولاه ، حيث ستر عيوبه ، وأظهر توفيقه وهداه . الخامس : أن يكون معتدل الحال سليم القلب ، فلا يحزن عند الذم ولا يفرح عند المدح .

قال بعض العارفين : إذا قيل لك نعم الرجل أنت فكان أحب إليك من أن يقال لك بئس الرجل أنت : فأنت والله بئس الرجل اهـ .

وجاء رجل إلى شيخ شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه فجعل يمدحه فى وجهه ، فقال له : ياهذا لا تغرنى بقولك ، أنا أعرف نفسى حين أكون أفضل

---

(١) الأحزاب : ٨ . (٢) التوبة : ١٠٥ .

الوجود أو أقل الوجود . فالوقت الذى أكون فيه ذاكرًا لربى أنا أفضل الوجود ، والوقت الذى لا أذكر الله فيه أنا أقل الوجود أو كلام هذا معناه ، لكن هذا الأدب الخامس يختلف باختلاف الأحوال .

فالعباد يغلبون حب الذم على المدح ، والعارفون يغلبون حب المدح على الذم ، أو يعتدلون كما يعتدلون فى حال المنع والعطاء ، والقبض والبسط ، والذل والعز ، والفقر والغنى وغير ذلك من اختلاف الآثار ، وتنقلات الأطوار ، ومن جملة ذلك الخوف والرجاء بحيث إذا صدرت منهم طاعة لا يزيد رجاؤهم ، وإذا وقعت منهم زلة لا يعظم خوفهم ولا تنقص استقامتهم ، كما أشار إلى ذلك فى أول الباب السادس عشر بقوله رضى الله عنه :

الباب السادس عشر

الخوف والرجاء

[إذا وقع منك ذنب فلا يكن سببًا يؤيسك من حصول الاستقامة مع ربك ، فقد يكون ذلك آخر ذنب قدّر عليك] .

قلت : السائر الصديق ، أو الواصل إلى التحقيق ، كالراكب المغير ، جادًّا في المسير ، كاد من السرعة أن يطير ، فإذا وقعت منه كبوة أو سقطة ، أو صدرت منه عثرة أو هفوة ، استوى على جواده ، واستمر على إغارته في طلب مراده ، فإذا سقط وجعل يتمرغ في سقطته ، كان ذلك دليلا على فترته ، وعدم تحصيل طلبته ، فإذا وقع منك أيها الفقير ذنب فلا يكن سببًا في قطعك عن الله ، أو يؤيسك من الاستقامة مع الله فيتضاعف عليك وبال المعصية ، وتعظم في حقك المصيبة والبلية ، فقد يكون ذلك رحمة بك وتنبيهًا لك من سِنَتِك ، كحصول ملل وفترة ، فإذا سقطت نهضت ، وإذا قمت وقد جددت يكون ذلك آخر ذنب قدره الله عليك ، وتأمل ما وقع لكثير من الأكابر كانوا لصوصًا فصاروا خصوصًا ، كإبراهيم بن أدهم والفضيل وأبي يعزى وغيرهم ممن لا يحصى ، فليكن لك بهم أسوة في حسن الظن بالله . قال تعالى :

(قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله)[1] الآية . وقال تعالى : (وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ)[2] وقال تعالى : (لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ الله إِلَّا الْقَوْمُ الكافِرُونَ)[3] .

---

(١)الزمر : ٥٣ . (٢) الحجر : ٥٦ .

(٣) يوسف : ٨٧ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ » .

وقال عليه الصلاة والسلام :

« إِنَّ الله يُحِبُّ كُلَّ مُفْتَنٍ تَوَّاب » يَعْنى كَثِيرَ الذَّنْبِ كَثِيرَ التَّوبَةِ وقال تعالى : (إِنَّ الله يُحِبُّ التَّوابِينَ ويُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)[1] .

فهذه الآيات تقوى رجاء العباد وتوجب الاعتدال والسداد .

وقد بين أصل الرجاء والخوف ومنشأهما فى فقال :

[إذا أردت أن يتفتح لك باب الرجاء فاشهد ما منه إليك ، وإذا أردت أن يتفتح لك باب الخوف فاشهد ما منك إليه] .

قلت : إذا أردت أيها الإنسان أن يتقوى رجاؤك فى الكريم المنان ، فاشهد ما منه إليك من الإحسان ، واللطف والمبرة والامتنان ، فهل عوّد إلا حسنًا ؟ وهل أسدى إليك إلا مننًا ؟ عليك بسط مننه ، ولك هيأ جنته ، أنعم عليك فى هذه الدار بغاية الإنعام وما قنع لك بذلك حتى أعد لك دار السلام ، باقية مستمرة على الدوام ثم أتحفك بالنظر إلى وجهه الكريم ، تمامًا على سابق إحسانه القديم .

وإذا أردت أن ينفتح لك باب الحزن والخوف ، فاشهد ما منك إليه من الإساءة ، والتقصير فى العبادة ، أو من موافقة الشهوة والاسترسال مع الغفلة ، فإنك إن شهدت ذلك دام حزنك وقوى خوفك ، وربما كان سببًا فى سوء ظنك بربك : (فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا)[2] .

وفى الحديث : « لو لم تُذْنِبُوا لَذَهَبَ الله بِكُمْ وَجَاءَ بِقَوْمٍ آخَرِينَ يُذْنِبونَ فَيَسْتَغْفِرُون فيغفر لَهُمْ وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

فدل الحديث على أن شهود الكرم أفضل عند الله من شهود الانتقام .

---

(١) البقرة : ٢٢٢ .   (٢) النحل : ٩٤ .

وخصلتان ليس فوقهما شيء من الخير : حسن الظن بالله ، وحسن الظن بعباد الله .

وخصلتان ليس فوقهما شيء من الشر : سوء الظن بالله ، وسوء الظن بعباد الله ، كما فى الحديث .

وبقيت مرتبة ثالثة وهى الغيبة عن الرجاء ، والخوف بشهود ما من الله إلى الله ، وهو مقام أهل الشهود ، فلذلك اعتدل أمرهم فى جميع الأحوال ، نفعنا الله بذكرهم آمين .

ثم إن ثمرة الرجاء ونتيجته البسط ، وثمرة الخوف ونتيجته القبض ، فلذلك ذكره بعدهما فقال :

[ربما أفادك فى ليل القبض ما لم تستفده فى إشراق نهار البسط ، لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعًا] .

قلت : القبض والبسط حالتان يتعاقبان على الإنسان كتعاقب الليل والنهار ، فالليل محل السكون والقرار ، والنهار محل التحرك والانتشار ، القبض لاحظّ فيه للنفس ، والبسط تأخذ النفس حظها منه ، وما لاحظ فيه للناس أقرب للسلامة وأعظم للإفادة .

فالقبض كالليل ، والليل محل المناجاة والمصافاة ، وملاقاة الأحباب ورفع الحجاب فربما أفادك فى ليل القبض من انخناس النفس ، وذهاب الحس ، وموالاة الأنس ، ما لا تستفيده فى نهار البسط ، من تحصيل العلوم ، وتحقيق الفنون : ومجالسة الأخيار ، ومخالطة الأبرار ، فالقبض له فوائد ، والبسط له فوائد ، والعبد لا يدرى أيهما أقرب له نفعًا ، فتعين الوقوف مع ما يواجهه من جهة الحق ، فيتلقاه بالقبول والأدب ، وقد تقدم آداب كل واحد منها عند قوله : بسطك كى لا يتركك مع القبض إلخ . فلا تطلب البسط إن واجهك بالقبض ، ولا تطلب القبض إن واجهك بالبسط ، فقد تستفيد من أحدهما ما لا تستفيده من الآخر ، فلا تدرى أيهما أنفع ولا أيهما أضر ، ولذلك استدل بالآية التى نزلت فى ميراث الأب من الابن ، فالبسط كالأب لأنه ناشئ من شهود ما منه إليك ، وهو فعل الحق الذى صدر منه كل موجود وهو الأصل والقبض كابن لأنه ناشئ

من شهود ما منك إليه وهو الفرع ، إذ الفعل كله من القدرة .

وأما الحكمة فإنما هى تغطية ، وإذا كان العبد جاهلا بمنفعتها كجهله بالأنفع من الآباء والأبناء ، تعين متابعة الحق باتباع مراده وانتهاجه حاله ، من غير تحول ولا انتقال ، ولا تشوف إلى غير ما هو فيه من ذلك الحال ، بذلك يتنور قلبه ، ويتطهر سره ولبه ، فتنكشف عنه الحجب والأستار ، ويتهيأ لحمل الأنوار والأسرار ، كما أبان ذلك بقوله :

[مطالع الأنوار القلوب والأسرار] .

قلت : المطالع جمع مطلع ، وهو محل طلوع الشمس وغيرها ، والأنوار هنا : الواردات والكشوفات التى تكشف الحجب وترفع رداء الصون عن مظاهر الكون ، وقد تقدم أن النفس والعقل والقلب والروح والسر عند كثير من الصوفية شىء واحد ، وما هى إلا الروح تتطور بحسب التصفية والترقية ، فمادامت مشغولة بحظوظها وشهواتها فهى نفس ونورها مكسوف ، فإذا انزجرت وعقلت بعقال الشرع إلا أنها تميل إلى المعاصى والذنوب ، فتارة تعصى وتتوب ، وتارة تحن وتئوب ، سميت عقلا ونورها قليل ، لأنها محبوسة فى سجن الأكوان ، معقولة بالدليل والبرهان ، فإذا سكنت عن المعاصى إلا أنها تنقلب بين الغفلة واليقظة ، وبين الاهتمام بالطاعة والمعصية ، سميت قلبًا وهو أول مطالع الأنوار ، فتشرق عليه أنوار التوجه ، فلا تزال تترادف عليه الواردات وهى أنوار التوجه حتى يسكن إلى الله ويطمئن بذكر الله ، فحينئذ تسمى روحًا ، وهو أول مطالع أنوار المواجهة ، فبهذه الأنوار ينكشف الحجاب ، وينفتح الباب ، وتدخل فى حضرة الأحباب ، فإذا تصفت من غبش الحس وتطهرت من كدر الأغيار سميت سرًّا ، وهو أول مطالع أنوار المشاهدة ، فإذا تزكت من لوث الأنوار ، وهو الوقوف مع المقامات ، أو الالتفات إلى الكرامات ، سميت سر السر وهو أول مطالع أنوار المعاينة والمكالمة ، ثم لا حال ولا مقام : (يٰأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا)[1] .

وأما الترقى فى العلوم والمعارف فلا نهاية له على الأبد ، فالقلوب مطالع ،

---

(١) الأحزاب : ١٣ .

ومشارق أنوار التوجه والأسرار مطالع ، ومشارق أنوار المواجهة والمشاهدة والمعاينة والروح والسر قريب بعضها من بعض فى المرتبة ، فلذلك سكت الشيخ عن الأرواح لاندراجها فى الأسرار .

والحاصل : أن النفوس والعقول الظلمة غالبة عليها . لانهماكها فى الحس وفنائها فى الغلس والخنس ، فليستا مطلعًا لشيء من النور . لعدم توجهها إلى الكريم الغفور .

وأما القلب والروح والسر فهى مطالع الأنوار : أى محل طلوعها وإشراقها إلا أن القلب مطلع لأنوار التوجه ، والروح والسر مطلعان لأنوار المواجهة . وقد تقدم تفسيرهما عند قوله : اهتدى الراحلون إلخ وقد سوى الشيخ بينهما ، ومراده ما ذكرناه ، والله تعالى أعلم .

ثم بين ابتداء مطلع هذا النور وهو القلب ، ثم يشرق على الروح ، ثم على السر ، فقال :

[نور مستودع فى القلوب ، مدده النور الوارد من خزائن الغيوب] .

قلت : النور المستودع فى القلوب هو نور اليقين ، ويكون أولا ضعيفًا كنور النجوم وهو نور الإسلام ، ثم لا يزال يتقوى ويستمد من النور الوارد من خزائن الغيوب ، حتى يكون كنور القمر وهو نور الإيمان ، ثم لا يزال ينمو بالطاعة والذكر والصحبة حتى يكون كنور الشمس وهو نور الإحسان ، وخزائن الغيوب هى أنوار الصفات ، وأسرار الذات ، فمنها تستمد أنوار الإسلام وأنوار الإيمان ، ثم تشرق أنوار الإحسان فيتغطى وجود الأكوان .

قال فى التنوير : ولو انهتك حجاب الوهم لوقع العيان ، على فقد الأعيان ، ولأشرق نور الإيقان ، فغطى وجود الأكوان اهـ .

واعلم أن وجه اصطلاح الصوفية رضى الله عنهم فى ترتيب الإسلام أولا ، ثم الإيمان ، ثم الإحسان . أن العبد مادام مشغولا بالعبادة الظاهرة الحسية سمى ذلك المقام مقام الإسلام ، فإذا انتقل العمل للقلب ، وهو اشتغاله بتصفية القلب ، بالتخلية والتحلية وتحقيق الإخلاص سمى ذلك مقام الإيمان ، فإذا انتقل العمل للروح وللسر وهو الفكرة والنظرة سمى مقام الإحسان ، بخلاف الفقهاء فإنهم يقدمون الإيمان على الإسلام ، فيقولون لا يصح شيء دون

الإيمان ، ولا مشاحة فى الاصطلاح : (قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ)[1] .

قال بعض المحققين : اعلم أن لعالم الملك وهو عالم الشهادة أنوارًا ظاهرة ، ولعالم الملكوت وهو عالم الغيب أنوارًا باطنة ، وأشهر ما فى عالم الملك ثلاثة أنوار : نور الشمس ونور القمر ، ونور النجوم ، ويقابلها من عالم الملكوت : نور المعرفة ، ونور الفهم ، ونور العلم . فبطلوع نجم العلم فى ليل الجهل تبدو الآخرة والأمور الغيبية ، وبطلوع قمر الفهم فى أفق التوحيد يشاهد قرب الحق ، وبطلوع شمس المعرفة فى أفق التفريد يقوى اليقن ويلوح وجه المشاهدة وأول نور يلج فى الصدر نور الإسلام ، فإذا انشرح القلب به انقذف فيه نور الإيمان ، فإذا تقوى فيه صار شهودًا ا هـ المراد منه .

قلت : وبهذا النور وسع القلب معرفة الحق ، وهو الذى أشار إليه فى الحديث القدسى :

« لَنْ يَسَعَنِي أَرْضِى وَلَا سَمَائِى وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِى الْمُؤْمِنِ » .

فانظر هذا القلب الذى وسع الرب سبحانه ما أعظمه وأجله ، فتحبب يا أخى إلى أرباب هذه القلوب ، التى وسعت علام الغيوب ، حتى يوصلوك إلى ما وصلوا إليه من علم الغيوب ، وبالله التوفيق .

ثم ذكر ثمرة النور وهى الكشف عن حقائق الأشياء ، فقال :

[**نور يكشف لك به عن آثاره ، ونور يكشف لك به عن أوصافه**] .

قلت : أصل النور من حيث هو الكشف ، فالنور الحسى يكشف عن المحسوسات ، والنور المعنوى يكشف عن المفهومات .

أو تقول : نور الحس يكشف عن الأوانى ، والنور المعنوى يكشف عن المعانى ، ولا عبرة برؤية الأوانى خاوية عن المعانى : ثم إن النور المعنوى ينقسم على ثلاثة أقسام باعتبار القوة والضعف .

فنور الإسلام الذى هو كالنجوم يكشف لك الحق تعالى به عن وجود آثاره فتستدل بها عن صانعها .

---

(١) البقرة : ٦٠ .

ونور الإيمان الذى هو كالقمر يكشف لك به عن ثبوت أوصافه فلا يتحرك شيء أو يسكن ، إلا تراه بقدرة الله وإرادته وعلمه وحياته إلى آخر صفاته .

ونور الإحسان يكشف لك به عن حقيقة ذاته ، فلا ترى شيئًا إلا رأيت صانعه فيه بواسطة تجلياته : (اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ)[1] .

فنهاية كشف النور الأول الفناء فى الأفعال ، ونهاية كشف النور الثانى الفناء فى الصفات ، ونهاية كشف النور الثالث التمكين فى الفناء فى الذات ، واستغنى الشيخ عن النور الثالث بذكر النور الثانى ، لأن الفناء فى الصفات قريب من الفناء فى الذات ، لأن الصفات لا تفارق الموصوف ، فمن كان يرى سمعه بالله ، وبصره بالله ، وحركته بالله ، يرى وجوده بالله ، ولذلك استغنى بعضهم بالفناء فى الذات عن الفناء فى الصفات لتقاربها ، فمهما تحقق أحدهما تحقق الآخر ، والله تعالى أعلم .

ويحتمل أن يريد بقوله : نور يكشف لك به عن آثاره النور الحسى المدرك بالبصر الحسى ، ونور يكشف لك به عن أوصاف نور البصيرة المعنوى ، وعليه اقتصر الشيخ ابن عباد رضى الله عنه ، لكن نور البصر الحسى لا يستقل بإدراك المؤثر فى الأثر ما لم تمده الأنوار الباطنية العقلية ، فالمدار إنما هو على الأنوار الباطنية . وأما الحسية فمدركة لكل أحد حتى البهائم فلا خصوصية لها ، وبالله التوفيق .

ثم المطلوب من العبد هو الترقى من نور شهود الأثر إلى نور الصفات ، ثم إلى نور شهود الذات ، وقد تقف بعض القلوب مع النور الأول فتحجب عن الثانى ، ومع الثانى فتحجب عن الثالث ، كما أبان ذلك بقوله :

[ربما وقفت القلوب مع الأنوار ، كما حجبت النفوس بكثائف الأغيار] .

قلت : قد تقف بعض القلوب مع أنوار المقامات ، دون الوصول إلى الغايات ، فتحجب عن الوصول كما حجبت النفوس بكثائف المحسوسات ،

---

(١) النور : ٣٥ .

عن إدراك لطائف المعانى والمفهومات ، وذلك إما لعدم شيخ التربية ، أو لضعف الهمة عن الترقية .

فقد ينكشف لبعض القلوب عن سر توحيد الأفعال ، فتفنى فى العمل وتذوق حلاوته ، فتقف معه وهواتف الحقيقة تناديها الذى تطلبه أمامك .

وقد ينكشف لها سر توحيد الصفات ، وتلوح لها أنوار المقامات ، كتحقيق الزهد والورع وصحة التوكل ، والرضا والتسليم ، وحلاوة المحبة والاشتياق ، إلى غير ذلك فتقنع بذلك وتقف هنالك ، والمطلوب هو الكشف عن سر توحيد الذات وأنوار الصفات : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[1] .

فالنور عبارة عن الحلاوة والقوة التى يجدها المريد فى باطنه ، من مزيد إيمان وقوة إيقان ، فحلاوة الخدمة لأهل الفناء فى الأفعال ، وحلاوة الذكر الحسى اللسانى أو القلبى لأهل الفناء فى الصفات مع الحجاب ، وحلاوة الفكرة والنظرة لأهل الفناء فى الذات .

وإن شئت قلت : ربما وقفت القلوب مع أنوار الأحوال ، فتحجب عن مقامات الرجال ، أو مع أنوار المقامات فتحجب عن معركة الذات ، ولذلك قال الشيخ ابن مشيش لتلميذه أبى الحسن : أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم ، كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار ، خاف رضى الله عنه أن يحجب بحلاوة الرضا والتسليم عن شهود الذات .

واعلم أن الوقوف مع الأحوال والمقامات إنما هو من عدم الوصول إلى الشيخ . وأما من صحب الشيخ وأكثر الوصول إليه ، فلابد أن يرحله إلى المقصود ، إلا أن يرى همته ضعيفة لا تطيق أنوار الشهود فيتركه على ما هو عليه حتى تنهض همته إلى شهود المعبود ، وشبه الشيخ رضى الله عنه حجب القلوب بالأنوار ، بحجب النفوس بالأغيار ، لاشتراكهما فى الحجب عن الله ، لكن حجب النفس بالأغيار أشد لأنها ظلمة ، والظلمة أشد حجابًا من النور ، فالقلوب نورانية حجبت بالنور ، والنفوس ظلمانية حجبت بالظلمة ، وكثائف الأغيار هى ما ظهر من بهجة الدنيا وزخرفها وغرورها وزهرتها ، وهو التى أشار

---

(١) النجم : ٤٢ .

إليها الحق تعالى بقوله : (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ)[1] إلخ الآية .

ويدخل فيها ما يلائمها من حب الجاه والرياسة ، وحب المدح والتعظيم ، وغير ذلك من شهواتها وعوائدها ، وهى التى حجبت جل الناس ، وساقتهم إلى الخيبة والإفلاس ، نسأل الله العصمة بمنه وكرمه .

ويدخل فى الأغيار العلوم العقلية واللسانية ، فالاشتغال بها والوقوف مع حلاوتها من أشد الحجب عن معرفة الله ، أعنى المعرفة الخاصة .

ويدخل فيها أيضًا الكرامات الحسية ، كالطيران فى الهواء والمشى على الماء ؛ فالوقوف مع ذلك من أشد الحجب أيضًا ، ولذلك قال بعضهم : أشد حجابًا عن الله العلماء ثم العباد ثم الزهاد ، فسبحان من حجب العلماء بعلمهم عن معلومهم ، والعبّاد بعبادتهم عن معبودهم ، والصالحين بصلاحهم عن مصلحِهم ، والله من وراء ذلك كله ، وفى ذلك يقول الششترى رحمه الله :

تَقَيَّدْتَ بِالأَوْهَامِ لَمَّا تَدَاخَلَتْ
عَلَيْكَ وَنُورُ الْعَقْلِ أَوْرَثَكَ السِّجْنَا
وَهِمْتَ بِأَنْوَارٍ فَهِمْنَا أُصُولَهَا
وَمَنْبَعَهَا مِنْ أَيْنَ كَانَ فَمَا هِمْنَا
وَقَدْ تَحْجُبُ الأَنْوَارُ لِلْعَبْدِ مِثْلَ مَا
تُبَعِّدُ مِنْ إِظْلَامِ نَفْسٍ حَوَتْ ضِغْنَا

وحكمة وجود هذه الأنوار الحسية والأغيار الظلمانية تغطية وستر لأنوار السرائر الباطنية ، كما أبان ذلك بقوله :

[ستر أنوار السرائر بكثائف الظواهر ، إجلالا لها أن تبتذل بوجود الإظهار ، وأن ينادى عليها بلسان الاشتهار] .

قلت : أنوار السرائر هى العلوم اللدنية والمعارف الربانية ، ويجمعها علم الربوبية الذى يجب كتمه عن غير أهله ، ومن أباحه أبيح دمه ، وهو الذى قتل

---

(١) آل عمران : ١٤ .

بسببه الحلاج ، وكثائف الظواهر هى البشرية الظاهرة .

أو تقول : أنوار السرائر هى الحرية الباطنية ، وكثائف الظواهر هى العبودية الظاهرية .

أو تقول : أنوار السرائر هى علم القدرة الباطنية ، وكثائف الظواهر هى علم الحكمة الظاهرة ، فأنوار السرائر معان لطيفة رقيقة سترها الله تعالى بالكثائف الظاهرة ، ولذلك وقع والإنكار على أهلها قديمًا وحديثًا حتى قال الكفار : (مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ)[1] وَقالوا : (ما هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)[2] .

ووقوع الإنكار على أولياء الله سنة ماضية ، وحكمة ذلك إجلال وتعظيم لها أن تبتذل وتظهر بوجود الإظهار ، وأن ينادى عليها بلسان الاشتهار ، فلا يبقى لها سر ولا عز ، ولهذا طلب الأولياء بالخمول واستعمال الخراب والتلبيس ، قال الششترى رضى الله عنه :

إِذَا رَأَيْتَ الْـوُجـوْدْ قَـدْ لَاحَ فِي ذَاتِـكْ
هَوْدِسْ وَلَازِمِ الْجُحُو دَ ذاتَـكْ وَصِفَـاتَــكْ
وَاضْرِبْ بِتُرْسِـكَ الْـ ـعُقُودَ وَأَلْقِ عَصَاتَـكْ

والتهودس : التحمق ، والترس : ما يستر به الإنسان مواقع النبل ؛ والمراد بالعقود العلائق والشواغل : أى اضرب بسيف عزمك علائقك وعوائقك ، وإلقاء العصا كناية عن طرح ما يستند إليه أو يعتمد عليه من أصحاب أو أحباب ، أو أسباب أو حول أو قوة ، أو غير ذلك مما يقع الركون إليه . ويحتمل أن يريد بأنوار السرائر معانى الصفات السارية فى الذات ، وبكثائف الظواهر المحسوسات الظاهرة ؛ فلا ظهور للصفات إلا بالذوات الحسية ، ولا قيام للذوات إلا بالصفات ، فستر الله سبحانه صفاته الأزلية اللطيفة ، بظهور الذوات البشرية الكثيفة ، صونًا لسر الربوبية أن يبتذل بالإظهار أو ينادى عليه بلسان الاشتهار .

---

(١) الفرقان : ٧ . (٢) المؤمنون : ٢٤ .

والحاصل : أن الأشياء كلها قائمة ، بين ذات وصفات ، بين حس ومعنى ، بين قدرة وحكمة ، فستر الحق سبحانه معانى أسرار الذات اللطيفة ، بظهور الذوات الكثيفة ، وستر المعنى اللطيف بالحس الكثيف ، وستر القدرة بالحكمة ، والكل من الله ، وإلى الله ، ولا موجود سواه ، وهذه الكثائف الظاهرة هى أردية وقمص للمعانى اللطيفة .

أو تقول : هى رداء الصون الذى نشر على الكون ، فإذا انهتك الرداء أو قطع بقى المعنى سالمًا ؛ فالتصرفات القهرية إنما تجر الأردية والستور ، دون المعانى والنور ، فالحق منزه ومقدس أن يلحقه ما يلحق العبيد ، فلتكف عن طلب المزيد ، والعجز عن الإدراك من وصف العبيد ، وقد مثلوا أيضًا كمون المعانى اللطيفة ، فى الأشباح الكثيفة ، بالحبوب اليابسة فى الأغصان الرطبة ، فهى كامنة مستترة ، فإذا نزل المطر اخضرت الأشجار ، وأخرجت الثمار ، التى كانت كامنة فيها ، وإلى هذا المعنى أشار ابن البناء فى مباحثه الأصلية حيث قال :

وَهْيَ مِنَ النُّفوسِ فى كُمُونِ   كَمَا يَكُونُ الْحَبُّ فى الْغُصُونِ
حَتَّى إِذَا أَرْعَدَتِ الرُّعُودْ   وَانْسَكَبَ المَاءَ وَلَانَ الْعُودْ
وَجَالَ فى أَغْصَانِهَا الرِّيَاحْ   فَعِنْدَهَا يُرْتَقَبُ اللِّقَاحْ

هذا آخر الباب السادس عشر .

وحاصلها : آداب السائر فى حال سيره ، بحيث لا يقف مع معصية ، ولا يركن إلى طاعة ، ولا يغلب عليه خوف ولا رجاء ، ولا قبض ولا بسط ، بل يبرز من الغيب فيتلقاه بالمعرفة والرحب ، فإذا فعل ذلك أشرقت عليه الأنوار فتخرجه من رق الآثار حتى تفضى به إلى شهود الملك القهار ، لكن لابد للحسناء من نقاب ، وللشمس من سحاب ، ولليواقيت من صوان ، فخفيت الأنوار بكثائف الأغيار ، إجلالا لها أن تبتذل بوجود الإظهار ؛ وأن ينادى عليها بلسان الاشتهار ، فمن أجل ذلك أخفى أولياءه فى خلقه ، فلا يطلع عليهم إلا من أراد أن يخصه بما خصهم به من سره ، كما أبان ذلك فى أول الباب السابع عشر بقوله رضى الله عنه .

الباب السابع عشر

دليل الولاية

[سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصلهم إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه] .

قلت : الدليل هو الموصل للمطلوب ، فإذا صار الحق تعالى بك إلى ولىّ عارف به ودلك عليه ، فقد سار بك إلى معرفته ودلك عليه ، فمهما دلك على وليه ، وأطلعك على سره ، فقد دلك عليه قطعًا ، ووصلك إلى حضرته سريعًا ، فلم يجعل الحق سبحانه الدلالة على أوليائه ، والوصول إليهم إلا من جهة الدلالة عليه ، ولم يوصل أحدًا إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه ؛ فلأجل هذه الملازمة وعدم الانفكاك تعجب الشيخ من ذلك .

وقال شيخنا رضى الله عنه فى قول المؤلف رضى الله عنه : وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به قال : وصولك إليه وصولك إلى عارف به ، يعنى مهما وصلك إلى عارف به وأطلعك عليه ، فقد وصلك إليه ، ومهما حجبك عن العارفين به فقد حجبك عنه ، فلا طريق إلى معرفة الله إلا من طريق معرفتهم ، ولا دليل على الله ؛ أعنى على معرفته الخاصة العيانية إلا من حيث الدليل عليهم ، وكما حجب الحق سبحانه ذاته المقدسة بعزته وقهريته ، كذلك حجب أولياءه بما أظهر عليهم من أوصاف البشرية ، فلا يعرفهم إلا من سبقت له العناية الربانية ، إذ لا يعرف الخواص إلا الخواص .

قال فى لطائف المنن : أهل الله من خاصة عباده هم عرائس الوجود ، والعرائس محجوبون عن المجرمين ، فهم أهل كهف الإيواء ، فقليل من يعرفهم .

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : معرفة الولى أصعب من

معرفة الله ، فإن الله معروف بكماله وجماله . ومتى تعرف مخلوقًا مثلك يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب ؟

ثم قال : وإذا أراد أن يعرفك بولىّ من أوليائه ، طوى عنك شهود بشريته ، وأشهدك وجود خصوصيته اهـ .

وأيضًا فإن الولى لا يعرف بالصورة الظاهرة ، وإنما يعرف بالمعانى الباطنة ، لأن الله لا يعبأ بالصور : « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِى طِمْرَيْنِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ » فى قسمه .

فمن أراد معرفته بالصورة فلا يعرفه ، لأنه لا يرى إلا بشرًا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، فالعين لا ترى إلا الأجسام الكثيفة التى يطرأ عليها ما يطرأ على أهل الحجاب ، ولم يدرك ما انطوت عليه الصورة من المعانى اللطيفة ، والأسرار المنيفة .

فمن أراد الله سعادته رزقه الاعتقاد والتصديق أولا ، ثم الهداية والتوفيق ثانيًا ، فالتصديق بأسرار الولاية أول المعرفة ، ولهذا قال الشيخ أبو الحسن : التصديق بطريقتنا هذه ولاية .

وقال بعضهم : لله رجال لايعرفهم إلا الخاصة ، ولله رجال يعرفهم الخاصة والعامة ، ولله رجال لا يعرفهم لا الخاصة ولا العامة ، ولله رجال أظهرهم فى البداية وسترهم فى النهاية ، ولله رجال سترهم فى البداية وأظهرهم فى النهاية ، ولله رجال لا يعرفهم سواه ولا يطلع على ما بينه وبينهم إلا الحفظة الكرام ، الذين وكلوا بحفظ السرائر ، ولله رجال اختص الله بمعرفتهم لا يظهر حقيقة ما بينه وبينهم إلا الحفظة فمن سواهم حتى يلقونه ، فهم شهداء الملكوت الأعلى ، وهم المقربون ، وهم الذين يتولى الله قبض أرواحهم بيده ، وهم الذين طابت أجسامهم من طيب أرواحهم ، فلايعدو عليها الثرى حتى يبعثوا مشرقين بأنوار البقاء المجعول فيهم ببقاء الأبد مع الباقى الأحد ، وهم المخفقون تحت حجاب الأنس المغموسون فى بحار المحبة والقدس ، ليس لهم مع غيره قرار ، ولا عن أنفسهم إخبار تولى الله شأنهم : (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ

آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ)[1] اهـ .

قال الشطيبى : وهذه الأسرار التى انطوت عليها أسرار الأولياء واحتجبت عن العامة هى أسرار الملكوت الغيبية التى أشار إليها بقوله :

[ربما أطلعك على غيب ملكوته . وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد] .

قلت : الملكوت مبالغة فى الملك ، هذا باعتبار اللغة . وأما باعتبار اصطلاح الصوفية فالعوالم ثلاثة : ملك وملكوت وجبروت ؛ فالملك ما يدرك بالحس والوهم ، والملكوت ما يدرك بالعلم والفهم ، والجبروت ما يدرك بالبصيرة والمعرفة ، وهذه العوالم محلها واحد وهو الوجود الأصلى والفرعى ، وإنما تختلف التسمية باختلاف النظرة ، وتختلف النظرة باختلاف الترقى فى المعرفة ، فالوجود عند المحققين من العارفين : واحد قسم لطيف ، غيب لم يدخل عالم التكوين ، وقسم كثيف دخل عالم التكوين . فالأول يسمى عالم الغيب والثانى عالم الشهادة ، وما كان خفيًا فى عالم الغيب ظهر فى عالم الشهادة ، فمن نظر إلى حسن الأشياء الظاهر سماه ملكا ، ويسمى أيضًا عالم الحكمة وعالم الأشباح ، ومن نظر إلى أسرار المعانى القائمة بالأوانى وهى أسرار الذات القائمة بأنوار الصفات سماه ملكوتًا ، ومن نظر إلى الأسرار الأزلية التى كانت حال الكنزية التى لم تدخل عالم التكوين سماه جبروتًا .

أو تقول : ومن نظر إلى الكفيف الذى دخل التكوين ورآه مشتغلا بنفسه قائمًا بقدرة الله سمى فى حقه ملكًا ، وهو لأهل الحجاب من أهل الفرق . ومن رآه نورًا فائضًا من النور اللطيف متصلا به إلا أنه تكثف بالقدرة وتستر بالحكمة سماه ملكوتًا ، وسمى اللطيف الباقى على أصله الذى لم يدخل عالم التكوين ، الذى هو أول كل شىء ، وآخر كل شىء ، ومحيطًا بكل شىء جبروتًا ، فإن ضم الفرع إلى أصله والكثيف إلى اللطيف سمى الجميع جبروتًا ، وهذه المعانى لا يفهمها إلا أهل الأذواق بصحبة أهل الأذواق ، وحسب من لم يبلغ لهذا المقام التسليم وإلا وقع فى الإنكار على أولياء الله ما لم يحط به علمًا .

---

(١) المائدة : ٥٦ .

ولنرجع إلى كلام الشيخ رضى الله عنه فنقول : ربما كشف الله عنك الحجاب ، وترقيت إلى الدخول مع الأحباب ، فأخرجك من سجن رؤية الأكوان إلى شهود المكون ، ومن عالم الأشباح إلى عالم الأرواح ، فأطلعك على غيب ملكوته ، فأبصرت الكون كله نورًا فائضًا من بحر الجبروت ، فألحقته بأصله ، وفنيت عن شهود الملك الذى هو عالم الفرق بشهود الملكوت ، الذى هو عالم الجمع الذى قال فيه ابن البناء :

مَهْما تَعَدَّيْتَ عَنِ الأجْسامِ أَبْصرْتَ نُورَ الْحَقِّ ذَا ابْتِسَامِ

وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد رحمة بك ، لأنك قد تحجب بذلك عن شهود الملكوت ، فلا عبرة عند المحققين بمكاشفة أسرار العباد ، فقد تكون عقوبة فى حق صاحبها كما يأتى ، وقد يكون ذلك لمن لا استقامة له أصلا كالكهان والسحرة وغيرهم .

والغالب أن أهل شهود الملكوت يحجبون عن مكاشفة أسرار العباد ، لاشتغالهم بما هو أعظم وأحظى عند الله ، وإنما تكون هذه المكاشفات عند العباد الزهاد وأهل الرياضات والمجاهدات ، ولا تنكر أن تكون عند العارفين ، فقد تجتمع لهم المكاشفة والكشف ، أى مكاشفة أسرار العباد ، وكشف الحجاب عن الفؤاد ، إلا أن الغالب هو استغراق الروح فى شهود نور الملكوت ، دون الاستشراف إلى أسرار العباد، التى هى من عالم الملك .

وقد كان الشيخ أبو يَعزَى رضى الله عنه يطلع على سرائر الناس ويفضحهم ، فكتب إليه شيخه أبو شعيب أيوب المعروف بالسارية من أزمور يحذره من ذلك ، وينهاه عن هتك أستار المسلمين . فكتب له الشيخ أبو يعزى يجيبه : ليس هذا من قدرة البشر أن يسع أحد معرفة أسرار العباد وإخراج عيوبهم من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، وإنما هو شىء يلقى إلىّ ويقال لى قل واسمع الخطاب ، أنت آية من آيات الله ، والمراد منك أن يتوب الخلق على يديك ، فتأخذنى غلبة ، وتستولى علىّ ملكة لاأقدر معها عن الكف عن القول اهـ .

وكان الشيخ أبو عبد الله التاودى يقول : ما قطعه الشيخ أبو يعزى فى ست

عشرة سنة قطعته أنا فى أربعين يومًا ولم يشم لطريقنا هذه غبارًا ، والله تعالى أعلم .

وكلهم أولياء الله نفعنا الله بذكرهم ، وليس قصدنا تنقيصَ أحد منهم ، وإنما مرادنا أن طريق المكاشفة ليس هى النهاية ، بل قال بعضهم هى البداية ، وبالله التوفيق .

وقد تكون وبالا فى حق المريد كما أبان ذلك بقوله :

[من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلٰهية ، كان اطلاعه فتنة عليه وسببًا لجر الوبال إليه] .

قلت : الاطلاع على أسرار العباد قبل التمكين فى الشهود ، والتخلق بأخلاق الملك المعبود ، فتنة عظيمة وبلية ومصيبة ، وذلك لأنه قبل التمكين من المعرفة قد يشتغل بذلك قلبه ويتشوش خاطره ولبّه ، فيفتّره عن الشهود ، ويفتنه عن الرسوخ فى معرفة الملك الودود .

وأيضًا مادامت النفس حية ولم يقع الفناء عنها ؛ قد يعتقد بذلك المزية على الناس فيدخله الكبر والعجب وهما أصل المعاصى ، فكان اطلاعه حينئذ على أسرار العباد سببًا فى جر هذا الوبال ، أى العقوبة إليه ، وهو التكبر على الناس واعتقاد المزية عليهم ، وهو سبب البعد عن الله ، بخلاف ما إذا تمكن فى معرفة الحق وتخلق بأخلاقه ، وتحقق بمعانى صفاته وأسمائه ، فإنه يكون على خلق الرحمن ، فإذا اطلع على معاصى العباد ومساويهم رحمهم وسترهم وحلم عليهم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

« الْخَلْقُ عِيَالُ اللهِ ، وَأَقْرَبُكُمْ إِلَى اللهِ أَرْحَمُكُمْ بِعِيَالِهِ » .

وقال ﷺ : « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمٰنُ ، ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ » .

وفى الإشارات عن الله سبحانه : عبدى إن استخلفتك شققت لك من الرحمانية شقًا ، فكنت أرحم من المرء بنفسه .

وروى أن إبراهيم عليه السلام حدّث نفسه أنه أرحم الخلق ، فرفعه الله حتى

أشرف على أهل الأرض فأبصر أعمالهم وما يفعلون ، فقال : يارب دمر عليهم ، فقال له الله تعالى : أنا أرحم بعبادى منك يا إبراهيم ، فلعلهم يتوبون ويرجعون .

وفى بعض التفاسير أنه كان يعرض كل ليلة إلى السماء وهو قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيم مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ والْأَرْضِ ﴾[1] .

فعرج به ذات ليلة فاطلع على مذنب على فاحشة فقال : اللهم أهلكه ، يأكل رزقك ويمشى على أرضك ويخالف أمرك ، فأهلكه الله تعالى ، فاطلع على آخر فقال اللهم أهلكه ، فنودى كف عن عبادى رويدًا رويدًا فإنى طالما رأيتهم عاصين .

وفى رواية أخرى : فأوحى الله إليه يا إبراهيم أين رحمتك للخلق ؟ أنا أرحم بعبادى منك ، إما يتوبون فأتوب عليهم ، وإما أن أخرج من أصلابهم من يسبحنى ويقدسنى ، وإما أن يبعثوا فى مشيئتى فأعفو وأعاقب ، يا إبراهيم كفر ذنبك فى دعوتك بدم قربان فنحر إبلا ، فنودى فى الليلة الثانية كفر ذنبك بدم فذبح بقرًا ، فقيل له فى الثالثة فذبح غنمًا ، فقيل له فى الرابعة كذلك فقرّب من الأنعام إلى الله ما بقى عنده ، فقيل له فى الخامسة فقال : يارب لم يبق لى شىء ، فقيل له إنما تكفر ذنبك بذبح ولدك ، لأنك دعوت على العصاة فهلكوا ، فلما شمر لذلك وأخذ السكين بيده قال : اللهم هذا ولدى وثمرة فؤادى وأحب الناس إلىّ ، فسمع هاتفًا يقول : أما تذكر الليلة التى سألت إهلاك عبادى ؟ أو ما تعلم أنى رحيم بعبادى كما أنت شفيق بولدك ؟ فإذا سألتنى إهلاك عبادى سألتك ذبح ولدك ، واحدًا بواحد ، والبادى أظلم اهـ .

---

(١) الأنعام : ٧٥ .

حظ النفس فى المعصية

ولما كان الاطلاع على أسرار العباد قد يدرك بكثرة الطاعات والاجتهاد ، فقد تقصد النفس بالطاعة هذا الحظ المدنى وهو مرض خفى ، نبه عليه الشيخ بقوله :

[حظ النفس فى المعصية ظاهر جلى ، وحظها فى الطاعة باطن خفى ، ومداواة ما خفى صعب علاجه] .

قلت : حظ النفس فى المعصية هو متعة البشرية الظاهرة ، كلذة الأكل والشرب والنكاح وسماع اللهو ، وغير ذلك مما هو من أذواق الحس التى هى محرمة ، وحظها فى الطاعة هو طلب الكرامات ، وخوارق العادات ، والاطلاع على المغيبات ، وكحب الخصوصية والمنزلة عند الناس ، ومداواة هذا المرض الخفى من مداواة الأول الجلىّ ، لأن مداواة المرض الحسى الخفى أصعب من مداواة الجلى ، فكذلك المعنوى الباطنى ، ما كان جليًّا متعلقًا بالنفس أصعب مما كان خفيًّا متعلقًا بالروح . فالأول يمكن دواؤه بالعزلة ، والفرار من مواطن الأشرار ، وبصحبة الأخيار ، وبكثرة الطاعة والأذكار ، بخلاف الثانى فلا تزيده الطاعة إلا كثرة وقوة إذ بها صارت تطلب حظها فلا يداويها من هذا إلا خوف مزعج أو شوق مقلق ، أو ولى عارف محقق ، يصحبه بالمحلة والتصديق .

قال بعضهم : من عسرت عليه نفسه فليسلمها إلى شيخ التربية . قال تعالى :

﴿ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ﴾ [1]

وإن عسرت عليكم أنفسكم فسترضع له نفسَه نفسٌ أخرى حتى يكمل أوان فطامها ، فإن لم يكن واحد من هذه مات وهو سقيم ، ولم يلق الله بقلب سليم .

فالواجب على العبد اتهام نفسه ومراقبة قلبه ، فإذا استحلت النفس شيئًا من

---

(١) الطلاق : ٦ .

الطاعات وألفته أخرجها إلى غيرها ولو كانت مفضولة فى ظاهر أمرها ، وسيأتى للشيخ : إذا البتس عليك امران انظر آثقلهما على النفس ، فإنه لا يثقل عليها إذا ما كان حقًّا .

قال أبو محمد المرتعش : حججت كذا وكذا حجة عن التجريد ، فبان لى أن جميع ذلك كان مشوبًا ، وذلك أن والدتى سألتنى يومًا أن أسقى لها جرة ماء فثقل ذلك علىّ فعلمت أن مطاوعة نفسى فى الحج كانت لحظّ وشوْب ، إذ لو كانت نفسى فانية لم يصعب عليها ما هو حق فى الشرع .

وقال الشيخ أحمد بن أرقم رضى الله عنه : حدثتنى نفسى بالخروج إلى الغزو ، فقلت سبحان الله إن الله تعالى يقول :

(إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)[1] .

وهذه تأمرنى بالخير ، لا يكون هذا أبدًا ، ولكنها استوحشت تريد لقاء الناس فتستروح إليهم ، ويتسامع الناس بها فيستقبلونها بالتعظيم ، فقلت لها : لا أسلك العمران ولا أنزل على معرفة فأجابت ، فأسأت ظنى بها وقلت : الله أصدق قولا ، فقلت لها : أقاتل العدو حاسرًا بالرأى من غير وقاية فتكونى أول قتيل ؟ فأجابت ، ثم عد أشياء كلها أجابت لها، فقلت : يارب نبهنى بها فإنى لها متهم ولقولك مصدق ، فألهمت كأنها تقول إنك تقتلنى كل يوم مرات بمخالفتك إياى ومنع شهواتى ولا يشعر بى أحد ، فإن قاتلت وقتلت كانت قتلة واحدة فنجوت منك ، ويتسامع الناس فيقولوا استشهد أحمد ، فيكون شرفًا وذكرًا فى الناس لى ، فقعدت ولم أخرج ذلك العام اهـ .

وقال الجنيد رضى الله عنه : ضاقت على نفسى ليلة حتى لم أطق الصبر ، فخرجت ذاهبًا على وجهى ، فانتهيت إلى رجل مطروح فى المقابر مغطى الرأس ، فلما أحس بى قال : أبو القاسم ؟ قلت : نعم ، قال : متى يصير داء النفس دواءها ؟ فقلت : إذا خالفت هواها صار دواؤها دواءها ؛ فقال لنفسه : اسمعى ، فقد أجبتك بهذا مرارًا وأنت تقولين حتى أسمع ذلك من الجنيد ، قال الجنيد فانصرفت وما عرفته اهـ .

---

(١)يوسف : ٥٣ .

ثم فسر الشيخ ذلك الدواء الذى يكون خفيًّا فى الطاعة ببعض جزئياته وهو أعظمها فقال :

[ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك] .

قلت : الرياء ، هو طلب المنزلة عند الناس وقصد ذلك بعمل صالح ، سواء كان ذلك العمل ظاهرًا للناس وهو الغالب أو خفيًّا عنهم ، فقد يكون الرياء فى العمل الخفى ، فيدخل الرياء عليك حيث لا ينظر إليك وهذا أصعب من الأول ، لأنه أخفى من دبيب النمل كما فى الحديث .

وكان بعض العارفين يقول : اجتهدت فى إزالة الرياء من قلبى بكل حيلة فما أزلته من جهة حتى نبت من أخرى من حيث لا أظنه .

وقال بعضهم : من أعظم الرياء من رأى العطاء والمنع ، والضرر والنفع من الخلق .

أقسام الرياء

وقال بعضهم : أقسام الرياء ثلاثة كلها علة فى الدين :

الأول : وهو أعظمها ، أن يقصد بعمله الخلق ولولاهم لم يعمل .

الثانى : أن يعمل للمدحة والثناء ولو لم يعلمه الناس .

الثالث : أن يعمل لله ويرجو على عمله الثواب ورفع العقاب ، وهذا النوع جيد من وجه معلول من وجه ، عند العارفين رياء ، وعند عامة المسلمين إخلاص ، وقد قيل فى قوله تعالى : (والْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)[1] .

هو السالم من الرياء ظاهرًا وباطنًا ، بحيث لا يريد عامله حظًّا دنيويًّا ولا أخرويًّا .

---

(١) فاطر : ١٠ .

علامة المرائى

وللمرائى علامات لا تخفى : منها نشاطه فى الجلوة وكسله فى الخلوة ، أو إتقان العمل حيث يراه الناس وتساهله حيث لا يراه إلا الله . ومنها التماسه بقلبه توقير الناس له وتعظيمه ومسارعتهم إلى قضاء حوائجه ، وإذا قصر أحد فى حقه الذى يستحقه عند نفسه استبعد ذلك واستنكره ، ويجد تفرقة بين إكرامه وإكرام غيره ، وإهانته وإهانة غيره من أقرانه ، حتى ربما يظهر بعض سخفاء العقول ذلك على ألسنتهم ، فيتوعدون من قصّر فى حقهم بمعاجلة الله لهم بالعقوبة ، وإن الله تعالى لا يدعهم حتى ينتصر لهم ويأخذ ثأرهم ، فإن وجد الفقير هذه الأمارات فى نفسه فليعلم أنه مراء بعمله وإن أخفاه عن أعين الناس .

وقد روى عن على كرم الله وجهه : « إن الله تعالى يقول للفقراء يوم القيامة : ألم تكونوا ترخص عليكم الأسعار ، ألم تكونوا تبادرون بالسلام ؟ ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج ؟ » .

وفى الحديث الآخر : « لَا أَجْرَ لَكُمْ قَدِ اسْتَوفَيْتُمْ أُجُورَكُمْ » .

وقال عبد الله بن المبارك : روى عن وهب بن منبه رضى الله عنه : أن رجلا من العباد قال لأصحابه : إنا إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان ، فنخاف أن يكون قد دخل علينا فى أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال فى أموالهم ، إن أحدنا إذا لقى أحب أن يعظم لمكان دينه ، وإن سأل حاجة أحب أن تعطى له لمكان دينه ، وإن اشترى شيئًا أحب أن يرخص عليه لمكان دينه ، فبلغ ذلك ملكهم ، فركب فى موكب من الناس فإذا السهل والجبل قد امتلأ من الناس ؛ فقال السائح : ما هذا ؟ قيل له : الملك قد أظلك ، فقال للغلام ائتنى بطعام فأتاه ببقل وزيت وقلوب الشجرة ، فأقبل يحشو شدقه ويأكل أكلا عنيفًا ، فقال الملك : أين صاحبكم ؟ قالوا : هذا ، قالوا له : كيف أنت ؟ قال : كالناس .

وفى حديث آخر : فقال الملك : ما عند هذا من خير فانصرف عنه ، فقال السائح : الحمد لله الذى صرفك عنى وأنت لى ذام ؛ ومن هذا النوع من الرياء خاف الكبار وعدوا أنفسهم من الأشرار ، كما روى الفضيل رضى الله عنه أنه قال : من أراد أن ينظر إلى مراءٍ فلينظر إلى هذا ؟

وسمع مالك بن دينار امرأة تقول له يامرائى ، فقال : يا هذه وجدت اسمى الذى أضله أهل البصرة ، إلى غير هذا مما روى عنهم فى هذا المعنى ، ولا يسلم من الرياء الجلى والخفى إلا العارفون الموحدون ، لأن الله تعالى طهرهم من دقائق الشرك ، وغيب عن نظرهم رؤية الخلق ، بما أشرق على قلوبهم من أنوار اليقين والمعرفة ، فلم يرجوا منهم حصول منفعة ، ولم يخافوا منهم وجود مضرة ، فأعمال هؤلاء خالصة وإن عملوها بين أظهر الناس ، ومن لم يحظ بهذا وشاهد الخلق وتوقع منهم حصول المنافع ودفع المضار فهو مراء بعمله ، وإن عبد الله تعالى فى قنة جبل بالنون : أى أعلاه ، قاله الشيخ ابن عباد رضى الله عنه إلخ .

ومنها : أى ومن علامة الرياء الخفية أيضًا ، استشراف العبد ، وتطلعه أن يعلم الناس بخصوصيته كما أشار إليه بقوله :

[استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك فى عبوديتك] .

قلت : إذا خصك الحق تعالى أيها الفقير بخصوصية من خصوصية خواصه ، كزهد أو ورع ، أو توكل ، أو رضًا ، أو تسليم ، أو محبة ، أو يقين فى القلب ، أو معرفة ، أو أظهر على يديك كرامة حسية أو معنوية ، أو استخرجت فكرتك حكمًا أو مواهب كسبية أو لدنية ، ثم استشرفت ، أى تطلعت وتمنيت أن يعلم الخلق بخصوصيتك ، بأن يطلعوا على تلك الخصوصية التى خصك الله بها ، فذلك دليل على وجود الرياء الخفى فى باطنك ، ودليل على عدم صدقك فى عبوديتك ، بل أنت كاذب فيها ، إذ لو كنت صادقًا فى عبوديتك ، لاكتفيت بعلم الله وقنعت بمراقبته إياك ، واستغنيت به عن رؤية غيره .

فالواجب على الفقير إذا خصه الله بخصوصية كتمها وجحدها وسترها إلا عن شيخه ، فإن أظهرها فهو على خطر ، فقد يكون تحدثًا ، وقد يكون

تبجحًا ، وفى الكتمان السلامة ، وقد تقدم قول الشيخ : من رأيته مجيبًا عن كل ما سئل ومعبرًا عن كل ما شهد ، وذاكرًا كل ما علم فاستدل على وجود جهله ، وفى هذا المعنى قال شيخ شيوخنا المجذوب رضى الله عنه :

احْفُــرْ لِسِـرِّكْ وَدُكَّ فى الأرْضِ سَبْعِينَ قَامَا
وَخَلِّ الخَلَائِقَ يَشْكُوا إلى يَــوْمِ القِيَـامَــا

وكان بعض إخواننا إذا سئل : ما أدركتم وما ذقتم فى هذا الطريق ؟ يقول : البرد والجوع ، فكان شيخ شيخنا يعجبه ذلك ويستحسنه لدلالته على صدق الإخلاص . ومازالت أشياخنا وأشياخهم يستعملون الخراب فى ظواهرهم صونًا لما فى بواطنهم ، ولأجل هذا فضل عمل السر على عمل العلانية بسبعين درجة ضعفًا كما فى الحديث .

وقال سيدنا عيسى عليه السلام : إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن لحيته ويمسح شفتيه ، فإذا خرج إلى الناس رأوا أنه لم يصم ، وإذا أعطى أحدًا فليعط بيمينه ويخفيها عن شماله ، وإذا صلى أحدكم فليسدل عليه ستر بابه فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق .

وقال الشيخ أبو عبد الله القرشى رضى الله عنه : كل من لم يقنع فى أفعاله وأقواله بسمع الله ونظره دخل عليه الرياء لا محالة .

وقال بعضهم : ما أخلص عبد قط إلا أحب أن يكون فى جب لا يعرف ، ولهذا كان إسقاط المنزلة شرطًا فى هذا الطريق ، فإن تحقق العبد بالمعرفة ومشاهدة الوحدانية ، جاز له الإخبار بالوحدانية بأعماله ، والإظهار لمحاسن أحواله بناء منه على نفى الغير وأداء الواجب من الشكر .

كان بعض السلف يصبح فيقول : صليت كذا وكذا وكذا ركعة وتلوت كذا وكذا سورة ، فيقال له : أما تخشى من الرياء ؟ فقول : ويحكم ، وهل رأيتم من يرائى بفعل غيره .

والحاصل : من فنى عن نفسه وتحقق بشهود ربه فلا كلام عليه ، وقد قالوا : من أحب الخفا فهو عبد الخفا ، ومن أحب الظهور فهو عبد الظهور ، ومن لم يرد غير ما أراد الله به فهو عبد الله حقًا .

ثم علمك الشيخ الدواء فى ترك الاستشراف إلى الخلق ، وهو الاكتفاء بنظر الحق فقال :

[غيب نظر الخلق إليك بنظر الله إليك ، وغيبْ عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك] .

قلت : الخلق فى التحقيق عدم والوجود إنما هو الله الواحد الأحد ، فوجود السوى كالهباء فى الهواء أو كظلال الأشخاص ، إن فتشته لم تجده شيئًا ، فغيب عنك أيها الفقير نظر الخلق إليك اكتفاء بنظر الحق إليك ، إذ لا نظر لسواه ، وغيب عن إقبالهم عليك بالتعظيم والتكريم ، بشهود إقبال الملك الكريم ، فغيب عن الوهم بثبوت العلم ، فإقبالك على الخلق إدبارك عن الحق ، وإدبارك عن الخلق إقبالك على الحق .ولا يجتمعان .

وفى الحديث عنه ﷺ فى وصيته لابن عباس :

« احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إذا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله . وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَت عَلَى أَنْ يَنفَعُوك بشَىْءٍ لَمْ يَنفَعُوكَ إِلَّا بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ ، جَفَّتِ الأَقْلَامُ وَطُوِيَت الصُّحُفُ » .

وقال الشيخ أبو الحسن : أيست من نفع نفسى لنفسى فكيف لا أيأس من نفع غيرى لها ، ورجوت الله لغيرى فكيف لا أرجوه لنفسى .

وقال فى لطائف المنن : اعلم أن مبنى الولى على الاكتفاء بالله ، والقناعة بعلمه ، والاعتناء بشهوده . قال الله سبحانه :

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)[1] وقال سبحانه : (أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)[2] وقال : (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى)[3] وقال : (أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ)[4] .

---

(١) الطلاق : ٣ .
(٢) الزمر : ٣٦ .
(٣) العلق : ١٤ .
(٤) فصلت : ٥٣ .

فسبيل أمرهم فى بدايتهم الفرار من الخلق ، والانفراد بالملك الحق ، وإخفاء الأعمال وكتم الأحوال ، تحقيقًا لفنائهم ، وتثبيتًا لزهدهم ، وعملا على سلامة قلوبهم حتى إذا تمكن اليقين ، وأيدوا بالرسوخ والتمكين ، وتحققوا بتحقيق الفناء ، وردوا إلى وجود البقاء ، فهناك إن شاء الحق أظهرهم هادين إليه عباده ، وإن شاء سترهم فاقتطعهم عن كل شىء إليه إلخ كلامه .

وقال سهل بن عبد الله : لا ينال العبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين : حتى يسقط الناس من عينه فلا يرى فى الدارين إلا هو وخالقه ، فإن أحدًا لا يقدر أن يضره ولا ينفعه . وتسقط نفسه عن قلبه فلا يبالى بأى حال يرونه ا هـ ولله در القائل :

فَلَيْتَكَ تَحْلُو وَالْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ
وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالأَنَامُ غِضَابُ

وَلَيْتَ الَّذِى بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ
وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ

وَلَيْتَ شَرَابِي مِنْ وِدَادِكَ صَافِيًا
وَشُرْبِى مِنْ مَاءِ المَعِينِ سَرَابُ

إِذَا صَحَّ مِنْكَ الْوُدُّ فَالْكُلُّ هَيِّنٌ
وَكُلُّ الَّذِى فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ

اعلم أن رضا الخلق غاية لا تدرك ، وانظر قضية لقمان مع ابنه وهى مشهورة ، يتبين لك أن رضا الخلق محال أو متعذر ، وأجهل الناس من طلب مالا يدرك .

وقال بعضهم : مالى وللناس ، كنت فى بطن أمى وحدى ، وخرجت إلى الدنيا وحدى ، ونموت وحدى ، وندخل قبرى وحدى ، ونسأل وحدى ، ونبعث من قبرى وحدى ، ونحاسب وحدى ، فإن دخلت الجنة دخلت وحدى ، وإن دخلت النار دخلت وحدى ، ففى هذه المواطن لا ينفعنى أحد ، فمالى وللناس اهـ بالمعنى .

وقيل : إن الولى الصادق لا قدْر له عند الخلق ، ولا قدر للخلق عنده ؛ فكلما عظم أمره عند الله خفى أمره عند الناس .

ثم إنه لا تتحقق الغيبة عن نظر الخلق بنظر الحق ، إلا بمعرفة الحق عند كل شيء ، وشهوده فى كل شيء كما أبان ذلك بقوله :

[من عرف الحق شهده فى كل شيء ، ومن فنى به غاب عن كل شيء ، ومن أحبه لم يؤثر عليه شيئًا] .

قلت : معرفة الحق هى شهود ربوبيته فى مظاهر عبوديته .

أو تقول : هى الغيبة عن الغيرية بشهود الأحدية .

أو تقول : هى الترقى من شهود عالم الأشباح إلى شهود عالم الأرواح ، فيكون جسمك مع الأشباح وروحك مع الأرواح . قال فى المباحث :

وَاسْتَشْعَرُوا شَيْئًا سِوَى الأَبْدَانِ يَدْعُونَهُ بِالْعَالَمِ الرُّوحَانِى
ثُمَّ أَقَامَ الْعَالَمُ المعقُولُ مَعَارِفَ تَلْغَزُ بِالْمَنْقُولْ

والفناء : هو أن تبدو لك العظمة ، فتنسيك كل شيء ، وتغيبك عن كل شيء ، سوى الواحد الذى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيء)[1] وليس معه شيء .

أو تقول : هو شهود حق بلا خلق ، كما أن البقاء هو شهود خلق بحق ، والمحبة أخذ الحق قلب من أحب من عباده ، فلا يكون له عن نفسه إخبار ، ولامع غير محبوبه قرار ، وقيل غير ذلك . فمن عرف الحق شهده فى كل شيء ولم ير معه شيئًا ، لنفوذ بصيرته من شهود عالم الأشباح إلى شهود عالم الأرواح ، ومن شهود عالم الملك إلى شهود فضاء الملكوت ، ومن فنى به وانجذب إلى حضرته غاب فى شهود نوره عن كل شيء ولم يثبت مع الله شيء ولم يثبت مع الله شيئًا .

---

(١) الشورى : ١١ .

العارف والفانى

والفرق بين الفانى والعارف أن العارف يثبت الأشياء بالله ، والفانى لا يثبت شيئًا سوى الله .

العارف يقرر القدرة والحكمة ، والفانى لا يرى إلا القدرة .

والعارف يرى الحق فى الخلق كقول بعضهم : ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله فيه . والفانى لا يرى إلا الحق ، يقول : ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله .

العارف فى مقام البقاء ، والفانى مجذوب فى مقام الفناء .

الفانى سائر والعارف متمكن واصل ، ومن أحب الله لم يُؤْثر عليه شيئًا من حظوظه وهوى نفسه ، ولو كان فيه حتف أنفه ، كما قال القائل :

قَالَتْ وَقَدْ سَأَلَتْ عَنْ حَال عَاشِقِهَا
بـاللهِ صِفْـهُ وَلَا تَنْقُصْ وَلا تَـزِدِ

فَقُلْتُ لَوْ كانَ رَهْنَ المَوْتِ مِنْ ظَمإٍ
وَقُلْتِ قِف عَنْ وُرُودِ المَاءِ لَمْ يَرِدِ

والكلام فى المحبة طويل ، ذكر الشيخ فى لطائف المنن منه جمل صالحة ، وكلام الشيخ رضى الله عنه من باب التدلى ، فالمعرفة أعلى المقامات وقبلها الفناء ، وقيل للفناء المحبة : أى أولها ، فأول ما يقذف الله فى قلب عبده الذى يريد أن يصطفيه لحضرته ويعرفه به محبته ، فلا يزال يلهج بذكره ، ويتعب جوارحه فى خدمته ، ويتعطش إلى معرفته ، فلم يزل يتقرب إليه بالنوافل حتى يحبه الحق ، فإذا أحبه أفناه عن نفسه ، وغيبه عن حسه فكان سمعه وبصره ويده وجملته ، ثم رده إليه وأبقاه به ، فعرفه فى كل شىء ، ورآه قائمًا بكل شىء ، ظاهرًا فى كل شىء ، والله تعالى أعلم ، ولهذا الذى ذكره الشيخ علامات تدل على تحقيق تلك المقامات ، فمن وجدها فى نفسه كانت دعواه لتلك المقامات أو بعضها صحيحة ، ومن لم يجدها فى نفسه كانت دعواه لها كاذبة وفضيحة ، فليعرف قدره ، ولا يتعدّ طوره ، وبالله التوفيق .

ولما كانت المعرفة تقتضى ظهور الحق فى كل شىء حتى تراه ظاهرًا فى كل شىء بين وجه احتجابه وخفائه فقال :

[إنما حجب الحق عنك شدة قربه منك ، وإنما احتجب لشدة ظهوره وخفى عن الأبصار لعظيم نوره] .

قلت : ذكر فى حكمة خفائه تعالى مع شدة ظهوره ثلاث حكم :

الحكمة الأولى : شدة القرب ، ولا شك أن شدة القرب توجب الخفاء كسواد العين من الإنسان ، فإن الإنسان لا يدرك سواد عينه لشدة قربه منه ، والله تعالى أقرب إليك من كل شىء .

قال تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُه وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد)[1] .

فشدة قربه منك موجب لاضمحلالك .

قال فى لطائف المنن : فعظيم القرب هو الذى غيب عنك شهود القرب .

قال الشيخ أبو الحسن : حقيقة القرب أن تغيب فى القرب عن القرب لعظيم القرب كمن يشم رائحة المسك فلا يزال يدنو ، وكلما دنا منها تزايد ريحها ، فلما دخل البيت الذى فيه المسك انقطعت رائحته عنه وأنشد بعض العارفين :

كَمْ ذَا تُمَوِّهُ بِالشِّعْبَيْنِ وَالْعَلَمِ ... وَالأَمْرُ أَوْضَحُ مِنْ نَارٍ عَلَى عَلَمِ
أَرَاكَ تَسْأَلُ عَنْ نَجْدٍ وَأَنْتَ بِهَا ... وَعَنْ تِهَامَةَ هٰذَا فِعْلُ مُتَّهَمِ

الحكمة الثانية : فى خفائه شدة ظهوره ، ولا شك أن شدة الظهور موجب للخفاء ، كما قال صاحب الهمزية :

* وَمِنْ شِدَّةِ الظُّهُورِ الْخَفَاءُ *

وقد مثلوا ذلك بقرص الشمس حين يعظم شعاعه ، ويتقوّى إشراقه ، فإن الأبصار الضعيفة لا تقوى على مشاهدته مع شدة ظهوره ، فصار شدة الظهور موجبًا للخفاء كما قال الشاعر :

---

(١) سورة ق : ١٦ .

وَمَا احْتَجَبَتْ إِلَّا بِرَفْعِ حِجَابِهَا وَمِنْ عَجَب أَنَّ الظُّهُور تَسَتُّرُ

فاحتجب عن الأبصار الضعيفة بلا حجاب .

الحكمة الثالثة : شدة نوره ، ولا شك أن شدة النور موجب لعدم الإدراك ، فإن البصر لا يقاوم النور الباهر .

وفى حديث مسلم فى قصة الإسراء :

« قُلْنَا يَارَسُولَ اللهِ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ ؟ قَالَ نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ ؟ » .

بلفظ الاستفهام : أى غلبنى النور كيف أراه .

وفى رواية : « رَأَيْتُ نُورًا » .

فيحمل على أنه أول مرة رأى نورًا ، ثم لم يطق مشاهدته بالبصر مع تحقيق شهوده بالبصيرة ، وانظر أيضًا البرق الخاطف فإن البصر لا يطيق رؤيته ، وأنشدوا :

بِالنُّورِ يَظْهَرُ مَاتَرَى مِنْ صُورَةٍ
وَبِهِ وَجُودُ الْكَائِنَاتِ بِلَا امْتِرَا
لَكِنَّهُ يَخْفَى لِفَرْطِ ظُهُورِهِ
حِسًّا وَيُدْرِكُهُ الْبَصِيرُ مِنَ الْوَرَى
فَإِذَا نَظَرْتَ بِعَيْنِ عَقْلِكَ لَمْ تَجِدْ
شَيْئًا سِوَاهُ عَلَى الذَّوَاتِ مُصَوَّرَا
وَإِذَا طَلَبْتَ حَقِيقَةً مِنْ غَيْرِهِ
فَبِذَيْلِ جَهْلِكَ لا تَزَالُ مُعَثَّرَا

وهذا النور الذى نتكلم فيه ليس هو حسيًّا ، وإنما هو ما يبدو من معان بالصفات والأسماء التى تخرج من ظلمة الجهل إلى معرفة أسمائه وصفاته ، قاله الشيخ زروق .

قلت : هو النور الأصلى الذى فاض من بحر الجبروت إلا أنه تستر بالحكمة والعزة القهرية .

سئل أبو القاسم النصراباذى عن قولهم :

وَيُظْهِرُ فى الهَوَى عِزَّ المَوالِى فَيَلْزَمُنِى لَـهُ ذُلُّ الْعَبِيـدِ

فقال : عز الموالى الستر ، لأنه لو انهتك الحجاب لتفطر الألباب .

وهذا آخر الباب السابع عشر .

وحاصلها ثلاثة أمور :

الأول : تلازم الدلالة على أولياء الله للدلالة على الله ، بحيث لا ينفك أحدهما عن الآخر فى الغالب .

الثانى : تفسير أسرار الولاية ، وهى الاطلاع على أسرار غيب الملكوت دون اشتراط الاطلاع على أسرار العباد ؛ لأن ذلك قد يكون فتنة فى حقه وسببًا فى عقوبته إذا لم يتمكن من معرفته مع ما فيه من حظ النفس . فربما تقصده بطاعتها فيكون رياء فى حقها ، وهو من الأمراض الباطنية التى يصعب علاجها كالاستشراف إلى اطلاع الناس على خصوصيته . ودواؤه الغيبة عنهم ، والاكتفاء بنظر الله عن نظر غيره .

الأمر الثالث : علامة وجود هذه الأسرار فى العارف ، وهى شهود الحق فى كل شىء ، وفناؤه عن كل شىء ، وإيثار محلته على كل شىء .

فإن قلت : كيف يشهده وهو غيب ؟ قلت : بل هو ظاهر فى كل شىء ، وإنما حجبه شدة قربه ، وشدة ظهوره ، وعظيم نوره ، وإذا علمت أنه قريب ، وأنه أقرب إليك من روحك وقلبك ، اكتفيت بنظره ، واستغنيت بعلمه عن طلبه ، فإن كان ولابد من الدعاء ، فليكن عبودية ومناجاة وتملقًا ، لا سببًا للعطاء ، كما أبان ذلك فى أول الباب الثامن عشر بقوله رضى الله عنه :

الباب الثامن عشر

أدب الطلب

[لا يكن طلبك سببًا إلى العطاء منه ، فيقل فهمك عنه ، وليكن طلبك لإظهار العبودية ، وقيامًا بحقوق الربوبية] .

قلت : قد تقدم فى أول الكتاب أن الطلب كله معلول عند ذوى الألباب ، فإن كان ولابد من الطلب ، فليكن إظهارًا للعبودية ، وقيامًا بحقوق الربوبية ، فلا يكن طلبك من الحق سببًا إلى العطاء منه ، فيقل فهمك عنه : لأن الفهم عن الله يقتضى الاكتفاء بعلمه والاستغناء بمعرفته ، فلا يحتاج إلى شىء ، ولا يتوقف على شىء ، فإذا فقد من وجدك فلا يكن محط نظره إلا ما يبرز من عنصر القدرة ، ولا يشتهى إلا ما يقضيه عليه مولاه .

قيل لبعضهم : ماذا تشتهى ؟ قال : ما يقضى الله .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : لا يكن حظك من الدعاء الفرح بقضاء حاجتك ومن مناجاة محبوبك ، فتكون من المحجوبين .

وقال بعضهم : فائدة الدعاء إظهار الفاقة بين يديه وإلا فالرب يفعل ما يشاء .

وقيل إن سيدنا موسى عليه السلام قال : يارب أطعمنى فإنى جائع ، فأوحى الله إليه قد علمت ذلك ، قال يارب أطعمنى ، قال له : حتى أريد ، وهذا مقام أهل النهايات . وأما أهل البدايات فيرخص لهم فى طلب الحاجات ، وفى كثرة الدعاء والتضرعات ، فالدعاء فى حقهم واجب أو مندوب ، وفيهم ورد الترغيب فى الدعاء والإلحاح فيه . قال تعالى : (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)[1] وقال : (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ)[2] .

---

(١) غافر : ٦٠ .　　(٢) النمل : ٦٢ .

وورد فى بعض الأخبار أن الله تعالى قال لسيدنا موسى عليه السلام : سلنى حتى ملح عجينك تشريعًا للضعفاء ، لأن الأنبياء عليهم السلام بعثوا معلمين للضعفاء والأقوياء .

وينبغى أن يتأدب فى الدعاء ، فلا يدعو بممنوع شرعًا ، ولا ممتنع عقلا ، ويكون بتلطف وانكسار ، وظهور فاقة واضطرار لا بانبساط وإدلال ، فإن ذلك مقام الرجل أهل المكانة والكمال ، ومن ذلك قول الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه فى حزبه الكبير : وليس من الكرم ألا تحسن إلا لمن أحسن إليك إلخ . وذكر فى قوت القلوب أن بنى إسرائيل قحطوا سبع سنين ، فخرج سيدنا موسى عليه السلام بسبعين ألفًا من بنى إسرائيل ليستسقى لهم ، فأوحى الله إليه : كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم ، وسرائرهم خبيثة ، فدعونى على غير يقين ، ويأمنون مكرى ؟ ارجع إليهم فإن عبدًا من عبادى يقال له برخ ، قل له يخرج حتى أستجيب له ، فسألهم عنه موسى فلم يعرفه أحد ، فبينما موسى عليه السلام يمشى فى طريق ، إذا بعبد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من السجود وقد عقد شملة على عاتقه ، فعرفه موسى عليه السلام بنور الله ، فسلم عليه وقال : ما اسمك ؟ قال برخ ، فقال له : منذ حين وأنا أطلبك ، اخرج فاستسق لنا ، فخرج فكان من خطابه لربه فى دعائه ومناجاته : ما هذا من فعالك ، وما هو من حكمك ، وما بذلك عُرِفت ، أنقصت عليك عيون مائك ؟ أم عاندت الرياح عن طاعتك ، أم نفد ما عندك ، أم اشتد غضبك على المذنبين ؟ ألست كنت غفارًا قبل خطأ الخطائين ؟ خلقت الرحمة وأمرت بالعطية ، فتكون لما تأمر من المخالفين ، أم ترينا أنك ممتنع ، أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة ؟ قال : فمازال حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر ، وأنبت الله العشب فى نصف يوم حتى بلغ الراكب ، قال : فخرج برخ فاستقبله موسى عليه السلام وقال له : ما هذا الخطاب الذى خاطبت به الحق ؟ فأوحى الله إليه دعه فإن دعاءه يضحكنى . فانظر هذه الحكاية كيف وقعت على بساط المباسطة التى لا يفهمها إلا أهل المكانة والتمكين ، وحسب من لم يبلغ مقامات الرجال الأدب والهيبة مع رب العالمين .

الاكتفاء بتدبير الحق

ثم بين وجه ما ذكره من كون الدعاء إنما يكون عبودية لا سببًا فى العطاء فقال :

[كيف يكون طلبك اللاحق سببًا فى عطائه السابق ، جلّ حكم الأزل أن يضاف إلى العلل] .

قلت : العطاء السابق هو ما تعلق به علمه القديم قبل أن تظهر تجليات الأكوان ، ولا شك أن الله سبحانه قدر فى الأزل ما كان وما يكون إلى أبد الأبد ، فقد قسم الأرزاق الحسية والمعنوية وقدر الآجال . قال تعالى :

(إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)[1] وقال تعالى : (وَكُلُّ شَىْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ)[2] وقال : (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً)[3] وقال : (وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِى كِتَابٍ)[4] وقال تعالى : (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا)[5] .

فإذا علمت أيها الإنسان أن القضاء والقدر قد سبق برزقك وأجلك ، وأنه قد سبقت قسمتك وجودك ، فماذا تطلب ؟ وإذا طلبت فكيف يكون طلبك اللاحق سببًا فى عطائه السابق ؟ إذ قد سبق منه العطاء قبل أن يكون منك الطلب ، جلّ ، أى عظم وتعالى حكم الأزل القديم أن يضاف إلى العلل والأسباب الحادثة ، إذ محال أن يتقدم الحادث على القديم لا وجودًا ولا حكمًا .

قال ذو النون المصرى رضى الله عنه : التوحيد أن يعلم أن قدرة الله فى الأشياء بلا علاج ، وصنعه لها بلا مزاج ، وعلة كل شىء صنعه ، ولا علة لصنعه ، وليس فى السموات العلى ولا فى الأرضين السفلى مدبِّر غير الله ، وكل ما يخطر ببالك فالله مخالف لذلك ، اهـ .

---

(١) القمر : ٤٩ . (٢) الرعد : ٨ . (٣) الأعراف : ٣٤
(٤) فاطر : ١١ . (٥) آل عمران : ١٤٥

قوله : وعلة كل شىء ، الضمير فى صنعه يعود على الحق تعالى ، أى وعلة كل شىء صنع الحق له ؛ يعنى أن سبب وجود الأشياء وظهورها هو صنع الحق لها . وصنع الحق لا علة له .

وقال بعضهم : ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، أى باعتبار العلم والمشيئة لا باعتبار القدرة ، فالمراد بما كان القدر والقضاء السابق ، فما كونته القدرة وأظهرته لا يمكن أن يكون أبدع منه من حيث تعلق العلم القديم ، فلا يمكن تخلفه ، وإن كان العقل يجوّز أن يخلق الله تعالى أبدع منه ، والقدرة صالحة ، ولكن لما سبق به العلم ونفذ به القضاء لم يكن أبدع منه .

أو تقول : ليس فى عالم الإمكان أبدع مما كان ، فما ظهر فى عالم الإمكان وهو عالم الشهادة إلا ما كان فى عالم الغيب من المعانى القديمة ، ولم يظهر أبدع منه ، ولن يظهر أبدًا ، فافهم فالكلام صحيح على هذا الوجه ، والله تعالى أعلم .

ومما يدلك على أن طلبك ليس سببًا فى عطائه لك وجود عنايته بك قبل ظهورك الذى أشار إليه بقوله :

[عنايته فيك لا لشىء منك ، وأين كنت حين واجهتك عنايته ، وقابلتك رعايته ؟ لم يكن فى أزله إخلاص أعمال ، ولا وجود أحوال ، بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال ، ووجود النوال] .

قلت : مما تواترت به الأخبار والنقول ووافق المنقول المعقول ، أن ما شاء الله يكون وما لم يشأ ربنا لم يكن ، ومشيئته تعالى قديمة لأنها عين إرادته ، وإرادته على وفق علمه ، وعلمه قديم ، فكل ما يبرز فى عالم الشهادة فإنما هو ما قدره الحق فى عالم الغيب : « جَفَّتِ الأَقْلَامُ وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ » .

قال تعالى : (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ وَلَا فِى أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا)[1] .

أى نظهرها ، فلا سعادة ولا شقاء إلا وقد سبق بهما القدر والقضاء ، السعيد من سعد فى بطن أمه والشقى من شقى فى بطن أمه ، وقد تقدم قوله :

---

(١) سورة الحديد : ٢٢ .

ما من نفس تبديه إلا وله قدر فيك يمضيه .

فإذا علمت ذلك أيها الإنسان اكتفيت بعلمه السابق ، عن طلبك اللاحق ، وبقى طلبك عبودية ، وأدباً مع الربوبية ، وإلا فعنايته فيك سابقة على وجودك لا لشيء منك تستحق به عنايته ومنته ، وأين كنت حين واجهتك عنايته فى أزله ، حين سبقت لك منه العناية وكتبك فى جملة أهل الرعاية والهداية ؟ ثم لما استنطقك يوم الميثاق أقررت بربوبيته ، وأين كنت حين قابلتك رعايته وحفظه ، وأنت فى ظلمة الأحشاء حين أجرى عليك رزقه من عرق الدم ، وحفظك فى ذلك المستودع حتى اشتدت أعضاؤك وقويت أركانك ؟ فأخرجك إلى رفقه ، وما يسر لك من رزقه ، لم يكن فى أزله حين واجهتك عنايته ، ولا فى مستودعك فى الرحم حين قابلتك رعايته ، إخلاص أعمال ولا وجود أحوال ، تستحق بهما وجود النوال ، بل لم يكن فى ذلك الوقت إلا محض الإفضال وعظيم النوال .

قال الواسطى رضى الله عنه : أقسام قسمت ، ونعوت أجريت ، كيف تستجلب بحركات أو تنال بمعاملات . وقال الشاعر :

فَـلَا عَمَـلٌ مِنِّى إِلَيْـهِ اكْتَسَبْتُـهُ
سِـوَى مَحْضِ فَضْـلٍ لَا بِشَىْءٍ يُعَلَّلُ

وقال آخر :

وَكُنْتُ قَـدِيمًا أَطْلُبُ الْـوَصْلَ مِنْهُمْ
فَلَمَّا أَتَـانِى الْعِلْمُ وَارْتَفَـعَ الْجَهْـلُ
عَلِمْتُ بِـأَنَّ الْعَبْـدَ لا طَلَبٌ لَـهُ
فَـإِنْ قَرَّبُـوا فَضْلٌ إِنْ بَعَّـدُوا عَـدْلُ
وإِنْ أَظْهَرُوا لَمْ يُظْهِرُوا غَيْرَ وَصْفِهِمْ
وَإِنْ سَتَرُوا فَالسَّتْرُ مِنْ أَجْلِهِمْ يَحْلُو

وقال آخر :

قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ وَصْلَكَ يُشْتَرى
بِنَفَائِسِ الأَمْوَالِ وَالأَرْبَاحِ
وَظَنَنْتُ جَهْلاً أَنَّ حُبَّكَ هَيِّنٌ
تُفْنَى عَلَيْهِ كَرَائِمُ الأَرْوَاحِ
حَتَّى رَأَيْتُكَ تَجْتَبِى وَتَخُصُّ مَنْ
تَخْتَارُهُ بِلَطَائِفِ الإِمْنَاحِ
فَعَلِمْتُ أَنَّكَ لاَ تُنَالُ بِحِيلَةٍ
فَلَوَيْتُ رَأْسِى تحت طَىِّ جَنَاحِى
وَجَعَلْتُ فى عُشِّ الْغَرَامِ إِقَامَتِى
فِيهِ غُدُوِّى دَائِمًا وَرَوَاحِى

ولهذا لم يلتفت قلب العارف لخوف ولا رجاء ، ولم يبق له فى نفس غير وجه الله حاجة .

فتحصل أن الولاية وهى سر العناية لا تنال بحيلة ولا تدرك بطلب ، لكن من سبقت له العناية يسِّر لما أريد منه .

قيل لذى النون : بم عرفت ربك ؟ قال : عرفت ربى بربى ، ولولا ربى ما عرفت ربى اهـ .

وقيل لعلى كرم الله وجهه : هل عرفت الله بمحمد أو عرفت محمدًا بالله ؟ قال : لو عرفت الله بمحمد ما عبدته ولكان محمد أوثق فىَّ من الله ، ولكن الله عرفنى بنفسه فعرفت محمدًا ﷺ بالله ، وهنا انتهت معرفة العارفين ، أعنى حين تحققوا بسابق القدر غابوا عن أنفسهم فى وجود معروفهم ، فاستراحوا واستظلوا فى ظل الرضا والتسليم ، وهبَّ عليهم من جنات المعارف نسيم ، لكن اختلفت أحوالهم فى حال نهايتهم :

* الماء وَاحِدٌ وَالزَّهْرُ أَلْوَانُ *

فمنهم من يغلب عليه الهيبة والحياء . قال بعضهم : من ازدادت معرفته بالله ازدادت هيبته له ، ومن كان بالله أعرف كان له أخوف ، وفيهم قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[1] .

ومنهم من يغلب عليه الشوق والاشتياق . وقال بعضهم : من عرف الله اتسم بالبقاء واشتاق إلى اللقاء وضاقت عليه الدنيا بحذافيرها .

وقال السرى : أجلّ مقام العارف الشوق ، يقول الله تبارك وتعالى : « إن لى عبادًا من عبادى ، أحبهم ويحبونى ، وأشتاق إليهم ويشتاقون إلىّ ، وأذكرهم ويذكرونى ، وأنظر إليهم وينظرون إلىّ ، من سلك طريقهم أحببته ، ومن عدل عنهم مقته . قيل ياربنا وما علامتهم ؟ قال : يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشفيق غنمه ، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها عند الغروب ، فإذا جنّهم الليل واختلط الظلام ، وفرشت الفرش ونصبت الأسرة ، وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلىّ أقدامهم وافترشوا إلىّ وجوههم ، وناجونى بكلامى ، وتملقوا إلىّ بإنعامى ، فمن صارخ وباك ، ومن متأوه وشاك ؛ ومن قائم وقاعد ، ومن راكع وساجد ، بعينى ما يتحملون من أجلى ، وبسمعى ما يشكون من حبى . أول ما أعطيهم ثلاثًا : أقذف فى قلوبهم من نورى ، فيخبرون عنى كما أخبر عنهم . والثانية : لو كانت السموات والأرض وما فيهن من موازينهم لاستقللتها لهم . والثالثة : أقبل عليهم بوجهى أترى من أقبلت عليه بوجهى يعلم أحد ما أريد أن أعطيه » اهـ

وقال إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه : غيبنى الشوق يومًا فقلت : يارب إن أعطيت أحدًا من المحبين ما تسكن به قلوبهم قبل لقائك فأعطنى ذلك فقد أضرنى القلق ، فرأيت فى النوم كأنه أوقفنى بين يديه وقال : يا إبراهيم أما استحييت منى أن تسألنى أن أعطيك ما يسكن قلبك قبل لقائى ، وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه ؟ فقلت : يارب تهت فلم أدر ما أقول فاغفر لى وعلمنى ما أقول فقال : قل اللهم رضنى بقضائك ، وصبرنى على بلائك ، وأوزعنى شكر نعمائك .

(١) فاطر : ٢٨ .

ومنهم من تغلب عليه السكينة فى القلب ، لأن العلم واليقين يوجبان السكون والطمأنينة فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته قال تعالى :

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[١] .

ومنهم من يغلب عليه الدهش والحيرة . قال بعضهم : أعرف الناس بالله أشدهم تحيرًا فيه . وفى الحديث : « اللَّهُمَّ زِدْنِى فِيكَ تَحَيُّرًا » .

ومنهم من يغلب عليه التواضع والخضوع والذل والانكسار . قال الجنيد : العارف كالأرض يطؤها البارّ والفاجر ، وكالسحاب يظل الأحمر والأبيض ، وكالمطر يسقى الماشى والراشى .

ومنهم من تتسع معرفته ويخوض بحار التوحيد ، فلا يكدره شىء ، ولا يسلط عليه شىء ، بل يأخذ النصيب من كل شىء ، ولا يؤخذ من نصيبه ، يأنس بكل شىء ، ولا يستوحش من شىء .

قال أبو تراب : العارف به يصفو كدر كل شىء ، ولا يكدره شىء اهـ :

وقال أبو سليمان الدارانى : إن الله يفتح للعارف على فراشه مالا يفتح له وهو قائم يصلى .

وقال بعضهم : العارف من أنس بذكر الله حتى استوحش من خلقه وافتقر إلى الله تبارك وتعالى ، فأغناه عن خلقه ، وذل إلى الله تبارك وتعالى فأعزه الله فى خلقه .

كلام الله لداود عليه السلام

وفى زبور داود عليه السلام : « ياداود بلغ أهل رضائى أنى حبيب لمن أحبنى وجليس لمن جالسنى ، وأنيس لمن أنس بذكرى ، وصاحب لمن صاحبنى ، ومختار لمن اختارنى ، ومطيع لمن أطاعنى ، بعزتى حلفت ما أحبنى عبد أعلم ذلك يقينًا من قلبه إلا قبلته لنفسى وأحببته أشد مما أحبنى ، ومن طلبنى وجدنى ، ومن طلب غيرى لم يجدنى فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها ،

---

(١) الرعد : ٢٨ .

وهلموا إلى كرامتى ومصاحبتى ومجالستى ، وأنسوا بذكرى أؤنسكم بى ، وأسرعوا إلى محبتى أسرع إلى محبتكم ، فإنى خلقت طينة أحبتى من طينة إبراهيم خليلى وموسى كليمى وعيسى روحى ومحمد صفيى ، وخلقت قلوب المشتاقين من نورى ونعمتها بجلالى وجمالى » اهـ .

ولما كان الاعتماد على السابقة يقتضى ترك العمل بيّن سرّ ذلك بقوله :

[علم أن العباد يتشوفون إلى ظهور سر العناية فقال : يختص برحمته من يشاء ، وعلم أنه لو خلاهم وذلك لتركوا العمل اعتمادًا على الأزل ، فقال إن رحمة الله قريب من المحسنين] .

قلت : لما أخبر الله سبحانه فى كتبه على ألسنة رسله أن المدار إنما هو على السابقة فمن سبقت له العناية لا تضره الجناية ، تشوّق الخلق كلهم إلى ظهور سر هذه العناية فكل واحد يظن أنه من أهلها ، فأخبرهم الحق تعالى أن ذلك السر إنما هو للبعض دون البعض ، فقال :

(يَخْتَصُّ برحمته مَنْ يَشَاء) [١] .

فأسندها إلى مشيئته دون مشيئتهم فعلموا أن ذلك إنما هو للبعض دون الكل ، لأن كل واحد يطمع أنه من ذلك البعض ، فربما يتركون العمل ، ويعتمدون على سابق الأزل فأخبرهم الحق تعالى أن ذلك السر له علامات تدل على من هو من أهله ومختص به ، فقال :

(إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)[٢] .

فالرحمة هنا هى العناية السابقة ، وهى قريبة من المحسنين الذين أحسنوا عبادة ربهم وأحسنوا إلى عباد ربهم .

فتحصل أن سر العناية إنما يظهر على المحسنين المتقنين لأعمالهم المخلصين فى عبودية ربهم ، فمن استند إلى الحكم السابق وترك العمل فهو مغرور أو مطرود لإبطاله الحكمة ومن استند إلى العمل دون النظر للقدرة والمشيئة السابقة فهو جاهل بعيد عن الحضرة غافل ، ومن جمع بينهما فهو محقق كامل ، وسر العناية

---

(١) آل عمران : ٧٤ . (٢) الأعراف : ٥٦ .

إليه إن شاء الله واصل .

قال أبو عثمان المغربى رضى الله عنه : قلوب العارفين فارغة لمفاجأة المقدور .

وقال بعضهم ليس كل من طلب نال ، ولا كل من نال وصل ، ولا كل من وصل أدرك ، ولا كل من أدرك وجد ، ولا كل من وجد سعد ، وكم من واحد حرم من المنى بمنى ، وكم من واحد أدرك من القربات غرفات ، ومن أيد بالتوفيق وصل فى لحظة العين إلى عين القبول ؛ كما حكى عن بعض الصالحين أنه رأى فى منامه إبليس اللعين ضج بالصياح والعويل ، فاجتمع عليه جنوده وقالوا : مالك ؟ فقال لهم : كنت أطمع فى فلان منذ سنين ، فإذا به قد استوى ظاهره وباطنه وسره وعلانيته فلم أجد إليه سبيلا ، تحلى بالصدق فامتنع منى فى مقعد صدق عند مليك مقتدر اهـ .

ثم بين ما تقدم من حكم المشيئة فقال :

[إلى المشيئة يستند كل شىء وليست تستند هى إلى شىء] .

قلت : المشيئة والإرادة شىء واحد وإليها تستند الأشياء كلها . قال تعالى : (وَمَا تَشَاءون إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ الله)[1] ، (ولَوْ شَاءَ رَبُّك مَا فَعَلُوهُ)[2] .

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على سبق المشيئة لكل شىء . وأما هى فلا تستند إلى شىء ولا تتوقف على شىء ، فلا تتوقف على سؤال ولا على طلب ، فما شاء الله كان من غير سبب ولا سؤال ، وما لم يشأ ربنا لم يكن ، قرّب من شاء بلا عمل ، وبعّد من شاء بلا سبب :

(لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)[3] .

فقاعدة التحقيق ما هى إلا سابقة التوفيق .

قال أبو بكر الواسطى رضى الله عنه : إن الله لايقرّب فقيرًا لأجل فقره ، ولا يبعد غنيًّا لأجل غناه ، وليس للأعراض عنده خطر حتى بها يوصل وبها يقطع ، ولو بذلت الدنيا والآخرة ما أوصلك إليه بها ، ولو أخذتها كلها

---

(١) الإنسان : ٣٠ . (٢) الأنعام : ١١٢ . (٣) الأنبياء : ٢٣ .

ما قطعك بها ، قرب من شاء بغير علة ، وقطع من شاء من غير علة ، كما قال تعالى : (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)[1] .

فالنظر إلى المشيئة حقيقة ، والنظر إلى السبب شريعة .

أو تقول : النظر إلى المشيئة قدرة ، والنظر إلى الأسباب حكمة ، ولابد من الجمع بينهما ، فالحقيقة معيِّنة ، والشريعة مبيِّنة ، الشريعة حكمة ، والحقيقة قدرة ، والحقيقة حاكمة على الشريعة فى الباطن ، والشريعة حاكمة على الحقيقة فى الظاهر ، وليس حكم القدرة بأولى من وصف الحكمة فى محله ولا بالعكس .

الناس والحقيقة والشريعة

قال الشطبى : واعلم أن الناس أربعة : ناظر فى السوابق لعلمه بأن الحكم الأزلى لا يتغير باكتساب العبد . وناظر فى العواقب لعلمه بأن الأعمال بخواتمها . وناظر للوقت ، لا يشتغل بالسوابق ولا بالعواقب غير أداء ما كلف به من حكم الوقت ، عالم بأن العارف ابن وقته ، لا يهتم بماض ولا مستقبل ، ولا يرى غير الوقت الذى هو فيه وناظر لله وحده لعلمه بأن الماضى والمستقبل والحال متقلبون فى قبضته متصرفون فى حكمه ، والأوقات كلها قابلة للتغير وتبديل الحال فلا يراها ، وإنما يراقب من كل شىء بيده .

وقد أراد بعضهم الخروج من بين يدى بعض المشايخ ، فقال له الشيخ أين تريد ؟ فقال : يا سيدى لئلا أشغلك عن وقتك ، فقال له ليس عند الله وقت ولا مقت ، إنما نرى رب الوقت لا الوقت ، ومن تمكنت فيه حالة الشهود غاب بالموجد عن الوجود : (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ)[2] .

حكى أن رجلا قال لأبى يزيد : أين أبو يزيد ؟ فقال له : ليس هنا أبو يزيد .

وقال رجل للشبلى : أين الشبلى ؟ قال : مات لا رحمه الله ، إنما عنى الشبلى

---

(١) النور : ٤٠ .　　(٢) الكهف : ١٨ .

لارده الله لإحساسه عن مشاهدته لربه .

ورأى أبو يزيد رجلا فى المسجد يسأل عنه ، فقال له : وأنا أطلبه منذ سنين فظن أنه مجنون فلما أعلم أنه هو قال له يا سيدى عليك أسأل ولك أطلب ، فقال له أبو يزيد : الذى تطلب قد ذهب فى الذاهبين فى الله بالله لِله فلا رده الله . هذا آخر الباب الثامن عشر .

وحاصلها :آداب السؤال والطلب ، وأنه ينبغى أن يكون عبودية لاسببًا فى العطاء ، إذ قد سبقت قسمتك فى الأزل قبل أن يكون منك طلب فعنايته سابقة : (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ) .

لكن الحكمة تقتضى وجود العمل ، فوجود العمل أمارة على خصوصية الأزل مع توقف ذلك على المشيئة ، لأنها يستند إليها كل شىء ولا تستند هى لشىء ، فلزم السكون والأدب حتى فى ترك الطلب كما بين ذلك فى أول الباب التاسع عشر بقوله رضى الله عنه :

الْبَابُ التَّاسِعَ عَشَر

من الأدب ترك الطلب

[ربما دلهم الأدب على ترك الطلب] .

قلت : الظاهر أن رب هنا للتكثير ، لأن الغالب على العارفين وأهل الفناء السكوت والسكون تحت مجارى الأقدار ، فصدور الطلب منهم قليل ، لأن العارف فانٍ عن نفسه غائب عن حسه ، ليس له عن نفسه أخبار ، ولا مع غير الله قرار ، فلا يتصور منه سؤال ولا فوات مأمول :

« مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِى عَنْ مَسْأَلَتِى أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِى السَّائِلِينَ » .

الأشياء تشتاق إليه وهو غنى عنها :

« اشْتَاقَتِ الْجَنَّةُ إلى عَمَّارٍ وَصُهَيْبٍ وَبِلَالٍ » كما فى الحديث .

والحاصل : أن العبد مادام غائبًا عن نفسه فإن فى شهود ربه منقطعًا عن حسه لا يتصور منه طلب أصلا ، إذ الطلب يقتضى وجود الاثنينية ، والغرض أنه غريق فى بحر الوحدة فطلبه حينئذ سوء أدب فى حقه ، فإن رد إلى الشعور بنفسه وهو مقام البقاء قد يتصور منه السؤال على وجه العبودية لا على وجه الاقتضاء والطلب كما تقدم .

ثم بين مستندهم فى ترك الطلب فقال :

[اعتمادًا على قسمته واشتغالا بذكره عن مسألته] .

قلت : أما الاعتماد على القسمة الأزلية فقد تقدم الكلام عليها فى الحكم قبل هذه ، وأما الاشتغال بالذكر عن المسألة فقد تقدم قريبًا فى الحديث : « من شغله ذكرى عن مسألتى » .

وقال الواسطى رضى الله عنه : ما جرى لك فى الأزل خير من معارضة

الوقت ، يعنى بالطلب للحظ .

وقال القشيرى : إذا وجد فى قلبه إشارة إلى الدعاء دعا ، كما إذا وجد نشاطًا أو انبساطًا للدعاء فالدعاء أولى ، وإذا وجد فى قلبه قبضًا فالسكوت أولى .

وقال بعضهم : ما سألت الله تعالى بلسانى شيئًا منذ خمسين سنة ولا أريد أن أدعو ولا أن يدعى لى اهـ . وذلك لأن الله سبحانه ليس بغافل حتى يذَكَّر ، بل هو عليم بخفيات أمورك فيأتيك منها ما قسم لك ، كما بين ذلك بقوله :

[إنما يذكَّر من يجوز عليه الإغفال] .

وقد قال تعالى :

(وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)[1] ، (أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)[2] .

ولا يحتاج إلى تنبيه لأنه لا يهملك فيما هو من قسمتك كما بينه بقوله :

[وإنما ينبَّه من يجوز عليه الإهمال] .

والحق تعالى لا يجوز عليه الإهمال لكمال قدرته وإحاطة علمه ، ولكن حكمته اقتضت ارتباط الأسباب والعلل ، وتقديم الأشياء وتأخيرها . قال تعالى : (وَكُلُّ شَيءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدار)[3] .

فمن كمل يقينه اكتفى بتدبير الحق عن تدبيره ، واستغنى بعلم الله عن استعجاله ، ورضى بتصريف الحق فيما يفعل ، فيكون إبراهيميًّا حنيفيًّا ، ولا شك أن من كان على ملة إبراهيم عليه السلام اقتدى به ، وقد كان بين السماء والأرض حين رمى به فاستغنى بعلم الله عن سؤاله ، فكانت حالة سيدنا إبراهيم عليه السلام فى ذلك الوقت الاستغراق فى الحقيقة ، فلما رد للشرائع دعا فقال : (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي ولِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤمِنِينَ)[4] (رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ)[5] .

وكذلك الأنبياء عليهم السلام أكثروا من الدعاء للتشريع والتعليم وإظهار

---

(١) البقرة : ١٤٩ . (٢) الزمر : ٣٦ . (٣) الرعد : ٨ .

(٤) إبراهيم : ٤١ . (٥) الشعراء : ٨٣ .

الفاقات التي هى مواسم وأعياد ، كما أبان ذلك بقوله :
[ورود الفاقات أعياد المريدين] .
قلت : الأعياد جمع عيد : وهو مايعود على الناس بالأفراح والمسرة ، فالعوام فرحهم ومسرتهم بالحظوظ والعوائد الجسمانية ، والخواص فرحهم بإقبال الملك عليهم ووجود قلوبهم ، وصفاء وقتهم من كدرات الأغيار ، والغالب أن هذه المعانى إنما توجد عند الفاقة والحيرة والاضطرار حيث ينقطع حظ النفس فيها ، لأن النفس كلما ضيقت عليها رحلت إلى عالم الملكوت ، وفى ذلك العالم راحتها وفرحها ومسرتها ، قال تعالى :
(وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ المأْوَى)[1] .

وهما جنتان معجلة ومؤجلة ، فلأجل هذا آثرت الصوفية الفقر على الغنى ، والشدة على الرخاء ، والذل على العز ، والمرض على الصحة ، لما يحصل بذلك من الرقة والحلاوة ، وكلما ازدادوا فاقة زادهم الله قربًا وولاء .
وكان بعضهم يطوف حول الكعبة ويقول :

مُؤْتَزِرٌ بِشَمْلَتِي كَمَا تَرَى ... وَصَبِيَّةٌ بَاكِيَةٌ كَمَا تَرَى
وَٱمْرَأَتِي عُرْيَانَةٌ كَمَا تَرَى ... يَامَنْ يَرَى الذِى بِنَا وَلَايُرَى
أَمَا تَرَى مَاحَلَّ أَمَا تَرَى

فسمعه بعضهم فجمع له كسرًا ودفعها إليه ، فقال له إليك عنى ، لو كان معى شىء لما أمكننى أن أقول هذا القول .
وقال أبو إسحاق الهروى رضى الله عنه : من أراد أن يبلغ الشرف كل الشرف فليختر سبعًا على سبع ، فإن الصالحين اختاروها حتى بلغوا سنام الخير : اختاروا الفقر على الغنى ، والجوع على الشبع ، والدون على المرتفع ، والذل على العز ، والتواضع على الكبر ، والحزن على الفرح ، والموت على الحياة اهـ .
وقال بعضهم : إن الفقير الصادق ليتحرز من الغنى حذرًا أن يدخله فيفسد

(١) النازعات : ٤٠ ، ٤١ .

عليه فقره ، كما يتحرز الغنى من الفقر حذرًا أن يفسد عليه غناه ، وأنشدوا فى أعياد العارفين :

قَالُوا غَدا العِيدُ مَاذَا أَنْتَ لابسهُ
فَقُلْتُ خِلْعَةُ سَاق حبُّهُ جُرَعَا

فَقْرٌ وَصَبْرٌ هُما ثَوْبَاىَ تَحْتَهُمَا
قَلْبٌ يَرَى إِلْفهُ الأَعْيَادَ وَالجمعَا

أَحْرَى المَلَابِسِ أَنْ تَلْقَى الحبِيبَ بِهِ
يَوْمَ التَّزَاوُرِ فى الثَّوْبِ الذِى خُلِعَا

الدَّهْرُ لِى مَأْتَمٌ إِنْ غِبْتَ يَاأَمَلِى
وَالْعِيدُ مَا كُنْتَ مَرأًى لِى وَمُستمعَا

وقال آخر :

قَالَتْ هُنَا الْعِيدُ بِالبشْرى فَقُلْتُ لَهَا
العِيدُ وَالْبِشْرُ عِنْدِى يَوْمَ لُقْيَاكِ

الله يَعْلَمُ أَنَّ النَّاسَ قَدْ فَرِحُوا
فِيهِ وَمَافَرْحَتِى إلا بِرُؤْيَاكِ

ثم بين وجه كون الفاقة عيدًا فقال :

[ربما وجدت من المزيد فى الفاقات ما لا تجده فى الصوم والصلاة ، الفاقات : بسط المواهب ، إن أردت بسط المواهب عليك ، صحح الفقر والفاقة لديك ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين].

قلت : إنما كان الإنسان يجد فى الفاقة من المزيد ما لا يجده فى الصوم والصلاة ، لأن الفاقة من أعمال القلوب والصوم والصلاة من أعمال الجوارح ، والذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح . الفاقات قوت الروح ، والصوم والصلاة قوت القلب ، والروح محل المشاهدة ، والقلب محل المراقبة وما بينهما معلوم .

قال بعضهم : اعلم أن المدد الذى هو الفتح الربانى إنما يقع فى القلوب الفارغة من العوائق والشواغل . وقد يوجد العبد كثير الصلاة والصيام وباب قلبه مسدود ، لاشتغاله بأمور دنياه وهم الأكثر من الناس . وقد يوجد العبد قليل الصوم والصلاة وباب قلبه مفتوح للعلوم اللدنية ، والتنزلات الفهمية وهم الأقلون من الناس ، وكل العبادات يدخلها الرياء إلا الخمول لكونه لاحظ للنفس فيه اهـ .

وفى بعض الأخبار : « يَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالى لَعَبْدِه : سَبَكْتُكَ بالْفَاقَةِ لِتَكُونَ ذَهَبًا » الحديث .

حكمة الفاقة

قال فى التنوير : اعلم أن فى البلايا والفاقات من أسرار الألطاف ما لا يفهمه إلا أولو البصائر ، ولو لم يكن إلا تذلل النفس وتحقيرها وقطعها من حظوظها ، لكان فى ذلك غاية المطلوب منها . وقد قيل : حيثما وقعت الذالة وقعت معها النصرة . قال الله العظيم :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ الله بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)[1] .

فإذا أردت أيها الفقير بسط المواهب وورودها عليك ، فصحح الفقر والفاقة لديك فإذا صححت الفاقة والفقر عندك فاستعد لكتب المواهب ، فإنها ترد عليك كالسحاب وقد قلت فى هذا قصيدة سيأتى ذكرها قريبًا إن شاء الله :

وَإنْ تُـرِدَنْ بَسْطَ الَمـوَاهِب عَـاجِـلًا
فَفِى الفَـاقَـةِ رِيـحُ المـوَاهِبِ يَنْشَـرُ

والمراد بالمواهب : معارف وكشوفات وطمأنينة وحكم وعلوم وأسرار ، ترد على القلوب من خزائن الغيوب ، حال صفائها وتصفيتها من الغيرية ، وأصفى

---

(١) آل عمران : ١٢٣ .

ما يكون القلب حين تذهب النفس ، وذهاب النفس إنما يكون بترك حظوظها ، ولا يتحقق ذلك في الغالب إلا في حال الفاقة والفقر ، ولذلك كانوا يفرحون بالفقر ويحزنون من الغنى .

فتح على بعضهم بشيء من الدنيا فقال : هذه عقوبة لم أدر ما سببها : وقال الهروي : الفقر صفة مهجورة ، وهو ألذ ما يناله العارف ، لكونها تدخله على الله وتجلسه بين يديه ، وهو أعم المقامات حكمًا لقطع العوائق ، والتجرد من العلائق ، واشتغال القلب بالله .

قيل : الفقير الصادق لا يَملك ولا يُملك . وقيل لسهل رضي الله عنه : متى يستريح الفقير ؟ قال : إذا لم ير في وقت غير ربه . وقال الشبلي : الفقير لا يستغني بشيء دون الله .

وقال السهروردي في عوارف المعارف : الفقر أساس التصوف ، وبه قوامه ، ويلزم من وجود التصوف وجود الفقر ، لأن التصوف اسم جامع لمعاني الفقر والزهد ، مع زيادة أحوال لابد منها للصوفي وإن كان فقيرًا زاهدًا . وقال بعضهم : نهاية الفقر بداية التصوف ، لأن التصوف اسم جامع لكل خلق سنيّ والخروج عن كل خلق دني ، لكنهم اتفقوا أن لا دخول على الله إلا من باب الفقر ، ومن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بشيء مما أشار إليه القوم .

والتحقق بالفقر : هو الاستئناس به ، والاغتباط بحصوله ، والاستقرار معه ، حتى يكون عنده أحلى من العسل ويكون المال عنده أمر من الحنظل ، فحينئذ تترادف عليه المواهب ، وتتسع له المعارف ، حتى يكون أغنى الأغنياء .

قال بعض الصالحين : كان لي بعض مال فرأيت فقيرًا في الحرم جالسًا منذ أيام ، لا يأكل ولا يشرب وعليه أطمار رثة ، فقلت : أغنيه بهذا المال ، فألقيته في حجره وقلت : استعن بهذا على دنياك ، فنفض بها في الحصباء وقال لي : اشتريت هذه الجلسة مع ربي بما ملكت ، وأنت تفسدها عليّ ، ثم انصرف وتركني ألقطها ، فوالله ما رأيت أعز منه لما بددها ، ولا أذل مني لما كنت ألقطها ، وهذا هو تصحيح الفقر والفاقة ظاهرًا وباطنًا .

وكان بعضهم إذا أصبح عنده شيء أصبح حزينًا ، وإذا لم يصبح عنده شيء

أصبح فرحًا مسرورًا ، فقيل له : إنما الناس بعكس هذا ، فقال : إنى إذا لم يصبح عندى شيء فلى برسول الله أسوة حسنة ، وإذا أصبح عندى شيء لم يكن لى برسول الله أسوة حسنة . قلت : وهذه حالة أشياخنا رضى الله عنهم حسبما استقريناه من حالهم .

وقد بلغنى أن شيخ شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه كان يشعل الفتيلة وينظر فى نواحى البيت إذا وجد شيئًا أخرجه يتصدق به ويبيت على الفاقة . هكذا كان حاله فى حال تجريده رضى الله عنه : هذا واستشهد المؤلف رضى الله عنه بالآية الكريمة : (إنما الصَّدَقَاتُ لِلفُقَرَاء وَالمسَاكِين)[1] .

إشارة إلى أن ما يهبه الله تعالى من المواهب والمعارف إنما هى صدقة ومنة لاجزاء على الأعمال والأحوال ، لأن الصدقة لا تكون فى مقابلة عمل : و (إنَّ الله لَغَنِيٌّ عَنِ العَالَمِين)[2] .

ثم التحقق بالفقر مجموعة التحقق بأوصاف العبودية ، وهى الذل والعجز والضعف كما بين ذلك بقوله :

[**تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه ، وتحقق بذلك يمدك بعزته ، وتحقق بعجزك يمدك بقدرته ، وتحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته**] .

قلت : أوصاف العبودية أربعة يقابلها من أوصاف الربوبية أربعة :

أولها : من العبد الفقر ومن الله الغنى .

الثانى : من العبد الذل ، ومن الله العز .

الثالث : من العبد العجز ، ومن الله القدرة .

الرابع : من العبد الضعف ، ومن الله القوة .

والتحقق بالوصف هو التحلى والاتصاف به قلبًا وقالبًا ، ويكون ذلك باديًا بين خلقه ، فلا يتحقق الذل لله حتى يظهر ذلك بين عباده ، فمن أراد أن يمده الله بالغنى به عما سواه فليتحقق بالفقر مما سواه كما قال الشيخ أبو الحسن فى حزبه الكبير : نسألك الفقر مما سواك والغنى بك ، حتى لا نشهد إلا إياك .

---

(١) التوبة : ٦٠ .　　(٢) العنكبوت :٦ .

ومن أراد أن يمده الله بالعز الذى لا يفنى ، فليتحقق بالذل لله والتواضع بين خلقه ، فمن تواضع دون قدره رفعه الله فوق قدره ، ومن أراد أن يمده الله بالقدرة الخارقة للعوائد فليتحقق بعجزه ويتبرأ من حوله وقوته ، ومن أراد أن يمده الله بالقوة على طاعة مولاه ومجاهدة نفسه وهواه فليتحقق بضعفه ويسند أمره إلى سيده ، فبقدر ما تعطى تأخذ وبقدر ما تتخلى تتحقق ، وبقدر ما تتحقق بوصفك يمدك بوصفه ، وقد كنت قلت فى ذلك أبياتًا وهى هذه :

تَحَقَّقْ بِوَصْفِ الْفقْرِ فى كُلِّ لَحْظَةٍ
فَمَا أَسْرَعَ الغِنَى إِذا صُحِّحَ الفقرُ
وَإِنْ تُرِدَنْ بَسْطَ المَواهِبِ عَاجِلًا
فَفِى الْفَاقَةِ رِيحُ المَوَاهِب يُنْشَرُ
وَإِنْ تُرِدَنْ عِزًّا مَنيعًا مُؤَيَّدًا
فَفِى الذُّلِّ يَخْفى العِزُّ بَلْ ثَمَّ يَظْهَرُ
وَإِنْ تُرِدَنْ رَفْعًا لِقَدْرِكَ عَالِيًا
فَفِى وَضْعِكَ النَّفْسَ الدَّنِيَّة يَحْضُرُ
وَإِنْ تُرِدِ العِرفَانَ فَافْنَ عَنِ الْوَرَى
وَعَنْ كُلِّ مطْلُوبٍ سِوَى الْحَقِّ تَظْفَرُ
تَرَى الحَقَّ فى الأشيَاءِ حِينَ تَلَطَّفَتْ
فَفِى كُلِّ مَوْجُودٍ حَبِيبىَ ظَاهِرُ

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : وتصحيح العبودية ، بملازمة الفقر ، والضعف والذل لله تعالى . وأضدادها أوصاف الربوبية فما لك ولها ؟ فلازم أوصافك وتعلق بأوصافه ، وقل من بساط الفقر الحقيقى : ياغنى من للفقير سواك ، ومن بساط الضعف الحقيقى : ياقوى من للضعيف سواك ، ومن بساط العجز الحقيقى : ياقادر من للعاجز سواك ، ومن بساط الذل الحقيقى : ياعزيز من للذليل سواك ، تجد الإجابة كأنها طوع يدك :

و (اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا)[١] ، (إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)[٢] .

ولا يصح التحقق بالوصف حتى يتعلق بأضدادها من مولاه ، فلا يلتجئ فى فقره ولا عجزه ولا ضعفه إلى أحد سواه .

روى أن بعض الملوك قال لبعض الفقراء : ما يكون لك من حاجة فارفعها إلىّ ، فقال له الفقير : قد رفعت حوائجى لمن هو أقدر منك ، فما أعطانى منها رضيت به ، وما منعنى منها رضيت عنه ، فقال له : ولا لك حاجة عندى ؟ قال : بلى ، قال : وما هى ؟ قال : لا ترانى ولا نراك وأنشدوا :

مَلَكْتُ نَفْسِي وَكُنْتُ عَبْدًا ... فَزَالَ رِقِّى وَطَابَ عَيْشِى
أَصْبَحْتُ أَرْضَى بِحُكْمِ رَبِّى ... إِنْ لَمْ أَكُنْ رَاضِيًا فَأَيشِى

فهذا هو التعلق بوصف الربوبية ، والتعزز بالله الذى لا يفنى عزه . قال الله تعالى : (وَلله العِزَّةُ وَلرسولِهِ وللمُؤْمِنِينَ)[٣] . ومن تعزز بالله ذل له كل شىء .

وقد حج شيبان الراعى مع سفيان الثورى ، فلما كانا فى البرية عرض لهما سبع ، فأخذ سفيان خارج الطريق ومضى إليه شيبان ، ثم عرك أذنه فلم يزد أن حرك ذنبه وبصبص وانصرف ، فقال له سفيان : ما هذا ياشيبان ؟ فقال له : لو شئت أن أركبه إلى مكة لفعلت .

وكانت عجوز تأتى كل يوم لبيت السرىّ السقطى فتكنس بيته وتسوق له بعض القوت ، فسئل من هى ؟ فقال : الدنيا سخرها الله لى لما زهدت فيها ، وفى هذا المعنى ورد الحديث :

« يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِلدُّنْيا : يَادُنْيَا اخْدُمِى مَنْ خدمنِي ، وَأَتْعبِى مَنْ خَدَمَكِ » .

وقال إبراهيم بن أدهم : من طلب الفقر استقبله الغنى ، ومن طلب الغنى

---

(١) الأعراف : ١٢٨ . (٢) البقرة : ١٥٣ . (٣) المنافقون : ٨ .

استقبله الفقر ، والغنى هو الغنى بالله .

وقال سهل رضى الله عنه : لم يشم رائحة اليقين من ركن لغير الله . وقال أبوتراب : رأيت شابًّا فى البادية يمشى بلا زاد ، فقلت فى هذا الموضع بلا زاد ؟ قال : لست أرى غير الله ، فقلت اذهب الآن حيث شئت . وقال إبراهيم الخواص : لقيت فقيرًا فى البادية فقلت له : إلى أين ؟ فقال : إلى مكة ، قلت : بلا زاد ولا راحلة ؟ فقال : الذى يمسك السموات والأرضين ويحفظهما لا يعجزه قوتى بلا سبب ولا علاقة ، فقلت : صدقت ، ثم رأيته بعد ذلك فى مكة وهو يطوف ويقول :

يَاعَيْنُ سُحِّى أَبَدَا   يَانَفْسُ مُوتِى كَمَدَا
وَلَا تُحِبِّى أَحَدًا   إلَّا الإِلٰهَ الصَّمَدَا

فلما رآنى قال لى : مازالت على ضعف يقينك ؟ فقلت لا ، بل أعلم أن الله على كل شىء قدير اهـ . هذا آخر الباب التاسع عشر .

وحاصلها : أن العارفين ربما دلهم الأدب على ترك الطلب ، اكتفاء بعلم الله ، إذ لا يذكر إلا الغافل ، ولا ينبه إلا الساهى وتعالى الله عن الأمرين علوًّا كبيرًا ، فإذا نزلت بهم فاقة أو شدة لم يسألوا رفعها ، بل فرحوا بها وجعلوها مواسم وأعيادًا لما يجدون فيها من المزيد ، وما يهبّ على قلوبهم من نسيم التوحيد والتغريد ، وهى المواهب الربانية ، والعلوم اللدنية ، فتحققوا بأوصافهم وأمدهم بأوصافه ، فصاروا فى الظاهر عبيدًا وفى الباطن أحرارًا ، فى الظاهر فقراء ضعفاء أذلاء وفى الباطن أغنياء أقوياء أعزاء .

وهذه هى الكرامة العظمى دون الكرامة الحسية كما أشار إلى ذلك فى أول الباب الموفى عشرين ، فقال رضى الله عنه :

الباب العشرون

الكرامة الحسية

[ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة] .

قلت : الكرامة الحسية هى خرق الحس العادى ، كالمشى على الماء ، والطيران فى الهواء وعلى الأرض ، ونبع الماء ، وجلب الطعام والاطلاع على المغيبات ، وغير ذلك من خوارق العادات .

والكرامة المعنوية : هى استقامة العبد مع ربه فى الظاهر والباطن ، وكشف الحجاب عن قلبه حتى عرف مولاه ، والظفر بنفسه ومخالفة هواه ، وقوة يقينه وسكونه ، وطمأنينته بالله ، والمعتبر عن المحققين هى هذه الكرامة الحسية ، فلا يطلبونها ولا يلتفتون إليها ، إذ قد تظهر على يد من لم تكمل استقامته ، بل قد تظهر على يد من لا استقامة له أصلا كالسحرة والكهان ، وقد تظهر على أيدى الرهبان وليست بكرامة إنما هى استدراج .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان : كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان . وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ، ومجانبة الدعاوى والمخادعة ، فمن أعطيها ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مغتر كذاب ، أو ذو خطأ فى العلم والعمل بالصواب ، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا ، فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع المرضى . قال : وكل كرامة لا يصحبها الرضا عن الله ومن الله فصاحبها مستدرج مغرور ، أو ناقص أو هالك أو مثبور اهـ .

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : ليس الشأن من تطوى له الأرض فإذا هو بمكة أو غيرها من البلدان ، إنما الشأن من تطوى له صفات نفسه فإذا هو عند ربه .

قلت : والكرامة الحقيقية : هى الاستقامة على الدين ، وحصول كمال

اليقين . وأما خوارق العادات الحسية ، فإن صحبتها الاستقامة ظاهرًا وباطنًا وجب تعظيم صاحبها ، لأنها شاهدة له بالكمال مما هو فيه ، وإن لم تصحبها استقامة فلا عبرة بها .

والغالب أن أهل الباطن كرامتهم باطنية ، ككشف الحجب ومزيد الإيمان ، ومعرفة الشهود والعيان ، وكذلك عقوبة من آذاهم جلُّها باطنية لا يتفطنون لها ، كقساوة القلب والانهماك فى الذنوب ، والغفلة عن الله والبعد عن حضرته ، ولكن لا يشعرون ، وهى أعظم من العقوبة فى الحس .

والحاصل : أن أهل الاستقامة الظاهرية كرامتهم ظاهرية حسية ، وأهل الاستقامة الباطنية كرامتهم باطنية معنوية ، أهل الظاهر من آذاهم عوقب فى الظاهر ، وأهل الباطن من آذاهم عوقب فى الباطن ، وقد لا يعاقب لأنهم رحمة ، كل من قرب منهم شملته الرحمة كان قربه تسليمًا أو إنكارًا ، همْ قوم لا يشقى جليسهم ، فهم على قدم النبى ﷺ ، حيث قال :

« اللهُمَّ اغْفِر لقَوْمى فَإِنَّهمْ لاَ يَعْلَمُونَ » .

وكل ولى أراد الله تعالى أن ينتفع الناس على يده لا يعاجل بالعقوبة من آذاه اقتداء برسول الله ﷺ ، حيث خيّره ملَك الجبال فحلم ﷺ وعفا ، وقال :

« لَعَلَّ الله أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَقُولُ : لاَ إلـهَ إلاَّ الله »

والله تعالى أعلم .

وأعظم الكرامة الفهم عن الله ، والرضا بقضاء الله وترك التدبر والاختيار مع الله ، وإقامة العبد حيث إقامة الله ، كما أبان ذلك بقوله :

[من علامات إقامة الحق لك فى الشىء إدامته إياك فيه مع حصول النتائج] .

قلت : إذا أقام الحق تعالى عبده فى حالة لا يستقبحها الشرع ولا يذمها سليم الطبع ، فلا ينبغى له الانتقال عنها بنفسه حتى يكون الحق تعالى الذى أدخله فيها هو الذى يتولى إخراجه منها .

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخلنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وأَخْرِجْنِي مُخرَج صِدْقٍ)[1] .

فالمدخل الصدق أن تدخل فى الشىء بالله لا بنفسك ، والمخرج الصدق أن تخرج منه بالله لا بنفسك . فإذا أقامك الحق تعالى فى الأسباب فلا تخرج منها بنفسك فتتعب ، فامكث حتى يخرجك الحق تعالى بإشارة صريحة من شيخك أو من هاتف من عند ربك ، وقد تقدم هذا فى أول الكتاب .

ومن علامة إقامة الله تعالى لك فى ذلك الشىء الذى أنت فيه إدامة الحق إياك فى ذلك الشىء مع حصول النتائج وسلامة الدين ، والمراد بالنتائج ما يترتب عليه من إعطاء حقه الواجب والمستحب ، كأداء الزكاة ، وإطعام الجائع ، وستر العريان ، وإغاثة اللهفان وغير ذلك من أنواع الإحسان .

وإذا أقامه الحق تعالى فى نشر العلم الظاهر ، فعلامة إقامة الحق فيه تعليمه لله ، ونفع عباد الله ، والزهد فى الدنيا ، والرغبة فيما عند الله والتواضع ، والصبر على جفاء المتعلمين ، وهكذا سائر الحرف إذا كان فيها على المنهج الشرعى ، فلا ينتقل عنها بنفسه .

وإذا أقامك الحق تعالى فى التجريد فالزم الباب ، وتحلّ بالآداب ، حتى يفتح لك الباب ، فعلامة إقامته إياك فيه حصولُ نتائجه ، وهى الترقى فى الأحوال والمقامات ، حتى تبلغ النهايات ، والمقامات : هى التوبة والتقوى والاستقامة ، والزهد والورع ، والخوف والرجاء ، والرضا والتسليم ، والإخلاص والصدق ، والطمأنينة والمراقبة ، والمشاهدة والمعرفة ، وكل مقام له علم وعمل وحال ، فأوله علم ، وثانيه عمل ، وثالثه حال ثم مقام ، فإذا بلغ إلى مقام المعرفة وتمكن فيها انقطعت المقامات .

قال بعضهم : فى بحر التوحيد غاصت الأحوال ، وانطمست المقامات . (وَأَنَّ إلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى)[2] . فحينئذ يغمس فى بحر الإحسان .

فإذا عبر من بساط إحسان الله له لم يصمت إذا أساء ، كما أبان ذلك بقوله :
[من عبر من بساط إحسانه أصمتته الإساءة ، ومن عبر من بساط

---

(١) الإسراء : ٨٠ . (٢) النجم : ٤٢ .

إحسان الله إليه لم يصمت إذا أساء] .

قلت : أهل التعبير ، وهم أهل التذكير الذين يذكرون عباد الله ، ويعبرون عما منحهم الله به من العلوم والمواهب والفتوحات والكرامات على قسمين : علماء وعارفون .

أو تقول : أهل الحجاب وأهل الفتح ، فأهل الحجاب يعبرون من بساط إحسان أنفسهم فيقولون : فعلنا كذا ، ورأينا كذا ، وفتح علينا فى كذا ، وافعلوا أيها الناس كذا ، واتركوا كذا ، فإذا وقعوا فى زلة أو هفوة ، سكتوا حياء من الله ، وخوفًا أن يأمروا بما لم يفعلوا ، لأنهم باقون مع نفوسهم محجوبون عن ربهم ، فإذا فعلوا طاعة فرحوا بها واعتمدوا عليها ، وإذا فعلوا زلة حزنوا وجزعوا وسقط فى أيديهم ، فلما عبروا من بساط إحسان نفوسهم أصمتتهم الإساءة . وأهل الفتح من العارفين ، يعبرون من بساط إحسان الحق ، غائبين عن شهود الخلق ، فانون عن أنفسهم باقون بربهم .

فهؤلاء إذا عبروا عما منحهم الله من المعارف والأسرار والعلوم والأنوار والكرامات والفتوحات والمواهب وذكروا ، فأمروا ونهوا دام تعبيرهم ونفع تذكيرهم ، فإذا أساءوا لم تصمتهم إساءتهم ، لأن إساءتهم من أنفسهم وتعبيرهم من بساط إحسان الله إليهم ، وإحسانه لا يكدره شيء . وقولنا : من أنفسهم أعنى أدبًا فقط ، إذ هم لا يشهدون إلا تصريف الحق فيهم ، فلذلك لم تصمتهم إساءتهم ، لأنهم مغموسون فى بحر المنة لا يشهدون فى الكون سواه .

وأيضًا من عبر من بساط نفسه نادته مساويه اسكت ، أما تذكر فعلك القبيح ووصفك الذميم ؟ فيسكت خجلا . ومن عبر من بساط إحسان الله غابت عنه مساويه لغيبته فى محاسن مولاه ، فلا يشهد إلا إياه .

فإذا أراد أن يعبر سبق نور معرفته إلى قلوب عباده ، فيسرى فيهم التعبير ويأخذ بقلوبهم التذكير ، كما أبان ذلك بقوله :

[تسبق أنوار الحكماء أقوالهم ، فحيثما صار التنوير وصل التعبير] .

قلت : الحكماء هم العارفون بالله الذين يتكلمون بالله ويصمتون بالله ، غائبون عن أنفسهم ، يشهدون ما من الله إلى الله ، فإذا أرادوا أن يعبروا عما

منحهم مولاهم من العلوم والمعارف سبق نور شهودهم إلى القلوب المستمعة ، فتسرى فيهم على قدر صدقهم .

فمنهم من يدخل النور سويداء قلبه . ومنهم من يقف النور على ظاهر قلبه . ومنهم من شرق النور على طرف قلبه ، فإذا عبر العارف عن المقامات والأحوال وصل التعبير على قدر سريان النور ، فمن وصل النور إلى سويداء قلبه نهض من ساعته إلى ربه ، ومن وصل ظاهر قلبه خشع وخضع وعزم على البر والتقوى ، ومن وصل إلى طرف قلبه عرف الحق وصدق ، فحينئذ صار التنوير وصل التعبير ، وقولنا فى تفسير الحكماء هم العارفون مأخذنا فيه ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « رَأْسُ الْحِكْمَة مَخَافَةُ الله » اهـ .

أعرف الناس بالله أشدهم له خشية ، وفيهم قال الله تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)[1] .

وسئل مالك عن الحكمة ؟ فقال : مازهد عبد واتقى إلا أنطقه الله بالحكمة ، ثم قال : من أراد أن يفتح الله عين قلبه فليكن عمله فى السر أكثر من عمله فى العلانية ، لأن عمل السر منبع الإخلاص ، والإخلاص منبع الحكمة .

وسئل مرة أخرى عن الحكمة أيضا ؟ فقال : نور يقذفه الله فى قلب العبد المؤمن من فسحة الملك ا هـ . فأهل التنوير هم الحكماء وهم العارفون بالله ، ولله در القائل فى وصفهم حيث قال :

سُوَّاسُ مَكْرُمَةٍ أَبْنَاءُ أَيْسَارِ ... هَيْنُونَ لَيْنُونَ أَيْسَارٌ بَنُو يَسَرٍ

وَلا يُمَارُونَ إِنْ مَارُوا بِإِكْثَارِ ... لَا يَنْطِقُونَ بِغَيْرِ الْحَقِّ إِنْ نَطَقُوا

مِثْلُ النُّجُومِ التى يَسْرِى بِهَا السَّارِى ... مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لَاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ

وقولنا فى وصفهم : يشهدون ما من الله إلى الله ، يعنى أنهم غائبون عن أنفسهم لا يرون إلا تصريف الحق فى مظاهر أنواره .

قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : الناس على ثلاثة : عبد

---

(١) فاطر : ٢٨ .

يشهد ما منه إلى الله ، وعبد يشهد ما من الله إليه ، وعبد يشهد ما من الله إلى الله : الأول ذو حزن وأشجان ، والثانى ذو فرح وامتنان . والثالث لم يشغله عن الله خوف نار ولا مثوى جنان ، الأول ذو كد وتكليف . والثانى ذو عناية وتعريف . والثالث مشاهد للمولى اللطيف .

ثم قال : وقيل العمل مع شهود المنة خير من كثيره مع رؤية التقصير من النفس اهـ مختصرًا .

ثم ذكر علامة التعبير الذى يسبقه التنوير والذى يسبقه التكدير فقال :

[كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذى منه برز] .

قلت : علامة الكلام الذى يسبقه التنوير هو تأثيره فى القلوب وتهييجه الأرواح وتشويقه الأسرار ، فإذا سمعه الغافل تنبه ، وإذا سمعه العاصى انزجر ، وإذا سمعه الطائع زاد نشاطه وعظم شوقه ، وإذا سمعه السائر طوى عنه تعب سيره ، وإذا سمعه الواصل تمكن من حاله ، فالكلام صفة المتكلم ، فإذا كان المتكلم ذا تنوير وقع فى قلوب السامعين ، وإذا كان ذا تكدير حد كلامه آذان المستمعين ، فكل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذى منه برز ، ولذلك قال سيدنا على كرم الله وجهه : من تكلم عرفناه من ساعته ، ومن لم يتكلم عرفناه من يومه .

وقيل الناس حوانيت مغلقة ، فإذا تكلموا فقد فتحوا ، هناك يتبين البيطار من العطار .

وقالوا أيضًا : الكلام إذا خرج من القلب وقع فى القلب ، وإذا خرج من اللسان حده الآذان ، وإنهاض الحال أكثر من المقال ، وإذا اجتمع الحال والمقال فهو البحر الطام ، والنجم الثاقب التام .

وقال بعض العارفين : من كان قلبه روحانيًا كان كلامه معنويًّا ينزل من القلوب أوسع ساحاتها ، ومن كان قلبه نفسيًّا كان كلامه حسياً يعنى لا يتكلم إلا فى الحس ولا يخوض إلا فيه ، ومن طمس أذن قلبه حجب الدنيا فلا يسمع ولا يسمع .

وقد يكون من الناس من هو عالم اللسان جاهل القلب ، وعلامته ترجيح حديث الدنيا على حديث الآخرة ، أو حديث الحس على حديث المعنى ، ومن

مثل هذا الحذر الحذر ، لأن قلبه ميت فكلامه كله على الميتة والميتة هى الجيفة .

قال صلى الله عليه وسلم : « الدُّنْيَا جِيفَةٌ وَطُلَابُهَا كِلَابٌ » .

فمن تكلم على الدنيا فمثله كالكلب ولا خير فى كلب ولو كان عالمًا قاله الشطيبى .

حسن التعبير والقبول

ثم إن هذه الكسوة التى تبرز على الكلام ، إنما هى من نتائج الإذن من الله فيه ، وأما إذا لم يكن إذن فيه فلا كسوة عليه ، كما أبان ذلك بقوله :

[من أذن له فى التعبير ، حسنت فى مسامع الخلق عبارته ، وجلبت إليهم إشارته] .

قلت : الإذن فى التعبير إنما يكون على يد الشيخ الكامل العارف ، الذى أهله الله للتربية ونصبه للتوصيل والترقية ، فإذا رأى على تلميذه أهلية التذكير أذن له فى التعبير ، فإذا عبر أخذ بمجامع القلوب ، وفاض من لسانه أسرار علم الغيوب ، فتحسن فى مسامع الخلق عبارته ، وتجلى إليهم إشارته أى تظهر وتفهم ، ولا عبرة عند المحققين بلحن الكلام وإعرابه ولا خطأ فى رفعه ونصبه من صوابه ، وإنما العبرة بالمعانى دون القوالب والأوانى .

يحكى أن بعض النحويين دخل مجلس الحسن بن سمعون ليسمع كلامه فوجده يلحن فانصرف ذامًّا له ، فبلغ ذلك الحسن ، فكتب له : إنك من كثرة الإعجاب رضيت بالوقوف دون الباب ، فاعتمدت على ضبط أقوالك مع لحن أفعالك ، وإنك قد تهت بين خفض ورفع ونصب وجزم ، فانقطعت عن المقصود ، هل لارفعت إلى الله جميع الحاجات ، وخفضت كل المنكرات ، وجزمت عن الشهوات ، ونصبت بين عينيك الممات ؟ والله ياأخى ما يقال للعبد لم لَمْ تكن معربًا ، وإنما يقال له لم كنت مذنبًا ، ليس المراد فصاحة المقال ، وإنما المراد فصاحة الفعال ، ولو كان الفضل فى فصاحة اللسان لكان سيدنا هارون

أولى بالرسالة من سيدنا موسى حيث يقول :

(وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا)[1] اهـ .

ومما ينسب للخليل رحمه الله أو لسيبويه :

لِسَانٌ فَصِيح مُعربٌ فى كلَامِهِ   فَيَالَيْتَهُ مِنْ وَقْفَةِ الْعَرْضِ يَسْلَمُ
وَلَا خَيْرَ فى عَبْدٍ إِذَا لَمْ يكُنْ تقى   وَمَاضَرَّ ذَا تَقْوَى لِسَانٌ مُعَجَّمُ

وقال آخر :

وَإِنْ تَكَلم فى جِدالِهِ وَزَنَهْ   مُنْحَرِفٌ بِالْفِعالِ وَذُو زَلَلٍ
قَـالَ وَقَـدْ كَتَبْتُ لَفَـظَتَـهُ   تيهًا وَعُجْبًا أَخْـطَأَ مَالَحَنَـهْ
وَإِنَّمَـا أَخْطَأَ مَنْ قَـامَ غَدًا   وَلَا يُرَى فى كِتابِـهِ حَسَنَهْ

وكان شيخ شيخنا رضى الله عنه إذا ذكر من تقدم له فى العربية يقول له : أنت اترك شيئًا من عربيتك ، وأنا أترك شيئًا من جَبَليتى ، يعنى من اللغة الجبلية ونلفت للطريق .

والحاصل : أن من اجتمع فيه الحال وفصاحة المقال ، فهو كمال الكمال . وذلك لأنه ينتفع بكلامه بعد موته : كالغزال والششترى والشاذلى والمرسى والشيخ رضى الله عنهم ، فقد عظم النفع بكلامهم ، وأعظمهم المؤلف رضى الله عنه ، فقد حاز قصب السبق فى التعبير ، ونسخت كتبه كتب القوم ، وقد شهد له شيخه بهذا المعنى فقال : والله لا يموت هذا الشاب حتى يكون داعيًا يدعو إلى الله ، وقال له : والله ليكونن لك شأن عظيم ، والله ليكونن لك شأن عظيم .

وقال فيه أيضًا حين نسخ له كتاب التهذيب: والله لأجعلنك عينًا من عيون الله يقتدى بك فى علم الظاهر والباطن .

وقال فيه أيضًا : والله ما أرضى له بجلسة جَدّه ولكن بزيادة التصوف ، وكان

---

(١) القصص : ٣٤ .

جده. فقيهًا شرح المدونة اسمه عبد الكريم ، وكلام الشيخ رضى الله عنه يدل على مقامه ، وما تخلص التصوف ولا تهذب إلا على يديه ، فقد قرّب المدارك وبيّن المسالك فى أحسن عبارة وأوجز لفظ وإشارة ، جزاه الله عن المسلمين خيرًا .

ثم بين رضى الله عنه الكلام الذى لم يؤذن لصاحبه فى التعبير عنه فقال :

[ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار ، إذ لم يؤذن لك فيها بالإظهار] .

قلت : قد يتكلم الإنسان بحكم وحقائق ، مع فصاحة وبلاغة وشقاشق ، لكنها مكسوفة الأنوار مطموسة الأسرار ، ليس فيها حلاوة ، ولا عليها طلاوة ، سبب ذلك عدم الإذن فيها ، إذ لو أذن له فى التعبير ، لظهر عليها كسوة التنوير .

قال فى لطائف المنن : من أجل مواهب الله لأوليائه وجود العبارة .

قال : وسمعت شيخنا أبا العباس يقول : الولى يكون مشحونًا بالمعارف والعلوم ، والحقائق لديه مشهورة ، حتى إذا أعطى العبارة كان ذلك كالإذن من الله فى الكلام .

قال : وسمعت أبا العباس يقول : كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة ، وكلام الذى لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار حتى إن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة فتقبل من أحدهما وترد على الآخر اهـ .

قلت : وينبغى لأهل التعبير أن يخاطبوا الناس بقدر ما يفهمون ، فليس التعبير لأهل البداية كأهل النهاية . وفى الحديث .

« خَاطِبُوا النَّاسَ بِقَدْرِ مَا يَفْهَمُونَ » .

نعم إن ضاق الوقت على التفريق جمع الكل وذكر فى البداية والوسط والنهاية ، وكل واحد يأخذ نصيبه ويشرب من منهله :

(قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ)[1] .

وهذه كانت طريقة الجنيد رضى الله عنه ، يلقى الحقائق على رءوس

---

(١) سورة البقرة الآية : ٦٠ .

الأشهاد ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : علمنا محفوظ أن يأخذه غير أهله أو ما هذا معناه .

ثم عبارتهم بعد الإذن لا تكون إلا لحكمة بينها الشيخ بقوله :

[**عبارتهم إما لفيضان وجد أو لقصد هداية مريد**] .

قلت : ما اشتملت عليه قلوب العارفين من المعارف ، وأسرار التوحيد وغوامض العلوم التى لا تطيقها جل الفهوم هو سر من أسرار الله ، وهم أمناء الله عليها ، فلا يطلعون عليها إلا من رأوه أهلا لها إلا من كان مغلوبًا على حاله لا يقدر على إمساكها ، وهو من لم يتمكن من حاله فيها ، فعبارتهم إذًا إما لفيضان وجد غلبه فلم يقدر على إمساكها ، أو لأجل هداية مريد وإرشاده وترقيته إلى مقام استحق الاطلاع عليه ، وإلا فلا يظهرون من تلك الأسرار قليلًا ولا أقل من القليل ، وقد تقدم قول بعضهم : قلوب الأحرار قبور الأسرار . وقال آخر :

لَا يَكْتمُ السِّرَّ إلَّا كلُّ ذِى ثِقَةٍ   فَالسِّرُّ عِنْدَ خِيَارِ النَّاسِ مَكْتُومُ

ثم بين حال الفريقين ومقام الرجلين فقال :

[**الأول حال السالكين**] .

وهم المستشرفون من السائرين ، حققوا ولم يتمكنوا ، فهم مملوكون من يد الأحوال . إذا غلب عليهم الوجد فاضوا ولم يشعروا ، وإذا رجعوا إلى أنفسهم ندموا واستغفروا . ثم بين حال الثانى فقال :

[**والثانى حال أرباب المكنة والمتحققين**] .

وهم الراسخون المتمكنون ، فلا يعبرون عن تلك الأسرار إلا لأجل هداية المريدين ، وتربية السالكين وترقية السائرين ، وأما لغير هؤلاء فلا ، فإن عبر عنها السالك لا عن غلبة وجد كان فى ذلك نوع من الدعوى ، وإن عبر عنها المتمكن من غير قصد هداية كان فى ذلك إفشاء لأسرار الربوبية ، وهى عندهم أعز من الكبريت الأحمر . وقد كان الرجل يخدمهم سنين فلا يظهرون له منها قليلا ولا كثيرًا ، حتى إذا رأوه أعطى نفسه وفلسه وبذل روحه بالكلية أشاروا إليه إشارة خفية .

فقد ذكر شيخ شيوخنا سيدى على فى كتابه أن طائفة من المريدين خدموا شيخنا ثلاثين سنة ، ثم قالوا له : ياسيدنا أردنا أن تعرفنا بربنا ، فقال لهم : نعم غدًا ائتونى لدارى فلما أتوه أخرج لهم صبيًّا صغيرًا فوجهه إليهم ، ثم دخل ، فانظر هذه الإشارة ماألطفها وأخفاها ، ثم منّ الله على أهل هذا الزمان برجال كرام من صحبهم بالصدق ومنحوه من الأسرار فى يسير من الزمان ما لم يدركه المتقدمون فى الأزمنة الطويلة ، جزاهم الله عن الأمة المحمدية خيرًا .

وقد تكلم الشيخ أبو الحسن على حال السالكين والواصلين بكلام طويل ذكره فى لطائف المنن ، ونقله الشطيبى فقال : إن لله عبادًا محق أفعالهم بأفعاله ، وأوصافهم بأوصافه ، وذاتهم بذاته ، وحملهم من أوصافه ما يعجز عن سماعه عامة الخلق ، فهم مغرقون فى بحر الذات وتيار الصفات ، فنوا عن أفعالهم ، ثم فنوا عن صفاتهم ، ثم فنوا عن ذاتهم وبقوا بذات الله تعالى ، ولم يبق لهم منهم شىء ، ومن كان فى الله تلفه كان على الله خلفه ، ومن صح فناؤه صح بقاؤه .

ثم قال : واعلم أن الفناء يوجب الغيبة عما سوى الله قلت : وهو مقام السالكين ، والبقاء يوجب إيجاد كل شىء مع الله يعنى بالله ، فصاحب الفناء يقوم الله عنه ، وصاحب البقاء يقوم بالله عن الله ، وهما ولايتان ، فولى يتولى الله ورسوله والذين آمنوا ، وولى يتولاه الله وهو يتولى الصالحين .

قال الشيخ أبو الحسن : وعلامة الولاية الرضا بالقضاء ، والصبر على البلاء ، والفرار إلى الله عند الشدائد ، والرجوع إليه عند النوائب ، فمن أعطى هذه الأربعة من خزائن الأعمال والمجاهدة فقد صحت ولايته لله ورسوله وللمؤمنين ، ومن أعطيها من خزائن المنن والمواددة فقد تمت ولاية الله له ، فالولاية الأولى ولاية صغرى ، والولاية الثانية ولاية كبرى . قيل له كيف يتولى الله ورسوله والذين آمنوا قال : يتولى الله بالمجاهدة ، لقوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[1] ويتولى الرسول بالمتابعة ﴿ قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾[2] ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ

---

(١) العنكبوت : ٦٩ . (٢) آل عمران : ٣١ .

فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ)[1] .

ويتولى المؤمنين بالاقتداء بهم ، وهى علامات من خاض بحر الولاية .

وأما الذين تولاهم الله : فهم الذين صلحوا لحضرته ، وغابوا عن خليقته ، فلا يرون فى الوجود إلا الله : الأولى تسمى ولاية إيمان ، وهذه ولاية إيقان ، فقيل له : وما الفرق بين الإيمان والإيقان ؟ قال : كل يقين إيمان ، وليس كل إيمان إيقانًا ، فالإيمان ربما تدخله الغفلة ، والإيقان لا تدخله الغفلة . المؤمن يتجلى له الحق دون كل شىء ، والمؤمن يتجلى له الحق فى كل شىء ، المؤمن فانٍ عن كل شىء فلم يشهد مع الله شيئًا والموقن باق فى كل شىء ، فهو يشهد الله فى كل شىء اهـ .

ثم بين المؤلف رضى الله عنه فائدة التعبير وثمرة العبارة فقال :

[العبارة قوت لعائلة قلوب المستمعين ، وليس لك منها إلا ماأنت له آكل] .

قلت : العائل هو الفقير والعائلة جمع له ، فعبارة العارفين قوت لقلوب الفقراء الطالبين لزيادة إيقان قلوبهم ومشاهدة محبوبهم ، فلا يزالون فى حضانة الشيوخ وعيالهم حتى يكمل إيقانهم وترشد أحوالهم ، فحينئذ يستقلون بأنفسهم . وعلامة رشدهم أنهم يأخذون النصيب من كل شىء ، ولا ينقص من حالهم شىء ، يفهمون عن الله فى كل شىء ، ويعرفون فى كل شىء ، ويشربون من كل شىء ، فإذا كانوا كذلك فقد استقلوا بأنفسهم، وتأهلوا لإرشاد غيرهم .

قال بعض الحكماء : من لم يفهم صرير الباب ، ولاطنين الذباب ، ولا نبيح الكلاب ، فليس من ذوى الألباب .

وأما من لم يبلغ هذا المقام فلابد أن يلزم العش فى حضانة من يرزقه ويطعمه ، فإذا طار من العش قبل تربية الجناح اصطادته الكلاب والبيزان ، ولعبت به النساء والصبيان ، فإذا كان فى عش الشيخ وكان يطعمه مع غيره فليس له من القوت إلا ما يقدر أن يأكله وإلا قتله ، فليس طعام الصبى الصغير كطعام الرجل الكبير ، وكذلك عبارة الشيوخ للمريدين كل واحد يأخذ ما يليق

---

(١) النساء : ٨٠ .

بحاله ، فالشيوخ يذكرون فى الجملة ، فيذكرون أحوال البدايات والنهايات والوسط وكل واحد يأخذ ما يليق به :

(قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ) .

فلا يتعلق المبتدى بمذاكرة المنتهى فيفسد ، كما إذا أكل الطفل الصغير طعام الكبير يقف فى حلقه ، وإذا أكل الكبير طعام الصغير لا يشبعه ، هذا معنى قول الشيخ : وليس لك منها إلا ما أنت آكل : أى ليس لك من قوت العبارة إلا ما أنت قادر على أكله وإلا غصصت به ، والله تعالى أعلم .

وقد سألنى بعض الإخوان عن قوت الروحانية والبشرية . فقلت : قوت البشرية معلوم ، وقوت الروحانية على وزان قوت البشرية ، فالصبى لا يطيق الطعام الخشن حتى يكبر ، كذلك الروح تربى شيئًا فشيئًا ، فتطعم أولا ذكر اللسان فقط ، ثم ذكر القلب مع اللسان ، ثم ذكر القلب فقط ، ثم ذكر الروح وهو الفكرة ، ثم ذكر السر وهو النظرة ، ثم تأكل كل شىء وتشرب من كل شىء حتى تسرط[1] الكون بأسره ، فلو أعطيتها الفكرة أو النظرة الذى هو طعام الرجال أول مرة وهى فى مقام الأطفال للفظته وطرحته ، فإذا بلغت الروح أن تأكل كل شىء وتشرب من كل شىء ، فقد صح لها أن تطير فى الملكوت الأعلى وتذهب حيث تشاء .

وقد يختلف الشرب لجماعة من آنية واحدة لاختلاف مقامهم كقضية الرجال الذين سمعوا قائلا يقول : ياسعتر برى ، وذلك أن رجلا فى الصفا بمكة صاح ياسعتر برى لرجل آخر كان اسمه ذلك فسمعه الثلاثة ، فكل واحد تعلق بذهنه مايليق بحاله ، فسمع أحدهم الساعة ترى برى ، وسمع الآخر : اسع تر برى ، وسمع الثالث : ما أوسع برى فالأول كان مستشرفًا ، والثانى مبتديًا ، والثالث كان واصلا . وكذلك قضية ابن الجوزى كان يقرأ ببغداد اثنى عشر علمًا فخرج يومًا لبعض شئونه ، فسمع قائلا يقول :

إِذَا العِشْرُونَ مِنْ شَعْبَانَ وَلَّتْ ... فَوَاصِلْ شُرْبَ لَيْلِكَ بِالنَّهَارِ
وَلَا تَشْرَبْ بِأَقْدَاحٍ صِغَارٍ ... فَقَدْ ضَاقَ الزَّمَانُ عَلَى الصِّغَارِ

---

(١) سرط الشىء : ابتلعه وسار سيرًا سهلا . مصححه .

فخرج هائمًا على وجهه إلى مكة ، فلم يزل يعبد الله بها حتى مات رحمه الله ، ففهم من الشاعر انصراف العمر وضيق زمان الدنيا كله .

قال فى لطائف المنن : واعلم أن هذه المفهومات المعنوية الخارجة عن الفهم الظاهر ليست بإحالة اللفظ عن مفهومه ، بل هو فهم زائد على الفهم العام يهبه الله لهذه الطائفة من أرباب القلوب ، وهو من باطن الحكم المندرج فى ظاهره اندراج النبات فى الحبة ، وذلك أن المدد النورانى والفتح الربانى يتصل بعضه ببعض إلى الطرف الظاهر حيث انتهت القوة انتهى الإدراك ، فربما فهموا ما يوافق ظاهر المعنى الباطنية ، وربما خالفه من جهة ما ، وربما كان الفهم بعكس ظاهره .

وقد كان الشيخ مكين الدين بن الأسمر رضى الله عنه ممن يشهد له الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه بالولاية الكبرى والمكاشفة العظمى ، فأنشد إنسان فى مجلسه .

لَوْ كانَ لِى مُسْعِدٌ بالراحِ يُسْعِدُنِى ... لَمَا انْتَظَرْتُ لِشُرْبِ الرَّاحِ إفْطَارَا
الرَّاحُ شَىء شَرِيفٌ أَنْتَ شَارِبُه ... فَاشْرَبْ وَلَوْ حَمَّلَتْكَ الرَّاحُ أَوْزَارَا
يَامَنْ يلُومُ عَلَى صَهْبَاءَ صَافِيَةٍ ... خُذِ الجِنَانَ وَدَعْنِى أَسْكُنُ النَّارَا

فقال بعض فقهاء الظاهر : لا يجوز قراءة هذه الأبيات ، فقال الشيخ مكين الدين : قل دعه فإنه رجل محجوب ، يعنى أنه لا يفهم إلا الشراب الحسى دون المعنوى وهو جمود ، والله تعالى أعلم .

ثم إن العبارة لا تدل عل حال المعبر ، فقد يكون فوق ما يقول ، وقد يكون دون ما يقول كما أشار إلى بيان ذلك بقوله :

[ربما عبر عن المقام من استشرف عليه وربما عبر عنه من وصل إليه ، وذلك ملتبس إلا على صاحب بصيرة] .

قلت : العبارة لا تدل على نهاية المعبر ولا وصوله إلى ما عبر عنه ، فقد يعبر عن المقام من لم يصل إليه ، ولكن استشرف عليه ، وقد يعبر عنه من وصل إليه ، وربما عبر عن المقام وقدمه فوق ما عبر عنه وذلك ملتبس ، إذ لا يعرف

المستشرف من الواصل إلا ذو بصيرة نافذة ، يعنى من فتح عليه فى المعرفة ، فلك من فتح عليه فى معرفة الله ورفع عنه الحجاب عرف كلام الواصل من المستشرف ، فليس من خالط البلد ووصفها ثم نعتها كمن استشرف عليها ولم يدخلها ثم جعل ينعتها .

قال بعضهم : وقد يعرف المستشرف بطول التعبير والواصل باختصاره ، فالمستشرف يطول العبارة ويكررها ، والواصل من أول مرة يدركها . وقد قالوا : العارف بالضرب لا يكثر الهنى ، والعارف بالمفاضل لا يكثر الحنى .

قلت : وهذه القاعدة ليست كلية ، إذ كثير من العارفين الواصلين تطول عبارتهم لمعرفتهم بمفاصل الخطاب ، ومن المستشرفين من تقصر عبارتهم .

قال المؤلف رضى الله عنه : الاستشراف والوصول ليس إلا مراتب التوجه للتحقق بالعجز ، فمن وصل لمعرفة العجز عن الوصول فهو الواصل ، لكن العجز لا يكون إلا بعد الاتصاف به حقيقة لا مجازًا ، وذلك أن الجاهل عجزه حالى قهرى ، والعارف عجزه جلالى رحمانى .

قلت : المراد بالعجز فى حقه الحيرة والدهش أوّلا ، ثم العجز عن الإحالة والكنه ثانيًا ، ثم قال : يشهد لذلك أن الجاهل متى تحرك وقع فى الحظوظ ، والعارف لا يتحقق إلا بالحقوق ، والجاهل نصيبه الوهم ، والعارف نصيبه الفهم ، الجاهل طالب للعلم ، والعارف طالب للمعلوم . الجاهل تابع بنظره للصور الحسية ، والعارف غائص ببصيرته مع الأرواح المعنوية ، وجميع المراتب والمقامات مراحل بين الحس والمعنى ، وانتقال من الهياكل الجسمية للعوالم القلبية ، ثم من العوالم القلبية إلى الحقائق الروحانية ، ثم من الحقائق الروحانية إلى الأسرار الربانية ، ثم من الأسرار الربانية إلى المعارف التوحيدية اهـ .

ثم لا ينبغى للسالك أن يعبر عن هذه الأسرار إذا واجهته فى طريق السلوك ، كما أبان ذلك بقوله :

[لا ينبغى للسالك أن يعبر عن وارداته ، فإن ذلك مما يقلل عملها فى قلبه ويمنعه وجود الصدق فيها مع ربه] .

قلت : المريد فى حال سيره مأمور بالكتمان لعلمه وعمله وحال وارداته ، فإفشاؤه لعمله من قلة إخلاصه ، وإفشاؤه لأحواله من قلة صدقه مع ربه .

وأيضًا الأحوال تأتى من حضرة قهار فتزعج القلوب خوفًا وتقلقها شوقًا ، فإذا أفشى ذلك كان تبريدًا لها وإطفاء لنورها ، كمن غلت قدرته فصب فيها الماء البارد فيطول عليه غليانها ثانيًا ، ولو قلل نارها وحركها لاستفاد إدامها ، كذلك الواردات الإلهية تفجأ القلوب لتحركها إلى النهوض إلى مولاها ، فإذا أفشاها وذكرها للناس قل عملها فى قلبه ودل على صدقه فيها مع ربه .

قلت : ومن ذلك استعمال الأحوال التى تُميت النفوس لا ينبغى إفشاؤها ، فللنفس حظ فى ذلك لأنها مجبولة على حب المدح والذكر الحسن ولو من الإخوان . كثيرًا ما ترى بعض الفقراء يذكرونها ويتبجحون بها وهو غير صواب ، نعم إن كان يقتدى به فيذكرها للاقتداء ولإنهاض الفقراء فذلك حسن مع نية حسنة ، وكثيرًا ما تستعمل هذه الأحوال فى حال السؤال فلذلك ذكره بأثر .

أو تقول : لما كان التعبير عن الواردات الإلهية مما يوجب الإقبال والتعظيم ، فيؤدى ذلك إلى العطاء فيحتاج إلى آداب القبض بين ذلك بقوله :

[لا تمدن يدك إلى الأخذ من الخلائق إلا أن ترى أن المعطى فيهم مولاك ، فإن كنت كذلك فخذ ما وافقك العلم] .

قلت : مد اليد إلى الأخذ من الخلائق على قسمين : إما أن يكون من غير سؤال أو بعد السؤال ، ولكل واحد منهما أحكام .

أما الأخذ من غير سؤال فشرطه أمران : أحدهما علمى ، والآخر صوفى .

أما العلمى فلا يأخذ ممن كسبه حرام ، ولا مخلط ، ولا محجور عليه كالصبى والمجنون والعبد .

وأما الصوفى ، فلا يقبض حتى يعرف ممن يقبض علمًا وحالا ، فإن اتسعت معرفته وتحقق فناؤه بحيث لم يبق له نظر للواسطة أصلا فربما يسلم له القبض مطلقًا ، لأنه يقبض من الله ويدفع بالله ، ولكن الكمال هو الجمع بين الحقيقة والشريعة ، وقد كان كثير من الصوفية الحقيقيين يقبضون جوائز السلطان ثم يدفعونها على أيديهم .

وأما القبض بعد السؤال فالكلام عليه من وجهين : الأول فى جواز السؤال

ومنعه . والثانى فيما يقبضه بعد أخذه .

أما حكم السؤال فأصله الجواز ، قال الله تعالى :

(وأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)[1] .

فلو كان ممنوعًا ما نهى الله عن نهره . ثم تعتريه الأقسام الخمسة : يكون واجبًا ، ومندوبًا ، ومباحًا ومكروهًا ، وحرامًا .

فأما الواجب : فهو ما يكون لسدّ الرمق ، بحيث إذا ترك السؤال مات فهذا واجب عليه ، فلو تركه حتى مات ، مات عاصيًا فأوجبه الشارع خوفًا على فوات حياة البشرية الحسية ، وأوجبته الصوفية أيضًا على من خاف فوات حياة الروحانية بحيث منعته الرياسة من حظ رأسه وذبح نفسه . فقد نقل القسطلانى فى شرح البخارى عن ابن العربى المعافرى أنه قال هو واجب على المريد فى البداية .

فتحصل أنه واجب حيث يخاف فوات حياة البشرية أو الروحانية ، وإليه أشار ابن البناء بقوله :

وَما عَلَى السَّائِل مِنْ تَأْوِيلِ ... لِأَجْلِ قَهْرِ النَّفْسِ وَالتَّذْلِيلِ
فَمَنْ أُولِى الأَذْوَاقِ وَالأَحْوَالِ ... مَنْ كانَ رَاضَ النَّفْسَ بِالسُّؤَالِ
قَالُوا وَلَا خَيْرَ إِذًا فى الْعَبْدِ ... مَالَمْ يكُنْ قَدْ ذَاقَ طَعْمَ الرَّدِّ

وبالجملة فهو لرياضة النفس واجب أو مندوب .

وكان إبراهيم الخواص تعرض عليه الألوف فلا يقبلها ، وربما سأل من يعرف من الناس الدرهم والدرهمين لا يزيد على ذلك .

وأما المندوب : فهو أن يسأل لغيره فهو من التعاون على البر ، فيسأل الطعام ليطعمه من يستحى ، أو يسأل اللباس أو غير ذلك . وقد سأل النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه حين قدموا عليه عراة . ويدخل فى المندوب ما كان لرياضة النفوس حيث لم يخف عليه كما تقدم .

وأما المكروه : فهو أن يسأل لقوت البشرية مع القدرة على الاستغناء عنه

---

(١) الضحى : ١٠ .

بسبب من الأسباب ، وهذا ما لم ينقطع للعبادة ويتجرد إلى الذكر . وأما المنقطع إلى الله فلا بأس به وقد فعله كثير من العارفين المحققين .

فقد كان أبو جعفر الحداد وهو شيخ الجنيد يسأل بابًا أو بابين أو ثلاثًا بين العشاءين فكانت العامة تتعجب منه أوّلا ثم عرف بذلك ، فكان لا يعيبه عليه العامة ولا الخاصة مع جلالة قدره وعلو معرفته بربه .

وكان الشيخ أبو سعيد الخراز إذا اشتدت به الفاقة يمد يده ويقول من عنده شيء لله ؟

وكان إبراهيم بن أدهم معتكفًا بجامع البصرة ولا يفطر إلا من ثلاثة أيام إلى ثلاثة أيام ، يخرج بعد صلاة المغرب يطلب على الأبواب فطره .

وكان سفيان الثورى رضى الله عنه يسأل الطعام لله ، فإن فتح بكثير أخذ كفايته وترك الآخر . وأكثر الرجال على هذه الحال قطعوا الدنيا الفانية لإيثارهم الأخرى الباقية ، وكل ذلك لا يقدح فى شريعة ولا حقيقة ، ولا يطفئ نور المعرفة ، وقد أشار ابن البناء إلى هذين القسمين ، أعنى المندوب والمكروه فقال :

وَكَرِهُوا سُؤَالَهُ لِنَفْسِهِ ثُمَّ أَبَاحُوهُ لأَجْلِ جِنْسِهِ
وَلَمْ يَعُدُّوهُ مِنَ السُّؤَالِ لكِنْ مِنَ العَوْنِ عَلَى الأَعْمَالِ
إِذْ كانَ خَيْرُ الخلقِ فى أَتْرَابِهِ يَسأَل أَحيَانًا إِلَى أَصْحَابِهِ

وأما المباح : فهو أن يسأل الحاجة غير الضرورية كسؤاله لقضاء دينه ، أو ما يزيد على ستر عورته وسد رمقه ، أو غير ذلك مما ليس بضرورة لكنه حاجى : أى محتاج إليه .

وأما المحرم : فهو أن يسأل تكثرًا أو زيادة على ما يكفيه .

وفى الحديث : « مَنْ لَهُ أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا فَالسؤَالُ عَلَيْهِ حَرَامٌ » وفيه ورد الحديث : « إِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ القيامَةِ وَلَيْسَ فى وَجْهِهِ مُزْعَةُ لحَمٍ » .

ومن المحرم أيضًا ما فيه إلحاح وإضرار بالمسئول . قال تعالى :

(لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا)[١] .

قلت : وأما ما يفعله بعض أصحابنا من صورة الإلحاح بنا ، فإنما قصدهم بذلك قتل نفوسهم بما يسمعون من المسئول فى جانبهم ، ولا يفعلونه إلا مع من يعرف عندهم بالإنكار ، فيستخرجون منه الجلال اختبارًا لأنفسهم ، وقد يقصدون بذلك تحقيق الإخلاص وسترًا للحال ، فيظهرون الرغبة وهم من أزهد الناس تحقيقًا للاكتفاء بعلم الله ، وما كان ذلك إلا فى حال قوتهم وجذبهم فالسكر غالب عليهم ، هذا ما حققته منهم ، وقد انقطع ذلك كله اليوم ، فما بقى إلا أهل الصفاء وأهل الوفاء .

وسبب دخول السؤال فى هذه الطائفة أن شيخ شيوخنا سيدى على الجمل العمرانى رضى الله عنه كان له جاه ووزارة ورياسة فى فاس ، فلما دخل فى يد الشيخ ورأى صدقه وجدّه قال له : أرى لك خمرة لم يقدر عليها أحد قبلك ، ولولا ما رأيت فيك من الصدق والجد ما دللتك عليها ، قال : وما هى ياسيدى ؟ فقال السوق للسؤال ، هكذا سمعته من بعض الإخوان .

والذى رأيته فى كتابه أنه قال له : ياولدى أراك تطلب هذا العلم ولا تنال منه ما تريد إلا بالذل ، فدخل فيه وسكن إلى مماته ، فلما ذاق سره ورأى ما فيه من الأسرار ، وما يقطع به المريد فى سيره من المفاوز والقفار ، سير أصحابه عليه ودلهم على استعماله ، فكان أصل مشروعيته قتل النفوس ، لا قبض الفلوس ، فمن استعمله لقتل النفوس ، ولَج حضرة القدوس ، إذا ما حجبنا عنها إلا حياة النفوس ، ومن استعمله لقبض الفلوس نال الشقاء والبؤس . وينبغى أن يكون فى حال السؤال يده مشيرة إلى الخلق وقلبه معلق بالحق ، قال فى المباحث :

وَآدابُ الصُّوفِىِّ عِنْدَ المَسْأَلَهْ ... أَنْ يَدْخُلَ السُّوقَ إِلَيْهِ يَسْأَلَهْ
لِسانُهُ يُشِيرُ نحْوَ الخَلقِ ... وَقَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالحَقِّ

وقد ذكر ابن ليون التجيبى السؤال ، وبين أصله ، وذكر مسألة الزنبيل .

---

(١) البقرة : ٢٧٣ .

وكيفيته أن يتوضأ الرجل ويصلى ركعتين ، ويأخذ الزنبيل يعنى وعاء بيده اليمنى ، ويخرج إلى السوق ومعه رجل آخر يذكر الله ويذكر الناس ، والناس يعطونه فى ذلك الزنبيل حتى يجمع ما تيسر من الطعام ، ويصبه بين الفقراء فيأكلون طعامًا حلالا بلا تكلف ولا كلفة هذا ما تيسر لنا فى حكم السؤال .

والذى يظهر لنا فى تركه اليوم أحسن من استعماله ، إذ زالت هيبته وصار حرفة من الحرف ، فصارت نفس كثير من الفقراء تبطش إليه ، وما ذلك إلا لما فيه من الحظ عندها ، والله تعالى أعلم .

وأما ما يأخذه من السؤال ، فإن كان فقيرًا إليه أخذه ، وإن كان غنيًّا عنه تصدق به خفية بالليل مثلا .

وكان شيخ شيخنا رضى الله عنه يقول : كان قصدنا من السؤال قوت الأرواح ، فلما خرج منه قوت الأشباح تبارك الله ، يعنى فيأخذه من اضطر إليه وبالله التوفيق ، وهذه الحكمة التى ذكرها الشيخ هى من أعظم المهمات التى يحتاج إليها أهل التجريد ، وليس مقصوده الكلام على السؤال ، إنما مقصوده الدلالة على تربية اليقين . وعدم التشوف إلى المخلوقين فلا يعلق قلبه بالمخلوق ، فإن تشوف إليه فينبغى ألا يقبض ما يعطاه ، ولا يمد يده إلى الأخذ منه حتى يرى أن المعطى هو الله ، ويكون ذلك ذوقًا وحالا .

قلت : وهذا الشرط إنما هو فيما يأخذه بغير سؤال . وأما فى حال السؤال فلا يشترط بل يكون علمًا ومجاهدة حتى يصير حالا وذوقًا . وأما ما يأخذه بغير سؤال فلابد من هذه المعرفة .

وقال شيخ شيخنا : لا تشترط هذه المعرفة بل يكفيه العلم فيها ، وهو الأصح ما لم تتشوف نفسه إلى الخلق ، فإن تشوفت نفسه فليكف عن القبض من الخلق ، وليكتف بضمان الملك الحق . قال تعالى :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا)[1] .

قيل لبعضهم : كيف خرجت من الدنيا بعد أن كانت فى يدك ؟ قال : نظرت منصفًا فى معنى قوله تعالى : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها)

---

(١) هود : ٦ .

فرأيت جميع الخلق من البعوضة إلى الفيل تكفل الله لهم بالرزق ، ففوضت أمرى إليه ، واشتغلت بالعبادة .

وقال عيسى عليه السلام : لا تهتموا بالرزق ، فإن الذرة على صغرها تؤتى كل يوم برزقها الحديث .

وقال أيضًا عليه السلام : عجبت لمن يعمل للدنيا وهو يرزق فيها بلا عمل ، ولا يعمل للآخرة وهو لا يرزق فيها إلا بالعمل .

وقال صلى الله عليه وسلم :

«مَنْ كانَ هَمُّهُ الآخِرَةَ جَعَلَ الله غِنَاهُ فى قَلْبِهِ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِىَ رَاغِمَةٌ ، وَمَنْ كَانَ هَمُّهُ الدُّنْيَا جَعَلَ الله فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْه ، وَلم يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَاقُدِّرَ لَهُ ، وَإِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ الْعَبْدَ كما يَطْلُبُهُ » .

وكان يحيى بن معاذ يقسم أنه لا تسكن الحكمة قلبًا فيه ثلاث خصال : هم الرزق ، وحسد الخلق ، وحب الجاه .

وكان حبيب العجمى يخدم الحسن البصرى فصنع حبيب طعامًا لإفطارهما وإذا بسائل فأعطاه جميعه ، فقال الحسن : ياحبيب إنك كثير اليقين ، قليل العلم ، فهلا أعطيته النصف ونتقوت بالنصف ؟ فقال : ياسيدى ثوابه لك وأنا أستغفر الله ، فلما جن الليل وإذا بقارع على الباب فخرج حبيب فوجد عبدًا معه طعام كثير والشتاء ينزل والغلام يبكى ، فقال له : ما هذا ، قال طعام ، قال لى سيدى إن قبله منك الحسن البصرى فأنت حر لوجه الله ، وقد طال على الرق ، فقال حبيب : لا إله إلا الله عتق رقبة وإطعام جائع ، ثم دخل به على الحسن وقال : ياسيدى إنك كثير العلم قليل اليقين ، فقال : ياحبيب تقدمناك وسبقتنا اهـ .

قلت : ولشيخ شيخنا مثل هذه الحكاية ، ذكرها لى بعض أصحابه ، ثم سألته عنها فقال : هى صحيحة ، وذلك أن أهله صنعوا طعامًا جيدًا ، فلما وضعوه بين أيديهم وإذا بسائل يسأل ، فأخرجه له الشيخ كله وبقى أولاده بغير عشاء ، فلما كان بعد صلاة العشاء وإذا برجل يدق الباب ، فخرج الشيخ فوجد رجلا معه

مائدة فيها ألوان من الطعام ، فأدخلها لعياله رضى الله عنه .

وقال بعض الأغنياء : كنت نائمًا وإذا بإنسان قد وقف علىّ فى عالم النوم وزجرنى وقال لى : أجب الملهوف ، فانتبهت وأنا مذعور ولم أدر ما أصنع ، فأوقع الله فى قلبى أن أخذت صرة فيها مائة دينار وركبت دابة وأطلقت زمامها ، فخرجت بى من العمران إلى مسجد خرب ووقفت ، فنزلت ودخلت المسجد فوجدت مسكينًا وهو يتضرع إلى الله ويسأله من فضله ، فسألته عن حاله ؟ فقال : أنا صاحب عيال ولى بنيات منذ ثلاث ما طعموا ، فأنا أسأل الله من فضله ، فدفعت له المائة وقلت له : إذا نفدت فاسأل عنى فأنا فلان وائتنى ، فقال : لا والله ما أسأل غير الله ، ثم انصرفت وأنا متعجب من ثقته بالله تعالى .

فهذه حكاية جنود من جنود الله تعالى تقوِّى اليقين وتوجب الثقة برب العالمين ، فيستحى العبد من الله أن يرفع حاجته إليه ، فأولى ألا يرفعها إلى غيره كما بين ذلك بقوله :

[ربما استحيا العارف أن يرفع حاجته إلى مولاه اكتفاء بمشيئته ، فكيف لا يستحيى أن يرفعها إلى خليفته] .

قلت : العارف هو الذى بلغ من التقرب والقرب حتى امتحق عن نفسه بالكلية ، وزالت عنه الأينية والغيرية ، بحيث لم يبق له عن نفسه إخبار ، ولا مع غير مولاه قرار ، فإذا أراد أن يسأل عبودية استحيا من مولاه أن يثبت معه سواه ، اكتفاء بمشيئته ، وتحقيقًا لأحديته ، فإذا كان يستحيى من مولاه أن يرفع حوائجه إليه فكيف لا يستحيى منه أن يرفعها إلى غيره ، فلا جرم أن الحق سبحانه يعطيه أفضل ما يعطى السائلين ، ويبوئه فى مقعد صدق مع النبيين والصديقين ، وقد تقدم الحديث « من شغله ذكرى » إلخ .

وقال سهل بن عبد الله : ما من وقت إلا والله تعالى مطلع فيه على قلوب عباده ، فأى قلب رأى فيه حاجة إلى سواه سلط عليه الشيطان وحجبه عنه اهـ .

وقيل للواسطى لم لا تسأل الله شيئًا ؟ فقال : أخشى أن يقال لى : إن سألنا

الذى لك عندها فقد اتهمتنا ، وإن سألتنا ما ليس لك عندها فقد أسأت الأدب معنا ، وإن سلمت الأمر لنا ونظرت بنظرنا أجرينا لك الأمور على مقتضى الموافقة اهـ هذا آخر الباب الموفى عشرين .

وحاصلها : الكلام على الكرامات وما ينشأ عنها من العبارات ، لأن الكرامات الحقيقية هى الاستقامة على العبودية ، ومشاهدة أنوار الربوبية ، فإذا تحقق ذلك فى الولى فاض بالحكم وأذن له فى التعبير ، فحينئذ ربما يقبل عليه الخلق بالعطاء ، فإذا عرف فيهم مولاه حل له الأخذ من أيديهم وإلا فلا .

وأما السؤال منهم لقوت البشرية ، فلا يتصور من العارفين ، استحياء من الله واكتفاء بعلمه ومشيئته ، هذا مقام الواصلين . وأما السائرون فهم عاملون على مجاهدة نفوسهم ، فإن ثقل عليها السؤال قدموها إليه ، وإن ثقل عليها الفاقة والصبر والاكتفاء بالمشيئة والعلم قدموه ، كما بين ذلك الشيخ رضى الله عنه فى أول الباب الحادى والعشرين بقوله رضى الله عنه :

الباب الحادى والعشرون

اختيار أحسن الأمرين

[إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه ، فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقًا] .

قلت : هذا ميزان صحيح فى حق السائرين المشتغلين بالجهاد الأكبر :

قال تعالى : (وَجاهِدُوا فى الله حَقَّ جِهَادِهِ)[1] وقال : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)[2] .

فكل ما يثقل على نفس المريد وتنفر منه فهو حق . فالواجب على المريد اتباعه ، وكل ما يخف عليها فهو باطل وفيه حظها ، فالواجب عليه اجتنابه وهذا الأمر يختلف اختلافًا كثيرًا ، فرب نفس يثقل عليها غير ما يثقل على الأخرى ، فبعضها يثقل عليها الصمت وبعضها يثقل عليها الكلام ، كما إذا تربى فى الصمت ، وبعضها يثقل عليها العزلة ، وبعضهايثقل عليها الخلطة ، وبعضها يثقل عليها الصيام ، وبعضها الفطر ، وبعضها يثقل عليها السؤال وتموت منه فى ساعة واحدة ، وبعضها يخف عليها كما إذا تعودته قبل الأمر به ، وقس على ذلك .

فليكن العبد على نفسه بصيرة ، ويصير معها على عكس مرادها ، هكذا يستمر معها يخالفها فيما تأمره ويتهمها فيما تستحسنه . فإذا تزكت وتطهرت من الحس ولم يبق فيها بقية فحينئذ يجب عليه موافقتها ، إذ لا يتجلى فيها حينئذ إلا الحق ، فقد جاء الحق وزهق الباطل ، فيصير أمر العارف معكوسًا مع السائر .

---

(١) الحج : ٧٨ .
(٢) العنكبوت : ٦٩ .

فالسائر يضره التدبير والاختيار والعارف ينفعه ، والسائر تضره الخلطة والعارف تنفعه . السائر يضره الكلام والعارف ينفعه ، السائر تضره الدنيا ويهرب منها . والعارف غائب عنها لا تضره . وربما تنفعه .

والحاصل : أن الواصل معكوس مع السائر فى أموره كلها . وبالله التوفيق .

ويجب على من أراد جهاد نفسه أن يلقيها إلى شيخ التربية ، إذ قد يلتبس عليه أمرها وعلى فرض علمه بما ينقل عليها لا قدرة له على مجاهدتها إلا بهمة الشيخ ، هذه سنة الله فى عباده ، فإن النفس لا تريد أن تخرج عن رأيها ومرادها أبدًا ، فالواجب إسلامها إلى من يعينه عليها ، وانظر التكاليف الشرعية تجدها مخالفة لهوى النفس ، ومن لا يلقى قياده إلى الشرع فهو كافر ، وما كفر من كفر إلا بتتبع الأهواء ، والله تعالى أعلم .

ميزان آخر للعمل

وهاهنا ميزان آخر تعرف به العمل الذى فيه حظ النفس وهواها ، وما لاحظ لها فيه هو أن تعرض عليها الموت وأنت فى ذلك العمل ، فإن رضيت بالموت وهى فى ذلك العمل فالعمل صحيح ، وإن لم ترض بالموت وهى فى ذلك العمل فالعمل باطل ، فكل عمل لا يهزمه الموت فهو صحيح : وكل عمل يهزمه الموت فهو باطل ، يعنى فيه الهوى والحظ ، وكذلك الإنسان يزن نفسه بهذا الميزان ليعرف هل رحل من هذا العالم أو هو باق ، فيعرض الموت على نفسه فى حال عافية وجمال ، فإذا قبلت الموت ولم تفر منه فليعلم أنه رحل من هذا العالم ، وإن لم تقبل نفسه الموت وطلبت البقاء ففيه بقية بقدر ما تفر منها ، وبالله التوفيق .

علامة اتباع الهوى

ثم ذكر الشيخ ميزانًا آخر يعرف به اتباع الهوى من الحق فقال :

[من علامة اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات ، والتكاسل عن القيام بالواجبات] .

قلت : هذا ميزان آخر ، وإن شئت قلت هو داخل فى الميزان الأول ، إذ من شأن النفس أن يثقل عليها الواجب لمشاركة الناس لها فيه ، إذ جلّ الناس يفعلونه ، فلا يظهر لها فيه مزية على غيرها ، وهى أبدًا تحت الخصوصية ، بخلاف النوافل فإنها تبطش إليه وتحب أن تنفرد بها ، إما لطلب المدح والثناء ، وإما لطلب الأجور من القصور والحور ، وهذا كله عند المحققين من الحظوظ الجلية أو الخفية ، فالمسارعة إلى نوافل الخيرات ، وفضائل الطاعات مع التكاسل عن الفروض الواجبات من علامة الهوى ، فيجب على الإنسان أن يقدم الفرض الواجب ، ولا يقدم عليه إلا ما هو من كماله :

كالنوافل قبله وبعده إعانة على الحضور فيه ، فإن حصل الحضور استغنى عن الوسيلة ، والنافلة الكبرى عندنا : هو الاستغراق فى مشاهدة مولاه بين فكرة ونظرة أو ما يوصل إلى هذا المقام من مذاكرة أو ذكر ، ومن رفض الدنيا بحذافيرها وغاب عن نفسه وجنسه ، فقد جمع الفرائض والنوافل كلها ولو بات نائمًا وظل مفطرًا .

وفى بعض أخبار سيدنا داود عليه السلام قال : يارب أين أجدك ؟ فقال له : اترك نفسك وتعالى : أى غب عنها تجدنى أقرب إليك منها .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : عليك بورد واحد وهو إسقاط الهوى ومحبة المولى ، وبالله التوفيق .

حكمة توقيت الطاعات

ولما كان من شأن النفس الأمارة التكاسل عن الطاعات ، قيدها الحق تعالى بأعيان الأوقات ، كما أبان ذلك بقوله :

[قيد الطاعات بأعيان الأوقات ، لئلا يمنعك عنها وجود التسويف ، ووسع عليك الوقت ليبقى لك حصة الاختيار] .

قلت : من شأن النفس تسويف العمل وتطويل الأمل : فلو تركت مع اختيارها ما توجهت قط إلى ربها . ولما علم الحق سبحانه أن من عباده من لا تنهضه المحبة ولا يسوقه إليه مجرد الرغبة ، وإنما تسوقه إليه سلاسل الامتحان بتخويف النيران ، أو شبكة الطمع بنعيم الجنان ، أوعد من حاد عن طاعته بالعذاب الأليم ، ووعد من أطاعه وتقرب إليه بالنعيم المقيم ، ثم فرض عليهم ما تظهر فيه طاعته من الأحكام والفرائض ، وعين لها أوقاتًا مخصوصة ، إذ لو ترك ذلك لاختيار عباده ما أقبل عليه بها إلا القليل من أهل محبته ووداده ، ومن رحمته تعالى أن وسع عليهم فى تلك الأوقات ، فبقى لهم فى ذلك ضرب من الاختبار .

فوسع الظهر مثلا إلى العصر ، والعصر إلى الاصفرار ، والمغرب إلى العشاء ، والعشاء إلى نصف الليل ، والصبح إلى قرب الطلوع ، فقد قيد لك أيها العبد الطاعات التى أوجبها عليك بأعيان الأوقات ، لئلا يمنعك التسويف من فعلها فيؤدى ذلك بك إلى تركها ، ووسع عليك الوقت ليبقى لك حصة : أى ضربًا ونصيبًا من الاختيار . إذ لو ضيق عليك الوقت لكان ذلك فى غاية الحرج والاضطرار ، فالحمد لله على منته وسعة رحمته .

وقد قيل إن الله سبحانه يقول لعبده : ألم أخرجك من العدم إلى الوجود ، وأمدك بأمداد الفضل والجود ، جعلت لك نورًا فى بصرك لتدرك به أدلة قدرتى وعظيم آياتى ، وجعلت لك نورًا فى بصيرتك لتفهم به خطابى ، وتتقى بالطاعة عقابى ، وترجو ثوابى فوعدتك الثواب على الطاعة ، وأوعدتك العقاب على المخالفة ، ثم كلفتك من العمل ما تطيق ، ووسعت عليك فى الأوقات كل

ضيق ، فلو أنك قضيت ما أوجبت عليك فى أول عمرك فى آخره لقبلته منك ، فمن ذا الذى منعك من الامتثال ، ولم يكن بك عذر غير الغواية والضلال ؟ اهـ .

وقد قيل فى المثل : من طلب جاب ، ومن هاب خاب ، وانظر قرن الله الهداية بالمجاهدة . وأوجب سبحانه على نفسه ما لم يجب عليه ، فقال سبحانه وهو أصدق القائلين :

(وَالَّذين جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ الله لَمَعَ الُمحْسِنِينَ) .

وأنشدوا فى هذا المعنى :

لَوْ صَحَّ مِنْكَ الهوَى أُرْشِدْتَ لِلْحِيَلِ وَالصِّدْقُ سَيْفٌ يُنِيلُ غَايَةَ الأَمَلِ
فَكُنْ أَخَا هِمةٍ تَسْمُوْ بِصَاحِبِهَا وَلاتَكُنْ بِالتَّوانِى مُحْبَطَ العَمَلِ

وكان الربيع بن خيثم يردد هذه الآية ويبكى وهى قوله تعالى :

(أَمْ حَسِبَ الذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كالذِين آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالِحَاتِ)[1] الآية .

وكان يصيح : ليت شعرى من أى الفريقين أنت يانفسى ؟ وهذه الآية تسمى مبكية العابدين .

وقال سهل رضى الله عنه فى معنى هذه الآية : ليس أهل الموافقة كأهل المخالفة . أهل الموافقة : (فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ) وأهل المخالفة : فِى (عَذَابِ السَّعِير) ا هـ .

حكمة إيجاب الطاعة

ولما ذكر حكمة توقيت الطاعة ذكر حكمة إيجابها على عباده فقال :

[علم قلة نهوض العباد إلى معاملته ، فأوجب عليهم وجود طاعته ،

---

(١) الجاثيه : ٢١ .

فساقهم إليه بسلاسل الإيجاب عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل ، أوجب عليك وجود طاعته ، وما أوجب عليك إلا دخول جنته] .

قلت : هذه حكمة التشريع ، لكنه ما ذكر إلا حكمة أهل الظاهر .

وحاصلها : أن الحق سبحانه من حكمته لما علم من عباده قلة النهوض إلى معاملته لأنه قال :

(وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)(١) وقال أيضًا : (وَقَلِيل مَاهُمْ)(٢) .

فلما علم ذلك أوجب عليهم طاعته ، وأوعدهم على تركها بالعقوبة ، فساقهم إليه بسلاسل الإيجاب ، ثم ذكر الشيخ حديثًا ورد فى شأن الأسارى إشارة إلى أن العبد لا اختيار له ، فهو أسير فى يد قدرة القدير ، والحديث مشهور وهو قوله عليه الصلاة والسلام :

« عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إلَى الجنَّة بِالسَّلاسِلِ » .

لأنه عليه الصلاة والسلام كان يدعو إلى الله وإلى دخول حضرته فمن وافقه نجا ، ومن خالفه جعل له السلسلة فى عنقه وساقه إلى حضرة ربه ، ولفظ الحديث : « عَجِبَ اللهُ مِنَ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلَاسِل » .

قال بعض العلماء : يجوز أن يكون معنى التعجب المنسوب إلى الله إظهار عجب هذا الأمر لخلقه ، لأنه بديع الشأن ، وهو أن الجنة التى أخبر الله بما فيها من النعيم المقيم ، والخلود فى العيش الرغد الدائم ، ومن حكم من سمع بها من ذوى العقل أن يسارع إليها ، ويبذل جهده فيها ؛ ويحتمل المكاره والمشقات لينالها ، وهؤلاء يفرون منها ويرغبون عنها حتى يقادوا إليها بالسلاسل ، كما يقاد إلى المكاره العظيمة التى تنفر منها الطباع اهـ .

ثم إن الحق سبحانه غنى عن الانتفاع بالمنافع ، فما أمرك بهذا ونهاك عن هذا إلا لما لك فيه من جلب المنافع ودفع المضار ، أوجب عليك وجود طاعته ، وما أوجب عليك إلا دخول جنته .

(١) سبأ : ١٣ . (٢) ص : ٢٤ .

قال بعض الحكماء : واعلم أن فى الطاعات تفاوتًا ودرجات ، وفى المخالفة كبائر ودركات ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتراءوْنَ الْغُرَفَ مِنْ فوقِهِمْ كَمَا يَرَى أَهْلُ الْأَرْضِ الْكَوْكَبَ الدُّرِّىَّ فى أُفُقِ السَّماءِ ، قِيل يَارَسُولَ اللهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الأنْبِيَاء ؟ قَالَ : والّذِى نَفْسى بيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ » .

التفاوت في الطاعات

وقال آخر : الناس ثلاثة : عبد أطاع الله عبودية وشكرًا وامتثالا وقيامًا بحق الخدمة فزاده الوجوب شرفًا وعلو درجة ، وعبد أطاع الله تعظيمًا للموجوب ، فالوجوب فى حقه تنبيه وإظهار للحكمة ، وعبد أطاع الله خوفًا من عذابه ورجاء فى ثوابه ولولا ذلك ماعبده ، فالوجوب فى حقه لطيف به وفى الكل خير ، وشتان مابينهم اهـ .

قلت : والتحقيق إنما هما قسمان : قسم أطاع على التكليف ، وهم أهل التكثيف . وقسم أطاع على التعظيم ، وهم أهل التعليم والتعريف . أهل الحجاب أطاعوا خوفًا وطمعًا ، وأهل العيان أطاعوا حبًّا وشكرًا ، وهو مقام الأنبياء ، وخواص الأولياء :

قال عليه الصلاة والسلام : « أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا » .

فالحكمة عند أهل الباطن فى وجوب الخدمة إنما هى إظهار لستر سر الربوبية التى هى فى مظاهر العبودية ، فالربوبية بلا عبودية نقص يلزم عليه إبطال حكمته ، والعبودية بلا ربوبية محال لايتصور وجوده .

مَنْ لَاوُجُودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ   فَوُجُودُهُ لَوْلَاهُ عَيْنُ محَالِ

ولأجل هذا المعنى كان العارفون إذا تحققوا هذا السر ، وهو أن العبودية لاوجود لها من ذاتها ، وإنما حكمة وجودها صون سر الربوبية بإظهار أحكام العبودية ، وعرفوا ذلك حالا وذوقًا ، كانت عبادتهم شكرًا ، وكانوا فيها محمولين غير حاملين ، عملهم بالله لله ، فعبادة هؤلاء كثيرة عظيمة فى المعنى وإن

كانت قليلة فى الحس ولاتقل أبدًا ، إذ تصرفاتهم كلها عبادة ، نومهم عبادة ، وأكلهم عبادة ، ومشيهم عبادة ، وفى مثل هؤلاء ورد الحديث :

« نَوْمُ الْعَالِمِ عِبَادَةٌ » .

وقال أيضا : « رِجَالٌ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى الْفُرُشِ الْمُمَهَّدةِ ، قِيلَ : مَنْ هُمْ يَارَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ الذَّاكِرُونَ الله كَثِيرًا » . أو كما قال عليه الصلاة والسلام ذكره المنذرى .

وقال أبو سليمان : قد يدرك العارف على فراشه مالا يدركه فى صلاته ، ولايستغرب العبد من نفسه بلوغ هذا المقام .

فإن فضل الله لاينال بسبب ، وقدرة الله صالحة لدرك كل مطلب ، كما أبان ذلك بقوله :

[من استغرب أن ينقذه الله من شهوته ، وأن يخرجه من وجود غفلته ، فقد استعجز القدرة الإلهية وكان الله على كل شىء مقتدرًا] .

قلت لاشك أن الحق تعالى لايعجزه شىء ، هو الغالب على أمره ، وقلوب عباده بيده ، يصرفها كيف شاء ، ويقلبها حيث شاء ، فمن كان منهمكًا فى الغفلة ، مستغرقًا فى بحار الشهوة ، فلا يستغرب أن ينقذه الله من غفلته ، وأن يخرجه من وجود شهوته : فإن ذلك قدح فى إيمانه . وكيف يستغرب ذلك وربنا تعالى يقول :

(وَكَانَ اللهُ عَلَى كلِّ شَىْءٍ مُقْتَدِرًا)(١) وأنت من ذلك الشىء .

وقال تعالى فى حق العصاة : (يَاعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا)(٢) .

وقال تعالى : (فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ)(٣) إلى غير ذلك من الآيات .

---

(١) الكهف : ٤٥ .
(٢) الزمر : ٥٣ .
(٣) المائدة : ٣٩ .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لَوْ أَذْنَبْتُمْ حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكُم عَنَانَ السَّماء ثُمَّ تُبْتُمْ لَتَابَ الله عَلَيْكُمْ » .

وليتذكر من تقدم قبله من أهل الغفلة والعصيان ، ثم صار من أهل المشاهدة والعيان كانوا لصوصًا فصاروا خصوصًا كإبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض وأبى يعزى ، وكثير ممن يتعذر حصره . وقد ذكر القشيرى فى أول رسالته منهم رجالا ، قدمهم أولا تقوية لرجاء المذنبين .

وليذكر الرجل الذى قتل تسعًا وتسعين نفسًا ، ثم سأل راهبًا عن التوبة ، فقال له لاتوبة لك ، فكمل به المائة ، تم سأل عالمًا فدله على التوبة وأمره بالذهاب إلى قرية فيها قوم يعبدون الله ، فقصدهم فمات بالطريق ، فأخذته ملائكة الرحمة ، والحديث فى البخارى مطولا .

وكذلك الرجل الذى كان لصًّا فسأل عابدًا هل له من توبة ؟ فاستهزأ به وأخذ عرجونًا يابسًا وقال له : خذ هذا العرجون . فإذا اخضر فقد صحت توبتك ، فأخذه بالنية وجعل يعبد الله وينظر إليه فأصبح ذات يوم معسلجًا أخضر .

قلت : وقد أدركت أقوامًا كانوا مغرقين فى الغفلة وترك الصلاة ، لايعرفون من الدين المشهور قليلا ولاكثيرًا فضلا عن طريق الخصوص ، فانقلبوا وصاروا خصوصًا عارفين .

وقد أدركت أقوامًا كانوا منهمكين فى الذنوب مغرقين فى المعاصى وظلم العباد ، فصاروا من أعظم الصالحين .

وقد رأيت نصارى بثغر سبتة حضروا خلف حلقة الذكر ، فانجذبوا وتبعونا حتى أخرجنا الحد الذى بيننا وبينهم ، ولو وجدوا سبيلا لأسلموا سريعًا .

وقد كان بعض إخواننا يقول فى شأن نفسه تعجبًا من خروجه من غفلته : هذا مدفع النخّاس المدبر ، من عنده شىء فليخرجه ؟ فلقد رأيته مجذوبًا عاريًا رأسه حافيًا رجله ، فهو اليوم من خواص الأولياء .

والغالب إنما يتفق هذا لمن سقط على صحبة العارفين الذين عندهم الإكسير ، وهم موجودون فى كل أوان ، وهذا أمر شهير لايحتاج إلى دليل ومن

شك فليشاهد . فياعجبًا ممن ينكر ضوء الشمس بعد طلوعها ، ونور القمر بعد ظهوره ، ولكن كما قال صاحب البردة :

قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ
وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمِ

(وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا)[1] .

وأعجب منه من ينكر وجود شيخ التربية ، ويقر بانقطاع أهل الخصوصية .

(فَإِنَّهَا لَاتَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)[2] .

أعني تعمى عن طريق أهل الخصوص وتبصر طريق أهل العموم كحال الخفاش يبصر فى الظلمة ولايبصر فى النور ، فهو عند الناس معذرة لفقده ماعند الأقوياء من النور .

وقد يسلط الله على عبده الانهماك فى الشهوات ، ويحبسه فى سجن الغفلات ، ثم يمن عليه بالتوبة والتيقظ من الغفلة ، ويدخله مع أحيائه مداخل الحضرة ليعرف قدر ماأظهر الله عليه من المنة ، كما أبان ذلك بقوله :

[ربما وردت الظُّلَم عليك ليعرفك قدر ما منّ به عليك] .

قلت : لاشك أن نيل الشيء بعد الطلب ، ألذ وأعز من المساق بغير تعب ، والمحبة بعد القطيعة أحلى من المحبة بلا القطعية ، والصفاء بعد الجفاء أصفى من الصفاء بلا جفاء ، وفطام النفس عن مألوفاتها وعوائدها أشد معالجة من النفس السلسلة المنقادة من غير تعب ، فيكون الأجر أو القدر على قدر التعب ، فهذه حكمة تقديم ورود الغفلة والشهوة على العبد ، ثم ينقذه منها ليعلم قدر هذه النعمة التى أنعم الله بها عليه . فربما أورد عليك أيها الإنسان الحق تعالى الظلم ، جمع الظلمة : وهى الأغيار والأكدار ، وحب الشهوات والعوائد فتغرق فى بحاره وتسجن فى سجون ظلماتها ، ثم ينقذك منها فى ساعة واحدة ، وذلك لتعرف بعد الفتح قدر مامن الله به عليك ، فتزداد محبة وشكرًا ، ويعظم السر عندك محلا

---

(١) النساء : ٨٨ .　　(٢) الحج : ٤٦ .

وقدرًا ، فتعرف حقه وتصونه عمن لايستحقه ، ولأجل هذا جعل الله الجنة محفوفة بالمكاره ، ليعرف العباد بعد دخولها قدر النعمة التى منّ الله بها عليهم ، وكذلك جنة العارف محفوفة بالمكاره ، ليعرف العارف قدر السر الذى كشف به ، والخير الذى منحه الله إياه .

واعلم أن هذه الظُّلَم التى ترد على القلوب فتحجبها عن علام الغيوب ، هى ناشئة بحكمة الله من الدنيا والنفس والشيطان ، فمن زهد فى الدنيا وغاب عن نفسه وأطلق يده منها وذكر الله حتى احترق الشيطان وذاب دخل مع الأحباب ، وفتح له عن علم الغيوب الباب .

قال بعض الحكماء : واعلم أن الصانع البديع سبحانه لما خلق القلب ، جعله خزانة أسراره ، ومعدن أنواره ، وموضع نظره من عبده ، ولم يخلق الله فى الوجود أشرف منه ، ثم رمى على باب القلب أخس الأشياء وأقذرها ، لتقتضى حكمته اجتماع الأضداد التى لاقدرة لغيره على ذلك ، فطرح على باب القلب جيفة وكلبًا ينهش فيها وهما الدنيا والشيطان ، فمن أراد الدخول لخزانة سر الله لابد له من تغميض عينه عن هذه القذرة وإعراضه عن الكلب . لأنه لاسبيل له على من أعرض عنه وعن جيفته ، وكل من التفت إليها سلب النور الذى أراد الله به الدخول لبيت قلبه ، وكان له ذلك كالطلسم على الكنز منعه منه لامحالة اهـ .

وقيل : إن الدنيا بنت الشيطان ، وطالب الدنيا صهر إبليس ، والأب لاينفك عن بنته أبدًا مادامت البنت فى عصمة الصهر .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ خَيْرًا زَهَّدَهُ فِى الدُّنْيَا وَرَغَّبَهُ فِى الْأُخْرَى وَبَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ ، قِيلَ يَارسُول اللهِ أَىُّ النَّاسِ شَرٌّ ؟ قَالَ الْأَغْنِيَاء ، يَعْنِى الْبُخَلَاء ، ثُمَّ قَالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : مَنْ عَظَّمَ غَنِيًّا لِأَجْلِ غِنَاهُ كانَ عِنْدَ اللهِ كَعَابِدِ وَثَنٍ ، وَمَنْ أَسِفَ عَلَى دُنْيَا فَاتَتْهُ اقْتَرَبَ مِنَ النَّارِ مَسِيرةَ سَنَةٍ » اهـ .

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام : ما أحبنى من أحب المال ، وما أحبنى من أحب الدنيا ، فإنه لايسع فى قلب واحد حبى وحبها أبدًا .

ياموسى ماخافنى من خاف الخلق ، وما توكل على من خاف فوات الرزق . وعزتى وجلالى ماتوكل على عبد إلا كفيته ، وبيدى مفاتيح الملك والملكوت . وما اعتصم بى عبد إلا أدخلته الجنة وكفيته كل مهمة . ومن اعتصم بغيرى قطعت عنه الأسباب من فوقه . وأسخت الأرض من تحته ، ولا أبالى كيف أهلكته .

ياموسى خمس كلمات ختمت لك بها التوراة ، إن عملت بهن نفعك العلم كله ، وإلا لم ينفعك شىء منه :

الأولى : كن واثقًا برزقى المضمون لك مادامت خزائنى مملوءة ، وخزائنى مملوءة لاتنفد أبدًا .

الثانية : لاتخافنّ ذا سلطان مادام سلطانى ، وسلطانى دائم لايزول أبدًا .

الثالثة : لاتر عيب غيرك مادام فيك عيب ، والعبد لايخلو من عيب أبدًا .

الرابعة : لاتدع محاربة الشيطان مادام روحك فى جسدك ، فإنه لايدع محاربتك أبدًا .

الخامسة : لاتأمن مكرى حتى ترى نفسك فى الجنة ، وفى الجنة أصاب آدم ماأصاب فلا تأمن مكرى أبدًا اهـ .

قلت : وهذا كله تشريع لغيره ، والأنبياء كلهم مطهرون معصومون ، وكل ماورد فيهم من التعليم والتربية فالمراد به غيرهم ، وبالله التوفيق .

متى يعرف قدر النعمة

ثم من منّ الله عليه فأخرجه من أسر نفسه ، وأطلقه من غفلته ، فلم يعرف هذه النعمة سلبها من ساعته ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها] .

قلت : هذا الذى ذكره الشيخ مجرب صحيح ، وذلك أن العبد قد تترادف عليه النعم والعوافى ، فلا يعرف قدرها ، ولاتعظم عنده كل التعظيم ، فإذا

سلبها ، وضرب بالبلاء والأوجاع والمصائب ، فحينئذ يعرف قدر العافية ، وكذلك الفقير يكون مصحوبًا بالحضور والفكرة والنظرة فلا يعظم عنده قدرها ، فإذا أصابته الغفلة ورجع إلى الحس وفقد قلبه عرف قدر ماكان عنده ، فإذا التجأ واضطر إلى الله رد إليه ماسلبه .

قيل إن الله تعالى يقول لجبريل : ياجبريل انسخ حلاوة محبتى من قلب عبدى أختبره فينسخ جبريل حلاوة المحبة من قلب ذلك العبد ، فإذا هو اضطرب وتضرع والتجأ وبكى ، يقول الله تعالى لجبريل رد عليه حلاوة محبتى فقد وجدته صادقًا ، وإذا نسخ حلاوة المحبة من قلب العبد فلم يبتهل ولم يتضرع ، لم يرد إليه شيئًا ، وسلبه تلك الحلاوة ، والعياذ بالله من السلب بعد العطاء .

ويستعين العبد على معرفة قدر النعم ، بالتفكر فيها ، وبالتفكر فى حال نفسه قبل وجودها ، فينظر إذا كان غنيًّا إلى حال فقره المتقدم حسًّا أو معنى ، وينظر إذا كان صحيحًا إلى حال مرضه ، وينظر إذا كان طائعًا فى حال عصيانه وينظر إذا كان ذاكرًا إلى وقت غفلته ، وينظر إذا كان عالمًا إلى وقت جهله ، وينظر إذا كان مصاحبًا لشيخ عارف إلى وقت ضلالته ، وينظر إذا كان عارفًا إلى وقت جهالته ، وهكذا كل نعمة ينظر إلى وجود ضدها الذى كان موجودًا فيه قبل ذلك ، فلا شك أنه يعرف قدرها ،فيشكرها فتدوم عليه .

وأما من لم يتفكر فى حال النعم فلا يعرف قدرها ، فيغفل عن شكرها ، فيسلب منها وهو لايشعر .

قال بعضهم : شكر الله تعالى باللسان هو الاعتراف بالنعمة على وجه الخضوع . وشكر الله باليد : هو الانصاف بالخدمة على وجه الإخلاص . وشكر الله بالقلب : هو مشاهدة المنة وحفظ الحرمة .

وقال الجنيد رضى الله عنه : ألا ترى نفسك أهلا للنعمة ، وألا تعصى الله بنعمته اهـ .

فإن قلت : كيف أقوم بشكر النعم وهى لاتحصى .

قلت : القيام بها هو الاعتراف بها للمنعم وحده ، وإلى هذا المعنى أشار الشيخ بقوله :

شكر النعم

[لاتدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك ، فإن ذلك مما يحط من وجود قدرك] .

قلت : قد يتفكر الإنسان فى نفسه وما به من النعم فيجد نفسه مغموسًا فى النعم حسية ومعنوية ، فينظر فى نعمة البصر ، فى نعمة السمع ، فى نعمة الشم ، فى نعمة الذوق ، فى نعمة الكلام ، فى نعمة العقل ، فى نعمة اليدين ، فى نعمة الرجلين ، فى نعمة الصحة والعافية ، فى نعمة الكفاية ، فى نعمة الأهل ، فى نعمة الأولاد ، ثم فى نعمة الهداية إلى الإسلام ، ثم فى نعمة الإيمان ، ثم فى نعمة الطاعة ، ثم فى نعمة العلم ، ثم فى نعمة من يستعين به من الإخوان ، ثم فى النعمة الكبرى ، نعمة الشيخ فيها أعد الله له بعد الموت الذى لانهاية له ، فإذا وجد نفسه مغمورًا فى النعم فلا يدهش منها ويتحقر فى نفسه عن القيام بشكرها ، فإن الاعتراف بها ومعرفتها والإقرار بها أنها من الله بلا واسطة هو شكرها ، وقوله : (الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) كاف فى شكر اللسان ، ألا ترى أن الجنة هى من أعظم النعم ، فكان شكر أهل الجنة فيها : (الحمد لله رب العالمين) قال تعالى :

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[1] .

وقد جاء فى بعض الأخبار : أن داود عليه السلام قال : يارب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة من نعمك ، ونعمتك توجب على الشكر ، والشكر نعمة يوجب الشكر أيضًا ، وهكذا .

فأوحى الله إليه : إذا عرفت أن النعم كلها منى ، فقد شكرتنى ، وقد رضيت منك بذلك .

وفى رواية أخرى : قال داود عليه السلام : إلهى إن ابن آدم ليس فيه شعرة إلا وتحتها نعمة وفوقها نعمة فمن أين يكافئها ؟ فأوحى الله تعالى إليه : ياداود

---

(١) يونس : ١٠ .

إنى أعطى الكثير وأرضى باليسير ، وإن شكر ذلك أن تعلم أن مابك من نعمة فمنى .

وأنشد بعضهم فى هذا المعنى :

إِذَا كَـانَ شُكْـرُ اللهِ لِلْعَبْـدِ نِعْمَـةً
عَلَيْهَـا مِنَ اللهِ لَـهُ يَجِبُ الشُّكْـرُ
فَكَيْفَ لَـهُ بِـالشُّكْـرِ والشُّكْـرُ نِعْمَـةٌ
وَلَـوْ وَالَتِ الأَحْقَابُ وَاتَّصَـلَ الْعُمْـرُ

وقال آخر :

لَـكَ الْحَمْدُ مَـوْلَانَا عَـلَى كُلِّ نِعْمَـةٍ
وَمِنْ جُمْلَةِ النَّعْـمَاءِ قَولِى لَـكَ الحَمْـدُ
فَـلَا حَمْـدَ إِلَّا أَنْ تَمُـنَّ بِـنِعْـمَـةٍ
فَسُبْحَانَك لَا يَقْوى عَلى حَمْدِكَ الْعَبْدُ

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إليه : إنى بأرض ولقد كثرت فيها النعم ، ولقد أشفقت على قلبى ضعف الشكر ، فكتب إليه عمر : إنى كنت أراك أعلم بالله مما أراك ، إن الله تعالى لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمته ، لو كنت لاتعرف ذلك إلا فى كتاب الله المنزل قال تعالى :

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيمانَ عِلْمًا وَقَالَا الحَمْدُ للهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ)[١] وقال تعالى : (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا) ثم قال : (وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ)[٢]

وأى نعمة أعظم من دخول الجنة ؟ اهـ .

ولما كان أعظم النعم وأشرفها هو دواء القلب ، وشفاؤه من مرض الهوى

---

(١) النمل : ١٥ .　　(٢) الزمر : ٧٣ ، ٧٤ .

الذى قيده فى سجن الغفلة ، وعرضه لغضب المولى ، نبه الشيخ على ذلك ليعرف العبد قدر هذه النعمة إذا كان شفاء الله ، أو يطلب من الله إخراجه من تلك النعمة إذا لم يكن شفاه الله فقال :

[تمكُّن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال] .

قلت : حلاوة الهوى على قسمين : هوى النفس ، وهو القلب :

فهوى النفس يرجع لشهواتها الجسمانية ،. كحلاوة المآكل والمشارب والملابس والمراكب والمناكح والمساكن .

وهوى القلب : هو شهواته المعنوية ، كحب الجاه والرياسة ، والعز ، والمدح والخصوصية والكرامات ، وحلاوة الطاعات الحسية كمقام العباد والزهاد ، وحلاوة علم الحروف والرسوم ، فأما علاج هوى النفس فأمر قريب . يمكن علاجه بالفرار من أوطان ذلك ، والزهد وصحبة الأخيار . وأما علاج هوى القلب إذا تمكن فهو صعب ، وهو الداء العضال الذى أعضل الأطباء ، أى أعجزهم وحبسهم عن علاجه ، فلا يزيده الدواء إلا تمكنًا وإنما يخرجه وارد إلهى بعناية سابقة بواسطة أو بغير واسطة ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[لايخرج الشهوة من القلب ، إلا خوف مزعج ، أو شوق مقلق] .

قلت : الشهوة إذا تمكنت من القلب صعب علاجها ، فلا يمكن خروجها فى العادة إلا بوارد قهرى جلالى أو جمالى ، فالوارد الجلالى : هو خوف مزعج ، فيزعجك عن شهوتك ، ويخرجك عن وطنك وأهلك ، والوارد الجمالى : هو شوق مقلق ، فيقلقك عن مراداتك وحظوظك ، فينسيك نفسك ويؤنسك بربك ، ولأجل صعوبة هذا المرض كان أشد حجابًا عن الله العلماء ، ثم الزهاد ، لأن هذه الشهوة خفية ، لأن صاحبها : (أَضَلَّهُ الله عَلَى عِلْمٍ)[1] الآية . (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)[2] .

أى أضلهم عن طريق الخصوص ، وبقوا فى طريق العموم .

أما العلماء الظاهريون فهم يعتقدون أنه لافضيلة فوق علمهم ؛ حتى إنى سمعت من بعضهم يقول : إن مقام الإحسان هو مقامهم الذى هم فيه من العمل

---

(١) الجاثية : ٢٣ . (٢) الكهف : ١٠٤ .

بظاهر الكتاب والسنة ولا مقام فوق ذلك ، فكيف يمكن إخراج هذا إلا بعناية سابقة .

وأما العباد والزهاد : فهم يقولون أيضًا : هذه غاية المحبة والطاعة ، ويزيدهم بعدًا مايرونه من الكرامات الحسية ، فيزدادون حجابًا وتمكنًا فى حالهم .

وأما العوام وأهل الغفلة : فهم أقرب الناس إلى الانقياد والنفوذ إلى ربهم .

وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم قال :

« أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلْهُ » . [البله : جمع أبله : وهو الغافل عن الشر ، السليم الصدر] .

ومما يدلك أن الشهوة القلبية أصعب من الشهوة النفسية قصة آدم والشيطان ، فإن آدم عليه السلام كانت شهوته فى بطنه فتداركه الله بعناية ، والشيطان كانت شهوته فى قلبه :

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)[1] فطرد إلى يوم القيامة .

ثم اعلم أن الخوف على قسمين : خوف العوام ، وخوف الخواص . خوف العوام من العقاب والعذاب ، وخوف الخواص من القطيعة والحجاب .

والشوق أيضًا على قمسين : شوق العوام للحور والقصور ، وشوق الخواص للشهود والحضور ، شوق العوام لنعيم الأشباح ، وشوق الخواص لنعيم الأرواح ، شوق العوام ناشئ عن قوله تعالى :

(وَعَدَ اللهُ المؤمِنِينَ وَ المُؤمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرى مِنْ تحتها الأَنْهارُ خَالدينَ فِيها وَمَسَاكِن طَيِّبَةً فى جَنَّات عَدْنٍ) . وشوق الخواص ناشئ عن قوله تعالى : (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم)[2] .

جعلنا الله من أعظمهم قدرًا وأكملهم محلا وفضلا آمين بمنه وكرمه .

---

(١) ص : ٧٦ .

(٢) التوبة : ٧٢ .

الإخلاص وسببه

فإذا دخل الخوف أو الشوق إلى القلب أخرج كل مافيه من الأغيار ؛ وملئ بالمعارف والأنوار ، فحينئذ تخلص الأعمال ، وتزكو الأحوال ، ويقبل عليه ذو العظمة والجلال ، كما أبان ذلك الشيخ بقوله :

[كما لايحب العمل المشترك لايحب القلب المشترك . العمل المشترك لايقبله ، والقلب المشترك لايقبل عليه] .

قلت : العمل المشترك : هو الذى تصحبه الحظوظ النفسانية دنيوية أو أخروية ، والقلب المشترك : هو الذى يكون فيه حب السِّوَى ، فالعمل الذى تصحبه الحظوظ مدخول ، والمدخول غير مقبول ، يقول الله تعالى :

« أَنا أَغْنَى الشُّرَكاءِ عن الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِل عَمَلًا أَشْرَك فِيه مَعِى غَيْرى تَرَكْتُهُ وَشَرِيكَهُ » .

والقلب الذى فيه حب شىء من السوى ملطخ بالهوى لايليق لحضرة المولى . قال تعالى : (وَطَهِّر بَيْتِى لِلطَّائِفِين)[1] .

وقيل ياداود طهر لى بيتًا أسكنه ، ولله در الششترى حيث يقول :

لِى حَبِيبٌ إنما هُوَ غَيُورْ   يَظَلُّ فِى الْقَلْبِ كَطَيْرٍ حَذُورْ

إِذَا رَأَى شَيْئا امْتَنَع أَنْ يَزُورْ

فمن حصن أعماله بالإخلاص استحق القبول وكان من الخواص ، ومن حصن قلبه من الأغيار امتلأ بالعلوم والأنوار ، ونبعت منه المعارف والأسرار .

واعلم أن العمل المشترك هو الذى يدخله ثلاث علل : إما رياء ، أو عجب ، أو طلب عوض .

أما الرياء : فهو الشرك الأصغر وقد تقدم الحديث : « من عمل عملا

---

(١) الحج : ٢٦ .

أشرك فيه معى غيرى تركته وشريكه » . وفى حديث مسلم :

« ثَلَاثَةٌ أَوَّلُ مَنْ تُسْعَرُ بِهِمْ جَهَنَّمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَذَكَرَ الْقَارِئَ لِغَيْرِ اللهِ ، وَالشُّجَاعَ الذِى يُقَاتِلُ لِغَيْرِ اللهِ ، وَالْغَنِيَّ الّذِى يَتَصَدَّقُ لِغَيْرِ اللهِ » .

وأما العجب : فهو رؤية النفس وإسناد العمل إليها ، ورؤية المزية لها على الناس قال تعالى : (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)[1] .

قيل معناه : إذا عملت عملا فلا تقل عملت ولا تظهره عند من يعظمك لأجل عمله بذلك ، لأن رسول الله صلى عليه وسلم يقول :

« ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ : شُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ وإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » .

قال زيد بن أسلم : معنى لاتزكوا أنفسكم لاتعتقدوا أنها بارة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَاهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الذُّنُوبِ الْعُجْبَ » .

قال بعض السلف : لأن أبيت نائمًا وأصبح نادمًا أحب إلى من أن أبيت قائمًا وأصبح معجبًا . وقيل لعائشة رضى الله عنها متى يكون الرجل مسيئًا ؟ قالت : إذا ظن أنه محسن .

قيل والمعجب أعمى عن آفات نفسه وعمله ، والعمل إذا لم يتفقد ضاع ، وإنما يتفقد عمله من غلب عليه خوف الله وخوف ذنوبه ، ولايريد الثناء على نفسه وحمدها وتزكيتها وربما أعجب برأيه وعقله ، فيستنكف عن سؤال غيره ولايسمع نصح ناصح لنظره من سواه بنظر الاستحقار ، نسأل الله السلامة والعافية .

---

(١) النجم : ٣٢ .

وأما طلب العوض والجزاء فقد تقدم مرارًا الزجر عنه ، وإنك إن طالبته بالجزاء طالبك بسر الإخلاص ، ويكفى المريب وجدان السلامة ، فكل عمل فيه بعض هذه الآفات فإن الله لايقبله قبول الخواص .

وأما القلب المشترك : الذى يدخله ثلاث أيضًا : حب الدنيا أو حب الخصوصية أو النعم الأخروية ، وكلها قادحة فى الإخلاص مخرجه عن درجة التوحيد الخاص ، وبالله التوفيق . هذا آخر الباب الحادى والعشرين .

وحاصلها : ذكر ميزان الأعمال والأحوال الصحيحة والسقيمة .

وحاصل هذا الميزان كل مايثقل على النفس فهو صحيح ، وكل مايخف عليها فهو سقيم ، ومن جملة مايثقل عليها القيام بالفرض الواجب دون النوافل ، فإنها تخف عليها ، فلما علم الحق سبحانه ذلك منها قيد الفرائض بأوقات معلومة كى لايمنعها التسويف ، لأن جل النفوس يقل نهوضها إلى حضرة القدوس ، وليس للحق سبحانه غرض فيما فرض ، وإنما ساقهم إلى جنته بسلاسل امتحانه ، فمن غلبته نفسه على النهوض إلى الطاعة ، وأسرته شهوته عن اللحوق بالسباق ، فلا يستغرب أن ينقذه الله منها ، فإن قدرة القادر كلمح البصر أو أقرب ، وربما تكون تلك الشهوة أو الغفلة فى حقك نعمة ، وذلك لتعرف منة الله عليك حين ينقذك منها ، فإن كثيرًا ممن أنعم الله عليهم لم يعرفوا قدرها فسلبوا منها ، فإذا أنعم عليك بإنقاذك من نفسك وإلحاقك بخواص جنسك فانغمست فى النعم ، فلا تندهش عن شكرها ، فإقرارك بالمنعم قيام بشكرها .

فإذا رأيت من حبسته نفسه وتمكن داء الهوى من قلبه فاعلم أن ذاك هو الداء العضال فلا يخرجه منه إلا خوف مزعج أو شوق مقلق ، فإذا أزعجه الخوف أو الشوق تفرغ قلبه وخلص عمله فيقبل الله عليه ، فإذا أقبل عليه ملأه بالأنوار ، فمنها مايصل إلى سويداء قلبه ، ومنها مايقف على ظاهر قلبه ، كما أبان ذلك بقوله فى أول الباب الثانى والعشرين رضى الله عنه :

الباب الثانى والعشرون

الترغيب فى تحصيل الأنوار

[أنوار أذن لها فى الوصول ، وأنوار أذن لها فى الدخول] .

قلت : أما الأنوار التى أذن لها فى الوصول فهى أنوار الإيمان ، وهى لأهل الدليل والبرهان ، لأن قلوبهم لم تتفرغ من الأغيار ولم تمح منها صور الآثار ، فلما جاءت وجدت داخل القلب مملوءًا بصور الآثار فوقفت فى ظاهر القلب .

وأما الأنوار التى أذن لها فى الدخول فهى أنوار الإحسان ، من الشهود والعيان ، وذلك لأنهم لما فرّغوا قلوبهم مماسوى ربهم ، دخلتها الأنوار فوجدت متسعًا فسكنت سويداء قلوبهم . وعلامة النور الواصل والداخل أن صاحب النور الواصل للظاهر فقط ، تراه تارة مع الدنيا ، وتارة مع الآخرة ؛ تارة مع حظ نفسه وتارة فى حق ربه ، تارة مع الغفلة وتارة مع اليقظة ، وصاحب النور الداخل لسويداء القلوب ، لاتراه إلا مع ربه ، لايشغله عنه حظوظ الدنيا ولا حظوظ الآخرة ، غائبًا عن نفسه حاضرًا مع ربه .

قال بعض الحكماء : إن الإيمان إذا كان فى ظاهر القلب كان العبد محبًّا لآخرته ودنياه فيكون صاحبه تارة مع ربه وتارة مع نفسه ، وبقدر تمكن النور فى القلب ودخوله إليه يكون بغض العبد للدنيا وتركه لهواه اهـ .

وفى هذا المعنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« النُّورُ إذا دَخَلَ الْقَلْبَ انْفَسَحَ وانْشَرَحَ ، قِيلَ : فَهَلْ لَهُ مِنْ عَلَامَةٍ يَارَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ نَعَمْ ، التجَافِي عَنْ دَارِ الْغرورِ ، وَالإِنَابَةُ إلَى دَارِ الخُلودِ ، والتزَّوُّدُ لِسُكْنَى الْقُبُورِ ، والتَّأَهُّبُ لِيَومِ النُّشورِ » اهـ .

ثم اعلم أن الأنوار التى أذن لها فى الوصول عامة لجميع المؤمنين ، وقد تقدم قول أبى الحسن : لو كشف عن نور المؤمن العاصى لطبق مابين السماء

والأرض . وأما الأنوار التى أذن لها فى الدخول فهى خاصة بالخواص أهل التفرغ من الأغيار ولوث الأنوار . فأما من كان قلبه محشوًّا بصور آثارها ، فلايطمع فى نيل أسرارها ، كما أبان ذلك بقوله :

[**ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشوًّا بصور الآثار ، فارتحلت من حيث جاءت**] .

قلت : رب هنا للتكثير : أى كثيرًا ماترد عليك أنوار عالم الغيب لتغنيك عن عالم الشهادة فتجد قلبك محشوًّا بصور عالم الشهادة فترحل عنك وتتركك محبوسًا فى يدها .

أو تقول : كثيرًا ماترد عليك أنوار المعانى لتخرجك من سجن الأوانى ، فتجد قلبك مملوءًا بها ، فتتركك فى وسطها محجوبًا بها .

أو تقول : كثيرًا ماترد عليك أنوار الملكوت ، فتجد قلبك محشوًّا بظلمة الملك ، فتتركك فى ظلمة الكون .

أو تقول : قد ترد عليك أنوار الجبروت ، فتجد قلبك محشوًّا بأنوار الملكوت فرحًا بها قانعًا ببهجتها ، فتتركك واقفًا معها وتنادى عليك : القناعة من الله حرمان ، الذى تطلب أمامك ، ولو كان العلم ينتهى إلى حد محدود لم يقل الله تعالى لسيد العارفين : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا)[1] . قال عليه الصلاة والسلام : « كُلُّ يَوْمٍ لَاأَزْدَادُ فِيهِ عِلْمًا لَا بُورِكَ لِى فى طُلُوعِ شَمْسِ ذٰلِكَ الْيَوْمِ » أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

فالمانع للقلب من دخول الأنوار هو وجود الأغيار كما أشار إلى ذلك بقوله :

[**فرِّغ قلبك من الأغيار تملأه بالمعارف والأسرار**] .

قلت : التفرع هو الخلو من الشىء والتنظيف منه ، والأغيار : جمع غِير بكسر الغين وفتح الياء ، ويصح أن يكون بفتح الغين وسكون الياء وهو أليق ؛ والمراد به حينئذ السِّوى ، وإنما جمعه لتعدد أنواعه كما قالوا فى جمع العالمين .

يقول رضى الله عنه : فرغ قلبك أيها الفقير من الأغيار ، وهو سوى الله ، بحيث لايتعلق قلبك بشىء من الكون علويًّا أو سلفيًّا ، دنيويًّا أو أخرويًّا ،

---

(١) طه : ١١٤ .

حسيًّا أو معنويًّا ، كحب الخصوصية وغيرها من الحظوظ ، فإذا رحل قلبك من هذا العالم بالكلية ولم يبق فيه إلا محبة مولاه ، فإنه يملأ بالمعارف ، بحيث يكشف عنك حجاب الوهم ، ويذهب عنك ظلمة الحس ، فتشاهد الأشياء كلها أنوارًا ملكوتية مشاهدة ذوقية تمكينية ، ويملؤه - أيضًا بأسرار وهى أسرار الجبروت ، فتغيب بالجمع عن الفرق ، وبشهود الجبروت عن شهود الملكوت ، وتكاشف بأسرار القدر ، فيهب عليك نسيم برد الرضا والتسليم ، وأنت فى حضرة النعيم المقيم ، عند الملك الكريم ، فالأسرار على هذا أبلغ من المعارف ، فالمعارف أنوار الملكوت ، والأسرار أنوار الجبروت ، لأن السائر قد يكشف له عن نور الملكوت فيشهد الكون كله نورًا ، لكنه مفتقر إلى تلك الأنوار ليترقى بها إلى التمكين فى شهود الذات ، كافتقار القارئ إلى النظر فى الرسوم ، فإذا حفظ القارئ ، المعنى وتمكن منه محا الرسوم ولم يفتقر إليها ، كذلك السالك يكشف له أولا عن نور الكون فيغيب فى النور عن ظلمة الحس ، ثم لايزال فى السير حتى يقبض المعنى ويتمكن منه ، فلا يحتاج إلى مشاهدة ، فيستغنى عن نور الملكوت بنور الجبروت ، قد تقدم هذا المعنى عند قول المؤلف : اهتدى الراحلون إلخ الحكمة ، فيمتحى السوى عن عين قلبه بالكلية ، ويغيب عن نفسه وحسه بشهود الأحدية ، ولله در قول الشاعر :

إنْ تَـلَاشَى الْكَـوْنُ عَنْ عَـيْنِ قَلْبِى
شَـاهَـدَ السِّـرُّ غَيْـبَـهُ فِى بَيَـانِ
فَـاطْرَحِ الْكَـوْنَ عَنْ عِيَانِـكَ وَامْـحُ
نُـقْـطَةَ الْـغَـيْنِ إنْ أَرَدْتَ تَـرَانِى

ويحتمل أن يريد بالمعارف علوم العرفان ، وبالأسرار الأذواق والوجدان ، فتكون المعارف هى علوم المعرفة ، بحيث يعرف فى كل شىء ، ولاينكر شيئًا ، والأسرار أذواق تلك العلوم ، فإن المعرفة تكون أولا علمًا وآخرًا ذوقًا . ويحتمل أن يكون من عطف التفسير فتكون الأسرار هى المعارف ، والله تعالى أعلم .

ومن أراد سرعة السير إلى هذا المقام ، فليفرّغ قلبه وينظفه على التمام ،

فبقدر التخلية تكون التحلية ، وبقدر التصفية تكون الترقية ، ولأجل هذا نهوا السائر عن التزوج وعن التعلق بالأسباب إذ لايخلو من عُلقة ، فإذا تمكن من المعنى لم يبق له مراد إلا مراد معروفه ، وصار كل مايبرز من عند مولاه تلقاه بالقبول .

فإن طال بالمريد السفر ، وتأخر عنه الفتح والظفر ، فلم يدرك هذه الأسرار ولم يكشف له تلك الأنوار ، فلا يستبطئ من ربه النوال ، فإنه جواد كريم ، ولكن يستبطئ منه وجود الإقبال ، وإلى ذلك أشار بقوله :

[لاتستبطئ النوال ، ولكن استبطئ من نفسك وجود الإقبال] .

قلت : الحق سبحانه جواد كريم حليم رحيم :

مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ شِبْرًا تَقَرَّبَ مِنْهُ ذِرَاعًا ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنه ذِرَاعًا تَقربَ مِنْهُ بَاعًا ، وَمَنْ أَتَاهُ يَمْشى أَتَاهُ هَرْوَلَةً . كما فى الحديث .

فإن توجهت إليه بقبلك ثم تأخر الفتح من قبله فلا تستبطئ منه النوال ، أى العطاء وهو كشف الحجاب ، ولكن استبطئ من نفسك وجود الإقبال فلعل إقبالك عليه لم يكن بكليتك ، فإن الله سبحانه يقول بلسان الحال : وليس يدرك وصالى كل من فيه بقية أو كان بحرف أو خط . وأما لو زالت أغيارك لأشرقت أنوارك ، ولو تطهرت من جنابة الغفلة لاستحققت الدخول إلى مسجد الحضرة ، وقد يكمل إقبالك ويفوتك الأدب مع سيدك ، وهو استبقاؤك النوال ولو صح منك الإقبال .

قال بعضهم : هب أن السيد الكريم أهل لكل فضل وكرم ! أفترى العبد يقبل الأدب بين يدى سيده ، ويكشف جلباب الحياء عن وجهه ؟ فإن فعل ذلك فهو بالعقوبة أولى من الكرم .

وقد قال أرباب المعرفة : لأن تكون صاحب استقامة خير من أن تكون صاحب كرامة اهـ . ومن باع نفسه لله وكان عبدًا مملوكا لمولاه فأى شىء يستحق على مولاه .

حكى عن ذى النون المصرى رضى الله عنه : أنه رأى رجلا قد اشترى دارًا وأراد أن يكتب عقدها ، فقال له ذو النون : يا أخى إن قبلت وصيتى أوصيتك ،

فقال نعم قل ياسيدى ، فقال له : لاتشتر دارًا تفنى وتدع دارًا تبقى ، فقال له : من لى بها ؟ فقال له : هلا اشتريت من الله دارًا دار السلام ومجاورة الكرام ، لتنال فيها الأمان ، وتتنعم بنعيم لايدرك بالأثمان ؟ دار لها أربعة حدود : الأول منازل الخائفين . الثانى منازل العارفين . الثالث منازل المشتاقين . الرابع رياض المحبين ، دار سقفها عرش الرحمن ، وبابها باب الرضوان ، مكتوب على بابها بالخط الأزلى :

دَارُ تُقًى وَرِضًـا عَلَيْهَـا   أُسِّسَتْ وَنِعْمَ دَارُ المتَّقِينْ
ثُمَّ نَادَى الْحَقُّ مِنْ أَرْجَائِهَا   « ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينْ »

فإن أردت عقد شرائها قلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .
(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُم الْجَنَّةَ)[1] .

هذا مااشترى العبد الثواب من الملك الوهاب ، بثمن قيمته الخروج من ذل المعاصى إلى عز الطاعة ، ومن تعب الحرص والطمع إلى راحة الزهد والورع ، شهد بذلك عدول القلب واللسان ، وصحيح مانزل من القرآن ، وبتاريخ حل عقدة الإصرار من وقت الإنابة : (وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)[1] .

قال له : نعم ، ثم تصدق بماله وخرج معه إلى الله اهـ .

ثم من صح إقباله على الله لم يضيع شيئًا من الأوقات فى غير طاعة مولاه ، كما نبه على ذلك بقوله :

[حقوق فى الأوقات يمكن قضاؤها ، وحقوق الأوقات لايمكن قضاؤها] .

قلت : أما الحقوق التى فى الأوقات ، فهى الطاعة التى عيّن الله تعالى لها وقتًا محدودًا ، كالصلوات الخمس والسنن المؤكدة ، وكذلك الزكاة والصيام ، لها وقت محدود فى العام ، فإذا خرج وقتها أمكن قضاؤها وإن كان يسمى مفرّطًا ؛ لكن بعض الشر أهون من بعض . وأما حقوق الأوقات بأنفسها ، فهى مراقبة الحق

---

(١) التوبة : ١١١ .

أو مشاهدته كل واحد على قدر وسعه :

(لَا يُكلفُ الله نَفْسا إلّا مَاآتَاهَا)[1] .

وهذه الحقوق إذا فات وقتها لايمكن قضاؤها ، إذ الوقت الثانى له حق مخصوص لايسع غيره . فما من لحظة إلا ويجب عليك فيها أن تكون عاملا لله مشتغلا فيها بما يوصلك إلى قربه ورضاه ، وهذا معنى قوله :

[إذ ما من وقت يرد إلا ولله عليك فيه حق جديد وأمر أكيد ، فكيف تقضى فيه حق غيره وأنت لم تقض حق الله فيه] .

قلت : مامن وقت أو لحظة ترد عليك أيها العبد إلا ولله عليك فيها حق جديد من ذكر أو فكرة أو نظرة أو من مراقبة أو مشاهدة أو خدمة حسية أو معنوية :

(قَدْ علِمَ كُلُّ أنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ) .

وأمر أكيد من التحقيق بالعبودية والقيام بوظائف الربوبية ، فإن غفلت عن الحق الجديد أو الأمر الأكيد فى وقت مّـا ودخل الوقت الثانى ، فقد فاتك القضاء وندمت على مامضى ، فكيف يمكن أن تقضى فى الوقت الثانى حق غيره ، وهو أيضًا له حق يجب عليك أن تؤديه فيه ، فلا يمكنك أن تقضى حق الوقت الأول فى الوقت الثانى وأنت لم تقض حق الله فيه أى فى الوقت الثانى .

والحاصل : أن كل وقت له حق ، فإن فات فلا قضاء له ، ولذلك قالوا فى الآداب : التصوف هو ضبط الأنفاس ، وحفظ الحواس . والأنفاس هى دقائق الساعات . وضبطها : هو عمارتها بأنواع الطاعات ، فإذا ضيع حقوق الساعات خرج عن أدب التصوف ، والله تعالى أعلم .

أوقات العبد

قال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه . أوقات العبد أربعة لاخامس لها : نعمة أو بلية ، طاعة أو معصية ، وله على عبده فى كل وقت منها حق ؛ ففى

---

(١) الطلاق : ٧ .

النعمة الشكر ، وفى البلية الصبر ، وفى الطاعة شهود المنة ، وفى المعصية اللجأ والإنابة وطلب الإقالة بالمعنى ، وفى هذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام :

« مَنْ أُعْطِىَ فَشَكَرَ ، وَابْتُلِىَ فَصَبَرَ ، وَظُلِمَ فَغَفَرَ ، وأَذْنَبَ فَاسْتَغْفَرَ ، ثُمَّ سَكَتَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ، فَقَالوا : مَالَهُ يَارَسُولَ الله ؟ قَالَ : أُولٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » .

أى لهم الأمن يوم القيامة ، وهم مهتدون فى الدنيا . وقيل لهم الأمن فى الدارين وهم مهتدون إلى حضرته فى الكونين .

واعلم أن القيام بحقوق الأوقات على التمام يكاد أن يكون متعذرًا فى حق البشر ، قال تعالى : (وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ)[1] .

أى ماعبدوه حق عبادته ، وما عرفوه حق معرفته ، فلهذا كانت حقوق الأوقات لايمكن قضاؤها ، لأنها راجعة لحفظ الأنفاس والخطرات . وقد أعيا الرجال حفظها فى حال الصلاة فكيف فى كل وقت ؟ لكن قد :

(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاء) .

قال بعضهم : منذ عشرين سنة ما خطر على قلبى شىء سوى الله تعالى .

وقال الشيخ أبو الحسن : من أحب الله لم يستعمل جوارحه إلا فيها يوافق محبوبه ، وأنفاسه كلها محفوظة بالطاعة ، ولو حيل بينه وبين الخدمة لفارق الدنيا من ساعته ، لأن الطاعة قد صارت غذاء أرواحهم ، فإن فارقوها ماتوا نفعنا الله بهم آمين .

كيف يقاس العمر ؟

ثم فى تضييع حقوق الأوقات تضييع العمر الذى هو أعز من الكبريت الأحمر ، وهو الذى نبه عليه بقوله :

[مافات من عمرك لاعوض له ، وما حصل لك منه لاقيمة له] .

---

(١) الزمر : ٦٧ .

قلت : عمر المؤمن هو رأس ماله ، فيه ربحه وخسرانه ؛ فمن شد يده عليه كان من الفائزين ، ومن ضيعه فى البطالة والتقصير كان من الخاسرين ، فما فات منه فى غير طاعة ربه لاعوض له ، إذ ماذهب لايرجع أبدًا ، وماحصل لك منه لاقيمة له تفى بقدره ، إذ لو اشتريت ساعة منه بملء الأرض ذهبًا لكان نزرًا فى حقه ، لأن ساعة منه تذكر الله فيها تنال بذلك ملكًا كبيرًا ونعيمًا مقيمًا ، لو بيعت الدنيا بحذافيرها مابلغت منه عشر العشر ، ولأجل هذا المعنى اشتدت محافظة السلف الصالح على الأوقات وبذلوا مجهودهم فى اغتنام الساعات ، ولم يقنعوا من أنفسهم إلا بالجد والتشمير ، ولم يسمحوا لها فى الراحة والبطالة بقليل ولاكثير وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لَاتَأْتِى عَلَى الْعَبْدِ سَاعَةٌ لايذْكُرُ اللهَ فِيهَا إلا كانَتْ عَلَيْهِ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وقال على كرم الله وجهه . بقية عمر العبد ما لها ثمن ، يدرك بها مافات ويحيى بها مامات . وقال الجنيد رضى الله عنه : الوقت إذا فات لايستدرك ، وليس شىء أعز من الوقت ، وفى معناه قيل :

السِّبَاقَ السِّبَاقَ قَوْلًا وَفِعْلًا حَذِّرِ النَّفْسَ حَسْرَةَ المْسْبُوقِ

وقال الحسن البصرى رضى الله عنه : أدركت أقوامًا كانوا على أنفاسهم وأوقاتهم أشد حفظًا وأحرص شفقة منكم على دنانيركم ودراهمكم ، كما لايخرج أحدكم درهمه ولاديناره إلا فى ورود منفعة واستجلاب فائدة ، كذلك كانوا لايضيّعون نفسًا من أنفاسهم فى غير طاعة أبدًا .

كان سيدنا على رضى الله عنه يقول لفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا صنعتِ طعامًا فميِّعيه : أى اجعليه مائعًا خفيفًا ، فإن بين المائع واليابس خمسين تسبيحة . وقال أبو على الجرجانى : مامضغت الخبز منذ أربعين سنة ، وإنما أسف السويق وأعود لذكر الله تعالى . قال : وقد كنت عددت مابين المضغ والبلع ستين تسبيحة .

وقيل : إن ساعات الليل والنهار أربع وعشرون ساعة ، تبعث يوم القيامة خزائن مصفوفة أربعًا وعشرين خزانة ؛ فمن كان عمّرها فى الدنيا بطاعة الله رآها خزائن معمورة بالنعيم ، ومن كان ضيعها رآها خزائن فارغة خاوية ، فيتحسر عليها ويندم .

وجاء فى الخبر : « إنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ بَيْنَما هُمْ فى نَعِيمِهِمْ إذْ سَطَعَ لَهُم نُورٌ مِنْ فَوْقُ أَضَاءَتْ مِنْهُ مَنَازِلُهُمْ كَما تُضِيءِ الشَّمْسُ لِأَهْلِ الدُّنْيَا ، فَيَنْظُرُونَ إلى رِجَالٍ مِنْ فَوْقِهِمْ أَهْلِ عِلِّيِّينَ يَرَوْنَهُم كَما يُرَى الْكَوْكَبُ الدُّرِّىُّ فى أُفقِ السَّماء وَقَدْ فُضِّلُوا عَلَيْهِمْ فى الأَنْوَارِ وَالْجَمَالِ والنَّعِيمِ كَمَا فُضِّلَ الْقَمَرُ عَلَى سَائِرِ النُّجُومِ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ يَسِيرُونَ عَلَى نُجُبٍ تَسْرَحُ بِهِمْ فى الهَوَاء يَزُورُونَ ذَا الْجَلَالِ والإِكْرَامِ ، فَيُنَادِي هٰؤُلاء يَا إِخْوَانَنَا مَا أَنْصَفتُمُونَا ، كُنَّا نُصَلِّى كَمَا تُصَلُّونَ وَنَصُومُ كَما تَصُومُونَ ، فَما هٰذَا الذِى فُضِّلْتُمْ بِهِ عَلَيْنَا ، فَإِذَا النداء مِنْ قِبَلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ : إنَّهُمْ كانُوا يَجُوعُونَ حِينَ تَشْبَعُون ، وَيَعْطَشُونَ حِينَ ترْوون ، وَيَعْرُونَ حِينَ تُكْسَوْنَ ، وَيذْكُرونَ حِينَ تَنْسَوْنَ ، وَيَبْكُونَ حِينَ تَضْحَكُونَ ، وَيَقُومُونَ حِينَ تَنَامُونَ ، وَيَخَافُونَ حِينَ تَأْمَنُونَ ، بِذٰلِكَ فُضِّلُوا عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، فَذٰلِكَ قَوْلُهُ تَعَالى : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِىَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ) اهـ .

ومما يعين على حفظ الأوقات واتصال الطاعات ، الزهد فى السوى ومحبة المولى ، فإن من حب شيئًا أكثر من ذكره ، وخدمه وخضع له ، وكان عبدًا حقيقة له ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[ما أحببت شيئًا إلا كنت له عبدًا ، وهو لايحب أن تكون لغيره عبدًا] .

قلت : القلب إذا أحب شيئًا أقبل إليه وخضع له ، وأطاعه فى كل ما يأمره .

* إنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ *

وهذه حقيقة العبودية : الخضوع والطاعة ، وليس للقلب إلا وجهة واحدة وليس للإنسان إلا قلب واحد . قال تعالى :

(مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ)(١) .

وإذا كان للقلب وجهة واحدة ، فمهما أقبل بها على مولاه أعرض عما سواه وكان عبدًا له حقيقة ، وإذا أقبل على هواه أعرض قطعًا عن مولاه وكان عبدًا لسواه ، والحق سبحانه لايرضى لعبده أن يكون عبدًا لغيره . قال تعالى فى ذم من كان عبدًا لهواه :

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ)(٢) .

فالآية نص فى ذم من أحب هواه واتخذ رَبًّا من دون مولاه .

وأما تفسير أهل الباطن : فهو إشارة لاتفسير معنى ، وفى الحديث :

« إنَّ لِلْقُرْآن ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَحَدًّا وَمَطْلَعًا » .

فقد ورد عن شيخ شيوخنا سيدى محمد بن عبد الله فى إشارة هذه الآية أنه يمكن أن يكون مدحًا ، ومعناه حينئذ : أفرأيت من اتخذ إلهه الذى خلقه هواه لايحب سواه ، وأضله فى محبته على علم وبينه من ربه ، وختم على سمعه وقلبه بمحبته ، وجعل على بصره غشاوة منعه من النظر لما سواه ، فمن يهديه هذه الهداية العظمى من بعد الله ؟ لاهادى له سواه . وهذا فى ظاهر العبارة خارج عن سياق ظاهر الآية ، لكنه باطنها ولايصح تفسير الآية به .

واعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم على غير المعنى المعهود ، ليس هو عندهم عين المعنى المراد ؛ ولكنهم يقررون الآية والحديث على مايعطيه اللفظ ثم يفهمون إشارات ودقائق وأسرارًا خارجة من مقتضى الظاهر ، خصهم الله بها لصفاء أسرارهم ، هكذا ذكر المؤلف فى لطائفة .

---

(١) الأحزاب : ٤ .

(٢) الجاثية : ٢٣ .

ثم نرجع إلى ماكنا فيه من طلب العبودية لله ؛ والحرية مما سواه . قال صلى الله عليه وسلم : « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ » .
زاد فى رواية : « وَالزَّوْجَةِ ، تَعسَ وَانْتَكَسَ ، وَإذَا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ » .

وقيل للجنيد : من العبد ؟ قال : من بقى فى قلبه أدنى علاقة غير الله ، لأن المكاتب عبد مابقى عليه درهم . قيل له : ومن الحر ؟ قال : من تخلص من رق طبعه ، واستنقذ قلبه من شهوات نفسه . وكان للشبلى تلميذ فكساه رجل يومًا جبة وكان على رأس الشبلى قلنسوة فخطر على قلب التلميذ محبة القلنسوة ليجمعها مع الجبة ، فكاشفه الشيخ فأزال له الجبة وجمعها مع القلنسوة ورمى بهما فى النار وقال له لاتبق فى قلبك التفاتًا لغير الله . وأنكر عليه بعض أهل الظاهر المتجمدين على ظاهر الشريعة جهلا بالمقصود ، لأن أعمال الصوفية مبنية على العبادة القلبية ، لأن الأعمال الظاهرة إن لم يوافقها القلب كانت أشباحًا خاوية ، وبالله التوفيق .

واعلم أن من تخلص من رق طبعه واستنقذ من أسر نفسه فقد تحقق بمحبة ربه . والمحبة لها بداية ووسط ونهاية ؛ فأول المحبة وبدايتها ملازمة امتثال الأمر واجتناب النهى ، قال تعالى :

(قُلْ إنْ كُنتُمْ تُحِبُّون اللهَ فَاتَّبِعُونى يُحْبِبْكُمُ الله)[1] .

ووسطها لهج اللسان بالذكر ، وتعلق القلب بشهود المحبوب ، ونهايتها لاتدرك بالعبارة ، ولاتلحقها الإشارة وفى هذا المعنى قيل :

فَلَمْ يَبْقَ إلَّا اللهُ لارَبَّ غَيْرُهُ
حَبِيبٌ لِقَلْبٍ غَابَ عَنْ كلِّ مَقْصِدِ
هَنِيئًا لمنْ قَدْ نَالَ حُبَّ حَبِيبِهِ
وَخَاضَ بِتَرْكِ الْغَيْرِ أكْرَمَ مَوْرِدِ

(١) آل عمران : ٣١ .

نَعِيمٌ بِلَا حَدٍّ لَدَيْهِ مُجَدَّدٍ
عَلَى عَدَدِ الْأَنْفَاسِ فى كلِّ مَشْهَدِ

روى أن أبا يزيد رضى الله عنه كان بحذاء المنبر فقرأ الخطيب :
(وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ) .

فصبر نفسه حتى طار الدم من عينه ، فهذه المعانى لاتدركها العامة ولا الخاصة ، وإنما يذوقها خاصة الخاصة ، وأنشدوا :

وَحَقِّكَ لَوْ أَفْنَيْتَ قَلْبِى صَبَابَةً
لَكُنْتَ عَلَى هٰذَا حَبِيبًا إلى قَلْبِى
أزِيدُ عَلَى عَذْلِ الْعَذُولِ تَشَوُّقًا
وَوَجْدًا عَلَى وَجْدٍ وَحُبًّا إلى حُب
أَبَى الْقَلْبُ إلا أنتَ فى كلِّ حَالَةٍ
حَبِيبًا وَلَوْ دَارَتْ عَلَيْهِ يَدُ الْكَرْبِ
فَلَا تَبْتَلِيهِ بِالْبُعَادِ فَإِنَّمَا
تَلَذُّذُ أنفَاسِ المحِبين بِالْقُرْبِ

ومعنى محبة الله لعبده حين يقبل عليه هو تقريبه لحضرته ، وهدايته لمحبته من غير نفع له فى ذلك ، إذ لاتنفعه طاعة من أقبل عليه ، ولاتضره معصية من أدبر عنه ، إذ هو غنى عن الكل ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[لاتنفعه طاعتك ، ولاتضره معصيتك ، وإنما أمرك بهذا ونهاك عن هذا لما يعود إليك ، لايزيد فى عزه إقبال من أقبل عليه ، ولاينقص من قدره إدبار من أدبر عنه] .

قلت : الحق سبحانه غنى عن كل شىء مفتقر إليه كل شىء ، لاتنفعه طاعة الطائعين ، ولاتضره معصية العاصين ، وسيأتى فى المناجاة : إلهى تقدس رضاك أن تكون له علة منك ، فكيف تكون له علة منى ؟ أنت الغنى بذاتك أن يصل إليك النفع منك ، فكيف لاتكون غنيًّا عنى اهـ . فلا تنفعه أيها العبد طاعتك

فيكون محتاجًا إليها ، تعالى الله عن ذلك ، ولاتضره معصيتك فيكون مقهورًا بها : (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوقَ عِبَادِهِ)[١] فإنما أمرك بالطاعة ليقربك إليه .

(إِنَّ رَحْمَةَ الله قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)[٢] .

وإنما نهاك عن المعاصى لما جعل فيها من علامة البعد عن حضرته ، فما أمرك الله بشىء إلا وفيه تقريب وآداب للحضرة ، ومانهى الله عن شىء إلا وفيه ضرر وإبعاد عن الحضرة ، لما فيه من سوء الأدب . والتحقيق أنه :

(لَايُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ)[٣] .

لايزيد فى عزه إقبال من أقبل عليه ، لأن عزته أزلية قديمة ، ولاينقص من عمره إدبار من أدبره عنه ، لأنه غنى عن العالمين .

وفى الحديث القدسى : « لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَازَادَ ذٰلِكَ فِى مُلْكِى شَيْئًا ، وَلَوْ أَن أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَ إِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَانَقَصَ ذٰلِكَ مِنْ مُلْكِى شَيْئًا » .

الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه . ومن أسمائه تعالى : (القدوس)

قال بعضهم : معناه أنه منزه عن كل كمال لايليق بذاته ، ولايقال إنه منزه عن النقائص ، إذ لاتصح نسبتها إليه حتى ينزه عنها ، إذ لاينفى عن الشىء إلا مايصح إثباته له ، فإن نفيت مالا يصح إثباته فربما يكون نقصًا ، كما يقال السلطان ليس بجزار ، ومن أجاز ذلك فإنما مرأده التعميم وكمال التقديس والتنزيه .

قال بعضهم : لو أراد الخلق تنزيه الخالق إلا بلسان العجز ما استطاعوا ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الأنعام : ٦٢ .

(٢) الأعراف : ٥٦ .

(٣) الأنبياء : ٢٣ .

« لَا أُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » اهـ .

ثم قال ذلك البعض : إن صفات البارى وأسماءه كلها كليات والمخلوق جزء ، والجزء لايحيط بالكل ، ولايدرك حقيقته ، فليتحرز من التأويلات المخرجة عن المعنى اللائق بجناب الحق ، مسلمًا ألا يعرف الله إلا الله وأنشدوا :

لَايَعْلَمُ اللهَ إلَّا اللهُ فَاتَّئِدُوا
وَالدِّين دِينَانِ إيمَانٌ وَإشْرَاكُ
وَلِلْعُقُولِ حُدُودٌ لَا تُجَاوِزُهَا
وَالْعَجْزُ عَنْ دَرَكِ الإِدْرَاكِ إدْرَاكُ

فهذا أوائل المعرفة .

وأما وسطها : فهو اغتراف من بحر الحقيقة ، واستشراف على غوامض الطريقة ، ولاتسعه كل عقول العامة ، وإنما يخوض فيه الخاصة ، فإن ماتقدم كان فيه استدلال بالاسم على المسمى ، وهذه مرتبة تسقط التفرقة بين الاسم والمسمى وبين الصفة والموصوف . ثم قال ولهذا قالوا : الجمع سقوط التفرقة ، وليس بعد هذا إلا جمع الجمع وهو غاية المعرفة ، فأول المعرفة دلالة الصنعة على الصانع ، ووسطها دلالة الصانع على الصنعة ، وغايتها تلاشى كل مادون الحق . (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإكرام)[1] اهـ .

قاله الشطبى مختصرًا . هذا آخر الباب الثانى والعشرين .

وحاصلها : الترغيب فى تحصيل الأنواع بالتفرغ من الأكدار ، فإذا فرّغت قلبك وتأخر الفتح عليك ، فلا تستبطئ منه وجود النوال ، ولكن استبطئ من نفسك وجود الإقبال ، ولايكمل إقبال العبد على ربه حتى يستغرق الأوقات كلها فى طلبه ، فكل وقت من العمر لاثمن له ولا يمكنه التفرغ لحفظ الأوقات

---

(١) الرحمن : ٢٦ ، ٢٧ .

حتى يتحرر من رق الكائنات . فإذا تحرر مما سواه كان عبدًا حقيقة لمولاه ، فحينئذ اجتباه ، ولحضرته اصطفاه ، من غير منفعة له فيه ولاضرر ، وإنما يعود نفعه له وضرره عليه ، إذا لايزيد فى عزه إقبال من أقبل ولا إدبار من أدبر ، وإنما وَصَل مَن وَصَل بمحض فضله ، وأبعد من أبعد بمحض عدله .

ومعنى وصول العهد إلى مولاه : علمه بنور عظمة ربه وسناه ، كما أبان ذلك فى أول الباب الثالث والعشرين بقوله رضى الله عنه :

الباب الثالث والعشرون

معنى وصول العبد

[وصولك إليه وصولك إلى العلم به ، وإلا فجلّ ربنا أن يتصل هو بشىء] .

قلت : قد ذكر أهل الفن فى هذا المقام اصطلاحات وألفاظًا تداولوها بينهم تقريبًا لفهم المعانى .

فمنها : السير ، والرحيل ، وذكر المنازل ، والمناهل ، والمقامات .

ومنها : الرجوع ، والوقوف ، وكل ذلك كناية عن مجاهدة النفوس ومحاربتها ، وقطع العوائق والعلائق عنها . أو الوقوف مع شىء منها ، وسيأتى للمؤلف : لولا ميادين النفوس ماتحقق سير السائرين .

ومنها : الوصول ، والتمكين ، والسكون والطمأنينة .

ومنها : المشاهدة ، والمكالمة ، والمجالسة ، والمساورة ، وغير ذلك ، وكل ذلك كناية عما أدركته أرواحهم ، وذاقته أسرارهم : من عظمة الحق وجلاله ، وسيأتى تفسير شىء من ذلك فى محله إن شاء الله .

ومعنى الوصول عندهم تحقيق العلم بوجوده وحده ، فوصولك إليه هو شعورك بعدمك حتى يكون عدمك عندك ضروريًّا ، وعلمك بوجوده كذلك ، وهذا الأمر كان حاصلا لك فى نفس الأمر ، لكن لم تشعر به وفى هذا المعنى قال بعضهم ، وبعضه للششترى :

بَيْنَ طُلُوعِ وَنُزُولْ ... تَخَبَّلَتِ الْغُزُولْ
أَفْنِ مَنْ لَمْ يَكُنْ ... يَبْقَ مَنْ لا يَزُولْ

فالزوال هو المعرفة : وهو معنى الوصول ، وسببها جولان الفكرة ولذلك أمره بها .

وقال شيخ شيوخنا سيدى على : الناس كلهم يشاهدون ولايعرفون .
وسمعت شيخنا يقول : الناس كلهم فى البحر ، أى فى بحر الوحدة ، ولكن لايشعرون ، فوصول العبد إلى الله تحقيق العلم بوجوده ، والغيبة عن نفسه ، وعن كل ماسواه ، وإلا تكن كذلك بأن تعتقد أن الوصول يكون حسيًّا فجلّ ربنا : أى تعالى وترفع أن يتصل به شىء للزوم تحيزه ، أو يتصل هو بشىء للزوم افتقاره وحصره ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

واعلم أن هذا العلم بالله يكون كسبيًّا ثم لايزال يغيب عن نفسه وحسه ، سكرة بعد سكرة ، وحيرة بعد حيرة ، حتى يصحو وينجلى عنه ضباب الحس ، وسحاب الجهل ، وظلمة النفس ، فتشرق عليه شمس النهار ، وتنجلى عنه ظلمة الأغيار ، وفى ذلك قيل :

لَيْلى بِوَجْهِكَ مُشْرِقٌ ... وَظَلاَمُهُ فى النَّاسِ سَارِ
النَّاسُ فى سَدَفِ الظَّلاَمِ ... وَنَحْنُ فى ضَوْءِ النَّهارِ

أى ليل وجودى صار مشرقًا مضيئًا بسبب شهود ذاتك ، وظلام ليل القطيعة سار فى جلّ الناس . الناس فى جوف ظلمة الأكوان ، ونحن فى ضوء شموس العرفان ، ثم لايزال فى تربية الشيخ وتحت حضانته ومدده ، سار إليه بقدر صدقه حتى يسلم له خصيم الغرق الظلمانى ، ويحس ذلك من نفسه ، فحينئذ يقول بلسان الحال : أقرَّ الخصم فارتفع النزاع ، فإذا انفرد الخصم النورانى استمد من كل شىء ، وشرب من كل شىء ، وأخذ النصيب من كل شىء ، فيبقى وصوله إلى الواسطة شكرًا وإحسانًا : (أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ)[1] .

وينشد حينئذ بلسان حاله ومقاله :

الْحَمْدُ للهِ لاَ تَفْنَى مَحَامِدُهُ
وَالْحَمْدُ للهِ فى الآصَالِ وَالْبُكَرِ
مَنْ يَهْدِهِ الله أَضْحَى عَالِمًا فَطِنًا
بِاللهِ فى كُلِّ مَايَبْدُو مِنَ الصُّوَرِ

(١) لقمان : ١٤ .

يَاطَالِب الْوَصْلِ جُدْ بِالنَّفْسِ مُلْتَفِتًا
عَنْهَا إِلَى مَنْزِلِ الْأَشْيَاء بِالْقَدَرِ
فَإِنْ ظَفِرتَ فَأَنْتَ الْفَرْدُ والْعَلَمُ الْـ
ـمَنْعُوتُ بِالْحُسْنِ وَالحسْنَى لِذِى نَظَرِ

ومنها : أى من اصطلاحاتهم ذكر القرب والاستشراف والمراقبة ؛ وفسر الشيخ معنى القرب فقال :

[قربك منه أن تكون مشاهدًا لقربه ، وإلا فمن أين أنت ووجود قربه ؟] .

قلت : إذا حققت أن الأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته ، علمت علم يقين أن الأكوان والمكان والزمان لاوجود لها ، وأن الحق كما كان وجوده وحده ولا أين ولا مكان ، بقى كذلك لا أين ولامكان ولازمان ، نور أحديته محا وجود الأكوان ، فانتفى بوجوده الزمان والمكان ، ولم يبق إلا الواحد المنان .

وفى البخارى عنه صلى الله عليه وسلم :

« يَقُولُ الله تَعَالَى : يَسُبُّ ابْنُ آدَمَ الدَّهْرَ وأنَا الدَّهْرُ بِيَدِى اللَيْل وَالنَّهَارُ » .

فالوجود الحقيقى إنما هو لذاته وأثر صفاته ، تجلى واستتر واختفى فيما ظهر .

فإذا علمت هذا علمت أنه تعالى قريب من كل شىء ، محيط بكل بشىء ، ولاشىء إلا الذى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ)[1] .

لكن حكمة الحكيم أثبتت الحادث والقديم ، فمن فتح الله عين بصيرته شهد عدمه لوجوده ، فأبصر الحق محيطًا به ، وماحيًا لوجوده . ومن طمس الله عين بصيرته لم ير إلا الفرق ولم يدرك إلا البعد ، فإذا أراد الله أن يقربه إليه فتح شعاع بصيرته ، فيبصر الحق قريبًا منه ومحيطًا به .

---

(١) الشورى : ١١ .

روى أن الشيخ أبا الحسن رضى الله عنه قال يومًا بين يدى أستاذه : اللهم اغفر لى يوم لقائك ، فقال له شيخه هو أقرب إليك من ليلك ونهارك ، ولكن الظلم أوجب الظلام ، وسبْق القضاء حكم بالزوال عن درجات الأنس ومنازل الوصال ، وللظالم يوم لايرتاب فيه ولايحتال ، والسابق قد وصل فى الحال : (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمونَ الْيَوْمَ فى ضَلَالٍ مُبِين)[1] . اهـ كلامه رضى الله عنه .

فمعنى قربك من الحق أن تكون مشاهدًا لقربه منك قرب وجود وإحاطة ، وذلك بعد أن تلطفتْ عوالمك ، وفنيتْ دائرة حسك ، وحينئذ يتحقق قربك منه .

قال تعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاس)[2] وقال تعالى : (أَوْ لَمْ يَكْفِ بِربِّكَ أَنَّهُ عَلَى كلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ)[3] الآية .

وإن لاتعتقد هذا ، واعتقدت وجود نفسك وثبوت حسك الوهمى ، فلا تشاهد إلا البعد ، فمن أنت ووجود قربك الحسى من نوره اللطيف حتى تراه بعين الحس ؟ فما دمت فى عالم الأشباح ، فأنت بعيد من عالم الأرواح ، فى حال قربك منه كما قال القائل :

وَمِنْ عَجَبٍ أَنِّى أَحِنُّ إِلَيْهِمُ
وَأَسْأَلُ شَوْقًا عَنْهُمُ وَهُمُ مَعِى

وَتَبْكِيهُمُ عَيْنِى وَهُمْ بِسَوَادِهَا
وَيَشْكُو النَّوَى قَلْبِى وَهُمْ بَيْنَ أَضْلُعِى

سبحان من بعّد قومًا فى حال قربهم ، وقرّ قومًا من غير بعدهم ، وراجع ماتقدم لنا فى الشرح عند قوله : شعاع البصيرة تفهم المسألة على أصلها . وحق هذه الحكمة أن تتقدم على التى قبلها ، لأن القرب سابق على الوصول ، ولما

---

(١) مريم : ٣٨ .
(٢) الإسراء : ٦٠ .
(٣) فصلت : ٥٣ .

ترتب على ذكر الوصول من ذكر الواردات والأمر قريب ، والله تعالى أعلم .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه فى شرح هذه الحكمة : القرب فى الجملة على ثلاثة أوجه :

أحدها : قرب الكرامة ، وهو تقريب الحق عبده حتى يكون مشاهدًا لقربه منه فيتولاه دون ماسواه .

الثانى : قرب الإحاطة ، إحاطة العلم والقدرة والإرادة ، وعموم التصرف ، وهذا هو قرب الحق من عبده .

الثالث : قرب المناسبة والمسافة ، ولا يصح فى جناب الربوبية ، لاستحالة المسافة عليه ونفى مناسبة العبد للرب ، فتقدير الكلام قربك منه على وجه الكرامة أن تكون مشاهدًا لقربه منك على وجه الإحاطة ، وإلا فمن أين أنت ووجود قربه على وجه التناسب والمسافة اهـ .

وإنما نقلته لعلمى أن الكتاب يطالعه من يحسن العوم ومن لايحسنه ، فإذا خاف من البحر وجد جزيرة يأوى إليها ؛ وبالله التوفيق .

ومن حصل على مقام القرب والوصول ، ترد عليه الحقائق العرفانية ، والأسرار الربانية ، والعلوم اللدنية ، تارة ترد مجملة ثم يقع التفصيل ، وتارة مفصلة وهو غالب واردات أهل التمكين ، والغالب أن هذه الواردات إنما ترد بعد الفتح والوصول ولذلك قلنا : الأحسن لو قدم مقام القرب ثم يذكر مقام الوصول ليتصل بهذه الحكمة التى تكلم فيها على الواردات حيث قال :

[الحقائق ترد فى حال التجلى مجملة ، وبعد الوعى يكون البيان ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه] .

قلت : الحقائق هى مايرد على قلب العارف من تجليات العلوم والحكم والمعارف ، فتارة تكون علومًا ، وتارة تكون حكمًا ومعارف ، وتارة تكون كشفًا بغيب كان أو سيكون .

وحكمة ذلك أن الروح إذا تخلصت وتصفّت من غبش الحس كان غالب مايتجلى فيها حقًّا . ثم إن هذه الحقائق قد ترد فى حال التجلى مجملة فيقيدها

الإنسان كما تجلب ثم يتفكر فيها فيتبين معناها ، فبعد الوعى وهو الحفظ يكون البيان .

ثم استدل بآية الوحى لأن الوحى على أربعة أقسام : وحى إلهام ، ووحى منام ، ووحى إعلام ، ووحى أحكام ، فشاركت الأولياء الأنبياء فى ثلاثة : وحى إلهام ، ووحى منام ، ووحى إعلام وهو الفهم عن الله ، وانفردت الأنبياء بوحى الأحكام فالأولياء لهم وحى الإلهام ويكون أولا مجملا فى القلب ، فإذا قرأه ، أظهر تتبعه وبينه ، قال تعالى : (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) كما قرأناه عليك (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ)[1] .

حتى تفهمه وتبينه للناس . كان عليه الصلاة والسلام يعالج من التنزيل شدة مخافة أن ينساه ، فلما نزلت الآية كان يستمع لجبريل ، فإذا فرغ قرأه كما أنزل ، فالوحى الذى هو وحى أحكام ، مصون فلا ينسى ، بخلاف وحى الإلهام ، فلذلك ينبغى للولى أن يقيد تلك الواردات قريبًا ، فإن الحكمة فى حال التجلى تكون كالجبل ، فإذا غفل عنها ترجع كالجمل ، فإذا غفل عنها بعدُ رجعت كالثور ، ثم كالكبش ، ثم كالبيضة ثم تغيب ، ولذلك كان شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه لاتفارقه الدواة والقلم والقرطاس ليقيد المواهب ، وكذلك كان أشياخنا وكانوا يأمرون بذلك .

قلت : وجُلّ هذا الشرح الذى نقيده إنما هو مواهب ، لأنى أكتب الحكمة ولا أدرى ماأكتب فأقف مفتقرًا إلى ماعند الله ، فإذا ورد شىء من عند الله كتبته أولا ، ثم أنظر فى كتب القوم إن وجدت نقلا غريبًا موافقًا لما أفاض الله على كتبته ، وإلا تركته واكتفيت بما أتى الله ، وكثيرًا ما نكتب الكلام ثم نطالعه ونستغرب أنى كتبته أو صدر منى ، وذلك كله ببركة صحبة أشياخنا ، فجزاهم الله عنا أحسن جزائه .

ولقد كنت فى حال الرياضة والمجاهدة إذا أردت أن نتكلم فى التفسير أو غيره ، نشرع فى الكلام ثم نغيب ، فكنت أحس بالكلام يخرج منى من غير

(١) القيامة : ١٨ ، ١٩ .

اختيار كأنه السحاب ، فتصدر منى علوم وحكم ، فإذا سكت لم يبق منها إلا القليل .

ولقد حضر معنا ذات يوم رجل صالح كبير السن فسمع ذلك ، فقال والله لقد حضرت مجالس العلماء والصالحين والله مارأيت مثل هذه الجواهر واليواقيت التى تخرج من سيدى فلان . فبقيت كذلك مدة غير أنى لم نكن نقيد شيئاً ، ثم انتقل ذلك إلى حال التقييد فصار القلم عندى أفصح من عبارة اللسان .

وكان بعض العارفين يقول لأصحابه : إذا كنت أتكلم عليكم أكون أستفيد من نفسى مايجريه الله على لسانى كما تستفيدون أنتم منى ، وفى ذلك يقول ابن الفارض رضى الله عنه :

وَلَا تَــكُ مِمَّــنْ طَيَّــشَتْــهُ طُــرُوسُــهُ
بِحَيْثُ اسْتَخَفَّتْ عَقْلَهُ وَاسْتَفَزَّتِ

فَثَمَّ وَرَاءَ النَّقْــلِ عِــلْمٌ يَــدِقُّ عَنْ
مَـدَارِكِ غَـايَــاتِ الْعُقُـولِ السَّليمَـةِ

تَــلَقَّـيْــتَــهُ مِــنِّى وعــنى أَخَــذْتَــهُ
وَنَفْسِيَ كــانَتْ مِنْ عَــطَائى مُمِــدَّتى

وكان الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه إذا استغرق فى الكلام وفاضت عليه العلوم يقول : هلا رجل يقيد عنا هذه الأسرار ، هلموا إلى رجل صيره الله بحر العلوم أو كلامًا نحوه ، وكان يحضر مجلسه أكابر وقته كعز الدين بن عبد السلام وابن الحاجب وابن عصفور وابن دقيق العيد وعبد العظيم المنذرى ، وكان عز الدين بن عبد السلام إذا سمع كلامه يقول هذا كلام قريب عهد بالله .

وكان الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد يقول : والله مارأيت أعرف بالله من أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه . وكان فى كل سنة يطلع إلى القاهرة ويجتمع عليه مشايخ القاهرة ومصر ومن بتلك الناحية ، فيفيض عليهم بالعلوم والمواهب الربانية والأسرار اللدنية ، فلما مات رضى الله عنه واستخلفه أبو العباس المرسى جعل يطلع إلى القاهرة كما كان يفعل شيخه ، فاجتمع إليه جماعة من

أكابر مصر وعلمائها وقالوا : ياشيخ كان الشيخ أبو الحسن إذا جاء إلى هذا الموضع يجىء عندنا ونتبرك بقدومه ومانسمع منه من مواهب الله تعالى ، وأنت قد أقامك الله مقامه ، فنحب أن نتبرك بكلامك ، فقال لهم : إذا كان صبيحة غد نجىء إليكم إن شاء الله ، فلما كان صبيحة غد أمر أصحابه بالمسير إلى مصر وأمر بحمل رسالة القشيرى رضى الله عنه . قال ابن الصباغ فحملتها ووصلنا إلى جامع عمرو بن العاص ، فوجدناه قد امتلأ بأكابر أهل مصر وعلمائها ، فقال لى منتقد ومعتقد . قال : فجلسنا بشرقى الجامع ، فقال أخرج رسالة القشيرى فأخرجتها ، فقال اقرأ ، فقلت وما أقرأ ؟ قال : الذى يظهر لك ، ففتحنا الكتاب فوجدنا باب الفراسة ، فقرأت أول الباب فلما فرغت من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى : أغلق الكتاب ، ثم قال : الفراسة تنقسم إلى أربعة أقسام : فراسة المؤمنين ، وفراسة الموقنين ، وفراسة الأولياء ، وفراسة الصديقين . فأما فراسة المؤمنين ، فحالها كذا ومددها من كذا ثم تكلم بكلام عظيم . ثم انتقل إلى فراسة الموقنين فتكلم بطبقة أعلى . ثم قال : وأما فراسة الأولياء فمددها من كذا وحالها من كذا ، وتكلم فى ذلك بكلام موهوب غير مكسوب ، أذهل عقول الحاضرين واستغرق بذلك إلى أذان الظهر والناس يبكون ، ورأيت العرق ينحدر من جبينه حتى ينحدر على لحيته ، وكانت لحيته كبيرة اهـ .

وقال فى لطائف المنن : وكنت أنا لأمره من المنكرين ، وعليه من المعترضين ، لا لشىء سمعته منه ، ولا لشىء صح نقله عنه ، حتى جرت مقاولة بينى وبين بعض أصحابه وذلك قبل صحبتى إياه ، وقلت لذلك الرجل ليس إلا أهل العلم الظاهر ، وهؤلاء القوم يدعون أموراً عظاماً وظاهر الشرع يأباها ، فقال لى ذلك الرجل بعد أن صحبت الشيخ : تدرى ما قال لى الشيخ يوم تخاصمنا ؟ قلت لا ، قال : دخلت عليه فأول ما قال لى هؤلاء كالحجر ما أخطأك منه خير مما أصابك ، فعلمت أن الشيخ كوشف بنا ، قال : ولعمرى لقد صحبت الشيخ اثنى عشر عاماً ، فما سمعت منه شيئاً ينكره ظاهر العلم من الذى كان ينقله عنه من يقصد الأذى .

وكان سبب اجتماعى به أن قلت فى نفسى بعد أن جرت المخاصمة بينى وبين ذلك الرجل : دعنى أذهب فأرى هذا الرجل ؛ فصاحب الحق له أمارة لا يخفى شأنها ، فأتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم فى الأنفاس التى أمر الشارع بها ، فقال : الأول إسلام ، والثانى إيمان والثالث إحسان .

وإن شئت قلت : الأول عبادة ، والثانى عبودية ، والثالث عبودة .

وإن شئت قلت : الأول شريعة ، والثانى حقيقة ، والثالث تحقق أو نحو هذا ، فما زال يقول : وإن شئت قلت : وإن شئت إلى أن أبهر عقلى ، وعلمت أن الرجل إنما يغرف من فيض بحر إلهى ومدد ربانى ؛ فأذهب الله ما كان عندى إلى آخر كلامه .

فهذه الحقائق التى يفيضها الحق تعالى على قلوب أوليائه فينطقون بها تكون أولا مجملة ، فإذا حفظت وتقيدت تبين معناها ، فمنها ما تدركها العقول ويطابق المنقول ، ومنها مالا تفهمها العقول فتكلها إلى أربابها ولا تنتقدها عليهم بمجرد سماعها ، وانظر قول ابن الفارض رضى الله عنه :

فَثَمَّ وَرَاءَ النَّقْلِ عِلْمٌ يَدِقُّ عَنْ مَدَارِكِ غَايَاتِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ

ومع هذا كان الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه يقول : إذا عارض كشفك الصحيح الكتاب والسنة ، فاعمل بالكتاب والسنة ودع الكشف ، وقل لنفسك إن الله تعالى ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة ، ولم يضمنها لى فى جانب الكشف والإلهام . ومثل هذا أيضاً قول الجنيد : إن النكتة لتقع فى قلبى من جهة الكشف فلا أقبلها إلا بشاهدى عدل : الكتاب والسنة ، ولا يلزم من عدم العمل بها انتقادها على أهلها ، فإن العلم واسع ، له ظاهر وباطن ، ومسائل الإلهامات تارة ترد على حسب العلم الظاهر ، وتارة ترد على حسب العلم الباطن ، فإن لم تفهم فسلم ودع ما تعرف لما لا تعرف .

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول : من آداب مجالسة الصديقين أن تفارق ما تعلم لتظفر بالسر المكنون اهـ .

يعنى إن أردت أن تظفر بما عندهم من السر المكنون ، فأسقط عنهم الميزان فى

أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، وأما مادمت تزن عليهم بميزان علمك فلا تشم رائحة من سرهم .

وكان شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه يقول : طريقتنا لا ينال منها شيئاً إلا من يصدق بالمحال .

فإن أردت يا أخى أن يهب عليك نسيم أسرارهم ونفحات مواهبهم فدع ما تعرف إلى ما لا تعرف ، واغتسل من علمك وعملك حتى تبقى فقيراً إلى ما عندهم كما فعل شيخ طريقتنا الشاذلى رضى الله عنه .

ولقد حدثنى من أثق به أن الشيخ أبا الحسن رضى الله عنه طلع إلى الشيخ ابن مشيش رضى الله عنه بالميزان ، فلم يشم رائحة الولاية ، فرجع ثم طلع ثانياً كذلك ، فرجع كما طلع ، فلما أسقط الميزان واغتسل من علمه وعمله وطلع فقيراً أغناه الله ، قال له الشيخ ابن مشيش : يا أبا الحسن طلعت إلينا فقيراً من علمك وعملك فأخذت منا غنى الدارين ا هـ . نفعنا الله بذكرهم ، ونفح علينا ما نفح عليهم حتى نستغنى بهم غنى لا فقر معه أبداً آمين .

الوارد الإلهى

ثم إن الواردات التى تتجلى بالحقائق والعلوم إنما هى واردات أهل النهاية . وأما واردات أهل البداية فإنها تأتى قوية قهارية : إما بخوف مزعج ، أو شوق مقلق ، لترحله عن شهواته وعوائده ، وهى التى ذكرها الشيخ بقوله :

[**متى وردت الواردات الإلهية إليك هدمت العوائد عليك ، إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها**] .

قلت : الوارد الإلهى هو قوة شوق أو اشتياق أو محبة يخلقها الله فى قلب العبد ، وقد تنشأ عن قوة خوف أو هيبة أو جلال ، فتزعجه تلك القوة إلى النهوض إلى مولاه ، فيخرج عن عوائده وشهواته وهواه ، ويرحل إلى معرفة ربه ورضاه ، وقد تترادف عليه أنوار تلك المحبة والشوق ، فتغيبه عن حسه بالكلية ، وهو الجذب ، وإنما جمع الواردات باعتبار تلك المحبة والشوق ، فإنها لا تهدم عوائدها إلا إن كثرت وتزايدت ، وتسمى أيضاً هذه الواردات نفحات .

قال عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ لِلَّهِ نَفَحَاتٍ فَتَعَرَّضُوا لِنَفحاتِهِ » .

فمن لم ترد عليه هذه الواردات اختياراً فليتعرض لها بصحبة العارفين أهل الإكسير الذى يقْلب الأعيان ، فإن صحبهم ولم ترد عليه فليخرق عوائد نفسه من الظاهر فإنها تدخل منه إلى الباطن ، فمتى وردت عليك حينئذ تلك الواردات الإلهية هدمت العوائد عليك وأفسدتها لديك ، فترد عزك ذلا ، وغناك فقراً ، وجاهك خمولا ، ورياستك تواضعاً وحنوًّا ، وكلامك صمتاً ، ولذيذ طعامك خشناً ، وشبعك جوعاً ، وكثرة كلامك صمتاً ، وقرارك فى وطنك سياحة وسفراً ، هكذا شأن الوارد الإلهى يخرب العوائد ويهدمها ، فهو كملك جبار ذى جيش طغاة دخل قرية أو مدينة فأفسد بناءها وغيّر عوائدها . قال تعالى :

(إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا) أى نزعوها وخربوها (وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً) أى رؤساءها أتباعا مرءوسين (وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ)[1] .

أى هذا شأنهم ، والاستشهاد بالآية فى غاية الحسن والمناسبة .

ثم ذكر الشيخ علة هدم الوارد عوائد الإنسان فقال :

[الوارد يأتى من حضرة قهار ، لأجل ذلك لا يصادمه شىء إلا دمغه ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق] .

قلت : إنما كان الوارد الذى يرد على قلوب السائرين أو الطالبين قويًّا شديداً ، لأنه يأتى من حضرة اسمه تعالى القهار ليدمغ بقهريته كل ما وجد فى النفس أو القلب من الأغيار ، وإنما قلنا من حضرة اسمه القهار ، لأن الحق تعالى له حضرات بعدد أسمائه ، فاسمه تعالى القهار يتجلى من حضرة قهريته ، واسمه جميل يتجلى من حضرة جماله ، واسمه جليل يتجلى من حضرة جلاله ، واسمه رحيم يتجلى من حضرة رحمته ، واسمه الحليم يتجلى من حضرة حلمه ، واسمه الكريم يتجلى من حضرة كرمه ، وهكذا . فكل اسم يخرج تجليه على وفق حضرته . قال تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)[2] .

---

(١) النمل : ٣٤ .

(٢) الحجر : ٢١ .

ولو كان هذا الوارد الذى يرد على قلوب أهل البداية من حضرة الرحيم أو الحليم أو الجميل ما أمكن أن يدفع بحكمة الله ما صادمه من الباطل .

وشبه الشيخ : الباطل : وهو كل ما سوى الله بحيوان له دماغ ، فإذا ضرب دماغه وتشتت مات ، كذلك الباطل إذا صادمه الحق أهلكه وتشتت دماغه . فالوارد الإلهى محض حق ، فإذا صادم الباطل دمغه وقتله ، ولذلك أتى بالآية التى نزلت فى شأن القرآن مع الكفر ، فإن الكفر تشتت واضمحل حين نزل القرآن ، كذلك السوى إذا تجلى الحق بقهرية نوره تشتت واضمحل .

وكان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه كثيرًا ما ينشد هذه الأبيات فى هذا المعنى :

فَلوْ عَايَنَتْ عَيْنَاكَ يَوْمَ تَزَلْزَلَتْ ... أَرْضُ النفُوسِ وَدُكَّتِ الأَجْبَالُ
لَرَأَيْتَ شَمْسَ الْحَقِّ يَسْطَعُ نُورُهَا ... عِنْدَ التَّزَلْزُلِ وَالرِّجَالُ رِجَالُ

قال : والأرض أرض النفوس ؛ والجبال : جبال العقل .

يعنى أن الوارد الإلهى إذا ورد قويًّا من حضرة قهاريته تعالى ، دك وجود النفوس ، وتدكدكت منه جبال العقول ، فيكشف له حينئذ عن أسرار خارجة عن مدارك العقول غير مدركة بعبارة النقول ، فيصير صاحب هذا الوارد كله حقاً لا يصادم شيئاً إلا دمغه ، وهذا المعنى قصده شيخ شيوخنا القطب ابن مشيش بقوله : واقذف بى على الباطل فأدمغه ، طلب أن يكون حقاً محضاً يقذف به على السوى فيدمغه .

فإذا ذهب السوى واضمحل بقى الحق الذى لا يفنى ، ظاهراً لا يخفى ، كما أبان ذلك الشيخ ، فلله دره ما أدق نظره فى مناسبة الكلام وحسن التخليص لكل مقام حيث قال :

[كيف يحتجب الحق بشىء والذى يحتجب به هو فيه ظاهر وموجود حاضر ؟] .

قلت : قد كرر الشيخ هذا المعنى فى كتابه مراراً تحريضاً على الجمع وتحذيراً من الفرق ، فقد تقرر أن الحق تعالى ليس محجوباً بشىء ولا يصح أن يحتجب

بشىء ، إذ لو احتجب بشىء وجودى لكان ذلك من أثر قدرته وقدرته لا تفارق ذاته ، فالصفة لا تفارق الموصوف ، فما ظهر شىء من بحر الجبروت إلا كان نوراً من أنواره ، وأثراً من أثر صفاته ، وقد قال صاحب العينية :

فَأَوْصَافهُ وَالاسْمُ وَالأَثَرُ الَّذِى   هُوَ الْكَوْنُ عَيْنُ الذَّاتِ وَاللهُ جَامِعُ

فلذلك تعجب الشيخ من تصور الحجاب فى حقه تعالى ، مع أن كل ما يبرز من عنصر القدرة كله نور من نور ملكوته ، فائضاً متدفقاً من بحر جبروته ، فتحققت الوحدة وانتفى الحجاب بالكلية ، فكل موجود نور الحق فيه حاضر موجود .

ثم إن الواردات هى الأحوال ، والأحوال نتائج الأعمال فى الغالب ، فلذلك ذكر الشيخ العمل وأمرك ألا تتركه حيث لم تذق حلاوته ، والعمل منه ما يجد العامل ثمرته وهو الحال والحلاوة ، ومنه مالا يجد ثمرته عاجلا ، فلا ينبغى تركه ، ولا ييأس من ثمرته ، ولا من قبوله كما أبان ذلك بقوله :

[لا تيأس من قبول عمل لا تجد فيه وجود الحضور ، فربما قُبل من العمل ما لم تدرك ثمرته عاجلا] .

قلت : قد تقدم قوله : من وجد ثمرة عمله عاجلا فهو دليل على وجود القبول ولا يقتضى المفهوم أنه إن لم يجد ثمرته فليس بمقبول ، بل هو مسكوت عنه ، فإن توفرت فيه شروط القبول من جهة الشريعة ، إن صحبه الإخلاص والتقوى والإتقان الشرعى فهو مقبول عند الله إن شاء الله ، سواء وجد ثمرته أم لا ، قال الله تعالى : (إنما يَتَقَبَّلُ الله مِنَ الْمُتَّقِينَ) [1] وقال صلى الله عليه وسلم : « لَا يَقْبَلُ الله مِنْ مُسَمِّعٍ وَلَا مُرَاءٍ » .

فإن كنت متقياً لله فى ظاهرك وباطنك على قدر استطاعتك ، ومخلصاً لله فى أعمالك ، ثم لم تجد حلاوة العمل ولا حضور قلبك فيه ، ولم تجد ثمرته من أحوال الواجدين وأذواق العارفين ، فلا تيأس من قبوله عند الله ، فليس وجود الحال ولا الحلاوة شرطاً فى العمل إنما هى علامة ، والعلامة لا يلزم طردها ،

---

(١) المائدة : ٢٧ .

فربما قُبل من العمل ما لم تدرك ثمرته عاجلا ، فيعطيك ثوابه آجلا ، فلا ينبغى لك أن تستحقر عملك فتتركه ، لعدم حضورك فيه ، أو لعدم وجدان حلاوته ، بل يجب عليك أن تدوم عليه حتى تجنى ثمرته ، فمن قرع الباب يوشك أن يفتح له ، واسمع قول الشاعر :

اطْلُبْ وَلَا تَضْجَرَنْ مِنْ مَطْلَب فَـآفَةُ الـطَّالِبِ أنْ يَضْجَرَا
أَمَـا تَرَى الْحَبْـلَ بِتَكْـرارِهِ فِى الصَّخْرَةِ الصَّماءِ قَدْ أَثَّرَا

واذكر قضية العابد الذى بقى فى مكة أربعين سنة وهو يقول : لبيك اللهم لبيك ، والهاتف يقول : لا لبيك ولا سعديك ، وحجك مردود عليك ، وهو ملازم لم يبرح من موضعه ولم يرجع عن عمله ، فجاء إليه رجل يزوره فلما قال الرجل العابد لبيك ، فقال له الهاتف لا لبيك ، فقام الزائر منصرفاً عنه وقال فى نفسه هذا رجل مطرود ، فناداه العابد مالك ؟ فقال : يا سيدى أنت قلت لبيك والقائل قال لك لا لبيك ، فقال له يا هذا لى أربعون سنة أسمع هذا الخطاب ، وهل ثم أبواب أخرى نأتيه منها ؟ أنا واقف ببابه ، ولوطردنى ألف مرة ما برحت عن بابه ، فقبله الحق تعالى ، فلما قال لبيك ، قال له الحق تعالى لبيك وسعديك أو كما قال .

فانظر من لازم الباب كيف التحق بالأحباب ، وفتح فى وجهه الباب ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام :

« أَحَبُّ الْعَمَلِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ » وقال : « إِنَّ اللهَ لَا يَمَل حَتَّى تَمَلُّوا » .

فالمراد من العمل القيام برسم العبودية ، وتعظيم جانب الربوبية ؛ وليس المراد منها طلب الأحوال والمقامات ، فإن ذلك قدح فى الإخلاص عند أهل التوحيد الخاص .

وقد يكون الحال سبباً فى الحجاب لمن وقف معه واستحلاه ، ولذلك قال بعضهم : اتقوا حلاوة الطاعة فإنها سموم قاتلة ، أى لمن وقف معها ، وكم ينفذ

لى شهود المعبود بها ، فلا تكن عبد الحال وكن عبد المحول كما نبه على ذلك المؤلف بقوله :

[لا تزكين واردًا لا تعلم ثمرته ، فليس المراد من السحابة الأمطار ، وإنما المراد منها وجود الأثمار] .

قلت : ثمرة الوارد هو هدم العوائد ، واكتساب الفوائد ، والتخلية من الرذائل ، والتحلية بالفضائل .

وإن شئت قلت : ثمرة الوارد الصادق هو ما ينشأ عنه من الذلة والانكسار ، والخشوع والسكينة ، والوقار والحلم ، والزهد والسخاء والإيثار ، والتخلص من رق الشهوات الجسمانية ، والعوائد النفسانية ، والخروج من سجن الأكوان ، والترقى إلى فضاء الشهود والعيان ، والتحرر من يد الأغيار ، والتمحض إلى تحقيق المعارف والأسرار وكل هذا قد تقدم للمؤلف مفرقاً .

قال فى أول الكتاب : أورد عليك الوارد لتكون به عليه وارداً . أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد الأغيار ، وليحررك من رق الآثار . أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك . وقال فيها تقدم قريباً : متى وردت الواردات الإلهية إليك ، هدمت العوائد عليك . وقال أيضاً : الوارد يأتى من حضرة قهار لأجل ذلك لا يصادمه شىء إلا دمغه .

فإذا ورد عليك وارد ولم يترك فيك هذه الخصال فلا تزكه ، واتهم نفسك فيه ، لئلا يكون شيطانيًّا ، فإن الوارد الإلهى تعقبه برودة وسكون ، وزهد وطمأنينة وفترة ، والوارد الشيطانى تعقبه حرارة وقساوة ، وتكبر وصولة ورؤية نفس ، فليس المراد من الحال فرحه وخفته وشطحته إنما المراد منه ثمرته ، فهو كسحابة الأمطار ، فليس المراد منها وجود الأمطار ، وإنما المراد ما ينشأ عنها من وجود الأثمار ، فلا تطلب بقاء الحال فقد يكون بقاؤه ضرراً لك ، فإن دوام الأمطار يعود نفعها ضرراً وإلى ذلك أشار بقوله :

[لا تطلبن بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها ، وأودعت أسرارها ، فلك فى الله غنى عن كل شىء ، وليس يغنيك عنه شىء] .

قلت : طلب الشىء يدل على محبته ، ومحبة الشىء عبودية له ، والحق تعالى لا يحب أن تكون عبدًا لغيره فلا تطلب معه حالا ولا مقاماً ، فإن وردت عليك

الأحوال وهى الواردات الإلهية ثم انقشعت وانصرفت ، فلا تطلب بقاءها بعد أن بسطت فى قلبك أنوارها ، فأخرجت منه ظلمة الأغيار وصور الآثار ، وأودعت أسرارها من مزيد الإيقان وشهود العيان .

أو تقول : لا تطلب بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها من هدم عوائد نفسك عليك ، فتحررت من رق الشهوات الجسمانية والعوائد النفسانية ، وتخليت من الرذائل وتحليت بالفضائل ، فهذه آثار أنوار الواردات . وبعد أن أودعت أسرارها فى قلبك من اليقين والطمأنينة والمعرفة ، أو من الزهد والرضا والتسليم ، أو من الخشوع والتواضع والذلة والانكسار ، فهذه علامة صدق الوارد وحصول نتيجته . فإذا حصلت النتيجة فلا حاجة للشيخ لشىء ، فلك فى الله غنى عن كل شىء ، فلا تفتقر إلى شىء ، وليس يغنيك عنه شىء ، وسيأتى للشيخ ماذا فقد من وجدك ؟ وما الذى وجد من فقدك ؟ وقال الشاعر :

لِكُلِّ شَىْءٍ إذا فَارَقْتَهُ عِوَضٌ ... وَلَيْسَ لله إِنْ فَارَقْتَ منْ عِوَضِ

وفى الإشارة عن الله تعالى ، لا تركنن إلى شىء دونى فإنه وبال عليك وقاتل لك ، فإن ركنت إلى العلم تتبعناه عليك ، وإن آويت إلى العمل رددناه إليك ، وإن وثقت بالحال وقفناك معه ، وإن آنست بالوجد استدرجناك فيه ، وإن لحظت الخلق وكلناك إليهم ، وإن اغتررت بالمعرفة نكرناها عليك فأى حيلة لك ؟ وأى قوة معك ؟ فارضنا لك ربًّا حتى نرضاك لنا عبدا اهـ .

وسئل أبو سليمان الدارانى عن أفضل ما يتقرب به إلى الله ؟ فقال : أقرب ما يتقرب به إلى الله أن يطلع على قلبك وهو لا يريد من الدنيا والآخرة سواه ، وفى ذلك قيل :

مَنْ عَرَفَ اللهَ فَلَمْ تُغْنِه ... مَعْرِفَةُ اللهِ فَذَاكَ الشَّقِى
مَا يَصْنَعُ الْعَبْدُ بِعِزِّ الغِنَى ... وَالْعِز كُلُّ الْعِزِّ لِلْمُتَّقِى

فإذا حصل لك الغنى بالله استغنيت عن كل ما سواه ، فلا تتطلع إلى بقاء حال ولا وارد ولا مقام ، سوى شهود الملك العلام ، فتطلعك إلى بقاء حال أو وارد دليل على عدم غناك به ، كما أبان ذلك بقوله :

[تطلعك إلى بقاء غيره دليل على عدم وجدانك له] .

قلت : إذ لو وجدته ما طلبت شيئاً ، ولا افتقرت إلى شيء أصلا ، فكل من يفرح بالوارد والحال ، فهو غير متحقق بالوصال ، وكل من يفتقر لغير الله فليس بعارف بالله وكل من يحتاج إلى شيء أو يركن إلى شيء فليس من الله فى شيء ، وليس على شيء ، ولله در القائل ويقال إنه الغزالى حيث قال :

كَانَتْ لِقَلْبِيَ أَهْوَاءٌ مُفَـرَّقَةٌ فَاسْتَجْمَعَتْ مُذْ رَأَتْكَ الْعَيْنُ أَهْوائِى
فَصَارَ يَحْسُدُنِى مَنْ كُنتُ أَحْسُدُهُ وَصِرْتُ مَوْلَى الْوَرَى مُذْ صِرْتَ مَوْلاَئِى
تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دُنياهم ودينهمُ شُغْلا بِذِكْرِكَ يَادِينِى ودُنْيائِى

ومن علامة الغنى به أيضاً الأنس به ، والوحشة من غيره ، فالله يغنى عن كل شيء ، ولا يغنى عنه شيء ، فإذا فقد حالا أو مقامًا سوى شهود ربه ثم استوحش منه فهو بعيد من الحضرة كما أبان ذلك بقوله :

[واستيحاشك بفقدان ما سواه دليل على عدم وُصلتك به] .

قلت : استيحاشك بفقدان الأحوال والواردات دليل على عدم وصلتك ، إذ لو وصلت إليه لم تستوحش من فقدان شيء ، وفى الحقيقة ما فقدت شيئاً . وهذه علامة الغنى بالله : أنه إذا فقد شيئاً مما هو فى العادة يؤلم فقده كالولد مثلا أو قريباً أو فاتته عبادة حسية مثلا أو غير ذلك ، فإنه يرجع للمعرفة ، فالله يغنى عن كل شيء وهو المقصود من العبيد . قال الله تعالى :

(لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ)[1] .

قال فى التنوير : اعلم أن الله سبحانه إنما يدخلك فى الحال لتنال منها لا لينال منك ، وإنما جاءت لتحمل هدية التعريف من الله إليك فيها ، فتوجه إليها باسمه المبدى ، فأبداها وأبقاها حتى إذا وصلت إليك ما كان لك فيها ، فلما أدت الأمانة توجه إليها باسمه المعيد فأرجعها وتوفاها ، فلا تطلبن بقاء رسول بعد أن بلغ رسالته ، ولا بقاء أمين بعد أن بلغ أمانته ، وإنما يفتضح المدَّعون بزوال

(١) الحديد : ٢٣ .

الأحوال ، بعزلهم عن مراتب الإنزال ، هنالك يبدو العوار ، وتنهتك الأستار ، فكم من مدَّع الغنى بالله ؛ وإنما غناه بطاعته أو بنوره أو فتحه ، وكم من مدع العز بالله ، وإنما إعزازه بمنزلته وصولته على الخلق ، معتمدًا على ما ثبت عندهم من معرفته ، فكن عبد الله لا عبد العلل ، وكما كان لك ربًّا ولا علة فكن عبداً له ولا علة ، لتكون له كما كان لك ا هـ . هذا آخر الباب الثالث والعشرين .

وحاصلها : الكلام على القرب والوصال ، وما ينشأ عن ذلك من مقامات الإنزال ونتائج الأحوال ، والغنى بالله عنها فى كل حال ، فهذا هو النعيم على الدوام ، والاتصال الذى فتح به الباب الرابع والعشرين فقال رضى الله عنه :

الباب الرابع والعشرون

نعيم الروح

[النعيم وإن تنوعت مظاهره إنما هو بشهوده واقترابه ، والعذاب وإن تنوعت مظاهره إنما هو بوجود حجابه ، فسبب العذاب وجود الحجاب ، وإتمام النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم] .

قلت : نعيم الروح وعذابها إنما هو بشهود ربها واحتجابها ، وذلك بعد تخلصها من عالم الأشباح ، وترقيها إلى عالم الأرواح ، فيكون حينئذ نعيمها روح الوصال ، وريحان الجمال ، وعذابها احتجابها عن شهود ذلك الجمال ، وبعدها عن الكبير المتعال ، وهذا الأمر حاصل فى دار الدوام لجميع الأنام ، لأنه تميز الحق من الباطل ، وعرف كل واحد مثواه ومستقره ، فأهل الجنان أحسوا بالرضا والرضوان ، فهم عالمون بقرب الحق منهم ورضاه عنهم ، لكنهم متفاوتون فى العلم ؛ فمنهم من يعلم من وراء الرداء ، ومنهم من يعرف داخل الرداء .

وفى البخارى : « وَمَا بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وجْهِهِ فى جَنَّةِ عَدْنٍ » .

ولا يفهم هذا الرداء إلا أهل الأذواق . وأما أهل النار فأحسوا بالبعد من الواحد القهار ، فتضاعف عذابهم فى دار البوار .

ولو أن الحق تعالى تجلى لهم بصفة جماله لأنساهم ذلك اليوم عذابه ؛ ولو أنه تعالى احتجب عن أهل الجنة لضاق عليهم فسيح الجنان ، ولانقلب نعيمهم نقمة وعذابا . أما من كان فى دار الدنيا عارفاً فلا يحتجب الحق تعالى عنه ، كما شهده هنا بوسائط أنواره يشهده ثَم بلطائف أسراره ، بل ثم أولى لغلبة المعنى على الحس ، والقدرة على الحكمة . وأما من كان هنا محجوبًا فهو ثم أيضًا محجوب . قال تعالى :

(وَمَنْ كَانَ فِى هَٰذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِى الآخِرَةِ أَعْمَى)[١] .

وللآية تفسيران : ظاهر وباطن ، لكن فى دار البقاء يرق الحجاب لرقة الأبدان ولطافتها ، فلذلك صار نعيمهم لا يكمل إلا بشهود القرب ، فإذا فقدوه تنغص نعيمهم ، لأن فى تلك الدار صار الحكم للأرواح ، وفى هذه الدار الحكم للأشباح ، إلا من ترقى هنا إلى عالم الأرواح فهو من أهل الجنة ، فنعيمه نعيم الأرواح ، وهو روح الوصال وشهود الكمال ، فنعيمه بشهود اقترابه ورضوانه ؛ فلو زال عنهم شهود القرب أو انقطع عنهم مدد الرضوان ، لضاق عليهم فسيح الجنان .

وأما نعيم الأشباح وعذابها : أعنى من كان محجوبًا بها ، فإنما هو لموافقة ما يلائم طبعه أو مخالفته ، فإذا جاء ما يلائمه من صحة وعافية وجمال حسى فهو فى حقه نعيم ، وإذا جاء ما يخالف طبعه من وجع أو فقد أو منع أو فتنة فهو عذاب فى حقه إذ لاحظّ له فى لذة القرب ومرارة البعد ، فإنما حظه من النعيم نعيم البهائم ، نعم لو قدرنا أن العادة تخرق له ويتجلى الحق تعالى له فى حال عذابه الحسى بصفة جماله ، لنسى ذلك العذاب .

والحاصل : أن كلام الشيخ إنما هو فى حق أهل القرب أو الشهود بحيث يجد لذة القرب وحلاوة الشهود ، ويحس بمرارة البعد وضيق الحجاب فى هذه الدار وفى تلك الدار ، هذا ما ظهر لى ، وهذا الذى ذكره الشيخ ، مذوق عند أرباب العشق ، فكم من عاشق ضرب بمحضر محبوبه فلم يحس بألم الضرب ، فلما غاب عنه تضرع واستغاث ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : لما حضر من كنت أضرب من أجله غبت عن ألم الضرب ، فلماغاب عنى وجدت ألمه .

قلت : ولهذا المعنى استلذ العارفون الفاقات ، وأنواع التعرفات ، وضروب البليات لما ذاقوا فى ذلك من إقبال محبوبهم ؛ ورضا مشهودهم .

كان بعض الصحابة رضى الله عنهم يقول : ألا حبذا المكروهات الثلاث : الفقر والمرض والموت : أى ما أحبهم لى وأعزهم .

وكانت زوجة بلال تصيح عند موته واكرباه فيقول هو : واطرباه ، غدا ألقى

---

(١) الإسراء : ٧٢ .

الأحبه ، محمداً وحزبه .

ولما ضرب عامر بن فهيرة بالرمح ونفذ من ظهره إلى صدره ، قال فزت ورب الكعبة .

وكان بعض الأولياء مجذوماً وهو يدعو للمرضى فيبرءون من حينهم ، فقيل له لو دعوت الله أن يخفف عنك ، فقال : رأيت رب العزة فى النوم ، وهو يقول لى : أتريد أن أبتليك ببلية أرفع لك بها أعلى الدرجات ؟ قلت : نعم ، فأصبح مجذومًا .

فانظر هؤلاء السادات لما عرجوا من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح ، لم يبق لهم نعيم ولا عذاب إلا نعيم الأرواح أو عذابها ، وأما عذاب الأشباح فقد غابوا عنه ، فكان نعيم هؤلاء وقوت أرواحهم هو ذكر ربهم وشهود نوره أو اقترابه ، حتى صار لهم غذاء لا بقاء لهم إلا به ، ولا غنى لهم عنه ، ولو فقدوه لفارقت أرواحهم أشباحهم ، وفى ذلك قيل :

بِالْقُوتِ إحْيَاءُ الْجُسُومِ وَذِكْرُهُ ... تَحْيَا بِهِ الْأَلْبَابُ وَالْأَرْوَاحُ
هُوَ عَيْشُهُمْ وَوُجُودُهُمْ وَحَيَاتُهُمْ ... حَقًّا وَرُوحُ نُفُوسِهِمْ وَالرَّاحُ

وقد قلت فى قصيدة لى عينية :

وَلِى لَوْعَةٌ بِالرَّاحِ إِذْ فِيهِ رَاحَتِى ... وَرَوْحِى وَرَيْحَانِى وَخَيْرٌ وَاسِعُ
سَكِرْنَا فَهِمْنَا فِى بَهَاءِ جَمَالِهِ ... فَغِبْنَا عَنِ الْإِحْسَاسِ وَالنُّورُ سَاطِعُ
تَبَدَّتْ لَنَا شَمْسُ النَّهَارِ وَأَشْرَقَتْ ... فَلَمْ يَبْقَ ضَوْءُ النَّجْمِ وَالشَّمْسُ طَالِعُ

الحاصل : أن نعيم الأرواح التى تشاهد محبوبها لا ينقطع عنها ، فنعيم العارفين لا ينقطع لأن قرب الحق لا ينقطع ، فمن بعدت نفسه أحس بالعذاب ولزمه الهموم والأحزان والنصب ، كما أبان ذلك بقوله :

[ما تجده القلوب من الهموم والأحزان ، فلأجل ما مُنِعتْه من وجود العيان] .

قلت : إنما كان سبب الهموم هو فقد الشهود ، لأن الحق تعالى قريب على

الدوام ، رقيب على الدوام ، فمن كان قريباً من الحبيب ، فكيف يحس بفراق شيء أو فواته ؟ نظر الحبيب يغيب عن كل بعيد وقريب ؛ وأيضاً كل ما ينزل من عند الحبيب فهو حبيب فلا يلحقه شيء مكروه عنده حتى يهتم به ، ولا يفوته محبوب سوى محبوبه حتى يحزن عليه ، ففي محبوبه اجتمعت المحاسن كما قال القائل :

تَذَلَّلْ لَهُ تَحْظَى بِرُؤْيَا جَمالِهِ فَفِي ... وَجْهِ مَنْ تَهْوَى الْفَرَائِضُ وَالنَّفْلُ

وفى هذا المعنى أيضاً قال صاحب العينية :

تَلَذُّ لِيَ الآلَامُ إِذْ كُنْتَ مُسْقِمِي ... وَإِنْ تَخْتَبِرْنِي فَهْوَ عِنْدِى صَنَائِعُ

وبالجملة من كان نظره إلى محبوبه ومشاهداً لنوره وجماله لم يبق له همٌّ ولا غمٌّ كما قال ابن الفارض فى شهود الخمرة :

فَمَا سَكَنَتْ وَالْهَمُّ يَوْمًا بِمَوْضِعٍ ... كَذٰلِكَ لَمْ يَسْكُنْ مَعَ النَّغَمِ الْغَمُّ

وقال أيضاً :

وَلَوْ خَطَرَتْ يَوْمًا عَلَى خَاطِرِ امْرِئٍ ... أَقَامَتْ بِهِ الْأَفْرَاحُ وَارْتَحَلَ الهَـمُّ

ومما أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود لا تمزج هم غيرى بقلبك ، فتنقص منه حلاوة الروحانيين ، يا داود أنا مصباح قلوب الروحانيين ، ومن كنت مصباح قلبه لم يغتم أبداً . يا داود إنما مرادى من خلقى أن يكونوا روحانيين ا هـ .

وبالجملة من كان عبداً لله غائباً عما سواه لم يبق له شيء من الهم ، لأنه قد حصلت له المعية التى توجب النصر والظفر بكل ما يريد ، ألا ترى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)[1] .

حين أحدق به المشركون ، فكان عليه الصلاة والسلام فى محل الغيان فلم يهمه شيء ولم تقرب من ساحته الأحزان . وكان أبو بكر فى ذلك الوقت موقناً

(١) التوبة : ٤٠ .

غير مشاهد ، فدله عليه الصلاة والسلام على مقام الكمال ، لأن الشهود فوق الإيقان ، وأنشدوا :

كَبُرَ الْعِيَانُ عَلَيَّ حَتَّى أَنَّهُ صَارَ الْيَقِينُ مِنْ الْعِيَانِ تَوَهمَا

ومن جملة ما وقع من الاهتمام به لمن لم يكمل يقينه أمر الرزق وخوف الخلق ، حتى قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : من ضمنها لى ضمنت له الولاية ، أشار الشيخ إلى الأول بقوله :

[**من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك ، ويمنعك ما يطغيك**] .

قلت : من تمام نعمة الله على عبده أن يوجه همته إليه ، ويفرغ قلبه من التعلق بغيره كائناً ما كان ، فيرزقه ما يكفيه عن التعلق بغيره وهو الغنى بالله ، إذ لا نعمة أعظم من الغنى بالله ، والغيبة عما سواه ، ويكفيه كل ما يطغيه حتى يشتغل به عن ربه ، فإذا رزقك الحق تعالى ما يكفيك لقيام بشريتك أكلا ولباساً ومسكناً ، ولقيام روحانيتك علماً وعملا وذوقاً ومعرفة ، ومنعك ما يطغيك ويشغلك عن حضورك مع ربك ، فقد أتم نعمته عليك ، فاشكره على ما أسدى إليك ، وتوجه إليه وحده فيما تعذّر عليك ، وادفع ما يشغل قلبك من النهوض إليه :

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)[1] ، (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ)[2] .

وقد استعاذ عليه الصلاة والسلام مما يشغل القلب وينسى الرب فقراً أو غنى ، فكان يتعوذ من الفقر المنسى ، والغنى المطغى ، وقال :

« اللهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتاً » وقال عليه الصلاة والسلام : « خَيْرُ الذِّكْرِ : الْخَفِيّ » أى فى القلب وهو الفكرة « وَخَيْرُ الرِّزْقِ مَا يَكْفِى » وقال عليه الصلاة والسلام : « مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ إِلا وَبِجَنَاحَيْهَا مَلَكَانِ يُسْمِعَانِ الْخَلائِقَ غَيْرَ الثقَلَيْنِ : أَيهَا النَّاسُ هَلُموا إِلَى رَبِّكُمْ ، مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلهى » وَقالَ عليه الصلاة والسلام : « لَيْسَ الْغِنَى

(١) الحج : ٣٨ . (٢) النحل : ١٢٨ .

بِكَثْرَةِ الْعَرَضِ ، إنما الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ » وفى ذلك قيل :

غِنَى النفْسِ مَايَكْفِيكَ عَنْ سَدِّ خَلَّةٍ   فَإِنْ زِدْتَ شَيْئًا عَادَ ذَاكَ الْغِنَى فَقْرًا

وقال عبد الواحد بن زيد رضى الله عنه : سمعت أن جارية مجنونة فى خراب الأيلة تنطق بالحكم ، فكنت أطلبها حتى وجدتها وهى محلوقة الرأس وعليها جبة صوف ، فلما رأتنى قالت : مرحباً بك يا عبد الواحد ، فعجبت من معرفتها لى ولم ترنى ، فقلت لها : رحب الله بك ، ثم قالت : ما جاء بك ؟ قلت تعظينى ، قالت : واعجباً لواعظ يوعظ ، يا عبد الواحد . اعلم أن العبد إذا كان فى كفاية ومالَ إلى شىء من الدنيا سلبه الله حلاوة الزهد وظل حيران ولهًا ، فإن كان له عند الله نصيب عاقبه وحيًا فى سره فيقول له : عبدى أردت رفع قدرك عند ملائكتى ، وأجعلك دليلا لأوليائى ، ومرشدًا لأهل طاعتى فملت إلى عرض الدنيا وتركتنى ، فأورثك ذلك الوحشة بعد الأنس ؛ والذل بعد العز ، والفقر بعد الغنى ، ارجع إلى ما كنت عليه ارجع إلى ما كنت تعرفه من نفسك ، ثم انصرفت عنى وتركتنى ، وبقيت حسرتها فى قلبى .

وفى بعض الكتب المنزلة : إن أهون ما أصنع بالعالِم إذا مال إلى الدنيا أن أسلبه حلاوة مناجاتى ا هـ .

دوام الفرح

وإنما كانت الكفاية نعمة ، والزيادة عليها نقمة ، كما قال الشيخ ، لأن النفوس مجبولة على حب العطاء وكراهية الفقد ، فإذا أعطاها فرحت ، وإذا أزال عنها حزنت ، فمن أراد أن يدوم فرحه فلا يأخذ فوق كفايته ما يحزن على فقده ، كما أبان ذلك بقوله :

[ليقلّ ما تفرح به ويقل ما تحزن عليه] .

قلت : فإذا أردت أن يدوم سرورك فلا تملك شيئًا تحزن على فقده ، لأن حزنك على فقده دليل محبتك له ، فإذا اقتصرت على الضرورة والحاجة من مال أو جاه أو عز أو غير ذلك ، فلا تجد ما تفقده حتى تحزن عليه .

قيل لبعضهم : لم لا تغتم ؟ قال : لأنى لا أقتنى ما يغمنى ، وفى ذلك قيل :

وَمَنْ سَرَّهُ ألا يَرَى مَا يَسُوءُهُ فَلَا يَتَّخِذْ شَيْئًا يَخَافُ لَهُ فَقْدَا
فَإِنَّ صَلَاحَ المَرْءِ يَرْجِعُ كُلُّهُ فَسَادًا إِذَا الإِنْسَانُ جَازَ بِهِ الْحَدَّا

يحكى أنه رفع لبعض الملوك قدح من فيروزج مرصع بالجواهر لم ير له نظيراً ، ففرح به الملك فرحًا شديدًا ، فقال لبعض الحكماء عنده : كيف ترى هذا ؟ فقال : أراه مصيبة وفقراً ، فقال : كيف ذلك ؟ فقال : إن انكسر كان مصيبة لا صبر لها ، وإن سرق صرت فقيراً إليه ولم تجد مثله ؛ وقد كنت قبل أن يحمل إليك فى أمن من المصيبة والفقر ، فاتفق انكسار القدح فعظمت مصيبة الملك به ، فقال : صدق الحكيم ، ليته لم يحمل إلينا ا هـ .

وهنا ميزان آخر أحسن من هذا . وهو أنك إذا أطلقت من نفسك ، وجعلتها غرضًا لسهام أقدار ربك ، لا تعارضه فيما يفعل بك ، لا شك أنك تستريح ويدوم فرحك ، لأنك حينئذ منتظر ما يبرز من عند الحبيب ، فتتلقاه بالرضا والترحيب ، وهذه حلاوة برد الرضا والتسليم ؛ فإن صحبها شهود الفاعل المختار فهو النعيم المقيم ؛ وهذه هى الولاية الكبرى ؛ من تقلدها لا يعزل عنها أبداً كما أشار إلى ذلك بقوله :

[إن أردت ألا تُعزَل فلا تتول ولاية لا تدوم لك] .

قلت : الولاية التى لا تدوم هى الولاية التى تأتى من جهة الفرق ، وهى ولاية الخلق كخطة السلطنة والقضاء والقيادة ، وغير ذلك من الخطط التى قلدها الله بعض عباده ، ويدخل فيها أيضاً ولاية المال إذا كان يعظم من أجله ، أو النسب إذا كان خالياً عن التقوى ، أو العلم إذا كان خالياً عن العمل ، وغير ذلك من رياسة الدنيا ، فإنها تفنى وتنقطع ، ويعقبها ذل وفقر ؛ والولاية التى تدوم هى الولاية التى تأتى من جهة الجمع ، وهى العز بالله ، والغنى به ، والمعرفة له ، والغيبة عما سواه ، فلا شك أن هذه ولاية لا تنقطع ، وشرف لا ينفد ، وعز لا يبيد .

يحكى أن سيدى عبد الله بن المبارك وكان من تابع التابعين ، ومن العلماء العاملين الزاهدين قدم على هارون الرشيد ، فلما دخل العسكر انكب عليه

العسكر لزيارته ، فوقع من الازدحام ضجة كبيرة ، حتى تقطعت النعال ، وارتفعت الغبرة ، فأشرفت أم ولد هارون من قصر الخشب ، فلما رأت كثرة الناس وازدحامهم ، قالت : ما هذا ؟ قالوا لها : هذا عالم خراسان ؛ فقالت : هذا والله هو الملك والعز ، لا ملك هارون الذى يجمع الناس بالسوط والعصيِّ .

وأيضًا الولاية التى تدوم تنسحب عليه وعلى ذريته ، ثم تدوم فيهم على قدر جاهه عند الله ، وعظيم ولايته ، فكل من عظمت ولايته دامت على أولاده وأتباعه بقدر تلك الولاية ، وهو معنى قوله تعالى على بعض التفاسير :

(وَلْيَخْشَ الذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ)[1] الآية . أى وليخش الذين خافوا على أولادهم فإن الله يحفظه فيهم . وقيل فى قوله تعالى : (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً)[2] . .

إنه كان جدهم السابع ، فحفظ الله كنز اليتامى ببركة صلاح الجد ، والله تعالى أعلم .

وأما إن توليت الولاية التى لا تدوم ، فكن فيها على حذر ولا تغتر بحلاوة بدايتها . فإن نهايتها مرارة ، كما أبان ذلك بقوله :

[إن رغّبتك البدايات زهّدتْك النهايات] .

قلت : الولاية التى لا تدوم كعز بمال أو جاه أو عشيرة ، أو غير ذلك من عز الدنيا أولها حلو لمتعة النفس ووجود حظها فيها ، وآخرها مر لفقد تلك الولاية ولو بالموت ، ولما يعقبه من الذل والهوان ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « نِعْمَتِ الْمُرْضِعَةُ ، وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ » .

فإن رغّبتك فى هذه الولاية التى تفنى حلاوة بدايتها زهّدتك فيها مرارة نهايتها ، فإن غرتك بظاهر بهجتها ، فاعتبر بباطن حسرتها ، إن رغبتك فيها حلاوة إقبالها ، زهدتك فيها مرارة إدبارها .

قال الشيخ أبو على الثقفى رضى الله عنه : أف لأشغال الدنيا إذا أقبلت ، وأف من حسرتها إذا أدبرت . والعاقل لا يركن إلى شىء إذا أقبل كان فتنة ،

---

(١) النساء : ٩ .

(٢) الكهف : ٨٢ .

وإذا أدبر كان حسرة ، وأنشدوا فى ذلك :

وَمَنْ يَحْمَدِ الدنْيَا لِشَىْءٍ يَسُرهُ   فَسَوْفَ لَعَمْرِى عَنْ قَرِيبٍ يَلومُهَا
إِذَا أَدْبَرَتْ كانَتْ عَلَى المرءِ حَسْرَةً   وَإِنْ أَقْبَلَت كَانَتْ كَثِيراً هُمُومُها

وكتب على كرم الله وجهه إلى سلمان الفارسى رضى الله عنه : « مثل الدنيا كمثل الحية ، لين لمسُها قاتل سمُّها ؛ فأعرض عن كل ما يعجبك فيها لقلة ما يصحبك منها ، ودع عنك همومك لما تيقنت من فراقها ، وكن أسرّ ما تكون فيها أحزن ما تكون منها ، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن إلى سرورها أشخص إلى مكروهها » . وقيل الدنيا أحلام منام ، وسرورها ظل غمام ، أحداثها سهام . وفتنتها طوام : أى أمواج ، وسَمَها الله بالوحشة ، وقرنها بالفجائع والدهشة ، ثم أوحى لها : يا دنيا تشددى على أوليائى ، وتوسعى على أعدائى ؛ فمن نظر الدنيا بعين الإنصاف ، كفاه منها أقل الأوصاف ، إذ ليس فيها شىء محمود إلا وقابله شىء مذموم ، كالمال بالانصراف والذهاب ، والشباب بالهرم ، والصحة بالسقم ، والفرح بالحزن ، والعز بالذل ، والحياة بالموت .

قلت : حكى عن الولى الصالح سيدى قاسم بن صبيح ، من قبيلة بنى سعيد ، أنه قصد إذايته بعض الحكام ففر إلى سيدى الغزالى بترغة ، فجلس عند ضريحه مشتكياً بلسان حاله ، فمد له مَن القبر بعود الريحان كاغداً مكتوباً لم يجف مداده فيه هذان البيتان :

إِذَا مَا رَمَاكَ الدَّهْرُ يَوْمًا بِنكْبَةٍ   فَهَيِّئْ لَهُ صَبْرًا وَوَسِّع لَهُ صَدْرا
لِأَنَّ تَصَارِيفَ الزَّمَانِ كَثِيرَةٌ   فَيَوْمًا تَرَى عُسْرًا وَيَوْمًا تَرَى يُسْرًا

تشبيه الدنيا

فمن وقف مع ظاهر الدنيا نادته هواتف باطنها : إنما نحن غرة فلاتغتر ، وهذا معنى قوله :

[إن دعاك إليها ظاهر نهاك عنها باطن] .

قلت : ظاهرها خضرة حلوة ، وباطنها خبيثة مرة . قال عليه الصلاة والسلام : « الدنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ ، وَإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ أَوْ يُلِمُّ حَبَطاً » الحديث .

فأخبر عليه الصلاة والسلام أن ظاهر الدنيا خضرة حلوة وباطنها سم قاتل .

وقد شبه بعض الحكماء الدنيا بسبعة أشياء : شبهها بالماء المالح يغرق ولا يروى ، ويضر ولا ينفع . قلت : وكذلك الدنيا تغرق صاحبها فى حبها ويموت عطشان منها .

وشبهها بظل الغمام يغر ويخذل . قلت : وهو الذى يغطى بعض المواضع ، فإذا أشرقت الشمس تقشع عنه .

وشبهها بالبرق الخاطف يعنى فى سرعة الذهاب والاضطراب ، وبسحاب الصيف يضر ولا ينفع ، وبزهر الربيع يغر بزهرته ثم يصفر فتراه هشيماً ، وبأحلام النائم يرى السرور فى منامه ، فإذا استيقظ لم يجد فى يده شيئاً إلا الحسرة ، وبالعسل المشوب بالسم الزعاف يغر ويقتل ا هـ .

قال حفيده : فتأملت هذه الحروف السبعة سبعين سنة ثم زدت فيها حرفاً واحداً ، فشبهتها بالغول التى تهلك من أجابها وتترك من أعرض عنها ا هـ نقلها ابن عباد رضى الله عنه ، فانظره .

ثم علل كون الدنيا محلا لهذه الأكدار والأغيار فقال :

[**إنما جعلها محلا للأغيار ، ومعدناً لوجود الأكدار ، تزهيداً لك فيها**] .

قلت : إنما وسم الله الدنيا بهذه الأوصاف ، من كونها محلا للأغيار والأحزان ، ومعدناً لوجود الأكدار والفتن ، تزهداً لك فيها ، فتقبل بكليتك عليه ، وتتوجه بهمتك إليه ، أو لتعرض عن الدنيا وتقبل على الآخرة .

قال بعضهم : إنما مثل الدنيا كالبحر الهائل المحيط والآخرة من وراء ذلك البحر ، ولا ينكشف الحجاب عن عين القلب بالنظر إلى الدار الآخرة إلا بعد الجواز على ذلك البحر فى سفن الصبر والرضا ، لأنه بحر لجىّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ، يغشاه موج الشهوات ، من فوقه موج الغفلات ، من فوقه سحاب الكائنات .

وأيضًا لو بسطت لك الدنيا لكرهت لقاء الله فيكره الله لقاءك ، ولو بسطت لك العوافى والنعم لركنت الروحُ إلى هذا العالم فتبقى دائماً فى عالم الأشباح ، والمقصود منك هو الرحيل إلى عالم الأرواح ، فضيّق الحق تعالى عليك هذا العالم السفلى لترحل منه بهمتك إلى العالم العلوى ، فهو منه سبحانه إنعام وإحسان ، لكنها فى قالب الامتحان ، فلا يذوقها إلا أولو البصائر الحسان ، فهذا ما أشار إليه بقوله :

[علم أنك لا تقبل النصح لمجرد القول ، فذوّقك من ذوقها ما سهل عليك فراقها] .

قلت : قد علم الحق سبحانه أن من عباده من لا يقبل النصح بمجرد القول ، فلا يزهد فى الدنيا بمجرد سماع الوعظ ، إذ كثير من أهل العلم والفهم يسمعون القرآن يقرعهم عليها ، ويحذرهم من غرورها ، وهم غائبون عن ذلك التذكير ، مشغولون بما يوجب لقلوبهم التذكير ، فلما أراد سبحانه أن يصطفى لحضرته من شاء من عباده نغصها عليهم ، وشدد عليهم البلاء والمحن ، وأجرى على ظاهرهم مواقع الفتن ، كل ذلك عناية بهم ، ليذوقوا مرارة باطنها ، فلا يغتروا بحلاوة زخرف ظاهرها .

سئل عليه الصلاة والسلام : « مَنْ أَوْلِيَاءُ اللهِ الّذِينَ لَا خَوْفٌ عَليهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ؟ قَالَ : الذِينَ نَظَرُوا إِلَى بَاطِنِ الدنْيَا حَينَ نَظَرَ النَّاسُ إِلَى ظَاهِرِهَا ، وَاهْتَمُّوا بِآجِلِهَا حِينَ اهْتَمَّ النَّاسُ بِعَاجِلِهَا » الحديث .

وقد تقدم عند قوله : الأكوان ظاهرها غرة ، وباطنها عبرة ، فكل ما ينزل بالولى من هذه التعرفات الجلالية التى تغير النفس وتقهرها فهو خير كثير فى حقه ، فقد قالوا : الامتحان بقدر الإمكان ، وكل محنة تزيد مكنة ، واختبار الباقى يقطع التباقى ، فقد تبقى فى القلب بقية من حب شىء من هذا العالم ، أو ركون لشىء من الدنيا ، فيسلط عليه من يشوشه عليه وينغصه لديه ، كل ذلك عناية به ليرحل من هذا العالم إلى عالم الملكوت ؛ فإذا تحقق رحيله استوى عنده الحلو والمر ، والعز والذل ، والغنى والفقر ، لأنه تحقق أن كلا من عند الله

وما فى الوجود سواه ، وهذا هو العلم الحقيقى الذى هو العلم النافع ، وإليه أشار بقوله :

العلم النافع

[العلم النافع هو الذى ينبسط فى الصدر شعاعه ، وينكشف به عن القلب قناعه] .

قلت : العلم النافع هو علم القلوب ، ومرجعه إلى تصفية القلوب من الرذائل وتحليتها بالفضائل .

أو تقول : مرجعه إلى التخلية والتحلية ، فيبحث أولا عن عيوب النفس ، وعيوب القلب ، وعيوب الروح ، وعيوب السر ، فيطهر كل واحد من عيوبه .

فإذا تطهر من الجميع تحلى بصفات الكمال ، كالإيمان والإيقان والطمأنينة والمراقبة والمشاهدة ، وتحلى أيضاً بالحلم والرأفة والسخاء والكرم والإيثار وسائر الأخلاق الحسنة .

فشعاع العلم الذى ينبسط فى الصدر : هو ثلج اليقين ، وبرد الرضا والتسليم ، وحلاوة الإيمان ، ومواجيد العرفان ؟ وينشأ عن ذلك : مخافة الله وهيبته ، والحياء منه ، والسكون والطمأنينة ، وغير ذلك مما تقدم من الأخلاق الحسنة .

والقناع الذى ينكشف به عن القلب : هو الغفلة . وسبب الغفلة هو الرضا عن النفس ، وسبب الرضا عن النفس هو حب الدنيا الذى هو أصل كل خطيئة ، فمن حب الدنيا ينشأ الحسد والكبر ، والحقد والغضب ، والشح والبخل ، وحب الرياسة ، والقساوة والفظاظة ، والقلق ، وغير ذلك من العيوب .

فإذا انكشفت هذه الأمور عن القلب انبسط فيه شعاع العلم ، الذى هو ثلج اليقين ، وبرد الرضا ، وما تقدم ذكره ، لأن العلم بالله نور فى القلب ، وينبعث منه شعاع ينبسط فى الصدر فيكسبه الزهد فى الدنيا ، فإذا زهد فى الدنيا اتسع صدره باليقين والرضا والتسليم وغير ذلك من المحاسن ، فكشف القناع مقدم

على بسط الشعاع ، فلو قدّمه لكان أولى لأن التخلية مقدمة على التحلية ، فلو قال هو الذى ينكشف به عن القلب قناعه ، وينبسط فى الصدر شعاعه لكان أحسن . ويحتمل أن يريد بانبساط الشعاع فى الصدر نور الإسلام والإيمان وهى أنوار التوجه ، وبكشف القناع عن القلب كشف حجاب الحس وظلمة الكون ، فتبدو أنوار المواجهة ، وهى أنوار الإحسان ، وأسرار العرفان . وعلى هذا يكون ترتيب كلام الشيخ حسناً ، والله تعالى أعلم .

والحاصل : أن العلم الذى يوجب الخشية هو العلم النافع وغيره ليس بنافع ، وإليه أشار بقوله :

[خير علم ما كانت الخشية معه] .

فإن لم تكن خشية فلا خير فيه ، لأنه حجة على صاحبه ، وإليه أشار بقوله :

[العلم إن قارنته الخشية فلك ، وإلا عليك] .

قلت : لأن العلم الذى تصحبه الخشية يمنع صاحبه من الغفلة وأسبابها ، ويزهده فى كل ما يشغل عن العمل به ، ويرغبه فى كل ما يقربه إلى ربه فيكون عوناً له على الوصول إلى معرفة الله ، والقرب من ساحة رضاه ، فإن لم تقارنه الخشية كان وبالا عليه ، لأنه حينئذ حجة عليه ، لأن المعصية مع العلم أقبح من المعصية مع الجهل . وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم قال :

« وَيْلٌ لِلْجَاهِلِ مَرَّةً ، وَوَيْلٌ لِلْعَالِمِ إِذَا لَمْ يَعْمَلْ عَشْرَ مَرَّاتٍ » ذكره الغزالى .

ومثله قول الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه فى حزبه الكبير : فالويل لمن لم يعرفك ، بل الويل ثم الويل لمن أقر بوحدانيتك ولم يرض بأحكامك .

فإن قلت : قد ورد فى بعض الأحاديث أن يغفر للعالم أربعين ذنباً قبل أن يغفر للجاهل ذنبًا واحداً .

قلت : قد يجاب بأن الحديث الأول ورد فيمن مات مصرًّا من العالم والجاهل ، فإن عذاب العالم أكثر ، لأنه قد ورد أنه يجر قصبه فى النار ويدور فى رحى بجهنم ، بخلاف الجاهل لم يرد فيه هذا . والحديث الثانى فيمن تحققت

توبته منها ، فإن العالم بيده مصباح العلم يستدرك به ما فات أكثر من الجاهل إذا تاب ، فقد يجبر العالم من الخلل فى شهر مالا يجبره الجاهل فى سنة أو أكثر .

والحاصل : أن الأول فى العالم والجاهل إذا ماتا مصرين . والثانى فيهما إذا تابا وأصلحا ، والله تعالى أعلم .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى : العلم كالدنانير والدراهم ، إن شاء الله نفعك بها ، وإن شاء ضرك بها .

وقال فى لطائف المنن : فشاهد العلم الذى هو مطلوب الله تعالى من عباده الخشية لله ، وشاهد الخشية موافقة الأمر . أما علم من تكون معه الرغبة فى الدنيا ، والتملق لأربابها ، وصرف الهمة لاكتسابها ، والجمع والادخار ، والمباهاة والاستكبار ، وطول الأمل ونسيان الآخرة ، فما أبعد من هذا علمه من أن يكون من ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهل ينتقل الشىء الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التى كان بها عند الموروث ؟ ومثل من هذه الأوصاف أوصافه من العلماء كمثل الشمعة تضىء على غيرها وهى تحرق نفسها ، جعل الله العلم الذى علمه من هذا وصفه حجة عليه ، وسببًا فى تكثير العقوبة لديه ا هـ .

قال الشيخ زروق رضي الله عنه : وفيه إشعار بأن العالم غير المتقى ليس بوارث . وفيه نظر ، لأن إفساد الموروث والعمل به فى غير حق لا يخرج عن كون الوارث وارثاً ، والعقوق لا ينفى النسب ، لكن يقال فيه وارث سوء ، وقد أثبت الله العلم لمن يخشاه وما نفاه عمن لم يخشه ا هـ .

قلت : وقد يقال الموروث عن الأنبياء هو غاية العلم وثمرته ، وهى الخشية والمعرفة به لا مجرد الرسوم ، لأن ذلك واسطة ، فإذا لم يحصل الموسوط فلا عبرة بالواسطة ، فإذاً لا وراثة لعالم الرسوم ، إذ ليست مقصودة بالذات .

وقد كان الشيخ الولى الكبير ابن أبى جمرة يقول فى علماء وقته : إنما هم معلمون ، يعنى أنهم محترفون بحرفة العلم ، فهم صناع وليسوا بعلماء ، والله تعالى أعلم .

وقد أشبع الشيخ ابن عباد الكلام فى هذا الموضع ، فليطالعه من أراد تخليص نفسه من حجة العلم ، وبالله تعالى التوفيق .

ومن علامة العلم النافع ، القناعة بعلم الله ، والاكتفاء بنظره . وثمرة القناعة عدم المبالاة بذم الناس ومدحهم ، وإقبالهم وإدبارهم ، اكتفاء بعلم الله ونظره ، كما أبان ذلك بقوله :

[متى آلمك عدم إقبال الناس عليك ، أو توجههم بالذم إليك فارجع إلى علم الله فيك ، فإن كان لا يقنعك علمه فيك فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم] .

قلت : إذا سلط الله عليك خلقه ليختبرك هل أنت غنى به أو بخلقه ؟ فأدبروا عنك أو اشتغلوا بذمك وشتمك ثم توجعت من ذلك ؛ فارجع إلى علم الله فيك واطلاعه عليك إذ لا يخفى عليه شيء من أمرك ، فإن كفاك ذلك وقنعت به وأنست بذكره أو شهوده استوى عندك ذمهم ومدحهم وإقبالهم وإدبارهم ، بل ربما آثرت إدبارهم ، إذ فيه رأحتك وتفريغ قلبك مع ربك ، فإن لم تقنع بعلم الله ولم تكتف بنظره ، وتأسفت على إدبارهم أو تألمت من أذاهم ، فمصيبتك بضعف إيمانك وذهاب يقينك ، أشد من مصيبة ذم الناس وإدبارهم عنك ، لأن هذا موجب لسخط الله وغضبه ، وسقوطك من عين محبته .

وأما إذاية الخلق وبعدهم عنك فرحمة بك . وأيضًا إذا اشتغل الناس بذمك وإضرارك فانظر أنت مقامك مع ربك ، فإن كنت مع ربك صافيًا فلا يكيدك شيء ولا يضرك شيء كما قال شيخ شيوخنا المجذوب رضى الله عنه :

النَّاسُ قَالُوا لِي بِدْعِيٌّ وَأَنَـا طَرِيقِي مَنْجُـورَا
إِذَا صَفَيْتُ مَـعَ رَبِي الْعَبْدُ مَا مِنْهُ ضَرُورَا

وقال إبراهيم التيمى رضى الله عنه لبعض أصحابه : ما يقول الناس فيَّ ؟ قال : يقولون إنك مراءٍ ، قال الآن طاب العيش . قال بشر الحافى حين بلغه كلام التيمي : اكتفى والله بعلم الله فلم يحب أن يدخل مع علم الله علم غيره . وقال أيضاً : سكون القلب إلى قبول المدح لها أشد فيها من المعاصى .

وقال أحمد بن أبى الحوارى رضى الله عنه : من أحب أن يعرف بشيء من الخير أو يذكر به فقد أشرك مع الله فى عبادته ، لأن من عمل على المحبة لا يحب أن يرى عمله غير محبوبه .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: لا تنشر علمك ليصدقك الناس ، وانشر علمك ليصدقك الله ، وإن كان لام العلة موجودًا ، فعلة تكون بينك وبين الله من حيث أمرك ، خير من علة تكون بينك وبين الناس من حيث نهاك ، ولعلة تردك إلى الله خير لك من علة تقطعك عن الله ، فلأجل ذلك لم يعملوا بالثواب ، إذ لا يخاف ولا يرجى إلا من قبل الله ، وكفى بالله صادقًا ومصدقًا ، وكفى بالله عالماً ومعلمًا ، وكفى بالله هادياً ونصيرًا ووليًا ، هاديًا يهديك ويهدى بك ويهدى إليك ، ونصيراً ينصرك وينصر بك ولا ينصر عليك ، ووليًّا يواليك ويوالى بك ولا يوالى عليك اهـ .

ثم ذكر حكمة وجود الأذى من الخلق لأولياء الله فقال :

[إنما أجرى الأذى عليهم كى لا تكون ساكناً إليهم ، أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه شيء] .

قلت : الروح إذا ركنت إلى هذا العالم السفلى وسكنت فيه وأحبت ما فيه ، تعذر نقلها إلى عالم الملكوت الذى هو العالم الروحانى ، لما ألفته من حب الأهل والأولاد والأصحاب والعشائر ، فمن حكمة الله تعالى ولطفه وإبراره بوليه أن يحرك عليه ما ركنت إليه نفسه وألفته روحه الأحب فالأحب ، فأول من ينكره أهله وأولاده ، ثم جيرانه وأحبابه ، ثم ينكره العالم بأسره ، فإذا رأت الروح أن هذا العالم أنكرها وضاق عليها رحلت إلى مولاها ، ولم يبق لها تشوف إلى هذا العالم أصلا ، فحينئذ يكمل وصلها ويتحقق فناؤها وبقاؤها ، فلو بقيت النفس على ما هى عليه من السكون تحت ظل الجاه والعز ما رحلت من هذا العالم أصلا ، وكلما قوى على الأولياء الأذى دل على علو مقامهم عند المولى ، فإنما أجرى الحق سبحانه الأذى على أيدى الخلق إليك ، إذ هو المجرى والمنشئ ، فلا فاعل غيره ، كى لا تكون ساكناً بقلبك وروحك إليهم ، فيعوقك ذلك عن العروج إلى الملكوت .

أراد الحق تعالى أن يزعجك عن كل شيء من هذا العالم حتى لا تركن إلى شيء ولا يشغلك عن شهوده شيء ؛ إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه ، أو تحبه وتحب معه سواه . أبت المحبة أن تشهد غير محبوبها ، فإذا تمكنت المحبة

وكمل الشهود ردهم إن شاء إلى عباده ، مرشدين إليهم بالله .

قال فى لطائف المنن : اعلم أن أولياء الله تعالى حكمهم فى بدايتهم أن يسلط الخلق عليهم ، ليتطهروا من البقايا وتكمل فيهم المزايا ، وكى لا يساكنوا هذا الخلق باعتماد ، أو يميلوا إليهم باستناد ، ومن آذاك فقد أعتقك من رق إحسانه ، ومن أحسن إليك فقد استرقك وجود امتنانه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ أَسْدَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ ، فَإِنْ لَمْ تَقْدِرُوا فَادْعُوا لَهُ » .

كل ذلك ليتخلص القلب من رق إحسان الخلق ، ويتعلق بالملك الحق . ثم قال : وقال الشيخ أبو الحسن : اهرب من خير الناس أكثر من أن تهرب من شرهم ، فإن خيرهم يصيبك فى قلبك وشرهم يصيبك فى بدنك ، ولأن تصاب فى بدنك خير من أن تصاب فى قلبك ، ولعدو تصل به إلى الله خير من حبيب يقطعك عن الله ، وعدّ إقبالهم عليك ليلا وإدبارهم عنك نهارًا ، ألا تراهم إذا أقبلوا فتنوا . قال : وتسليط الخلق على أولياء الله فى مبدإ طريقهم سنة الله فى أحبائه وأصفيائه .

قال الشيخ أبو الحسن فى حزبه : اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا ، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا ، ثم قال : ومما يدلك على أن هذه سنة الله فى أحبائه وأصفيائه قوله تعالى :

﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ ﴾[1] الآية .

وغير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى ا هـ .

وقال بعض العارفين : ويجب أن تعلم أن النفوس شأنها استحلاء الإقامة فى موطن العز والرفعة ، فلو تركها الحق سبحانه لهلكت فأزعجها عن ذلك بما سلط عليها من أذى المؤذين ومعارضة الجاحدين ، وفى هذا المعنى قيل :

عِدَاتِى لَهُم فَضْلٌ عَلَىَّ وَمِنَّةٌ ... فَلَا أَبْعَدَ الرَّحْمٰنُ عَنِّى الْأَعَادِيَا
فَهُمْ بَحَثُوا عَنْ زَلَّتِى فَاجْتَنَبْتُهَا ... وَهُمْ نَافَسُونِى فَارْتَكَبْتُ المَعَالِيَا

---

(١) البقرة : ٢١٤ .

وقال بعضهم : النصيحة من العدو سوط من الله يرد به القلوب إذا سكنت إلى غيره ، وإلا رقد القلب فى ظل العز والجاه ، وهو حجاب عن الله تعالى عظيم .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : آذانى إنسان مرة فضقت ذرعا بذلك ، فنمت فرأيت يقال لى : من علامة الصدِّيقية كثرة أعدائها ثم لا يبالى بهم اهـ .

إذا تقرر هذا علمت أن إذاية الخلق للولىّ سنة ماضية ، يعنى سنة أنبياء الله ورسله . (فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً)[1] .

وانظر أحوال نبينا عليه الصلاة والسلام ما رأى مع قريش وبنى وائل ، مكث معهم بعد النبوة التى هى محل الأذى من الخلق ثلاث عشرة سنة كلها جلاد وشدة وبلاء ، وحين انتقل إلى المدينة ، لم تكن له راحة ، بين جهاد وتعليم ومعاناة أحبار يهود ، بالإذاية والتشغيب ، حتى لقى الله صلى الله عليه وسلم وشرّف وكرّم ومجّد وعظّم . وكذلك أصحابه معه وبعده لم تكن لهم راحة ، وجلهم ماتوا مقتولين . فقد مات الصديق مسمومًا . ومات الفاروق مقتولا ، وعثمان مذبوحاً ، وسيدنا علىّ مضروباً بالسيف مسماً ، حتى مات الحسن مسموماً والحسين مقتولا حتى لعبوا برأسه بالشام ، ثم دفن بمصر ، فداه بعض الملوك ودفنه بمصر ، وهو مزارة الحسين المشهورة عندهم ، ثم ما لا يحصى . وقد سُعِىَ بالجنيد وأصحابه للسلطان وأتى بهم للسيف ثم لطف الله بهم .

محنة الصوفية

وقصتهم أن فقهاء بغداد قالوا للمتوكل : إن الجنيد قد تزندق هو وأصحابه ، فقال لهم الخليفة وكان يميل إلى الجنيد : يا أعداء الله ما أردتم إلا أن تفنوا أولياء الله من الأرض واحداً بعد واحد ، قتلتم الحلاج وأنتم ترون له كل يوم عبارة ولا تزدجرون ، وهذا الجنيد لا سبيل لكم إليه حتى تغلبوه بالحجة ، فاجمعوا له

(١) فاطر : ٤٣٠ .

الفقهاء واعملوا له مجلسًا ، فإن أنتم غلبتموه وشهد الناس بأنكم غالبون عليه قتلته ، وإن هو غلبكم والله لأمشينّ عليكم بالسيف حتى لا نبقى منكم أحداً على الأرض ، قالوا : نعم ، فجمعوا له الفقهاء من الشام واليمن والعراق والأمصار ، فلما اجتمع الفقهاء فى ذلك حتى لم يبق فى الجوانب الأربع من يعرف مسألة فى دينه إلا حضر ، فلما اجتمع الفقهاء فى المجلس بعث الخليفة إليه فأتى هو وأصحابه إلى باب القصر ، فدخل الجنيد وترك أصحابه وأدى حق الخليفة يعنى من التعظيم وقعد ، فقام إليه أحد الفقهاء يسأله فى مسألة ، فسمعه القاضى على بن أبى ثور ، فقال لهم : تسألون الجنيد ؟ فقالوا : نعم ، فقال لهم : أفيكم من هو أفقه منه ؟ فقالوا : لا ، فقال : يا عجبًا هو أفقه منكم فى علمكم ، وقد تفقه فى علم تنكرونه عليه ، يعنى ولا تعرفونه ، فكيف تسألون رجلاً لا تدرون ما يقول ؟ فبهت القوم وسكتوا زماناً ، ثم قالوا : ما العمل يا قاضى المسلمين ؟ فأشر بما شئت فنصنع ، فأمرك مطاع . قال فرد القاضى وجهه إلى الأمير وقال له : اترك الجنيد وأخرج إلى أصحابه صاحب سيفك وهو الوليد بن ربيعة ينادى فيهم : من يقوم إلى السيف ، فأول من يقوم إليه نسأله ، فقال الخليفة : يرحمك الله لم ذلك ؟ تروّع القوم ولم تظهر لكم حجة ؟ لا يحل لنا ذلك ، فقال القاضى : يا أمير المؤمنين إن الصوفية يحبون الإيثار على أنفسهم حتى بأنفسهم ، فائذن من ينادى أيكم يقوم للسيف ؟ فالرجل الذى يقوم مبادراً إلى السيف هو أكثر الناس جهلا وأكثرهم صدقاً لله عز وجل ، فيقوم يؤثر أصحابه بالعيش بعده ، فإذا قدم أجهلهم علينا جعل الفقهاء يناظرونه فيما يطلبونه منه ، فإن الفقهاء لا يغلبونه ولا يغلبهم ، فيقع الصلح بيننا وبينهم ، فإنها قد نزلت مصيبة عظيمة لا ندرى لمن يقع النجاة منها ؛ فإنه إن قتل الجنيد نزلت داهية فى الإسلام ، فإنه قطب الإيمان فى عصرنا ، وإن قتل العلماء والفقهاء فهى مصيبة عظيمة ، فقال له الأمير : لله درك ، لقد أصبت ، ثم عطف على الوليد وقال : افعل ما يقول لك القاضى ، فخرج الوليد وهو مقلد سيفه فوقف على المريدين وهم مائتان وسبعون رجلا قعودًا ناكسين رءوسهم وهم يذكرون الله ، فنادى فيهم : أفيكم من يقوم إلى السيف ؟ فقام إليه رجل يقال له أبو الحسن النورى ، فقال الوليد : ما رأيت طائراً أسرع منه ، فوثب قائماً بين يدىّ ،

فعجبت من سرعة قيامه ، فقلت : يا هذا أعلمت لم قمت ؟ فقال : نعم ، ألم تقل أفيكم من يقوم للسيف ، فقلت له : نعم ، فقال : ولم قمت ؟ قال : علمت أن الدنيا سجن المؤمن فأحببت أن أخرج إلى دار الفوز وأن أوثر أصحابى علىّ بالعيش ولو ساعة ، ولعلى أقتل فيطفأ الشرُّ بى فيسلم جميعهم ولا يقتل أحد غيرى ، قال الصاحب : فعجبت من فصاحته ، فقلت : أجب القاضى ، فتغير لونه وسالت عبرته على خده ، فقال أو دعانى القاضى ؟ قلت : نعم دعاك ، قال : فحقًّا علىّ إجابته ؛ فدخلت وهو معى فأخبرت الملك والقاضى بقصته ، فتعجبا منه وسأله القاضى عن مسألة غمضة ، فقال : من أنت ؟ ولم خلقت ؟ وما أراد الله بخلقك ؟ وأين هو ربك منك ؟ فقال : ومن أنت الذى تسألنى ؟ فقال : أنا قاضى القضاة ، فقال له : إذًا لا رب غيرك ولا معبود سواك ، أنت قاضى القضاة ، وهذا يوم الفصل والقضاء والناس قد حشروا ضحى ، فأين النفخة فى الصور التى قال الله فيها :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾[1] .

أنا ممن صعق أم أنا ممن شاء الله الذى لم أشهد النفخ ؟ فبهت القاضى زماناً وقال : يا هذا أجعلت منى إلهًا ؟ قال معاذ الله بل أنت تألهت حيث تسميت بقاضى القضاة ، وليس قاضى القضاة إلا القاضى الذى يقضى ولا يقضى عليه ، أضاقت عليك الأسماء ؟ أما كفاك قاضى المسلمين أو أحد الفقهاء أم أحد من عباد الله حتى تسميت بقاضى القضاة ، إذ استكبرت أن تقول أنا على بن أبى ثور ، فما زال يقرّعه حتى بكى القاضى وهم أن تزهق نفسه وبكى الملك لبكائه ، وبكى الجنيد ، فقال لتلميذه أقصر من عتابك للقاضى فقد قتلته فخل سبيله ، فلما أفاق القاضى . قال يا أبا الحسن أجبنى عن مسألتى وأنا أتوب إلى الله بين يديك ، فقال اذكر مسألتك فإنى نسيتها ، فأعاد عليه مسألته فنظر عن يمينه وقال أتجاوبه ؟ ثم قال : حسبى الله ، ثم فعل عن يساره مثل ذلك ، ثم نظر أمامه وقال أتجاوبه ؟ ثم قال : الحمد لله ثم رفع رأسه إلى القاضى

---

(١) الزمر : ٦٨ .

وقال له : أما قولك يرحمك الله من أنت فأنا عبد الله ، لقوله تعالى :
(إِنْ كُلُّ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدًا)[١] .

وأما قولك لماذا خلقت ؟ فكان الله كنزاً لا يعرف فخلقنى لمعرفته . قال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)[٢] .

أى ليعرفون ، كذا قال ابن عباس وغيره . وأما قولك : ما أراد الله بخلقى ؟ فما أراد بى إلا كرامتى ، قال تعالى :
(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)[٣] .

وأما قولك : أين ربك منك ؟ فهو منى حيث أنا منه ، لقوله تعالى :
(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ)[٤] .

فقال : أخبرنى كيف هو معك ومعنا فى قوله تعالى : (وهو معكم أينما كنتم) قال : هو معنا كيفما كنا معه ، فإن كنا معه بالطاعة كان معنا بالعون والهدى إليه ، وإن كنا معه بالغفلة كان معنا بالمشيئة ، وإن كنا بالمعصية كان معنا بالمهلة ، وإن كنا بالتوبة كان معنا بالقبول ، وإن كنا بالترك كان معنا بالعقاب ، قال : صدقت ، فأخبرنى أين هو منى ؟ فقال : أخبرنى أين أنت منه ؟ أعلمك أين هو منك ، قال : صدقت يا على فيما قلت ، ولكن أخبرنى بمسألة ثانية ، قال : وما هى ؟ قال : لم ملت عن يمينك حين سألتك ؟ قال : أعز الله الفقيه إن المسألة التى سألتنى عنها لم يكن عندى فيها جواب لأننى ما سئلت فيها قط ولا سمعتها ، فلما سألتنى عنها لم يكن عندى ما أخبرك به فيها ، فسألت الملك الكريم الذى يكتب فى اليمين فقلت له أتجاوبه أنت ؟ فقال لى : لا علم لى ، فقلت : حسبى الله وفوضت أمرى إلى الله ، فقال : وعن شمالك ؟ فقال كذلك ، فقال وأمامك ؟ فقال : سألت قلبى ، فقال : عن سره عن ربه ، ما أجبتك به ، فقلت : الحمد لله شاكراً على الهداية ومقرًّا له بالعجز عن إدراك

---

(١) مريم : ٩٣ .
(٢) الذاريات : ٥٦ .
(٣) الإسراء : ٧٠ .
(٤) الحديد : ٤ .

النهاية ، فقال له : يا هذا أتكلمك الملائكة ؟ فقال له : ويحك أما ترى رب الملائكة كلمنى حين هدانى لحجتى وكنت لا أعرفها . فقال له : يا هذا الآن قد صح عندى حمقك وثبت عندى كفرك وزندقتك فما تريد أن أفعل بك وبأى قتلة تريد أن أقتلك ؟ فقال له : وما الذى تريد أن تفعل بى وأنت قاضى القضاة ، إن كنت تقضى ولا يقضى عليك فاقض بما شئت ، وأى فعل لك ؟ فقال له : أنا القاضى المقتضى بما يقضى به أو نقضى بما يقضى به ؟ فقال له : أو فهمت خطاباً عن القاضى الذى يقضى ولا يقضى عليه . قال له : وما هو . قال قوله تعالى :

(فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[1].

فقال له : وما تريد أنت ؟ اقض بما شئت الآن ، طبت وطابت نفسى على لقاء ربى ، فعند ذلك رد القاضى رأسه إلى المتوكل وقال له : يا أمير المؤمنين اترك هؤلاء ، فإن كان هؤلاء زنادقة فليس على وجه الأرض مسلم ، هؤلاء مصابيح الدين ودعائم الإسلام ، وهؤلاء المؤمنون حقاً ، عباد الله المخلصون ، فعند ذلك عطف الخليفة على الجنيد وقال : يا أبا القاسم هؤلاء الفقهاء ما جمعوا لك هذا المجلس العظيم واستعدوا لمناظرتك إلا ليقتلوك لو غلبوك ، والآن أنت الغالب عليهم ، وأنا آليت على نفسى إن أنت غلبتهم أن أمشى عليهم السيف ، فإما أن تعفو عنهم ، وإما أن يموتوا ، فقال : العياذ بالله ياسيدى أن يموت أحد منهم بسببى ، عفا الله عنا وعنهم ولا أخذ عليهم فى إنكارهم علينا ، لأنهم ما ساقهم لذلك إلا الجهل وقلة العلم بما طلبوا ، عفا الله عنا وعنهم ، فانحل المجلس على سلام ، ولم يمت فيه أحد ، والحمد لله ، ثم عطف القاضى على النورى وقال له : يا على أعجبنى حالك والله شهيد أنى أحبك ، ولكن أسألك سؤال رجل مسترشد فأرشدنى يرحمك الله ، فقال : سل عما بدا لك ، فإن كان عندى جواب أخبرتك وإلا قلت لك لا علم لى ولا يعظم ذلك علىّ ، ثم سأله عن مسائل عديدة قد تقدم بعضها عند قوله : يا عجباً كيف يظهر الوجود فى العدم ، فراجعها إن شئت وتركت الباقى لكثرة التصحيف فى النسخة التى

---

(١) يس : ٥٤ .

وقعت بأيدينا ، والله تعالى أعلم .

فهذه محنة إلصوفية التى وقعت فى زمن الجنيد ، وهذه سنة الله فى أوليائه وأنبيائه ، هم أشد الناس بلاء . وانظر أيضًا قضية القطب الشهير شيخ أشياخنا الشيخ ابن مشيش ، فقد مات مقتولا كما هو معلوم ، وكذلك قضية تلميذه مع القاضى ابن البراء حيث أخرجه من تونس وكتب به إلى عامل مصر وعمل به بينة أنه مشوّش وأنه يطلب الملك ، فانتصر الله له كما هو شأنه سبحانه من انتصاره لأوليائه .

وكذلك قضية الغزوانى ، فإنه لما كملت تربيته وظهر رشده أرسله شيخه الشيخ التباع يعمر بلده ، فسكن بنى زكار جوار ضريح الشيخ ابن مشيش ، فلما عمر سوقه وانكبت عليه المخلوقات سُعِى به إلى السلطان المرينى ، فأرسل إليه الحرس وأطلعوه مكبلا إلى العرايش ، لأن السلطان كان ثم نازلا ثم أرسل به إلى فاس ، فسجن أربعة أشهر أو ستّة حتى قدم السلطان إلى فاس ، فأطلقه وشرط عليه السكنى معه بفاس فسكن معه ، فلما قرب انقراض مدة المرينيين خرج إلى مراكش وقال ذهبت دولة بنى مرين ، وبقى بمراكش حتى توفى رضى الله عنه .

وذكر التجيبى أن الشبلى رفع إلى السلطان ، وأخرج أبو زيد من مدينة بسطام مراراً وهذا أمر شهير .

قال بعض الحكماء : إذا أراد الله ظهور الحق جعل من خلقه من يعانده ويريد إخماده ، فيكون ذلك سبباً لظهوره وإيضاحه ، ولذلك سلط الله على كل نبى عدوًّا من المجرمين ، وعلى الأولياء كذلك ، وأنشدوا :

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ ... طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ
لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ ... مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ الْعُودِ

وإنما أطلنا هنا النفس ، لأن الحال اقتضى هنا ذلك ، لأن وقت التأليف صادف عنفوان الجلال ، والله يرزقنا التأييد نحن وأحبّاءنا ومن تعلق بنا بجاه المصطفى وآله ، وعلامة التأييد هو حفظ التوحيد فى أوقات الشدة بحيث يكون إبراهيميًّا ، فإذا رمى فى نار الجلال وتعرض له الكون يقول له : ألك حاجة ؟

يقول له العارف : أما إليك فلا ، وأما إلى الله فبلى ، فحينئذ يقول الله لنار الجلال : (يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا)[1] على وليى ، فينقلب حرها بردًا وسلاماً .

قال سيدنا إبراهيم الخليل : ما رأيت نعيماً قط مثل تلك الأيام التى كنت فيها فى النار .

قلت : وكذلك نار الجلال ليس يشبهها نعيم حين تنقلب بردًا وسلاماً ، برد الرضا وسلام التسليم ، فيكمل النعيم .

كيف تدفع كيد الشيطان ؟

واعلم أن إذاية الخلق هى إحدى القواطع التى قطعت الناس عن الولاية ، ولا يصبر عليها إلا الصديقون ، فذكر الشيخ حكمة ذلك وسره ، ومن القواطع أيضاً الشيطان والنفس ، فأشار الشيخ إلى كيفية دفع إذاية الشيطان بقوله :

[**إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده**] .

قلت : اعلم أن الحق تعالى جعل بحكمته الشيطان والنفس والناس حراس الحضرة ، فلا يدخل الحضرة حتى يخرق فيهم ويجوز عنهم ، لأنهم واقفون بالباب ، وكلهم الله بباب حضرته ، وقال لهم : لا تتركوا أحداً يدخل إلا من يغلبكم ، فوقفوا بالباب ، فإذا جاء من يريد الدخول تعرض له الخلق ، فيعيبون له الطريق ، وينكرون من يعرفها ، فإذا غلبهم جاءه الشيطان يطوّل عليه مدة الفتح ، ويخوّنه من الفقر ، ويقول له : متى يفتح الله عليك ؟ قيل يكون وقيل لا يكون ، فإذا غلبه وزاد تعرضت له النفس تقول له : كيف تترك دنياك وجاهك وعزك إلى شىء يكون أو لا يكون ، فإذا غلبها قال له الحق تعالى : مرحباً بك وأهلا ، ولكن القواطع لا يزول طمعها عنه حتى يسكن فى الحضرة ،

---

(١) الأنبياء : ٦٩ .

ولذلك قالوا : والله ما رجع من رجع إلا من الطريق . وأما من وَصَل فلا يرجع . وقال آخر : « والله ما يشكر خليع وإن ثَمِل وإن صحا ، حتى يقطع فى القطيع ، ويدور دور الرحى ، وإن ثبت يسر سريع ، وإن شرب حتى امتحى » .

فإذا علمت أيها الفقير أو الإنسان أن الشيطان لا يغفل عنك ساعة ، لأن له بيتاً فى صدرك من جهة شمالك ، فإذا غفلت عن ذكر الله وسوس ، وإذا ذكرت الله انخنس . فإذا علمت ذلك فلا تغفل أنت عمن ناصيتك وناصيته بيده ، وهو الحق تعالى ، فإذا شغلت بالله رده عنك وكفاك أمره . قال تعالى :

(إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً)[1] .

وقد حذر الله تعالى منه فى كتابه ، قال تعالى :

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا)[2] .

ففهم قوم أن الشيطان لهم عدو فاشتغلوا بمحاربته ففاتهم محبة الحبيب ، وفهم قوم أن الشيطان لكم عدو وأنا لكم حبيب ، فاشتغلوا بمحبة الحبيب فكفاهم عداوة العدو ، كما قال الشيخ أبو العباس .

وقال شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه : عداوة العدو حقاً هى اشتغالك بمحبة الحبيب حقًّا ، فإذا اشتغلت بعداوة العدو فاتتك محبة الحبيب ونال عدوك مراده منك .

وكتب الشعرانى إلى شيخ له بالمغرب يشكو له إذاية الخلق ، فكتب له الشيخ : لاتشتغل بمن يؤذيك قط ، واشتغل بالله يرده عنك ، وقد غلط فى هذا الأمر خلق كثير واشتغلوا بمن آذاهم ، فطال الأذى مع الإثم ، ولو أنهم رجعوا إلى الله لكفاهم أمرهم ولردهم عنهم والسلام ، هكذا سمعت هذه الحكاية من الشيخ .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : وإنما يندفع الشيطان بالتوكل والإيمان ، قال تعالى :

---

(١) النساء : ٧٦ .　　(٢) فاطر : ٦ .

(إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)[1] .

وقيل : الشيطان كلب ، إن اشتغلت بمقاومته مزق الإهاب وقطع الثياب ، وإن رجعت إلى ربك صرفه عنك برفق .

وقال ذو النون المصرى رضى الله عنه : إن كان هو يرانا من حيث لانراه ، فالله يراه من حيث لايرى الله ، فاستعن بالله عليه اهـ .

قلت : ومن عرف الله ذاب الشيطان من نوره فلم يبق يعرف إلا الله ، ولذلك قال بعضهم : نحن قوم لانعرف الشيطان ، قيل له : أو ليس قد ذكره الله فى كتابه ؟ قال : أجل ؛ ولكن اشتغلنا بالله فكفانا أمره حتى نسيناه ، وبالله التوفيق .

ثم ذكر حكمة وجوده فقال :

[جعله لك عدوًّا ليحوشك به إليه] .

قلت : لم يخلق الله شيئًا عبثًا ، قال تعالى :

(رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ)[2] فإيجاد الشيطان له حكم :

أولها : انحياش عباده إليه لأن العبد الضعيف إذا رأى عدوًّا يطلبه هرب إلى سيده والتجأ إلى حصنه ، فيكفيه أمره .

الثانية : قيام الحجة على عباده ، فإذا خالفوا أمره قال لهم : اتبعتم عدوى وعصيتم أمرى . قال تعالى : (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ)[3] .

الثالثة : كونه منديلا للعار تمسح فيه أوساخ الأقدار ، وكذلك النفس والدنيا .

الرابعة : ظهور مزية المؤمن بمجاهدته ومحاربته ، فهذه حكم فى تسليط الشيطان على الإنسان :

---

(١) النحل : ٩٩ .

(٢) آل عمران : ١٩١ .

(٣) الأنعام : ١٤٩ .

(وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ)[١] (وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)[٢] .

حكاية : روى أن الشيطان تعرض لسهل بن عبد الله التسترى وهو يضحك ، فقال له سهل : ممّ ضحكك يالعين ، وقد أبلست ويئست من رحمة الله ؟ فقال : ياسهل أنا شىء والله تعالى يقول :

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كلَّ شَيْء) فقال سهل إنه يقول : (فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ)[٣] .

فأين أنت من التقوى ؟ فقال : التقوى صفة العبد ، والرحمة صفة الرب وأين الفانى من الباقى ؟ فلم يجد سهل جوابًا .

قلت : وقد يجاب بأن هذه الشبهة مبنية على النظر للفرق : وأما على الجمع فالرحمة وصفه والتقوى فعله ، وفعله يقيد وصفه ، والكل منه وإليه :

(لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ)[٤] .

حكمة ظهور النفس

ثم ذكر حكمة ظهور النفس فقال :

[وحرك عليك النفس ليديم إقبالك عليه] .

قلت : إنما حرك الحق تعالى عليك النفس ليدوم إقبالك وتوجهك إليه ، لأن النفس لما غلبت عليها البشرية جرتها إليها ، فهى دائمًا تهوى بك إلى أرض الشهوات ، وأنت دائمًا تريد أن تعرج إلى سماء الحقوق والواجبات . هى تريد أن تركن إلى أصلها من عالم الصلصال والطين ، وأنت تريد أن تردها إلى أصل روحانيتها فى أعلى عليين ، هى تريد السكون فى عالم الأشباح وأنت تريد أن ترقيها إلى عالم الأرواح ، فهى دائما تريد التسفل وأنت دائمًا تريد الترقى ، فهذا معنى دوام إقبالك عليه ، وسيأتى : لولا ميادين النفوس ماتحقق سير ـ

---

(١) يوسف : ٢١ .
(٢) التحريم : ٢ .
(٣) الأعراف : ١٥٦ .
(٤) الأنبياء : ٢٣ .

السائرين ، فالنفس والشيطان نعمتان فى الباطن ، إذ لولاهما ماتحركت إليه ولا تحقق سيرك إليه ، ولذلك كان شيخ شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه إذا اشتكى إليه أحد بالنفس يقول : أما أنا فجزى الله عنى نفسى خيرًا ماعلىَّ إلا فضل الله وفضلها ، والله ماننسى جميلها ، يشير لهذا المعنى الذى ذكرناه ، وهما نقمتان فى الظاهر لمن وقف معهما وحجب بهما .

والحاصل : أن النفس والشيطان والدنيا والناس ، قواطع لمن قطعوا به الطريق ، موصلات للحضرة لمن وقف للتحقيق ، وسبق له من الله التوفيق ، والنفس أصعب من الشيطان ، لأنه عدو متصل وأنت به شفيق ، فهى أقبح من سبعين شيطانًا فى قطع الطريق .

وذكر ابن القسطلانى عن أحمد بن سهل رحمه الله أنه قال : أعداؤك أربعة : أولها : الدنيا ، وسلاحها لقاء الخلق ، وسجنها الخلوة . الثانى : الهوى وسلاحه الكلام وسجنه الصمت . الثالث : الشيطان ، وسلاحه الشبع ، وسجنه الجوع . الرابع : النفس ، وسلاحها النوم ، وسجنها السهر ، وقد نظم بعضهم هذه القواطع فقال :

إنِّى بُلِيتُ بِأَرْبَعٍ يَرْمِينَنِى
بالنَّبْلِ عَنْ قَوْسٍ لَهُ تَوْتِيرُ
إبْلِيسُ وَالدُّنْيَا وَنَفْسى وَالْهَوَى
يَارَبِّ أَنْتَ عَلَى الْخَلَاصِ قَدِيرُ

وقد ذكر هذه القواطع الشيخ ، فذكر أولا الدنيا ، ثم الناس ، ثم الشيطان ، ثم النفس لكن ذكرها على وجه توحيدى لم يذكرها على أنها سِوًى أو قواطع ؟ وإنما ذكر أسرارها وحكمة وجودها ، فلله دره ما أشد معرفته بالتوحيد وأسرار التفريد ، نفعنا الله بذكره وخرطنا فى سلكه آمين . وهذا آخر الباب الرابع والعشرين .

وحاصلها : ذكر غاية النعيم ، وهو شهود نور وجه الكريم ، فمن تحقق به فلا تعتريه أحزان ولاهموم . ثم ذكر القواطع التى تقطع عنه وهى الدنيا ، وما

يتعلق بها من رياسة وعلم غير نافع وجاه وغيره ، والخلق ومايتعلق بإذايتهم ، والشيطان والنفس ، لكن ذكرهم على وجه التحقيق لاعلى وجه التشريع . فإذا تخلص من هذه القواطع فى الحس أفضى إلى شهود نور عظمة ربه فى تجلياته ، فيتواضع مع الأشياء كلها لمعرفته فيها كما أشار إلى ذلك فى الباب الخامس والعشرين بقوله رضى الله عنه :

الباب الخامس والعشرون

التـواضع

[من أثبت لنفسه تواضعًا فهو المتكبر حقًّا ، إذ ليس التواضع إلا عن رفعة ، فمتى أثبتَّ لنفسك تواضعًا فأنت المتكبر] .

قلت : التواضع هو مجاهدة النفس فى وضعها وسقوطها ، فهى تريد الرفعة وأنت تريد السقوط ، فإذا حققت ونظرت بعين فكرتك وجدت الأشياء كلها مستوية معك فى الخلقة والتجلى من النملة إلى الفيل ، فالمتجلى فى النملة هو المتجلى فى الفيلة فأنت والكلب فى حقيقة الخلقة سواء ، وإنما وقع التفضيل فى التشريع والحكمة عند أهل الفرق ، فأهل الفرق يرون المزية لأنفسهم عما سواهم ، فإذا تساووا بأنفسهم مع الأشياء رأوا أنهم قد تواضعوا ، وفى الحقيقة إنما تكبروا لأنهم أثبتوا المزية لأنفسهم ورفعوها ثم أثبتوا لها التواضع ؛ فهم المتكبرون على خلق الله حقًّا ، والعارفون بالله لم يثبتوا لأنفسهم مزية قط ، رأوا الأشياء كلها سواء خلقًا واحدًا ونورًا واحدًا ، فلم يثبتوا لأنفسهم رفعًا ولاوضعًا ، فهم متواضعون من أول مرة فتواضعهم حقيقى أصلى ، فمن أثبت لنفسه تواضعًا ورأى أنها تواضعت دون قدرها ، فهو المتكبر حقًّا حيث جعل لها قدرًا زائدًا على خلق الله ، إذ ليس التواضع وإثباته للنفس إلا عن رفعة لها أولا ، فمتى أثبت لنفسك أيها الفقير تواضعا فأنت المتكبر حقًّا ، ولاتكون متواضعًا حتى ترى الأشياء كلها مثلك أو أحسن منك إن عصيت ربك .

قال أبو يزيد : مادام العبد يرى فى الخلق أشر منه فهو متكبر : ولايكون متواضعًا حتى لم يثبت لنفسه حالا ولا مقالا .

وقال بعضهم : من رأى لنفسه قيمة على الكلب فهو متكبر ممقوت عند الله ، وإنما يتضع العبد بقدر تحققه بعلو قدر سيده ، والنفس إن لم تتصف بالذل والهوان

حقيقة فهى غير مشاهدة لعظمة الله ، لأن أصل نشأة النفس الضعف والذل والهوان ، ولا صلاح إلا فى الرجوع لأصلها وتبريها من رؤية العز والجاه ومن تبريها من ذلك .

وقال الجنيد رضى الله عنه : من رأى نفسه قد تواضعت فهو يحتاج إلى تواضع ، ولو تبرأ منها ومن تواضعها لكان متواضعًا اهـ .

وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا الْكَرَمُ التَّقْوَى ، وَإِنما الشَّرَفُ التَّوَاضُعُ ، وَ إنما الْغِنَى الْيَقِينُ ، وَالمتوَاضِعُونَ فى الدُّنْيَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَنَابِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . إِذَا تَوَاضَعَ الْعَبْدُ رَفَعَهُ الله إلى السَّماء السَّابِعَةِ ، وَلَا يَزِيدُ التَّوَاضُعُ لِلْعَبْدِ إلَا رِفْعَةً، فَتَوَاضَعُوا لِيَرْفَعَكُمُ الله ، وَإِذَا رَأَيْتُم المتوَاضِعِينَ مِنْ أُمَّتِى فَتَوَاضَعُوا لَهُمْ ، وإِذَا رَأَيْتُمُ الْمُتَكَبِّرِينَ مِنْ أُمَّتِى فَتَكَبَّرُوا عَلَيْهِمْ فَإِنَّ ذَلِكَ مَذَلَّةٌ لَهُمْ وَصَغَارًا بِهِمْ » اهـ .

أوحى الله إلى موسى عليه السلام : إنما أقبل عمل من تواضع لعظمتى ولم يتكبر على خلقى ، وألزم قلبه خوفى وقطع النهار بذكرى ، وكف نفسه عن الشهوات من أجلى ا هـ .

ثم فسر التواضع الكامل فقال :

[ليس المتواضع الذى إذا تواضع رأى أنه فوق ماصنع ؛ ولكن المتواضع الذى إذا تواضع رأى أنه دون ماصنع] .

قلت : التواضع الحقيقى هو الذى ينشأ ممن يشاهد الأشياء كلها منه ، فإذا تواضع معها رأى أنها تستحق أكثر من ذلك التعظيم ، وأن نفسه فى الدناءة والذل دون أى أسفل مما صنع من التواضع ، وليس المتواضع الذى يرى لنفسه مزية على الأشياء ، فإذا تواضع معها رأى أن نفسه فوق وأفضل مما صنع من التواضع فهذا هو المتكبر ، لأنه أثبت لنفسه تواضعًا أكثر مما تستحقه وهذه الحكمة كأنها بيان وتتميم لما قبلها .

يحكى عن أبى الحسن بن الكرنبى أستاذ الجنيد رضى الله عنهما : أن رجلا دعاه ثلاث مرات إلى طعامه ثم يرده فيرجع إليه بعد ذلك ، حتى أدخله داره فى

المرة الرابعة ، فسأله عن ذلك ؟ فقال : قد روّضت نفسى على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد ، ثم يدعى فيعود ، ويرمى له عظم فيجيب ، ولو رددتنى خمسين مرة ثم دعوتنى بعد ذلك لأجبتك .

قال أبو طالب رضى الله عنه : وحدّث عن بعض الصوفية أنه وقف على رجل يأكل ، فمد يده وقال : إن كان ثم شيء لله تعالى ، فقال : اجلس فكل ، فقال : أعطنى فى كفى فأعطاه فى كفه ، فقعد فى مكانه يأكل ، فسأله عن امتناعه من الجلوس معه ، فقال : إن حالى مع الله تعالى الذل فكرهت أن أفارق حالى .

وقال السهروردى : رأيت شيخنا ضياء الدين أبا النجيب وكنت معه فى سفره إلى الشام وقد بعث له بعض أبناء الدنيا طعامًا على رءوس الأسارى من الإفرنج وهم فى قيودهم ، فمدت السفرة وقال للخادم : أحضر الأسارى مع الفقراء ، فجاء بهم وأقعدهم على السفرة صفًّا واحدًا ، وقام الشيخ من سجادته ومشى إليهم وقعد معهم كالواحد منهم وأكل وأكلوا ، وظهر لنا على وجهه مانزل باطنه من التواضع لله والانكسار فى نفسه وانسلاخه عن التكبر عليهم .

وكان الشيخ الفقيه عبد الرحمن بن سعيد من الفقهاء والعلماء العاملين ، بينما هو يومًا يمشى فى يوم شات كثير الطين ، استقبله كلب يمشى على الطريق التى كان عليها ، قال من رآه : رأيت الشيخ قد لصق بالحائط وعمل للكلب طريقًا ووقف ينتظره ليجوز ، فلما قرب منه الكلب ترك مكانه الذى كان فيه ونزل أسفل وترك الكلب يمشى فوقه ، قال : فلما جاوزه الكلب وصلت إليه فوجدته وعليه كآبة ، فقلت له : ياسيدى رأيتك الآن صنعت شيئًا استغربته ، كيف رميت بنفسك فى الطين وتركت الكلب يمشى فى الموضع النقى ؟ فقال لى : بعد أن عملت له طريقًا تفكرت وقلت: ترفعت على الكلب وجعلت نفسى أرفع منه ، بل هو والله أرفع منى وأولى بالكرامة ، لأنى عصيت الله تعالى وأنا كثير الذنوب والكلب لاذنب له ، فنزلت له عن موضعى وتركته يمشى عليه ، وأنا الآن أخاف من الله ألا يعفو عنى ، لأنى رفعت نفسى على من هو خير منى اهـ . نقله الشيخ ابن عباد رضى الله عنه .

ثم إن التواضع منه مايكون مجاهدة وتصنعًا ، وهو مجاهدة أهل اليمين من

السائرين . ومنه مايكون اختياريًّا حقيقيًّا ، وهو تواضع العارفين ، لأنه ناشئ عن شهود عظمة المعبود فلا يتخلف إلا فى وقت الغفلة وهو قليل ، وهو الذى أبانه بقوله :

[**التواضع الحقيقى : هو ماكان ناشئًا عن شهود عظمته وتجلى صفته**] .

قلت : التواضع الحقيقى : هو تواضع العارفين ، لأنه ناشئ عن شهود عظمة الحق وتجلى ذاته وصفاته ، وهو من عطف التفسير ، لأن تجلى الصفات هو عين عظمة الذات وذلك أن الحق تعالى كان فى أزله القديم متصفًا بصفاته ومتسميًا بأسمائه فى خفاء ولطف لم يعرفه أحد ، فلما أراد أن يعرف أظهر بقدرته وإرادته عظمة ذاته المقدسة متصفًا بصفاته الأزلية ، فتجلت القدرة لعظمة الذات ، فشهود عظمة الذات هو شهود تجلى الصفات إليه وأشار صاحب العينية بقوله :

فَــأَوْصَـافُــهُ وَالاسْمُ وَالْأَثَــرُ الــذِى
هُوَ الْكَوْنُ عَـيْنُ الذاتِ وَاللهُ جَـامِعُ

فالتواضع الحقيقى : هو الذى ينشأ عن شهود عظمة الذات ونور الصفات ، فلذلك ترى العارفين يتواضعون مع الحجر والمدر وكل شىء لمعرفتهم فى كل شىء .

قال ذو النون المصرى رضى الله عنه : من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة الله فإنها تذوب وتصغر ، ومن نظر إلى سلطان الله تعالى ذهب عنه سلطان نفسه ، لأن النفوس كلها محقورة عند هيبته ، ومن أشرف التواضع ألا ينظر إلى نفسه دون الله تعالى اهـ .

والحاصل : أن التواضع الحقيقى إنما هو للعارفين ، لأنهم حين شهدوا عظمة الحق خرجت عنهم أوصاف نفوسهم ، إذ لايخرج عن الوصف إلا شهود الوصف كما ذكره بقوله :

[**لايخرجك عن الوصف إلا شهود الوصف**].

فلا يخرجك عن أوصاف نفسك الذميمة إلا شهود أوصاف ربك العظيمة ، فلا يخرجك عن دناءة نفسك إلا شهود كرم ربك ، فلا يخرجك عن شهود

أوصافك الحادثة إلا شهود أوصاف ربك القديمة ، فيخرجك عن شهود فعلك بشهود فعله ، وعن شهود صفاتك بشهود صفاته ، وعن شهود ذاتك بشهود ذاته .

وقد سئل شيخ أشياخنا القطب ابن مشيش عن حقيقة المحبة ، سأله تلميذه أبو الحسن رضى الله عنهما فقال : المحبة أخذ القلب وخطفه عند كشف نور الجمال وقُدْس الجلال . والشرب : مزج الأوصاف بالأوصاف ، والأخلاق بالأخلاق ؛ والأنوار بالأنوار ، والأسماء ، والنعوت ، والأفعال بالأفعال إلخ . فما دام العبد لم يشاهد أوصاف ربه العظيمة لايمكنه أن يخرج عن أوصاف نفسه اللئيمة خروجًا كليًا ، وإنما يكون ذلك مجاهدة تارة له وتارة عليه ، بين طلوع ونزول ، بخلاف ما إذا شاهد أوصاف ربه فإنه يغيب عن نفسه ، قد تولاه محبوبه فكان سمعه وبصره ويده ورجله ومؤيدًا له ، فلا يتصرف إلا بالله :

(وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[1] وأنشدوا :

إِذَا حُـزْتَ الفَخَـارَ فَـلَا تُبـالِ
بِـنَـقْصٍ فى الجِـبِـلَةِ أَوْ كَـمـالِ
فَمَا التَّأْنيثُ فى اسْمِ الشمْسِ نَقْصٌ
وَلَا التَّـذْكِـيرُ فَخْـرٌ لِـلْهِـلَالِ

يشير إلى أنه إذا تحقق الفناء فى الذات والبقاء بالله فلا نقص للنفس ولاكمال ؛ وإنما الكمال للكبير المتعال ، فله الحمد والثناء على كل حال . كما قال الشيخ رضى الله عنه :

[المؤمن يشغله الثناء على الله عن أن يكون لنفسه شاكرًا ، وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكرًا] .

قلت : النفس عند تحقق الفناء لاوجود لها حتى تذكر ، ولافعل لها حتى تشكر ، فليس للعارف عن نفسه إخبار حتى يخبر عنها بفعل شىء ، فضلا عن أن يشكر لها وصفًا قد استغرقه شهود فعل الحق عن فعله ، وشهود وصف الحق

---

(١) آل عمران : ١٠١ .

عن شهود وصفه ، وشهود نور ذات الحق عن شهود ذاته ، فيشغله الثناء على الله عن الالتفات إلى ماسواه ، إذ لايشهد فى الكون إلا إياه ، وتشغله حقوق الحق عن الالتفات إلى حظوظ النفس ، إذ لانفس مع الفنان فلا يبقى إلا حقوق العالم الأسنى ، فتنقلب الحظوظ فى حقه حقوقًا ، لأنهم إذا نزلوا من عش الحضرة إلى أرض الحظوظ نزلوا بالإذن والتمكين والرسوخ فى اليقين ، نزلوا بالله وإلى الله ، فليس لهم نظر إلى سواه ، قد تخلصت أرواحهم من طلب الحظوظ معجلة أو مؤجلة ، نفسانية أو روحانية ، إن صدر منهم عمل رأوه منه من الله فيستحيون أن يطلبوا عليه عوضًا أو غرضًا ، كما أبان ذلك بقوله :

[ليس المحب الذى يرجو من محبوبه عوضًا ويطلب منه غرضًا] .

قلت : لاشك أن المحبة التى تكون على الحروف والحظوظ ليست بمحبة ، وإنما هى مصانعة لقضاء الحاجة ، فمن أحب أحدًا ليعطيه أو ليدفع عنه فإنما أحب نفسه ، إذ لولا غرض نفسه فيه ما أحبه .

قال أبو محمد رويم رضى الله عنه : من أحب العوض نغص العوض إليه محبوبه ، وأيضًا فطالب العوض إنما هو بائع يريد أن يعطى لينال ، والمحب مقتول فى محبة سيده لايعرّج على سوى مرضاته ، وفى معنى ذلك قيل :

بُنى الْحُبُّ عَلَى الْجَوْرِ فَلَوْ
أَنْصَفَ الْمَحْبُوبُ فِيهِ لَسَمُجْ
لَيْسَ يُسْتَحْسَنُ فى حُكْمِ الْهَوَى
عَاشِقٌ يَطْلُبُ تَأْلِيفَ الحجج

ومما لايستحسن أيضًا فى حكم المحبة والهوى ، إظهار الحزن أو الكآبة من أجل الجفاء من المحبوب ، أو الشكوى بذلك ، بل الواجب هو التجلد والتصبر على جفاء المحبوب حتى يظفر بالمطلوب ، وفى ذلك قيل :

إنْ شَكَوْتَ الْهَوى فَمَا أنْتَ مِنَّا
احْمِلِ الصَّدَّ وَالْجَفَا يَا مُعَنَّى

تَـدَّعِى مَـذْهَبَ الْهَـوى ثُمَّ تَشْكُـو
أىُّ دَعْوَاكَ فى الْهَوَى قُلْ لِى أيْنَا ؟
لَـوْ وَجَـدْنَـاكَ صَـابِـرًا لِهَـوَانَـا
لأَتَـيْنَـاك كُـلَّ مَـا تَـتَـمَـنَّى

وقال آخر :

الْحُبُّ دِينِى فَـلَا أَبْغِى بِـهِ بَدَلَا
وَالْحُسْنُ مَلْكٌ مُطَاعٌ جَارَ أَمْ عَدَلَا
وَالنَّفْسُ عَزَّتْ وَلٰكِنْ فِيكَ أَبْـذُلُهَا
وَالذُّلُّ مُرٌّ وَلٰكِنْ فى رِضَـاكَ حَلَا
يَـامَنْ عَذَابِىَ عَـذْبٌ فى مَحَبتِـهِ
لَا أَشْتَكِى مِنْكَ لَا صَدًّا وَلَامَلَلًا

وإن شئت قلت : المحبة هى أخذ الرب بقلب العبد بحيث لايلتفت إلى غيره أو أخذ جمال المحبوب بمحبة القلب حتى لايجد مساغًا للالتفات لسوى المحبوب ، فمتى وقع الالتفات نقص الحب على قدره .

قال بعض الناس لامرأة : إنى أحبك ، فقالت : وكيف وخلفك من هو خير منى ؟ فالتفت ، فقالت : قبحك الله من محب تدعى المحبة وتلتفت للغير ، وكذلك العبد إذا ادعى محبة سيده ثم أحب شيئًا ، أو استحسن شيئًا من السوى ، أو اشتكى شيئًا أو خاف شيئًا سوى محبوبه فهو ناقص المحبة أو مدعيها ، ومن ادعى ماليس فيه فضحته شواهد الامتحان .

ثم علل الشيخ كون المحبة على العوض مدخولة فقال :

[**فإن المحب من يبذل لك ، ليس المحبّ من تبذل له**] .

قلت : المحب فى الشىء هو الذى يبذل نفسه فيه وفَلْسه ، ويزهد فى جنسه من أجله ولايصح ذلك على التمام ، إلا فى جانب الذى أسبغ عليك سوابغ الإنعام . أنعم عليك أولا بالإيجاد ، وثانيًا بالأمداد ، وأعطاك كل ماتريد ،

وملكك الكون كله تتصرف فيه كما تريد . قال تعالى :
(وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ)[1] وقال : (خَلَقَ لَكُمْ مَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا)[2] .

فهذا سبب محبة العوام .

وأما محبة الخواص فهى ناشئة عن شهود جماله وبهائه ، فغابوا فى شهود جماله وتاهوا فى حضرة بهائه ، وأنشدوا :

يَاسَاقِيَ الْقَوْمِ مِنْ شَذَاهُ الْكُلُّ لَمَّا سَقَيْتَ تَاهُوا
غَابُوا وَبِالسُّكْرِ فِيكَ طَابُوا وَصَرَّحُوا بِالْهَوَى وَفَاهُوا

فهؤلاء باعوا أرواحهم فى طلب مولاهم ، ثم استقلوا ماباعوا ، واستحيوا مما بذلوا لقلة ماأعطوا فى جانب ماطلبوا ، وفى ذلك يقول سلطان العشاق ابن الفارض رضى الله عنه :

لَوْ أَنَّ رُوحِى فى يَدِى وَوَهَبْتُهَا
لِمُبَشِّرِى بِقُدُومِكُمْ لَمْ أُنْصِفِ
مَالى سِوَى رُوحِى وَبَاذِلِ رُوحِهِ
فى حُبِّ مَنْ يَهْوَاهُ لَيْسَ بِمُسْرِفِ
فَلَئِنْ رضيتَ بِهَا فَقَدْ أَسْعَفْتَنِى
يَا خَيْبَةَ الْمَسْعى إذَا لَمْ تُسْعِفِ

قال الشيخ أبو عبد الله القرشى رضى الله عنه : حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببته حتى لايبقى لك منه شىء .

وقال أبو يعقوب السوسى : حقيقة المحبة أن ينسى حظه من الله ، وينسى حوائجه إليه .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : المحب على الحقيقة من لاسلطان

---

(١) إبراهيم : ٣٤ . (٢) البقرة : ٢٩ .

على قلبه لغير محبوبه ، ولامشيئة له مع مشيئته .

وقيل : أول مايقول الله للعبد : اطلب العافية والجنة والأعمال وغير ذلك ، فإن قال : لا ، ما أريد إلا أنت ، قال له : من دخل فى هذا معى فإنما يدخل بإسقاط الحظوظ ورفع الحدوث ، إثبات القدم ، وذلك يوجب له العدم ، وفى معنى ذلك قيل :

مَنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ فَانِيًا عَنْ حَظِّهِ
وَعَنِ الْغِنى والأُنْسِ بِالأَحْبَابِ
فَلأَنهُ بَيْنَ الْمَنَازِلِ وَاقِفٌ
لِمَنَالِ حَظٍّ أو لِحُسْنِ مَآبِ

وبالجملة فأمر المحبة كبير ، وبحرها خطير ، وفى ذلك قالوا : ماخاضوا بحر الرياح حتى خاضوا بحر الخسارة ، لاتنال إلا بذبح النفوس ، وترك الفلوس :

إنْ تُرِدْ وَصْلنا فَموتك شَرْطٌ
لاَيَنَالُ الْوِصَالَ مَنْ فِيهِ فَضْلَهْ

محاربة النفوس ومجاهدتها

فما تحقق سير السائرين ورحيلهم إلى المحبوب إلا بمحاربة النفوس ومجاهدتها وقتلها كما أبان ذلك بقوله :

[لولا ميادين النفوس ماتحقق سير السائرين] .

قلت : الميادين جمع ميدان ، بكسر الميم وبفتحها وبه صدّر فى القاموس ، وهو مجال الخليل ، ثم استعير هنا لمحاربة النفوس ومجاهدتها ، فهى تارة تكر عليه فتظفر به ، وتارة يكر عليها فيظفر بها . وفى هذا المعنى قال شيخ شيوخنا المجذوب رضى الله عنه :

سَايِسْ مِنَ النَّفْسِ جُهْدَكْ وَصَبِّحْ وَمَسِّ عَلَيْهَا
لَعَلَّهَا تَدْخُلْ بِيَدَكْ فَتَعُودُ تَصْطَادُ بِهَا

فقد بين رضى الله عنه كيفية مجاهدتها ، وعلمك الحيلة فى أخذها ، وذلك أن تدخل معها شيئًا فَشَيْئًا فتعلمها الصمت وحده ، ثم العزلة ، ثم تقدمها للخراب شيئًا فشيئًا . تقدمها للقليل ، فإذا استأنست به زدتها شيئًا آخر وهكذا ؛ فأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ ، ولايعلمها البطالة ، فورده من العمل الذى تموت به لايتركه ، وقد كنت فى حالة المجاهدة إذا همت بترك وردى نادتنى هواتف الأكوان حتى كنت فى بعض الأيام تخاطبنى الصبيان : ياهذا اليهودى حين نهتم بترك وردى من السؤال ، وقد سمعت مرارًا متعددة حين نستعمل خرابًا : زد على يدك ، وتارة يقول : زد صف سبيكتك ، وتارة نسمع ياعساس حين يسرقنى شىء من الحس ، وهكذا ، وكانت مجاهدتى لنفسى كلها سياسة لم أحملها من المرة الأولى إلا ماتطيقه حتى تستأنس به ثم نزيدها حتى كنت نفعل بها مانشاء .

قال بعض العارفين : انتهى سير الطالبين إلى الظفر بنفوسهم ، فإن ظفروا بها وصلوا ، وما ذكرته من السياسة للنفس والاحتيال عليها هو الصواب . قال فى المباحث :

وَاحْتَلْ عَلَى النَّفْسِ فَرُبَّ حِيلَهْ أَنْفَعُ فى النُّصْرَةِ مِنْ قَبِيلَهْ

وأما إن حمّلها من أول مرة ما لا تطيقه فإنها تسقط وتملّ ، وربما ترجع بالكلية . قال صلى الله عليه وسلم :

« اكْلُفُوا مِنَ الْعَمَلِ مَاتُطِيقُونَ ، فَإِنَّ اللهَ لَايَمِلُّ حَتَّى تَمَلُّوا » ، « لَايَكُنْ أَحَدُكُمْ كالْمُنْبَتِّ لَا أَرْضًا قَطَعَ ، وَلَاظَهْرًا أَبْقَى » والمنبت : هو المنقطع .

وحاصل ماذكره الشيخ فى هذه الحكمة أن الناس على قسمين :

قسم لاسير لهم ، إذ لا توجه لهم إلى الله ، فهم واقفون مع ظاهر الشريعة كل ما أباحته الشريعة أخذوه ثقيلا كان على النفس أو خفيفًا ، بل لايأخذون إلا الخفيف لأنهم يقصدون رخص الشريعة وتسهيلها مما يوافق هواهم ، فلم يغيروا من عوائدهم وشهواتهم شيئا ؛ فعزهم وافر ، وجاههم باق ، ودنياهم فى

الزيادة . وهؤلاء عوام المسلمين .

وقسم شاقت نفوسهم إلى حضرة الملك وغلبهم الشوق ، فتوجهوا إلى حضرته ، واشتغلوا بمجاهدة نفوسهم ومحاسبتها ، فكل مايثقل عليها أدخلوها فيه وهي تموت ، وكل مايخف عليها جنبوها منه وهي تبكي ، هكذا يدومون عليها حتى ترتاض وتلين ، وحينئذ تطاوعهم فيما يريدون ، فأول مايجاهد المريد في ترك الدنيا أو التخفيف حتى لايبقى مايشغله عن ربه ، ثم في ترك الناس والفرار منهم يتنكر لمن يعرف ، ولايتعرف لمن لايعرف ، ثم في إسقاط المنزلة والجاه حتى يسقط من عين الناس ، ويسقط الناس من عينه ، ثم في الذل والانكسار قلبًا وقالبًا ، بالمشي بالحفا وتعرية الرأس وغير ذلك ؟ فإذا تحققت بالذل والتواضع والخمول والفقر وسكنت في ذلك واستحلته ، فقد تمكن منها وملكها بل ملك الكون كله :

وَنَفْسَكَ تَحْوِى بِالْحَقِيقَةِ كلِّها   أَشَرْتُ بِجِدِّ الْقَوْلِ مَا أَنَا خادِعُ

فكل من ملك نفسه فقد ملك الوجود بأسره ، فلولا مجاهدة النفوس ومحاربتها في هذه الميادين ماتحقق سير السائرين . إذ لا يتحقق السائر من القاعد إلا بمخالفة الهوى وخرق العوائد ، فمن خرق عوائد نفسه حتى استوى عنده العز والذل والفقر والغنى ، وغير ذلك من مكروهات النفوس . فقد تحقق سيره ووصوله ، ومن لم يقدر على تغيير شعرة من نفسه فلا سير له ولاوصول .

قال أبو عثمان الحيرى : لايكمل الرجل حتى يستوى قلبه في أربعة أشياء : في المنع والعطاء والعز والذل ، يعنى أنه يكون عنده الذل كالعز ، والمنع كالعطاء ، لا ينقص منها .

وقال محمد بن خفيف رضى الله عنه : قدم علينا بعض أصحابنا فاعتل وكان به علة البطن ، فكنت أخدمه وآخذ منه الطست طول الليل ، قال فغفوت مرة ، فقال لى نمت لعنك الله ، فقيل له كيف وجدت نفسك عند قوله لعنك الله ؟ قال : كقوله رحمك الله .

وحكى عن إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه أنه قال : ماسررت في الإسلام إلا ثلاث مرات معدودات : كنت في مركب يومًا وكان به رجل يحكى الحكايات

فيضحك منه الناس ، وكان يقول : رأيت وقتًا فى معركة الترك علجًا ويقول هكذا ، وكان يأخذ بلحيتى ويمد يده على حلقى والناس يضحكون منه ، ولم يكن فى ذلك المركب عنده أحد أصغر منى ولا أحقر ، فسررت بذلك . ويومًا آخر كنت جالسًا فجاء إنسان فصفعنى . ويومًا آخر كنت جالسًا فجاء إنسان وبال علىّ .

وقال بعضهم : حقيقة زوال الهوى من القلب حب لقاء الله فى كل نفس من غير اختيار حالة يكون عليها ، فإذا وجد المريد هذه العلامات فى نفسه ، فقد خرج من عالم جنسه ، ووصل إلى حضرة قدسه . وكان كما قال الشاعر :

لَـكَ الـدَّهْـرُ طَـوْعًـا وَالْأنـامُ عَبِيـدُ
فَعِشْ ، كـلُّ يَوْمٍ مِنْ أيـامِك عِيـدُ

وكما قال سيدى أبو العباس بن العريف رضى الله عنه فى هذا المعنى :

بَـدَا لَكَ سِـرٌّ طَالَ عَنْـكَ اكْتِتَـامُـهُ
وَلَاحَ صَبَـاحٌ كُنْـتَ أنْتَ ظَـلَامُـهُ
فَأنْتَ حِجَابُ الْقَلْبِ عَنْ سِرِّ غَيبِهِ
وَلَـوْلَاكَ لَمْ يُـطْبَـعْ عَلَيْـهِ خِتَـامُـهُ
فَـإنْ غِبْتَ عَنْـهُ حَـلَّ فِيـهِ وَطَنَّبَتْ
عَلَى مَرْكَبِ الْكَشْفِ الْمَصُـونِ خِيَامُـهُ
وَجَـاء حَـدِيثٌ لَا يُمَـلُّ سَمَـاعُـهُ
شَـهِـيٌّ إلـيْـنَـا نَـثْـرُهُ وَنِـظَامُـهُ
إذَا سَمِعَتْـهُ النَّفْسُ طَـابَ نَعِيمُهَـا
وَزَالَ عَـنِ الْقَـلْبِ الْمُعَـنَّى غَـرامُـهُ

فإن لم يجد المريد هذه العلامات فليستمر على سيره ، ولايمل ولايفتر فمن عرف ماقصد هان عليه ماترك وهذا الكلام إنما هو مع من أسعده الله فوصله إلى شيخ التربية ، وأما من لم يصل إليه فلا يطمع فى السير أبدًا ولو جمع العلوم كلها

وصحب الطوائف كلها وهذا أمر ذوقى لاأقلد فيه أحدًا ، فقد صلينا كثيرًا ، وصمنا كثيرًا ، واعتزلنا كثيرًا ، وذكرنا كثيرًا ، وقرأنا القرآن كثيرًا ، والله ماعرفنا قلوبنا ، ولاذقنا حلاوة المعانى ، حتى صحبنا الرجال أهل المعانى . فأخرجونا من التعب إلى الراحة ، ومن التخليط إلى الصفا . ومن الإنكار إلى المعرفة .

قلت : قد قال الحضرمى : قد انقطعت التربية ، ومابقى إلا الهمة والحال . فعليكم بالكتاب والسنة .

قلت : لم يقصد الحضرمى انقطاعها على الأبد ، وحاشا الحضرمى أن يتحكم على الله ويعجز قدرة الله ، وإنما أراد أن فى زمانه مدعين كثيرين ، فحذر أهل زمانه منهم ، ومعرفة الحضرمى وزروق رضى الله عنهما تنافى هذا القصد ، وعلى تقدير صدورها منهما فليسا بمعصومين ، فكل كلام يردّ ويقبل إلا كلام صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم .

قد وُجد بعد الحضرمى رجال كانوا من أهل التربية النبوية بالحال والمقام والهمة لايمكن عدهم ، وهم موجودون فى زماننا هذا ، مشهورون كنار على علم ، قد هدى الله على أيديهم خلقًا كثيرًا ، وخرج على أيديهم من الأولياء ما لايعلمهم إلا من منّ عليهم بمعرفتهم .

قال فى لطائف المنن : إنما يكون الابتداء بولى دلك الله عليه ، وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه ، فطوى عنك شهود بشريته وعرّفك وجود خصوصيته ، فألقيت إليه القياد ، فسلك بك سبيل الرشاد ، يعرّفك برعونات نفسك ودفائنها وكمائنها ودقائقها ، ويدلك على الجمع على الله ، ويعلمك الفرار مما سوى الله ، ويسايرك فى طريقك حتى تصل إلى الله ، يوقفك على إساءة نفسك ويعرفك بإحسان الله إليك ، فتفيدك معرفة إساءة نفسك الهرب منها وعدم الركون إليها ، ويفيدك العلم بإحسان الله إليك الإقبال عليه ، والقيام بالشكر إليه ، والدوام على ممر الساعات بين يديه .

قال : فإن قلت : فأين من هذا وصفه ؟ لقد دللتنى على أغرب من عنقاء مغرب ، فاعلم أنه لايعوزك وجدان الدالين ، وإنما يعوزك وجدان الصدق فى

طلبهم ، جد صدقًا تجد مرشدًا ، وتجد ذلك فى كتاب الله ، قال تعالى : (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ)[١] وقال : (فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ)[٢] .

فلو اضطررت إلى من يوصلك إلى الله اضطرار الظمآن إلى الماء ، والخائف إلى الأمن ، لوجدت ذلك أقرب إليك من وجود طلبك ، ولو اضطررت إلى الله اضطرار الأم لولدها إذا فقدته ، لوجدت الحق منك قريبًا ولك مجيبًا ، ولوجدت الوصول غير متعذر عليك ، ولتوجه الحق بتيسير ذلك عليك اهـ .

قال الشيخ ابن عباد رضى الله عنه : وفى كلامه تنبيه على أن الشيخ من مِنَح الله وهداياه للعبد المريد ، إذا صدق فى إرادته وبذل جهده فى مناصحة مولاه ، لاعلى مايزعمه من لاعلم عنده من كونه لايشترط ، ثم قال : وعند ذلك يوفقه الله تعالى لاستعمال الأدب معه ، لما أشهده من علىّ مرتبته ورفع درجته اهـ .

وقال أيضًا فى لطائف المنن : وليس شيخك من سمعت منه ، إنما شيخك من أخذت عنه ، وليس شيخك من واجهتك عبارته إنما شيخك من سرت فيك إشارته ، وليس شيخك من دعاك إلى الباب ، إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب ؛ وليس شيخك من واجهك مقاله ، إنما شيخك من نهض بك حاله ، شيخك هو الذى أخرجك من سجن الهوى ، ودخل بك على المولى ، شيخك هو الذى مازال يجلو مرآة قلبك حتى تجلت فيه أنوار ربك ، نهض بك إلى الله فنهضت إليه ، وسار بك حتى وصلت إليه ؛ ومازال محاذيًا لك حتى ألقاك بين يديه ، فزج بك فى نور الحضرة وقال : ها أنت ذا وربك اهـ .

والسير هنا إلى الله تعالى مجازى ، عبارة عن قطع العلائق والعوائق ، وإلا فالأمر كما قال الشيخ :

[لامسافة بينك وبينه حتى تطويها ، ولاقطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك] .

قلت : هذا سؤال عن بحث مقدر ، كأن قائلا قال له : هل بيننا وبينه مسافة

---

(١) سورة النمل : ٦٢ .　　(٢) محمد : ٢١ .

حتى يتحقق سير السائرين إليه ؟ فقال : لامسافة بينك وبينه إلا حجاب النفس الكثيفة ، وعلائق القلب الكونية ، فخرق عوائدها ، وقطع شهواتها . وقطع العلائق والعوائق : هو السير إلى الله ، فمن خرق عوائد نفسه زالت عنه الحجب الظلمانية ، ومن قطع علائق القلب فاضت عليه العلوم الربانية ، وأشرقت عليه الشموس العرفانية ، وهذا هو الوصول فلا مسافة بينك وبينه حسية حتى تطويها رحلتك ، ولا قطعة بينك وبينه ، أى لاحاجز بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك . قال تعالى :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَاتُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْه مِنْ حَبْلِ الْورِيدِ)[1] .

فما حال بيننا وبينه إلا توهم وجود نفوسنا ، فلو غبنا عنها لوجدنا أنفسنا فى الحضرة ولايمكن الغيبة عنها إلا بموتها ، وموتها فى مخالفة عوائدها .

قال الشيخ أبو مدين : من لم يمت لم ير الحق . وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : لادخول على الله إلا من بابين : إما بالفناء الأكبر الذى هو الموت الطبيعى ، أو بالفناء الأصغر الذى تعنيه هذه الطائفة .

وقال بعضهم : لايدخل على الله حتى يموت أربع موتات : الموت الأحمر : وهو مخالفة النفس . والموت الأسود : وهو احتمال الأذى من الخلق . والموت الأبيض : وهو الجوع . والموت الأخضر : وهو لبس المرقعات .

قال الشطيبى رضى الله عنه : واعلم أن طريق الحق تعالى ليس فيها مفازة ولامتاهة ، بل هى منازل وأحوال قد جعل الله لجميعها أعوانًا وأنصارًا ، وهو سبحانه يصدق وعده ، وينصر عبده ، ويهزم الأحزاب وحده ، وإنما المفاوز والمسافات فى الركون إلى المألوف ، واتباع العادات ، وفى مسامحة النفس والوقوف مع الحس والحدس ، وعند كشف الغطاء يتبين ذلك كما قال صاحب المباحث الأصلية :

وَإِنَّمَا الْقَوْمُ مُسَافِرُونْ لِحَضْرَةِ الْحَقِّ وَظَاعِنُونْ

---

(١) سورة ق : ١٦ .

فَـافْتَقَرُوا فِيهـا إلَى دَلِيـلِ ذِى بَصَـرٍ بِالسَّـبْرِ وَالمَقِيلِ
قَدْ سَلَكَ الطَّرِيقَ ثُمَّ عَادْ لِيُخْـبِرَ الْقَـوْمَ بِمـا اسْتَفَـادْ

إلى آخر كلامه اهـ .

وقال أيضًا : ومن الناس من تحجبه المجاهدة عن المشاهدة ، فتسطو عليه الأحوال ، فتحول بينه وبين الغاية القصوى . ومناهج الخلق متفاوتة لا تجرى على منهاج واحد . قال الله العظيم :

(لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)[١] (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها فاسْتَبِقُوا الْخَيراتِ)[٢] .

وكل شخص إنما يعبِّر عن وجهته التى خصه الله بها ، ولذلك كان النظر فى الكتب يضعف المسالك لتشعبها وكثرتها عند اختلاف الهمم ، لاسيما من جبلت طبيعته على علم الظاهر ، فإنه أبعد الناس عن الطريق ، مالم يداركه الله بفتح منه ، لأن التشريع كل حكمة تحتها حكم ، من لم يفهمها فبستانه مزهر غير مثمر ، ومن هنا وقع الإنكار حتى امتحن الله كثيرًا من الصوفية على أيدى علماء الظاهر ، عندما نسبوهم للكفر والزندقة والبدعة والضلال . وسر الخصوصية يقتضى ذلك لامحالة :

(سُنَّةَ الله التى قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا)[٣] (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَّا يَلْبِسُونَ)[٤] وما هلكت الأمم السابقة إلا بقولهم : (إنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ)[٥] .

فتحصل أن الإنسان إذا جال مع النفس فى ميدانها ، فجاهدها حتى هذبها ، وطهرها من الأوصاف الحاجبة لها ، رجعت نفسه حينئذ إلى أصلها ، وهى

---

(١) المائدة : ٤٨ . (٣) الفتح : ٢٣ . (٥) الزخرف : ٢٣ .
(٢) البقرة : ١٤٨ . (٤) الأنعام : ٩ .

الحضرة التى كانت فيها ، إذ لم تكن بينها وبين الحضرة إلا الحجب الظلمانية ، فلما تخلصت منها رجعت إلى أصلها نورًا مشرقًا فى قالب ظلمانى ، فصارت عنده ياقوتة مكنونة تطوى عليها أصداف المكنونات ، كما أبان ذلك بقوله :

[جعلك فى العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ، ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته ، وأنك جوهرة تطوى عليها أصداف مكوناته] .

قلت : قد عظم الله سبحانه هذا الإنسان ، وجعله نخبة الأكوان ، اجتمع فيه ما لم يجتمع فى غيره ، فيه ملك وملكوت ، ونور وظلمة ، وغيب وشهادة ، وعالم علوى وسفلى ، وقدرة وحكمة ، وحس ومعنى ، فقد جعلك الله أيها الإنسان ناشئًا فى العالم المتوسط ، بين ملكه وهو بشريتك ، وملكوته وهو روحانيتك .

أو تقول : بين ملكه وهو عالم الأشباح ، وملكوته وهو عالم الأرواح ، فلست أيها الإنسان ملكيًّا فقط فتكون كالبهائم والجمادات ، ولاملكوتيًّا فقط فتكون كالملائكة ، ولكن جعلك مركبًا من ملك وملكوت ، لتظهر مزيتك بالمجاهدة والمشاهدة ؛ ولذلك خصصت بالخلافة ، وتقدمت لحمل الأمانة ، ثم متعت بالنعيم ، والنظر إلى وجهه الكريم .

ثم انقسمت الناس على قسمين :

فمنهم من غلبت بشريتهم على روحانيتهم ، وملكهم على ملكوتهم ، وظلمتهم على نورهم ، فبقوا فى ظلمة الأكوان ، ومنعوا من الشهود والعيان ، وهم عوام المسلمين .

ومنهم من غلبت روحانيتهم على بشريتهم ، ونورهم على ظلمتهم . وملكوتهم على ملكهم ، وهم الخواص العارفون السائرون إليه بمجاهدة نفوسهم فى ميدان الحرب وهو مجال الفرسان ، فمنهم السابق المقرب ، ومنهم اللاحق المحبب ، كل واحد على قدر صدقه فى محبة سيده . وظاهر كلام الشيخ أن الإنسان شىء زائد على البشرية والروحانية ، لأنه قال : جعلك الله فى العالم المتوسط بين الملك وهو البشرية والملكوت وهو الروحانية ، فيقتضى أنه شىء ثابت بينهما .

والتحقيق أن الإنسان هو المجموع من الجسد والروح ، فهو بنفسه عالم

متوسط : أى مركب من ملك وملكوت ، فلو قال جعلك عالما متوسطًا بين مُلكه وملكوته لأفهم المراد بسهولة ، أى لست ملكًا فقط ولاملكوتًا فقط ، بل جعلك متوسطًا بينهما أى مركبًا منهما ، كقوله عليه الصلاة والسلام :

« كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاء وَالطِّين » .

أى مركبًا منهما دون روح ، ولكن عبارة الشيخ فيها إلغاز وتدقيق إشارة ، وعلمنا كله إشارة ، وإنما جعلك بين ملك وملكوت ؛ ليعلمك جلالة قدرك وفخامة أمرك . قال تعالى :

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)[1] وقال : (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيم)[2] .

وليعلمك أيضًا أنك جوهرة نفيسة مصونة فى صدف نفيس ، وهو الكون بأسره ، فتطوى عليك أصداف مكوناته من عرشه إلى فرشه ، فأنت أيها الإنسان كالياقوتة فى صدف ، الأرض تقلك ، والسماء تظلك ، والجهات تكتنفك ، والحيوانات تخدمك وتنفعك ، والجمادات تدفع عنك ، وأنت فى وسط الجميع ، فالأفلاك دائرة بك ، والشمس والقمر منيران لما أنت فيه ، فأنت جوهرة الصدف ، ولباب الكون ، ومداره عليك .

قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : الأكوان كلها عبيد مسخرة وأنت عبد الحضرة .

وقد ورد فى بعض الكتب : يا بن آدم أنا بدُّك اللازم فالزم بدك .

وفى بعض الآثار المروية عن الله عز وجل : يا بن آدم خلقت الأشياء من أجلك ، وخلقتك من أجلى ، فلا تشتغل بما هو لك عمن أنت له .

وقد قالوا فى عجائب الإنسان : إن الوجود كله منطو فيك ، فهو نسخة من العالم الأكبر .

ومما ينسب لأبى العباس المرسى رضى الله عنه :

---

(١) الإسراء : ٧٠ .　　(٢) التين : ٤ .

يَـا تَـائِهًـــا فِى مَهْمـةٍ عَــنْ سِـرِّهِ
انْـظُرْ تَجِدْ فِيـكَ الْـوُجُـودَ بِـأَسْـرِهِ
أَنْت الْكَـمَــالُ طَـرِيقَــةً وَحَـقِيـقَــةً
يَـــا جَـامِعًـا سِـرَّ الإِلٰـهِ بِـأَسْــرِهِ

وقال فى المباحث :

يَاسَابِقًا فِى مَوْكِبِ الإِبْدَاعِ وَلَاحِقًا فِى جَيْشِ الاخْتِرَاعِ
اعْقِلْ فَأَنْتَ نُسْخَةُ الْوُجُودِ لِلّٰهِ مَا أَعْلَاكَ مِنْ مَـوْجُودِ
أَلَيْسَ فِيكَ الْعَرْشُ وَالْكُرْسِىُّ وَالْعَــالَمُ الْعُلْوِىُّ وَالسُّـفْـلِىُّ
مَا الْكَوْنُ إِلَّا رَجُـلٌ كَبِيرُ وَأَنْتَ كَـوْنٌ مِثْلُهُ صَغِـيرُ

قلت : إنما يكون الإنسان نسخة من العالم أو كونًا صغيرًا ، مالم تغلب روحانيته على بشريته ، ومعناه على حسه ، ونوره على ظلمته . وأما إن غلبت روحانيته على بشريته ومعناه على حسه ، فقد صار حينئذ ملكوتيًّا جبروتيًّا ، قد استولى على الكون بأسره وصار هو العالم الأكبر والكون نسخة منه ، وفى ذلك يقول ابن الفارض رضى الله عنه :

وإِنِّى وَإِنْ كُـنْـتُ ٱبْـنَ آدَمَ صُــورَةً
فَــلِى فِيـهِ مَعْنًى شَـاهِدٌ بِـأُبُــوَّتِى

إذ الروح لم يسعها أرض ولاسماء ؛ كما بين ذلك بقوله :

[**وسعك الكون من حيث جثمانيتك ؛ ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك**] .

قلت : الروح إذا تصفت وتطهرت من كدرات الحس عرجت إلى عالم الجبروت ، فلم يحجبها عن الله أرض ولاسماء ، ولا فلك ولا عرش ولاكرسى ، بل يصير ذلك فى جوفها كشىء تافه وهذا أمر مذوق عند العارفين ، إذا نظروا إلى الكون بأسره ذاب ورجع ماء ، فإذا شربوه صار فى قلوبهم كنقطة . وهم

متفاوتون فى إحاطتهم بالكون ، فمنهم من يصير عنده كالبيضة ، ومنهم من يصير عنده كالخردلة ، وذلك بحسب اتساع النظرة وضيقها ، فكلما جالت الروح فى بحر الجبروت صغر الكون عندها حتى لاتحس به ولذلك قال بعضهم : لو كان العرش فى زاوية من زوايا العارف ماأحس به .

وقال آخر : العرش والكرسى منطبعان فى ترس ، وقال شيخ أشياخنا مولاى عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه : والعرش والكرسى فى طى قبضتى ، ثم يتلاشى الكون ويضمحل ويتصل عالم الملكوت بعالم الجبروت ، فلا بقاء إلا للحى الذى لايموت ، وهذا لايفهمه إلا العارفون الذين غلبت روحانيتهم على بشريتهم ، فصاروا روحانيين ملكوتيين ، أشباحهم مع الخلق ، وأرواحهم مع الحق ، فقد وسعك أيها الإنسان الكون ، وحصرك من حيث جثمانيتك وبشريتك وهيكلك المحصور ، ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك ، لأن روحك متصلة بعالم الجبروت المحيط ، فلما تكثفت وانحصرت فى هذا الهيكل لزمتها القهرية ، فانحجبت بالحكمة ، وتقيدت بالقدرة ؛ فما دامت البشرية كثيفة بحب الشهوات والعوائد فهى محجوبة ، فإذا تلطفت بذكر الله وانخرق عنها حجاب الحس ، رجعت إلى أصلها فاتصلت ببحرها ، فصار الملكوت والملك فى طى قبضتها ؛ فلم يسعها حينئذ أرض ولاسماء ، ولايحصرها عرش ولافرش ، ولذلك قيل : الصوفى لاتقله الأرض ولاتظله السماء .

وفى الحديث القدسى : « يَقولُ اللهُ تَعَالى : لَمْ تَسَعْنِي أرضِى وَلاَسَمَائى ، وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِى المُؤمِنِ » .

أى الكامل وهو العارف ، والله تعالى أعلم .

فالجبروت هو المعانى اللطيفة القديمة التى لم تدخل عالم التكوين . والملكوت مادخل عالم التكوين باعتبار جمعه ولحوقه بأصله . والملك مادخل التكوين واعتقد فيه الفرق ، وأهل الجمع لاملك عندهم ، وإنما عندهم الملكوت والجبروت ، فما داموا يفرقون بين النور اللطيف والنور الكثيف ، فعندهم الملكوت والجبروت ، فإذا ضموا كل شىء إلى أصله لم يبق إلا الجبروت ، وأهل الفرق أثبتوا الملك بوهمهم وحجبوا به عن الله .

(وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ)[1] .

فما دام العبد مسجونًا بالكون محصورًا فى بشريته فهو فى سجن الأكوان . فإن نفذت بصيرته وعرجت روحه إلى الملكوت خرج من السجن إلى الفَضاء ، كما بين ذلك بقوله :

[الكائن فى الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجون بمحيطاته محصور فى هيكل ذاته] .

قلت : ميادين الغيوب ، هى ماأدركته الروح حين خرجت من ضيق الأشباح إلى عالم الأرواح ، ومن فضاء الشهود إلى معرفة الملك المعبود ، فما دام الإنسان فى الكون بحيث لايشهد إلا الكون ، ولايدرك إلا الحس ولم تفتح له ميادين الغيوب : أى لم يخرج إلى فضاء الشهود ، فهو مسجون بمحيطاته ، أى بالأكوان المحيطة به كالسموات والأفلاك الدائرة به ، فهو فى سجن الأكوان محصور أيضًا فى هيكل ذاته ، أى فى شكل بشريته وكثائف جسمه . فإذا غلبت روحانيته على بشريته فقد خرجت من حصر الهيكل وإذا نفذت بصيرته إلى فضاء الملكوت أو بحار الجبروت ، فقد خرجت من سجن الأكوان إلى شهود المكون ، فحينئذ تتحرر من رق الأكوان ، وتحظى بنعيم الشهود والعيان .

وأما مادام محصورًا فى الهيكل مسجونًا فى الأكوان ، فهو محجوب عن الله ولو كان عالمًا بالعلوم الرسمية متبحرًا فيها ، إذ لايزيده التغلغل فيها إلا حجابًا عن الله. وقد قال الشيخ أبو الحسن : التغلغل فى علم الظاهر يضر بصاحبه فى علم الخصوص أو ما هذا معناه .

وقال فى قوت القلوب : كل من لم يفتح له فى هذا العلم الباطن فهو من أهل اليمين ، وكل من فتح له فى علم الباطن فهو من المقربين السابقين اهـ . وهو ظاهر ، لأن علم الرسوم لايخرجه من سجن الأكوان ، فهو من الأكوان على الدوام ، وإذا كان مع الأكوان فاته شهود المكون كما قال الشيخ رضى الله عنه :

[أنت مع الأكوان ما لم تشهد الملكوت فإذا شهدته كانت الأكوان معك] .

---

(١) يوسف : ٢١ .

قلت : مادام العبد مقيدًا فى سجن الأكوان ومحصورًا فى هيكل جسمه فالأكوان حاكمة عليه ، فهو يحبها ويعشقها ، وهى تبغضه وتبعده عن ربه ، وهو يفتقر إليها وهى غنية عنه ، وهو يميل إليها ويحرص عليها ، وهى تفر منه وهو يخاف منها ويهابها ، وهى تخوفه وترعبه . فإذا شهد مكونها وغاب وتحرر من رقها كانت حينئذ هى خادمته وهو حاكم عليها ، وهى تحبه وتعشقه ، وهو مشغوف بحب خالقها وهى تفتقر إليه وهو غنى عنها ، وهى تحرص عليه وهو زاهد فيها ، وهى تخاف منه وتهابه وهو فى أمن منها فالجنة تشتاق إليه وهو غنى عنها .

وفى الحديث : « اشْتَاقَتِ الْجَنَّةُ إلَى عَلِىٍّ وَصُهَيْبٍ وَبِلَالٍ » .

كانوا من أهل الصُّفة ، والنار تهابه وهو فى غيبة عنها . وقد ورد فى الحديث أنها تقول يوم القيامة :

« جُزْ يَامُؤْمِنُ فَقَدْ أَطْفَأَ نورك لَهَبِى » أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

فأنت أيها الإنسان محبوس مع الأكوان فى عالم الأشباح ، مقيد فى قيودها ، فهى حينئذ تتصرف فيك كيف شاءت ، حين تكون تحبها وتحرص عليها وتشتاق إليها كائنة ماكانت ، شهادية أو غيبية ، مالم تشهد المكون وتعرفه ، فإذا شهدت المكون وعرفته كانت الأكوان معك ، لأنك تكون حرًّا عنها وهى مملوكة لك ، لاتحب منها شيئًا من حيث كونيتها ، ولاتخاف منها شيئًا كذلك ، لأنك قد رحلت عنها إلى عالم الأوراح فحينئذ تكون فى قبضتك تتصرف فيها كيف شئت ؛ لأنك حينئذ تصير خليفة الله فى أرضه ، الكون كله فى قبضتك وعند همتك ، لأنك علقت همتك بالله فصيّر الأشياء عند همتك .

وفى بعض الآثار المروية عن الله عز وجل يقول : عبدى اجعلنى مكان همك أكفِك كلَّ همك ، ماكنتَ بك فأنت فى محل البعد ، وماكنتَ بى فأنت فى محل القرب ، فاختر لنفسك .

وقال بعض الأشياخ : إنى لأدخل السوق والأشياء كلها تشتاق إلى وأنا غنى عنها .

وقال ابن الجلا رحمه الله : من علت همته عن الأكوان وصل إلى مكوِّنها ،

ومن وقف بهمته على شيء دون الحق فقد حجب به عنه ، لأنه أعز من أن يرضى معه بشريك اهـ .

فمن رفع همته عن الأكوان ومتع بشهود المكون ، فقد ثبتت له الخصوصية الكبرى والولاية العظمى ، ولايلزم من رفع الهمة عن الأكوان استغناؤه عما تحتاج إليه البشرية مما يقوم به وصفها اللازم لها ، وإليه أشار بقوله :

[لايلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية] .

المراد بالوصف البشرى : ماجعله الله محتاجًا إليه بحكمته فى قوام بدن الإنسان من أكل وشرب ولباس ومسكن ، ومافطره عليه من شهوة مباحة كنكاح وشهوة غير محرمة ، فهذه الأوصاف لاينافى وجودها وجود الخصوصية ، فقد قال تعالى فى الرسل :

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيأكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الأَسْوَاقِ)[1] وقال تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً)[2] .

نعم وصف البشرية فى حق أهل الخصوصية ليس هو كغيرهم ، لأن أهل الخصوصية أمرهم كله بالله ، انقلبت حظوظهم حقوقًا ، بخلاف غيرهم أنفسهم غالبة عليهم ، فتقلباتهم كلها فى حظوظ أنفسهم .

فإذا تقرر هذا علمت أنه لايلزم من ثبوت الخصوصية وهى الولاية والمعرفة أو الحرية ومعناها واحد عدم وصف البشرية ، فالخصوصية محلها البواطن ، ووصف البشرية محلها الظواهر ، ولذلك اختفت الأولياء والأنبياء والرسل عن الناس ، لظهور أوصاف البشرية عليهم ، فكيف تعرف رجلا يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب وينام ويتزوج النساء ، فلايعرفهم إلا من أراد الله سعادته ، وما وقع الإنكار على الأنبياء والأولياء إلا لاعتقادهم أن أوصاف البشرية تنافى ثبوت الخصوصية ، فقد قال الكفار فى حقه عليه الصلاة والسلام :

(وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأكلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الأَسْوَاقِ)[3] .

---

(١) الفرقان : ٢٠ .   (٢) الرعد : ٣٨ .   (٣) الفرقان : ٧ .

فرد الله تعالى عليهم بعدم تنافيهما فقال :

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) الآية .

فهذه الأوصاف التى ذكرنا لاينفك الطبع البشرى عنها ، وهى موجودة مع خصوصية النبوة والولاية .

وأما الأوصاف التى هى مذمومة : كالحسد ، والكبر ، والبغض ، والعجب ، والرياء ، والغضب ، والقلق ، وخوف الفقر ، وهم الرزق ، والتدبير والاختيار ، وغير ذلك ، فهذه لابد من التطهير منها فى خصوصية النبوة والولاية ، وقد تقدم قوله : اخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك ، لتكون لنداء الحق مجيبًا ، ومن حضرته قريبًا .

أما فى حق النبى فتطهيره منها واجب ، لأنه معصوم من جميع النقائص . وأما فى حق الولى فليس بواجب لكنه محفوظ ، فقد يصدر منه شىء من هذه الأوصاف المذمومة على سبيل الهفوة والزلة ، ولاتنافى وجود خصوصيته ، لكنه لايصر عليها ولايدوم فيها ، فقد يصدر من الولى الغضب مثلا ، والقلق والتدبير والاختيار ، وغير ذلك ، لكنه كالريح يضرب ويسرح .

قال فى النصيحة الكافية : وقد تكون للولى هفوة وهفوات وزلة وزلات ، ولكن لايصرُّ عليها .

وقيل للجنيد : أيزنى العارف ؟ فسكت ثم قال :

(وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا)(١) .

قال ابن عطاء الله : ليت شعرى ، لو قيل له : أتكون همة العارف مع غير الله ؟ لقال : لا اهـ .

ثم ضرب مثلا لنور الخصوصية مع ظلمة البشرية الحسية فقال :

[إنما مثل الخصوصية إشراق شمس النهار ظهرت فى الأفق ، وليست منه ، تارة تشرق شموس أوصافه على ليل وجودك ، وتارة يقبض ذلك عنك فيردك إلى حدودك ، فالنهار ليس منك إليك ولكنه وارد عليك] .

---

(١) الأحزاب : ٣٨ .

قلت : مثل الربوبية الذى أشرقه الله فى قلوب أوليائه وستره بظهور البشرية ، كمثل نور الشمس إذا أشرق على الآفاق ، وهو الفضاء الذى بين السماء والأرض ، فإن الفضاء قبل ظهور الشمس مظلم ليس فيه نور ، فإذا أشرقت عليه الشمس رجع نورًا صافيًا ، فنورانيته ليست من ذاته ، وإنما هى من الشمس ، كذلك نور الربوبية هو مستودع فى باطن البشرية ، فإذا أراد الله تعالى أن يظهر خصوصية عبده أشرق ذلك النور على ظاهر بشريته فتستولى روحانيته على بشريته فلا يبقى للبشرية أثر ، فتصير البشرية كلها نورًا ، فنور البشرية ليس منها ولكنه وارد عليها ، فتارة تشرق شموس أوصافه وهى الوجود والقدم والبقاء وسائر أوصافه السلبية ، والوجودية والمعانى والمعنوية على ليل وجودك الظلمانى الكثيف ، فتذهب أوصافك الحادثة العدمية بظهور أوصافه القديمة الأزلية ، فيتحقق الوصال ، ويذهب الانفصال ، وتارة يقبض ذلك النور ويغيبه عنك ويرده إلى باطنك ، فترجع إلى شهود عبوديتك ، ويردك حدودك ، وهذا حال الوارد الإلهى إذا فاض على الإنسان غيبه عن نفسه واقتطعه عن حسه ، فلا يرى إلا أوصاف ربه وينكر وجود نفسه من أصله ، فإذا سكن الوارد رجع إلى شهود نفسه بربه ورجع ذلك النور إلى باطنه ، فيكون باطنه نورًا على الدوام ، وظاهره تارة يغلب عليه ذلك النور ، وتارة تغلب عليه الظلمة : أى العبودية ، فنور الوارد ليس من الإنسان من حيث بشريته ، ولكنه وارد عليه من حيث روحانيته ، كما أن نور الأفق ليس هو من ذات الأفق لكنه وارد عليه من إشراق شمس النهار عليه . وهاهنا مثال آخر ، وهو الحديد والفحمة إذا جعلتها فى النار ونفخت عليها ، فإنها يرجعان من جنس النار ؛ وتكسو النار الحديد كله والفحمة كلها ، فإذا بردا رجع الحديد حديدًا والفحمة فحمة ، كذلك البشرية إذا استولت عليها الروحانية صارت كلها روحانية معنوية ، فلا ترى إلا المعانى ولاتحس إلا إياها .

واعلم أن الناس فى هذا النور على ثلاثة أقسام : قسم نوره حده الباطن ، ولم يصعد من شعاعه شىء لظاهره وهم العوام . وقسم استولى نورهم على ظاهرهم وباطنهم ، وهم المجذوبون فى حضرة الله . وقسم امتلأ باطنهم نورًا وصعد شعاعه

على ظاهرهم ، فاستولى على الظاهر على الدوام ، وهم السالكون بعد الجذب الراسخون فى المعرفة ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر الطريقة الموصلة إلى الخصوصية فقال :

[دل بوجود آثاره على وجود أسمائه ، وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه ، وبوجود أوصافه على وجود ذاته ، إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه] .

قلت : هذه طريقة الترقى ، فوجود الأثر يدل على وجود القادر والمريد والعليم والحق مثلا ، فالقادر يدل على قيام القدرة به بحيث لاتفارقه ، إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه ، فلزم من وجود الأثر وجود المؤثر . وهنا افترق أهل الظاهر من أهل الباطن .

فأهل الظاهر أثبتوا من وجود الأثر وجود الأسماء والصفات ، ولم يقدروا على شهود الذات ، غلبهم الحس عن شهود المعنى ، والوهم عن ثبوت العلم ، وشهود الحكمة عن شهود القدرة .

وأهل الباطن لما فرغوا قلوبهم من الأغيار ، وباعوا نفوسهم للواحد القهار ، فتح الله عين بصيرتهم وأطلعهم على مكنون سره ، فأفردوا الحق بالوجود . وانتفى عن بصيرتهم نظرهم كل موجود ، إذ محال أن يفارق الصفة موصوفها أو تقوم بنفسها ، فلزم من وجود الصفات وجود الذات ، وهذا هو سر الخصوصية التى خص الله بها أولياءه ولم يشاركهم فيه غيرهم .

الفرق بين أهل الجذب والسلوك

ثم بين أهل الجذب من أهل السلوك . وأهل التدلى من أهل الترقى فقال :

[فأهل الجذب يكشف لهم عن كمال ذاته ، ثم يردهم إلى شهود صفاته ، ثم يردهم إلى التعلق بأسمائه ، ثم يردهم إلى شهود آثاره . والسالكون على عكس هذا ، فنهاية السالكين بداية المجذوبين ، لكن لابمعنى واحد ؛ فربما التقيا فى الطريق ، هذا فى ترقيه وهذا فى تدليه] .

قلت : عباد الله المخصوصون بسر الخصوصية هم فى سيرهم على قسمين :

منهم من يبدأ بالجذب ثم يرد إلى السلوك . ومنهم من يبدأ بالسلوك ثم يدركه الجذب ثم يصحو ، فأرباب الجذب يكشف لهم أولا من غير مجاهدة عن شهود الذات ، فيسكر بشهود نورها ، فينكر الواسطة أصلا ، وينكر الشرائع إلا أنه مغلوب ، ثم يردّ من شهود الذات إلى شهود الصفات ، فلا يرى إلاصفات الحق تكثفت وظهرت وينكر الأثر ، ثم إذا شهد الصفات تعلق بالأسماء اللازمة لها ، ثم يرجع إلى شهود آثاره فيقوم بأحكام عبوديته .

والسالكون على عكس هذا ، فيستدلون بوجود آثاره على وجود أسمائه ، وبوجود أسمائه على وجود صفاته ، وبوجود صفاته على وجود ذاته كما تقدم .

فنهاية السالكين وهى شهود الذات بداية المجذوبين ، ونهاية المجذوبين وهى شهود الأثر بداية السالكين ، ولكن ليس بمعنى واحد ، بل أحدهما نازل يشهد الأشياء بالله والآخر صاعد يشهد الأشياء بنفسه لله ، فربما التقيا فى الطريق : كشهود الصفات والتعلق بالأسماء مثلا ، هذا فى ترقيه ، وهذا فى تدليه ، فإذا وصلا معًا اجتمعا لأن المرتقى يرجع للأثر الذى انتهى إليه المجذوب بعد شهود الذات ويكون رجوعه بالله ، فيجتمعان معًا فى مقام البقاء ، والمترقى أكمل من المتدلى فى التربية ، لأنه قاسى شدائد الطريق وأهوالها بخلاف المجذوب فإنه كان محمولا وهو نادر ، إذ الغالب على الناس السلوك ثم الجذب ، والطريق الشاذلية الغالب عليها الجمع بين الجذب والسلوك من أول قدم ، ومعنى الجذب هو اختطاف الروح من شهود الكون إلى شهود المكون .

واعلم أن الناس فى الجملة على أربعة أقسام : سالكون فقط ، مجذوبون فقط ، سالكون ثم مجذبون ، ومجذوبون ثم سالكون . فالأولان لا يصلحان للتربية والإرشاد . أما السالك فقط ، فلأنه ظاهرى محض فلا نور له فى باطنه يجذب به . وأما المجذوب فقط فلا سلوك عنده يسير به ، والآخران يصلحان للتربية مع أفضلية الأول .

واعلم أيضًا أن حقيقة السلوك الأول هو شهود خلق بلا حق ، وحقيقة الجذب هو شهود حق بلا خلق . وحقيقة السلوك الثانى : هو شهود خلق بحق ، والله تعالى أعلم .

ثم مايدركه الواصل من أنوار الشهود والعيان ليست هى حسية يدركها كل إنسان ، وإنما هى معان قلبية وأسرار باطنية ملكوتية . كما أبان ذلك بقوله :

[لايعلم قدر أنوار القلوب والأسرار إلا فى غيب الملكوت ، كما لا تظهر أنوار السماء إلا فى شهادة الملك] .

قلت : اعلم أن الناس كلهم عندهم النور فى قلوبهم ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ » .

أى على أصل النشأة الأولية ، وهى القبضة النورانية . وقال تعالى :
(اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ) .

قال أهل تفسير الظاهر : أى نور أهل السموات والأرض ، وهو عام فى كل موجود فيهما ، فقد تحقق أن النور سار فى الجميع ، فمن الناس من حجب عن هذا النور وعمى عنه ، وهو من وقف مع ظاهر الملك ، وهو قشر الكون وحسه الظاهر ، ويسمى عالم الأشباح ولم ينفذ إلى باطنه وهو الملكوت ، ويسمى عالم الأرواح ، فهذا محجوب عن نوره الباطنى لايرى إلا النور الحسى ، لأنه مسجون فى سجن الأكوان ، محصور فى ظلمة الحس والوهم . ومن الناس من نفذت بصيرته إلى شهود النور الباطنى فيه ، ولم يقف مع القشر ، بل نفذ إلى شهود اللب وهو نور الملكوت وأسرار الجبروت ، وهو الذى أشار إليه فى المباحث بقوله :

مَهْمَا تَعَدَّيْتَ عَنِ الْأَجْسَامِ　　　أَبْصَرْتَ نُورَ الْحَقِّ ذَا ابتسام

وهذا النور أيضًا هو الذى تراه قلوب العارفين دون الغافلين كما أشار إليه الحلاج بقوله :

قُلُوبُ الْعَارِفِينَ لَهَا عُيُونٌ　　　تَـرَى مَالاَ يُـرى لِلنَّاظِـرِين

فإذا تحققت هذا علمت أنه لايعلم بالبناء للمفعول : أى لايظهر قدر أنوار القلوب الغيبية وشرفها ، وأنوار الأسرار القدسية وكمالها إلا فى غيب الملكوت والجبروت ، فأنوار القلوب لايعلم قدرها إلا فى غيب الملكوت ، وهى الأنوار

المتدفقة من بحار الجبروت ؛ فمن لم ينفذ إلى شهود الملكوت لم يعلم قدرها ، بل لم يعرفها أصلا ، وأنوار الأسرار لايعلم قدرها إلا فى غيب الجبروت ، وهى الأنوار الأصلية الأزلية ، وهو ما لم يدخل عالم التكوين ، فمن كان محجوبًا فى عالم الملك لايعلم قدر أنوار الملكوت ولايحس بها ، بل ينكرها كما شهدناه ممن يدعى الخصوصية وهو بعيد منها ، ومن كان واقفًا مع أنوار الملكوت لايعلم قدر أنوار الجبروت ، ومن نفذ منهما شهد الجميع ، وكما لاتظهر الأنوار الغيبية إلا فى غيب الملكوت أو الجبروت ، كذلك لاتظهر أنوار الملك وهى الأنوار الحسية إلا فى عالم الشهادة وهو عالم الحس ، ويسمى عالم الملك .

والحاصل : أن أنوار القلوب هى أنوار الملكوت ، وأنوار الأسرار هى أنوار الجبروت وهى غيبية لايعلم قدرها من ترقى إلى عالم الملكوت أو الجبروت ، فحينئذ يدركها ويعلم قدرها علمًا وحالا ، والله تعالى أعلم .

تنبيه : قد رأيت كثيرًا ممن شرح هذا الكتاب غلط فى تفسير الملك والملكوت والجبروت ، فزعموا أن الملك هو عالم الدنيا ، والملكوت هو عالم الآخرة ، والجبروت مالايعلمه أحد وهذا غلط ، إذ لو كان كما زعموا ماصح الترقى من ملك إلى ملكوت وإلى جبروت ، إذ يلزم على تفسيرهم أن الملك لايرجع ملكوتًا والملكوت لايصير جبروتًا وهو غير سديد ، إذ قد نص كثير من المحققين أن أهل الملكوت لايرون الملك أصلا ، وأهل الجبروت يحجبون عن الملكوت ، هكذا ذكره النقشبندى فى شرح الهائية .

والصواب : أن المحل واحد وهو الوجود الأصلى والفرعى . فما لم يدخل عالم التكوين من عظمة البارى تعالى فهو عالم الجبروت . ومادخل التكوين فمن ألحقه بأصله وجمع فيه فهو فى حقه ملكوت ، ومن فرقه وحجب به فهو فى حقه ملك ، فتحصل أن المحل واحد والأمر إنما هو اعتبارى تختلف التسمية باختلاف النظرة وتختلف النظرة باختلاف الترقى فى المعرفة ، فمن وقف مع الكون كان فى حقه ملكا . ومن نفذ إلى شهود النور الفائض من الجبروت إلا أنه رآه كثيفًا نورانيًا ولم يضمه إلى أصله فى اللطافة سمى فى حقه ملكوتًا ، ومن ضمه إلى أصله ولم يفرق بين النور الكثيف سمى جبروتًا . وقد حققت ذلك فى قصيدتى

التائية وتقدم بعضها ، وكذلك فى شرح التصلية المشيشية ، والله تعالى أعلم .

ولابد لمن أراد أن تكشف له هذه الأنوار ويدرك هذه المقامات ، من وجود أعمال ومقاساة أحوال ، فإذا عمل عملا وذاق حلاوته ، فليستبشر بالفتح الذى هو جزاء السائرين ، وهو الذى أشار إليه بقوله :

[وجدان ثمرات الطاعة عاجلا ، وبشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلا] .

قلت : من وجد فى بدايته حلاوة مجاهدته فليستبشر بوجود مشاهدته ، ومن لم يجدها فلا ييأس من روح الله ، فإن لله نفحات تهب على القلوب ، فتصبح عند علام الغيوب .

أو تقول : من وجد ثمرة عمله فى الدنيا فليستبشر بوجود الجزاء آجلا فى الآخرة ، وقد تقدم هذا للشيخ مرارًا ، وهذا الجزاء الذى يستبشر به لاينبغى قصده ولاطلبه ، لئلا يكون ذلك قدحًا فى الإخلاص ؛ كما أبان ذلك بقوله :

[كيف تطلب العوض على عمل وهو متصدق به عليك ؟ أم كيف تطلب الجزاء على صدق هو مهديه إليك ؟] .

قلت : العبد إنما هو آلة مسخرة ، فإذا سخره ربه تحرك وإلا فلا . وإذا كان كذلك فلا نسبة لك فى العمل إلا ظهوره عليك حكمة ، فكيف تطلب العوض على عمل هو متصدق به عليك ؟ وإذا مَنَّ عليك بصدق العبودية وهو سر الإخلاص فكيف تطلب الجزاء على صدق هو مهديه إليك ؟ وعبر فى جهة العمل بالصدقة التى تكون للمحتاجين وفى جهة الصدق بالهدية التى تكون للمحبوبين ، لأن العمل الناس مشتركون فيه ، إذ جل الناس فى العمل والإخلاص قليل ، وأهله أقل من القليل وهم الخواص ، أو خواص الخواص .

قال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه فى قوله عليه الصلاة والسلام : « إنما أَنَا نِعْمَةٌ مُهْدَاةٌ » :

الأنبياء لأممهم عطية ونبينا لنا هدية ، والعطية للمحتاجين ، والهدية للمحبوبين . وقال الواسطى رضى الله عنه : مطالبة الأعواض على الطاعة من نسيان الفضل . وقال أبو العباس بن عطاء : أقرب الأشياء إلى مقت الله رؤية

النفس وأفعالها ، وأشد من ذلك مطالبة الأعواض على أفعالها اهـ .

وأعظم الأعمال التى توجد ثمرتها عاجلا وآجلا هو ذكر الله ، وثمرته هو النور الذى يشرق فى القلب فيضمحل به كل باطل .

والناس فى هذا النور على قسمين : قسم سكن النور قلوبهم فهم ذاكرون على الدوام ، وقسم يطلبون وجوده بأذكارهم ، وإلى هذا أشار بقوله :

النور ثمرة الذكر

[قوم تسبق أنوارهم أذكارهم وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم] .

قلت : أما القوم الذين تسبق أنوارهم أذكارهم فهم الواصلون .

وأما الذين تسبق أذكارهم أنوارهم فهم السائرون الأولون ، لهم أنوار المواجهة لاتفارقهم ، فهم ذاكرون على الدوام . فإذا أرادوا أن يذكروا باللسان سبقت إلى قلوبهم الأنوار ، فكانت هى الحاملة لهم على وجود الأذكار .

وأما الآخرون فلهم أنوار التوجه ، وهم طالبون لها محتاجون إليها ، فهم يجاهدون أنفسهم فى طلب تلك الأنوار .

ثم بين حال الفريقين فقال :

[ذاكرٌ ذكَر ليستنير قلبه ، وذاكر استنار قلبه فكان ذاكرًا] .

قلت : فالذى ذكر ليستنير قلبه هو الذى يسبق ذكره نوره ، فهو من القوم الذين تسبق أذكارهم أنوارهم ، والذى استنار قلبه فكان ذاكرًا هو الذى يسبق نوره ذكره ، فهو من القوم الذين تسبق أنوارهم أذكارهم وهم العارفون بالله ، لاتجدهم إلا فى حضرة الله بين ذكر أو فكرة أو نظرة أو إرشاد إلى الحضرة فقلوبهم ممتلئة بالأنوار ، وأرواحهم دائما فى حضرة الأسرار .

ثم إن وجود الذكر فى الظاهر عنوان وجود الشهود فى الباطن ، إذ لولا وارد ما كان ورد وهو الذى أبانه بقوله :

[ماكان ظاهر ذكر إلا عن باطن شهود أو فكر] .

قلت : إذا كان الظاهر مشتغلا بذكر الله فهو علامة وجود محبة الله فى

الباطن ؛ إذ من أحب شيئًا أكثر من ذكره ، ولاتكون المحبة إلا عن ذوق ومعرفة ، فلا يكون ظاهر ذكر إلا عن باطن شهود ، أى شهود كان وإن كان لايشعر بشهوده ، فما ذكرت الروح حتى فنيت ، ولا فنيت حتى شهدت ، فكل من فنى فى ذكر الله فإن روحه شهدت جمال الحضرة ، أو تفكرت فى جمال المذكور وبهائه ، أو فى حسن ثوابه وجزائه .

فتحصل أن وجود الذكر فى الظاهر ناشئ إما عن شهود فى الباطن وهو حال المريدين أو العارفين ، أو ناشئ عن فكرة وهو حال الطالبين للجزاء . فإن الناس فى الذكر على ثلاثة أقسام : قسم يطلبون الأجور ، وقسم يطلبون الحضور ، وقسم وصلوا ورفعوا الستور .

ثم بين وجه كون ذكر الظاهر ناشئًا عن شهود الباطن فقال :

[أشهدك من قبل أن استشهدك فنطقت بألوهيته الظواهر ، وتحققت بأحديته القلوب والسرائر]

قلت : الروح فى أصل ظهورها فى غاية الطهارة والصفاء ، فحين أبرزها الله تعالى فى عالم الذر كانت عالمة درّاكة ، فأشهدها الله تعالى عظمته وجلاله وبهاءه وكمال وحدانيته فقال لها حينئذ : (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)[1] .

فكلها أقرت بالربوبية ، فلما ركبها فى هذا القالب ، فمنها من أقرت بذلك العهد ، ومنها من جهلت وأنكرت ، فقد أشهدك الحق تعالى حين كنت فى عالم الأرواح ربوبيته ووحدانيته فعلمتها وحققتها ، من قبل أن يستشهدك : أى يطلب منك تلك الشهادة فحين طلبها منك وجد روحك عالمة ، فنطقت بإلهيته التى عرفتها فى عالم الذر ألسنة الظواهر . وتحققت بأحديته التى شهدتها قبل التركيب القلوبُ والسرائر ، فكل ماظهر من الإقرار بالربوبية فى عالم الشهادة فهو فرع الإشهاد المتقدم فى عالم الغيب ، وكل ماظهر من التحقق بالأحدية للقلوب فهو فرع العلم السابق فى علم الغيوب ، فالواجب على العبد أن يكون جامعًا بين إقرار الظاهر وتوحيد الباطن ، فالأول فرق ، والثانى جمع ، وإلى هذا المعنى أشار الجنيد رضى الله عنه بقوله :

---

(١) الأعراف : ١٧٢ .

قَــدْ تَحَقَّقْتَ بِسِـرِّى حِـينَ نَاجَـاكَ لِسَـانِى
فَــاجْتَمَعْنَــا لِمَعَــانٍ وَافْتَــرَقْنَــا لِمَعَــانِ
إنْ يَكُنْ غَيَّبَكَ التَّعْــظِيمُ عَنْ لَحْظِ عَيَانِى
فَلَقَدْ صَيَّرَكَ الْوَجْــدُ مِنَ الْأَحْشَاءِ دَانِى

ثم بين كرامات الذكر المتقدم فقال :

[أكرمك كرامات ثلاثًا : جعلك ذاكرًا له ولولا فضله لم تكن أهلا لجريان ذكره عليك . وجعلك مذكورًا به إذ حقق نسبته لديك وجعلك مذكورًا عنده فتمم نعمته عليك] .

قلت : لقد أكرمك الحق تعالى أيها الإنسان كرامات كثيرة ، وأنعم عليك نعمًا غزيرة قال تعالى : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا)[1] .

وأجل الكرامات وأعظمها كرامات الذكر .

وفى الحديث : « مَا مِنْ يَوْمٍ إِلَّا وَلِلهِ فِيهِ نِعَمٌ يُنْعِمُ اللهُ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ ، وَمَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ يُلْهِمَهُ ذِكْرَهُ » . أو كما قال عليه الصلاة والسلام . ذكره المنذرى .

ومرجع هذه الكرامات إلى ثلاثة أمور :

الكرامة الأولى : جعلك ذاكراً له ، ومن أين لعبد ذليل أن يذكر سيداً جليلا ، ولولا فضله عليك لم تكن أهلا لجريان ذكره على لسانك .

الكرامة الثانية : جعلك مذكوراً به حيث ذكرك بنفسه حين ذكرته . قال تعالى : (فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ)[2] .

وإذا كنت مذكوراً بسبب ذكره لك فقد ثبتت خصوصيتك عنده ، فأى كرامة أعظم من هذه ؟ فقد حقق نسبته لديك حيث أثبت لك الخصوصية . وقال لك ،

---

(١) إبراهيم : ٣٤ .　　(٢) البقرة : ١٥٢ .

يا وليي ويا صفيي ، فمن أين أنت وهذه النسبة ، لولا أن الله تفضل عليك .

قال بعضهم فى تفسير قوله تعالى :

(وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ)[1] .

أى ولذكر الله لعبده أكبر من ذكر العبد لله .

الكرامة الثالثة : حيث جعلك مذكوراً عنده فى الملائكة المقربين . ففى حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِى ، فَإِنْ ذَكَرَنِى فى نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِى نَفْسِى ، وَإِنْ ذَكَرَنِى فى مَلَإٍ ذَكَرْتُه فى مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْ مَلَئِهِ ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّى شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّى ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَانِى يَمْشِى أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً » ا هـ .

وفى حديث آخر : « مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ إِلَّا غَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَنَزلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللهَ فِيمَنْ عِنْدَهُ » .

وكان يحيى بن معاذ رضى الله عنه يقول : يا غفول يا جهول ، لو سمعت صرير القلم حين يجرى فى اللوح المحفوظ بذكرك لَمُتَّ طرباً ا هـ .

مقياس العمر

فإذا عمرت أوقاتك بذكر الله فعمرك طويل ، وإن قلّت أيامه كما أبان ذلك بقوله :

[ربّ عمر اتسعت آماده وقلّت أمداده ، ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده] .

قلت : رُبَّ هنا للتكثير فى الموضعين ، فكثير من الأعمار اتسعت آماده ، جمع

---

(١) العنكبوت : ٤٥ .

أمد : وهو الزمان : أى كثير من الناس طالت أعمارهم ، واتسعت أزمنتهم ، وقلت أمدادهم : أى فوائدهم ، فلم يحصلوا على شىء حيث اشتغلوا بالبطالة والتقصير ، حتى مضت تلك الأيام ؛ كطيف المنام ، وأضغاث أحلام ، وكثير من الأعمار قلت آمادهم : أى أزمنتهم ، وكثرت أمدادهم : أى فوائدهم ، فأدركوا من فوائد العلم والأعمال والمعارف والأسرار فى زمن قليل ، مالم يدركه غيرهم فى الزمن الكثير . ومثال ذلك أهل الجذب مع السلوك وأهل السلوك وحده ، فإن أهل الجذب الموافقين للسالكين فى الأعمال يطوون فى ساعة واحدة من مسافة القرب مالم يدركه أهل السلوك فى سنين ، وذلك أهل الفكرة مع أهل الخدمة :

« فِكْرَةُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِينَ سَنَةً » .

وفى ذلك قال الشاعر :

كُلُّ وَقْتٍ مِنْ حَبِيبِى   قَدْرُهُ كَأَلْفِ حَجَّهْ

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : أوقاتنا كلها ليلة القدر ، أى كل وقت عندنا أفضل من ألف شهر عند غيرنا . قال القاضى أبو بكر بن العربى المعافرى تلميذ الغزالى : لمت الشيخ أبا حامد على انقطاعه واعتزاله عن الخلق ، وقطع انتفاعهم بما وهبه الله من العلم الظاهر والباطن ، فقال متمثلا :

قَدْ تَيَمَّمْتُ بِالصَّعِيدِ زَمَانًا   وَأَنَا الآنَ ظَافِر بِالمَاء

مَنْ سَرَى مُطْبِقَ الْجُفُونِ وَأَضْحىٰ   فَاتِحاً لَا يَرُدُّهَا لِلْعَمَاء

أى من كان يمشى مسدود العينين ، وأضحى : أى صار فاتحاً لعينيه لا يرجع للعماء ، قلت : يا سيدى الاشتغال بالعلم نفع عام وهو من أفضل العبادات ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :

« لَأَنْ يَهْدِىَ الله بك رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ » .

فقال : لما طلع قمر السعادة فى أفق الإرادة ، وأشرقت شمس الوصول فى أرض الأصول :

تَرَكْتُ هَوَى سُعْدَى وَلَيْلَى بِمَعْزِلٍ وَصِرْتُ إِلَى عَلْيَاءِ أَوَّلِ مَنْزِلِ
فَنَادَتْنِي الْأَكْوَانُ مِنْ كلِّ جَانِبٍ أَلَا أَيُّهَا السَّاعِي رُوَيْدَكَ فَامْهِلِ
غَزَلْتُ لَهُمْ غَزْلًا رَقِيقًا فَلَمْ أَجِدْ لِغَزْلِيَ نَسَّاجاً فَكَسَّرْتُ مِغْزَلِي

فانظر من أطلعه الله على بركة عمره ، وأراه ثمرة وقته ، كيف اختار الآكد فالآكد والأولى فالأولى ، ليدرك ما تلمحه من الفوائد ، ويحظى بالخصائص والزوائد ا هـ .

قال الشطيبى رحمه الله : قال أحمد بن أبى الحوارى لأبى سليمان الدارانى رضى الله عنهما : قد غبطت بنى إسرائيل ، قال بأى شىء ؟ قلت : بثمانمائة عام حتى يصير كالشنان البالية وكالحنايا والأوتار ، فقال : ما ظننت إلا وقد جئت بشىء ، والله ما يريد الله منا أن تيبس جلودنا على عظامنا ، وما يريد منا إلا صدق النية فيما عنده . هذا إذا صدق فى عشرة أيام نال ما ناله الآخر فى أعماره الطويلة ا هـ .

وقال فى القوت : فإن البركة فى العمر أن تدرك فى عمرك القصير بيقظتك ما فات غيرك فى عمره الطويل بغفلته ، فيرتفع لك فى السنة ما يرتفع له فى عشرين سنة . وللخصوص من المقربين فى مقامات القرب عند التجلى بصفات الرب إلحاق برفع الدرجات ، وتدارك لما فات ، عند أذكارهم وأعمال قلوبهم اليسيرة فى هذه الأوقات ، فكل ذرة من ذكر : تسبيح أو تهليل ، أو حمد أو تدبر وتبصرة ، أو تفكر وتذكرة ، لمشاهدة قرب ، ووجد برب ، ونظرة إلى حبيب ودنوّ من قريب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الغافلين ، الذين هم لنفوسهم واجدون ، وللخلق مشاهدون .

ومثال العارفين فيما ذكرناه من فنائهم بشهادتهم ورعايتهم لأمانتهم وعهدهم فى وقت قربهم وحضورهم ، مثل العامل فى ليلة القدر ، العمل فيها لمن وافقها خير من ألف شهر . وقد قال بعض العلماء . كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر

ا هـ منه . فالبركة فى العمر هى إدراك الأمداد العظيمة فى الآماد القليلة ، كما تقدم ، وكما بينه بقوله :

[من بورك له فى عمره أدرك فى يسير من الزمان من منن الله تعالى مالا يدخل تحت دوائر العبارة ، ولا تلحقه الإشارة] .

قلت : ليست البركة فى العمر بكثرة أيامه وطول أزمانه ، وإنما البركة فى العمر أن تصحبه العناية ، وتهب عليه ريح الهداية ، فيدرك فى يسير من الزمان من منن الله تعالى ، أى من علومه ومعارفه وأسراره مالا يدخل تحت دوائر العبارة ، لأن ما أدركه أوسع من ضيق العبارة ، إذ قال تعالى :

« أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ ، مَالاَ عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » .

فقد يدرك العارف من دقائق الأسرار ما تعجز عنه عبارة اللسان ، كل ذلك فى أقل زمان ، وغالب هذا يحصل من ملاقاة الرجال وصحبتهم ، فإن المدد الذى يحصل للإنسان فى ساعة واحدة معهم لا يحصل فى أزمنة طويلة مع غيرهم ، ولو كثرت صلاتهم وصيامهم ، إذ ليس العبرة بكثرة الأوراد ، إنما العبرة بكثرة الأمداد :

« إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلاَ إِلَى أَمْوَالِكُمْ ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » ذكره فى الجامع .

والذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح ، والعمل مع المعرفة ليس كالعمل مع الجهل ، وذلك معلوم .

قال الشيخ الحضرمى فى بعض وصاياه : من كان يستمد من محبرة الجمع فهو يكتب ما يكون ومالا يكون « طويل طويل طويل ، قصير قصير قصير ، شىء شىء شىء ، ماشىء ماشىء ماشىء ، عدم عدم عدم ، وجود وجود وجود ا هـ » .

فالمعنى : طويل طويل ، والحس : قصير قصير ، والموجود القديم شىء ثابت

وما سواه ليس بشيء ، والسوى عدم والواحد القهار وجود ! فالذى يكتب من محبرة الجمع ، أى يستمد من حضرة الجمع يكتب الأشياء كلها ، ويستمد من الأشياء كلها لمعرفته فى الأشياء كلها ، كانت قصيرة أو طويلة ، وجودية أو عدمية ، وبالله التوفيق .

وسبب البركة فى العمر هو التفرغ من الشواغل والشواغب ؛ فمن كثرت شواغله وشواغبه لا بركة له فى عمره ، لأنه منع من تصريفه فى طاعة مولاه بمتابعة شهواته وتحصيل مناه ، ومن تفرغ من الشواغل ولم يقبل على مولاه فهو مخذول مصروف عن طريق استقامته وهداه ، كما أبان ذلك بقوله :

[الخذلان كل الخذلان أن تتفرغ من الشواغل ثم لا تَتوجه إليه ، وتقل عوائقك ثم لا ترحل إليه] .

قلت : إذا قلّت شواغلك فى الظاهر وعوائقك فى الباطن ثم لم تَتوجه إليه فى ظاهرك ، ولم ترحل إليه فى باطنك ، فهو علامة غاية الخذلان الكبير ، لأن جلّ الناس ما حبسهم عن التوجه إلى الله إلا كثرة أشغالهم الحسية ، فاشتغلت جوارحهم بخدمة الدنيا فى الليالى والأيام ، والشهور والأعوام ، حتى انقرض العمر كله فى البطالة والتقصير ، فهذا هو الخذلان الكبير . ومن الناس من قلت شواغلهم الظاهرة لوجود من قام لهم بها ، لكن كثرت علائقهم فى الباطن لكثرة ما تعلق لهم من الشواغل ، فهم مغرقون فى التدبير والاختيار ، والاهتمام بأمور من تعلق بهم من الأنام لاسيما من كان له جاه ورياسة وخطة أو سياسة ، فهذا باعتبار العادة بعيد من الإقبال على مولاه إلا إن سبقت له سابقة عناية فتجره إلى رحمة ربه ورضاه .

والحاصل : أن الخير كله فى التخفيف من الشواغل والعلائق ، فمن تفرغ منها فهو قريب من الحضرة . وأما من كثرت شواغله وعوائقه فأمره بعيد ، لأن فكرته مشغولة بالعلائق والمخاطف ، فمهما هم بالسير جذبته المخاطف إليها ، ويبقى مرهوناً معها ، وهو الذى أشار إليه بقوله :

[الفكرة سير القلب فى ميادين الأغيار] .

فمن لا تفرغ له لا فكرة له ، ومن لا فكرة له لا سير له ، ومن لا سير له لا وصول له ، فالفكرة هى سير القلب إلى حضرة الرب ، وذلك السير فى ميادين

الأغيار ، أى فى مجال شهود الأغيار ، ليستدل بها على وجود الأنوار ، فهذه فكرة أهل الحجاب ، وفكرة أهل الشهود سير الروح فى ميادين الأنوار ، أو سير السر فى ميادين الأسرار ، فتكلم الشيخ على بداية الفكرة ولم يتكلم على نهايتها ، ولو تكلم عليهما معاً لكان أحسن ، كما فعل فيما يأتى حيث قال : الفكرة فكرتان إلخ .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : الفكرة انبعاث القوة الإدراكية فى عالم الغيب والشهادة ليدرك حقيقة الأشياء على ما هى عليه ، ومن وجد ذلك فهو عارف ا هـ .

وقيل إنما عبر الشيخ بالأغيار وهى المخلوقات ، لقوله عليه الصلاة والسلام وقد رأى قوماً يتفكرون فقال لهم :

« تَفَكَّرُوا فِى الْخَلْقِ وَلَا تَفَكَّرُوا فِى الْخَالِقِ ، فَإِنَّكم لَا تَقْدُرُونَ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ » ا هـ .

قلت : إنما نهى عليه الصلاة والسلام عن التفكر فى كنه الذات وإدراك الحقيقة . وأما التفكر فى عظمة الذات وقدمها وبقائها ووحدانيتها وتجلياتها فى ظهورها وبطونها فهذا لا ينهى ، لأنه سبب المعرفة مع العجز عن إدراك الكنه .

أهل الحجاب وأهل العرفان

والتحقيق أن أهل الحجاب لا يحل لهم التفكر إلا فى المصنوعات . وأما أهل العرفان فلا يتفكرون إلا فى عظمة الذات ، أى فى عظمة الصانع وتوحيده وقدمه وبقائه وظهوره واحتجابه ، وفى الغيبة عن الحس وشهود المعنى ، أو فى الغيبة عن الكون بشهود المكون أو فى الغيبة عن الظلمة بشهود النور ، وهو سراج القلب الذى أشار إليه بقوله :

[**الفكرة سراج القلب ، فإذا ذهبت فلا إضاءة له**] .

قلت : الفكرة فى عظمة البارى وتوحيده نور ، فإذا كان القلب مشغولا

بالفكرة فى عظمة الحق فهو منوّر بنور الحق ، وإذا خلا من الفكرة فى الحق دخلته الفكرة فى الأغيار وهى ظلمة ، ولا تجتمع الظلمة والنور أبداً ، فالفكرة سراج القلب ، فإذا ذهبت الفكرة فى الحق انطفأ نوره بدخول ظلمة الكون فلا إضاءة له ، ولذلك قال الجنيد رضى الله عنه : أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الله فى ميدان الفكرة على بساط التوحيد ا هـ .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : أربعة من حازهن فهو من الصديقين المقربين ، ومن حاز منهن ثلاثة فهو من أولياء الله المقربين ، ومن حاز منهن اثنين فهو من الشهداء المؤمنين ، ومن حاز منهن واحدة فهو من عباد الله الصالحين .

أولها : الذكر ، وبساطه العمل الصالح ، وثمرته النور .

الثانى : الفكر ، وبساطه الصبر ، وثمرته العلم .

الثالث : الفقر ، وبساطه الشكر ، وثمرته المزيد منه .

الرابع : الحب ، وبساطه بغض الدنيا وأهلها ، وثمرته الوصول إلى المحبوب .

ثم بين فكرة البداية والنهاية فقال :

[الفكرة فكرتان : فكرة تصديق وإيمان ، وفكرة شهود وعيان] .

قلت : فكرة أهل التصديق والإيمان هى سير القلب فى ميادين الأغيار ، فهم يتفكرون فى المصنوعات ، ليتوصلوا إلى معرفة الصانع وقدرته وعلمه وحياته وغير ذلك من سائر صفاته ، وهم الذين قال الله فيهم :

(يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)[1] .

وفكرة أهل الشهود والعيان هى سير الروح فى ميادين الأنوار ؛ قد انقلبت الأغيار فى حقهم أنواراً ، والدلائل مدلالوت ، والغيب شهادة ، وهم الذين أطلعهم الله على سر قوله تعالى :

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ)[2] .

---

(١) البقرة : ٣ . (٢) يونس : ١٠١ .

ثم بين حال الفريقين فقال :

[**فالأولى لأرباب الاعتبار**] .

قلت : الفكرة الأولى وهى فكرة تصديق وإيمان لأصحاب الاعتبار ، وهم أهل الاستدلال يستدلون بالصنعة على الصانع ، وهم السائرون إلى الله بأنوار التوجه .

[**والثانية لأرباب الشهود والاستبصار**] .

قلت : الفكرة الثانية وهى فكرة شهود وعيان ، هى لأرباب الشهود والاستبصار لأنهم ترقوا من شهود الدليل إلى المدلول ، ومن الأثر إلى المؤثر ، ومن الأغيار إلى شهود الأنوار ، ومن الفرق إلى الجمع ؛ ومن الملك إلى الملكوت ، فما يشهدون إلا أنوار الملكوت تدفقت وانصبت من بحار الجبروت ، فهم غرقى فى بحار الأنوار ، مطموس عنهم وجود الآثار ، فإن ردوا إليه رأوه قائماً بالله ومن الله وإلى الله ، فما أعظم قدرهم عند الله ، وفى مثلهم قال القائل :

هُم الرِّجَالُ وَغَبْنٌ أَنْ يُقَالَ لِمَنْ   لَمْ يَتَّصِفْ بِمَعَانِى وَصْفِهِمْ رَجُلُ

حققنا الله بما حققهم به آمين .

هذا آخر الباب الخامس والعشرين ، وبها ختمت الأبواب ، وما بقى إلا المراسلات والمناجاة .

وحاصل المراسلات ثلاثة : كتب وجواب ، فأول الكتب رسالة فى السلوك إلى حضرة ملك الملوك ، بدايتها ونهايتها ونصها .

رسالة فى السلوك

وقال رضى الله عنه مما كتب به لبعض إخوانه :

[**أما بعد ، فإن البدايات مَجْلاة النهايات**] .

قلت : البدايات ما يظهر على المريد فى أول دخوله من مجاهدة ومكابدة وصدق وتصديق ، وهو مظهر ومجلاة للنهايات : أى يتجلى فيها ما يكون فى

النهايات ، فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته ، فمن رأيناه جادًّا فى طلب الحق ، باذلا نفسه وفلسه وروحه وعزه وجاهه ابتغاء الوصول إلى التحقق بالعبودية ، والقيام بوظائف الربوبية ، علمنا إشراق نهايته بالوصول إلى محبوبه . وإذا رأيناه مقصراً فى ذلك علمنا قصوره عما هنالك ، وأنشدوا :

بِقَدْرِ الْكَدِّ تُكْتَسَبُ الْمَعَالِى . وَمَنْ طَلَبَ الْعُلَى سَهرَ اللَّيَالِى
تُرِيدُ الْعِزَّ ثُمَّ تَنَامُ لَيْلاً يَغُوصُ الْبَحْرَ مَنْ طَلَبَ اللَّآلِى

وبالجملة من رأيته صادق العزم فى البداية ، فاعلم أنه من أهل العناية ، ومن كان فى سلوكه معتمداً على الله ، ومفوضاً أمره إلى الله كانت غاية سلوكه الوصول إلى الله ، كما نبه عليه بقوله :

[ومن كانت بالله بدايته كانت إليه نهايته] .

قلت : البداية بالله هى ألا يرى لنفسه حولا ولا قوة ، لا فى عمل ، ولا فى حال ولا فى مجاهدة ، ولا مكابدة ، بل ما يبرز منها من الأعمال أو من الأحوال رآه منّة من الله وهدية إليه ، فإن كان هكذا فقد صحت بالله بدايته وإليه تكون نهايته .

ومما يتأكد النظر إليه فى البداية تصحيح ما يفتقر إليه فى سلوكه من علم الشريعة وعلم الطريقة ، فالعمل بلا علم جناية ، والعلم بلا عمل وسيلة بلا غاية ، وفى ذلك قيل :

إِذَا كُنْتَ ذَا عَمَلٍ وَلَمْ تَكُ عَالِمًا فَأَنْتَ كَذِى رِجْلٍ وَلَيس لَهُ نَعْلُ
وَإِنْ كُنْتَ ذَا عِلْمٍ وَلَمْ تَكُ عَاملاً فَأَنْتَ كَذِى نَعْلٍ وَلَيْسَ لَهُ رِجْلُ
جَوَادُكَ مَسْبُوقٌ إِلَى كلِّ غَايَةٍ وَهَلْ ذو جَوَادٍ رِىءَ يَسْبقُهُ الْبَغْلُ

وقد ذيلتها ببيت تكميلا للأقسام فقلت :

وَإِنْ كُنْتَ ذَا عِلْمٍ وَحَالٍ وَهِمَّةٍ جَوَادُكَ سبّاقٌ يَصِحُّ لَهُ الْوَصْلُ

فإذا حصّل المريد ما يحتاج إليه فى بدايته من إتقان طهارته وصلاته وصومه ، فليشتغل بطاعة ربه ، ويعرض عما يشتغله عنه ، كما أبان ذلك بقوله :

[والمشتغل به هو الذى أحببته وسارعت إليه ، والمشتغل عنه هو المؤثر عليه] .

قلت : ال موصولة فى الموضعين أى الذى تشتغل به فى جميع أوقاتك وتصرف إليه كليتك هو الحبيب الذى تسارع إليه ، وأفضل أشغالك ذكره ، وليكن ذكراً واحدًا وقصدًا واحداً تبلغ مرادك إن شاء الله . والذى تشتغل عنه ، أى تغيب عنه هو المؤثر عليه بفتح الثاء ، أى هو الذى تركته وآثرت حب الله عليه .

والحاصل : أن الذى تشتغل به وتقصده هو الذى أحببته وسارعت إليه ، والذى تغيب عنه هو الذى تركته وآثرت حب الله عليه ، فلا جرم أن الله يبلغك ما تريد : « إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ الْعَبْدَ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ » وأنشدوا :

إِذَا الْعَبْدُ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ ‏ ‏ وَأَعْرَضَ عَنْ كلِّ الشَّوَاغِلِ جَانِبَا
فَقَدْ زالَ عَنْهُ الْعَارُ بِالْعَزْمِ جالِبًا ‏ ‏ عَلَيْهِ قَضَاءَ اللهِ مَا كَانَ جَالِبَا

وقيل إن علامة الصادق ألا يرضى بدون الغاية أبداً ، مع أن الغاية لا تدرك أبداً ، وقال الفضيل : من رأيتموه وكلامه حكمة ، وصمته فكرة ، ونظره عبرة ، فلا تهتموا منه ، فإنه قد قطع عمره فى عبادة ، وسلوكه أبداً فى زيادة . ومن رأيتموه يطيل الأمل ويسىء العمل ، فاعلموا أن داءه عضال ا هـ .

وأعظم ما يشتغل عنه المريد ويغيب عنه حب الدنيا فإنه سم قاطع ، ولا يمكن السير إلى الله إلا بصفاء القلوب مع بقاء شىء منها ، وقليلها ككثيرها .

روى أن بعض المريدين قام ليلا لعبادته فلم يجد قلبه ، فقال : إذا أصبحت شكوت هذه الوسوسة للشيخ ، فوقف الشيطان على الشيخ وقال : إن فلاناً يريد أن يشكونى وأنا ما ظلمته ، إن الدنيا بستانى وأنا أحرسها ، فمن أخذ منى شيئًا لا أتركه حتى يترك ما أخذ ، فلما أصبح جاء الشيخ فقال له الشيخ : جاء إبليس يشتكى منك ، ما الذى أخذت له ؟ فقال يا سيدى خلق ثوبى فطلبت إبرة لأرقعه ، فقال له أخرجها له ، وقل لنفسك الموت أقرب من ذلك ، فطرحها فوجد قلبه ، وأنشدوا :

لَا تَحْقِرنَّ ضَعِيفاً عِنْدَ رُؤْيَتِهِ ۝ إِنَّ البَعُوضَةَ تُدْمِي مُقْلَةَ الأَسَدِ
وَلِلشَّرَارَةِ حقْرٌ حَينَ تَنْظُرُها ۝ وَرُبَّمَا أَضْرَمَتْ نَارًا عَلَى بَلَدِ

ثم هذا الذى تشتغل به وتسارع إليه هو أيضاً يطلبك ويسارع إليك ، وإن تقربت إليه شبراً تقرب إليك ذراعاً ، كما أبان ذلك بقوله :

[**ومن أيقن أن الله يطلبه صدق الطلب إليه**] .

قلت : اليقين هو سكون القلب وطمأنينته بحيث لم يبق فيه اضطراب ولا ريب فى جميع الأمور .

وطلب الله لعبده من وجوه :

منها : أنه يطلبه بالقيام بحقوق العبودية ووظائف الربوبية .

ومنها : أنه يطلبه بالتوجه إليه والفرار مما سواه ، ويطلبه بالعكوف فى حضرته على بساط الأدب والمحبة ، فمن أيقن أن الله يطلبه بهذه الوجوه صدق الطلب إليه ، وصدق الطلب هو إفراد القلب والقالب لجهة المطلوب بحيث لم يبق له التفات لغيره ، فلم يثق إلا به ولا يعتمد إلا عليه ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[**ومن علم أن الأمر كله بيده انجمع بالتوكل عليه**] .

قلت : قال تعالى : (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)[1] وقال : (قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ)[2] .

فمن علم أن الأمور كلها بيد الله أمر الدنيا وأمر الآخرة ، والنفوس والقلوب ، لم يبق له نظر إلى سواه ، وانجمع بكليته عليه . قال تعالى :

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)[3] .

أى كافيه ، ومن كان الله كافيه ماذا يفوته ؟

حكى عن بعض المشايخ أنه دخل برية الحجاز مع أصحابه بغير زاد ، فلما طالت عليهم المدة وأجهدهم الجوع ، انحرف الشيخ عن الطريق وهز شجرة فأسقطت رطبًا جنيًّا فأكلوا منها إلا شابًّا ، فقال له الشيخ لِمَ لم تأكل ؟ قال :

---

(١) هود : ١٢٣ .
(٢) آل عمران : ١٥٤ .
(٣) الطلاق : ٣ .

إنى نويت التوكل على الله ورفضت الأسباب جملة ، فكيف أجعلك عندى بمنزلة السبب حتى تكون النفس متشوقة لما علمت منك ؛ ثم لم يصحبهم تصحيحاً ليقينه وإتماماً لعقده .

ومما يعين على تحقيق اليقين وصدق التوكل ، رفض الدنيا وأهلها ، وإليه أشار بقوله :

[وإنه لابد لبناء هذا الوجود أن تنهدم دعائمه ، وأن تسلب كرائمه] .

قلت : قد حكم الله على هذا الوجود الظاهر أن يصير باطناً فلابد أن تنهدم دعائمه وهى ما يستقل به وجوده فى العادة وهى هنا استعارة عن هدم وجوده وتبديله فى خلق آخر . قال تعالى :

(يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ)[1] وقال تعالى : (كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ)[2] .

على تأويل أهل الظاهر ، ولابد أيضًا أن تسلب كرائمه ، والمراد زوال بهجته وجماله ، وهى زينة الدنيا التى ذكرها الله بقوله :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ)[3] .

فمن تيقن بفناء هذا الوجود وزوال هذا العرض الفانى ، جعل الدنيا محلا للعبور يعبر منها إلى دار البقاء ، فيصبر على شدتها ولأوائها حتى تنقضى عنه أيام الدنيا ، فهذا هو العاقل الذى ذكره بقوله :

[فالعاقل من كان بما هو أبقى أفرح منه بما هو يفنى] .

قلت : لأن من علامات العقل : « التَّجَافِى عَنْ دَارِ الْغُرُورِ ، وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ وَالتَّزَوُّدُ لِسُكْنَى الْقُبُورِ ، وَالتَّأَهُّبُ لِيَوْمِ النُّشُورِ » كما قال عليه الصلاة والسلام .

فالعاقل هو الذى يميز بين الحق والباطل ، والنافع والضار ، والحسن

---

(١) إبراهيم : ٤٨ .

(٢) القصص : ٨٨ .

(٣) آل عمران : ١٤ .

والقبيح ، وكل ما يفني وإن طال فهو قبيح وكل ما يبقى وإن غاب فهو مليح
قال بعضهم : يا عجباً للمطمئن للدنيا والراكن إليها ، والحريص عليها ، وهو يرى سرعة زوالها ، وكثرة تقلبها بأهلها ، ومفاجأة نوائبها ، وأنشدوا :

أَيْنَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاء الْمُلُوكِ وَمَنْ ... كانُوا إِذَا النَّاسُ قَامُوا هَيْبَةً جَلَسُوا
كَأَنَّهُمْ قَطُّ مَا كانُوا وَلَا خُلِقُوا ... وَمَاتَ ذِكْرُهُمْ بَيْنَ الْوَرَى وَنُسُوا
حَطُّوا الْمَلَابِسَ لَمَّا أُلْبِسُوا حُلَلًا ... مِنَ التُّرابِ عَلَى أَجْسَادِهِمْ وَكُسُوا

قال مالك بن دينار : مررت بمقبرة فوجدت بهلول المجنون قاعداً بين القبور وهو عريان إلا ما يستر العورة ؛ فأتيت نحوه لأستفيد من طرائفه ، فوجدته تارة ينظر إلى السماء فيستهلّ ، وتارة ينظر إلى الأرض فيعتبر ، وتارة ينظر عن يمينه فيضحك ، وتارة ينظر عن شماله فيبكى ، فسلمت عليه فرد علىّ السلام ، فسألته عما رأيت من حاله ؟ فقال : يا مالك أرفع رأسى إلى السماء فأذكر قوله تعالى : (وَفِى السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)[1] فأستهل .

وأنظر إلى الأرض فأذكر قوله تعالى :
(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)[2] فأعتبر .

وأنظر عن يمينى فأذكر قوله تعالى :
(وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ما أَصْحَابُ الْيَمِينِ)[3] فأضحك .

وأنظر عن شمالى فأذكر قوله تعالى :
(وَأَصْحَابُ الشِّمالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمالِ)[4] فأبكى .

فقلت : يا بهلول إنك لحكيم ، أتأذن لى أن أشترى لك قميص قطنٍ ؟ قال : افعل ؛ فسارعت للسوق وأتيته بقميص قطن ، فنظر إليه وقلبه يمينا وشمالا ورمى به إلىّ وقال : ليس مثل هذا أريد ؟ قلت : وكيف تريده ؟ قال : أريد

---

(١) الذاريات : ٢٢ .
(٢) طه : ٥٥ .
(٣) الواقعة : ٢٧ .
(٤) الواقعة ٤١ .

قميصاً من الإخلاص محفوظاً من الدنس والانتقاص ، غرس قطنه بالحقائق ، وحرس من جميع البوائق ، سقاه جبريل بماء السلسبيل فأينع حسناً وأثمر قطناً ، فلقطته أيدى الكرام البررة ، التالين سورة الحمد والبقرة ، ثم حلجته أكف الوفاء بعز وصفاء من غير جفاء ؛ ثم نخلته الأوتار المتصلة بالأنوار ، وغزلته مغازل الحمد والثناء بالمحبة والاعتناء ، جعلت الجنة لناسجه ثواباً ، وكان هو للابسه من النار حجاباً ، فهل تقدر يا مالك على مثل هذا ؟ فقلت : إنما يقدر عليه من خصك بوصفه ، وألهمك لمعاينته وكشفه ، ثم قلت : يا بهلول صف لى لابس هذا القميص ، فقال : نعم ، إنما يلبسه من خصه الله بأنواره ، وكتبه فى ديوان أبراره ، وأحياه بالسابقة ، وقواه بالعزيمة الصادقة ، فجسمه بين الخلق يسعى ، وقلبه فى الملكوت يرعى ، فلا يتكلم بغير ذكر الله لفظة ، ولا ينظر لغير الله لحظة ، ثم صاح صيحة عظيمة وقام وهو يقول : إليك فر الهاربون ، ونحوك قصد الطالبون ، وببابك أناخ التائبون ا هـ .

اللهم إنا قد وقفنا ببابك فلا تطردنا، ونحن انتسبنا لجنابك فلا تحرمنا يا أرحم الراحمين .

ثم من فرح بالباقى وأعرض عن الفانى تشرق عليه الأنوار وتلوح له الأسرار ، كما أبان ذلك بقوله :

[قد أشرق نوره ، وظهرت تباشيره] .

قلت : قد أشرق نوره بحلاوة الزهد فى الدنيا والإقبال على المولى ، لأن حب الدنيا ظلمة ، فإذا خرج من القلب دخله النور ، وهو حلاوة الزهد ، وراحة القناعة ، وبرد الرضا ، ونسيم التسليم ، وظهرت تباشيره : أى مبشرات تبشره بالإقبال ، وروح الوصال ، وجنة المعارف والجمال ، وأنشدوا :

إِذَا هَبَّتْ عَلَيْنَا مِنْ حِمَاكُمْ ... نُسَيْماتٌ تُذَكِّرُنَا الْوِصَالاَ
مُبَشِّرَةٌ بِإقْبالٍ وسَعْدٍ ... وَعِزٍّ دائِمٍ دَهْرًا طَويلاَ
مُبَلِّغَةٌ شَذَا تِلْكَ الْمَعَانى ... مُذَكِّرَةٌ رُبَاهَا وَالطُّلُولاَ
فَذٰلِكَ خَيْرُ وَقْتٍ بِالْمُعَنَّى ... وَأَحْسَنُ مَا تَعَاطَى السَّلْسَبِيلاَ

فحين أشرق نوره ، وظهرت تباشيره ، أعرض عن الدنيا بالكلية ، كما أبان ذلك بقوله :

[**فصدف عن هذه الدار مغضبًا ، وأعرض عنها موليًا**] .

قلت : الصدوف هو الإعراض والتولى ، أى فأعرض هذا السائر إلى الله عن الدنيا بحذافيرها مغضبًا بصره ، أى مغمضاً عينى بصيرته عن النظر إلى زهرة هذه الدار وبهجتها ممتثلا فى ذلك قول المولى لرسوله المصطفى :

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ) أى أصنافاً من الكفار : (زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)[1] .

وأعرض عن هذا قلباً وقالباً ظهره عنها ، مقبلا بوجهه إلى المولى .

قال الشطيبى : واعلم أن الإعراض عن الدنيا إنما هو بالقلب ، ومتى كان القلب معلقاً بها لم ينفع زوالها من اليد ولا قطع أسبابها ، بل المطلوب زوالها من القلب سواء كانت فى اليد أو لم تكن . قال تعالى لمن أعطاه ملك الأرض بحذافيرها سليمان عليه السلام :

(هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)[2] وقال فيه أيضاً : (نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب)[3] .

وقال تعالى لمن نزعها منه بحذافيرها سيدنا أيوب عليه السلام :

(وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ)[4] ثم قال : (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)[5] .

لكن من علامة حب الآخرة ترك الدنيا . وعلامة تركها ألا يفرح بالموجود منها ، ولا يتأسف على ما فاته منها ، ولا يمكن ذلك إلا بترك الانتصار للنفس ومخالفتها ، وأنشدوا :

---

(١) طه : ١٣١ .
(٢) ص : ٣٩ .
(٣) ص : ٣٠ .
(٤) ص : ٤٣ .
(٥) ص : ٤٤ .

يَا نَفْسُ فِي التَّقْرِيبِ كُلُّ مَذَلَّةٍ   فَتَجَرَّعِي ذُلَّ الْهَوَى بِهَوَانِ
وَإِذَا حَلَلْتِ بِدَارِ قَوْمٍ دَارِهِمْ   فَلَهُمْ عَلَيْكِ تَعَزُّزُ الْأَوْطَانِ

وسئل الشيخ أبو محمد عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه عن الدنيا فقال : أخرجها من قلبك واجعلها فى يدك ، فإنها لا تضرك .

وقال الحضرمى رضى الله عنه : ليس الرجل الذى يعرف كيفية تفريق الدنيا فيفرقها ، إنما الرجل الذى يعرف كيفية إمساكها فيمسكها . قال الشيخ زروق رضى الله عنه : لأنها كالحية ، وليس الشأن فى قتل الحية إنما الشأن فى إمساكها حية ا هـ .

وقد يقصد بترك الدنيا ما هو أعظم من الدنيا كحب الجاه والرياسة وغير ذلك من الحظوظ ، ولذلك قيل : من أراد أن يكون منه شىء فلا يأتى منه شىء ، لأنه عبد لإرادته وعامل لحظ نفسه ، فإذا انقطعت عنه الحظوظ النفسية والشهوات الدنيوية ، صح قصده إلى الله ؛ وانفرد قلبه بالتوجه لمولاه .

قلت : ولأبى الأنوار التطوانى قصيدة فى هذا المعنى قال فى بعضها :

وَمَنْ كَانَ قَصْدُهُ فِى نَيْلِ مَا   يُـرِيدُ فَـمَا قَامَ بِـالْحُجَّةِ
واصِلْ طَرِيقَنَا وَارْفُضِ الْعِلَلْ   مَعَ الصَّبْرِ وَارْفَـعْ لِلْهِمَّةِ
وَحَسْبُ الْمُحِبِّ مُشَاهَدَةٌ   يَقِيناً لما يَبْدُو مِنْ حَضْرَةِ
وَفَهْمُكَ عَنْهُ جَدِيرٌ بِـأَنْ   يُعَـوِّضَكَ الْمَنْـعَ بِـالْمِنْحَـةِ

وأبو الأنوار هذا تلميذ أبى المحاسن سيدى يوسف الفاسى ، وقبره بتطوان بالمصلى القديمة لناحية القصبة ، نفعنا الله بذكره .

ثم إن من أعرض عن الدنيا لا وطن له فيها ، وإنما وطنه عند مولاه ، كما بين ذلك بقوله :

[فلم يتخذها وطناً ، ولا جعلها سكناً] .

قلت : لأن من توطن الشىء فقد قام فيه ، والسائر لا مقام له إلا عند مولاه .

وكان سيدنا عيسى عليه السلام يقول فى شأن الدنيا : اعبروها ، ولا تعمروها .

وقال عليه الصلاة والسلام : « مَالِي وَلِلدُّنْيَا ، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَاكِب سَافَرَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ عَنْهَا وَتَرَكَهَا » .

فليست الدنيا دار إقامة ولا سكناً ، وإنما هى قنطرة من هنا إلى هنا . فالعارف لا يكون مع غير الله قراره ، لأن همته كلها عند الله ، كما قال :

[**بل أنهض الهمة فيها إلى الله ، وصار فيها مستعيناً به فى القدوم عليه**].

قلت : النهوض هو القيام ، كأن السائر إلى الله أنهض همته وأقامها من هذا العالم ، يريد بها دخول عالم الملكوت . وإنهاض الهمة يكون بامتثال أمره ، والاستسلام لقهره ، والاستعانة به على سفره ، وهو معنى قوله : وسار فيها مستعيناً به فى القدوم عليه ، والقدوم على الله هو الوصول إلى معرفته وتحقيق العلم به ، ولا يصح ذلك إلا بالتبرى من الحول والقوة . ومن ظن أن اجتهاده يوصله لمرغوبه فقد جهل ، ومن صح اعتماده على الله وصل .

ثم بين السر فقال :

[**فما زالت مطية عزمه لا يقر قرارها**] .

قلت : المطية فى اللغة : هى المركوب ، واستعيرت هنا للعزم القوى : أى فما زال عزمه قويًّا ، وروحه شائقة ، لا يقر قرارها ، أى لا يسكن قرارها فى موطن دون سيدها لأن الشوق أقلقها ، وخوف فوات اللحوق أزعجها ، فهى فى السير على الدوام ، كما قال :

[**دائماً تسيارها**] .

قلت : إنما دام سيرها لقلة عوائقها ، لأنها لما أعرضت عن الدنيا مولية عنها قلت عوائقها ، لأن الدنيا شبكة العوائق ، وأصل العلائق ، وكل من قطع عروقها من قلبه ذهبت عنه العلائق ، كالشيطان الذى هو أبوها ، فلما طلق له بنته تركه ، وكالنفس ، لأن قوامها الدنيا ، فلما ذهبت ماتت ، وكالناس ، لأن الدنيا جيفة والناس كلابها ، فلما تركت لهم جيفتهم سلمت منهم ، فدام سيرها إلى أن وصلت إلى أصل وطنها وهى الحضرة كما بينه بقوله :

[**إلى أن أناخت بحضرة القدس وبساط الأنس**] .

قلت : الإناخة : هى النزول وحط الحمول . ولما وصلت الروح إلى مشاهدة الأحباب ، وفتح لها الباب ، أزالت ما كان عليها من الأثقال ، وجلست على بساط النزاهة والكمال ، وهى حضرة القدس : أى التنزيه التى هى دائرة الولاية ، المقتضية للعبد تحققه بتقديس مولاه عن كل وصف لا يليق بذاته ، حتى عرف أنه أجل من أن يعرف ، وأعظم من أن يوصف ، فيقول : « لَا أُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ » .

فيغرق فى التعظيم ، ويتمكن فى التقديس ، فينعكس تقديسه عليه بحيث يحفظه مولاه ، فلا يعصيه بل يكون مقدساً بتقديس الحق إياه ، إذ قدس مولاه فقدسه مولاه كل على ما يليق بوصفه ومن هذا التقديس ينسى كل شىء بمولاه ، فيأنس به دون ما سواه ، فى عين إجلاله والهيبة منه تعظيماً لا فرقاً أو تذللا فى عين الإذلال ، فافهم قالة الشيخ زروق رضى الله عنه . وبساط الأنس : هو محل الفرح بقرب الحبيب ، ومناجاة القريب ، ليغيب عن كل شىء ، ويتأنس به فى كل شىء .

ثم بين أسرار الحضرة وهى ست فقال :

[فى محل المفاتحة ، والمواجهة ، والمجالسة والمحادثة ، والمشاهدة ، والمطالعة] .

قلت : أما المفاتحة : فهى مفاتحة علم الغيوب ، فأنت تفاتحه بطلب العطاء ، وهو يفاتحك بكشف الغطاء ، أنت تفاتحه بطلب الزيادة ، وهو يفاتحك بتوالى الإفادة ، أنت تفاتحه بالترقى فى المقامات ، وهو يفاتحك بأسرار العلوم والمكاشفات .

وأما المواجهة : فهى مواجهة أنوار الملكوت ، وأسرار الجبروت ، فأنت تواجهه بأنوار التوجه ؛ وهو يواجهك بأنوار المواجهة ، وهى كشف الحجاب ، وفتح الباب . أنت تواجهه بالطاعة ، وهو يواجهك بالمحبة ، وأنت تواجهه بالإقبال ، وهو يواجهك بالوصال ، أنت تواجهه باستكشاف أنوار الملكوت ، وهو يواجهك بكشف أسرار الجبروت .

وأما المجالسة : فهى مجالسة الأدب والهيبة ، فأنت تجالسه بالأدب والحياء ،

وهو يجالسك بالتقريب والاجتباء ، أنت تجالسه بمراقبته ، وهو يجالسك بحفظه ورعايته ، أنت تجالسه بذكره ، وهو يجالسك ببره :

« أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِي » كما فى الحديث .

وأما المحادثة : فهى المكالمة القلبية ، وهى الفكرة والجولان فى عظمة الجبروت ، فأنت تحادثه فى سرك بمناجاته وسؤاله ، وهو يحادثك بمزيد إحسانه ونواله ، أنت تحادثه بدوام حضوره فى سرك ولبك ، وهو يحادثك بإلقاء العلوم والأسرار والحكم فى قلبك ، أنت تحادثه فى عالم الشهادة ، وهو يحادثك فى عالم الغيب . وفى التحقيق ما ثم إلا عالم الغيب . ظهر فى عالم الشهادة ، وفى هذا المعنى قال الجنيد : لى أربعون سنة وأنا أحدث الحق والناس يرون أنى أحدث الخلق . وقالت رابعة العدوية رضى الله عنها :

وَلَقَدْ جَعَلْتُكَ فى الْفُؤَادِ مُحَدِّثِى   وَأَبَحْتُ جِسْمِى مَنْ أَرَادَ جُلُوسِى
فالْجِسْمُ مِنِّى لِلْجَلِيسِ مُؤَانِسٌ   وَحَبِيبُ قَلْبِى فى الْفُؤَادِ أَنِيسِى

وأما المشاهدة : فهى كشف حجاب الحس عن نور القدس .

أو تقول : كشف رداء الصون عن الكون ، فأنت تشاهد ذاته فى عالم ملكوته ، وهو يشاهدك فى عالم ملكه . أنت تشاهد ربوبيته ، وهو يشاهد عبوديتك .

والحاصل : أن المشاهدة من العبد هى شهود العظمة بالعظمة ، كما قال شيخنا رضى الله عنه : ومشاهدة الرب للعبد هى إحاطة علمه بأحواله وأسراره .

وأما المطالعة فهى مطالعة أسرار الملك والملكوت والجبروت وأسرار القدر ، فأنت تطالعه بالتوجه إليه ، وهو يطالعك بالترقى إليه ، أنت تطالع مواقع قضائه وقدره فتتلقاها بالقبول والرضا ، وهو يطالع أحوالك وسرائرك ، فيكشف عنك الحجب ويوسعك عليك الفضاء . أنت تطالعه بالتقرب والإقبال ، وهو يطالعك بالمحبة والوصال فيتلقاك بالإقبال والوصال ، وهذه الأسرار لا يذوقها إلا أهل الأذواق فكل واحد يذوق منها على قدر شربه ووجده ، والله تعالى أعلم .

فإن سكنت الروح فى هذه المراتب صارت الحضرة مأواها ومثواها ، كما بين ذلك بقوله :

[**فصارت الحضرة معشش قلوبهم ؛ إليها يأوون ، وفيها يسكنون**] .

قلت : عش الطير : وكره الذى يأوى إليه ، فكأن أرواح العارفين طيور الحضرة تطير فى الملكوت ، وتسرح فى الجبروت ، ثم تأوى إلى عش العبودية فى الظاهر وعش الشهود فى الباطن ، فالحضرة التى هى معشش قلوب العارفين ، هى حضرة الذات إليها يأوون : أى يرجعون بعد الطيران إلى فضاء الملكوت وأسرار الجبروت ، وفيها يسكنون لا يخرجون منها أبداً ، كما قال تعالى :

(لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)[1] .

ومحلها فى أعلى عليين ، وهو عرش قلوب العارفين .

[**فإن نزلوا إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ ، فبالإذن والتمكين ، والرسوخ فى اليقين**].

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : التوحيد عرش ، والشريعة المطهرة كرسى ذلك العرش ، والحقوق المفضلة فيها سماؤها ، والحظوظ النفسانية أرضها ، فكل حقيقة لا تصحبها شريعة لا عبرة بصاحبها ، وكل شريعة لا تعضدها حقيقة لا كمال لها ا هـ .

قلت : النزول هنا مجاز ، كأن الحرية عرش والعبودية سماء ، أو أرض .

أو تقول : الحقيقة عرش ، والشريعة أرض ، فما دامت الروح فى بحر الوحدة كأنها فى عرش الرحمن ، فإن نزلت إلى العبودية كأنها نزلت إلى السماء أو الأرض .

وظاهر كلام الشيخ ومن تبعه من الشراح أن النزول إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ خروج عن الحضرة وليس كذلك ، إذ من كان عمله بالله وتصرفاته كلها بالله لا خروج له عن الحضرة ، وإنما النزول فى حقه بالقالب فقط دون القلب ، فالقلب لا يخرج من عشه أبداً بعد أن تمكن منه ، فكل من بلغ أن يكون علمه بالله ومن الله وإلى الله ، لا يكون تنزله للشريعة خروجاً عن

---

(١) الحجر : ٤٨ .

الحضرة لاسيما الصلاة التى هى معدن المصافاة ، فيها تتسع ميادين الأسرار ، وتشرق فيها شوارق الأنوار ، اللهم إلا أن يحمل النزول فى كلامه على أنه بالقالب دون القلب كما تقدم ، ويدل على هذا قوله فيما يأتى : بل دخلوا فى ذلك بالله إلخ .

قال الشعرانى فى بعض أجوبته : سألت شيخنا سيدى عليًّا الخواص : أى الحالتين أفضل للعبد فى حال الصلاة ؟ هل يكون يعبد الله كأنه يراه ، أو كأن الله يراه ؟ قال : فأجابنى بأن يكون العبد يعبد الله كأن الله يراه أفضل من كونه كأنه يراه ، ثم أطال الكلام فى توجيه ذلك .

قلت : وقد كنت اعترضت هذا الكلام وكتبت عليه ، ما مضمنه : إن العارفين اتفقوا أن العمل بالله أفضل من العمل لله ، لأن العمل بالله مشاهدة ، والعلم لله مراقبة ؟ ومقام المشاهدة أعلى من مقام المراقبة ، فالصلاة مع المشاهدة أفضل من الصلاة مع المراقبة وما ألزمه الخواص غير لازم ، ثم عرضته على شيخ شيخنا مولاى العربى ففرح به غاية الفرح وأعجبه ؛ يعنى اعتراضى على كلام الخواص ، ولا يستغرب هذا من الخواص . والشعرانى قال فى التسهيل : وإذا كانت العلوم منحا إلٰهية ومواهب اختصاصية ، فغير مستبعد أن يدخر لكثير من المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين ، ونزوهم إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ ، إنما يكون بالإذن والتمكين .

أما الإذن فى نزولهم إلى الحقوق فبإذن شرعى ، إذ حقوق الشريعة كلها موقتة ، والتمكين منها بحيث لا يعارضه عارض يمنع منها شرعا أو طبعا .

وأما الإذن فى نزولهم إلى أرض الحظوظ فبالإلهام والإعلام ، بحيث يتأنى فى الأمر حتى يفهم أنه مراد الحق تعالى . وقد كان شيخ المشايخ الجيلانى رضى الله عنه فى حال سياحته لا يأكل حتى يقال له : بحقى عليك إلا ما أكلت .

قلت : وكل من كان عنده الفهم عن الله لا يتصرف إلا بالإذن من الله ، وبعض من طبع الله على قلبه من جلامدة الفقهاء ينكر هذا ، وهو معذور فى بلاد الضعف ، إذ من جهل شيئا عاداه .

والمراد بالتمكين هو صحة الفهم عن الله حتى لا يبقى له تزلزل أنه مراد

الحق ، بحيث لم ير له معارض شرعى ولا عادى ، وكذلك الرسوخ فى اليقين هو الثبوت فى المعرفة فى حال إرادة الفعل . وقد ضربت لهذا مثلا : وهو أن رجلا حمل ولده وأنزله فى بستان أو دار ثم تركه ، فجاء قوم ينازعونه فى إذن أبيه له ، ويقولون له نزلت هنا بغير إذن ، فلا شك أنه إن أقسم بالله ما نزل إلا بإذن من أبيه كان بارًّا فى قسمه ، فإذن أبيه حين أنزله هناك صريح ولو لم ينطق له بلسانه ، ولا يجحد هذا إلا غبى أو مكابر ، فالله تعالى يمن علينا بالفهم عنه فى أمورنا كلها آمين .

ثم ذكر مفهوم قوله بالإذن والتمكين فقال :

[فلم ينْزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة ، ولا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة] .

قلت : أما النزول بسوء الأدب ، فهو أن يكون نزولهم فى طلب الأجور أو الحروف وهو الجزاء .

وأما الغفلة ، فهى رؤية النفس فى حال العمل ، وهو عندهم ذنب يستغفرون منه ، فاستغفارهم بعد الصلاة إنما هو من حضور نفوسهم فى عملهم ، ولذلك قيل :

* وُجُودُكَ ذَنْبٌ لَا يُقَاسُ بِهِ ذَنْبُ *

والحاصل : أن أهل الحضرة نزولهم بالله وعملهم بالله ، لا يرون لأنفسهم حولا ولا قوة ، ولا يطلبون من ربهم جزاء ولا أجرة ، إذ محال أن يطلب الجزاء على عمل غيره ، هذا فى حال نزولهم إلى سماء الحقوق .

وأما نزولهم إلى أرض الحظوظ ، فإنما هو لأداء حقوق العبودية ، فليس نزولهم بشهوة النفس ونيل متعتها ، لتحقق فنائها وموتها ، قد انقلبت حظوظهم حقوقاً ، ولأجل ذلك المعنى قال سيدنا عمر رضى الله عنه : إنى لأتزوج النساء وأجامعهن وليس لى فى ذلك شهوة ، قالوا : ولم تفعل ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : رجاء أن يخرج الله من صلبى من يكثر به محمد صلى الله عليه وسلم أمته .

وقال سيدنا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : إذا وافق الحق الهوى كان كالزبد مع العسل ، يعنى إذا وافقت النية الصالحة الهوى كان كالزبد مع العسل .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَابِعا لِمَا جِئْتُ بِهِ » .

فتحصل أن مقام الزوال يقتضى الفناء عن الحظوظ كلها ولم يبق إلا الواحد الأحد ، كما أبان ذلك بقوله :

[بل دخلوا فى ذلك بالله ولله ومن الله إلى الله] .

قلت : بل للإضراب عما تقدم من دخولهم فى الحقوق بسوء الأدب والغفلة ، أو نزولهم لأرض الحظوظ بالشهوة والمتعة ، وإنما دخلوا فى الحقوق أو الحظوظ بالله لتحقق فنائهم عن أنفسهم ولله لتحقق إخلاصهم ، ومن الله لشهودهم الفعل من الله ، وإلى الله لتحققهم أن الأمور ترجع كلها إلى الله . قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)[1] .

فأمر العباد كله قائم بالله وصادر منه ومنته إليه .

ثم استدل بالآية الكريمة على أن الدخول فى الأشياء والخروج منها يكون بالله فقال :

[وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق ، ليكون نظرى إلى حولك وقوتك إذا أدخلتنى ، وانقيادى إليك إذا أخرجتنى ، واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً ينصرنى ولا ينصر علىّ ، ينصرنى على شهود نفسى ويفننى عن دائرة حسى] .

قلت : الآية لها تفسير ظاهر وتفسير باطن ا هـ . أعنى على طريق أهل الإشارة .

أما تفسير أهل الظاهر فقالوا : هذه الآية نزلت فى فتح مكة ، وأن الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم يقول هذا الدعاء عند دخولها حال فتحها ، ومعناه : رب أدخلنى مكة مدخل صدق ، أى إدخال صدق ، بأن يكون دخولى بك واعتمادى عليك ناصراً لدينك بحولك وقوتك ، وهذا كقوله عليه الصلاة والسلام فى بعض أدعيته حين كان يقدم من سفره :

---

(١) هود : ١٢٣ .

« صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ » .

وأخرجنى من مكة مهاجراً إلى جهاد عدوك مخرج صدق : أى إخراج صدق ، بأن أكون منصوراً بك ، معصوماً بحفظك ورعايتك ، واجعل لى من لدنك سلطاناً : أى برهاناً دامغاً لكل باطل نصيراً ينصرنى على من عادانى .

وأما تفسير أهل الباطن : فهو ما أشار إليه الشيخ رضى الله عنه مستدلا بالآية على أن دخول العارفين فى الأشياء كلها يكون بالله ، وخروجهم منها يكون بالله فقال : وقل أيها العارف : (رَبِّ أَدْخِلْنِي) فى الأشياء حقوقاً كانت أو حظوظاً (مُدْخَلَ صِدْقٍ) .

أى إدخال صدق ، بأن يكون ذلك الإدخال بك ، معتمداً فيه على حولك وقوتك متبرئاً من حولى وقوتى ومن شهود نفسى .

(وَأَخْرِجْنى) منها (مُخْرَجَ صِدْقٍ) .

أى إخراء صدق ، بأن أكون مأذوناً فيه بإذن خاص ، مصحوباً بالخشية وسر الإخلاص ، وهذا معنى قوله :

[**ليكون نظرى إلى حولك وقوتك إذا أدخلتنى**] فى الأشياء [**وانقيادى إليك إذا أخرجتنى**] منها :

(وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ) أى من مستبطن أمورك بلا واسطة ولا سبب (سُلْطَاناً) أى برهاناً قويًّا ، وليس ذلك إلا وارد قوىّ من حضرة قهار لا يصادمه شىء إلا دمغه فيحق الحق ويزهق الباطل ، ويكون ذلك السلطان .

[**ينصرنى ولا ينصر علىّ**] .

أى ينصرنى على الغيبة عن الحس وعن شهود السوى ، حتى نبعد عنها برؤية مولاهما ولا ينصر على الوهم والحس وشهود الغيرية . ثم بين ذلك فقال :

[**ينصرنى على شهود نفسى**] .

أى يقوينى على الغيبة عنها ، فإذا انتصرت على شهودها انهزم عنى وذهب

شهودها وبقى شهود ربها ؛ فالنصرة على الشىء هو غلبته حتى يضمحل وينقطع ، وكأن شهود النفس عدو يحاربك ويقطعك عن شهود ربك ، فإذا نصرك الله عليه غلبته ودفعته عنك ، فتتصل حينئذ بشهود محبوبك ، وإذا فنى شهود النفس فنى حينئذ وجود الحس ، وهو معنى قوله :

[ويفنينى عن دائرة حسى] .

فإذا فنيت دائرة الحس بقى متسع المعانى وفضاء الشهود ، وهذه هى الولادة الثانية ، فإن الإنسان بعد أن خرج من بطن أمه وهى الولادة الأولى بقى مسجوناً بمحيطاته ، محصوراً فى هيكل ذاته ، قد التقمه الهوى ، وصار فى بطن الحس ، والوهم وسجن الأكوان المحيطة بجسمانيته ، فإذا فنيت دائرة حسه وخرج من بطن عوائده وشهوات نفسه ، نقبت روحه الكون بأسره ، وخرجت إلى شهود مكونها ، فقد ولد مرة ثانية ، وهذه الولادة لا يعقبها فناء ولا موت . قال تعالى :(لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى)[1] .

وهذا معنى قول سيدنا عيسى عليه السلام : ليس منا من لم يولد مرتين ، هكذا ذكره الشطيبى من قول عيسى عليه السلام . وقال بعض الحكماء فى قوله عليه الصلاة والسلام : « لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ » .

قال الهجرة : هجرتان : هجرة صغرى ، وهى هجرة الأجساد من أوطانها . وهجرة كبرى : وهى هجرة النفوس عن مألوفاتها وعوائدها ، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام :« رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ » .

جعل الجهاد الأكبر هو جهاد النفس ، والجهاد الأصغر هو جهاد الجسم . وقال أيضا عليه الصلاة والسلام : « الهِجْرَةُ بَاقِيَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

يعنى الهجرة الحسية والمعنوية ، فكل بلد لا يجد فيه من يعينه على دينه أو لا يجد فيه قلبه تجب الهجرة عنه ، وكل شهوة تقطعه عن ربه تجب الهجرة عنها ، وبالله التوفيق .

---

(١) الدخان : ٥٦ .

هذا آخر الكتاب الذى أرسله إلى بعض إخوانه .

وحاصله : بيان السلوك من أوله إلى آخره ، فهو يكفى ذوى الألباب عن مطالعة كل كتاب .

ثم ذكر الكتاب الثانى الذى أرسله لبعض إخوانه أيضًا فقال : وقال رضى الله عنه مما كتب به لبعض إخوانه :

رسالة أخرى فى بيان الوصول

قلت : وكانت الرسالة المتقدمة فى بيان سلوك بدايتها ونهايتها ، وهذه الرسالة فى بيان الوصول إلى بحر الحقيقة مع مراعاة حرمة الشريعة طرفان وواسطة : قوم فرّطوا ، وقوم أفرطوا وقوم توسطوا وجمعوا .

بين الشيخ الأقسام الثلاثة تتميماً للتقسيم ، فأشار إلى أصل التقسيم فقال :

[إن كانت عين القلب تنظر أن الله واحد فى مِنّته ، فالشريعة تقتضى أن لابد من شكر خليقته] .

قلت : عين القلب هى البصيرة ، ومن شأنها ألا ترى إلا المعانى دون المحسوسات ، كما أن البصر لا يرى إلا المحسوسات دون المعانى ، والحكم للغالب منهما ، فمن غلب بصره على بصيرته لا يرى إلا الحس وهو الغافل ، ومن غلبت بصيرته على بصره لا يرى إلا المعانى وهى معانى التوحيد وأسرار التفريد ، فالبصيرة لا ترى إلا نور الحق دون ظلمة الخلق ، لكن لابد من إثبات الحكمة ، وقد تقدم قوله : الأكوان ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته ، فلابد من إثباتها قياماً بالحكمة ونفيها قياماً بالوحدة ، فإن كانت عين القلب تنظر إلى أن الله واحد فى مِنَّتِه ، بل واحد فى جميع تصرفاته ، فالشريعة والحكمة تقتضى : أى تطلب أن لابد من شكر خليقته . قال تعالى :

(أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ)[1] .

فإذا أنعم الله عليك بنعمة كانت دنوية أو دينية على يد واسطة فعليك فى ذلك

---

(١) لقمان : ١٤ .

وظيفتان : إحداهما قلبية : وهى اعتقادك أنها من الله بلا واسطة ؛ وأن ما سواه مقهور على إيصالها . والثانية لسانية : وهى أن تدعو له وتثنى عليه عملا بالشريعة ، فقد روى النعمان بن بشير عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكثيرَ ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ » .

ومن أسمائه تعالى الشكور ، فليتخلق العبد بذلك .

وحكمة اعتبار الواسطة ثلاث : أولها أنها أرسال من الحق تحمل الهدايا إليك ، ومن الكرم إكرام الرسل . وثانيها أنها أوان تصل فيها إليك المنافع ، ومن الحكمة ترفيع آنية المنافع . وثالثها ما فى ذلك من دفع منة الوهم ، إذ الوهم يقتضى بطبعه الميل لمن أحسن إليك ، فإذا كافأته باللسان فقد أعتقت من رق إحسانه .

ثم قسم الناس باعتبار الحقيقة إلى طرفين وواسطة كما تقدم فقال :

[**وإن الناس فى ذلك على أقسام ثلاثة**] .

إما واقف مع الحس ناظر للأسباب ، أو غائب عن الحس وعن رؤية الأسباب ، أو جامع بينهما .

أو تقول : إما عامة أو خاصة ، أو خاصة الخاصة .

ثم أشار إلى الأول فقال :

[**غافل منهمك فى غفلته**] .

أى مسترسل فى غفلته مستغرق فى نومه ؛ لا يبالى بما وقع منه ، ولا يتنبه من نومه .

ثم بين أصل غفلته فقال :

[**قويت دائرة حسه**] .

أى قوى تكثيف حسه الدائر ، فتكثف حينئذ حجابه وعظم جهله ، فعظمت غفلته ، ولو فنيت دائرة حسه لاتصلت روحه بعالم الملكوت أو الجبروت فلم تر

إلا الجمع ، أو ترى الجمع فى عين الفرق ، والفرق فى عين الجمع ، لكن لما قويت دائرة حسه انطمس نور بصيرته كما قال :

[**وانطمست حضرة قدسه**] .

أى انطمست عنه حضرة القدس ، وهى شهود المعانى الملكوتية لانطماس بصيرته ، لأن هذه المعانى لا تدركها إلا البصيرة ؛ فلما انطمست البصيرة بقوة كثافة الحس انطمس نور حضرة القدس عنه .

ثم ذكر ما ترتب على انطماس حضرة القدس وهى شهود الخلق دون الحق فقال :

[**فنظر الإحسان من المخلوقين ، ولم يشهده من رب العالمين**] .

قلت : كل من لم يفن عن دائرة حسه ولم يغب عن شهود نفسه بشهود ربه ، لا يطمع أن يتحرر من رق إحسان الخلق ، إما اعتقادًا أو استنادًا ، ولو جاهد نفسه فى مراعاة التوحيد فلابد من الطبع أن يسرق ؛ بخلاف من تحقق بالزوال وغرق فى بحر الوحدة فلا يسرقه شىء ، وعلى تقدير غفلته فيكون سريع الانتباه .

ثم بين حال الفريقين فى نظر الإحسان من المخلوقين فقال :

[**إما اعتقاداً فشرك جلى**] .

أى لا خفاء فى أن من نسب الفعل لغير الله استقلالا أنه كافر خارج عن الإيمان وإن كان ظاهره متوسماً بوظائف الشريعة ، لأن من اعتقد خالقًا أو رازقاً مع الله استقلالا فهو كافر بالإجماع .

ثم ذكر الثانى بقوله :

[**وإما استناداً فشرك خفى**] .

قلت : الاستناد هو الميل الخفى بحيث إذا قلت له من الذى رزقك ؟ يقول : الله ، لكن الغالب أن قلبه يسبق إلى رؤية الخلق قبل رؤية الخالق ، وربما يقول بلسان الحال أو المقال : لولا الذى جاء من قبله ما كان ، ولولا الأسباب ما كانت المسببات ، فوقوفه مع ارتباط الأسباب دون النفوذ إلى مسبب الأسباب هو شركه الخفى .

ولو نبذ الأسباب ونفذت بصيرته إلى شهود مسبب الأسباب لتبرأ من الشرك الجلى والخفى ، ولتحلى بمقام الإخلاص الكامل الوفى ، وإليه أشار بقوله :

[وصاحب حقيقة غاب عن الخلق بشهود الملك الحق ، وفنى عن الأسباب بشهود مسبب الأسباب] .

قلت : الحقيقة هى شهود نور الحق فى مظاهر الخلق ، أو شهود نور الربوبية فى قوالب العبودية ، فصاحب الحقيقة هو الذى يغيب عن الخلق بشهود نور الملك الحق ويفنى عن الأسباب بشهود مسبب الأسباب .

فإن كان مع مراعاة الحكمة فهو كامل ؛ وإن كان من غير مراعاة الحكمة ، فإن كان غائباً مصطلماً فهو معذور وهو الذى بينه بقوله :

[فهذا عبد مواجه بالحقيقة] .

أى كوشف بنورها

[ظاهر عليه سناها] .

أى نورها ، فلما دهته الأنوار سكر وأنكر الحكمة . فهو باعتبار ما قبله كامل لاستغراقه فى بحر الوحدة ، وهو معذور فى نفيه الحكمة لغلبة وجده وظهور سكره ، وباعتبار ما بعده ناقص لقصور نفعه على نفسه ، وإن كان قد سلك الطريق وأتى على غايتها حتى وصل إلى التحقيق كما بين ذلك بقوله :

[سالك للطريقة] .

أى لولا سلوكه مع الطريق ما استنارت له معالم التحقيق ، وإنما فاته أنوار التشريع وأسرار الحكمة .

وأما الطريق فقد سلكها وأتى على غايتها كما ذكره :

[قد استولى على مداها] .

يعنى على غايتها ؛ فلا وصول للحقيقة إلا بعد سلوك الطريقة ، وتحقيق ظاهر الشريعة . قال تعالى : (وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِهَا)[1] .

فلا باب لبيت الحقيقة إلا من جهة الشريعة والطريقة . فإذا وصل إلى الحقيقة فمن الناس من يكون صدره ضيقاً فلا يحتمل تلك الأنوار ، ولا يطيق

---

(١) البقرة : ١٨٩ .

مشاهدة تلك الأسرار ، فيغيب فى شهود الوحدة وينكر الحكمة : ومن الناس من يكون واسع الصدر قوى النور ، فإذا أشرقت عليه أنوار الحقيقة ، لم تغلبه عن القيام بالحكمة وصار برزخاً بين حقيقة وشريعة ، هكذا يكون سيره بين فناء وبقاء ، حتى يتمكن فيهما ، ويعتدل أمره بينهما وهذه حالة الأقوياء ، والطريقة الشاذلية جلها هكذا ، يسير أهلها بين حقيقة وشريعة حتى يقع التمكين والاعتدال .

ثم كمل الشيخ هذا القسم الذى غلبت عليه الحقيقة فقال :

[غير أنه غريق الأنوار] .

أى غلبت عليه أنوار الحقيقة حتى غاب عن أحكام الشريعة .

[مطموس الآثار] .

أى غائب عن شهود الكون من حيث إن الحق أثبته ليعرف به ، وهذا لما أشرقت عليه أنوار الحقيقة ضم الفروع إلى أصولها وأنوار الملكوت إلى الجبروت ، وأنكر الوسائط لغلبة السكر عليه كما بينه بقوله :

[قد غلب سكره على صحوه] .

السكر : وارد قوى يغيب القلب عن شهود الحس ، والصحو ذهاب ذلك الوارد حتى يرجع القلب إلى الإحساس بعد الغيبة وغلب عليه أيضاً .

[جمعه على فرقه] .

الجمع : رؤية الحق بلا خلق ، والفرق : رؤية الخلق بلا حق ، فإن كان بعد الجمع فهو رؤية الخلق والحق .

والحاصل : أن أهل الجمع لا يشهدون إلا الحق ، وأهل الفرق لا يشهدون إلا الخلق ويستدلون به على الحق . وأهل الفرق فى الجمع يشهدون الخلق والحق : أعنى يشهدون الواسطة والموسوط من غير فرق بينهما [و] غلب عليه أيضاً :

[فناؤه على بقائه] .

الفناء : الغيبة عن الخلق بشهود الحق ، والبقاء : شهود الخلق بالحق إن كان بعد الفناء . وإن كان قبل الفناء فهو شهود خلق بلا حق ، وهو محل أهل الحجاب [و] غلب عليه أيضاً .

[غيبته على حضوره] .

الغيبة : انقطاع القلب عن ملاحظة الخلق ، والحضور مشاهدة حضرة المولى بعد الغيبة عن شهود الحس والسِّوَى ، فهذه أحوال أهل الجذب من السالكين ، فإن كان لهم شيخ فلابد أن يخرجهم إلى السلوك وهو مقام البقاء ، فإن البقاء يطلب الجذب حتى يدركه كما يدركه عمره الطالب له .

فكان بعض أشياخنا يقول : أرنا من يفرق لنا ، نحن ضامنون له الخروج إلى البر وهو البقاء الذى أشار إليه الشيخ بقوله :

[وأكمل منه عبد شرب فازداد صحوًا ، وغاب فازداد حضوراً ، فلا جمعه يحجبه عن فرقه ، ولا فرق يحجبه عن جمعه ، ولا فناؤه يصده عن بقائه ، ولا بقاؤه يصده عن فنائه ، يعطى كل ذى قسط قسطه ، ويوفى كل ذى حق حقه] .

قلت : هذا هو القسم الثالث ، وهو مقام خاصة الخاصة ، وهم أهل الرسوخ والتمكين ، فكلما شربوا من خمر الحقيقة زاد صحوهم وتجوهر عقلهم ، وكلما غابوا عن شهود الخلق بشهود الحق زاد حضورهم ، فتراهم مستغرقين فى الفكرة والنظر ، ومع ذلك يحسون بدبيب النملة حتى يظن من لم يبلغ مقامهم أنهم من أهل الغفلة ، لكثرة ما بهم من الفطنة وهم مستغرقون فى الحضرة . وقد كان عليه الصلاة والسلام يصلى بالناس فإذا سمع بكاء الصبى خفف شفقة على أمه . فأهل هذا المقام الكامل لا يحجبهم جمعهم عن فرقهم ، فهم مجموعون فى فرقهم ، مفروقون فى جمعهم ، يشهدون الحق حال شهودهم الخلق ، ولا يصدهم فناؤهم عن بقائهم ، فهم فانون عن أنفسهم ، باقون بربهم ، ولا بقاؤهم يصدهم عن فنائهم ، فظاهرهم مشغول بالحس مثلا ، وباطنهم معمور بالمعنى . يعطون كل ذى حق حقه ، فيعطون الحقيقة حقها بشهود الحق فى الباطن ، والشريعة حقها باستعمال الجوارح فى حقوقها فى الظاهر ، ويوفون كل ذى قسط قسطه ، فيوفون الناس قسطهم من الإحسان ، والحق حقه فى توحيده بالجنان .

أو تقول : أفردوا الحق بالإنعام وشهود آلإحسان ، وأثنوا على الوسائط باللسان .

أو تقول : أعطوا الربوبية حقها بشهود الإحسان منه وحده ، وأعطوا الخليفة بشكر الواسطة إقامة لرسم العبودية .

والحاصل : أن هذا هو كما قال الشاذلى رضى الله عنه : الجمع فى باطنك مشهود ، والفرق على لسانك موجود .

تنبيه : قد رأينا كثيراً من الناس يترامون على هذا المقام الكامل من غير صحبة ولا جذب ، ويزعمون أنهم يصلون إليه بإتقان علم الشريعة وعملها وهو غلط ، إذ لا سبيل إلى هذا المقام إلا بمروره على المقام الذى قبله وهو الجذب ، والاختطاف من شهود الأكوان إلى شهود المكوِّن ، ولابد من سكر ، ثم صحو وجذب ، ثم سلوك وجمع ، ثم فرق وفناء ، ثم بقاء . نعم قد يكون بعض الأفراد أقوياء يجذبون إلى حضرة الحق مع مشاهد الخلق ، ويسيرون بين جذب وسلوك كما تقدم فى الطريقة الشاذلية وأمثالها .

وأما من لم يصحب العارفين الذين سلكوا هذه المقامات فلا يطمع فى نيل هذا المقام أبداً إلا الفرد النادر الذى لا حكم له ، والله تعالى أعلم .

ثم استدل على المقام الثانى وهو الجذب والفناء ، والثالث وهو الصحو والبقاء ، بقضية السيدة عائشة مع أبيها فى قضية الإفك فقال :

[وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لعائشة رضى الله عنها لما نزلت براءتها من الإفك على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشكرى رسول الله . فقالت : والله لا أشكر إلا الله] .

قلت : قضية الإفك مشهورة مذكورة فى سورة النور تولى شرحها أهل الظاهر ، إلا أن ظاهر كلام الشيخ رضى الله عنه أن القائل لها هو أبوها ، والذى فى الصحيح أن الذى قال لها اشكرى رسول الله صلى الله عليه وسلم هى أمها . وفى رواية : « فقالت لى أمى لما نزلت براءتى من السماء : قومى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أشكر إلا الله » .

ويمكن الجواب بأن ذلك وقع بإشارة أبيها أو قالاه معاً أو سكوته كأنه وفاق ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر الجواب عن امتناعها من شكر الواسطة فقال :

[دلها أبو بكر على المقام الأكمل مقام البقاء المقتضى لإثبات الآثار].

قلت : المراد بإثبات الأثر بعد الفناء عنه إثباته بالله ونفيه بالله جمعاً بين القدرة والحكمة ، وإنما كان هذا أكمل مما قبله ؛ لأن هذا حاز المقامين : أعطى القدرة حقها فى الباطن وهو الشهود ، والحكمة حقها فى الظاهر وهى العبودية فهو سالك بنفسه ، دال لغيره ، كامل عالم معلم عارف معرف ، وهى غاية القصد والطلب ، لأنه مقام الخلافة التامة والمنافع العامة ، ولا شك أن الخير العام خير من الخير الخاص ، والخير العام هو الذى يعطى كل ذى حق حقه ، ويوفى كل ذى قسط قسطه .

وسئل بعضهم عن قوله تعالى : (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)[1] مع قوله تعالى : (فاتَّقُوا الله مَا اسْتَطَعْتُمْ)[2] .

فقال له : اتق الله حق تقاته بقلبك ، واتق الله بجسمك ما استطعت ، فتكون جامعاً للشريعة والحقيقة ا هـ .

ثم استدل على إثبات الأثر بالكتاب والسنة فقال :

[وقد قال الله تعالى : أن اشكر لى ولوالديك] .

فأمر أولا بشكر من تولى نعمة الإيجاد ، وأمر ثانيا بشكر من ظهرت على يديه نعمة الإمداد ، فالواسطة ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته ، والآية صريحة فى إثبات الواسطة أدباً والغيبة عنها عقد لأجل التوحيد .

ثم ذكر دليل السنة فقال :

[وقال صلوات الله وسلامه عليه : لا يشكر الله من لا يشكر الناس] .

قلت : يصح فى اسم الجلالة الرفع على الفاعلية والنصب على المفعولية ، ومعنى الأول : الله تعالى لا يشكر فعل من لم يشكر الناس ولا يحبه . وعلى الثانى : من لم يشكر الناس لا يشكر الله : أى فلا يسمى شاكرًا لله وتقدم حديث النعمان بن بشير : « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله » .

ثم بين الجواب عن امتناعها من شكر الواسطة فى ذلك الوقت فقال :

[وكانت فى ذلك الوقت مصطلمة عن شاهدها] .

---

(١) آل عمران : ١٠٢ .
(٢) التغابن : ١٦ .

قلت : الاصطلام نعت الحيرة ومحل الدهشة والغيبة : أى كانت رضى الله عنها فى ذلك الوقت غائبة عن حالها فانية عن حسها كما هو حال الجذب ؛ وقوله فى ذلك الوقت يقتضى أنه لم يكن ذلك شأنها على الدوام ، وإنما هو عارض قهرى ووارد إلهى ، اختطفها عن حسها كما عرض ذلك لخليل الله إبراهيم حين عرض له جبريل فقال له ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، وأما إلى الله فبلى ، فلم يلتفت إلى الواسطة فقال له : سله ، فقال : حسبى من سؤالى علمه بحالى ، وكقوله عليه الصلاة والسلام : « لِى وَقْتٌ لَا يَسَعُنِى فِيهِ غَيْرُ رَبِّى » .

فكانت عائشة رضى الله عنها فى ذلك الوقت :

[غائبة عن الآثار ، فلم تشهد إلا الواحد القهار] .

قلت : ومما يقوى عذرها فى شكر الله وحده قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عَائِشَةُ اشْكُرِى اللهَ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ بَرَّأَكِ » .

فهى راجعة لأمره فى عدم شكره كما قاله ابن أبى جمرة ، لكن بضميمة ما ذكره المؤلف ، إذ لا يصح مع الصحو إهمال الوسائط فى المقام الأكمل قاله الشيخ زروق رضى الله عنه .

فهذا آخر الرسالة التى كتبها لبعض إخوانه ، وهى فى غاية الإتقان والكمال ، فلو لم يكن فى هذا الكتاب إلا هذه الرسالة مع التى قبلها لكانت كافية ، فجزاه الله عن أهل الطريقة خيراً .

قرة عينى فى الصلاة

ولما كانت صلاة العارفين ليست كصلاة الغافلين تكلم فى هذه الرسالة الثالثة على قرة العين التى تكون فى الصلاة ، هل هى خاصة بالأنبياء أو للأولياء نصيب من ذلك ؟ فقال رضى الله عنه :

[لما سئل عن قوله صلوات الله وسلامه عليه : وجعلت قرة عينى فى الصلاة ؟ هل ذلك خاص بالنبى صلى الله عليه وسلم أو لغيره منه شرب

ونصيب ؟ فأجاب إن قرة العين بالشهود على قدر المعرفة بالمشهود] .

قلت : قرة العين كناية عن شدة الفرح ، لأن بكاء الفرح دمعه بارد ، والقر : بالضم هو البرد ، يقال فى الدعاء أقر الله عينك : أى أفرحك حتى تبرد عينك بدموع الفرح ، ومضمن كلام الشيخ فى جوابه أن قرة العين فى الصلاة متفاوتة على قدر التفاوت فى المعرفة والشهود ، والمعرفة على قدر التخلية والتحلية ، فمعرفته عليه الصلاة والسلام لا يوازيها معرفة ، وشهوده عليه الصلاة والسلام لا يقرب منه شهود ، لكن قد تحصل المشاركة فى مطلق الشهود من حيث هو وتكون القرة على قدره ، فإذاً لورثته عليه الصلاة والسلام قسط ونصيب من قرة العين ، على قدر صفاء مشربهم وتفرغ قلوبهم وأسرارهم ، فالعلماء ورثة الأنبياء ، فمن جملة ما ورثوه قسط من قرة العين فى الصلاة ، ولذلك كانوا يغيبون فيها ويجدون من النعيم واللذة فيها ما تعجز عنه العبارة . وقد كان منهم من يقطع الليل كله فى ركعة ، ويختم القرآن فى كل ليلة ، فلولا ما كانوا يجدون من حلاوة المناجاة مادامت لهم تلك الحالة . ويفهم هذا من قول الشيخ فى الجواب : إن قرة العين بالشهود على قدر المعرفة بالمشهود ، فأتى بعبارة عامة تصدق بكل من له نصيب من الشهود ، لكن قرة عين الرسول صلى الله عليه وسلم لا يوازيها قرة عين أحد ، وكذلك الأنبياء عليهم السلام بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، وإلى هذا أشار بقوله :

[والرسول صلوات الله وسلامه عليه ليس معرفة كمعرفته فليس قرة عين كقرته] .

قلت : لم يؤنث الفعل المجازى التأنيث فى الموضعين ، وإنما كانت معرفته عليه الصلاة والسلام لا يساويها معرفة ، لأن أول قدمه فى مقام الإحسان ، إذ لا مجاهدة له ولا سير له باعتبار الوصول ، لأنه واصل من أول قدم ، فنهاية الأولياء بداية الأنبياء ، ونهاية الأنبياء بداية الرسل ، وبدايته عليه الصلاة والسلام من نهاية الرسل ، وإنما قلنا لا سير له باعتبار الأصول ؛ لأن السير فى مجاهدة الأوصاف المذمومة وهو مطهر منها كما قال القائل :

خُلِقْتَ مُبَرَّأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

وأما السير بمعنى الترقى فهو ثابت له على الكمال ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يترقى فى الساعة الواحدة مقامات ، ويستغفر من المقام الذى يترقى منه .

حكى عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه أنه كان يستشكل قوله عليه الصلاة والسلام :

« إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِى فَأَسْتَغْفِرُ الله فى الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً » . وفى رواية « مِائَةَ مَرَّةٍ » .

حتى رأى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يامبارك غين أنوار لاغين أغيار ، ففهم حينئذ أن الغين هو التغطية، إنما هى أنوار الشهود ، أو هى تتفاوت بالقوة والضعف باعتبار الكشف ، فكلما كشف له عن مقام رأى ذلك المقام نقصًا باعتبار ما بعده ، ورآه حجابًا وتغطية لما فوقه وهكذا ، وعظمته تعالى لا نهاية لها ، ولذلك قال له : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا)[1] .

وقال أبو العباس رضى الله عنه : الأنبياء عليهم االصلاة والسلام خلقوا من الرحمة ، ونبينا عليه الصلاة والسلام هو عين الرحمة . قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)[2] .

وقال الشيخ الحضرمى رضى الله عنه بعد كلام ذكره : فهو صلى الله عليه وسلم مظهر الحق الأكبر ، وهو أكبر مظاهر الحق فى الوجود ، فلذلك كان كل حرف من كلماته يوازى الجم الغفير ، وكل قطرة من فيض بحره توازى البحر الزاخر الكبير ، وأعظم من ذلك بألف ألف نقير وقطمير :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)[3] ا هـ المراد منه .

فتحصل أن مقامه عليه الصلاة والسلام فى العرفان لا يوازيه مقام ، وكذلك قرة عينه عليه الصلاة والسلام لا ينالها غيره من الأنبياء والأولياء ، وإنما يكون

---

(١) طه : ١١٤ .

(٢) الأنبياء : ١٠٧ .

(٣) الحجر : ٧٢ .

لهم من ذلك شرب ونصيب على قدر شهودهم ومعرفتهم .

قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : إنما قال تعالى : (سُبْحَانَ الذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ)[1] .

ولم يقل بنبيه ولا برسوله ليفتح باب السريان لغيره ، فمن له قسط من العبودية له قسط من الإسراء . ولما كان له عليه الصلاة والسلام كمال العبودية كان له كمال الإسراء فأسرى بروحه وجسده وليس ذلك لغيره اهـ . فإذا وقع الإسراء بالروح إلى الملكوت حصلت له قرة العين فى العبادة على قدر إسرائها ، وإسراؤها على قدر تصفيتها من العلائق والعوائق ، والله تعالى أعلم .

ولما كان جوابه بأن قرة العين بالشهود على قدر معرفته بالمشهود فيه خفاء عن المقصود بينه بقوله :

[وإنما قلنا إن قرة عينه فى صلاته بشهوده جلال مشهوده ، لأنه أشار إلى ذلك بقوله : « فى الصلاة » ولم يقل بالصلاة] .

قلت : لأن الأصل فى الظرفية أن تكون على بابها ، فقرة عينه صلى الله عليه وسلم إنما هى بشهود ربه ومساررته ومكالمته ، فالصلاة إنما هى محل لتلك القرة . وأما قوله عليه الصلاة والسلام : « أَرِحْنَا بِهَا يَابِلَالُ » .

فالباء سببية : أى أرحنا بسببها ، وراحته عليه الصلاة والسلام إنما هى بمناجاة ربه لا بغيرها .

ثم ذكر علة كونه عليه الصلاة والسلام لا تقر عينه بالصلاة وإنما تقر عينه بربه فقال :

[إذ هو صلوات الله وسلامه عليه لا تقر عينه بغير ربه] .

فلا فرح له إلا به ، ولا سرور له إلا فى إقباله ، قد رفع همته عن الكونين ، وخلع نعله من الدارين ، ولأجل ذلك قال فيه القائل :

لَـهُ هِمَـمٌ لَامُـنْـتَـهَـى لِـكِـبَـارِهَـا
وَهِمَّتُـهُ الصُّغْـرَى أَجَـلُّ مِنَ الـدَّهْـرِ

---

(١) الإسراء : ١ .

لَـهُ رَاحَـةٌ لَـوْ أَنَّ مِعْشَـارَ جُـودِهَـا
عَلَى البرِّ كان البَرُّ أَنْدَى مِنَ الْبَحْرِ

[كيف وهو يدل على هذا المقام] .
وهو مقام الإحسان ، إذ به تحصل قرة العين .
[ويأمر به من سواه] .
من الأنام لقوله صلوات اللهّ وسلامه عليه : « اعبد الله كأنك تراه » .
قال الشيخ زروق رضى الله عنه : لم يقع فى الحديث بهذا اللفظ وإنما وقع فى تفسير الإحسان :
« أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ »اهـ .

قلت : وفيه نظر ، فإن فى حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه :
« قُلْتُ : يارسُولَ الله أَوْصِنِى ، قالَ : اعْبُد الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، وَاعْدُدْ نَفْسَكَ فى المَوْتَى ، وَاذْكُرِ الله عِنْدَ كُلِّ حَجَرٍ وَعِنْدَ كُلِّ شَجَرٍ ، وَإِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فاعْمَلْ بِجَنْبِهَا حَسَنَةً تَمْحُهَا ، السِّرُّ بالسِّرِّ ، والعَلانِيَةُ بالعلانيةِ » اهـ . رواه الطبرانى كما فى المنذرى .

ثم من كان يعبد الله كأنه يراه فلا يمكن أن يلتفت إلى رؤية ما سواه كما بينه بقوله :
[ومحال أن يراه ويشهد معه سواه] .
قلت : لأن ثبوت السِّوَى حجاب ، فلا يصح الشهود حتى يزول كل موجود ، ولا يبقى إلا واجب الوجود ، ويرى ما سواه كأنه ظلال أو خيال عند التحقيق مفقود .
فإن قلت : إذا كان السوى مفقودًا فلم قال عليه الصلاة والسلام فى تفسير الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه » وقال لمعاذ : « اعبد الله كأنك تراه » فأتى بكاف التشبيه إذا كانت الرؤيا حاصلة فكيف يشبهه عليه الصلاة والسلام بمن يرى ؟

فالجواب : أنه عليه الصلاة والسلام فى محل التشريع والتحقيق ، وهذا الحديث وقع فى محفل كبير فيه من هو من أهل المراقبة ، وفيه من هو من أهل المشاهدة ، فأتى بكلام يقبله الخاص والعام ، فالكل مخاطب بإتقان العبادة كأنه يشاهد ، فمنهم من بلغ ذلك ذوقًا ، ومنهم من يكون منه ذلك مجاهدة .

وأيضًا شهود أنوار الملكوت سر من أسرار الربوبية لا تفشى لغير أهلها ، ولو قال عليه الصلاة والسلام : أن تعبد الله لأنك تراه ، أى ترى أنوار جبروته متدفقة لرياض ملكوته ، لكان فيه إفشاء لسر الربوبية ولا يفهمه إلا الخواص ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « خَاطِبُوا النَّاسَ بِقَدْرِ مَايَفْهَمُونَ » .

فأتى بكلام موجه يقبله أهل الظاهر وأهل الباطن ، فأهل الظاهر يتركون الكاف على بابها ، وأهل الباطن يجعلونها بمعنى اللام ، لأن رؤية البصيرة عندهم فى معد العيان ، لأن البصر إذا فتحت البصيرة غلبت عليه ولم يبق له حكم أصلا .

وأيضًا الرؤية إذا أطلقت إنما تنصرف للبصر ، فلو لم يأت بالتشبيه لتوهم أن الله تعالى يرى بالبصر الحسى وهو محال ، قال الله تعالى :

(لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ)[1] .

أى الحسية ، وإنما تراه البصائر المفتوحة ، فإذا انفتحت البصيرة استولت على البصر فلا يرى البصر إلا ما تراه البصيرة من أنوار الملكوت ، والله تعالى أعلم .

ولما قرر الشيخ أن قرة عينه صلى الله عليه وسلم إنما هى بالله لا بالصلاة بحث معه باحث فأشار إلى البحث بقوله :

[قال له سائل : قد تكون قرة العين بالصلاة لأنها فضل من الله وبارزة من عين منة الله ، فكيف لا يفرح بها ؟ وكيف لا تكون قرة العين بها وقد قال تعالى : (فبذلك فليفرحوا)] .

---

(١) الأنعام : ١٠٣ .

قلت : مضمن البحث أن قوله عليه الصلاة والسلام :

« وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِى فى الصَّلَاةِ » .

يمكن أن تكون « فى » بمعنى الباء : أى بالصلاة ويكون وجه الفرح بها ، لأنها فضل من الله ورحمة وبارزة من منة الله ، وقد قال تعالى :

(قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِك فَلْيَفْرَحُوا)[1] .

فقد أمر الله تعالى عباده بالفرح بفضل الله وبرحمته والصلاة من ذلك ، فيجب الفرح بها وهى معنى قرة العين ، فأجاب :

[فقال اعلم أن الآية هذه قد أومأت] أى أشارت **[إلى الجواب لمن تدبر سر الخطاب ، إذ قال : (فبذلك فليفرحوا) وما قال فبذلك فافرح ، يامحمد قل لهم ليفرحوا بالإحسان والتفضل ، وليكن فرحك أنت بالمتفضل كما قال فى الآية الأخرى : (قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون)]** .

قلت : مضمن الجواب أن قرة العين بالصلاة إنما يصح أن تكون فى حق غيره ﷺ من أولياء أمته ، لأنهم يفرحون بفضل الله وإحسانه ، لأنها علامة على رضوانه ، وأما هو ﷺ فلا تكون قرة عينه إلا بالله ، ويدل عليه قوله تعالى : (فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا) .

ولم يقل فبذلك فافرح يامحمد ، فدل خطاب الآية أن الفرح بالفضل والرحمة إنما هو لأمته ﷺ ، وهو إنما يكون فرحه بالله لا بشىء دونه كقوله فى آية الأنعام : (قُلِ الله ثم ذَرْهُمْ فى خَوْضِهِمْ يلْعَبُونَ)[2] .

والتحقيق : هو أن يقال : من تحقق بنعيم شهود الربوبية لم يكن فرحه إلا بشهود محبوبه دون غيره كائنًا من كان ، ومن كان مقيمًا فى محل العبودية ولم يذق شيئًا من مطالعة أنوار الربوبية لم يكن فرحه إلا بفضل الله ورحمته ، من ذاق ولم يتحقق يكون فرحه بهذا : أى تارة بهذا وتارة بهذا ، فعلى هذا يكون

---

(١) يونس : ٥٨ . (٢) الأنعام : ٩١ .

لأكابر أمته ﷺ قسط من الفرح بالله دون ما سواه ، لكن لا يبلغون مقام الرسول عليه الصلاة والسلام ، لأن شهوده عليه الصلاة والسلام لا يساويه شهود ، فتكون قرة عينه كذلك ، والله تعالى أعلم .

خاتمة

فى ذكر الحديث الذى أشار إليه الشيخ وما يتعلق به

روى : « أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله صَنَعَ طَعَامًا لِرَسُولِ الله ﷺ ، فَاجْتَمَعَ هُوَ وَنَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُول الله ﷺ ، فِيهِمْ أَبُو بَكْر وَعُمَر وَعُثْمانُ وَعَلِّىٌّ رَضِىَ الله عَنْهُمْ ، فَتَذَاكَرُوا فى الطَّاعَةِ لله وَلِرَسُولِهِ ، إلى أَنْ قالَ أَبُوبَكْر : إِنَّمَا حُبِّبَ إِلَىَّ مِنَ الدُّنْيَا يَارَسُولَ الله ثَلَاثٌ : إِنْفَاقُ مَالِى عَلَيْكَ ، وَالْجُلُوسُ بَيْنَ يَدَيْكَ ، وَكَثْرَةُ الصَّلاةِ عَلَيْكَ . وَقَالَ عُمَرُ : وَأَنَا حُبِّبَ إِلَىَّ مِنَ الدُّنْيَا ثَلَاثٌ : إِكْرَامُ الضَّيْفِ ، وَالصِّيَامُ فى الصَّيفِ ، وَالضَّرْبُ بَيْنَ يَدَىْ رَسُولِ الله بِالسَّيْفِ . وَقالَ عُثمانُ : حُبِّبَ إِلَىَّ مِنَ الدُّنْيَا ثَلَاثٌ : إِطْعَامُ الطَّعَامِ ، وَإِفْشَاءُ السَّلَامِ ، وَالصَّلاةُ بِاللَّيْلِ وَالناسُ نيَامٌ . وَقالَ عَلِىٌّ مِثْلَ ذَلِكَ ، فقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ : وَأَنَا حُبِّبَ إِلَىَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلاثٌ : النِّسَاءُ ، وَالطِّيبُ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِى فى الصَّلَاةِ ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ فقَالَ : وَأَنَا حُبِّبَ إِلَىَّ مِنَ الدُّنْيَا ثَلاثٌ : تَبْليغُ الرِّسَالَةِ ، وَأَدَاءُ الأَمانَةِ ، وعَيادَةُ المَرْضَى ، ثُمَّ غَابَ وَظَهَرَ وَقالَ : يَارَسُولَ الله ، وَرَبُّ الْعِزَّةِ يَقُولُ : وَأَنَا حُبِّبَ إِلَىَّ من الدُّنيا ثَلَاثٌ : لِسانٌ ذَاكِرٌ ، وَقَلْب شَاكِرٌ ، وَجِسمٌ عَلَى الْبَلاءِ صَابِرٌ » اهـ .

ذكره الشطيبى ، فالله أعلم بصحته ، غير أنه كلام صحيح فى نفسه .

والحكمة فى النساء الترغيب فى كثرة التناكح ، ليكثر النسل بمن يغمر هذا العالم . وأما الطيب ، فإنه ﷺ كان طيبًا نفحه الله فى الوجود فتعطرت به

الأكوان ، فكان عليه الصلاة والسلام ينفح طيبًا مس طيبًا أو لم يمسه ، كان يستعمل الطيب الكسبى يستر به الطيب الوهبى ، خشية أن يتغالى الناس فيه كما تغالوا فى عيسى عليه الصلاة والسلام . وقيل : إن الطيب من صفة أهل الجنة ، وقد كان عليه الصلاة والسلام فى الجنة فتطيب بطيبها ، والله تعالى أعلم .

رسالة أخرى فى الفرح بالمنن

ثم ذكر الرسالة الثالثة فى الفرح بالمنن بعد أن قدم الفرح بالله ، قال رضى الله عنه مما كتب به لبعض إخوانه :

[الناس فى ورود المنن عليهم على ثلاث أقسام] .

يعنى عوام وخواص وخواص الخواص .

ثم ذكر مقام العوام فقال :

[فرح بالمنن لا من حيث مبدؤها ومنشؤها ولكن بوجود متعته فيها] .

قلت : وهذا كالبهيمة ليس شأنه وهمّه إلا نفسه وحسه ،لله در ابن البنا حيث قال :

وَاعْلَمْ بِأَنَّ عُصْبَةَ الْجُهَّالِ   بَهَائِمٌ فى صُورَةِ الرِّجَالِ

ثم ذكر حكمه فقال :

[فهذا من الغافلين] .

لأنها : أى النعم إذا أقبلت عليه اشتغل بها عن ذكر معطيها تلذذًا وترفهًا ، وإذا أدبرت اشتغل فكره بطلبها والحرص عليها ، وإذ نالها شغلته متعتها عن شكرها ، فيكون ذلك سببًا فى زوالها . قال تعالى :

(وَلئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ)[1] وربما يصدق عليه قوله تعالى : (حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)[2] .

---

(١) إبراهيم : ٧ .   (٢) الأنعام : ٤٤ .

فالآية وإن نزلت فى الكفار فحكمها عام ، فكل من اشتغل بنعم الدنيا وزخارفها عن ذكر الله وما طلب منه يصدق عليه أنه فرح بما أوتى ، فبينما هو منهمك فى غفلته مستغرق فى شهوته أخذه الموت بغتة فإذا هو مبلس : أى آيس من الرجوع إليها ومن الانتفاع بها ، وقد تؤخذ منه قبل موته فتشتد حسرته عليها ، وقد تقدم : من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرف بفقدانها .

ثم ذكر القسم الثانى وهو مقام الخواص فقال :

[وفرح بالمنن من حيث إنه شهدها منة ممن أرسلها ونعمة ممن أوصلها] .

قلت : ويستفيد أيضًا إقبال من أرسلها عليه وذكره بها . أوحى الله تعالى إلى سيدنا موسى عليه السلام : ياموسى اعلم أننى إذا أعطيتك تمرة مسوسة فإنى قد ذكرتك بها ، فاشكرنى عليها فإنه لا يعطيكها غيرى اهـ . فتكون تلك النعمة سببًا يجره إلى محبة المنعم فيترقى إلى الدرجة الثالثة .

ثم ذكر شاهد هذا القسم من القرآن فقال :

[فيصدق عليه قوله تعالى : (فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون)] .

قلت : يعنى فيكون فرحه بفضل الله وهو الإيمان ورحمته وهو القرآن وغير ذلك (هو) : أى فضل الله ورحمته ، (خير مما يجمعون) من حطام الدنيا وشهواتها الغرارة ، وأنشدوا :

طَلِّقِ الدُّنْيَا ثَلَاثًا ... وَالْتَمِسْ زَوْجًا سِوَاهَا
تُبْ إِلَى رَبِّكَ مِنْهَا ... وَاحْتَرِسْ قَبْلَ أَذَاهَا
إِنَّهَا زَوْجَةُ سُوءٍ ... لا تُبَالِى مَنْ أَتَاهَا !
أَنْهِ نَفْسَكَ عَنِ الْغَيِّ ... وجانِبْ هَوَاهَا

قيل : إن بعض العباد أراد إبليس فتنته ، فجاءه من باب الرغبة فى الدنيا فوجده قد سده بالزهد والقناعة ، فجاءه من باب الشهوة فوجده قد سده بدوام الحزن والكآبة ، فجاءه من باب الغضب والحدة ، فوجده قد سده بالتواضع والاستكانة ، فصاح وقال هذا عبد قد تحصن منى فليس لى عليه سبيل .

وفى الخبر : « إنَّ الْمُنَادِى يُنَادِى يومَ الْقِيَامَة : أَيْنَ أَصْحابُ الْمَتَاجِرِ الرَّابِحَةِ مِنْ أَهْلِ الأعْمَالِ الصَّالِحَةِ ؟ فَيَقُومُ الأَوْلِيَاءُ وَالأَصْفِيَاءُ وَالْعُبَّادُ والزُّهَّادُ ، فَيُؤْتَون بِنَجَائِبَ مِنَ النورِ فَتَطِيرِ بِهِمْ نَحْوَ العَرْشِ وَتَسْبِقُهُمُ الْمَلائِكَةُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ إلى أَنْ تُنْزلَهُم فى مَنَازِلِهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ : هذِهِ أَحْمالُكُمْ وَفيهَا أَعْمالُكُمْ . وَيُنَادِى الْمُنَادِى أَيْضًا : أَيْنَ أبناءُ الدُّنْيَا » أى المخلفون والمقصرون « أَيْنَ مَنْ عَصَى الْمَوْلَى ؟ هَلُمُّوا إِلَى دَارِ الْبَلْوَى ، فَيَأْتُونَ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاءَ مَايَزِرُونَ فَيُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَى الْعَذَابِ »اهـ .

ثم ذكر القسم الثالث وهم خواص الخواص فقال :

[**وفرح بالله ، ما شغله من المنن ظاهر متعتها ولا باطن منتها**] .

قلت : ظاهر متعتها ، هو حظ البشرية ، وهو اللذة الحسية ، وهو حال أهل المقام الأول : أعنى الغافلين : وباطن منتها : هى ذكر المنعم وإقباله عليه وهو حال أهل المقام الثانى .

وأشار إلى حال أهل المقام الثالث فقال :

[**بل شغله النظر إلى الله عما سواه**] .

من المتعة الحسية أو المعنوية [و] شغله [الجمع] على الله بالتوكل [عليه] فكفاه شئونه وأموره حتى لم يبق له اهتمام بغير مولاه ، بل أغناه به عما سواه .

[**فلا يشهد إلا إياه**] ولا يحب شيئًا سواه.

ومما وجد فى بعض الكتب المنزلة : يقول الله تعالى : عبدى إن أطعتنى واليتك ، وإن اتقيتنى قرّبتك ، وإن استحييت منى أكرمتك ، وإن توكلت على كفيتك ، وإن عصيتنى عاقبتك ، فعقوبتى لك من أجلك لا من أجلى ، جل قدرى وعظم فضلى .

عبدى إنى أعلم منك مالو علمته زوجتك لسألتك الطلاق ، ولو علمه عبدك لسألك العتاق ، ولو علمه أبوك لهان عليه الفراق .

عبدى إن جئتنى تقول أسأت أقول لك وأنا قد غفرت ، وإن قلت تبت أقول وأنا قبلت اهـ .

ثم ذكر مصداق هذا القسم الثالث فقال :

[قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون] .

قلت : المراد بالقول فى هذا المقام القول القلبى ، أى اذكر الله على الأشياء كلها تفن ولم يبق إلا مولاها ، ثم اترك الناس فى وهمهم يلعبون ، ومن جملة الأشياء النعم التى يتجلى بها ، فإذا ذكر الله عليها غاب فى شهوده عنها ، واستغنى به عن كل ماسواه .

قال الشبلى رضى الله عنه : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة . وقال أبو محمد الجريرى رضى الله عنه : من رأى النعم ولم ير المنعم فقد حجب عن الشكر ، ومن رأى المنعم بغيبة النعم فقد شكره اهـ .

تنبيه : كثيرًا ما يستدل الصوفية بهذه الآية على الانقطاع إلى الله والغيبة عما سواه ، وهو تفسير إشارة لا تفسير معنى اللفظ ، لأنها نزلت فى الرد على اليهود حيث قالوا : (مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَىْءٍ) فقال لهم الحق تعالى : (قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الذِى جَاءَ بِهِ مُوسى)[1] .

فلما لم يجيبوا قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : قل الله ، أى قل لهم أنزله الله ، ثم لا تجادلهم ، بل ذرهم فى خوضهم يلعبون ، والصوفية رضى الله عنهم يقرون الظاهر على ظاهره ويقتبسون إشارات خفية ، لا يعرف مقصودهم غيرهم ، ولذلك رد عليهم بعض المفسرين حيث لم يعرف قصدهم :

(قَدْ عَلِم كُلُّ أُنَاس مَشْرَبَهُمْ)[2] .

وأما ذكر هذا الاسم باللسان مجردًا ففيه ثلاثة أقوال : أحدها الجواز مطلقًا . والثانى الكراهة مطلقًا . والثالث التفصيل ، يجوز لأهل النهايات دون أهل البدايات ، والمشهور الأول ، وعليه طريق الشاذلية ومن تعلق بهم ، والله تعالى أعلم .

---

(١) الأنعام : ٩١ .

(٢) البقرة : ٦٠ .

ولما استدل بما فى كتابنا ذكر ما فى كتاب من قبلنا ، فقال :

[**وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : ياداود قل للصديقين ، بى فليفرحوا ، وبذكرى فليتمتعوا**] .

قلت : لا يكمل الفرح بالله حتى يخلو القلب من محبة ما سواه ، فما دام العبد متعلقًا بشىء من السِّوى فلا يكمل فرحه بالله ، ولا يتم تنعمه بذكر الله .

أو تقول : مادامت الروح مسجونة فى سجن الهيكل لا يتم فرحها بالله ، ولا تتنعم بذكر الله ، فإن تخلصت من سجن البدن وتحررت من رق الأكوان كمل فرحها بالواحد المنان ، وأنشدت :

أَنْتُمْ سُرُورِى وَأَنْتُمْ مُشْتَكَى أَلَمِى
وَأَنْتُمْ فى ظَلَامِ اللَّيْلِ أَقمارِى

فَإِنْ نَطَقْتُ فَلَمْ أَنْطِقْ بِغَيْرِكُمُ
وَإِنْ صَمَتُّ فَأَنْتُمْ عِقدُ إِضْمارِى

وهذا هو الفرح الحقيقى والسرور الأصلى وما سواه أعراض لأغراض .

قال المقدسى : السرور أعلى من الفرح ، لأن الفرح ربما شيب بالحزن الذى هو مقابله والسرور لاحزن معه . وقيل : هما شىء واحد .

وقال بعضهم : السرور على ثلاثة أقسام : بداية ، ووسط ، ونهاية .

فبداية السرور يذهب به خوف القطيعة ، وظلمة الجهل ، ووحشة الفراق .

وأما وسطه ، فإنه يكشف حجاب العلم ، ويفك رق التكليف ، وينفى التدبير والاختيار .

وأما غايته ، فإنه يمحو آثار الوحشة ، ويقرع باب المشاهدة ، ويضحك وجه الروح لبشارة التجلى ، ففى بداية الفرح والسرور يحصل التصديق ، وفى وسطه يحصل الأنس ، وفى نهايته يحصل الجمع والوصال اهـ .

وقد ضرب بعضهم مثلا للأقسام الثلاثة : أعنى من يفرح بالنعم من حيث إنه ينال فيها شهوته ، أو يشهد فيها منّته ومعونته ، أو يفرح بالمنعم وحده ، فقال :مثل ذلك كثلاثة رجال قدموا على السلطان فأعطى لكل واحد فرسًا وسيفًا .

أما أحدهم فقال : هذا فرس نتمتع به ، ونركب عليه فى حوائجى ، ونقاتل به عدوى ، ففرح به من حيث يقضى به مآربه وشهواته ، وليس فى قلبه محبة للملك ، إنما جاء لقضاء حاجته .

وأما الآخر فقال : هذا فرس نستعين به على خدمة الملك ، وعلى القدوم عليه ، وعلى مجاهدة عدوه ، ففرح بالفرس من حيث إنه يستعين به على حوائج الملك ومآربه دون حوائج نفسه .

وأما الثالث ، فقال : إن الملك يحبنى ويعظمنى حتى أعطانى هذا الفرس ، فهذا اعتناء من الملك وإقبال علىّ ، ففرح بالفرس من حيث إنه يدل على محبة الملك له واعتنائه به ، فهذا مثل للأقسام الثلاثة ، وقد أشبع الغزالى الكلام فى هذا المعنى فى باب الشكر ، فانظره إن شئت .

ثم ختم رسالته بدعاء مناسب فقال :

[والله يجعل فرحنا وإياك به] .

أى دون غيره ، والمخاطب هو المرسل إليه هذه البطاقة ، أو كل من يطالع كتابه أو يحفظه ، أو يعمل به ، أو من يسمعه وقرئ عليه ، وإذا كان فرحنا وحده كنا من القسم الثالث الذى هو مقام خواص الخواص ، ومن كان فرحه بالله كان راضيًا به ومرضيًّا عنه كما قال :

[وبالرضا منه] :

أى ويجعل فرحنا بالرضا من قبله بحيث لا نرضى بشىء دون رضاه عنا ، فنكون راضين به مرضيًّا عنا . قال تعالى : (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)[1] .

ومن تحصن بها تحصن من الغفلة بحصن منيع ، ولذلك قال :

[وألا يجعلنا من الغافلين] .

الذين يفرحون بالنعم دون شهود المنعم . وقد اشتمل دعاؤه على الأقسام الثلاثة من باب التدلى ، فالفرح بالله هو المقام الثالث ، وبالرضا منه هو الثانى . واحترز من الأول بعدم جعله منه ، وإذا خرج من حرز الغفلة حصل على اليقظة

---

(١) المجادلة : ٢٢ .

وهى جماع التقوى الذى أشار إليه بقوله :

[وأن يسلك بنا مسلك المتقين] .

الذين اتقوا الشرك والمعاصى أولا ، والشهوات والعوائد ثانيًا ، والسوية والغيرية ثالثًا ، وهو معنى قوله تعالى :

(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)[1] .

فالتقوى على ثلاثة أقسام بحسب المقامات :

فتقوى أهل مقام الإسلام حفظ الجوارح من المخالفات اتقاء سخط الله ، وإليهم توجه الخطاب بقوله تعالى : (فاتَّقُوا الله مَا اسْتَطَعْتُم)[2] .

وتقوى أهل مقام الإيمان حفظ القلوب من الهفوات والخطرات ، وإليهم توجه الخطاب بقوله تعالى : (واتّقون ياأُولِى الألْبَابِ)[3] .

فإذا تطهر القلب من الهفوات والخطرات منح بشهود معانى الصفات .

وتقوى أهل مقام الإحسان حفظ السر مما سوى الله ، فإذا تطهَّر السر من الأغيار منح شهود الأنوار وهى عظمة الذات ، ولكل مقام من مقامات التقوى بواعث تبعث على تقواهم . فالباعث لأهل مقام الإسلام على تقواهم ، رجاء الثواب ، وخوف العقاب ، فتقواهم على سبيل الخوف والرجاء . والباعث لأهل مقام الإيمان على تقواهم ، شهود الجلال والجمال ، فتقواهم على سبيل الهيبة والحياء . والباعث لأهل مقام الإحسان على تقواهم ، شهود العظمة والكمال ، فتقواهم على المحبة والتعظيم ، وأنشدوا :

فَكُنْ أَيُّهَــا العَبْـدُ المعَنَّى أَخَــا تُقًى
حَثيثَ التَّــرقِّى فى المَعَـارِجِ وَاللُّطْفِ

---

(١) المائدة : ٩٣ .
(٢) التغابن : ١٦ .
(٣) البقرة : ١٩٧

وَثِقْ بِلَطِيفِ الصُّنْعِ تَحْظَ بِفَضْلِهِ
وَخَلِّصْ إِلَيْهِ القَصْدَ يُغْنِيكَ بِالْعَطْفِ
وَفوِّضْ وَسَلِّمْ وارقَ فى دَرَجِ الصَّفَا
عَلَى الكَوْنِ تَحْظَى بالمَعَارِفِ وَالعرْفِ
وَتُدْرِكُ مَا أَمْسَى الْوَرَى عَنْهُ فى غِنًى
وَتَعْرِفُ أَشْيَاءً تَجِلُّ عَنِ الْوَصْفِ

ومن حصل مقام التقوى ، وحاز منها الغاية القصوى ، دام عليه السرور والفرح ، وذهب عنه الحزن والترح .

روى أن رابعة العدوية رضى الله عنها لقيت عتبة الغلام وهو يتبختر فى قميص جديد فقالت له : ما هذا التيه والعجب الذى ما رأيته منك قبل اليوم ؟ فقال : ومن أولى بهذا منى وقد أصبح لى مولى وأصبحت له عبدًا .

وقال ذو النون : رأيت شيخًا فى الركب يمشى وبيده مصحف وهو يقرأ ويهتز ويرقص فى مشيته ، فقلت : ياشيخ ما هذا الرقص ؟ فقال : قلت فى نفسى عبد من أنا ؟ وكلام من أنا أتلو ؟ وبيت من أنا قاصد ؟ فهزتنى حالة الفرح ، وأطربنى ذلك من غير قصد منى اهـ .

ثم توسل فيها طلب بمنة الله وكرمه فقال :

[بمنه وكرمه] .

أى إنما أطلب ما تقدم من منة الله وكرمه لا بسبب عمل ولا حال ، وكل هذا اعتماد على مولاه فيما أولاه ، وتولاه فى مبدئه ومنتهاه .

وهاهنا انتهى الكتاب ، ومابقى إلا مناجاة الكريم الوهاب .

المناجاة

قال بعض الشراح : هذه المناجاة على قسمين : قسم يقضى بالتعريض والتأهب . وقسم يشهد بالتحقيق والتأدب ، وأكثر ما يظهر فضلها للتالى فى وقت الأسحار وبعد صلاة الصبح ، فلها هناك سر عظيم وفتح جسيم ، فمن

لازمها فى ذينك الوقتين وجد بسطًا زائدًا على العادة ، ولها خواص وأسرار يعرفها من جرّبها من العباد والزهاد ، والطالبين لمعرفة رب العالمين ، وقد ذكر بعضها الشيخ ابن عباد فى نظم الحكم فقال :

لَمْ يَبْقَ إِلاَّ مَا بِهِ المَنَاجَاةُ سِيَاقُهُ حَقَّتْ لَهُ الْمُرَاعَاةُ
لِكَوْنِهِ يُهَذِّبُ الأَسْرَارَا وَيَجْلِبُ الأَضْوَاءَ وَالأَنْوَارَا
وَأَنْتَ يَاخِلِّى وَيَاصَفِيِّى إِنِ انْتَهَجْتَ نَهْجَ ذَا الوَلِىِّ
وَسُقْتَهُ مَسَاقَهُ الْجَمِيلاَ مُنْكَسِرًا وخَاضِعًا ذَلِيلاَ
رَأَيْتَ فِى بَاطِنِكَ الزِّيَادَهْ وَالْخَيْرَ وَاسْتَبْشَرْتَ بِالسَّعَادَهْ

ووجه مناسبتها لما قبلها أن القلب إذا انبسط بالفرح بالحبيب ، انطلق اللسان لمناجاة القريب ، فقال فى أولها :

[إلهى أنا الفقير فى غناى فكيف لا أكون فقيرًا فى فقرى ؟] .

قلت : إنما ابتدأ مناجاته بالتحقيق بالفقر لما يعقبه من سرعة الغنى ، وقد قلت فى قصيدة تقدمت :

تَحَقَّقْ بِوَصْفِ الْفَقْرِ فِى كُلِّ لَحْظَةٍ
فَمَا أَسْرَعَ الإِغْنَاءَ إِذْ صُحِّحَ الْفَقْر

قال الشيخ أبو عثمان فى قوله تعالى : (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً)[1] .

التضرع : هو أن تقدم افتقارك وعجزك ، وعارك وضرورتك ، وقلة حولك وقوتك وليس التضرع بالإجهار ، ولا يكون للطاعات إظهار اهـ .

يقول رضى الله عنه : أنا الفقير فى غناى الوهمى الادّعائى فكيف لا أكون فقيرًا فى فقرى الحقيقى الأصلى ؟ فغناى بموافقة الأسباب الظاهرة ليس وجوده منى ولا بقاؤه بيدى ، فأنا فقير فى حالة وجوده ، فكيف لا أكون فقيرًا فى حالة فقده .

---

(١) الأعراف : ٥٥ .

أو يقول : أنا الفقير فى حالة حياتى التى يظهر فيها صورة غناى بعشيرتى وأحبابى ، فكيف لا أكون فقيرًا بعد مماتى حين يتخلف عنى أحبابى وجيرتى .

أو يقول : أنا الفقير إليك فى حال غناى بك فلا غنى لى عن زيادة مددك ، وهذا كما قال القائل :

أَنـا الْفَقِـيرُ إِلَيْكُمْ وَالْغَنِيُّ بِكُمْ
وَلَيْسَ لى بَعْدَكُمْ حِرْصٌ عَلَى أَحَدِ

فكيف لا أكون فقيرًا فى حال فقرى إليك . إذا كنت فقيرًا فى حال نظرى إلى غناى بك ، فكيف لا أكون فقيرًا فى حال نظرى إلى فقرى إليك ؟ ولله در القائل :

إنِّى إلَيْكَ مَعَ الْأَنْفَاسِ مُحْتَاجُ
لَوْ كَانَ فى مَفْرَقِى الْإِكْلِيلُ والتَّاجُ

وفى إظهار الفاقات إلى الله ، وإنزال حوائجه بساحة مولاه ، مع رفع الهمة عما سواه من الحظوظ والمكانة وعزازة القدر عند الله ، ما يكلّ عن وصفه اللسان . ويعجز عن حمله واسع الجنان .

قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : ما أظهر عبد فقره إلى الله تعالى فى الدعاء إلا قال له الحق لبيك ، لكنه لا يستطيع سمع ذلك .

وقد تقدم كلام الله تعالى فى بعض الكتب المنزلة ، يقول الله تعالى : ما رفع عبد حاجته إلىّ دون خلقى أعلم ذلك من نيته فتكيده السموات السبع والأرضون السبع إلا جعلت له فرجًا ومخرجًا من أمره ، أو كما قال .

وقال أبو القاسم القشيرى : من أشار إلى الله ثم رجع بحوائجه إلى غيره أفقره الله إلى الخلق ، ثم نزع له الرحمة من قلوبهم ، ومن شهد محل افتقاره إلى الله ورجع بحوائجه إليه أغناه الله من حيث لا يحتسب ، وأعطاه من حيث لا يرتقب .

قيل لبعض المحققين : أيطلب العبد الرزق ؟ قال : إن علم أين هو فليطلبه ، قال : قيل أيسأل الله ؟ قال : إن علم أنه نسيه فليذكره ، قيل :

أيتوكل على الله ؟ قال : إن كان فى شك فليختبره ، قيل : فأى شىء يعمل ؟ قال : ما أمره اهـ .

فليثق العبد بربه ، وليشتغل بما أمر به ، وليكن كما قال بهلول المجنون : نعبده كما أمرنا ، وهو يرزقنا كما وعدنا ، ولا يتعلق بمخلوق أصلا قلبًا ولا قالبًا ، وليمح الخواطر التى تخطر بباله من هذا المعنى ، قبل أن تستحكم فيه فيعاقب بالحرمان ، ويرمى بالخذلان .

قال إبراهيم الخواص رضى الله عنه : تهت فى البادية حتى ضرنى الحال ، فسمعت نباح كلب فأصغيت إليه وأخذت نحوه ، فإذا بلص قد صفعنى ، فقلت فى نفسى : هذا جزاء من توكل على مخلوق ، فقيل لى فى سرى : ياإبراهيم مادمت فى خفارتنا ، أى جوارنا وعهدنا كنت عزيزًا ، فلما دخلت فى خفارة كلب سلط عليك الخلق ، فتبت إلى الله تعالى ، وإذا بالذى صفعنى قد سقط عن جرف وطار رأسه اهـ وأنشدوا :

مَدَدْتُ يَدِى أَرْجُو نَوَالاً وَرَحْمَةً
وَمَا لِى شَفِيعٌ غَيْرُ جُودِكَ وَالرَّجَا
فَجُدْ لِى بِعَفْوٍ مِنْكَ وَارْحَمْ تَذَلُّلِى
فَأَنْتَ الَّذِى أَعْطَيْتَنِى الْفَقْرَ وَاللَّجَا

ثم إن الفقر والجهل من أوصاف العبودية ، كما أن الغنى والعلم من أوصاف الربوبية ، فلما أدلى بفقره إلى غنى مولاه ، أدلى بجهله إلى سعة علم مولاه ، فقال فى المناجاة الثانية :

[إلهى أنا الجاهل فى علمى ، فكيف لا أكون جاهلا جهولا فى جهلى ؟] .

قلت : يقول رضى الله عنه : أنا الجاهل فى علمى العارض الذى علمتنى ، فكيف لا أكون جاهلا فى جهلى الأصلى الذى فيه أركزتنى ؟

أو يقول : أنا الجاهل فى حال نسبتى إلى العلم الذى علمتنى ، فكيف لا أكون جهولا فى جهلى الذى هو أصلى ومحلى ؟ وما نسبة علم العبودية فى

جانب علم الربوبية إلا كنقرة العصفور من البحر ، كما قال الخضر عليه السلام لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ، قال تعالى :

(وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إلا قَلِيلا)[١] وقال : (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ)[٢] وقال تعالى : (وَالله أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكم لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا)[٣] .

فالعلم العارض لا يدفع الجهل الأصلى ، هذا باعتبار الحكمة والنظر إلى أصل البشرية .

وأما الروحانية فأصلها علامة دراكة ، لأنها نموذج ربانى ولطيفة نورانية ، فإنما حجبها كثافة البشرية وظلمة الطبيعة كما قال فى المباحث :

فَلَمْ تَزَلْ كُلُّ نُفوسِ ٱلْأَحْيَا عَـلَّامَـةً دَرَّاكَـةً لِـلَأَشْيَـا
وَإِنَّمَـا تحْـجُبُـهَـا ٱلأَبْـدَانُ وَالأَنفُسُ النُّزَّعُ والشَّيْـطَانُ
فَكُـلُّ مَنْ أَذَاقَهُمْ جِهَـادَهْ أَظْهَرَ لِلْقَاعِدِ خَرْقَ ٱلعَـادَهْ

ثم إن من تحقق بفقره الأصلى لا يسكن إلى غناه العارض ، ومن تحقق بجهله الأصلى لا يسكن إلى عمله الفرعى ، فإن الأمور كلها بيد الغنى الكريم ، والقلوب كلها بيد المدبر الحكيم ، كما أبان ذلك فى المناجاة الثالثة بقوله :

[إلهى إن اختلاف تدبيرك ، وسرعة حلول مقاديرك ، منعا عبادك العارفين بك من السكون إلى عطاء ، واليأس منك فى بلاء] .

قلت : اختلاف التدبير . هو إقامة كل عبد فى حكمته ، على حسب إرادته ومشيئته ، من فقر أو غنى ، من علم أو جهل ، من عز أو ذل ، من قبض أو بسط ، من سقم أو صحة أو مرض ، من إيمان أو كفر ، إلى غير ذلك من اختلاف آثار القدرة ، وتنوع مظاهر الحكمة . وسرعة حلول المقادير ، هو تبديل تلك الأحوال فى أسرع حال ، من فقر إلى غنى ، ومن غنى إلى فقر ، ومن علم

---

(١) الإسراء : ٨٥ .
(٢) البقرة : ٢٥٥ .
(٣) النحل : ٧٨ .

إلى جهل ، ومن جهل إلى علم ، ومن عز إلى ذل ، ومن ذل إلى عز ، ومن قبض إلى بسط ، ومن بسط إلى قبض ، ومن سقم إلى صحة ، ومن صحة إلى سقم ، ومن إيمان إلى كفر والعياذ بالله ، ومن كفر إلى إيمان ، فقلوب الخلق بيد الله الواحد القهار ، يقلبها كيف يشاء ويختار ، ويفعل بها ما يشاء :

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)[١] .

فإذا تحقق العبد بهذا امتنع من أن يسكن إلى ما أعطاه مولاه ، لأنه قد يسلبه ذلك فى ساعة ، وامتنع أيضًا أن ييئس من مولاه فى وقت شدته وبلواه ، قال تعالى : (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)[٢] .

ودوام الحال من قضايا المحال لكن لم يتحقق بهذا ذوقًا إلا العارفون ، فلذلك لا يسكنون إلى عطاء ، ولا ييئسون فى بلاء ، بل يسكنون إلى من بيده المنع والعطاء ، فلذلك لا يزول اضطرارهم ، ولا يكون مع غير الله قرارهم ، ودليل ما قاله الشيخ قوله تعالى : (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ)[٣] .

ولا مفهوم لليوم ، بل فى كل لحظة هو فى شأن ، يرفع أقوامًا ويخفض آخرين ، يعز قومًا ، ويذل آخرين ، يميت قومًا ويحيى آخرين ، يعطى قومًا ويمنع آخرين ، من أمور يبديها لا يبتديها .

وقال بعضهم فى تفسير الآية : كل يوم يجهز ثلاثة عساكر : عسكرًا من الأصلاب إلى الأرحام ، وعسكرًا من الأرحام إلى الدنيا ، وعسكرًا من الدنيا إلى القبور ، ثم يرتحلون إلى الله جميعًا اهـ . وقد تقدم بعض الكلام على علامات العارف .

وقال الشطيبى فى هذا المحل : فقلوب العارفين تشاهد بنوره ولا مشاهد للحق سواه ، ومنازلات الربوبية خارجة عن رسوم البشرية ، فعلامة العارف أن يكون قلبه مرآة يرى فيه ما غاب من غيره ، وجلاء القلب لا يكون إلا بنور الإيمان والإيقان ، فعلى قدر قوة الإيمان يكون نور القلب ، وعلى قدر نور القلب

---

(١) الأنبياء : ٢٣ .

(٢) الشرح : ٥ ، ٦ .

(٣) الرحمن : ٢٩ .

تكون مشاهدة الحق ، وبقدر مشاهدة الحق تكون المعرفة بأسمائه وصفاته ، وبقدرهما يكون التعظيم لذاته ، وبقدر التعظيم لذاته يكون كمال العبد ، وبقدر كماله يكون استغراقه فى أوصاف العبودية ، وبقدر استغراقه فى أوصاف العبودية يكون قيامه بحقوق الربوبية :

(وَمَاقَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ)[1] اهـ .

قلت : وبقدر قيامه بحقوق الربوبية يكشف له عن أسرار الألوهية وأنشدوا :

كَانَتْ مُحَادَثَةُ الرُّكْبَانِ تُخْبِرُنِى   عَنْ فَضْلِكُمْ وَسَنَاكُمْ أَطْيَبَ الخَبَرِ
حَتَّى الْتَقَيْنَا فَلَا وَاللهِ مَاسَمِعَتْ   أُذْنِى بِأَحْسَنِ مِمَّا قَدْ رَأَى بَصَرِى

ومن أوصاف العبودية بعد الفقر والجهالة الخساسة واللآمة ، كما أن من أوصاف الربوبية بعد الغنى والعلم والإحسان والكرم ، فأدلى الشيخ بذكر لآمة نفسه إلى كرم مولاه وإحسانه ، فقال فى المناجاة الرابعة :

[**إلهى منى ما يليق بلؤمى ، ومنك ما يليق بكرمك**] .

اللؤم : بضم اللام وسكون الهمزة ، هو الشح والدناءة . وفى القاموس : لؤم بالضم ضد كرم .

يقول رضى الله عنه : إلهى يظهر منى من الدناءة والخساسة واللآمة والمساوى ما يليق بلآمتى ودناءتى ، ويظهر منك من المبرة والإحسان والكرامة والامتنان ، وتغطية المساوى والنقصان ، ما يليق بكرمك الزاخر ، وكمال إحسانك الباهر ، فقابل إساءتنا بإحسانك ، وغط مساوينا بوصف كرمك وامتنانك ، فإنك أهل التقوى وأهل المغفرة ، ياأكرم الأكرمين .

حكى عن بعض الناس أنه قال : إلهى كم أعصيك وأنت تسترنى ؟ فسمع قائلا يقول : لتعلم أنى أنا وأنت أنت .

وقيل : إن الله تعالى خلق ملكًا ينادى : يابن آدم يامسكين ، كنت فى العدم مفقودًا فمن ذا الذى صيرك نسخة الوجود إلا الكريم ذو الجود ؟ من ذا الذى

---

(١) الزمر : ٦٧ .

أبرزك من عالم الغيب لعالم الشهود ؟ من ذا الذى استنقذك من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ؟ من ذا الذى تكفل بشئونك إلا الكريم المنان ؟ فكن مطيعًا لله تكن عبده حقًا ، ولا تطع نفسك وهواك فتكون لهما رقاً اهـ .

ومن كرمه تعالى : أن سبقت رحمته غضبه . ومن كرمه أيضًا إقباله على العاصى والمطيع ، ففى الحديث الصحيح :

« لَمَّا خَلَقَ اللهُ الخلقَ قَالَ لِلْقَلَمِ : اكْتُبْ ، قَالَ : وَمَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اكْتُبْ رَحْمَتِي سَبقَتْ غَضَبِي ، فَكَتَبَهُ وَأَلْقَى الْكِتَابَ فَوْقَ الْعَرْشِ » زاد بعضهم : « فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ رَأَى النَّاسُ ذَلِكَ الْكِتَابَ فَيَقْرؤُه كُلُّ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ السَّعَادة ، وَيُحْجَبُ عَنْ أَهْلِ الشَّقاوَةِ » .

وفى الحديث أيضا ، قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ اللهَ تَعالَى خَلَقَ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا وَاحِدَةً إِلَى الأَرْضِ وَأَمْسَكَ عِنْدَه تِسْعًا وَتِسْعِينَ ، فَمِنْ تِلْكَ الرَّحْمَةِ الْوَاحِدَةِ التى أُهْبِطَت إلى الأَرْضِ تَرَاحَمَت الخَلائِقُ بَيْنَهُمْ ، حَتَّى إِنَّ الدَّابَّةَ لَتَرْفَعُ حافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ ضَمَّ تِلْكَ الرَّحْمَةَ إلَى التِّسْعِ وَالتِّسْعِين وَنَشَرَهَا بَيْنَ عِبَادِهِ ، فَتَسَعُ الخَلقَ كَافَةً ، وَيُحْرَمُ مِنْهَا مَنْ هُو كَافِرٌ » وهو معنى قوله تعالى : (وَرَحْمَتِي وَسِعَت كُلَّ شيءٍ) .

ويروى : « أَنَّ رَجُلًا اصْطَادَ أَفْرَاخًا ، فَلَمَّا أَخَذَهُم جَعَلتْ أُمُّهُمْ تَطِيرُ فَوْقَهُمْ ثُمَّ سَقَطَتْ عَلَيْهِمْ فَضَمَّهاَ مَعَ أَوْلَادِهَا ، فأَتَى بِهَا النَّبِي ﷺ فَأَخْبَره خَبَرَهَا ، فقال عليه الصلاة والسلام : أَتَعْجَبُونَ لِهَذَا الطَّائِرِ ؟ وَالله لله أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ المؤْمِن مِنْ هذا الطَّائِرِ بِأَفْرَاخِهِ » .

وروى عنه ﷺ قال :

« يَخْرُجُ مِنَ النَّار رَجُلَان ثُمَّ يمثلَانِ - بَيْنَ يَدَى الله ، فَيُؤْمَرُ

بِرُجُوعِهِمَا إلَى النَّار فَيُسْرِعُ أَحَدُهُمَا فيُلقى نَفْسَهُ فيهَا وَيتَعَاصَى الآخَرُ عَنِ الرُّجوعِ فَيُقَالُ لِلَّذِى رَمَى بِنَفْسِهِ : لِمَ أَلْقَيْتَ نَفْسَكَ فى النارِ ؟ فَيَقُولُ : لِئَلَّا أَكُونَ عَاصِيًا فى الدُّنْيَا ثُمَّ أَكُون عَاصِيًا فى الآخِرَة . وَيُقَالُ للآخرِ : لِمَ لَمْ تَمْتَثِلِ الأَمْرَ كَمَا فَعَل هذَا ، فَيَقُولُ : رَجَوْتُ مِنْ كَرَم الله أَلَا يُعيدَنِى إِلَيْهَا بَعْدَ أَنْ أَخرجَنِى ، فَيُؤمَرُ بِهِمَا إِلَى الْجَنَّةِ » وأنشدوا :

وَلو أن فِرْعوْنَ لَمَّا طَغَى وَقَالَ عَلَى الله قَوْلًا عَظِيمًا
أَنَابَ إِلَى الله مُسْتغْفِرًا لَمَا وَجَدَ الله إِلَّا رحيمًا

وكيف لا يرجى حلمه وكرمه وشمول لطفه ورحمته وقد سبق وجود العباد لطفه ورأفته ؟ كما أبان ذلك فى المناجاة الخامسة حيث قال :

[إلهى وصفت نفسك باللطف والرأفة بى قبل وجود ضعفى ، أفتمنعنى منهما بعد وجود ضعفى ؟] .

قلت : اللطف بالضم الرفق والمبرة وصلاح العبد فى عاقبته ، وفى القاموس : لطف لطفًا بالضم : رفق ودنا ، ولطف الله بك : أوصل إليك مرادك بلطف اهـ والرأفة شدة الرحمة وأرقها ؛ قال فى القاموس أيضًا : والضعف : ضد القوة .

يقول رضى الله عنه شاكيًا إلى الله ضعفه وفقره ، ومستمدًا من مولاه لطفه ورأفتهِ إلهى وصفت نفسك فى كتابك العزيز الذى أنزلته إلينا باللطف والرأفة ، فقلت فيه :

(الله لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ)[1] وقلت : (وَإِنَّ الله بِكُمْ لَرَءوفٌ رَحيمٌ)[2]

واتصافك باللطف والرأفة قديم ، فإذا كنت بنا لطيفًا رحيمًا قبل وجود ضعفنا ، فكيف لا تمنحنا من لطفك ورأفتك بعد ظهور ضعفنا ؟ لطفت بنا ونحن للطف غير محتاجين ، أفتمنعنا منه عند احتياجنا إليه وأنت أرحم الراحمين ؟ أجريت علينا رفقك قبل أن تبرزنا إلى دارك أفتمنعنا منه بعد ظهورنا مع عظيم إبرارك ؟ ومن تفكر فى عجائب صنع الإنسان وما خصه الله به من كمال الخلق

(١) الشورى : ١٩ . (٢) الحديد : ٩ .

والإتقان ، وما يلحقه من ضروب المنن والإحسان : وجد نفسه مغمورًا فى لطف مولاه ، مرفوقًا به فى أول منشئه ومنتهاه .

قال بعض الحكماء : قد أدركت العقول مما أودع فى الإنسان اثنتى عشرة ألف حكمة ، وأما الذى لم تدركه العقول فلا يعلمه إلا الله ، هذا فى خاصة نفسه ، وأما فى غذائه وشرابه ولباسه وسائر لوازمه فأكثر من ذلك ، قال تعالى : (لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسانَ فى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)[1] وقال : (فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ إلَى طَعَامِهِ)[2] الآية .

فسبحان من أعجزت العقول بدائع ألطافه ، وقصرت الأفكار عن عظيم أوصافه : (وَهُوَ اللطِيفُ الخَبِيرُ)[3] .

ما أكثر لطائفه للمبتدئين ، وأوضحها للمستيقظين ، وأعظمها فى جميع المخلوقين ، قد سرى لطفه فى جميع الأكوان ، وأبهرت حكمته أفكار الإنس والجان ، وأنشدوا :

أَحَاطَ بِتَفْصِيلِ الدَّقَائِقِ عِلْمُهُ
فَأَتْقَنَهَا صُنْعًا وَأَحْكَمَهَا فِعلَا

فَمِنْ لُطْفِهِ حِفْظُ الْجَنِين وَصَوْنُهُ
بِمُسْتَوْدَعٍ قَدْ مَرَّ فيهِ وَقَدْ حَلّا

تَكَنَّفَهُ بالُّلطفِ فى ظُلُمَاتِهِ
وَلَا مَالَ يُغنِيهِ هُنَاكَ وَلَا أَهْلَا

وَيَأْتِيه رِزْقٌ سَابِغٌ مِنْهُ سَائِغٌ
يَرُوحُ لَهُ طَوْلًا وَيَغْدُو لَهُ فَضْلَا

وَمَا هُوَ يَسْتَدْعى غِذَاءً بقيمَةٍ
وَلَا هُوَ مِمَّنْ يُحْسِنُ الشُّرْبَ وَالأكْلَا

---

(١) التين : ٤ .
(٢) عبس : ٢٤ .
(٣) الأنعام : ١٠٣ .

جَـرَى فِى مَجَارِى عِـرْقِـهِ بِتَلَطُّفٍ
بِـلا طَلَبٍ جَرْيًـا عَلَى قَـدْرِهِ سَهْـلَا
وَأَجْرَى لَهُ فِى الثَّـدْىِ لُطْفَ غِـذَائِهِ
شَـرَابًـا هَنِيئًـا مَـا أَلَـذَّ وَمَـا أحـلى
وَأَلْهَـمَـهُ مَصًّـا بَـحِكْمَـةِ فَـاطِـرٍ
تَجَـلَّى لأَرْبَـابِ الْعُقُـولِ بِمَـا أَوْلَى
وَأَخَّـرَ خَلْقَ السِّنِّ عَنْـهُ لِـوقْتِهَـا
فَـأَبْـرَزَهَـا عَـوْنًـا وَجَـاء بِهَـا طَـوْلا
وَقَسَّمهَـا لِلْقَـطْعِ وَالْكَسْـرِ قِسْمَـةً
وَلِلطَّحْنِ أَعْطَى كُلَّ قِسْمٍ لَهَا شَكْلَا
وَصَـرَّفَ فِى لَـوْكِ الـطَّعَامِ لِسَـانَه
يُصَـرِّفُـهُ عُلْوًا إِذَا شَـاء أَوْ سُفْـلَا
وَلَـوْ رَامَ حَصْـرًا فِى تَيَسُّـرِ لُقْمَـةٍ
وَأَلْـطَافَـهُ فِيـهَا تَكَـنَّـفَـهَـا كَـلَّا
فَكَمْ خَـادِمٍ فِيهَا وَكَمْ صَـانِعٍ لَهَـا
كَـذَلِـكَ مَشْـرُوبٌ وَمَلْبَسُـهُ كُـلا
وَكَمْ لُـطَفٍ مِنْ حَيْثُ تَحْذَرُ أُكْرِمَتْ
وَمَا كُنْتَ تَدْرِى الفَرْعَ مِنْهَا وَلَا الْأَصْلَا
وَمِـنْ لُـطْفِـهِ تَـكْلِيفُـهُ لِعِبَـادِهِ
يَسِيـرًا وَأَعْـطَاهُمْ مِنَ النِّعَمِ الْجَـزْلَا
وَمِـنْ لُـطْفِـهِ تَـوْفِيـقُهُـمْ لإِنَـابَـةٍ
تُـوَصِّـلُ لِلْخَيْـرَاتِ مِنْ حَبْلِهِمْ حَبْـلَا

وَمِنْ لُـطْفِـهِ بَعْثُ النَّبِى (مُحَمَّـدٍ)
لِيَشْفَـعَ فِى قَـوْمٍ .وَلَيْسـوا لَهـا أَهْـلَا
وَمِنْ لُـطْفِـه حِفْظُ الْعَقَـائِـدِ مِنْهُمْ
وَلَوْ خَالَفَ الْعَاصِى الْمسىء وَإِنْ زَلَّا
ومِنْ لُطْفِـهِ إِخْـرَاجُـهُ عَسَـلًا كـما
نُشَـاهِـدُ مِمَّـا كـانَ أَوْدَعَـه النَّحْـلَا
وَإِخْـرَاجُـهُ مِنْ بَـيْنِ فَـرْثٍ مُجَـاوِرٍ
دَمًـا لَبَنًا صِـرْفًا بِـلَا شَـائِبٍ رِسْـلَا
وَإِخْــرَاجُــهُ مِنْ دُودَةٍ ملْبَسًــا لَــهُ
رِوَاقًـا عجيبًـا أَحْكَمَتْــهُ لَنـاَ غَــزْلَا
وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا خَلْقُـهُ القلب عَـارِفًـا
بِــهِ .شَـاهِـدًا بِـلَا شَبِيـهٍ وَلَا مِثْـلَا
وَأَلْـطَافُـهُ البَحْـرُ المحيطُ فَخُـذْ بِمَـا
بَـدَا لَكَ وَاشْهَـدْهَـا وَإِيَّـاكَ وَالجهْـلَا
وَصَلِّ عَلَى الْمُخْتَـارِ أَفْضَـلِ مُرْسَـلِ
عَلَى خَـالِص الْعِرْفَانِ بالله قَـدْ دَلَّا

فهذه ألطافه الواصلة إلينا ، ومحاسنه الجارية علينا .

فإن وفقنا سبحانه للقيام بشكرها بمحاسن الأفعال والأقوال فذلك من فضله وكرمه ، وإن صرفنا عن شكرها بظهور مساوى أفعالنا فبقهره وعدله ، كما أبان ذلك فى المناجاة السادسة فقال :

[إلهى إن أظهرت المحاسن منى فبفضلك ولك المنة علىّ ، وإن ظهرت المساوى منى فبعدلك ولك الحجة علىّ] .

قلت : ظهور المحاسن على الإنسان فى أقواله وأفعاله وأخلاقه هو من منة الله العظيمة وهداياه الجسيمة ، لأنه عنوان المحبة والقبول ، وذلك هو غاية

المطلوب والمأمول ، وظهور المساوى على العبد فى أقواله وأفعاله ، هو من عدله تعالى وقهره ، وإظهار الحجة عليه . قال تعالى :

(قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)(١) .

فالعبد لبس له مع الحق اختيار ، ولا قدرة على نفع ولا إضرار ، فإن صرفه سيده فيما يرضى فلظهور اسمه الكريم ، وإن صرفه فيما لا يرضى فلتصريف اسمه الحكيم ، أو لإظهار اسمه القهار ، أو المنتقم أو الجبار ، فالنواصى بيده ، والقلوب بين أصبعيه .

دعاء للشاذلى

ولله در الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه حيث يقول فى بعض أدعيته : اللهم إن حسناتى من عطائك ، وسيئاتى من قضائك ، فجد اللهم بما أعطيت على ما به قضيت حتى تمحو ذلك بذلك ، لا لمن أطاعك فيما أطاعك فيه الشكر ، ولا لمن عصاك فيما عصاك فيه العذر ، لأنك قلت وقولك الحق :

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وهُمْ يُسْأَلُونَ) .

اللهم لولا عطاؤك لكنتُ من الهالكين ، ولولا قضاؤك لكنت من الفائزين ، وأنت أجل وأعظم وأعز وأكرم من أن تطاع إلا برضاك ، أو أن تعصى إلا بقضائك .

إلهى ما أطعتك حتى رضيت ، ولا عصيتك حتى قضيت ، أطعتك بإرادتك ولك المنة علىّ ، وعصيتك بقدرتك ولك الحجة على ، فبوجود حجتك وانقطاع حجتى إلا ما رحمتنى ، وبفقرى إليك وغناك عنى إلا ما كفيتنى .

اللهم إنى لم آت الذنب جرأةً منى عليك ، ولا استخفافًا بحقك ، لكن جرى بذلك قلمك ، ونفذ به حكمك ، ولا حول ولا قوة إلا بك ، والعذر إليك ، وأنت أرحم الراحمين .

---

(١) الأنعام : ١٤٩ .

اللهم إن سمعي وبصرى ولسانى وقلبى وعقلى بيدك لم تملكنى من ذلك شيئًا ، فإذا قضيت بشيء فكن أنت وليى واهدنى إلى أقوم سبيل ، ياخير من سئل ويا أكرم من أعطى ، يارحمن الدنيا والآخرة ، ارحم عبدًا لا يملك دنيا ولا آخرة اهـ . وهو الذى اختصره الشيخ فى هذه المناجاة بأحسن عبارة وأوجز لفظ ، فلله دره ، وهذا شأنه فى تهذيب طريق الشاذلية ، جزاه الله عن المسلمين خيرًا ، ومثل هذه المناجاة وقعت من بعض الصالحين .

روى أن شابًا من العباد تعلق بأستار الكعبة وقال : إلهى إن أطعتك فبفضلك ولك الحمد ، وإن عصيتك فبجهلى ولك الحجة على ، فبإثبات حجتك وانقطاع حجتى إلا ما غفرت لى ، فسمع هاتفًا يقول : أنت عتيق من النار اهـ .

وقال ذو النون رضى الله عنه : رأيت جارية والصبيان يرمونها بالحجارة ، فكففتهم عنها ، فنظرت إلى وقالت كأنها تعرفنى : ياذا النون ما علامة الصدق ؟ قلت : صيام النهار وقيام الليل ، فقالت : ياذا النون كيف يلذ النوم لمن علم أن حبيبه لا ينام ؟ ثم بكت وقالت : إلهى إن فكرت فى إحسانك إلىّ لم أبلغ كنهه بفكرى ، وإن ذكرت سترك على لم أقم فيه بشكرى ، فياعجبًا لقلوب العارفين بك ! كيف لاتنفطر إجلالا لقدرك وإعظامًا لوصفك ، تباركت يامولانا ما أحلمك على من عصاك ، وما أفضلك على من لم تدع له شغلا بسواك ، ثم أنشدت :

يَاحَبِيبَ القُلوب أَنْتَ الحبِيبُ	أَنْتَ أُنْسِى وَأَنتَ مِنِّى قَرِيبُ
يَـاطَبِيبًـا بِـذِكْـرِهِ يَتَـدَاوَى	كُلُّ سُقْمٍ فَنِعْمَ ذاك الطَّبِيبُ
طَلَعَتْ شَمْسُ مَنْ أُحِبُّ بِلَيْلٍ	وَاسْتَنَارَتْ فَمَا تَلاَهَا غُرُوبُ
إِنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ لَيْلاً	وَشُمُوس الْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيبُ
فَإِذَا مَا الظَّلاَمُ أَسْبَلَ سِتْرًا	فَـإِلَى رَبِّهَـا تَحِنُّ الْقُلُوبُ

وإذا حنت القلوب إلى مولاها ، وانضمت إليه بعشقها وهواها ، كيف يكلها إلى غيره وهو قد تولاها ؟ وكيف لا ينصرها وهو إليه قد آواها ، كما أبان ذلك فى المناجاة السابعة بقوله :

[إلهى كيف تكلنى] أى تحوجنى إلى غيرك .

[وقد تكفلت لى] . بأمورى وشئونى كلها حيث قلت :

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)[١] وقلت : (ومَا مِنْ دَابَّةٍ فى الأَرْض إلَّا عَلَى الله رِزْقُهَا)[٢] .

[وكيف أضام] أى أظلم وتنتهك حرمتى .

[وأنت الناصر لى] .

فتنصرنى وتنصر لى وتنصر بى ، وقد قلت فى كتابك الحكيم :

(إنَّ الله يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)[٣] وقلت وقولك الحق : (إِنْ تَنْصُروا الله يَنْصرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)[٤] وقلت وحكمك حق : (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ المؤمِنِينَ)[٥] .

فانصرنا ياخير الناصرين ، كما نصرت أنبياءك ورسلك وخاصة أوليائك المقربين ياأرحم الراحمين .

[أم كيف أخيب] . أى أحرم وأمنع من الخير .

[وأنت الحفى بى] أى المعتنى بأمورى ، أو الرفيق بى فى جميع أحوالى . قال تعالى : (الله وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا)[٦] وقال : (وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)[٧] .

فتولنا يامولانا برعايتك ، وحفنا بعنايتك ، واجعلنا بك منتصرين ، وعليك متوكلين يارب العالمين .

[ها أنا أتوسل بفقرى إليك] .

حتى من فقرى وافتقارى ، إذ لانسبة لى منك سوى فقرى إليك ، فأنا فقير

---

(١) الطلاق : ٣ .
(٢) هود : ٦ .
(٣) الحج : ٣٨ .
(٤) محمد : ٧ .
(٥) الروم : ٤٧ .
(٦) البقرة : ٢٥٧ .
(٧) الأعراف : ١٩٦ .

إليك من كل شيء حتى من فقرى . فإن كان الأغنياء قد قدموا بين أيديهم الأموال ، فأنا أقدم إليك فقرى فى جميع الأحوال ، وإن كان الأقوياء قد قدموا إليك صالح الأعمال فأنا أقدم إليك التضرع والابتهال .

مَالِى سِوَى فَقْرِى إِلَيْكَ وسِيَلةٌ
فَبِالاِفْتِقَارِ إِلَيْكَ رَبِّ أَضْرَعُ
مَالِى سِوَى قَرْعِى لبَابِكَ حِيلةٌ
فَلَئِنْ رُدِدْتُ فَأَىّ بَابٍ أَقْرَعُ

وأى نسبة لفقر العبد من غنى مولاه كما قال :

[**وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك**] .

لأنك غنى عن الانتفاع بالمنافع ، فأغننا بك عن الاحتياج إلى غيرك ، حتى ألقاك بك لا بغيرك ، إنك على كل شيء قدير .

روى أن شيخ أشياخنا القطب الجامع مولاى عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه قال للشيخ أبى الحسن رضى الله عنه : ياأبا الحسن بم تلقى الله ؟ قال بفقرى ، قال له :

والله لئن لقيت الله بفقرك لتلقاه بالصنم الأعظم ، هلا لقيته به ؟ وكأنه رضى الله عنه دله على الزوال عن نفسه وعن كل ما ينسب إليها من فقر وغيره .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : ويجاب عن أبى الحسن بأنه أراد بفقره حتى من فقره المنسوب إليه وهو الزوال ، فإذا صح افتقاره من كل شيء فقد صح غناه بالله عن كل شيء . وإذا صح غناه بالله فما يلقى الله إلا بالله . قال الهروى رضى الله عنه : فقر العامة ترك الدنيا ، وفقر الخاصة ترك الدنيا والآخرة ، وفقر خاصة الخاصة ترك الدنيا والآخرة والنفس اهـ . وإظهار هذه الأمور بين يدى العليم الخبير عبودية فقط ، ولذلك قال :

[**أم كيف أشكو إليك حالى وهو لا يخفى عليك**]

إذ محال أن يخفى عليك شيء فى الأرض ولا فى السماء .

(وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)[1] ، (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) ، (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)[2] .

فحسبى من سؤالى علمه بحالى .

[أم كيف أترحم إليك بمقالى] عما فى ضميرى .

[وهو] أى مقالى .

[منك برز] .

إذ لا موجد سواك ، غير أن مقام الربوبية يقتضى وظائف العبودية وهى إظهار الفاقة والاحتياج والتضرع باللسان والابتهال ، دون طلب دفع ما قدر أو جلب ما لم يقدّر ، كما قال الشيخ أبو الحسن : ولا نسألك دفع ما تريد ، ولكن نسألك التأييد بروح من عندك فيما تريد ، كما أيدت أنبياءك ورسلك وخاصة الصديقين من خلقك إنك على كل شىء قدير .

[أم كيف تخيب آمالى] أى مطامعى وحوائجى .

[وهى وفدت عليك] أى نزلت بساحة كرمك ، وعلى ساحل بحر جودك ، وحطت الأحمال على باب فضلك ، والتجأت إلى حصن عزك ، وكيف تخيبون آمال الطامعين وباب كرمكم مفتوح ؟ أم كيف يحرم قاصدكم وبحر فضلكم وإحسانكم ممنوح ؟ أم كيف يضام جاركم وجاه عزكم منيع ؟ أم كيف يخفر جواركم ونفوذ أمركم فى الأشياء سريع ؟ وأنشدوا :

أَيُضَامُ عَبْدٌ فى حِمَاكُمْ قَدْ نَزَلْ
يَا مَنْ لَهُمْ كُلُّ الأَمَانِى وَالأَمَلْ ؟

[أم كيف لا تحسن أحوالى] .

بل لا تكون إلا فى غاية الحسن والكمال [و] الحال أنها .

[بك قامت] .

إذ لا قيام للعبد إلا بالله ، ولا وجود له من ذاته بذاته ، وكل من كان بالله

(١) طه : ٧ .
(٢) الملك : ١٤ .

ومن الله وإلى الله ، فكيف يلحقه النقص والخلل ، ولذلك قال :

[وإليك] .

أى قامت بقدرتك وانتهت إلى أمرك ومرادك ، فالأمور كلها أنت مبدئها ومصدرها ، وإليك منتهاها ومرجعها . قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)[1] وأنشدوا :

أَقْبِلْ عَلَيْنَا لا تَخَفْ فَلَنَا الْهُدَى
وَلَنَا الْجَلالُ مَعَ الجَمَالِ خُذِ الصَّفَا
وَاْقصِدْ حِمَانَا مَا أَتَانَا مُذْنِبٌ
إِلَّا نجَا لَوْ كَانَ مِنَ الذُّنُوبِ عَلَى شَفَا

اللهم إنا قصدنا حماك خاضعين . ولجنابك منتسبين ، وبحبل جوارك متمسكين ، وبعز جاهك مستعزين ، وبنصرك السريع مستنصرين ، فانصرنا ولا تنصر علينا ياخير الناصرين . حاشا عهدك الوافى ، ونصرك الكافى ، أن تخذل من دخل تحت جوارك ، أو تطرد من وقف ببابك ، ياخير من سئل ، وياأكرم من أعطى ، ارحم عبدًا لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، برحتك ياأرحم الراحمين .

[إلهى ما ألطفك بى مع عظيم جهلى ، وما أرحمك بى مع قبيح فعلى] .

قلت : هذه المناجاة الثامنة ، وهى تتميم لما قبلها ، لأن الحق إذا كان وكيلا لك وناصرًا لك وحفيًّا بك ، فقد لطف بك وأنت لا تشعر ، فاللطف هو سوق المسار من حيث المضار ، أو سوق المنافع فى قالب الفجائع .

والحاصل : أن اللطف هو جلب الخير جلبًا لطيفًا لا يعرفه إلا أهل البصائر . فاللطف الجميل هو الذى يكون باطنه نعمة وظاهره نقمة ، باطنه جمال وظاهره جلال ، فالعارف بالله يرى نفسه مغمورًا فى اللطف فى كل حال ، ولذلك قال الشيخ رضى الله عنه فيما تقدم : من ظن انفكاك لطفه عن قَدَره فذلك لقصور نظره ، وأما الجاهل بالله فلا يشعر باللطف إلا إذا كان حسيًّا ظاهرًا

---

(١) هود : ١٢٣ .

جليًّا ، ولذلك قال الشيخ فى هذه المناجاة تواضعًا وتنزلا : إلهى ما ألطفك بى مع عظيم جهلى ، حيث جهلتُ لطفك الخفى وطلبت لطفك الجلىّ ، ولو عاملنا الحق تعالى بمقتضى جهلنا لنزع لطفه الخفى عنا وتركنا مع مرادنا ، ولكنه سبحانه حليم فلم يعاملنا بمقتضى جهلنا ، فلطف بنا مع عظيم جهلنا ، ولذلك تعجب الشيخ من شدة لطف الله به مع عظيم جهله، وهذا كما قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : إذا سألت الله العافية فاطلبها من حيث تعلم أنها لك عافية .

وقال أيضًا فى مرضه حين قال له إنسان : أسأل الله لك العافية ، قال له : ما أنا فيه هو العافية ، وقد سأل العافية أبو بكر رضى الله عنه فمات مسمومًا ، وسألها عمر رضى الله عنه فمات مطعونًا ، وسألهاعثمان رضى الله عنه فمات مذبوحًا ، وسألها على رضى الله عنه فمات مقتولا اهـ .

فالعافية واللطف ، هو الرضا والتسليم ، وسكون القلب عند مجارى الأقدار ، والرحمة هى اللطف والمحبة والتقريب ، فالحق تعالى يريد أن يقرّب عبده إليه ، ويطوى مسافة البعد بينه وبينه ، بما يسلط عليه من إذاية الخلق والفقر والأمراض ، وغير ذلك مما يؤلم النفس . ثم إن العبد يفر منها ، ويسأل الله أن يبعده منها ، لأجل جهله وقبيح فعله ، ولذلك ورد فى بعض الأخبار : يقول الله تعالى : ياعبدى كيف أرحمك بدفع ما به أرحمك ؟ أو كما قال ، وهذا معنى قوله : إلهى ما أرحمك بى مع قبيح فعلى ، وهو هروبى مما به رحمتنى . ويحتمل أن يريد بقبيح الفعل الذنوب والمعاصى فإنها توجب المقت والبعد ، فلو عاملنا بمقتضى فعلنا الذميم لأذاقنا من بأسه الأليم ، لكن رحمة الرحمن الرحيم ، غلبت عذابه الأليم .

أوحى الله تعالى إلى سيدنا موسى عليه السلام : ياموسى خاطب المذنبين باللطف واللين ، وادعهم إلىّ بالقول الجميل ، ورغبهم فى النعيم المقيم ، ولا تغلظ عليهم ، فلو شئت أن أعجل عقوبتهم لما أمهلتهم طرفة عين ، وأعلمهم أنه من تاب إلىّ قبلته ، ومن تمادى أمهلته ، ومن عصانى عذبته . ياموسى من ذا الذى قصدنى صادقًا فخيبته ، أو لجأ إلىّ فأسلمته ، أو سألنى

فمنعته ، أو رجع إلىّ فطردته ، أو تاب إلىّ وما قبلته ، أو تضرع إلىّ وما رحته ؟ اهـ .

ولما أنزل الله تعالى : (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكم وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)[1] .

قال سيدنا على كرم الله وجهه : قال رسول الله ﷺ :

« يَاعَلِيُّ مَنْ آخَذَهُ الله بِذَنْبِهِ فِى الدُّنْيَا فَهُوَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعَذِّبَهُ عَلَيْهِ فِى الآخِرَةِ ، وَمَنْ عَفَا عَنْهُ فِى الدُّنْيَا فَهُوَ أَعَزُّ مِنْ أَنْ يُعَاقِبَهُ فِى الآخِرَةِ ، وَمَنْ سَتَرَهُ فِى الدُّنْيَا فَهُوَ أَجَلُّ مِنْ أَنْ يَفْضَحَهُ فِى الآخِرَةِ » .

قال على : فكانت عندى خيرًا من الدنيا وما فيها ، وأنشدوا :

سُبْحَانَ مَنْ أَبْدَعَ الأَشْيَا وَقَدَّرَهَا
وَمَنْ يَجُودُ عَلَى العَاصِى وَيَسْتُرُه
يُخْفِى الْقَبِيح وَيُبْدِى كُلَّ صَالِحَةٍ
وَيغْمُرُ الْعَبْدَ إِحْسَانًا وَيَشْكُرُهُ

قرب الحق من العبد

ولما كان اللطف يقتضى التهذيب ، والرحمة تقتضى التقريب ، تعجب الشيخ من شدة قرب الحق للعبد مع شدة بعد العبد عنه ، فقال فى المناجاة التاسعة :

[إلهى ما أقربك منى وما أبعدنى عنك ، وما أرأفك بى ، فما الذى يحجبنى عنك] .

قلت : قرب الحق من العبد قرب رحمة واجتباء ، وتقريب واصطفاء ، هذا فى حق الخواص ، وفى حق العوام هو قرب إحاطة وقدرة ، وعلم ومشيئته وتصريف

(١) الشورى : ٣٠ .

وقهرية ، والمراد هنا هو الأول ، فإن بعد العبد من ربه إنما هو بسوء أدبه ، وإلا فالحق تعالى قريب من كل شيء ، محيط بكل شيء ، ليس شيء أقرب إليه من شيء ، ولا شيء أبعد عليه من شيء ، وما بعد العبد من ربه إلا وَهْمُهِ وسوء فعله ، ولذلك قال الشيخ تواضعًا وأدبًا : إلهى ما أقربك منى بلطفك ورأفتك وعلمك وإحاطتك ، وما أبعدنى عنك بوهمى وسوء أدبى ، أو ما أقربك منى بأوصاف الربوبية ، وما أبعدنى عنك بأوصاف العبودية ، فأوصاف الربوبية رفيعة القدر عظيمة الشأن ، وأوصاف العبودية خسيسة القدر دنيئة المقدار ، فلا مناسبة بينهما فى القدر مع تلازمهما فى المحل ، بتحقيق الوحدة فيهما ، متلازمان فى القيام ، متضادان فى الأحكام ، والرأفة شدة الرحمة والعطف ، وذلك يقتضى شدة القرب والوصال ، وينفى وجود السوية والانفصال وهو الحجاب ، ولذلك تعجب الشيخ من وجود الحجاب بينه وبين مولاه مع شدة رحمته له وحباه ، إذ من تعطف عليك وآواك لا يمكن أن تلتفت عنه إلى سواء .

وفى الحكمة ، مكتوب : ياعبدى قد أسجدت لك الكون بما فيه الملك وأملاكه ، والملكوت وأملاكه ، فأنت أنا بما أيدتك وأنا أنت بما قلدتك ، فعش للأبد ، فمقامك لا يزاحمك فيه أحد .

ياعبدى خرقت لك الحجاب ، وفتحت لك الباب ، وأظهرت لك الأمر العجاب ، فأبلغ قومك اللباب ، ولو قالوا ساحر أو كذاب ، فأنا قد وهبتك الأخلاق فدعهم يقولون : (إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلَاق)[1] .

ياعبدى قد جعلتك تقول للشيء كن فيكون ، وما عليك إن قالوا ساحر أو مجنون أنت تشرب من رحيق الكوثر ، وهم يقولون :

(إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤثَرُ)[2] .

عرجت بسرك إلى السماء ، وعلمتك خصائص الأسماء ، فأنت أمين خزائن التحقيق الدالّ لجميع الخلق على الطريق .

ياعبدى من طعن فى الوزير وسفه أمره ، فقد ردّ أمر الأمير وجهل قدره :

---

(١) ص : ٧ .　　(٢) المدثر : ٢٤ .

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ)[1] اهـ .

- فالله تعالى بجوده وفضله إذا اصطفى عبدًا من عباده قرّبه بفضله ، واجتباه لحضرة قدسه ، وصفّاه من كثائف طبعه ، وحمى شخصه من رعونات نفسه ، فيصير من أهل قربه ، قد ارتفع الحجاب عن عين قلبه ، فزجت روحه فى بحار الأحدية ، وغاب سره فى سبحات الألوهية ، فإن كان ممن أريد الاقتداء به رد إلى شهود سر وجوده ، وقد كحلت عين قلبه بسر الحقيقة ، وكسيت ذاته وجودًا معارًا عليها ، وهو وجود الحق المفاض على جميع الممكنات ، فيرى ذاته المتوهمة : (كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ)[2] .

هنالك يصير العبد بالله ولله ، أمره بأمر الله حيث لم يبق فيه شائبة لسواه ، ولا شىء يحجبه عن الله ، فهذا الذى أحبه مولاه ، واصطفاه لحضرة قدسه ، واجتباه لمناجاته وأنسه ، فكان سمعه وبصره وناصره وحافظه فى متقلبه ومثواه ، هنالك يصير عارفًا به فى كل حال ، وخصوصًا عند اختلاف الأحوال ، كما أشار إلى ذلك فى المناجاة العاشرة فقال :

[إلهى قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك منى أن تتعرف إلىّ فى كل شىء حتى لا أجهلك فى شىء] .

قلت : إنما اختلفت آثار القدرة لتعرف عظمة القادر ، واختلافها يكون فى الأجسام كالعلويات والسفليات ، والجمادات والمائعات ، والنورانيات والظلمانيات ، والمائيات والناريات ، وكاختلافها فى الحيوانات ، كأجناس بنى آدم والأنعام والبهائم ، والطيور والسباع والوحوش والحشرات ، وباختلافها فى الأعراض كالبياض والسواد والحمرة والصفرة والزرقة والشهوبة ، وغير ذلك من الألوان لتعرف من ذلك سعة قدرته وعلمه وعظمة ذاته المقدسة ، وإنما تنقلات أطوارها من شباب وكهولة وشيخوخة ، ومن مرض وصحة ، وفقر وغنى ، وعز وذل ، وسلب وردّ ، ومنع وعطاء ، وقبض وبسط ، وجلال وجمال ،

---

(١) النساء : ٨٠ .　　(٢) النور : ٣٩ .

وحياة وموت ، إلى غير ذلك لتعرفه تعالى فى كل حالة من هذه الأطوار ، وعند اختلاف أجناس هذه الآثار ، حتى لا تجهله فى شىء منها ، فإن الحق تعالى قد تعرف لعباده فى أجناس مصنوعاته ، وفى اختلاف أحوال قدرته ، جهله من جهله وعرفه من عرفه ، فلا يسمى الإنسان عارفًا حتى يعرف الله فى الأشياء كلها ، مع اختلاف آثارها وتنقلات أطوارها . فيعرفه فى الذل كما يعرفه فى العز ، ويعرفه فى السلب كما يعرفه فى العطاء ، ويعرفه فى المرض كما يعرفه فى الصحة ، ويعرفه فى الجلال كما يعرفه فى الجمال ، إلى غير ذلك مما تقدم ، ويتلوّن مع كل لون ويتطور مع كل طور ، فالعارف هو الذى يتطور بجميع الأطوار ليقضى جميع الأطوار ، والتلون مع الأشياء هو الأدب معها ، والخضوع مع الحق فيها .

وأما من كان يعرف فى الجمال دون الجلال ، وفى العطاء دون المنع ، وفى العز دون الذل ، وفى الصحة دون المرض ، أو فى العافية دون المحنة ، أو فى الغنى دون الفاقة ، أو فى الرخاء دون الشدة ، فإنه كذاب . وانظر إلى قول القائل :

* حَبِيبِى وَمحْبوبِى عَلَى كلِّ حَالَةٍ *

وما أقبح الإنسان يدعى الخصوصية والمعرفة ونفى السِّوى : فإذا تعرّف له الحق تعالى باسمه الجليل أنكره وهرب منه ، وهذه عادة الله تعالى فى عباده ، كل من ادعى خصوصية أو قوة اختبره فى الحين :

(لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذَابًا أَلِيما)[1] .

فيفتضح المدعون ، ويثبت الصادقون . وقد ذاق الشيخ رضى اللّٰه عنه هذا المعنى بعد أن كان يعرف فى البعض وينكر فى البعض ، فلما تحقق علم أن اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار ، إنما سرها ليعرف الحق بها فقال : إلهى قد علمت : أى تيقنت باختلاف الآثار : أى آثار القدرة وتنقلات الأطوار : أى الأعراض والأحوال أن مرادك منى أن تتعرف إلىّ فى كل شىء من اختلافات أجناس القدرة وتنقلات أطوارها ، حتى لا أجهلك فى شىء منها .

قال فى التنوير : كل حالةٌ زائلة لا محالة ، لأن مراد الحق أن ينقل عبده فى

---

(١) الأحزاب : ٨ .

الأطوار ويخالف عليه الآثار ، حتى يتعرف إليه فى كل حالة خاصة بتعرف خاص ، ومن أراد حالة واحدة لم يرد الكمال اهـ .

فالله تعالى إنما أراد من عباده معرفته ، قال تعالى :

(وَمَاخَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ)[1] .

قال ابن عباس : أى ليعرفون ، ومعرفته إنما تكون بتخالف الآثار ، وتنقلات الأطوار . وذكره غيره فى تفسير قوله تعالى :

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)[2] .

أن إحدى الجنتين معرفة الله وهى جنة المعارف ، والأخرى جنة الزخارف ، ومن دخل المعارف لم يشتق إلى شىء سواها .

وقال مالك بن دينار : خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شىء فيها . قيل : وماذاك ؟ قال : معرفة الله تعالى .

وقيل إنه وجد حجرٌ مكتوب بقلم القدرة : من أحسن كل شىء ولم يعرف الله لم يحسن شيئًا حتى يعرف الله ، فإذا عرف الله فقد أحسن كل شىء ولم يغب عنه شىء اهـ . ويُكْفَى من عرف اللهَ الراحةَ من كد الرزق ، وتعب الحرص ، وتشويش البال منه ، وتعلق الوهم به ، فإنه لم يُؤتَ أكثر الخلق إلا من الاهتمام به ، ولو قَنِع العبد لاستغنى الغنى الذى لا فقر بعده والتوكل على الحى الذى لا يموت هو الغِنَى الأكبر ، الذى لا يلحقه فقر أبدًا .

قال الفضيل رضى الله عنه : لا ينبغى للعبد أن يثق بعافية ولا بغنى ولا بحالة تسره غير الله ، وبينما العبد معافًى تراه مبتلًى ، وبينما العبد غنيًّا تراه فقيرًا ، وبينما العبد ضاحكاً تراه باكياً ، وبينما العبد مسرورًا تراه حزينًا ، وبينما العبد حيًّا وإذا به ميت ، تعس من وثق بغير الله أو ركن لشىء سوى الله انتهى .

حكى أن رجلا ضاق حاله من أجل المعيشة وطال به الكد والتعب ، فخرج هائمًا على وجهه ودخل الصحراء ، فوجد قصرًا دارسًا خربًا قد كشف عنه الريح

---

(١) الذاريات : ٥٦ . (٢) الرحمن : ٤٦ .

الرمل ، وإذا بكوخ من الرخام فى حائط ذلك القصر وفيه مكتوب هذه الحكمة :

لَمَّا رَأَيْتُكَ جَالِسًا مُسْتَقْبِلا أَيْقَنْتُ أَنَّكَ لِلْهُمُومِ قَرِينُ
مَالاَ يُقَدَّرُ لاَ يَكُونُ بِحِيلَةٍ أَبَدًا ، وَمَا هُو كَائِنٌ سَيكُون
سَيَكُونُ مَا هُوَ كائِنٌ فى وَقْتِهِ وَأَخُو الجَهَالَةِ مُتْعَبٌ مَحْزُون
يَجْرِى الحَرِيصُ وَلا يَنَالُ بِحِرْصِهِ شَيْئًا وَيَحْظَى عَاجِزٌ وَمَهِينُ
فَدَعِ الهُمُومَ تَعَرَّ مِنْ أَثْوابِهَا إِنْ كانَ عِنْدَكَ بِالْقَضَاءِ يَقِينُ
هَوِّنْ عَلَيْكَ وَكُنْ بِرَبِّكَ وَاثِقًا فَأَخُو الحَقِيقَةِ شَأْنه التَّهْوِينُ
طَرَحَ الأَذَى عَنْ نَفْسِهِ فى رِزْقِهِ لمـا تَيَقَّنَ أَنَّـهُ مَضْمُـونُ

ومن نظر إلى سعة كرم الله وبره ، ثم نظر إلى عجز نفسه وفقره ، طرح أحمال الهموم عن ظهره ، واكتفى بعلم مولاه ونظره ، كما أشار إلى ذلك فى المناجاة الحادية عشرة :

[إلهى كلما أخرسنى لؤمى أنطقنى كرمك ، وكلما أيأستنى أوصافى أطمعتنى مننك] .

قلت : العبد إذا نظر أوصاف نفسه اللئيمة وأفعالها الذميمة ، استحيا من الله أن يرفع إليه حاجة يطلبها ، وخرس لسانه عن النطق بها ، لأنه يرى من خساسة نفسه ولآمتها ما لا تستحق بذلك إلا العقوبة والطرد ، فإذا نظر إلى سعة كرم الله وجوده وإحسانه وبره ، انطلق لسانه بالسؤال ، وطمع فيما له من سعة العطاء والنوال ، وقد تقدم قوله : إن أردت أن ينفتح لك باب الرجاء فانظر ما منه إليك . وإن أردت أن ينفتح لك باب الحزن فانظر ما منك إليه . ولا شك أن من نظر إلى نفسه بعين الإنصاف لم يجدها أهلا لغير العقوبة ، إما من جهة الغفلة والتقصير ، وإما من قلة الوفاء بالشكر والحمد ، ولهذا وردت فى بعض الأدعية . اللهم افعل بنا ما أنت له أهل ولا تفعل بنا ما نحن أهله .

وقال بعض أهل التشديد من العباد : لا ينبغى للعبد أن يرى نفسه إلا شبه نجس ، إن جلس مع الداعين لم يرهم إلا منعوا الإجابة من سببه ، ولو سجد على الجمر لم ير عمله أهلا للقبول ، ولو كانت نفسه فى غاية التزكية لم يرها أهلا

لمدح ولا لثناء ، ومتى ما تمسح الناس بثيابه تبركا فإنما يرى نفسه كالبكر المزفوفة لبعلها وهى مفتضة بفجور ، كلما طافوا بها وعظموا شأنها زاد حزنها من خوف الفضيحة .

قلت : كل من تحقق زواله عن نفسه وبقاؤه بربه ، فلا حرج عليه فى ثنائه ومدحه ، إذ ليس هو الممدوح ، وإنما الممدوح من فضله عليك ممنوح ، وكل من مدّ يده للتقبيل ، ولم يرها يد الجليل كان القطع فى حقها من القليل :
(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ)[1] .

ولا تكون يده يد الجليل حتى تتحقق خلافته فى الأرض ، ولا تتحقق الخلافة حتى يستولى على الوجود بأسره من عرشه إلى فرشه ، ويصير فى قلبه كحلقة فى الأرض ، فإذا صار هكذا كان خليفة الله فى أرضه ويده يد الملك ، فكل من بايعه بايع الله :
(يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) ، (وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)[2] وأنشدوا فى مثله :

قَدِ اسْتَقَامَ عَلَى الْمِنْهَاجِ يَسْلُكُهُ ... وَلَمْ يَزِغْ حَائداً مِنْهُ وَلا عَدَلَا
مَنْ حَالُهُ يَعْمرُ الدُّنْيَا بِظَاهِرِهِ ... وَقَلْبُهُ فى أَعَالِى الْخُلْدِ قَدْ نَزَلَا
وَأَبْصَرَ الأَمْرَ يَجْرِى فى مَسَالِكِهِ ... مِنْ أَوَّلِ النَّشْءِ حَتَّى شَبَّ وَاكْتَهَلَا
وَنَاطَقَتْهُ الْبَرَايا وَهْىَ صامِتَةٌ ... وَمَيَّزَ الضِّدَّ وَالأَرْوَاحَ وَالْعِلَلَا
وَأَظْهَرَ الصُّورَةَ الْعُلْيَا بِصُورَتِهَا الْـ ... ـحُسْنَى وَمِنْ قَبْلُ كانَتْ أَلْبِسَتْ ظُلَلَا

قال بعضهم : اشتريت جارية سوداء فلما جن الليل وأردت أن أنام ، قالت : يا مولاى أما تستحى ، مولاك لا ينام وأنت تنام ؟ ثم قامت تصلى فانتبهت وهى ساجدة فسمعتها تقول فى سجودها : بحق حبك لى لا تعذبنى ، فقلت لها غلطت ، قولى بحبى إياك لا تعذبنى ، فلما سلمت قالت يا مولاى ما غلطت بل

(١) الفتح : ١٠ .
(٢) الحديد : ٢١ .

أصبت ، ولولا محبته لى ما أنامك وأقامنى ، فقلت اذهبى فأنت حرة لوجه الله ، قالت : هذا العتق الأصغر وبقى العتق الأكبر ا هـ .

مناجاة بعض الوالهين

وكان بعض الوالهين يقول فى بعض مناجاته : إلهى لو أردت إهانتى ما وفقتنى لطاعتك ؛ ولو أردت فضيحتى ما سترتنى عند مخالفتك . إلهى لولا ذنوبى ما خفت العذاب ، ولولا كرمك ما رجوت الثواب ا هـ .

فسر الشيخ الأوصاف التى آيسته إن نظر إليها من منة الله ورحمته فقال فى المناجاة الثانية عشرة :

[إلهى من كانت محاسنه مساوى فكيف لا تكون مساويه مساوى ؟ ومن كانت حقائقه دعاوى فكيف لا تكون دعاويه دعاوى] .

قلت : محاسن الإنسان لا تخلو من خلل ونقصان ، ولو لم يكن إلا نسبتها لنفسه وفعله ورؤيتها من قوته وحوله ، لكان كافياً فى خللها ونقصها ، فتنقلب مساوى بعد أن كانت فى الصورة محاسن ، وإذا كانت محاسنه مساوى فكيف لا تكون مساويه مساوى ؟ وكذلك حقائق العبد ؛ وهى ما تحقق به من المقامات والمنازلات ، وأذواق العارفين ، ومواجيد المحبين ، لا تخلو من شوائب الدعوى ؛ ومسارقة الهوى ، لولا مسامحة المولى . فإذا كانت حقائقه التى تحقق بها وذاقها لا تخلو من شوائب الدعوى . فإذا نسبها لنفسه كانت كلها دعاوى فكيف لا تكون دعاويه الفارغة دعاوى ، فإذا علم العبد هذا استحيا من مولاه أن ينسب لنفسه شيئاً من المحاسن أو يثبت لها نوعاً من الحقائق ، فربما يفضح على رءوس الخلائق ، ويكفى المريب وجدان السلامة .

قال ذو النون رضى الله عنه : الحياء من الله يقطع العبارة ، ويدقق الإشارة .

وقال السرى السقطى رضى الله عنه : الحياء من الله يطرق القلب ، فإذا وجد فيه شيئاً من حب الدنيا رحل .

وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه : يقول الله تعالى : عبدى إنك ما

استحييت متى أنسى الناس عيوبك ، وأنسى بقاع الأرض ذنوبك ، وأمحو من أم الكتاب زلاتك ، ولا أناقشك الحساب يوم القيام ا هـ .

وقد فسر النبى ﷺ الحياء فقال :

« الْحَيَاءُ مِنَ اللهِ : أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى ، وَتَذْكُرَ الْقَبْرَ وَالْبِلَى ، وَتَتْرُكَ أَفْضَلَ زِينَةِ الدُّنْيَا ، فَمَنْ فَعَلَ ذٰلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ » ا هـ .

ووجد رجل نائم فى موضع مخوف كثير السباع والآفات ودابته حوله ترعى ، فقيل له : إنك فى موضع مخوف ، فقال : إنا نستحيى أن نخاف غير الله . ثم رجع لنومه .

وفى الحكمة : من استحيا من الله وهو مطيع استحيا الله منه وهو مذنب .

وسئل الجنيد عن الحياء ما هو ؟ فقال : شىء يتولد بين رؤية النعماء ورؤية التقصير .

علامات الشقاوة

وقال الفضيل : علامة الشقاوة خمسة : قلة الحياء ، وقسوة القلب ، وجمود العين ، والرغبة فى الدنيا ، وطول الأمل ا هـ .

ثم على تقدير سلامة محاسنه من المساوى ، وتصفية حقائقه من الدعاوى ، فأمر المشيئة مبهم والسابقة والخاتمة غير معلوم أمرهما فلا يدرى ما يفعل الله به كما أبان ذلك فى المناجاة الثالثة عشرة بقوله :

[**إلهى حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة ، لم يتركا لذى حال حالا ، ولا لذى مقال مقالا**] .

قلت : لا شك أن حكم الحق نافذ فى خلقه لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد .

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)[1] .

وهذا هو الذى حرّك قلوب العارفين فلم يطمئنوا بحال ، ولم يعتمدوا على عمل ولا مقال ، بل صاروا مضطرين إلى الله فى كل حال ، لأنهم قد علموا أن حكم الله نافذ كلمح البصر أو هو أقرب ، ومشيئته قاهرة لا يصرفها عن إنفاذ مرادها صارف ، ولا تردّها همة ولىّ ولا عارف ، ففى لحظة واحدة يقرّب البعيد ويُبْعِد القريب ، ويرفع الوضيع ، ويضع الرفيع ، ويعز الذليل ، ويذل العزيز ، ويغنى الفقير ، ويفقر الغنى ، ويبسط المقبوض ، ويقبض المبسوط ، ويمرض الصحيح ، ويصحح المريض ، فكيف يصح لعاقل أن يركن إلى حاله ومقامه ، أو يعتمد على علمه وأعماله ، أو يغتر ببسط لسانه ومقاله ، والله تعالى يقول :

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)[2] .

قال بعضهم : من أين للعبد ثبوت حال أو مقال وهو عين المقال فى الحال ؟ ذرة جَلّة جالت على معناها فلم تبلغ منتهاها ، فوالله ما بلغ العبد شفعية معناه فأنّى له بوترية معناه ، جوهرة رامت فلاحت وأومضت فغمضت ، وسكنت فتمكنت ، فبرزت من قعر بحر الغيب فغار منها القدر ، فأجناها فى سواد عينها ، خيفة أن تنال أو تسم أو تعرف ؛ فلا كيف لها ولا أين ولا رحيم ولا عين ولا وصل ولا بين ، ومعنى قوله : عين المقال فى الحال ، يعنى أن أمر العبد بين الكاف والنون ، فهو عين قول « كن » فى أسرع حال ، فالمراد بالمقال هو قول « كن » فيكون تصريف ذلك الأمر فى الحال ، وقوله ذرة جلة إلخ : الذرة النملة الصغيرة ، وجلة عظيمة ، أى ذرة صغيرة فى الحس عظيمة فى المعنى ، جالت بفكرها فى إدراك معناها فلم تبلغ منتهاها كناية عن عجائب صنعة البارى فى أصغر شىء ، فكيف بالإنسان ؟ ولذلك قال : فوالله ما بلغ العبد شفعية معناه ، وشفعية معنى العبد : هى بشريته الظاهرة ، لأنها محل العبودية التى هى شفع باعتبار الربوبية ، ووترية معناه : هى روحانيته ، لأنها واحدة ، وقوله جوهرة رامت : المراد بالجوهرة هى الروح ، رامت : أى قصدت الظهور ،

---

(١) الأنبياء : ٢٣ .　　(٢) الأنفال : ٢٤ .

فلاحت : أى ظهرت فى هذا القالب البشرى ، وأومضت : أى أشرقت أنوارها على ذلك القالب ، فغمضت : أى استترت وانحجبت ، فلم يعلمها إلا من أوجدها ونفخها وسكنت فى قفصها فتمكنت فيه ، وقوله فبرزت من قعر بحر الغيب ، يشير إلى أصل بروزها من بحر الجبروت ، فلما برزت إلى عالم التكوين عالمة بأسرار الغيب وهى أسرار الملك غار منها القدر وخاف عليها أن تفشى أسرار الملك ، فأجناها : أى أجنى عليها فى سواد عينها ، فحجبها عن تلك الأسرار خيفة أن تنال تلك الأسرار ، أو تظهر أو تعرف ، فلا كيف للروح ولا مكان ولا رحم لها ، بل هى درة يتيمة ولا عين لها تعرف ، ولا وصل لها بشىء ، ولا قطع لها عن شىء ، جل ربنا أن يتصل به شىء أو يتصل هو بشىء ، والله أعلم ، وأنشدوا :

فالْكُلُّ يَطْلُبُ نُعْمَى حَيْثُ ضَلَّ وَمَا ... يَحْظَى بِنُعْمى سِوَى فَرْدٍ بِأَفْرَادِ
مَهْلاً عَلَيْكَ وَعُدْ مِنْ حَيْثُ جِئْتَ وَسَلْ ... فى الدَّارِئِينَ غَدًا عَنْ سَاكِنِ الْوَادِى
عَسَاكَ تَلقَى خَبِيرًا عَالِمًا بِهِمُ ... يُنْبِيكَ عَنْهُمْ وَلَمْ يُلْمِمْ بِمِيعَادِ

قال بعض الحكماء : تالله ما ظفر بسعدى إلا من تاه فى أرض التقديس ، وتنزه عن الخسيس والنفيس ، فأصبح جسمه وروحه العصا ونفسه فرعون ؛ فكلامه صمت وصمته كلام ، ولسان حاله يخاطب جميع الأنام ، فلو عرضت عليه الشهادة فى باب الحجرة والموت داخلها على حسن الختام لترك الشهادة واختار الموت على أكمل التمام ، عملا على اليقين دون الشك ، والله خير وأبقى . يا هذا ما أطيب عيش من وعى فأجاب : ما أعز قدر من لازم الباب ، ما أخس قدر من أبعد عن الجناب ، ما أبخس قيمة من له على الغفلات انكباب . إذا غلب الطبع فلا تنفع الحيلة ، ومن سبق له القضاء لم تنفعه الوسيلة ، فسبحان من يعطى ويمنع ، ويضر وينفع ، جذبت العناية سلمان الفارسى من أرض فارس ، ونودى بلال من بلاد الحبشة ، وأبو طالب على باب التحقيق ، وقد حرم التوفيق ، وقع الحكم ، ونفذ الأمر ، وسبقت المشيئة ، وجف القلم :

(لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ) ا هـ[١] .

وكما أن حكمه النافذ يهدم الاعتماد على الأحوال ، كذلك عدله القاهر يهدم الاعتماد على الأعمال ، كما أبان ذلك فى المناجاة الرابعة عشرة حيث قال :

[إلهى كم من طاعة بنيتها وحالة شيدتها ، هدم اعتمادى عليها عدلك بل أقالنى منها فَضْلُك] .

قلت : لا ينبغي للعبد أن ينظر إلى شيء من طاعته وإن عظمت ، ولا أن يستحسن شيئاً من أحواله وإن حسنت ، فالناقد بصير ، والرقيب على الضمائر خبير ، فكم من طاعة تعظم فى عين صاحبها كأمثال الجبال لا تساوى عند الله جناح بعوضة ، وكم من أحوال تصفو عند صاحبها وهى عند الله مدخولة ، وقد تقدم قوله : لا كبيرة إذا قابلك فضلهُ ، ولا صغيرة إذا واجهك عدلُه ؛ فمن قابله بفضله عادت كبائره صغائر ، ومن واجهه بعدله رجعت صغائره كبائر ؛ ولذلك قال هنا : كم من طاعة بنيتها : أى نميتها وكثّرتها هدم اعتمادى عليها عدلُك ، أى نظرى إلى عدلك ، فلما نظرت إلى عدلك تلاشت أعمالى واضمحلت أحوالى ، وكم من حالة شيدتها ورفعتها فلما نظرت إلى عدلك وشدة مناقشتك انهدمت وتلاشت ، بل أقالنى منها ، بأن زالت نسبتها عنى ، فضلك وهدايتك وتوفيقك ، فلم تبق لى طاعة ولا حال ، ورجع ذلك إلى الفاعل المختار الكبير المتعال .

فالواجب على العبد أن ينسلخ من علمه وعمله وحاله ونفسه وروحه وحوله وقوته ، ويبقى فقيراً بين يدى سيده .

(عَبْدًا مَمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ)[٢] .

قال بعضهم : والله ما غاص فى بحر الفناء إلا من باع نفسه من الله :

(إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)[٣] .

---

(١) الأنفال : ٦٣ .

(٢) النحل : ٧٥ .

(٣) التوبة : ١١١ .

كيفَ يخوض فى بحر الحقائق من لم يخلص علمه وعمله من الزيف وصيارفة الحق بالمحك المحمدى على الساحل ، يردون من لا يخلص ؟ وأين الإخلاص ؟ هذا لمن وصل إلى ساحل ذلك البحر ، فكيف بمن ينكره ولا يصدق به أو يسير إليه منحرفاً دون استقامة ؟ كما قيل :

لَيْسَ مَنْ بَاتَ قَرِيرًا عَيْنُهُ مِثْلَ مَنْ أَصْبَحَ قَفْرًا دَارِساَ
لَيْسَ مَنْ أُكْرِمَ بِالْوَصْلِ كَمَنْ ظَلَّ يَهْذِى بِلَعَلَّ وَعَسَى
لَيْسَ مَنْ أَلْبِسَ أَثْوَابَ التُّقَى مِثْلَ مَنْ أُلْبِسَ ثَوْباً دَنِساَ
لَيْسَ مَنْ سِيرَ بِهِ مِثْلَ الَّذِى بَاتَ يَرْعَى فِى الْحَمَى مُبْتَئِسَا
لَيْسَ مَنْ شَاهَدَ صُبْحاً وَاضِحاً مِثلَ مَنْ شَاهَدَ لَيْلًا غَلِساَ
لَيْسَ مَنْ بُوِّئَ رَوْضَاتِ الْحِمَى مِثْلَ مَنْ أُسْكِنَ قَفْرًا يابِساَ
لَيْسَ مَنْ أَشْبَهَ غُصْنًا يَانِعاً مِثْلَ مَنْ أَشْبَهَ عُودًا يابِساَ

ثم إن عدم الاعتماد على العمل لا يقتضى ترك العمل ، بل يجب على العبد أن يداوم ، على العمل ولا يتكل عليه ، فإن لم يقدر على مداومته بالفعل فبالمحبة والعزم ، كما بين ذلك فى المناجاة الخامسة عشرة بقوله :

[إلهى إنك تعلم وإن لم تدم الطاعة منى فعلا جزماً فقد دامت محبة وعزماً] .

قلت : بطاعة العبد لربه يجب أن تكون فعلا ومحبة وعزماً فى كل لحظة ووقت ؛ فإن لم يقدر على ذلك فليعزم على البر والتقوى ، وينو فعل الخيرات ، فنية المؤمن خير من عمله :

(إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ)[1] .

أى يعطكم أفضل مما أخذ منكم فى مال أو عمل .

وقال بعضهم : الفعل الجزم هو وجود العمل والمحبة ، والعزم هو التوجه للعمل ، وكم من متوجه لم يلحق وكم من مجدّ لم يسبق ، لكن فى العزم ظهرت

(١) الأنفال : ٧٠ .

الحقائق ، وبه جاءت الشرائع ، وليس على العبد إلا القصد والجد والعزم ؛ وأما نفوذه فقد يقدّر وقد لا يقدر : (وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ)[١] .

والمراد بالعزم : القصد ، والنية : هى توجه القلب للأمر المطلوب ا هـ .

واعلم أن متابعة العلم اختيارية ، ومتابعة الحال اضطرارية ، فما دام العبد معه بقية اختيار وجب عليه اتباع العلم وهو مقام السلوك ، فإن غلب الحال وجب اتباعه وهو مقام الجذب ، ومثل ذلك قضية الصدّيق حين أتى بماله كله فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام :

« مَا تَرَكْتَ لِأَهْلِكَ ؟ فَقَالَ : تَرَكْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ » .

ولم يلتفت لقوله صلى الله عليه وسلم فى حال التشريع :

« لَأَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ » .

ولما غلب الحال على العلم صار الحكم للحال ، فياله من مقام ما أعز شأنه وأرفع قدره عند المحققين ، وأنشدوا :

وَحَاشَاهُمْ مِنْ قَادِحٍ فِى طَرِيقِهِمِ ... وَمَطْلُوبُهُمْ أَسْنَى الْمَطَالِبِ كُلِّهَا

حَبَاهُمْ بِتَأْيِيدٍ وَعِزٍّ وَعِصْمَةٍ ... فَأَكْرِمْ بِأَوْصَافٍ لَهُمْ مَا أَجَلَّهَا

واعلم أن العازم على الخير فاعل ، والعازم على الوصول واصل ، وليس على العبد إلا الاجتهاد ، فإذا بذل مجهوده وأخلص مقصوده فهو والواصل سواء .

وكان شيخ شيخنا يقول : من مات وهو فى الطريق أدركته الولاية بعد الموت على التحقيق ا هـ .

وقال تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكم فَأُولٰئِكَ مِنْكُمْ)[٢] .

وفى الحديث : « مَنْ مَاتَ فِى طَرِيقِ الْحَجِّ فَهُوَ حَاجٌّ ، وَمَنْ مَاتَ فِى

---

(١) يوسف : ٢١ . (٢) الأنفال : ٧٥ .

طَرِيقِ الْجِهَادِ فَهُوَ مُجَاهِدٌ ، قال تعالى : (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ)[١] وَمَنْ مَاتَ فِي طَرِيقِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ » .

وفى الحديث : « مَنْ مَاتَ وهُوَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ » أى النافع « لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا دَرَجَةٌ واحِدَةٌ ، وَمَنْ تَوَجَّهَ لِأَمْرٍ وَلَمْ يُدْرِكْهُ فَكَأَنَّمَا أَدْرَكَهُ » .

ولابد فى مبادئ الأمور من الصبر والتحمل للمشاق وقمع النفس عن الهوى والراحة ، ولذلك سمى الجهاد جهاداً ، والقاصد يطلب الباب بعد أن كان يطلب سواء السبيل ، فإذا وصل الباب أنتج له طلب الدخول ، فإذا دخل أنتج له الوصول ، فإذا وصل :

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)[٢] وأنشدوا :

مَنْ فَاتَهُ طَلَبُ الْوُصُولِ وَنَيْلُهُ مِنْهُ فَقُلْ ماذا الَّذِى هُوَ يَطْلُبُ
حَسْبُ الْمُحِبِّ فَنَاؤُهُ عَمَّا سِوَى مَحْبُوبِهِ إِنْ حَاضِرٌ وَمُغَيَّبُ

ثم إن عزم العبد على الطاعة ليس هو بيده حقيقة لكنه مأمور به شرعاً ، وهو الذى نبه عليه فى المناجاة السادسة عشرة بقوله :

[إلهى كيف أعزم وأنت القاهر ؟ أم كيف لا أعزم وأنت الآمر ؟].

قلت : محبة الطاعة والعزم عليها والعمل بها ليس هو من قدرة العبد وفعله فى الحقيقة وهو مأمور به من جهة الشريعة لتقوم الحجة وتظهر المحجة .

(قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)[٣] ، (إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ)[٤] .

---

(١) النساء : ١٠٠ .
(٢) السجدة : ١٧ .
(٣) الأنعام : ١٤٩ .
(٤) النساء : ٤٠ .

الجمع بين الحقيقة والشريعة

فمن نظر إلى الباطن وجد العبد مجبوراً ، ومن نظر إلى الظاهر وجده غير معذور ، فالواجب على الإنسان ، وخصوصًا العارف أن ينظر بعين الحقيقة لبواطن الأمور فيعذر الخلق ، لأنهم مجبورون فى قوالب مختارين ، وينظر بعين الشريعة لظواهر الأمور فينفذ الحقوق ويقيم الحدود سترًا لسر الربوبية وإظهارًا لوظائف العبودية ، لكن ذلك بلطف ولين ، قلبه يحن عليه وظاهره يغلظ عليه ، كالعبد يؤدب ابن سيده ، وهذا مضمن هذه المناجاة : أى كيف أعزم على الطاعة وأعقد عليها وأنت القاهر لى ، فلا طاقة لى على فعلها وأنت تقهرنى عنها وهذه هى الحقيقة ، وكيف لا أعزم عليها وأنت الآمر لى بها ، فإن لم أعزم عليها عذبتنى وهذه هى الشريعة ، فالواجب أن أعزم وننظر ما تفعل ، فإن وفقتنى للعمل فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة ، وإن لم توفقنى فأنت أهل العفو والمعذرة ، وأنت الفاعل المختار ، فالأمر أمرك والعبيد عبيدك .

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِى الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً)[1] ، (وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً)[2] .

قال الشطيبى رحمه الله : أراد المؤلف أن يدل المريدين على مقام الجمع بين الحقيقة والشريعة ، لأن عزم العبد مطلوب منه شريعة ، ونتيجة مسلوبة منه فى الحقيقة ، ولا يثبت بينها إلا من ثبّته الله ، فلهذا تعجب الشيخ رحمه الله من تضاد الطالبين ، لأنه خارج عن مقدور البشر ، لكن لما كان الإنسان نسخة الوجود وأشرف كل موجود ، أودع فيه من أسرار حكمته ما يؤلف بين الضدين ، ويجمع بين الكفؤين . قال تعالى :

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ)[3] .

---

(١) يونس : ٩٩ .

(٢) هود : ١١٨ .

(٣) الرحمن : ١٩ ، ٢٠ .

فمن ظهر أثر البرزخية على جوارحه عمل أعمال الدنيا وأعمال الآخرة . ومن ظهر أثر البرزخية على قلبه جمع بين أعمال الآخرة ، ومشاهدة الحضرة ، وأشرق نورها عليه . ومن ظهر أثر البرزخية على روحه جمع بين المشاهدة والمحبة .

ثم قال : واعلم أن الأجسام تموت وتبعث وتنشر ، وكذلك النفوس والأرواح ، فأما موت الأجسام فهو عند الخروج من الدنيا وتبدل القصور بالقبور . وأما موت النفوس فهى عند الخروج من الحظوظ وتبدلها بالحقوق . وأما موت الأرواح فهو رجوعها لعالمها النورانى صفحة الملأ الأعلى على الهاجس النفسانى ، فإذا لم يبق للنفس نظر إلا لله ولا للروح تعلق إلا بالله ، وفنى من لم يكن ؛ وبقى من لم يزل ، انجمع الظاهر بالباطن والباطن بالظاهر ، وتعينت المشاهدة من كل وجهة ، وخوطب من سوى الحق بقوله تعالى :

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)[١] .

وحينئذ يهتف هاتف التجريد من مقام التفريد : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ)[٢] .

فلم يجبه من عوالم البشرية والصور الأثرية مجيب ، فيجيب نفسه بنفسه .

(لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)[٢] ا هـ .

والمراد منه مختصراً ، وإنما أمر الله تعالى بالطاعة والعزم عليها ، لأنها سبب الوصول إليه حسبما جعلها الحق تعالى حكمة وشريعة ، كما بين ذلك فى المناجاة السابعة عشرة بقوله :

[إلهى ترددى فى الآثار يوجب بعد المزار ؛ فاجمعنى عليك بخدمة توصلنى إليك] .

قلت : التردد فى الآثار هو التردد بين إثباته ونفيه وهى حالة المستشرفين ، فإذا أثبته مستقلا كان فى حالة البعد ، وإذا نفاه كان فى حالة الجمع ، فطلب الجمع على الدوام بحيث لا يبقى له تردد فى نفيه وإثباته بالله وهو مقام البقاء ، فإثبات الأثر بالنفس على الدوام هو بعد على الدوام وهو مقام أهل الحجاب من

---

(١) القصص : ٨٨ . (٢) غافر : ١٦ .

العوام ، ونفيه على الدوام هو مقام أهل الجمع من أهل الفناء والجذب ، ونفيه ثم إثباته بالله هو مقام أهل البقاء ، قياماً بوظائف الحكمة والقدرة ، وجمعاً بين الحقيقة والشريعة ، وهذه المناجاة إنما تليق بأهل الاستشراف . ولو أراد الشيخ رضى الله عنه أن ينبه على مناجاة السائرين والواصلين والمتمكنين لقال بعد هذه المناجاة التى هى للسائرين : إلهى تنزهى فى الأنوار يوجب قرب المسار ، فاجمعنى إليك بفكرة توصلنى إليك ، وهذه مناجاة الواصلين قبل الرسوخ والتمكين ، ثم يقول : إلهى تنزهى فى الأسرار يوجب وصل المسار فاجمعنى إليك بنظرة تقيمنى بين يديك ، وهذا غاية الجمع ، وهو تمكن النظرة ، ودوام شهود الحضرة ، ولا يذوق هذا إلا من سبقت له الخدمة ، وتداركته عناية الجذبة فأصبح من الفائزين ، ولمحبوبه من الواصلين .

وقد قيل : إذا أبغض الله عبداً - والعياذ بالله - طرده عن بابه ، وشغله عنه بمكابدة رفع حجابه ، وليس له طاقة على ذلك ما لم يكن الله فى عونه ، وهو معنى « لا حول ولا قوة إلا بالله » لكن العنّين لا يدرك لذة الجماع ، والأعمى لا يدرك رحب الساحات والبقاع .

قيل : إن بعض المجموعين على الله أراد التستر عن مقامه ، فكان لا يسأل عن شىء إلا قال هو ، فقيل له لعلك تعنى الله فسقط ميتاً ، ويسمى عندهم جمع الجمع ، هو خاص بخواص الخواص ، وقيل بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقيل بالرسل ، وقيل بنبينا (محمد) صلى الله عليه وسلم ، ولا يمكن الوصول إلى هذا إلا برفع الهمة عن الكونين ، وخلع النعلين من الدارين .

قال بعضهم : عرضت علىّ الدنيا بزخرفها وزينتها فأعرضت عنها ، فعرضت علىّ الجنان بقصورها وحورها وحللها فأعرضت عنها ، فقيل لى : لو وقفت مع الدنيا لحجبناك عن الآخرة ، ولو التفت إلى الآخرة لحجبناك عنا ، فارض بنا عما سوانا ، وقسطك يأتيك من الدنيا والآخرة .

وقال آخر : رأيت رجلا وضع سجادة على الماء ومضت به ، فقلت فى نفسى فاز الرجل وأنا لم أصلح للدنيا ولا للآخرة ، فسمعت هاتفاً يقول : من لم يصلح للدنيا ولا للآخرة يصلح لنا .

قال الشطيبى : ثم إن التردد فى الآثار ، والنظر إليه إنما هو لأهل الدليل

المفترقين للنظر إليه ، ليستدلوا به على صانعه . وأما أهل الشهود فهم أغنياء عن الأثر ، لأن ظهور الحق عندهم أظهر من غيره ، بل لا وجود لغيره أصلا ، وإلى هذا أشار فى المناجاة الثامنة عشرة بقوله :

[**إلهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك ؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟ ومتى بعدت حتى يكون الآثار هى التى توصل إليك**] .

قلت : قد تعجب الشيخ رضى الله عنه ممن يستدل على الله بنوره بعد كمال ظهوره ، فكيف يفتقر النور بعد ظهوره إلى دليل يدل على وجوده ؟ وكيف يحتاج إلى دليل من هو أظهر من كل دليل ، أم كيف يفتقر إلى دليل من نصب الدليل ، ولله در القائل :

عَجِبْتُ لِمَنْ يَبْغِى عَلَيْكَ شَهَادَةً ... وَأَنْتَ الذِى أَشْهَدْتَهُ كُلَّ شَاهِدِ

وقال الشيخ أبو الحسن رضى عنه : كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف ؟ أم كيف يعرف بشىء من سبق وجوده كل شىء ؟ اهـ .

قلت : فيا عجباً كيف تكون الفروع أظهر من الأصول ، ولولا الأصول لم يكن للفروع حصول ؟ أم كيف تكون السواقى والأنهار الجارية من البحار أظهر من تلك البحار ؟ وما فاضت أنوار الملكوت إلا من بحار الجبروت ؟ لكن البصيرة العمياء لا ترى الشمس فى أفق السماء . ومن أين ترى الشمس مقلة عمياء ؟

قال مريد لشيخه : يا أستاذ أين الله ؟ فقال له أسحقك الله : أتطلب مع العين أين ؟

الجنيد يصف رؤية الله

قال رجل للجنيد رضى الله عنه : يا أبا القاسم هل رأيتم ربكم حين عبدتموه ، أم اعتقدتم الوصول إليه بقلوبكم ؟ فقال الجنيد رضى الله عنه : أيها السائل ما كنا لنعبد ربًّا لا نراه ، وما كنا بالذى تراه أعيننا فنشبهه ، وما كنا

بالذى نجهله فلا ننزهه ، فقال له الرجل فكيف رأيتموه ؟ فقال له : الكيفية معلومة فى حق البشر ، مجهولة فى حق الرب ، لن تراه الأبصار فى هذه الدار بمشاهدة العيان ، ولكن تعرفه القلوب بحقائق الإيمان ، ثم تترقى من المعرفة إلى الرؤية بمشاهدة نور الامتنان .

فهو سبحانه مرئى بالحقائق القدسية ، منزه عن الصفات الحديثة ، مقدس بجماله ، منعوت بكماله ، متفضل على القلوب بمواهبه ونواله ، معروف بعدله ، منعوت بفضله ا هـ . فلما سمع الرجل مقالة الجنيد قام وقبل يده وتاب ، ولازمه حتى ظهر عليه الخير ، ولزم صحبته حتى مات رحمة الله عليهما .

واعلم أن أهل الدليل يستدلون بالصنعة على الصانع ، وبالشاهد على الغائب . وأهل العيان صار الغيب عندهم شهادة ، والدليل عين المدلول .

فالقسم الأول أهل علم اليقين . والثانى أهل عين اليقين أو حق اليقين . القسم الأول عوام . والثانى خواص أو خواص الخواص .

قال الشيخ أبو الحسن : أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان ، قدسوا الحق فى ظهوره أن يحتاج إلى دليل يدل عليه ، فهو معنى قول الشيخ هنا : إلهى كيف يستدل عليك بما ، أى بالكون الذى هو فى وجوده مفتقر إليك ؟ أيكون لغيرك على تقدير وجوده من الظهور ما ليس لك . متى غبت عن البصائر والعيان حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ، وذلك الدليل لا قيام له إلا بك ، محال أن يظهر فى الوجود غير نورك . ومتى بعدت عن الأشياء التى قامت بك ؟ أى بقدرتك حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك ؟ لا مسافة بينك وبين خلقك ، ولا قطيعة تقطعهم عنك إلا وجود الوهم وقاهرية الحجاب ، أعاذنا الله منه بمنه وكرمه . وكيف تجوز عليه الغيبة وهو الرقيب القريب ، كما أبان ذلك فى المناجاة التاسعة عشرة بقوله :

[إلهى عميت عين لا تراك عليها رقيباً ، وخسرت صفقة عبد لم تجعل من حبك نصيباً] .

قلت : الظاهر أن هذا إخبار بأن كل عين خلت من مراقبة الحق تعالى فهى عمياء ، وكل صفقة خلت من محبة الله فهى خاسرة ، ويكون العمى فى حقها

معنويًا ، فكأنها حيث لم تراقب الله تعالى ولم تستحى منه عمياء ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول : (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)[١] وقال تعالى : (وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا)[٢] .

فمن لم يعتقد هذا فهو كافر ، ومن اعتقده ولم يستحى من الله فهو جاهل أعمى البصيرة وقد قالوا : إن الحياء جله من البصر ، ألا ترى أن الأعمى قليل الحياء ، فدل أن البصر الذى لم يراقب الله تعالى ولم يستحى منه ليس ببصر ، وإنما هو عمى . ويحتمل أن يريد بالعين عين البصيرة . قال بعضهم : إذا عصيت الله فاعصه بموضع لا يراك ، فمن لم يستحى من نظر الحق وبارز مولاه بأنواع المعاصى ، فقد عميت عين بصيرته .

وسئل بعضهم : بم يستعين العبد على حفظ بصره ؟ فقال بعلمه بأن رؤية الحق تسبق بصره ا هـ .

وفى حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَفْضَلُ إِيمَانِ الْمَرْءِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ » .

والصفقة : هى ما يشترى جملة ، وكنى بها عن حظ العبد وقسمته الأزلية ، فمن كان حظه من الله المقت والبعد فصفقته خاسرة نسأل الله العافية .

كان بعض السادات يبكى ، فقيل له لم هذا البكاء ؟ فقال له : ليس بكائى من ذنوبى وعصيانى ، لأن ذلك من صفة نفسى ، وإنما بكائى على أن كانت أقساماً قسمت وحظوظاً أجريت وكان حظى منها البعد ا هـ .

وفى بعض الكتب المنزلة على بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : يا عبدى أنا لك محب فبحقى عليك كن لى محبًّا ، فمحبة الله لعبده تقريبه واجتباؤه لحضرته ، ومحبة العبد لله طاعته بامتثال أمره ، واجتناب نهيه ، والاستسلام لقهره ، فهذه أوائل المحبة وهى كسبية ، ونهايتها كشف الحجاب

---

(١) النساء : ١ . (٢) يونس : ٦١ .

وفتح الباب ، والدخول مع الأحباب ، وهذه وهبية نتيجة الكسبية ، وإلى هذا المعنى أشارت رابعة العدوية فى شعرها حيث قالت :

أُحِبُّكَ حُبَّين حُبَّ الْهَوَى   وحُبًّا لِأَنَّكَ أَهْـلٌ لِذَاكَ
فَأَمَّا الذِى هُوَ حُبُّ الْهَوَى   فَشُغْلِى بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ
وَأَمَّا الَّذِى أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ   فَكَشْفُكَ لِى الحُجْبَ حَتَّى أَرَاكَ
فَلَا الْحَمْدُ فِى ذَا وَلَاذَاكَ لِى   وَلٰكِنْ لَكَ الْحَمْدُ فِى ذَا وَذَاكَ

فأشارت رضى الله عنها إلى أن محبة العبد لله على قسمين : قسم ناشئ عن شهود الإحسان ، وقسم ناشئ عن شهود الجمال .

فأما الأول الذى هو ناشئ عن شهود الإحسان ، فلا شك أن العبد إذا نظر إلى إحسان الله تعالى وإنعامه عليه بضروب النعم الحسية والمعنوية أحبه لا محالة ، لأن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها ، وهذا هو المسمى بحب الهوى : أى الميل وهو مكتسب لأن العبد مغمور بإحسانات الله إليه وهو متمكن من النظر فيها ، فلا يزال يطالع نعمة بعد نعمة ومنة بعد منة ، وكل نعمة أعظم من التى قبلها ، فتعظم محبته لمولاه ، وبذلك يبلغ قصده ومناه .

وأما الثانى وهو الناشئ عن شهود الجمال ، فإن العبد إذا كشف الحجاب عن قلبه ، وزالت عنه الموانع والقواطع رأى جمال الحق وكماله ، وأشرقت أنوار الحضرة وسناها على قلبه ، والجمال محبوب بالطبع ، فانعقدت المحبة بينه وبين مولاه ، وإنما خصصت رابعة رضى الله عنها الحب الناشئ عن شهود الجمال بالأهلية دون الأول وإن كان أهلا للجميع ، لأن هذا منة الله لا كسب للعبد فيه ، والآخر فيه سبب وعمل العبد معلول ، وقولها : فشغلى بذكرك عمن سواك من باب التعبير بالمسبب عن السبب والأصل ؛ فثمرته شغلى بذكرك إلخ وقولها أيضاً : فكشفك لى الحجب حتى أراك من باب التعبير بالسبب عن المسبب عكس ما قبله ، والأصل فسببه ومنشؤه كشف الحجاب حتى رأيتك بعين قلبى . وقولها : فلا الحمد إلخ إخبار منها بأن الحبّين معاً منه وإليه فى الحقيقة لا كسب لها فى ذلك وإدراك التفاوت بين ما تؤثره شربة المحبة الناشئة عن

شهود الإحسان ، وما تؤثره شربة المحبة الناشئة عن شهود الجمال ، ونعوت الكمال ، وأن أثر الثانية أقوى من أثر الأولى بل لا نسبة بينهما ضرورى عند كل ذائق ا هـ . قاله الفاسى فى شرح الرائية .

فقول الشيخ رضى الله عنه : لم تجعل له من حبك نصيبًا ؛ يحتمل أن يكون من إضافة المصدر إلى الفاعل والمفعول . والأول أبلغ ، لأن محبة الله لعبده أعظم لأنها أصل محبة العبد لمولاه . قال تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾[1] .

أهل المحبة

فمن أعطاه الله تعالى من حبه المذكور نصيباً فقد حاز ربح الدارين ، وفاز بقرة العين ، ومن حرمه ذلك فقد خسرت صفقته وبان غبنه وخيبته ، نسأل الله منته ورحمته .

قال زيد بن أسلم رضى الله عنه : إن الله عز وجل ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول له : اصنع ما شئت فقد غفرت لك ا هـ ، من ابن عباد .

ولما كانت نهاية المحبة الفناء فى المحبوب ، ونهاية الفناء البقاء وهو الرجوع إلى الأثر أشار إلى ذلك الشيخ فقال فى المناجاة الموفية عشرين :

[إلهى أمرت بالرجوع إلى الآثار فأرجعنى إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار ، حتى أرجع إليك منها ، كما دخلت عليك منها مصون السر عن النظر إليها ، مرفوع الهمة عن الاعتماد عليها ، إنك على كل شىء قدير] .

قلت : الرجوع إلى الآثار : هو النزول من عش الحضرة التى هى الإغراق فى بحر الوحدة والغيبة عن السوى بالكلية إلى سماء الحقوق وأرض الحظوظ ، فينزلون إلى سماء الحقوق أدباً مع الربوبية ، وقياماً بحقوق العبودية ، وإلى أرض الحظوظ أدباً مع الحكمة وإظهاراً لوظائف العبودية .

ومثال الأول وهو النزول إلى سماء الحقوق ، ما يلزم العبد من العبادات البدنية أو المالية مؤقتة أو غير مؤقتة .

---

(١) المائدة : ٥٤ .

ومثال الثانى وهو النزول إلى أرض الحظوظ ، ماتفتقر إليه البشرية من مأكل ومشرب وملبس ومنكح وغير ذلك من الأمور الحاجية ؛ وقد أمر الله تعالى بها ليتميز سر الربوبيه من سر العبودية ، أو ليظهر استغناء الربوبية بافتقار العبوية ، فطلب الشيخ رضى الله عنه أن يرده إليها بعد أن كان رحل عنها بهمته بكسوة الأنوار وهى أنوار الشهود ، فيكون رجوعه إلى الأثر بالله غائبًا عن حظه وهواه ، وقد كان قبل أن يرحل عنها يتعاطاها بنفسه بعد متعته وحظه ، فلما عرف الحق غاب عن نفسه ، فإذا رجع إلى رسم بشريته رجع إليه بالله ، قد كساه أنوار الشهود عن الالتفات إلى سواه ، وطلب أيضًا ان يكون رجوعه إلى الآثار متلبسًا بهداية الاستبصار ، وهى تحقيق المعرفة فى الأشياء التى يتعاطاها كانت عبادات أو عادات ، فلا يسرقه فيها طبع ولاحس ، بل يدخل فيها بالله ومن الله وإلى الله ، ويخرج منها كذلك وهو معنى قوله حتى أرجع إليك منها : أى حتى تكون تلك الأشياء هى التى تردنى إليك حين نعرفك فيها ونشاهد عظمتك ونور جبروتك فيها ، إذ الوجود كله مستمد من بحر جبروتك . فالعارف يشرب من كل شىء ، ويتقوت من كل شىء ، يأخذ النصيب من كل شىء ، ولاينقص من نوره شىء .

فتحصل أن كسوة الأنوار هى دخوله فى العبادات وفى العادات بالله لابنفسه . وهداية الاستبصار : هى معرفته فى تلك الآثار التى نزل إليها ورجع لها . وقوله كما دخلت إليك منها ، معناه أنه كان مع الأكوان وهى حاجبة له عن شهود المكون ، فلما عرف فيها كان دخوله على الله منها ، وهذا كما قال شيخ شيوخنا المجذوب رضى الله عنه :

الْخَلقُ نَوَّارٌ وَأَنَا رَعَيْتُ فِيهِمُ
هُمُ الحُجُبُ الْأَكْبَرُ وَالْمَدْخَلُ فِيهِمُ

وإذا دخل فى الأشياء بالله وشهد فيها أنوار الإله قطعاً كان مصون السر عن النظر إليها على أنها كونية مرفوع الهمة عن الاعتماد عليها ، كانت عبادات أو أسبابًا أو عادات ، لأن العارف غنى بالله ، لايفتقر إلى شىء سواه ، ولايعتمد إلا على مولاه ، فإنه غنى حميد ، سميع بصير ، على كل شىء قدير .

ثمّ إذا رجع العبد إلى الآثار فلابد أن يظهر على ظاهره أثر الذل والافتقار ، تحقيقًا لوظائف العبودية ، وقيامًا بآداب الربوبية ، كما أبان ذلك فى المناجاة الواحدة والعشرين بقوله :

[إلهى هذا ذلى ظاهر بين يديك ، وهذا حالى لايخفى عليك ، منك أطلب الوصول إليك ، وبك أستدل عليك لابغيرك ، فاهدنى بنورك إليك ، وأقمنى بصدق العبودية بين يديك] .

قلت : هذا اعتراف منه رضى الله عنه بغاية الذل والانكسار ، وإظهار لشدة الفاقة والاضطرار ، وانطراح على باب مولاه فى إظهار ذله وبث شكواه ، فلا شك أن الله سبحانه قد كساه حلة العز والافتخار ، وبهاه بين خلقه بالظهور والاشتهار ، حتى صار كلامه تتحلى به القلوب والأسماع ، ويعظم به التأثير والانتفاع ، وذلك ثمرة من تذلل بين يدى العزيز الحكيم الغنى الكريم ، كما قيل :

تَــذَلَّــلْ لِمَـنْ تَهْــوَى لِتَـكْـسِـبَ عِـــزَّةً
فَكَمْ عِـزَّةٍ قَـدْ نَـالَهَـا الَمــرْءُ بِـالــذُّلِّ

وقال آخر :

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَى فَلَيْسَ الْهَوى سَهْـلُ
إذَا رَضِىَ الَمحبـوبُ صَحّ لَـكَ الْـوَصْلُ
تَــذَلَّــلْ لَــهُ تَحْظَى بِـــرُؤيَــا جَمَـالِـهِ
فَفِى وَجْـهِ مَنْ تَهْوَى الْفَـرائِضُ وَالنَّفْلُ

قال ذو النون المصرى رضى الله عنه : ما أعز الله عبدًا بعز هو أعز له ، من أن يذله على ذل نفسه ، وما أذل الله عبدًا بذل هو أذل له ، من أن يحجبه عن ذلك نفسه اهـ . والحال الذى لايخفى على مولاه هو حال الضعف والافتقار والانكسار ، وإنما يكون ظهور ذلك الحال بتحقيق المعرفة والوصال ، ولذلك وصله بقوله : منك أطلب الوصول إليك لا من غيرك ولا على يد غيرك ولا إلى

غيرك ، بل أنت تتولى قبض أرواحنا إلى حضرتك بيدك ، وتحول بيننا وبين غيرك ، وهو معنى قوله وبك أستدل عليك لابغيرك ، إذ لاوجود لغيرك معك على التحقيق ، وقد تقدم قول من قيل له : بم عرفت ربك ؟ قال عرفت ربى بربى ، ولولا ربى ماعرفت ربى .

وقال أحمد بن أبي الحوار رضى الله عنه : لادليل على الله سواه ، وإنما يطلب العلم لأدب الخدمة اهـ . وكما لا دليل عليه غيره كذلك لاهادى إليه سواه ، كما قال : فاهدنى بنورك إليك : أى اهدنى بنور التوجه فى حالة سيرى إليك ، وبنور المواجهة بعد وصولى إليك ، وأقمنى بصدق العبودية بين يديك حتى نتحقق بالوصول إليك ، فنرجع إلى رسم العبودية فى عين شهود أنوار الربوبية :

(وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ الْعَظِيمِ)[1] .

هناك تفيض العلوم اللدنية والأسرار الربانية ، كما أبان ذلك بقوله فى المناجاة الثانية والعشرين :

[إلهى علمنى من علمك المخزون ، وصنى بسر اسمك المصون] .

قلت : العلم المخزون هو العلم الموهوب الذى يفيض على القلوب من حضرة علام الغيوب ، لاينال بحيلة ولااكتساب ، ولايؤخذ من دفتر ولا كتاب ، وإنما يعطى من حضرة الكمال مع حكمة صحبة الرجال أو بمحض الفضل والنوال . وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إنَّ مِنَ الْعِلْمِ كَهَيْئَةِ الْمَكْنُونِ لاَيَعْلَمُهُ إلاَّ الْعُلَماءُ باللهِ تَعَالى ، فَإِذَا نَطَقُوا بِهِ لاَيُنْكِرُهُ إلاَّ أَهْلُ الْغِرَّةِ بِاللهِ » اهـ .

وهى أسرار الربوبية التى أخفاها الله عن خلقه ، ولم يطلع عليها إلا خواص أوليائه ، فإذا نطقوا بها مع غير أهلها ردوا عليهم ، وربما أباحوا دماءهم . ومنها الاطلاع على أسرار القدر وعجائب المغيبات . ومنها الاطلاع على مفاتح العلوم ومخازن الفهوم فيستخرجون بنتائج أفكارهم من درر الحكم ويواقيت العلم ، ماتكلّ عنه الألسن ، وتعجز عن حمله العقول .

---

(١) الحديد : ٢١ .

قال أبو بكر الواسطى فى قوله تعالى :
(وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ)[1] .

هم الذين رسخت أرواحهم فى غيب الغيب وفى سر السر فعرّفهم ماعرّفهم وخاضوا فى بحار العلوم بالفهم لطلب الزيادة ، فانكشف لهم من ذخائر خزائن الغيب تحت كل حرف من كتاب الله وآية من كلام الله عجائب الإدراكات الوهبية ، فنطقوا بالحكمة البالغة والألفاظ السابغة .

أولئك حزب الله ، أولئك حزب الله ، أولئك حزب الله .

وقال بعض التابعين : أسرار الله تعالى لايبديها إلا لأمناء أوليائه من غير سماع ولادراسة . وكان الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه يقول : شاركنا الفقهاء فيما هم فيه ولم يشاركونا فيما نحن فيه . وكان أكثر كلامه فى العقل الأكبر ، والاسم الأعظم ، وشعبه الأربع ، ودوائر الأولياء ، ومقدمات الموقنين ، والأملاك المقربين ، وعلوم الأسرار ، وأمداد الأذكار ، ويوم المقادير ، وشأن التدبير ، وعلم البدء ، وعلم المشيئة ، وشأن القبضة ، ورجال الغيب ، وعلوم الأفراد ، وأخبار القيامة ، وهذا كله من العلم المخزون .

وأما المصون الذى طلب ، فهو صيانة من رؤية الأغيار ، أو الوقوف مع الأنوار ، دون معرفة الواحد القهار ، واسمه المصون هو اسم الله الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى . وسره هو ظهور تصرفه فيما طلب به ، والله تعالى أعلم .

ثم إذا تحقق الصون من الأغيار دخل القلب فى حضرة الأسرار ، وهى حضرة المقربين من السالكين والمجذوبين ؛ كما أبان ذلك فى المناجاة الثالثة والعشرين بقوله :

[**إلهى حققنى بحقائق أهل القرب ، واسلك بى مسالك أهل الجذب**] .

قلت : الحقائق جمع حقيقة ، وهى إدراك معرفة الأشياء على ماهى عليه بالأصالة ، وحقائق أهل القرب هى علومهم ومعارفهم وأذواقهم وكشوفاتهم ،

---

(١) آل عمران : ٧ .

وأهل القرب المقربون ، سواء كانوا من أهل المراقبة الكاملة أو المشاهدة أو المكالمة ، فالقرب يتفاوت بتفاوت السير والتصفية ؛ فيكون أولا مراقبة ، ثم شهودًا ووصولا ، ثم محوًا واضمحلالا ، ثم بقاء وتنزلا ، وهذا يكون بالمجاهدة والمكابدة وهو مقام أهل السلوك من المحبين ، ويكون جذبًا وعناية ، وهو مقام أهل الجذب من المحبوبين ، وقد يكون أولا مجاهدة وآخرًا جذبًا وعناية ، وهو أعظم قدرًا وأعم نفعًا وأنفع تربية ، وهو الذى أراد الشيخ رضى الله عنه ، لأنه طلب أولا التحقيق بحقائق أهل القرب وهم أهل التقرب حتى أحبهم الله ، ثم طلب ثانيًا سلوك أهل الجذب ، وهم المحبوبون الذين اجتباهم الله واختطف أرواحهم من شهود الأغيار إلى شهود الأنوار . قال تعالى :

(اللهُ يَجْتَبِى إليهِ مَنْ يَشَاء) وهم المحبوبون (وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنيبُ)[١] وهم المحبون .

فأراد الشيخ أن يكون جامعًا بين سلوك وجذب وهو أعظم من غيره .

وقال بعضهم : أهل القرب هم أهل الحضرة المستغرقون فى الشهود ، لأن الله تعالى ليس فى حقه قرب ولابعد ، وإنما ذلك فى حق العبد ، فمن رفع الحجاب عن عين قلبه ، وفاضت عليه أنوار قربه ، رمته المراقبة للمشاهدة ، والمشاهدة للمكاشفة ، والمكاشفة للمعاينة ، والمعاينة للمسامرة والمحادثة والمكالمة ، وصار الحق أبدًا جليسه وأنيسه ، فهذا هو التقريب للعبد بعد البعد وخرق جميع الحجب ؛ وهذا المقام هو الذى طلب الشيخ أبو الحسن بقوله : واقرب منى بقدرتك قرباً تمحق به عنى كل حجاب محقته عن إبراهيم خليلك إلخ .

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : أهل المحبة والشوق على قسمين قوم اشتاقت نفوسهم على الغيبة ، فلا سكون لهم إلا باللقاء . وقوم اشتاقت أرواحهم على الحضور والمعاينة والشهود ، فلا سكون لهم إلا بالغوص فى بحر الأسرار وتنزل المعانى على قلوبهم .

وقال أبو يزيد رضى الله عنه : لله رجال لو حجبهم فى الجنة عن رؤيته

(١) الشورى : ١٣ .

لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار ، لكنهم على الأرائك ينظرون .

وقال سمنون : ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة ، لأنهم معه أبدًا ، والنبى صلى الله عليه وسلم قال : « الْمَرْء مَعَ مَنْ أَحَبَّ » .

وسأل جماعة من المشايخ الجنيد رضى الله عنه عن المحبة ؟ فبكى وقال : كيف أصف عبدًا ذاهبًا عن نفسه ، متصلا بذكر ربه ، قائمًا بأداء حقوقه ، ناظرًا إليه بعين قلبه ، قد أحرق قلبه نار هيبته ، وصفا شربه من كأس ورده ، وانكشف له الجبار من أستار غيبه ؟ فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فمن الله ، وإن تحرك فبأمر الله وإن سكن فمع الله ، وهو بالله ولله ومع الله اهـ . فقالوا : ما على هذا مزيد ياتاج العارفين ، وهذا الوصف صادق بأهل السلوك والجذب ، والله تعالى أعلم .

ولاشك أن من بلغ هذا المقام ، ورسخت المحبة والمعرفة فى قلبه على التمام ، لم يبق له مع محبوبه تدبير ولا اختيار ، ولاتشوق ولا انتظار ، كما أبان ذلك فى المناجاة الرابعة والعشرين بقوله :

[إلهى أغننى بتدبيرك عن تدبيرى ؛ وباختيارك عن اختيارى ، وأوقفنى على مراكز اضطرارى] .

قلت : الاستغناء بتدبير الله عن تدبير النفس ، وباختيار الحق عن اختيار العبد . إنما يكون بعد الغيبة عن النفس بشهود مدبر الأمور والمتصرف فيها ، وهو الفاعل المختار الواحد القهار ، لأنه هو المنفرد بالتدبير والاختيار ، والمشيئة والاقتدار . وأما قبل الغيبة عنها بمعرفة سيرها فلا يتخلص العبد من كدر التدبير ، وظلمة التكدير ، ولذلك طلب الشيخ أن يغيبه الله بمعرفة حتى تجتمع همومه وقصوده وإرادته واختياراته فى هم واحد وهو شهود محبوبه ، كما قال القائل :

كَانَت لِقَلْبِيَ أَهْوَاءٌ مُفَرَّقَةٌ
فَاسْتَجْمَعَتْ مُذْ رَأَتْكَ الْعَيْنُ أَهْوَائِى

فَـصَـارَ يَحْسُـدُنِى مَنْ كُنتُ أَحْسُـدُهُ
وَصِرْتُ مَوْلَى الْوَرَى مُذْ صِرْتَ مَوْلَائى
تَـرَكْتُ لِلنَّـاسِ دُنْيَـاهُمْ وَدِيـنَهُمُ
شُغْـلاً بِـذِكْـرِكَ يَـادِينِى وَدُنْيَـائى

فقوله أغننى بتدبيرك : أى بشهود تدبيرك ، وشهود تدبيره لايكون إلا بعد معرفته كما تقدم وطلب أيضًا الوقوف على مراكز الاضطرار ، وهو التعزز فى مقام العبودية فى الظاهر على الدوام ، لأن العارف لايزول اضطراره ، ولا يكون مع غير الله قراره باطنًا ، وقد تقدم هذا ، ومركز الشىء : محل استقراره الذى يركز فيه ، وهى هنا استعارة عن تحقق العبودية ، وهى أن يعرف قدره ، ولايتعدى طوره ، فمن تخلص من ظلمة التدبير والاختيار ، ووقف على مراكز الاضطرار ، فقد تحرر من ذل نفسه ، وتطهر من شرك تخمينه وحدسه ، كما أبان ذلك فى المناجاة الخامسة والعشرين بقوله :

[**إلهى أخرجنى من ذل نفسى**] .

وهو ذلها لغير الله بالطمع والحرص اللذين هما بذرة شجرة الذل .

[**وطهرنى من شكى وشركى ، قبل حلول رمسى**] .

قلت : لعل المراد بالشك هنا خطور خصيم الفرق وهو الخصيم الظلمانى ، أو يريد بالشك خواطر الرزق التى لاتثبت .

وقال الشيخ ابن عباد رضى الله عنه : الشك ضيق الصدر عند إحساس النفس بأمر مكروه يصيبها ، فإذا ضاق صدره بسبب ذلك أظلم قلبه وأصابه من أجله الهم والحزن ، وطهارته منه إنما تكون بوجود ضده وهو اليقين ، فبه يتسع الصدر وينشرح ، ويزول عنه الحرج والضيق ، وبقدر احتظاء القلب من نور اليقين يكون انشراح الصدر واتساعه وعند ذلك يجد القلب الروح والفرح بالله تعالى وبفضله . وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ اللهَ بِقِسْطِهِ وَعَدْلِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرَحَ بِالرضَا وَالْيَقِين ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فى السُّخْطِ والشَّكِّ » اهـ .

والشرك : تعلق القلب بالأسباب عند غفلته عن مسبب الأسباب تعلق الصيد بالشرك ويكون مبدأ ذلك هيجان الشهوة عند استيلاء ظلمة الشك على القلب ، فيحلو له الهوى فيفزع إذ ذاك إلى الأسباب التى يتوصل بها إلى بغيته لايرى غيرها ، فيشتبك من أجل ذلك فى حبائل الشرك وطهارته منه بضده ، وهو نور التوحيد الذى يقذفه الحق تعالى فى قلبه ، فتطمئن بذلك نفسه ، وتسكن من الشره والطيش الذى أصابها ، وكلما قوى التوحيد فى قلبه كان خلاصه من الشرك أكثر ، فتمحى من قلبه الأسباب ، ويثبت فيه خالص التوحيد ، فإذا تطهر العبد من الشرك والشك تولاه الله بالهداية والتسديد والمعونة والتأييد .

وفى أخبار داود عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه : ياداود هل تدرى متى أتولاهم ؟ إذا طهروا قلوبهم من الشرك ، ونزعوا من قلوبهم الشك اهـ .

ويحتمل أن الشيخ إنما طلب طهارته من الشك والشرك عند نزول الدواهى الطوام ، لأنها مظنة الشكوك والأوهام ، فلا يشك فى لطف الله عند نزول قدره ، ولايتعلق بسبب ولاغيره ، فيكون إبرهيميًا حنيفيًا إذا ألقى فى نار الجلال وقال له الكون ألك حاجة ؟ فيقول له بلسان حاله أو مقاله : أما إليك فلا ، وأما إلى الله فبلى ، فإذا قال له سله يقول له : علمه بحالى يغنى عن سؤالى ، فلاجرم أن الله تعالى يقول لنار الجلال : كونى على وليى بردًا وسلامًا ، فتنقلب جمالا محضا . فإذا تخلص العبد من الشك والشرك فى ذلك الوقت ، كان موحدًا حقيقيًا ، وإبراهيميًا حنيفيًا فلا يعتمد إلا على الله ، ولايستنصر إلا به ، كما قال الشيخ .

[**بك أستنصر**] لابغيرك .

[**فانصرنى ، وعليك أتوكل**] أى أفرض أمورى كلها إليك .

[**فلا تكلنى**] أى تحوجنى إلى غيرك .

[**وإياك أسأل**] حوائجى كلها لا من غيرك .

[**فلا تخيبنى**] مما رجوت ، لأنك كريم تستحى أن ترد من رفع يديه إليك صفرين : أى خائبتين .

[**وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى**] من فضلك العظيم .

[**ولجنابك**] أى حماك وحرمك .

[**أنتسب فلاتبعدنى**] من حماك وجوارك ، يسوء أدبى معك وأنت عفو حليم [**وببابك أقف**] وأتضرع ، وألزم ذلك الباب وأقرع .

[**فلا تطردنى**] إذ ليس من شأن الكريم أن يطرد عن بابه العظيم أو يردّ من أمَّ بحر جوده العميم :

وَنَحْنُ كِلَابُ الدَّارِ طَبْعًا وَلَمْ نَزَلْ
نُحِبُّ مَوَالِيهَا وَنَحْرُسُ بَابَهَا

إذَا طُرِدَتْ يَوْمًا كِلَابُ قَبِيلَةٍ
فَقَوْمِى كِرَامٌ لَاتُهِينُ كِلَابَهَا

قال على بن هند الفارسى رضى الله عنه : اجتهد فى ألَّا تفارق باب سيدك بحال ، فإنه ملجأ الكل ، فمن فارق تلك السدّة لايرى بعدها لقدميه قرارًا ولامقامًا اهـ . وإذا لزمت الباب أعطاك قبل الطلب ، ومنحك بلا سبب ، وإلى ذلك أشار فى المناجاة السادسة والعشرين بقوله :

[**إلهى تقدس رضاك أن تكون له علة منك ، فكيف تكون له علة منى**] .

قلت : رضا الله تعالى لاينال بسبب ولاعمل ولاطلب ، وإنما هو منح إلهية ومواهب اختصاصية .

﴿ يَخْتَصُّ بِرحمَتِهِ مَنْ يَشَاء وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[1] .

فقد تنزه وتقدس رضا الله تعالى عن أن تكون له علة منه ، لأنه قديم ، فكيف تكون له علة من غيره وهو الغنى الكريم ، ولذلك قال :

[**أنت الغنى بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك ، فكيف لاتكون غنيًّا عنى**] .

فكما تنزه رضاه وسخطه عن أن تكون لها علة أو سبب ، كذلك تنزهت ذاته المقدسة عن إيصال المنافع منه أو من غيره ، فكما أن ذاته المقدسة قديمة كذلك أوصافه المطهرة قديمة أزلية .

---

(١) آل عمران : ٧٤ .

قال أبو بكر الواسطى رضى الله عنه : الرضا والسخط نعتان من نعوت الحق يجريان على الأبد بما جريا به فى الأزل ، يظهران الوسمين على المقبولين والمطرودين ، فقد بانت شواهد المقبولين بضيائها عليهم ، كما بانت شواهد المطرودين بظلمها عليهم ، فأنى تنفع من ذلك الألوان المصفرة ، والأكمام المقصرة ، والأقدام المنتفخة اهـ ، لكن جرت عادة الله تعالى وسنته أن من ظهرت عليه الطاعات والإحسان ، كان ذلك علامة الرضا والرضوان ، ومن ظهرت عليه المخالفة والعصيان ، كان ذلك علامة السخط والخسران وبهذا جاءت الشرائع ، والمرء يموت على ماعاش عليه ، والنادر لاحكم له ، والله تعالى أعلم .

وقد قال بعض العلماء فى قوله عليه الصلاة والسلام :

« إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَل بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتّى مَا يَبْقى بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعمل بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا ، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتّى مَايَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَل أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ » .

إن الأول كثير بفضل الله ، والثانى نادر لاحكم له ، كسبقية رحمة الله غضبه : (وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ)[1] .

ومع هذا لم تزل الأكابر تخاف من السابقة أو الخاتمة ، إذ لايدرى ماسبق به القضاء والقدر ، كما أشار إليه الشيخ فى المناجاة السابعة والعشرين بقوله :

[إلهى إن القضاء والقدر قد غلبنى] .

فكم أعزم على الطاعة والقضاء يغلبنى ؟ وكم أفر من المعاصى والقدر يقحمنى ؟ فلاحيلة لى إلا رجاء حولك وقوتك .

[وإن الهوى بوثائق] أى بحبائل .

[الشهوة أسرنى] .

أى ربطنى وحبسنى عن النهوض إلى حضرتك ، والفوز بدخول جنتك .

---

(١) الأحزاب : ٤ .

[فكن أنت الناصر لى] دون واسطة من غيرك .

[حتى تنصرنى] على من يصدنى عنك .

[وتنصر بى] من تعلق بجنابى أو لاذ بسببى ، وهذا كما قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : وأغننا بلا سبب ، واجعلنا سبب الغنى لأوليائك ، وبرزخًا بينهم وبين أعدائك ثم سأل الغنى الأكبر فقال :

[وأغننى بفضلك حتى أستغنى بك عن طلبى] .

فإن العبد إذا تعمر قلبه بالله استغنى به حتى عن طلبه ، وربما دلهم الأدب على ترك الطلب ، وهذه هى السعادة العظمى والولاية الكبرى ، كما قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : فالسعيد حقًا من أغنيته عن السؤال منك ، وهذه نتيجة أنوار الولاية التى أشرقت فى قلوب العارفين ، وهذا معنى قوله :

[أنت الذى أشرقت الأنوار فى قلوب أوليائك] .

حتى ظهر الحق وزهق عنهم الباطل ، فعرفوك ووحدوك .

[وأنت الذى أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك] فملأتها بأنوار شهودك فأحبوك ولم يحبوا سواك ، لأنهم لم يشهدوه .

[وأنت المؤنس لهم] بحلاوة ذكرك ، وشهود نورك .

[حيث أوحشتهم العوالم] .

فلم يستأنسوا بشىء منها ، بل استوحشوا منها من حيث كونيتها ، واستأنسوا بصانعها والمتجلى فيها ، فأبدلهم الله الأنس به فى الخلوات ، والمجالسة معه فى الفلوات ، بحلاوة المشاهدة والمكالمة والمساررة والمناجاة ، وهذا هو النعيم المقيم ، والفوز العظيم .

قال ذو النون المصرى رضى الله عنه : بينما أنا أمشى فى البادية إذ لقيتنى امرأة فقالت من أنت ؟ فقلت رجل غريب ، فقالت : وهل توجد مع الله غربة ؟

وكتب مطرف بن عبد الله بن الشخير إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما : وليكن أنسك بالله وانقطاعك إليه ، فإن لله عبادًا استأنسوا بالله ، فكانوا فى وحدتهم أشد استئناسًا منهم مع الناس فى كثرتهم ، وأوحش مايكون الناس آنس مايكونون ، وآنس مايكون الناس أوحش مايكونو اهـ .

[أنت الذى هديتهم حتى استبانت لهم المعالم] .

أى أنت الذى هديتهم طريق الوصول إلى حضرتك ، حتى استبانت : أى ظهرت لهم معالم : أى علامات التحقيق ، وهذا من الشيخ رضى الله عنه تعريض بالسؤال ، وهو أعظم من التصريح ، وكأنه يقول : إلهى كما أشرقت الأنوار فى قلوب أوليائك حتى عرفوك ، وكما أزلت الأغيار من قلوب أحبائك حتى أحبوك ، وكما آنستهم حيث أوحشتهم العوالم ، وهديتهم حتى استبانت لهم المعالم ، فأشرق أنوار المعارف فى قلبى حتى أعرفك ، وأزل الأغيار من قلبى حتى أحبك ، وآنسنى بك حيث أوحشتنى العوالم واهدنى إلى طريق التحقيق حتى نتبين لى المعالم ، فأستغنى بك عن كل شىء ، وأجدك عندى كل شىء ، كما قال :

[ماذا وجد من فقدك] .

ولو ملك الدنيا بحذافيرها فهو أفقر الفقراء ، كما قال الشاعر :

لِكُلِّ شَىْءٍ إِذَا فَارَقْتَهُ عِوَضٌ
وَلَيْسَ لِلهِ إِنْ فَارَقْتَ مِنْ عِوَضِ

قيل للشبلى : أى الخسران أعظم ؟ قال : من فاتته الجنة ودخل النار ؛ فلما مات رؤى فى المنام ، فقيل له : مافعل الله بك ؟ فقال لم يطالبنى بالبراهين والدعاوى إلا على شىء واحد ، قلت ذات يوم : لا خسارة أعظم من خسران الجنة ودخول النار ، فقال لى : وأى خسارة أعظم من خسران لقائى : أى شهودى ومعرفتى .

[وما الذى فقد من وجدك] .

لقد ملك الوجود بسره ، واستغنى غنى لافقر بعده آخر دهره .

[لقد خاب من رضى دونك بدلا] .

أى لقد خاب وخسر من أحب شيئا دونك ، ورضيه بدلا بك ، وأنشدوا :

سَهَرُ الْعُيُونِ لِغَيْرِ وَجْهِكَ بَاطِلُ
وَبُكَاؤُهُنَّ لِغَيْرِ فَقْدِكَ ضَائِعُ

أَيُظَنُّ أَنِّى فِيكَ مُشْتَرِكُ الْهَوَى
هَيْهَاتَ قَدْ جَمَعَ الْهَوَى بِكَ جَامِعُ
بَصَرِى وَسَمْعِى طَائِعَانِ وَإِنَّمَا
أَنَا مُبْصِرٌ بِكَ فِى الْحَيَاةِ وَسَامِعُ

[ولقد خسر من بغى عنك متحولا] .

أى ولقد خسر من أوقفته ببابك ، ثم طلب باب غيرك ، وتحول إليه والتجأ إلى غير جنابك ، فلا أخسر منه ، ولا أبخس صفقة من تجارته ، ترك باب الكريم ، والتجأ إلى باب العبد اللئيم ، فقوله متحولا مفعول لبغى بمعنى طلب ، وهو اسم مفعول بمعنى المصدر ، وعنك متعلق بالمصدر : أى ولقد خسر من طلب تحولا عن جنابك العظيم وبابك الكريم :

[كيف يرجى سواك وأنت ماقطعت الإحسان ؟] .

ولا تقطعه أبدًا عن الإنسان .

[أم كيف يطلب من غيرك وأنت مابدلت عادة الامتنان ؟] .

بل امتنانك فائض على الأنام ، وهو واصل إليهم على الدوام . عرفه العارفون ، وجحده الغافلون .

[يامن أذاق أحبابه حلاوة مؤانسته] .

وذلك حين استوحشوا من مؤانسة غيره .

[فقاموا بين يديه متملقين] .

قلت : التملق : هو التلطف فى بث الشكوى ، والتودد بمساررة النجوى .

وفى الحديث : « إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ إِذَا دَعا أَخِّروا حاجَةَ عَبْدِى ، فَإِنِّى أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ » .

فالتملق بين يدى الحبيب ، ومساررة القريب ، هى من أعظم الرغائب ، وأفضل المطالب ، لايعرفها إلا أهل الشوق والاشتياق ، كما قال الشاعر :

سَفِينَةُ الْحُبِّ فِى بَحْرِ الْهَوَى وَقَفَتْ
فَامنن عَلَىَّ بِرِيحٍ مِنْكَ يُجْرِيهَا

لَايَعْـرِفُ الشَّـوْقَ إِلَّا مَـنْ يُكَـابِـدُهُ
وَلَا الـصَّبَـابَـةَ إِلَّا مَـن يُـعَـانِـيـهَـا
لَا أَوْحَشَ اللهُ مِـنْـكُمْ مَـنْ يُحِـبُّـكُـمُ
وَآنَسَ اللهُ دَارًا أَنْـتُـمُ فِـيـهَـا

[يامن ألبس أولياءه] العارفين .

[ملابس هيبته] .

حتى هابهم كل شيء ، وخاف منم كل شيء ، ولم يخافوا من شيء ، وفى الحديث : « مَنْ خَافَ اللهَ خَافَ مِنْهُ كُلُّ شَيْء ، وَمَنْ لَمْ يَخَفِ اللهَ أَخَافَهُ كُلُّ شَيْء » . وحيث ألبسهم لباس هيبته .

[فقاموا بعزته مستعزين] .

لما رفعوا همتهم عن الخلق أعزهم الله ، ولما رفعوا همتهم عن الدنيا أعزهم الخلق ، فإن الولى إذا أراد الله أن يرده إلى خلقه لينفع به عباده ألبسه حلتين ، حلة البهاء والجمال ، ليقبل الناس عليه بالمحبة والوصال ، فيغنيهم الله به . وحلة الهيبة والجلال ، ليمتثل أمره إذا أمر ، ويجتنب نهيه إذا نهى . وهاتان الحلتان يكساهما عند الرسوخ والتمكين ، وإلى ذلك أشار بعض الشعراء والله أعلم بقوله :

إِنَّ عِرْفَانَ ذِى الْجَلَالِ لَعِزٌّ وَضِيَـاءٌ وَبَهْجَـةٌ وَسُـرُورُ
وَعَلَى الْعَارِفِـينَ أَيْضًا بَهَـاءٌ وَعَلَيْهِمْ مِنَ الْمَحَبَّـةِ نُـورُ
فَهَنِيئًـا لِمَنْ عَـرَفَـكَ إِلٰهِى هُـوَ وَاللهِ دَهْـرُهُ مَسْـرُورُ

فلما كانوا لله وبالله ومع الله أعزهم الله وأعزهم من أعزهم . قيل فى تفسير قوله تعالى : (تُعِزُّ مَنْ تَشَاء)[1]

قال : بأن يكون لك بك معك بين يديك اهـ ، وسبب العز من الله هو ذكر الله كما قال :

---

(١) آل عمران : ٢٦ .

[أنت الذاكر من قبل الذاكرين] .

أى أنت الذاكر لهم من قبل أن يذكروك ، فلولا ذكرك إياهم ما ذكروك .

قال أبو يزيد رضى الله عنه : غلطت فى بداية أمرى فى أربعة أشياء ، توهمت أنى أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه ، فلما انتبهت رأيت ذكره سبق ذكرى ، ومعرفته سبقت معرفتى ، ومحبته أقدم من محبتى ، وطلبه لى أولا حتى طلبته .

[وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين] .

فلما بدأتهم بالإحسان توجهوا إليك بالطاعة والإذعان .

[وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين] .

جلّ حكم الأزل أن يضاف إلى الأسباب والعلل .

[وأنت الوهاب ، ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين] .

فقد وهبت لنا النعم ، وأمرتنا بالسخاء والكرم ، ووفقتنا لعطائها ، ووعدتنا بالنعيم الجزيل عليها ، فلله ماأعطى ، وله ماأخذ فإذا عرف العبد هذا لم تبق له وسيله يتوسل بها إلا فضل الله وكرمه .

وفى مناجاة الجنيد رضى الله عنه : يا ذاكر الذاكرين بما به ذكروه ، يابادئ العارفين بما فيه عرفوه ، ياموفق العابدين لصالح ماعملوه ، من ذا الذى يشفع عندك إلا بإذنك ، من ذا الذى يذكرك إلا بفضلك ، واستقراض الرب من عبده ماوهبه له غاية فى ترفيعه لقدره وإبانته لشرفه ، ووعده مع ذلك جزيل الثواب نهاية فى إكرامه له وتفضله عليه .

وقال بعضهم : ملّكك ثم اشترى منك ماملّكك ، ليتبت لك معه نسبة ، ثم استقرض منك ما اشتراه ، ثم وعدك عليه من العوض أضعافًا بين فيه أن نعمه وعطاياه بعيدتان عن أن تكونا مشوبتين بالعلل اهـ .

قال ابن عباد رضى الله عنه : ولما بين أن طلب الحق سابق على طلب العبد طلب منه أن يطلبه ليتحقق منه الطلب ، فقال فى المناجاة الثامنة والعشرين :

[إلهى اطلبنى برحمتك حتى أصل إليك] .

أى اطلبنى برحمتك الأزلية حتى أطلبك وأصل إليك ، فإن الطلب سابق الوصول ، وهذه طريقة السلوك .

ثم أشار إلى طريق الجذب والعناية فقال :

[**واجذبنى بمنتك حتى أقبل عليك**] .

قلت : ولو عكس لكان أحسن ؛ فيقول اطلبنى برحمتك حتى أقبل عليك واجذبنى بمنتك حتى أصل إليك ، فإن الجذب هو الاختطاف من شهود الأكوان إلى شهود المكون ، والغالب أن يكون بعد التوجه والطلب والمجاهدة والتعب ، وقد يجذب أولا ثم يرد إلى السلوك ، والأول أكمل .

ثم إذا حصل طلب الرب لعبده حتى وصل إليه لاينقطع عنه خوفه ورجاؤه ، كما أبان ذلك فى المناجاة التاسعة والعشرين بقوله :

[**إلهى إن رجائى لاينقطع عنك وإن عصيتك ، وإنّ خوفى لايزايلنى وإن أطعتك**] .

قلت : لما كانت السابقة مبهمة والخاتمة مجهولة كان العبد بين خوف ورجاء ولو بلغ مابلغ ، فإن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء ، والنواصى بيد قدرته تقودها حيث شاءت . قال الشاعر :

حَسْبِىَ اللهُ تَــوَكَّلْتُ عَلَيْـهِ ... مَنْ نَوَاصِى الْخَلْقِ طرًّا فى يَدَيْهِ

لَيْسَ لِلْهَـارِبِ فِى مَهْـرَبِـهِ ... أَبَــدًا لا مَلْجَـأٌ إلاَّ إلَيْــهِ

فكيف يصح للعبد أن ينقطع خوفه إن أطاع ، أو يقل رجاؤه إن عصى ، وقد تقدم فى أول الكتاب أن خوف العارفين ورجاءهم ناشئ عن شهود صفة الجلال والجمال وهما لا يتغيران ، فكذلك ماينشأ عنهما ، ولذلك وصف الشيخ نفسه بهذه الحالة الشريفة وهى الاعتدال على الدوام ظهرت منه طاعة أو معصية ، وراجع ماتقدم ، وانظر عند قوله : لاكبيرة إذا قابلك فضله إلخ .

فإذا تحقق أن العبد لامهرب له فى حال عصيانه إلا وقوفه ببابه ولاسكون له فى حال طاعته إلا إلى كرمه وإحسانه علم أنه مدفوع إليه على كل حال ، وهذا معنى قوله :

[**قد دفعتنى العوالم إليك**] .

فمهما ملت إلى شىء دفعتنى عنه أو ركنت إليه حركته على حتى تدفعنى إليك، فما أرحمك بى مع عظيم جهلى ، وهذه علامة العناية من الله لعبده ، فمهما رآه

وقف مع شيء أو ركن إلى شيء ولو كان طاعة شوّشه عليه ورحله منه ، وقد تقدم أن من جملة العقوبة التى يعاقب بها المريد تركه وما يريد .

وقال شيخ شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه : إذا رأيتم الفقير يقوم الغواث والتشويش عليه من كل جهة ، فاعلموا أن الله تعالى يريد أن يسكنه عنده أو كلامًا هذا معناه .

والحاصل : أن الحق تعالى غيور لايحب قلب عبده أن يركن إلى غيره ، وهذا من كرمه تعالى وإحسانًا إلى عباده ، ولذلك قال :

[وقد أوقفنى علمى بكرمك عليك] .

قلت : لما دفعته العوالم إليه لم يجد كريمًا سواه ، فأوقفه كرمه على بابه ، ولاذ بجنابنا ، والكريم لاتتخطاه الآمال . قيل : معنى كرم الله إحسانه لعباده ، وقيل : الذى لايدع حاجتهم لغيره ، وقيل : الذى يعطى قبل السؤال .

قال الجنيد : الكريم الذى لايحوج إلى السؤال . وقال المحاسبى : الذى لايبالى من أعطى ولاكم أعطى . وقيل : إن من فهم كرم الله تعالى لم يجزع من سوء قضاء ، لأنه يرى المصيبة نعمة مستورة عن إدراك الخلق ، كما قال سيدنا عمر رضى الله عنه : ما أصابنى الله بمصيبة إلا رأيت لله فيها ثلاث نعم : الأولى حيث لم تكن فى دينى . الثانية حيث لم تكن أعظم مما وقعت . الثالثة أن الخطايا تكفر بها . فأنا أشكر الله عليها اهـ . ولهذا قالوا : ليس العجب ممن يلتذ بالنعيم ، إنما العجب ممن يلتذ بالعذاب الأليم ؛ وذلك لايكون إلا بخرق عادة النفس حتى تلتذ بما يتألم به الناس ، كما قال القائل :

أُرِيدُكَ لَا أُرِيدُكَ لِلثَّوَابِ وَلٰكِنِّى أُرِيدُكَ لِلْعِقَابِ
وَكُلُّ مآرِبِى قَدْ نِلْتُ مِنْهَا سِوَى مَلْذُوذِ وَجْدِى بِالعَذَابِ

وقال آخر :

إِذَا كَانَتِ الْأَقْدَارُ مِنْ مَالِك الْمُلْكِ
فَسِيَّانَ عِنْدِى مَايَسُرُّ وَمَا يُبْكِى

والحاصل : أن المحبة إذا قويت غيبت المحب عن الآلام وإلا فهى ناقصة ؛

ومنشأ المحبة شهود الكرم كما تقدم .

ومن وقف بباب كرم مولاه لايخيب أمله ومناه ، كما أبان ذلك فى المناجاة الموفية ثلاثين بقوله :

[إلهى كيف أخيب وأنت أملى] .

أى محل طمعى ورجائى ، والكريم لايخيب آمال الطامعين ، وهو أكرم الأكرمين .

[أم كيف أهان وعليك متكلى] وقد قلت فى كتابك العزيز :

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) .

أى كافيه ، ومن كنت كافيه وناصره لايهان أبدًا .

حكى أن بعض الأولياء ولدت له بنية فى آخر عمره وماتت أمها وحضرته الوفاة ، فقال له رجل أوصنى عليها أكفلها ، قال : لاولكن إذا أنا مت فاحملها إلى حرم الله ودعها فى الحجر وامض ودعها فى كفالة الله ، فلما مات فعل الرجل ذلك وصار يرقبها على بعد ، فرأتها أم الخليفة وهى تطوف فأمرت بحملها لها ، فتبنتها وربتها حتى بلغت وزوجتها لابن الوزير ، وأصدقتها عشرين ألف دينار ، فانظر حالَ من توكل على كفالة مولاه ، وآوى إلى حصن رعايته وحماه ، وأنشدوا :

أَيَحْسُنُ بِي فِي دَارِكُمْ وَنُزُولِكُمْ
أُوَجِّهُ يَوْمًا لِلْعِبَادِ رَجَائِيَا

يَحِقُّ لِمِثْلِي أَنْ يَعُودَ لِمِثْلِكُمْ
وَأَنْ أَتْرُكَنْ جَمْعَ الْعِبَادِ وَرَائِيَا

وحكى أن رجلا كانت له امرأة حاملة وأراد سفرًا فلما خرج لسفره قال : اللهم إنى أستودعك مافى بطن هذه المرأة ثم غاب ، فلما قدم من سفره سأل عنها ؟ فقيل له : إنها ماتت وهى حامل ، فلما كان الليل خرج إلى المقابر فرأى نورًا فتبعه ، فإذا هو فى قبرها فنبش عليها ، فإذا بالصبى يرضع فى ثديها فهتف

به هاتف : ياهذا إنك قد استودعتنا الولد فوجدته ، أما إنك لو استودعتنا أمه لوجدتهما جميعًا اهـ من التنوير ، فما ألطفه سبحانه بمن استرعاه وما أحفظه لمن دخل حماه .

اللهم اجعلنا ممن تحصن بك فكفيته ، وممن استرعاك فى تركته فرعيته ، ياأرحم الراحمين .

ولاشك أن من دخل تحت خفارة العزيز كان عزيزًا بالله ذليلا له . وإليه أشار فى المناجاة الحادية والثلاين بقوله :

[إلهى كيف أستعزّ وفى الذلة أركزتنى] .

أى كيف أستعز عليك وأنت فى ذل العبودية أركزتنى ؟ أى أقررتنى وأقمتنى .

[أم كيف لا أستعز وإليك نسبتنى] .

أى أم كيف لاأستعز فى قلبى وروحى وسرى وإليك نسبتنى لما أودعت فى قلبى من سر الخصوصية ونور المعرفة وقوة الحرية ، فقلت ياعبدى وياوليى ، ولاشك أن هذه النسبة توجب الافتخار على الوجود ، والتيه على كل موجود ، فذل العارف يرجع إلى ظاهره عبودية ، وعزه يرجع إلى باطنه حرية بما شهد من أنوار الربوبية ، وإليه أشار بعضهم بقوله :

نَحْنُ إنْ كُنَّا بِهِ تُهْنَا دَلَالًا عَلَى كل الْحَرَائِرِ وَالْعَبِيدِ
وَإنْ نَحْنُ رَجَعْنَا إلينا عَطَّلَ ذُلُّنَا ذُلَّ الْيَهُودِ

قال بعضهم : رأيت ذل كل ذى ذل فزاد ذلى على ذلهم ، ونظرت فى عز كل ذى عز فزاد عزى على عزهم اهـ .

وقال الشبلى رضى الله عنه : لقد ذللت حتى عز فى ذلتى كل ذى ذل ، وعززت حتى ماتعزز أحد إلا بى ومن به تعززت .

ثم إن الفقر أخو الذل ، ولذلك قرنه به فى المناجاة الثانية والثلاثين فقال :

[إلهى كيف لا أفتقر إليك وأنت الذى فى الفقر أقمتنى] .

لأن أنفاسى بيدك ، فأنا فقير إليك فى كل لحظة فى إيجادى وإمدادى . قال تعالى : (يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ) .

وهذا هو الفقر إلى نعمة الإيجاد ؛ ثم قال تعالى :

(إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)[1] .

وهذا هو الفقر إلى نعمة الإمداد .

[**أم كيف أفتقر إلى غيرك وأنت الذى بجودك أغنيتنى**] .

حيث كفيتنى ما أهمنى وتكفلت لى برزقى وما تقوم به بنيتى ، وأغنيتنى بمعرفتك حتى لا أحتاج إلى غيرك . وفى الحديث :

« لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ ، وَإِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ » .

أى الروح ؛ وغناها إنما يكون بربها .

[**أنت الذى لا إله غيرك تعرّفت لكل شىء**] .

بما أظهرت له من نور جلالك وجمالك ، فصار مسبحًا بحمدك وساجدًا لك .

[**فما جَهلك شىء**] .

فالكل عارف بك ومقر لك بالربوبية ، إما طوعًا ظاهرًا وباطنًا ؛ وإما باطنًا فقط لتظهر حكمتك .

[**وأنت الذى تعرّف إلى فى كل شىء**] .

من اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار .

[**فرأيتك ظاهرًا فى كل شىء**] .

بنورك الأزلى الذى أفنى وجود كل شىء .

[**فأنت الظاهر لكل شىء وأنت الباطن لكل شىء**] .

وفى الحديث : « اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَىءٌ ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ » .

وقد تقدمت أقسام الظهور مستوفاة فى أول الكتاب . وعبر هنا بعبارة لم تتقدم فقال :

---

(١) فاطر : ١٦ .

[يا من استوى برحمانيته على عرشه فصار العرش غيبًا فى رحمانيته ، كما صارت العوالم غيبًا فى عرشه] .

قلت : أشار إلى تفسير قوله تعالى : (الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)[1] وقوله تعالى : (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمٰنُ)[2] .

فذكر أن استواء الحق تعالى على العرش إنما هو برحمانيته ، فهو مغمور فى رحمانية الحق حتى صار غيبًا فى رحمانيته ، إذ لا نسبة له معها ، ورحمانية الحق تعالى وصف قائم بذاته ، والصفة لازمة للموصوف ، فإذا غاب العرش وانطوى وجوده فى رحمانية الحق غابت العوالم أيضًا فى رحمانيته ، لأنها غابت فى وجود العرش ، فلما انطوى وجود العرش فى عظمة الحق ورحمانيته انطوى وجود العوالم كلها ، لأنها فى جوف العرش كحلقة فى الأرض وهو محيط بها ، كما أحاطت الرحمانية بالعرش فلا نسبة له معها .

ثم فسر ذلك فقال :

[محقت الآثار بالآثار] .

فالآثار الأولى هى العوالم ، والآثار الثانية هى العرش ، فقد امتحقت الأكوان كلها فى عظمة العرش حتى صارت كالعدم .

[ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار] .

قلت : المراد بالأغيار هو العرش وما احتوى عليه من الآثار .

أو تقول : هو كل ما دخل عالم التكوين من العرش إلى الفرش ؛ أو ما فرض وجوده خارجًا عن العرش وأفلاك الأنوار : هى أنوار الذات والصفات ، فإذا امتحقت الأغيار وهى الآثار بأنوار عظمة الذات بقيت الأنوار ، وانفرد بالوجود الواحد القهار ، فأنوار الصفات هى أنوار الذات ، وأنوار الذات هى أنوار الصفات ، والله تعالى أعلم .

---

(١) طه : ٥.   (٢) الفرقان : ٥٩ .

أسباب الغفلة

[يا من احتجب فى سرادقات عزه عن أن تدركه الأبصار] :

قلت : السرادقات فى اللغة هى الأسوار المحيطة بالدار ، وهى هنا كناية عن الحجب القهرية ، وهى حجب العزة التى احتجب الحق تعالى بها عن عباده مع شدة ظهوره ، ومرجعها إلى دوائر الحس والوهم والغفلة والأكنَّة التى على القلوب ، وتنحصر فى خمسة أمور :

الأول : حب الدنيا الذى زرعه الحق تعالى بقهره فى قلوب الناس حتى انصرفت إليها الهمم ، وتاهت فيها العقول ، وتظلمت بصور خيالها القلوب ، واشتبكت فيها الفكر ، فلا تنصرف إلى غيرها ، وبهذا احتجب جل العباد إلا من عصم الله .

الثانى : ارتباط الأسباب مع مسبباتها ، والعوائد مع ما تعودت بها ، كتوقف أمر الرزق على حركة السبب ، والنبات على وجود الأمطار ، وغير ذلك من ارتباط الأسباب ، فظن الجهال أنها لا تنفك عن مسبباتها ، فحجبوا بها عن مسبب الأسباب ، والحكيم العليم يرزق من غير أسباب ، ويعطى بلا حساب ، وبهذا احتجب كثير من الناس فوقفوا مع الأسباب ؛ وحجبوا عن شهود رب الأرباب ، إلا من نفذت بصيرته من ذوى الألباب .

الثالث : الوقوف مع ظاهر الشريعة ترغيبًا وترهيبًا علمًا وعملاً . فقوم وقفوا مع الترغيب ، فانكبوا على العمل طلبًا للجزاء وهم العباد . وقوم وقفوا مع الترهيب ، فغلب عليهم الخوف وهم الزهاد . وقوم وقفوا مع ترغيب العلم ، فاشتغلوا بعلم الرسوم والحروف ، وتركوا علم اليقين والخشية والمعرفة وهم علماء الظاهر ، فحجبوا بالعلم عن المعلوم ، وهى معرفة الحى القيوم .

الرابع : الوقوف مع حلاوة الطاعات ولذيذ المناجاة ، وهى سموم قاتلة لمن وقف معها ، وهى لأهل المراقبة ، وبها احتجب كثير من العباد والزهاد ، وقد تظهر لهم خوارق وكرامات حسية فتزيدهم حجبًا عن الله .

الخامس : ظهور أثر القدرة على هذه التجليات ، واتصافها بأوصاف

العبودية . كالفقر والذل والجهل ، والمرض والموت ، وغير ذلك من أوصاف البشرية التى سترت سر الخصوصية ، وبهذا احتجب بعض المستشرفين على الفناء فى الذات ، فرجعوا من حيث جاءوا ، والله قاهر فوق عباده :

(وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)[1] .

فهذه سرادقات العز التى احتجب الحق تعالى بها ، فإن العزيز هو الذى لا يترقى إليه وهم طمعًا فى تقديره ، ولا يسمو إلى صمدانيته فهم قصدًا إلى تصويره . وقيل العزيز من ضلت العقول فى بحار عظمته ، وحارت الألباب فى إدراك نعمته ، وكلت الألسن عن استيفاء مدح جلاله . ووصف جماله . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لَا أُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » اهـ .

[**يا من تجلى بكمال بهائه**] أى حسنه وجماله .

[**فتحققت عظمته الأسرار**] .

أى أسرار العارفين ، فدام سرورهم وحبورهم إلى يوم الدين ، ثم تتصل نضرتهم بنظرتهم إلى رب العالمين ، وأنشدوا :

سُرُورِى بِكُمْ أَضْحَى يَجِلُّ عَنِ الْوَصْفِ
وَقُرْبِىَ مِنْكُمْ بِالْمَوَدَّة وَالْعَطْفِ

وَأَنْتُمْ مَعِى حَيْثُ اسْتَقَلَّ بِىَ الْهَوَى
فَلِى بِكُمْ شُغْلٌ عَنِ الدَّانِى وَالإِلْفِ

سُوَيْدَاءُ قَلْبِى أَصْبَحَتْ حَرَمًا لَكُمْ
تَطُوفُ بِهَا الأَسْرَارُ مِنْ عَالَمِ اللُّطْفِ

رَسَائِلُ مَا بَيْنَ الْمُحِبِّينَ أَصْبَحَتْ
تَجِلُّ عَنِ التَّعْرِيفِ وَالرَّسْمِ وَالْعُرْفِ

---

(١) سبأ : ١ .

رَسَـائِـلُ جَـاءَتْنَـا بِـرَيَّـا جَنَـابِكُمْ
عَـوَارِفُ عُرْفٍ فَـاقَ كُلَّ شَـذًا عَـرْفِ

[كيف تخفى] عن بصائر العارفين .

[وأنت الظاهر] وحدك لا ظاهر معك .

قال تعالى : (هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) .

فالحق هو الظاهر ، لكن لا تدركه أبصار المخلوقين ، ولا يرى الحادثُ القديم ، ولا يرى الحق إلا الحق ، فإذا فنى الخلق الحادث وبقى القديم ، رأى القديم القديم ، وعرف الحق الحق ، فما دمت لم يغطّ الحق تعالى وصفك بوصفه ونعتك بنعته ، لا تطمع فى شهوده ومعرفته مع شدة ظهور نوره .

[أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر] .

الذى لا يخفى عليه ولا يغيب عنه شىء ، وهو المحيط بكل شىء .

[والله الموفق] إلى سواء الطريق والموصل إلى عين التحقيق .

[وبه أستعين] .

فإنه القوى المعين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وصلى الله على سيدنا ومولانا (محمد) المصطفى الكريم ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا دائمًا إلى يوم الدين .

خاتمة

نجز ما قصدنا جمعه بحول الله وقوته ، فإن وافق الحق والصواب فالمنة لله العلى الكبير ، وإلا فالعبد محل الخطإ والتقصير ، ولا سيما مع الباع القاصر والعلم القصير .

وأقول كما قال الشيخ خليل : وأعتذر لذوى الألباب من القصير الواقع فى هذا الكتاب ، وأسأل بلسان التضرع والخشوع وخطاب التذلل والخضوع ، أن ينظر بعين الرضا والصواب ، فما كان من نقص كملوه ، وما كان من خطإ أصلحوه ، فقلما يخلص مصنف من الهفوات ، أو ينجو مؤلف من العثرات ، وكما قال ابن مالك فى التسهيل : أعاذنا الله من حاسد يسد باب الإنصاف ، ويصد عن جميل الأوصاف ، وألهمنا شكرًا يقتضى توالى الآلاء ، ويقضى بانقضاء اللأواء : أى الشدة ، وكما قال فى حرز الأمانى :

* فَيَا عَاطِرَ الأنْفَاسِ أَحْسِنْ تَأَوُّلاً *

وأنا أسأل الله تعالى أن ينفع به من كتبه أو طالعه ، أو حصل شيئًا منه أو سمعه ، أو عمل بما فيه ، وأن يكسوه جلباب القبول ، ويبلغ محصله كل مطلوب ومأمول ، بجاه خير الأنام مولانا (محمد) الشفيع المقبول ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وعترته وأحزابه ، أهل المحبة والوصول :

(وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وافق الفراغ من تبييضه عشية يوم الأربعاء ثامن جمادى الأولى سنة إحدى وعشرة ومائتين وألف ، وابتداء جمعه فى شهر محرم الحرام من ذلك العام ، وآخر دعوانا : (أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

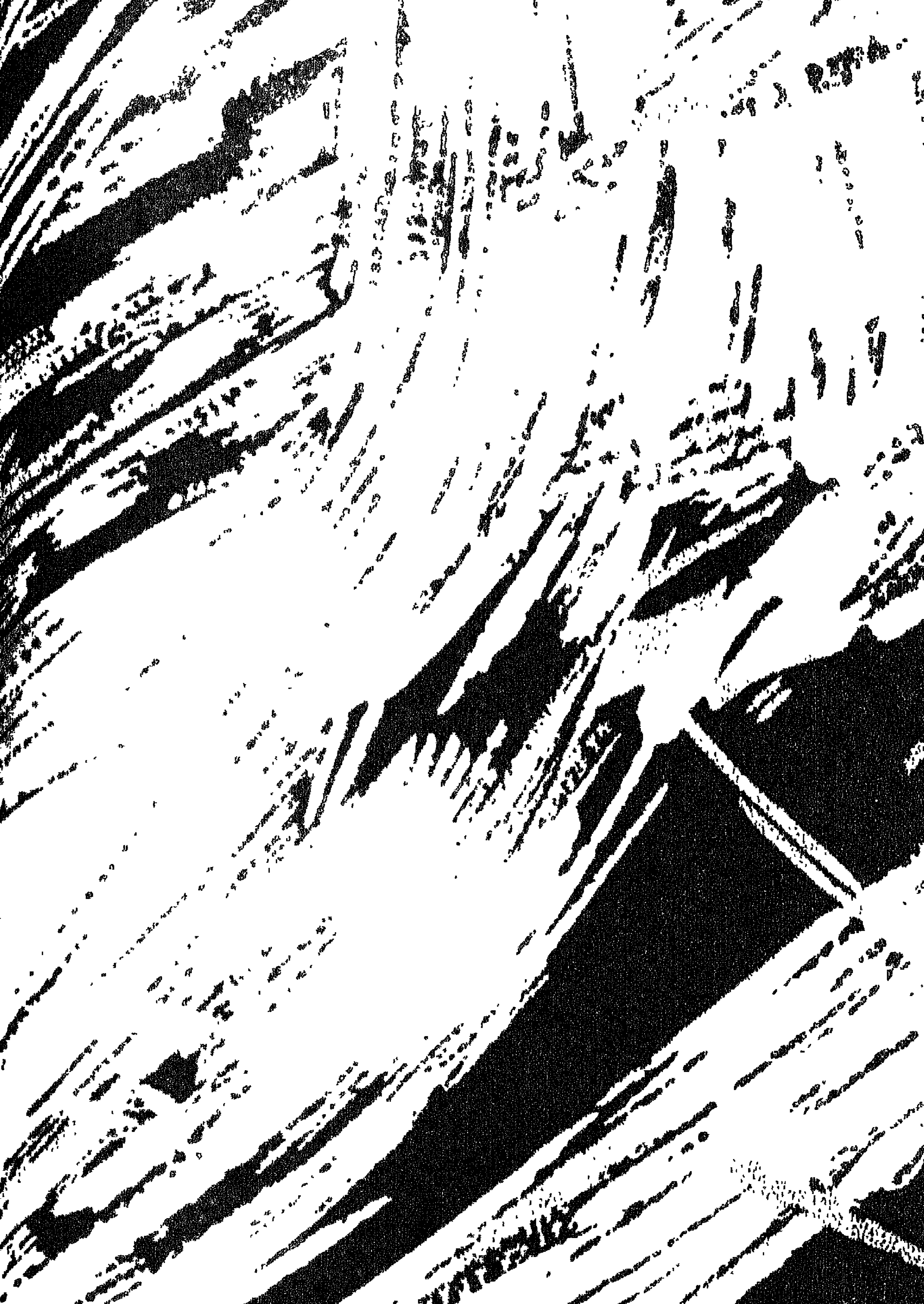
وصلى الله على سيدنا (محمد) خاتم النبيين ، وإمام المرسلين ، والحمد لله رب العالمين . اللهم صلِ على سيدنا (محمد) النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

الفهرس

رقم الإيداع		١٩٨٥ / ٥١٩٦
الترقيم الدولى	٢-١٤٥٨-٠٢-٩٧٧	ISBN

١ / ٨٤ / ٤٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)






Bibliotheca Alexandrina
0267364